فهرس الكتاب الموضوعي:

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف:

إلى روح والدي...

كـان أعظم أمانيك في أمـري -رحمة الله عليـك، و على والدتي، الـتي لم تكن تسـاهمك فقـط، بل تسـابقك فيما يرجى فيه رضى الله تعالى، حتى أني كنت أقنعتها قبلك، و أنا في ملتقى الشـباب و الصـبا، بـأن تـأذن لي، و تسـتأذنك في السـفر لأول مـرة إلى قيصـرية المشـتهرة بعلمائها بين مدن الأناضول-؛ كـان أعظم أمانيك أن أجتهد في طلب العلم، و أصـبح عالما من علمـاء الـدين، و كنت في رغبتك هذه أشد شرها من المنهومَيْن[1].

حتى أنك لما أتيت الإسـتانبول من بلـدنا توقـاد، و رأيتـني مدرسا في جامع السـلطان محمد الفـاتح -الـذي كـان في عهد الدولة العثمانية كالأزهر الشريف بالقـاهرة، و أفضل من الأزهر الحاضـر-، و أنا يومئذ في الثانية و العشـرين من عمري، قلتَ لبعض أصدقائك عـني: "اسـتأذنني لطلب العلم في الآستانة بعد القيصرية[2]، فما لبث أن حصل على شـهادة العالميـة، و تربع على كرسي التـدريس، و كـان الـواجب عنـدي أن يسـتمر في التعلم حـتى يبلغ الثلاثين على الأقل".

و قد كنت رحمك الله على حق في اسـتقلال مكتسـباتي العلمية، لكن اسـتعجال القـدر في أمـري، ظهـرت حكمته بعد أن عاينت ما كان ينتظرني من وقائع الحياة الهامة.

ثم كان ثاني ما لم يسـرك من مـوقفي يومئذ أني تـوليت وظيفة التـدريس بمـرتب من الحكومـة، و كـان هـذا على الـرغم من أنك لست بـذي ثـروة تكفلـني و أسـرتي المستقبلة.

و بالقياس على هـذا، لا أرتـاب في انك لو كنت حيـا، يـوم توليت منصب المشيخة الإسلامية في الدولة العثمانية، ما ازددت مكانة عندك، و حصولا على مرضاتك.

و لكنك لو رأيتـني و أنا أكـافح سياسة الظلم، و الهـدم، و الفسوق، و المروق، في مجلس النواب، و في الصحف، و المجلات؛ قبل عهد المشيخة، و النيابة، و بعدهما؛ و أدافع عن دين الأمة، و أخلاقها، و آدابها، و سائر مشخصـاتها، و أقضي ثلث قرن في حياة الكفاح، معانيا في خلاله ألـوان الشدائد و المصائب، و مغادرا المال و الـوطن مـرتين في سـبيل عـدم مغـادرة المبـادئ، مع اعتقـال فيما وقع بين الهجرتين؛ غير محس يوما بالندامة على ما ضحيت به في هـذه السـبيل من حظـوظ الـدنيا، و مرافقهـا؛ لأوليتـني إعجابك و رضاك.

و هذا الكتاب الذي وضعته في سـنواتي الأخـيرة، سـنوات التوقف في المهجر عن الجهاد السياسي، متفرغا للجهاد العلمي الـديني، و الـذي كتبت فيه ما يحتـاج المتعلم المسلم إلى معرفته من المسـائل العلميـة، و الفلسـفية، لتسـلم عقيدته الدينيـة، و تصـمد أمـام تيـارات الزيغ العصـري، و ناضـلت أشـتاتاً من أهل الأدب في الشـرق و الغرب، أحياءً و أمواتاً[3].

و قد تـوغلت في طريق الجهـاد حـتى جاهـدت مع الـذين ناضلتهم، عجمةَ قلمي عند الكتابة....

هذا الكتاب أرجو أن يكون مما يرضيك، و يتفق مع ما كنت تتوقع مني بعد طلب العلم، و أنا أحتسب في رضـاك هـذا رضى ربي سبحانه و تعالى[4]<1/3>؛ أما رضى الله مباشرة، فـذاك أجل و أسـمى من أن يكـون مبتغى مثلي، من أقل عباد الله بواسطة كتاب مثل كتابي من أقل الكتب.

****** ******* ******

ثم إلى الفئة القليلة الذين يرغبون في قراءة كتابي هذا، رغم ما تضـمنت قراءته من إتعـاب الفكـر، و شـغلٍ غـير قليلٍ من الوقت....

إلى الذين يرغبون في قراءته مهتمين به....

لا قائلين -بعد إجالة نظرات عـابرة فيما اتفق لأعينهم من صـفحاته- ما معنـاه: "ما لنا و للتثبت في العقيـدة الدينية الضائعة بين العقلية القديمة و الحديثة، المتـأثرة من تيـار الشـكوك الـتي أصـدرها الغـرب المسـيحي من ناحيـة، و اللاديني من ناحية، إلى شرقنا الإسلامي، كما يُصدر سائر بضـائعه، و كـان من طليعة هـذا النـوع من الصـادرات المتعلمون على النظـام الحـديث.... مالنا و للتثبت، الـذي يصل بنا هذا الكتاب إليـه، و يستأصل جـذور تلك الشـكوك في ادعاء مؤلفه؟ فهل فيه للفقـير ما يقوتـه، أو يكسـوه في دنيا المجاعة و العـري، و للعامل المجهـود ما يخفف عنه ثقل العمـل، و للمهمـوم ما يعلله و يسـليه؟ و بالاختصار: هل فيه ما ينفع الإنسان في هذه الدنيا الدنية، المرتدية برداء المدنية؟".

أقـول: إن بين الـدين و الـدنيا مسـألة العلم، لا يمكن أن يتخلى عنها متعلمو البلاد، كما لا يمكن أن تتخلى البلاد عن المتعلمين.

فهذه المسألة هي التي تكون رابطة بين الدين و الدنيا، و تمنع الـدنيويين أن يتخلـوا عن الـدين؛ لأن مرجعه إلى فلسفة ما بعد الطبيعة، الـتي هي الفلسـفة العاليـة، رغم المستخفين بها من فلاسفة الغرب، و المحاولين إخراجها من العلم، و حصرَ العلم فيما يستند إلى التجارب الحسية، و تبعهم معـالي هيكل باشا في مقدمة كتابـه: (حيـاة محمـد)، و الأسـتاذ فريد وجـدي بك على طـول (مجلة الأزهر).

و نحن سنثبت في غير موضع من كتابنا هذا -بعون الله، و توفيقه- أن العلم الـذي يسـتند إليه الـدين أفضل من علم الماديين.

و هنا نكتفي بـأن نقـول سـلفا: إن النفس الناطقة الـتي هي منـاط العلم، ليس<1/4> إلا أمـرا ميتافيزيقيـا، كـالعلم نفسه، يعجز الطبيعيون عن إدراك ماهيته.

<u>و لذا قال شاتوبريان: [إن الإنسان حيـوان ميتـافيزيقي]</u>؛ و فيه امتيازه على سائر الحيوانات....

و ناهيك في اتصـال الـدين الوثيق بـالعلم، قـول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:28].

قلنا: إن مسألة العلم تتوسط بين الـدين و الـدنيا، و تربط أحدهما بـالآخر، فيحتـاج إليها طـالب كل من الطـرفين، و إن كان كتابي هـذا يعـنى العلم من ناحية اتصـاله بالـدين، كما أنه -أي كتـابي- يُعـنى بناحية كـون الـدين حقيقة من الحقائق، مقطوع النظر عن نفعه في الدنيا و الآخرة...

و هذا كما قد يكون العلم مطلوبا لنفسه، من غير ملاحظة نقمه للدين أو الدنيا، فهو يستغنى بما فيه من لذة الـروح عن غاية أخرى، و يكون مدعو هذا القصد من العلم كثـيرا، و أصحابه أقل من القليل...

---

[1] "منهومان لا يشبعان، طالب علم، و طالب دنيا"؛ الحديث.

[2] أخـذت العلم في القيصـرية عن الشـيخ محمد أمين الـدوربكي الشـهير بداماد الحاج طرون أفنـدي، و قبلها في بلـدنا توقـاد عن تلميذ أسـتاذي في القيصرية الشـيخ أحمد أفنـدي زولبيـة، زاده إلى آخر التصـورات من شرح الشمسية للقطب الرازي، و أخذت في الآسـتانة عن محمد عـاطف بك الأستانبولي، و عن أحمد عاصم أفندي الكوملجنوي، الذي كـان وكيل الـدرس في المشـيخة الإسـلامية، و الـذي زوجـني بنته بعد أن تـوليت التدريس؛ فأولئك أساتذتي و شيوخي تغمدهم الله برحمته.

[3] و بعضهم كانوا أحياء في أثناء تأليف الكتاب، ثم ماتوا قبل نشره.

[4] "رضى الرب في رضى الوالد"؛ الحديث.

و إني قوي الأمل في أن كتابي يخدم مع أه لالدين هذه الطائفةَ القليلةَ الوجود من الراغبين في العلم.

فبقيت الطائفة المتعلمة، التي يكون مقصودها من طلب العلم الحصول على شهادة العلم، لا العلم نفسه؛ فإذا استفادوا بتلك الشهادة شيئا من الدنيا، كالمال، و الجاه، و الشهرة؛ كان ذلك شهادة على شهادتهم، التي تحتاج إلى شهادة....

بقيت هذه الطائفة، لا يعنيهم الدين، و لا صلته بالعلم، و لا مبلغ هذا العلم من القوة و الأهمية، و هم الذين يكونون على كثرتهم، و تجارتهم الرابحة، رمزا لفقر البلاد، و إفلاسها المعنويين.

<u>و لقائل أن يقول لي -و أنا مشغول البال بالمتعلمين، المتوقع منهم أن يكونوا قراء كتابي-: "إن للبلاد في هذه الآونة شغلا شاغلا، عن قراءة الكتب، مهما كان مبلغ أهميتها في الدين و العلم، و في فصل النزاع بينهما قِدما في الغرب، و حديثا في الشرق الإسلامي، منذ تفاني في تقليد الغرب... و هو شغلها بالسعي في الاستقلال، و التخلص من تحكم الدول الكبيرة الغالبة في الحرب الأولى، و الثانية العالميتين؛ فهي تسعى قبل كل شيء، و ترجيحا على كل شيء، أن تتخذ لها مكانا بين الدول سويا، تعيش في الدنيا، كما يعيش</u> <1/5> <u>غيرها في مأمن من التدخل و العدوان".</u>

و جوابي على هذا القول يحتاج إلى تبسط في البيان على الوجه الآتي:

يا إخواني في المشارق و المغارب، و يا أمم الدول الصغيرة قدما، أو بعد أن كانت دولة شامخة: إنا أضعنا الدنيا، و بقينا ألعوبة في أيدي ثلاث دول كبيرة من الكبائر؛ أولاها ثالثة الأثافي، و ثالثتها شر من أولاها؛ و قد سنحت لنا بأجمعنا أثناء الحرب العالمية الثانية -المنتهية انتهاءً لفظياً-؛ فرصة أقل ما كان في انتهازها، أن لا نقع في ندامة من جرب المجرب، و أن لا نتطفل على الغالب تطفلنا اليوم، فرصة فطن لها من فطن، فتقدم مثالا لغيره، يدعوهم إلى الواجب، و كان كزيادة فرصة على فرصة، و لكنهم خذلوه وضيعوه مع الفرصة؛ و هذه كلمة أحق أقولها، و لو كره المبطلون، لعلها تنفعني يوم ينفع الصادقين صدقهم.

أضعنا الدنيا، و أضعنا الفرصة، فأصبحنا ألعوبة في أيدي الدول الكبرى، اللائي فعلن ما فعلن في الحرب، و قتلن من قتلن فيها من ملايين البشر... و الآن و قد مضت على انتهاء الحرب ثلاث سنوات، لا يزال الموت -الذي فتحت الحرب أبوابه على مصراعيها- يأكل من سكان الأرض الباقين بعد الحرب، الصارخة صراخ النفخة الأولى المميتة من صور إسرافيل... يأكلهم بأنيابها الصامتة من الجوع، و العري، و التشريد..

مع أن هذا النع من الموت أعم و أشمل لغير المحاربين... فما ذنبهم يشتركون في تبعات الحرب التي لم يشتركوا فيها غالبين، و لا مغلوبين؟

و لم تقنع الدول المحاربة بإثارة هذا النوع من الموت على العالم في السلم بعد الحرب، بل ابتدعوا نوعاً آخر أدهى و أمر، و هو أنهم أسسوا مجمعاً مسمى بـ "هيئة الأمم"؛ دعوا إليها مندوبين من كل دولة صغيرة و كبير، ليحكموا فيها على من يشاءون من الأمم، بما يشاءون، ظلما و عدواناً، و يقسموا وبال الظلم و العدوان بين مجموع الهيأة، حتى جعلوا من حق هذه الهيأة و في وسعها، أن تنزع بلاداً من أهلها، و تمنحها قوما غيرهم، من غير <1/6> حرب؛ و لكن كزكاة الظفر للحرب العالمية الثانية المنتهية؛ و إن لم تكن صلة هذه الحرب بتلك البلاد، و لا بأهلها...

كما ترى هذه الحالة في فلسطين، التي تمنحها هيئة الأمم مشردي اليهود الأفقيين، لينشئوا فيها دولة... حتى إن أمريكا، و روسيا -الحليفتين ضد الألمان في الحرب، و ضد العرب بعد الحرب، و الجارّتين من ورائهما في هيئة الأمم كثيرا من الدول الصغيرة- لو اتفقتا على إنشاء دولة يهودية في ألمانيا، أو اليابان؛ كان له شيء من المناسبة و المعقولية؛ لكني أرى تلك الدول الصغيرة، التي انحازت إلى جانب الكبيرتين الظالمتين، في مسألة فلسطين، أحق إلى التعبير و التشهير من أمريكا و روسيا، و أحمق من هبنقة، في موقفها المؤيد لخصوم الدول العربية الظالمين[5]. <1/7>

و قد كان أجدر، و أجدى للدول الصغيرة، المضيعة للفرصة -التي أشرنا إليها من قبل-، أن يجمعن شملهن بعد الحرب على الأقل، فيعقدن فيما بين مجموعتين حلفا رائعا، و يصبحن بفضل عددهن الكثير، رغم ما في آحادهن من الصغر، قوة رابعة في خارج الدول الثلاث الكبرى الغالبة في الحرب.

أضعنا الدنيا، و خسرناها، فلا نخادع أنفسنا بالاعتماد على قوة المتسند العقلي، و سلاح المنطق؛ فهذا السلاح الذي كثيرا ما أدافع عنه في هذا الكتاب، إن كان يجدي كل أحد في إثبات الحق أمام الحاكم العدل، فلا يجدي أمام الحاكم بالقوة.

فلو سعينا لأن نتقوى نحن أيضا -و لا بد أن نسعى، و نجتهد في تعلم أسبابها-؛ فلا نتقوى بقدر ما تقوت الألمان، و تعلمت، و اجتهدت؛ و لو بلغنا مبلغها من في العلم، و الاجتهاد، و الاستعداد لما يكفينا ذلك في بلوغ الغلبة النهائية، كما لم يكف الألمان؛ و لو سبقناهم، و

---

[5] كلنا يعلم فتنة اليهود للسلطة على المسلمين، منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، بل من عهد النبي صلى الله عليه و سلم، إلى يومنا هذا، الذي يحاربون فيه العرب، لاغتصاب فلسطين من أيدي أهلها بقوة المهاجرين إليها من أبناء دينهم المشردين في مختلف بلاد العالم، لا سيما أوروبا المسيحية...

يحاربون اليوم، ليتملكوا فلسطين، و يختلقوا لهم فيها دولة، بعد أن كانوا بين سكان تلك البلاد قلة ضئيلة، في استطاعة الحاكمين فيها قرونا طويلة قبل الحروب الصليبية، و بعدها من العرب و الترك أن يطردوهم، أو يذيبوهم في أمتهم.

أما فتنة اليهود على النصارى فهي أعظم من فتنتهم على المسلمين، و أعمق؛ لإنها فتنة متعلقة بدينهم، لا من حيث أنهم حاربوا النصرانية، و حاربوا سيدنا المسيح نفسه أشد و أصرحَ من محاربة سيدنا محمد، حتى أنهم قتلوه فيما يعتقدون... بل من حيث أن ضررهم على الديانة المسيحية بعيد الأثر جداًّ... فلما قتل المسيح في عقيدة النصارى، ثم قام حيا، و رفع إلى السماء سبب ذلك عندهم التباسا بين ألوهية الله و بنوة المسيح، التباسا يفسد عقيدة النبوة و الألوهية معا؛ فأخذوا يعدون المسيح ابن الله، أو الله نفسه، و يعدون الواحد ثلاثة، و الثلاثة واحدا؛ و معناه أنهم جعلوا العقيدة النصرانية تجمع النقائض و السخافات.

يتجلى من هذا البيان مبلغ تأثير اليهود في إفساد ديانة المسيحية، بسبب تصديقهم بقتل المسيح عليه السلام.

و زاد في الفساد فساداً، و السخافة سخافةً، تضحية الله بنفسه في قتل المسيح، توصلا بها إلى العفو عن ذنوب البشر؛ و الله متعال عن أن يكون له مثل، ضلال المعتقدين له هذه التضحية -كما أن عقيدة الدين الأصلي المنزل من عند الله على سيدنا المسيح براء من هذه السخافات الطارئة على المسيحية، بعد رفعه إلى السماء، بأيدي المحرفين المسرفين في التحريف إسرافاً ليس وراءه إسراف- فيجعل الله من نفسه كبش الفداء، لمصلحة المذنبين من عباده؛ كأنه هو المذنب، و المذنبون هم العافون عن ذنبه، بدلا من ذنوبهم، و الله الذي يملك العفو عن الذنوب مات في عقيدة التضحية، فليس هناك من يتولى العفو عن المذنبين غير المذنبين أنفسهم، و ليس هناك من يحي الله الذي مات؛ فلو قلنا أن إحياء الله بعد موته، كان بيده، لم تكن التضحية تضحية.

و إني كنت قلت عن مسيحي أمريكا و رئيسهم تروما، الذين انحازوا في مسألة فلسطين إلى جانب اليهود، و جانبوا العرب و الحق؛ كنت قلت عنهم: إنهم أبعد الناس عن الغيرة الدينية، كبعدهم عن الغيرة على الحق و العدل؛ لولا أني وجدت لفعالهم هذا الذي لا يوجد له مثيل في السخافة، اللهم إلا ما في عقيدة المسيحيين من تضحية الله بنفسه للعفو عن المذنبين و المجرمين من البشر، الذين يدخل فيهم اليهود قتلة السميح المعدود ابن الله، أو الله نفسه؛ دخولا أولياًّ.

اكتشفنا سلاحا أمضى من القنبلة الذرية، فلا يمهلنا حكام الدنيا المتغلبون، لاستكمال تجاربه، كما لم يمهلوا الألمان، و كانت مزية الحفاء الناجحين في الحربين العظيمتين، مزيتُهم التي لا تبارى: أن كانوا سابقين غيرهم في التحكم على أمم الأرض، و الاستيلاء على القواعد سبقا زمانيا.

أضعنا الدنيا، مع قوتنا البعيدة التدارك اليوم، فلا نتقوع من بعدُ خيراً فيها، و لا نأمل من سباع الإنس الضواري إلاَّ و لا ذمَّةً <1/8>.

و مما يؤسف له، أن الدول الكبرى، الغالبة، التي وقعت البشرية بعد انتهاء الحرب بغلبتها تحت رحمتها، أرادت إشراك الصغريات في جنابتهم الحربية، المفسدة للحياة، المهلكة للحرث و النسل، الجاعلة الدنيا تضيق على أهلها بما رحبت؛ فحضتها -أي الصغريات- على إعلان الحرب على الألمان، و هم في حالة سكرات الموت، من الانهزام، و فيغير سعة الوقت، لأن تصل إليهم ضربة من المحاربين الجدد، و لو على آخر رمق من حياتهم.

فكان معنى إعلان هذه الحرب، اشتراكاً لآثام الغالبين، إن لم يكن اشتراكاً فعليا في الحرب، و بالاختصار حركةٌ غير شريفةٍ، طلبا لمرضاة الغالب، عله يتصدق على الدخيل من زكاة الفطر؛ و قد نال هذا الرجاء المبني على خدمة القوي ضد الضعيف ما يستحقه من الخيبة.

و كانت مصر طالبت الإنجليز، في غداة الحرب الكبيرة الأولى أيضا باستقلالها، مستندة في تلك المطالبة إلى مساعدتها في الحرب ضد الدولة العثمانية، التي كان مصر تابعة لها، و موقف الإنجليز منها موقف الغاصب؛ كما استندت في مطالبتها الثانية إلى مساعدتها ضد الألمان في الحرب الثانية، التي لا ناقة لها فيها و لا جمل[6]؛ سوى التمهيد للاشتراك في الغنيمة، بعد غلبة الإنجليز على الألمان، بفضل مساعدة مصر.

أما موقف مصر في مساعدتها الأولى للإنجليز، فكان عبارة من مطالبة الغاصب بثمن المساعدة.

و أعجب منه أنها رمتني لما هاجرت إليها رفضا لحكومة مصطفى كمال، الذي كان يُعد في ذلك الزمان عدو الإنجليز، و مكرهها على الجلاء من الآستانة؛ فكأنهم عابوني بمشايعة المغلوب، في معارضة الغالب، في حين أنهم لا عيب عليهم في مشايعة الإنجليز، الغالبة، و خذلان تركيا المغلوبة، و إن كانوا جد غالطين في توهم <1/9> الخصومة بين مصطفى كمال و الإنجليز؛ ثم في افتراضه غالباً عليها في تلك الخصومة؛ و جد ظالمين في رميي بدائهم و دائه.

عود على بدء.....

ضيعنا الدنياحين ضيعنا اللبن في الصيف؛ فمهمتنا اليوم أن نتمسك بديننا، و نكسب الآخرة؛ و هذا الكسب هو الذي لا يمكن الأقوياء الدنيويين من أعداء الدين أن يباورونا فيه، و الذي لا أدعوا نفسي و إخواتي المسلمين إليه بدافع القنوط من الفوز الدنيوي؛ فلو فزنا بالدنيا، كان ما أدعوا إليه أهم منها أيضا....

لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، قال ما معناه: "بلغت المنتهى في اكتساب الدنيا، فمهمتي اليوم كسب الآخرة!".

فهذا الكسب، هو الصفقة الرابحة، التي لا صفقة تعدلها، و التي تعوز الملوك؛ و إذا كان كسب الآخرة هو مهمة الناجح في كسب الدنيا، فلأن يكون مهمة الذين خسروها أولى.

ربما يوجد بين القراء المسلمين، لا سيما مسلمي هذا العصر، من يشق عليهم التسليم بضياع الدنيا، بل قد يوجد فيهم من لا ترضيهم الآخرة المجردة من الدنيا، مهما جل نعيم الآخرة، وضؤل بجانبه نعيم الدنيا الفانية....

و لي كلام معهم أيضا، و طريقة توصلهم إلى الجمع بين سعادة الدارين، التي لا يجانبه الإسلام؛ القائل بلسان نبيه ﷺ: «ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، و لا من ترك آخرته لدنياه؛ حتى يصيب منهما جميعا؛ فإن الدنيا بلاغ الآخرة»؛ و لسنا نحن بفاقدي الأمل في حالتنا الحاضرة كل الفقد، إن كنا رجالاً مستكملي العزم في تدارك ما فاتنا من كلا الأمرين.

و إني أعلنت إلى هنا كيف أضعنا الدنيا بتقصيرنا فيما كان يجب أن نعمل به على حسب ما حدث للدنيا من الأوضاع الجديدة؛ و لم أذكر شيئا عن تقصيرنا في الأزمنة الطويلة، المتقدمة على الأوضاع الأخيرة...

ذلك التقصير الذي استمر إلى الزمان الحاضر، و هيأ لنا خسارة الدنيا و الآخرة؛ و قد لفتُّ الأنظار هنا إلى الخسارة الأولى فقط، لما تجلت هي أمام كل عين <1/10> بصيرة، فأهبت بالمسلمين إلى الاحتفاظ ببقية ما في أيديهم من قوة الإسلام، صونا لهم من خسارة الدارين.

أما إذا أرادوا أن يكونوا أقوياء في الدين و الدنيا معا، و يُبعثوا إلى الحياة مرة ثانية قبل مبعث الآخرة، فطريق الوصول إلى هذه الغاية في موقفنا هذا -الذي لا أمل لنا، و لا قدرة على سباق الأمم الغالبة في الحربين المذكورتين- بالسلاح، هو التمسك بديننا، و أخذ القوة من قوته، حتى القوة الدينية، إلى حد أن نغلب الغالبين؛ لأن الإسلام أقوى الأديان، و أوفقها للعقل، الذي يغلب بفضله غُلاب الدنيا.

و القارئ يتبين هذه النقطة الأساسية من هذا الكتاب، و يتبين منه أيضا أن غلاب الدنيا في الحروب الأخيرة يحاربون الأمم بسلاح العقل؛ حتى إذا قام العقل يحارب دينهم الذي لا يتفق مع العقل، كسروا هذا السلاح، و استسلموا للدين، و لكن لا بد أن يكون هذا الدين الذي سبب قتل العقل و كسره، مكسورا أيضا، و على الأقل متّهماً بقتل العقل.

و مع هذا فالقوم أصحاب هذا الدين المكسور، و العقل المكسور، يقومون بعجائب الأعمال؛ و نحن السليمي العقل و الدين من اصطدام بعضهما ببعض بل المتقوي ديننا بعقلنا، و عقلنا بديننا عاجزون أمامهم؛ فإن كان الدين قوة و العقل قوة.

فلماذا لا نستفيد قوتين منهما سليمتين في حين أنهم يستفيدون من قوتهما مصطدمتين؟

و ماذا ينقصنا بالنسبة إليهم، حتى وقعنا في هذا العجز المقيم؟

و قد يقال: إنهم لا دين لهم، أو بالأصح لا دين لرجال الدولة، و السياسة، و العلم؛ الذين يقودونهم، و يسوقونهم؛ لا دين لهذه العناصر العقلية فيهم؛ حتى يقع الاصطدام بين دينهم و عقلهم؛ فيكون العقل في واد و الدين في واد، و تكون السلطة في غير جانب الدين؛ و هذا هو الشكل المعبر عنه بـ: "فصل الدين عن السياسة و الدولة"؛ و سيجيء بحثه منا في هذا الكتاب، مع نتيجة البحث القائلة بعدم جوازه في الإسلام؛ فهذ هذا سبب قوتهم، و تقدم بلادهم، كما يدعي المدعون أيضا <1/11>.

و جوابه: أن فصل الدين و إقصاءه عن السياسة أخذ يعمل به من زمان قسما في مصر، و تماما في تركيا

---

[6] كما خرج هذا التعبير أثناء الحرب من لسان شيخ الأزهر المراغي، و سبب اشمئزاز الإنجليز.

الجديـــدة، و لم يُر من تـــأثيره في تقـــدم المملكـــتين ما يستحق الذكر.

و إنما يُـرى أعظم تـأثير الفصل في إفسـاد الأخلاق، حيث لا يمكن ادعــــــاء بقــــــاء الأخلاق على نزاهتها في البلاد المقطوعة صلة حكومتها بالدين، كما لا يمكن ادعاء وجـود واسطة لصيانة الأخلاق من السقوط أفضل من الدين.

و لهذا أصبح التقدم المشـهود في بلاد الحضـارة الجديـدة مليئا بالفسق و الفجور، حتى أن اتساع الميدان للفسق و الفجور في تلك البلاد يعد من لوازم تقدمها؛ مسـلّمةً لحد لـزوم الإغمـاض عما تسـتتبعه تلك الحضـارة من فوضى الأخلاق، فنحن المتـأخرين نلام بالتقصـير في مهمتنـا، و نكـــون حريـــاًّ أن يعتبرنا المتقـــدمون دونهم في مرتبة الإنسـانية، و إلا فـالأمر بـالعكس، و نحن أسـعد منهم، و فوقهم.

و لا يقتصر حــال هــؤلاء الأمم المتقدمة المتحضــرة في القبح، على شيوع الفسق و الفجور في بلادهم، بل ينضم إلى مثـالبهم الداخلية اعتيـادهم الظلم و الغـدر على أهل البلاد، الـــتي تطــاولت أيـــديهم إليهـــا، ينغصـــون عليهم المعيشة و الحيـــاة في بلادهم، و يشـــاركونهم اجتنـــاء منافعهـا، محـرمين على أهل البلاد ما يحللونه لأنفسـهم من حقوق الإنسان، و متوسلين في كل ذلك بكل وسـائط من الجبر، و المكر، و الخديعة.

و نحن نسـمع الفينة بعد الفنية عن بعض الـواقفين على أخلاق الإنجليز شعبا، و أمة، لا حكومة؛ أنهم مخلصون في صداقة من يتصـادقون معهم من غـير بـني جلـدتهم، على الرغم من كون حكومتهم مع الأجانب أخـدع من الضـب، و أخبث من الثعلب، و أعيث من الـــذئب؛ و لكن رأيي أن لا يكـون أصـدق تمـثيلا و تعبـيرا عن الأمة من حكومتهـا، لا سيما إذا كانت حكومة برلمانية، مبنية على الانتخاب الحر؛ لأن الحكومة الإنجليزية إن لم تتعلم المكر من أمتها فمن أي حكومة تعلمتـــه، و لا حكومة أمكر منهـــا؟ اللهم إلا أن تكون تعلمته من الشيطان<1/12>.

و نحن لا نعـــترف بكـــون الأمم المتحضـــرة، الحاضـــرة، المتغلبة على الـــدنيا بغيا و عـــدواناً، بعد الحصـــول على أسـباب تلك الغلبة من الاكتشـافات العلميـة، و الأسـاليب المدبرة... لا نعترف بكونهم أعقل الأمم....

أما متدينوهم فلاصطدام عقولهم بـدينهم، و استسـلامهم لذلك الدين، و أمـا ملاحـدتهم فلقصـور عقـولهم عن فهم الدين الذي هو في طليعة الحقـائق العاليـة العقليـة، كمـا يتبين من هـذا الكتـاب؛ و لأن العقـول من صـاحب العقـل الراجح أن لا يكـون ظالمـا، ضـارا لأي واحـدٍ من بـني آدم؛ قال أحد ذوي العقول الكبيرة:

نَهَانِي عَقْلِي، فَلَا أَظْلِمُ؛	وَ عَزَّ مَكَانِي، فَلَا أُظْلَمُ

و على رواية "حلمي" في الـــبيت، بـــدلا من "عقلي"؛ فـالحلم أيضا بمعـنى العقـل، كما في قوله تعـالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا﴾[الطـور:32]؛ و يلـزم أن تكـون زيـادة العقل في الإنسان تتنافى مع الفسق، و الفجور أيضـا؛ و لذا قال الله تعـالى حكاية عن أهل جهنم: ﴿وَقَـالُوا لَـوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِـلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك:10]؛ فلا نسلم بكون أصحاب الحضارة الجديدة، الفاجرة، القابضين على زمام الدنيا أعقل الأمم.

نعم، لعقـولهم تقـدم في الماديـات، لا في المعنويـات؛ فلهم النصيب الأوفر من عقل ينفع صـاحبه في الـدنيا، و يستفيد منه شـرارا النـاس أكـثر من خيـارهم، و عقـولهم من جنس عقل الشـيطان، الـذي لما أمـره الله تعـالى مع الملائكة بالســجود لآدم، فســجدوا و أبى، زعم أنه أعقل من الملائكة، يدلل على إبائه قائلا: ﴿أَنَاْ خَيْـرٌ مِّنْـهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[الأعراف:12]؛ مع أن العقل السليم لا يتصور لأحد أن يجادل الله خالقه و خـالق عقلـه، فكـان ما اكتسبه الشـيطان من عقله هـذا الخـاطئ، الـذي حفظ شيئا، و غابت عنه أشـياء، أن أصـبح رجيمـا، ثم أذن له أن يكون من المنظرين إلى يوم الوقت المعلـوم، ليغـوي من بـني آدم من كـان لهم عقل مثل عقلـه، و غاية مكتسـبة مثل غايتـــه، كما أن غاية عقلاء الحضـــارة الجديـــدة أن يعيشوا و يموت غيرهم<1/13>.

هـذا حـال أهل الديانة في الغـرب المتحكم على الشـرق المســـلم، و مرجعه التوغل في الضـــلالات، و عقلاؤنا المثقفــون من المسـلمين الجـدد، يقتـدون بـالغرب، و يعتبرون هذا الاقتداء عماد النهضة و الثقافة لهم.

فخطتي في هذا الكتاب الذي يشرح كل هذه الضـلالات، و يعالجها، و يحل كل عقدة ارتباك في عقولنا بعقل الغـرب المسيحي، و الغـرب اللاديـني: خطة الانصـراف عن تقليد الغربـيين، الـذي دب دبيبـه، و هبت عاصـفته، ثم رست و رسخت في أدمغة كتابنا العصريين، و بعض علماء الدين.

فخطتي، و هي خطة النجاة للمسلم الجديد: ترك التقليـد، الذي كان قبل نشر هـذا الكتـاب خطة المسـلم الجديـد، و خطـــتي هـــذه ضد الخطة الـــتي أوصى بها الدونكيشـــوت الجديد -كما أســـماه سـيد قطب، في كتـــاب (هـــذه هي الأغلال)-؛ فهو لم ير التقليد الموجــود كافيـــا، فأوصـــانا بالتفـاني في تقليد أوربا الموجهة كل سـعيها للحيـاة في هذه الأرض، كالسائمة السمينة القويـة، الخالية من فكـرة التطلع إلى سماء الدين و الأخلاق؛ فـإن كـان قد يـرفعهم من الأرض ما يركبونه من الطـــائرات، و يقـــربهم إلى السـماء، فليس ذلك إلى الله تعـالى بأجنحة من الـدين، و فضـــيلة الأخلاق؛ و التطلع إلى الله على قـــول صـــاحب الكتاب، كفيل بإفساد الحياة!!

نترك التقليد في العقلية الدينيـة، و تقـدير صـلتها بـالعلم في معناه الصـحيح، فنملك اسـتقلالنا في العقيـدة، الـتي هي أسـاس الأعمـال الصـالحة، و الـتي اسـتقلالها يتقـدم على الاســتقلال السياسي للأمم الإســلامية، و المســلم المتعلم إنما يكون مسلما متعلما بالاستقلال في العقيـدة الدينية.

و لا يجوز للمسلم المتعلم تقليد غيره من المسـلمين في العقيدة، فما ظنك بتقليد غـير المسلمين؛ و هـذا الكتـاب يكفل لهذا المسلم المتعلم إن شاء الله بهـذا الاسـتقلال، و ليس ذلك من صعاب الأمور عليه، لا يكلفه شـيئا، سـوى اسـتعمال عقله بحرية غـير مقيـدة، بغر الدقة و الاهتمـام في فهم مباحثها.

فللمسلم قوتان؛ قوة من دينه، و قوة من عقله؛ و لا قوة لمن لا دين له من دينه<1/14>.

و المســـيحي في حـــرب مســـتمرة بين دينه و عقله المتعارضين، فينقص كل منهما من قوة الآخر، و لا يـدخل في قلب صـاحبه إلا مفتـوت العضـد، في حين أن قـوتي الدين و العقل سليمتان في قلب المسلم متحالفتـان؛ أما الذين يقلدون الغربيين في الشرق -متدينيهم و ملاحدتهم معا- فلهم قوة التقليد فقط.

و بعد اقتنـــاع المســـلمين المتعلمين بعقيـــدة الإســـلام، اقتناعـــاً يتفق مع العقل و العلم الصـــحيحين، يكونـــون مســـلمين حقيقيـــين، و يســـهل لهم الحصـــول على ما يحتاجون إليه أيضا من العمل بأحكام الشـريعة الإسـلامية، إذ العمل مبـني على العقيـدة، الـتي لا يتعب بها الإنسـان أصلا بعد استيقانها بعقله و فهمه، بل تكـون له منها قـوة ينشرح بها صدره، و يستعين على القيام بالناحية العلمية؛

التي ليست بسهلة في حد ذاتها سهولة الناحية الاعتقادية، لانطوائها على تكاليف و تضحيات.

و بانضمام العمل إلى العقيدة يحصل الكمال في الإسلام، و ينتفع المسلم العامل بدينه في الدنيا، قبل أن ينتفع به في الآخرة.

أما العقيدة المجردة من العمل فهي لا تجدي المسلم في دنياه غير إعانتها على العمل لو عمل، و تكون جدواها في آخرته، إنقاذه من عذاب الأبد، إن أمكنه الاحتفاظ بها طول عمره، سليمة من غير أن يعمل بمقتضاها، كما أن العمل من غير عقيدة، مستبعد غاية الاستبعاد، و عديم الفائدة بالمرة في آخرته.

و المسلمون في زماننا يتلاومون فيما بينهم بالتقصير في العمل، عازين إليه تأخرهم الشهود، مع أن تقصيرهم في العقيدة، التي لا تقبل التقصير أصلا، أشد من تقصيرهم في العمل، و هو داؤهم الذي أصيب به الكثرة الساحقة من مثقفيهم، فعاقهم عن الصلاة و الصيام، و عاق حكومتهم عن العمل بقانون الإسلام في بلاد معدودة من البلاد الإسلامية، استبدالاً به قانون فرنسا، أو غيرها[7]، أو تعديلا في قانون الإسلام، يتضمن الخروج <1/15> عليه باسم "التسهيل على الأمة"، أو "التوفيق بمصلحتها".

حتى أن الكثيرين يعجبهم فصل الدين عن الدولة، و حتى كان الشيخ الأكبر المراغي لا يعد الفقه من الدين، و لا التفسير في أحكامه تغييرا في الدين؛ و كان كل هذه المحاولات يتظاهر أصحابها بالخروج على الجمود في الإسلام، طلباً للسهولة و المصلحة، و التجديد في ناحية العمل؛ لكن الحقيقة أنهم خارجون على الإسلام نفسه، من ناحية العقيدة، أي ناحية الإيمان به، الذي هو أساس العمل بأحكامه، و لهذا سهل عليهم التغيير في أحكامه العملية، و لهذا أيضاً عُنِيت في هذا الكتاب بالناحية الاعتقادية، و صرفت كل جهدي في تثبيتها.

و إنما قلت إن محاولي التجديد في أحكام علم الفقه طلباً للسهولة و المصلحة العامة غير عاديّها من الدين، يريدون الخروج على الدين نفسه؛ لأنا نراهم قد يجترئون أيضا على تغيير و تجديد في عقائد الإسلام الثابتة بالكتاب و السنة؛ و مثاله: إنكارهم المعجزات الكونية للأنبياء.

فهل في ذلك أيضا تسهيل على المسلمين، و خدمة لمصلحتهم؟

أو في الاحتفاظ بالعقائد سالمة عن التغيير تشديدٌ عليهم، كأنهم أنفسهم يأتون بتلك المعجزات؟

و كأن في إنكارها، أو تأويلها بما يخرجها عن الإعجاز تخفيفاً و تسهيلاً على الله، الذي هو مظهرها على أيدي أنبيائه!!

و كأن الشيخ المنكر لرفع عيسى عليه السلام إلى السماء، المنصوص عليه في كتاب الله؛ و نزوله في آخر الزمان، المنصوص عليه في الأحاديث النبوية؛ يصَّعَّدُ بنفسه في السماء، فتخطفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق؛ لو اعترف بالرفع و النزول؛ فيضطر إلى تأويل القرآن برفع روحه، و رفضِ ستين حديثاً في نزوله، رواها ثلاثون صحابياً!!!

و هل المحاولون رد النبوات إلى العبقرية -لكون النبوة، و ما يلازمها من المعجزات خوارق، و التباس خوارق العادة عليهم بخوارق العقل المستحيلة- لا يدركون مبلغ خطورة الضلال في الاعتقاديات، معرضين عن درسها، و تمحيصها، إلى أن يتجلى لهم<1/16> الحق، و يمتاز من الباطل[8]؟

و هل الكسل في درس العقيدة الدينية، للطائفة القادرين على الدرس، و التنقيب، أو على الأخذ من القادرين؛ يقاس بالكسل، المتعلق بناحية العمل، المؤدي إلى التقصير في القيام بحقها؟

أم له مغزاه المنبئ عن عدم الإيمان بالدين، أو عدم التحرج من أن يكون إيمانهم خليطاً بالشكِّ؟

*************** *********** ***********

أما إذا عاد المسلمون إلى سيرتهم الأولى، و صاروا مسلمين حقيقيين، يتقدمهم خاصتهم المتعلمون في متانة الناحيتين؛ فيكونون خير مثال لعامتهم في إعمار المساجد بالعبادات، و المسارعة إلى الخيرات، و اجتناب المنكرات؛ و يكون الكل المجموع من خاصتهم و عامتهم خير نموذج لأمم العالم؛ في فضائلهم الخلقية، و مبادئهم الإنسانية، فتقصر المسافة بين أغنيائهم و فقرائهم، كما تذوب الفروق القومية في وحدتهم الإسلامية.

و قد أثبتنا في الباب الرابع من الكتاب أن الإسلام جنسية مستجمعة للوازم الجنسية، لا يدانيه في هذه الميزة أي دين.

فتحصل بين كل مسلم و مسلم من مجموعهم الذي يناهز ثلاثمائة مليون نسمة، شركة تضامن و تعادل، لا بفضل عربيهم على أعجميهم، و لا أبيضهم على أسودهم، إلا بالتقى؛ و لا يحب مسلم لأخيه المسلم إلا ما يحب لنفسه؛ تضامن أصدق، و أنزه، و أسمى مما في شركة الشيوعية العالمية الحديثة، و الماسونية القديمة؛ لكون الثانية من هذا التضامن كسب الآخرة، قبل كسب الدنيا، يُتمسك به على أنه واجب ديني، و كون الديمقراطية التي فيه أصح من الديمقراطيات القائمة على الدعايات و المخادعات<1/17>.

فالديمقراطية، التي هي وضع إلهي، تشعر بالمسئولية عند الله قبل الناس، و يتسع صدرها لصالح البشر جميعا، كما كان الله للجميع في المثل الفرنسي، و لا تعمل لحساب قومها على حساب أقوام أخرى...

لا بد أن تفوق الديمقراطيات الموضوعة بأيدي رجال سياسيين، و أن تخدم أكثر منها لخير البشر، و الفائدة التي تضمنت لحساب الفقراء، تصل إليهم مباشرة، و طوعا من الأغنياء، الذين جعل الله في أموالهم حقاً للسائل و المحروم....

تصل إليهم، و لا يبقى معظمها في أيدي السماسرة السياسيين، الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من الديمقراطية الشيوعية، و البلشفية، لإنقاذ الفقراء من أسر الأغنياء، فأصبحت النتيجة وقوع الفقراء و الأغنياء جميعا في أسر أولئك السماسرة.

و أصدق ناحية القول عن البلشفية التي ينساق إليها الفقراء، و أصحاب القلوب المتألمة بآلامهم في بلاد البلاشفة، أو بالأصح حال عامة الناس غير المديرين لتلك البلاد، لا تزال في ظلام دامس، لاسيما من ناحية الحرية، التي هي أعز ما يملكه الإنسان، فربما يتمكن غير البلشفي من الدخول في البلشفة، و لا يتمكن من الخروج عنها في ديارها....

---

[7] "دار الإسلام"، في عرف الفقهاء، تطلق على البلاد التي يحكم فيها بقوانين الإسلام، و يسمى خلافها دار الحرب.

[8] مما يدل على عظم خطورة الناحية الاعتقادية في الإسلام -التي هي الناحية العلمية- بالنسبة إلى الناحية العملية؛ مع كون الثانية أصعب من الأولى، أن شارب الخمر بالفعل، أو الزاني بالفعل، مثلا، لا يكفر ما دام يعد نفسه آثما فيما فعله؛ و يكفر من لم يزن، و لم يضرب الخمر فعلاً و لكن أباحهما.

أصدق ناحية القول عن البلشفة التي ينساقون إليها رغم خطرها، أنها دلت على إفلاس الديمقراطية القومية العقيمة، من حيث أنها لا تقبل الانضمام إلهيا من خارج القوم، لكونها مؤسسة على الفوارق العنصرية، لا على المبادئ الفكرية المباحة لكل من يعتنقها.

و لهذا ترى الديمقراطيين القوميين إذا أرادوا أن يتوسعوا، و يجعلوا لهم قوة مكتسبة فوق قوتهم الطبيعية، احتاجوا إلى اعتناق أحد المبادئ الفكرية، و المذاهب الاجتماعية، منقسمين إلى أحزاب؛ حتى أن الروابط الحزبية تتغلب على الرابطة القومية، فتُحدث الجدال و الخصام بين أفراد قوم واحد.

و كل هذا يدل على أن الإنسان<1/18> -من حيث أنه إنسان-، ينحاز إلى زملاء الفكر و الروح، و به يتحق معنى المدنية الخاصة بالإنسان.

فهذا الإنسان قد يقع في طريق البحث عن المبادئ الفكرية، و المذاهب الاجتماعية، قضاء لحاجته الروحية، و تقوياً بالزملاء المكتسَبينَ، الذين لا يحد لهم الحدود في الشيوعية.

فانسياق الناس إلى البلشفة، التي لها جاذبية المساواة، و إلغاء الطبقات، مع ما فيها من خطر الحد الشديد من الحرية، و الطغيان على الفضيلة و الأخلاق؛ عبارة عن الغلط في الاختيار من الديمقراطية، المبنية على مبادئ الفكر، و لو اختاروا الديمقراطية الإسلامية، لوجدوا فيها ما يبحثون عنه، من غير تورط في أي خطر.

فالمسلمون إن كانوا مقدرين حق التقدير أن دينهم أقوى الأديان في تأسيس رابطة بين العقل و عقيدته، و رابطة متينة أخرى بين طبقات المتدينين به... إن كانوا مقدرين قوة الروابط التي تجعلهم أقوى أمم الدنيا بغير سلاح؛ رأوا أن دينهم مستعد لأن يعلنوه بأقوالهم و أفعالهم، أفضل مبدأ و أصلحه لدعوة البشرية، إلى تحت رايته، ليكونوا إخوة متعاونين على البر و التقوى، لا على الإثم و العدوان، لا يدانيه مبدأ القومية الضيِّق، و لا مبدأ الشيوعية المنافق.

فكيف يكون الروس بفضل تمسكهم بمبدإ البلشفية -التي تأخذ قوتها الممتازة من فقراء العالم في كل أمة المنجذبين إليها، و ممن يرحمونهم من أصحاب القلوب- أقوى الأمم الحاضرة، و لا نكون نحن المسلمين أقوى منها، بفضل التمسك بالإسلام؟

فهل ميزة السوفييت في كون باطنها مخالفاً لظاهرها[9]؟

أم في<1/19> كونها تقضي حاجة الجسم فقط، إن صح أنها تقضيها؟

في حين أن الديمقراطية الإسلامية تقضي حاجة الروح أيضا.

أم في كونها -أي الديمقراطية السوفيتية- إباحية، مستهترة في مناسبات الرجا مع النساء؟

كما كانت المدنية الأوروبية قريبة منها في هذا الاستهتار، يحتضن الرجل من اشتهاها من النساء، الموافقات، فيراقصهن في المحافل، و الأندية، بين ظهراني أزواجهن، أو إخوانهن.

و هل عيب الإسلام في كونه غيوراً على أعراض النساء، يصونهن عن مظان الانزلاق؟

و إني أخاف أن يكون الأمر كذلك، في عصر العقول الخفيفة، و الوجوه الصفيقة؛ كان الإنسان في الماضي يحذر من أن يكون خليع العذار، فأصبحنا في زمان تمشي الفتيات في الشوارع خليعات الإزار، أو أشباه الخليعات؛ و كان يقال: "العينان تزنيان"، ثم رأينا توسع الزنا إلى الأيدي، و الأعضد، و الصدور، و الخصور؛ و كان يقال:

و كنت إذا أرسلت طرفك رائداً	لقلبك يوما، أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر	عليه، و لا عن بعضه أنت صابر

فأوشك من كثرة انضمام البعض إلى البعض، أن يكون الكل مقدورا عليه.

و مما يؤسف له، بل يُبكى؛ أن هذه الحالات الخليعة، أخذت تسري إلى المسلمين؛ بدلا من سراية ما في الإسلام من الإباء، و الاحتشام إلى غير المسلمين.

فإن كان ما يعوق المسلمين في عصرنا عن تدارك ما فاتهم من مجد الإسلام القديم، بالطريقة التي شرحناها... الاستسلام لتيار الشهوة الخليعة، و الاستهتار في الاختلاط الجنسي في المجتمعات و الخلوات؛ ذلك التيار الآتي إلى بلادنا مخترقا لسد الحياء الإسلامي، و ناقلا للغلبة الموعودة لسلاحنا في ميادين المجد إلى سلاح الشيطان، الذي ما أيس من بني آدم إلا أتاهم من قبل النساء؛ كما في الحديث النبوي<1/20>.

إذا كان الأمر كذلك؛ فحلال لنا التأخر في قوافل الحياة أبد الآبدين، و الله لا يهدي القوم الفاسقين.

على أن التمسك بالإسلام، و تأييد المتمسكين به، المحافظين على آدابه، و شعائره واجب الأمم الإسلامية؛ لا لاكتساب الغلبة في مضمار الحياة العالمية؛ بل للدفاع أيضا عما بقي لهم في حالتهم الحاضرة من الوجود، و استقلال الوجود، و لو في قافلة المتأخرين؛ و هذه البقية تدوم ما تدوم، بفضل وجود المتمسكين بالإسلام حيال ضغط الطبقات المالية الظالمة، المؤدي إلى انفجار مظلوميها، ثم وقوع الظالم و المظلوم في هاوية الشيوعية و البلشفية.

فالإسلام، لاسيما إسلام الطبقات الفقيرة، هو الحاجز الحصين اليوم دون خطر الوقوع فيهما.

فلو كانت الطبقات الغنية أيضا مسلمين حقيقيين، لزال الخطر تماماً، و حصل الظفر.

أما الثقافة المجردة عن الدين، و اتخاذها سلاحاً لدرءِ الخطر؛ فحاملوها إذا استغنوا يخوضون في الفسق و الفجور، و إذا افتقروا، أصبحوا دعاة الخطر بعينه.

و إني أدعو علماء الدين إلى أن يكونوا رسل هذه الديمقراطية الإسلامية، فيقوموا بالسعي البليغ لترغيب المسلمين في تعديل ما بينهم من الفروق الشاسعة الاجتماعية، التي تجعل لأصحاب الطبقات السفلى حياة كحياة الاحتضار المقيم، و تكون خطراً على أصحاب الطبقات العليا، مستعداً للانفجار في كل يوم و ليلة... و التي تنتصب منظراً فظيعاً، و سداً منيعاً لاستقرار الأخوة المطلوبة بين المسلمين، لاسيما في هذا العصر الأخير، المليء بالفتن و التسويلات.

---

[9] فقد نقل الأستاذ التابعي، في (أخبار اليوم) عن أمريكي سماه "ر. ا. ت"، قضى سنوات في موسكو قبل الحرب، و أثناء الحرب، لا يذكر أنه رأى في أحد شوارعها واحدا يبتسم، و أن الجميع يسيرون، و كأن حملا ثقيلاً من الهموم يركب رؤوسهم و أكتافهم.

و من أدلة كون الروس السوفييت لا يتفق باطنها مع ظاهرها... من أدلته الواضحة، المفضحة؛ وقوف هذه الدولة في مسألة فلسطين، التي ينازع فيها اليهود العرب، بجانب اليهود، و مسابقتها الدولة الأمريكية في الاعتراف بدولتهم المزعومة، التي لو تأسست -لا قدر الله-، كانت أحق بوصف الرأسمالية من أي دولة أخرى...

فأين يبقى إذن ما هو المعروف من أن أول مبادئ البلاشفة الشيوعيين عداوة الدول الرأسمالية؟

فإن قام علماء الدين بهذا الإصلاح الاجتماعي، الذي نرى البلاد الإسلامية في حاجة إليه لاسيما مصر... أسدوا أعظم خدمة للفقراء، و الأغنياء، بل الدين نفسه أيضا، الذي واجبهم الخاص حراسته، و إعلاء شأنه.

لأن معظم أهل الطبقات الدنيا، الذين هم الكثرة في الأمم، و الذين تروقهم الشيوعية الزمنية؛ يزعمون ما لا طاقة باحتماله في هذا الزمن؛ من دوام سلطة القادرين على العاجزين، و دوام طاعة الآخرين للأولين، قائما على الدين<1/21>؛ لكونه آمراً بطاعة أولي الأمر، و المحافظة على الأمن، و الأسرة، و الملكية، و ناهياً عن الفتنة، و الثورة؛ حتى يقال إن الدين هو أعظم ضمان للبلاد يصونها من الشيوعية و البلشفية.

و نحن نقول: إن هذا من عظيم فضل الدين على البلاد، لكن معناه من ناحية أخرى ينم على كون الدين حمي الطبقات العليا من ثورة الكثرة المظلومة، فيعمل على إدامة سلطة القلة عليهم، و يظلمهم مع الظالمين، المتغافلين عن حقوق الفقراء على الأغنياء.

فيجب على علماء الإسلام رفع التهمة عن الدين، تهمة كون الأغنياء يحافظون على طبقتهم الممتازة في ظل حماية الدين، مع حرمان الفقراء عن هذه الحماية، محكومين على الصبر، و السكون، و ممنوعين عن التوصل بالقوة إلى حقوقهم المضيعة...

و هذا التفريق بالنفع و الضرر، على الرغم من أن الدين إن كان باقياً في هذا الزمان، فعند غير الطبقات العليا.

يجب على العلماء رفع التهمة عن الدين، تهمة الظلم على الفقراء، و على نفسه في خذلان أنصاره، و نصر غير الناصرين لأنصاره...

بأن يسدوا النصح المتواصل إلى المترفين، و يقولوا: الإسلام الذي يصونكم من الثورة، جعل في أموالكم حقاً للفقراء، إن لم تؤدوه عن طيب نفس، و تَدَعوهم في بأسائهم، فلا يحتملها الزمان إن احتملوها؛ و إن كانت نتيجة عدم الاحتمال خسارة الثائرين مع المثور عليهم، و انتفاع غيرهما من تجار المبادئ العصرية الهدامة الماهرين...

ثم يرفعوا العقيرة، لإيقاظ المترفين من نومهم المقيم على شفا جرف خطر، يدهمهم في الدنيا قبل الآخرة؛ من قِبَل مواطنيهم، الذين يبيتون في ظلامين من الجهل و الليل، و يظلون على جمرتين من حرارة الشمس، و حمَّى الأمراض؛ يلبسون الأسمال، و يشربون الأوحال، التي لا يسوغ شربها لذة أو طباً<1/22>.

*********** *********** **********

و في آخر كلمتي إلى القراء الكرام؛ ألخص ما بعثني على تأليف هذا الكتاب، مما رأيته في مصر، التي آوتني، بعد مغادرة بلادي، فأصبحت بدلا منها يعنيني ما يعنيها، من خير أو شر، و يتحتم عليَّ أن أخدمها بما يتوقع من مثلي شيخاً من مشايخ الإسلام، حنكه الزمان، و لم يفُتّ في عضده ما لقيه من الشدائد في سبيل المصارحة بكلمات الحق و الصدق -التي تكون على الأكثر مرة-؛ مع التنقيب في درس مسائل العلوم، المتعلقة بحياة الإسلام العلمية النافعة في صيانتها من تيار الإلحاد الحديث.

فأقول: إن دولة الترك المسلمة، التي دفاعها بسيفها عن حياض الإسلام ضد أعدائه يستغرق الثلثين من تاريخه، و تندرج في ذلك -عند التحقيق- أدوار الحروب الصليبية، الموجهة إلى البلاد الإسلامية، و المنتهية بالنسبة إلى تلك الأدوار في ردها على أعقابها....

هذه الدولة كان آخر سلاح حاربتها به الدول الوارثة، لضغائن تلك الحروب، نشرَ الإلحاد القائم على العلوم و المبادئ المادية بين أبنائها المثقفين، و نشر المبادئ القومية بين العناصر المندرجة تحت لوائها.

و قد وجد أول هذين السلاحين عوناً للأعداء في قلب تركيا، فكان استعماله كفتح الحصن من داخله، كما وجد السلاح الثاني رواجاً عظيماً في أطراف تركيا؛ و كفى السلاحان في القضاء على الدولة الترك المسلمة، المجاهدة[10].

و كنت -لما كنت في بلادي- كافحت هذين السلاحين على طول فترة انتقال الحكم فيها إلى أيدي الملاحدة، و كان ظني عند مغادرة تركيا مهاجراً إلى بلاد العرب التي جاء نور الإسلام إلينا منها، إني أستريح من مجاهدة الملاحدة؛ لكني وجدت الجو الثقافي بمصر أيضا مسموماً من تيار الغرب، فشق هذا على نفسي، أكثر مما شق عليَّ موقف تركيا الجديدة من ذلك التيار؛ كما شق وقوفي على أن إخواني العرب يفضلون تركيا هذه على تركيا القديمة المسلمة؛ فرأيتهم توغلوا في تقليد الغرب، و سابقوا الترك في الافتتان به؛ و الانقلاب الثائر في تركيا حصل عندهم في شكل هادئ، و من طريق التأثير و التجديد في الأزهر.

فترى مجدده الشيخ محمد عبده، الذي ناظره الأستاذ فرح أنطون، منشئ <u>(مجلة الجامعة)، و قال في مناظرته: [إن الدين يخالف العقل و العلم، لأنه الإيمان بخالق غير منظور، و آخرة غير منظورة، و وحي، و نبوةٍ، و معجزةٍ، و بعثٍ، و حشرٍ، و حسابٍ، و ثوابٍ، و عقابٍ؛ و كلها غير محسوسةٍ، و لاً معقولةٍ؛ و أن العدو الحقيقيَّ للأديانِ في هذا الزمانِ لم يعد منها، بل صار خارجاً عنها؛ فهو عدو جديد أخرجه التمدّنُ الجديد.....].</u>

هذا الشيخ الذي ناقش ذلك الأستاذ في الماضي البعيد، تراه في الماضي القريب يؤلف الأستاذ محمد صبيح كتاباً مسمىً باسمه، و يضع في غلاف الكتاب لوحة تصورُ إيفل الباريسية، مع مآذن الجامع الأزهر، تقتبس رؤوس الثانية ضياءً من رأس الأولى؛ و يحكي المؤلف في كتابه بكل إعجابٍ، كيف قضى الشيخ على علماء الأزهر القدماء، و علومهم، و كتبهم؛ كما سيجيءُ تفصيله في كتابنا هذا.

و كما ترى الأستاذ فريد وجدي بك، الذي ناقش الشيخ التفتازاني المرحومَ، دفاعاً</1> عن الانقلاب الكمالي اللاديني في تركيا؛ <u>و قال: [فنحن الذين شهدنا هذه الآية الاجتماعية يحرم علينا أن نصغر من شأنها، أو نمر بها</u>

---

[10] و هذا السلطان عبد الحميد، آخر من تولى السلطنة العثمانية، بمعنى الكلمة، و حكم مدة ثلث قرن على البلاد الواسعة، التي من ضمنها الأقطار العربية، إلى أن خلع في ثورة دبرها حزب الاتحاد و الترقّي؛ و تفرقت تلك البلاد بعده أيدي سبأ، في حروب متعاقبة...

هذا السلطان، كان سداً منيعاً، لنزول المهاجرين اليهود إلى فلسطين، و كان من المصادفات التي لها مغزى، أن بلغ السلطان قرار البرلمان على خلعه، قره صو، اليهودي، نائب سلانيك، الذي اختارته لهذه المهمة الهيأة الممتازة لها من طرف البرلمان، المؤلفة من خمسة رجال من الشيوخ و النواب المختلفي الدين و العنصر...

و الذي سبق له الحصول قبل إعلان الدستور في تركيا على مقابلة السلطان، مندوبا من اليهود الصهيونيين، فاتجه فيها رجاءهم المتعلق بمسألة الهجرة إلى فلسطين مع تقديم هدية موعودة، قدرها خمسون مليوناً من الجنيهات الذهب لخزينة الدولة، و خمسة ملايين منها لخزينة السلطان الخاصة، على تقدير قبول المسئول؛ فلقي رجاؤه رداً عنيفاً من السلطان، مقروناً بإخراجه من حضوره في سخط و احتقار...

فهل يعرف إخواننا هذه المواقف السابقة لفلسطين في الماضي القريب، و يقارنونها بالحالات الحاضرة؟

[هؤلاء الأربعة هم آخر الخلفاء العثمانيين: عبد الحميد الثاني (1293-1327هـ/1876-1909م)؛ ثم محمد الخامس رشاد (1327-1336هـ/1909-1918م)؛ ثم محمد السادس وحيد الدين (1336-1342هـ/1918-1922م)؛ ثم عبد المجيد الثاني (1341-1342هـ/1922-1924م)].

غير مكترثني؛ فإننا سنمر في كل الأدوار التي مر بها الأتراك، متى جاء دورنا في نهوض حقيقيٍّ صحيح؛ فإن لم نتعلم مما دخل فيه الأتراك درساً، فلا أقل من أن نعجب به من المعجبين].

و ناقشني هذا الأستاذ بعد سنتين، منكراً لمعجزات الأنبياء، و مضيفاً إليهِ عند النقاش إنكار البعث بعد الموت.

و قال: [.... ولد العلم الحديث، و ما زال يجاهد القوى، التي كانت تساوره، فتغلب عليها، و دالت الدولة إليه في الأرض، فنظر نظرة في الأديان، و سرى عليه أسلوبه، فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير)؛ ثم أخذ يبحث في اشتقاق بعضها عن بعض، و اتصال أساطيرها بعضها ببعض، فجعل من ذلك مجموعة تقرأ، لا لتقدس تقديساً؛ و لكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد لها الإنسان نفسه، و يقف على صيانتها جهودهُ غير مدخر في سبيلها روحه و ماله.

و قد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة، فأخذ يرتشف من مناهله العلمية، و يقتبس من مدنيته المادية، فوقف فيما وقف على هذه الميتولوجيا، و وجد دينه ماثلاً فيها، فلم ينبس بكلمة؛ لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله، و لكنه استبطن الإلحاد، متيقناً أنه مصير إخوانه كافةً، متى وصلوا إلى درجته العلمية.

و قد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب، و شعراءُ، وقفوا على هذه البحوث العلمية، فسحرتهم، فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دساًّ في مقالاتهم، و قصائدهم، غير مصارحين بها غير أمثالهم؛ تفادياً من أن يقاطَعوا، أو ينفوا من الأرض].

فيفهم من هذا، و ما يأتي؛ أن الدين في مصر مع ما فيها من الجامع الأزهر، و غيره من المعالم، و المعاهد القديمة، في حالتها الراهنة؛ و مع كون دستورها الجديد لا يزال ناطقاً بدين الدولة.... لفي حالةٍ عجيبةٍ؛ لا من ناحية العمل بأحكام الشريعة الإسلامية<1/25> و قوانينها فحسب؛ بل و من ناحية الاعتقاد، و الاعتراف بأصول الدين الملخصة في الإيمان بالله، و رسله، و اليوم الآخر.

فمعجزات الأنبياء المعدودة من الخوارق، التي تستند إليها نبواتهم غير معترف بها عند المبرزين من العلماء، الذين اتخذتهم مصر الحديثة أئمةً في الدينِ؛ مثل الشيخ محمد عبده، و الشيخ رشيد رضا، و الشيخ الأكبر المراغي؛ و اقتدى بهم الكتاب من كبار المؤلفين؛ مثل: الدكتور هيكل باشا، و الأستاذ فريد وجدي بك الذي يعدُّ آيات المعجزات، بل آيات البعث بعد الموت أيضا من المتشابهات، غير المحكمات...

إلى صغارهم، مثل: الدكتور توفيق الطويل، القائل في كتابه (التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام) ص 27: [رأى ابن خلدون يخالف الاتجاه الحديث، الذي ينكر الكرامات، و خوارق العادات، و يؤول المعجزات، بحيث تبدو متفقة مع منطق العقل، متمشية مع سنة الكون، مسايرة لطبيعة الأشياء].

مع أن المعجزة المؤولة بما يتمشّى مع سنة الكون، لا تعود معجزة؛ فتأويلها به، و اعتبارها بدون تأويلٍ، غير متفقة مع منطق العقل، يرجع إلى إنكارها.

ثم إن نبوات الأنبياء تنهار بانهيار المعجزات، لاشتراكهما في علة المخالفة لسنة الكون؛ و لذا جاء تعريف الشيخ محمد عبده بالنبي -كما يأتي نصه في الباب الثالث من هذا الكتاب- خالياً من خصائص النبوة المعروفة، مثل الوحي، و الملك المرسل، و الكتاب المنزل، و المعجزة؛ و النبوة المنهارة تتحول في لسان الاتجاه الحديث إلى العبقرية، فيعتبر أنها ما خسرت من ميزتها!

فهذه حالة مصر الحاضرة -المستورة، المكشوفة- في عدم الاعتراف بوجود الأنبياء.

أما عدم الاعتراف بوجود الله، فله علاماتٌ:

أبرزها: تصريح الأستاذ فريد وجدي بك كما سبق نصه -و سيتكرر ذكره في هذا الكتاب عند مناسبات كثيرة-؛ بأن في<1/26> الشرق الإسلامي نوابغ من الكتاب، و الشعراء، اتصلوا بالغرب، و علومه، فرأوا دينهم مقذوفا به مع سائر الأديان إلى عالم الأساطير، فلم ينبسوا بكلمة، لأن الأمر أكبر من أن يحاولوه، و لكنهم استبطنوا الإلحاد، متيقنين أنه مصير إخوانهم كافة متى وصلوا إلى درجتهم العلمية، و هم اليوم مشتغلون بتهيئة الأذهان إلى قبول ما استبطنوه دساًّ في مقالاتهم و قصائدهم، غير مصارحين به غير أمثالهم.

و الأستاذ نفسه منهم، و في طليعتهم، و إن كان لا ينسى تفريقه منهم، بطريقة يتسع لها قانون الدس، حسبك ما ينادى به دستوراً علمياً، يردده دائماً في مجلة الأزهر، التي يديرها، و يرأس تحريرها منذ بضع عشرة سنة: من أن العلم لا يعتد بمعقول لا يؤيده محسوسٌ، كخالق غير منظورٍ، و آخرة غير منظورةٍ، و نبوءة غير منظورة، و وحيٍ، و معجزةٍ، و بعثٍ، و حشرٍ، و حسابٍ، و ثوابٍ في الجنةِ، و عذابٍ في النارٍ؛ و كلّها -مما عده الأستاذ فرح أنطون منشىء (مجلة الجامعة)، عند مناظرة الشيخ محمد عبده، و انطبق عليه دستور الأستاذ فريد وجدي بك العلمي- غير منظورةٍ و لا معقولةٍ.

و حسبك أيضاً تعليل الأستاذ رئيس تحرير (مجلة الأزهر) قارئيه، بما ينتظره من الغربيين المشتغلين بالبحوث النفسية، أنهم سيكتشفون وجود الله فيما يكتشفون.

و الجمهور من القراء يسرّون بهذه المواعيد، و لا يفطنون لما دس فيها الكاتب النابغة من أن وجود الله لم يثبت إلى الآن بالطريقة التي تقنع العلم توفيقاً لدستوره المذكور آنفاً.

و ترى دعاية الأستاذ، دعاية -و يا للأسف- ضد الديانة، تتخطى من فوق منبر الأزهر، إلى ساحة الأدب.

فيكتب مقالة في (مجلة الرسالة)، بعنوان: "الدين في معترك الشكوك"؛ و المجلة تضعها في صدرها، يعلن فيها الكاتب أن الدين قضى عليه قضاءً لا يرجى له البعث، إلا من طريق استحضار الأرواح؛ و هو أن الدين إن كان يعيش الآن فإنما يعيش في قلوب السذج من العامة، فلا يحرك هذا الإعلان الذي ينعى الدين، و يتضمن أشنع دعاية ضده، ساكناً في مصر بين أوساط المتعلمين.

و كيف<1/27> يحرك، و الناعي مندوب الأزهر، و ممثله في عالم الصحافة؟

فيا خسارة البلاد التي تسعى للتخلص من استعمار الإنجليز، و أفظع الاستعمار الغربي الذي أفسد الدين و الأخلاق -و لا شك في مجيء هذا الفساد مع الإنجليز- مخيم في عقول مثقفيها!

و هل كان يخطر بالبال، أن يكون هؤلاء المثقفون -و معهم سادة الأزهر-، ينكرون معجزات الأنبياء، إلا معجزة القرآن لنبينا محمد ﷺ، على أن يكون إعجازه أيضاً غير مفهومٍ منذ أزمنة طويلةٍ خلت؟

كما صرَّح به الأستاذ الأكبر المراغي، في مقالة نشرها في الفترة المتخللة بين مشيخته الأولى و الثانية على صفحات (السياسة الأسبوعية)، و (الأهرام).

و قال فيها: [و قد انقضى عهد الذين أدركوا الإعجاز من طريق الذوق، و آمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك، و نحن الآن نقيم على الإعجاز أدلة عقلية، و نقول إنه تحدى العرب، و أنهم عجزوا، و هذا يدل على أنه من عند الله].

فيرد عليه؛ أولا: لماذا لا يعترف هذا الشيخ بإعجاز القرآن حالاً، و بنفوذه في نفسه، و هو شيخ أكبر المعاقل الدينية و العربية، الذي يستوجب أن يكون فهم للعربية و للقرآن أكثر من غيره؟

لماذا لا يعترف بإعجازه حالا، فيحيله على الماضي؟

فهل هو الذي أعجز العرب القدماء، لا يعجز العرب الحاضرين؟

و يرد عليه ثانيا: أن مسألة إعجاز القرآن على هذا لا تقوم على أدلة عقلية أيضا؛ و إنما تنقلب مسألة تاريخية، و تقدر قوة ثبوتها بقدر قوة ثبوت المسائل التاريخية؛ و مثلها مسألة معجزات الأنبياء مطلقاً؛ فلماذا إذن يعترف بمعجزة القرآن، و لا يعترف بغيرها من المعجزات؟

و لا محل لاستضعاف التاريخ في تلك المعجزات، لتأيدها بتصديق القرآن المنقول إلينا تواتراً، و المسلم إعجازه متحدّياً للعرب الماضين.

و معنى إعجاز القرآن على قول معالي هيكل باشا، وزير المعارف سابقا، و رئيس مجلس الشيوخ حالاً؛ أنه معجزة عقلية، إنسانية، بلغت أسمى ما يستطيع الانسان أن <1/28> يبلغه.

قال في (حياة محمد) ص 44، من الطبعة الثانية: [فحياة محمد ، حياة إنسانية، بلغة أسمى ما يستطيع الإنسان أن يبلغ، و قد كان حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه؛ حتى كان لا يرضى أن ينسب إليه معجزة غير القرآن، و يصارح أصحابه بذلك؛ و قلنا عند الكلام عن قصة شق الصدر: إنما يدعو المستشرقين، و المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من هذا الحادث أن حياة محمد كلها حياة إنسانية سامية، و أنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق؛ و هم في هذا يجدون من المؤرخين العرب و المسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبي العربي كلها، ما لا يدخل في معروف العقل].

و هذا القول من معاليه يستهدف انتقادات كثيرة، نحصيها إن شاء الله في الباب الثالث من هذا الكتاب.

و نقتصر هنا على القول: بأن خلاصته تنزيل إعجاز القرآن -الذي أتى به، و كان أكبر وقائع حياته المقيدة، بأنها حياة إنسانية لم يدخلها خارقة من الخوارق- إلى استطاعة إنسانية، و إن كانت أسمى ما يستطيعه الإنسان؛ في حين أن القرآن نفسه، يصرح بأنه فوق استطاعة البشر، و أنه كلام الله.

و هل يظن معالي الباشا أن القرآن الذي لا يستطيع الإنس و الجن أن يأتوا بمثله مجتمعين، في استطاعة محمد ، أن يأتي به من عنده؟

أما إتيانه من عند الله، على أنه كلام الله؛ فهذا ما لا يدخل عند الباشا في معروف العقل، و أنه يكون القرآن على هذا التقدير من الخوارق، التي ينكرها معاليه، و لا يراها جديرة بأن يلجأ إليها محمد .

أما قوله حكاية عنه، بعد التنبيه على أنه بشر مثلهم: [يوحى إليه]؛ فقد كنت قلت: أنه جار على قلم معاليه استرسالاً يساير فيه نظم الآية القرآنية، و يحتمي به عند اللزوم في ضمن قانون الدس، إذ لو لم نقل هكذا، كان ذلك القول من الحاكي خروجاً عن حدودِ معروف العقل، و من المحكي عنه لجوءاً إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق<1/29>، وكلاهما ما لا يرضاه الباشا؛ فلا محل لاحتمال كونه جاداً في الاعتراف بالوحي؛ لأنه متناقض مع سعيه لتنزيهه من الخوارق....

كنت قلت هذا، و كان لي الحق في ذلك، تأليفاً لأقوال معاليه عن حياة محمد المنقولة آنفاً، بعضها مع بعض... لو لم يكن مفهوماً من آخر مقدمة كتابه أنه يتشجع أمام العلم، فيعترف له بالوحي... فإذن يبقى قوله: [يوحى إليه]، مناقضاً لما أضاف إليه من الجملِ.

و كان الأستاذ فريد وجدي بك، و هو من غلاة منكري المعجزات، بدعوى أنها مخالفة للعقل، و سنة الكون؛ كما ادعى هيكل باشا؛ حتى أن الأستاذ فريد ينكر البعث بعد الموت، للسبب نفسه...

كان هذا الأستاذ أنكر إعجاز القرآن بألفاظه، و مبانيه في مقالاته، التي كتبها دفاعاً عن فتنة ترجمة القرآن، المثارة في تركيا المنقلبة؛ قائلاً: [إنه لم يتحدّ أحداً ببلاغته، و إنما تحدى الإنس و الجن أن يأتوا بمثله في حكمته و شريعته]...

مع أن الأستاذ يعرف أن أمماً إسلاميةً لم تعجبهم شريعة القرآن، فاستبدلوا بها شرائع الغرب، قبل استبدالهم ألفاظاً أعجميةً بألفاظه و مبانيه، و الأستاذ الذي ناصرهم في تبديل ألفاظه، لم يؤاخذهم يومئذٍ على تبديل شريعته...

فمنكروا المعجزات، كما يفرقون بين الكتاب، و السنة، فيعولون على الكتاب، و لا يعولون على السنة، توسلا إلى إنكار أحاديث المعجزات لنبينا محمد ... يفرقون أيضاً بين لفظ الكتاب و معناه؛ فيتمسكون بمعناه، و يخذلون لفظه؛ و يتمسكون بلفظه، و يخذلون معناه، على حسب ما يقضي به هوى التجديد العصري المتسكع.

و على كل تقدير في موقف الكثرة من كتاب مصر و علمائها الجدد، إزاء معجزة القرآن خصوصاً و معجزات الأنبياء عموماً؛ فالنبوة لا تزيد على مرتبة العبقرية، و هي ليست بمرتبة النبوة المعروفة في الإسلام، و في سائر الأديان.

كما أن النبي الذي عرّفه الشيخ محمد عبده بـ: [إنسان فطر على الحق علماً و عملاً، بحيث لا يعلم إلا حقاً، و لا يعمل<1/30> إلا حقاً، على مقتضى الحكمة...] الخ؛ ليس بالنبي المعروف.

فالنبوة مقضي عليها عند أصحاب القول السائد في مصر الحديثة من الكتاب و العلماء، منحلة في بوتقة التأويل؛ و قد عرفت موقف مسألة الألوهية المخذولة عند أصحاب (مجلة الأزهر)، و (الرسالة) في معترك الشكوك، قبل موقف النبوة.

فالدين -بكلا ركنيه الأساسيين- مقذوف به، في نظر الأوساط المثقفة المصرية، بيد العلم الحديث -الذي لا يؤمن بغير ما ثبت بالتجربة الحسية- إلى علم الأساطير...

لا فرق بين مصر و تركيا الحديثتين في غلبة الإلحاد على الديانة، إلا من حيث أن الإنقلاب اللاديني تأسس في تركيا جبراً من الحكومة، مفاجأة من عهد مصطفى كمال، و في مصر بالنشر، و الدعاية المدسوسة من حملة الأقلام و المحاباة من الحكومة، المرتبطة هي الأخرى بمحاباة من الغرب، الذي هو رأس هذه الفتنة، المدبرة في المملكتين.

فإنجلترا انتهزت فرصة كون تركيا في عداد الدول المغلوبة في الحرب العالمية الأولى، فساومتها بواسطة مصطفى كمال -الذي وجدته أنصع أهل لهذه المساومة- على الاحتفاظ باستقلالها، في مقابل التنازل عن الخلافة، و التجرد عن الدين، و المشي في السياسة الدولية من وراء الإنجليز، كأنها مولى العتاقة لها، و تسنى انتشار الإلحاد في مصر تحت حماية الإنجليز، من غير ثمنٍ مقابلٍ يذكر.

نعم، إن تركيا الجديدة أخسر صفقة، و أسوء عاقبة من مصر التي أدركت ما تضمر الإنجليز من البغض العميق نحو المسلمين، فأخذت تقابل البغضاء بالبغضاء، و تكرهها بكل قوتها، على أن تكف يدها عن مصر، في حين أن تركيا دخلت في حماية الإنجليز، و وصايتها، و كفرت بنعمة الله، التي كانت لها في بعد عنها، حين كانت دولة إسلامية.

و لقائل أن يقول: تجلو الإنجليز بعد الحرب العظمى الثانية عن مصر، لأنها بلغت رشدها في الابتعاد عن الدين، و لم تعد تحتاج إلى شيطان الوصاية[11]، فالإنجليز عدو الإسلام، و عدو الدولة العثمانية، و صديقة تركيا الجديدة<1/31>.

تسافر بعثة أزهرية إلى أوروبا لطلب العلم، فيقول الأستاذ الأكبر المراغي فيما يقول، عند توديعهم في محطة القاهرة: [إن العقول تنظر إلى الأديان نظرها إلى شيء تاريخي، خال عن الحياة].

و يتكرر ذكر العقل، و العلم في كلامه مناوئا للدين.

و تكتب (السياسة الأسبوعية) عن أعضاء البعثة، المؤلفة من الشبان، المدرسين في الأزهر: [إنهم سيواجهون نهجاً في البحث جديداً، و هو أن يطالب الإنسان ليكون بحثه صحيحاً بأن ينكرَ كل ما يعرفه، و أن لا يثبت شيئاً إلا إذا قامَ عليه دليلٌ من التجربة، و الملاحظة، و الاستنباط].

ثم تقول: [إن أساس المنهج العلمي الصحيح: الشك في كل شيء].

و يقول الأستاذ الكبير أحمد أمين بك في كتابه (قصة الفلسفة الحديثة): [إن قانون التناقض الذي يقول به المنطق الشكلي القديم، و الذي يقرر أن الشيء يستحيل أن يكون، و أن لا يكون في آن واحدٍ، يجب عليه الآن أن يزول من أجل حقيقة هيجل العليا، التي تنسجم فيها المتناقضات، و التي ذهب إلى أن كل شيء يكون موجوداً، و غير موجودٍ].

و هذا الأستاذ يكتب في (مجلة الثقافة) -التي هي مجلة لجنة التأليف و النشر-: [إن علماء التوحيد لم ينجحوا في مهمتهم[12]؛ كما أن الأستاذ فريد وجدي بك رئيس تحرير (مجلة الأزهر) ينادي بالطعن في علم هؤلاء العلماء، المسمى بعلم الكلام] <1/32>.

و يقول الأستاذ الأكبر المراغي: [ليس علم الفقه علم الدين].

و تنقل (الأهرام) عن الأستاذ الكبير عبد المجيد سليم، مفتي الديار المصرية سابقاً، و وكيل لجنة الفضوليين، المسمين أنفسهم بـ: "لجنة التقريب بين المذاهب الإسلامية"؛ أنه قال تصديقاً لقول رئيس اللجنة علي علوبة باشا، وزير المعارف السابق[13]: [إن مذاهب الأئمة المجتهدين مبنية في الواقع على السياسة].

و في هذا القول إساءة الظن بأئمة الشريعة الإسلامية، مثل أبي حنيفة، و مالك، و الشافعي، و أحمد بن حنبل رضوان الله عليهم، أي إساءة.

و في (أهرام 28 فبراير سنة 1936) قول الأستاذ الأكبر المراغي لوفد الشبان العراقيين: [إن من ينظر في كتب الشريعة الأصلية بعين البصيرة و الحذق، يجد أنه من غير المعقول أن تضع قانوناً، أو كتاباً، أو مبدأً في القرن الثاني من الهجرة، ثم يجيء بعد ذلك فتطبق هذا القانون في 1354 هجرية].

أقول: إن القوانين التي وضعها أئمة الشريعة الإسلامية في القرن الثاني الهجري، و أخذوها من الكتاب، أو السنة... إذا كان عيبها عند شيخ آخر الزمان قدمها إلى هذا الحد، فماذا يكون عيب مأخذها، و هو أقدم منها؟

و ترى الأستاذ فريد وجدي بك يفسر الإيمان بالغيب -المثنى عليه في كتاب الله-: بالإيمان بخلاف الواقع.

و يكتب أستاذ مصري من باريس إلى لجنة المباراة الصحفية<1/33> بالقاهرة مقالة يستحق بها الجائزة الأولى، يوجب فيها على رجل القرن العشرين أن ينبذ العقلية الغيبية، و يطاردها في كل مكان، حتى تستوي له عقلية علمية -و يريد بالعقلية الغيبية، العقلية الدينية-، ثم ينحي باللائمة على علماء أصول الدين، القائلين بأن العالم يسير على نظام وضعه الله تعالى له، و هو قادر على تغيير ذلك النظام الذي فطره و أبدعه، مع أن نظام العالم -في ادعاء الكاتب- من طبيعة الأشياء ليس مفروضاً عليها من خارجها، و هؤلاء العلماء لم يفهموا أن النظام المطرد في العالم، و تسلسل العلل و معلولاتها أدل على القدرة اللامتناهية من ذلك التصور الركيك، الذي يجعل من قدرته تعالى وسيلة لتغيير النظام.

و صاحب المقالة الذي يعجبه تسلسل العلل و المعلولات إلى ما لا نهاية له، لا يدري أن التسلسل في جانب العلل المتراجعة إلى الماضي باطل عند العقلاء، القائلين بوجود الله، ليقطع هذا التسلسلَ الذي اهتدت عقولهم إلى بطلانه، و يكونَ مبدأً له تنتهي في السلسلة، في حين أنه لا توجد علة أولى في مذهب التسلسل إلا و قبلها علة....

أو أنه يدريه، و لا يعترف ببطلان التسلسل، مقتفياً في ذلك أثر الشيخ محمد عبده، الذي حكم بأن كل ما قيل، أو يقال في إبطاله فهو من قبيل الأوهام الكاذبة، و كان خطأ الشيخ في حكمه هذا عظيماً، كما أن مسألة إبطال التسلسل في العلل أصبحت من رؤوس مسائل هذا الكتاب.

و الشاهد هنا أن الآراء المؤدية إلى نفي النبوة و الألوهية تنفق سوقها في مصر الحديثة، و تمهد لأصحابها مراكز عظيمة، بقدر عظمة الأخطاء التي تضمنتها.

و من المظاهر المؤيدة لفكرة الإلحاد المستورة المكشوفة بمصر، شغلُ الفلسفةِ الوضعيةِ -التي هي أحدث فلسفة الإلحاد في الغرب، و أشدها في الخبث، و

[11] بعد أن أدخل -هذا الشيطان- النزاع الغربي بين الدين، و العقل، في عقول المثقفين من أهل البلاد، التي استعمرها، فلبس عليهم أيضاً، و ألبس جنودها برانيط الغربيين، فكأن الجالين أنابوها نائبة عنهم، ناطقة بأن من تشبه بقوم فهو منهم؛ و يكاد من يرى هؤلاء الجنود، و الضباط في الشوارع، و المراكب، لا ينتفع بجلاء الإنجليز عن مصر.

[12] يقول: إن علم التوحيد برهان لمن يعتقد، لا لمن لا يعتقد؛ و يذكر حكاية نابليون مع جلسائه من العلماء الملحدين، على سفينة في ليلة بديعة؛ فقال لهم: انظروا أيها الرفاق، ما أبدع هذه النجوم، و ما أجملها؛ فمن أبدعها؟ قال ملحد: نحن لا نسأل هذا السؤال، و ما يدور في ذهنك، لا يدور في أذهاننا؛ إنما نسأل نحن: كيف تطور هذا العالم؟ و كيف وصل إلى ما نرى؟ إن برهانك أيها الإمبراطور دليل جميل لك.

و كأن هذا الجواب الذي لنا كلام عليه في محل آخر من هذا الكتاب أفحم نابليون في زعم مجلة الثقافة.

[13] و القارئ يرى في محل من هذا الكتاب أن الجامعة قررت في عهد وزارة علي علوبة باشا، أن تكون شارات حراسها من صور آلهة المصريين القدماء، فتكون شارة كلية الزراعة إله الزراعة، و شارة كلية الطب صورة إله الحكمة، و هلم جرا.

فكتب صديقي، الشيخ المغفور له عبد المجيد اللبان، شيخ كلية أصول الدين، مقالة في الجرائد، يستنكر هذا القرار، و يلفت نظر الجامعة و الوزارة إلى واجبها نحو دين الدولة الذي هو الإسلام، البعيد كل البعد عن الوثنية و رموزها؛ فلم تسمعا له و سكتت مشيخة الأزهر عن تأييد شيخ الكلية، فاستقرت شارات الآلهة، و شكر الله وحده سعي الشيخ اللبان؛ فلعل الباشا رئيس لجنة التقريب بين المذاهب مستعد لتوسيع هذا التقريب إلى ما بين مصر الإسلامية و الفرعونية.

إخفاء المكيدة للدين، لا يخفف عن سوأته السوآء نقد الأستاذ العقاد الخفيف في (كتاب الله) عن هذه الفلسفة- مكاناً هاماً في قلوب كبار الكتابِ، مع فكرة فصل الدين عن السياسةِ الذي يستلزم إلغاء المادة من الدستور الناطقة بأن دين الدولة الإسلام، اكتفاء بدين الأمة، إن كان يبقى دين في الأمة الراضية لتجرد حكومتها من الدين. <1/34>

و كل هذه الحركات المختلفة، الساعية لتهيئة الأذهان إلى قبول فكرة الإلحاد، منشؤها عدم إيمان العلم الحديث بوجود ما ليس منظوراً بالعيون مما عدده الأستاذ فرح أنطون عند مناظرة الشيخ محمد عبده في سالف الزمان.

و إيمان المثقفين المصريين عن صميم قلوبهم بهذا العلم الذي هو العدو اللدود الراهن للأديان؛ كما قال الأستاذ فرح، و لم يزل قوله نافذا إلى الآن، حتى أن أستاذ مجلة الأزهر لم يعد -فيما ننقل عنه، عند تعدد أسباب التأليف رقم 5-؛ ردود الشيخ محمد عبده عليه، كلمة منبوسة.

و من فروع الإيمان بالعلم الحديث، المنكر لغير المحسوسات؛ إنكار فضيلة الشيخ شلتوت، عضو جماعة كبار العلماء، و مجمع فؤاد الأول للغة العربية، و لجنة التقريب بين المذاهب الإسلامية؛ وجودَ الشيطانِ الرجيم، الذي نستعيذ منه كل يوم في الصلوات الخمس، و إنكاره لرفع سيدنا عيسى، و نزوله في آخر الزمان، بل إنكار الأستاذ الأكبر المراغي أيضاً.

و زاد في الإشكال الديني الناشئ عن قصر التعويل على ما ثبت وجوده بالتجربة الحسية، و عدم الثقة بالدليل العقلي، الذي كان علماء الإسلام يعتمدون عليه في إثبات وجود الله؛ فزاد في الطين بلّةً أن نقل الدكتور غلاب أستاذ الفلسفة في كلية أصول الدين، عن أحد علماء الغرب، نقداً ينم على عدم صحة ذلك الدليل من الناحية العقلية أيضاً....

و إن كان الدكتور غلاب نقله في سياق النقد على برهان ديكارت؛ و لم ينبس بكلمة في الرد عليه، تصديقا لقول الأستاذ فريد وجدي بك المار الذكر، الذي يرى الردّ على ما فعله العلم الحديث بالأديان من قذفها جميعاً إلى عالم الأساطير، أكبرَ من أن يحاوله محاولٌ؛ مع أن ذلك البرهان برهان علمائنا بعينه، و سيجيء تفصيله و تمحيصه في محله<1/35>.

و هذا الكتاب يبدد هذه الشُّبة، و يذيبها إن شاء الله، بعونه و توفيقه، و يجدد كل ما طرأ عليه الخراب في الشرق الإسلامي من نواحي الإيمان الديني، المبني على أساساته العلمية القديمة، مهما كان الخراب عظيماً متولداً من استيلاء الإيمان بالعلم الحديثِ على مكان العلم القديم في القلوب.... يجدد كل آثار الخراب، و يسترد مركز الإيمان القديم إليه، في كفاح و حرب مشنونة، إن لم تكن على العلم الحديث، فعلى متعلميه و علمائه الضالين، في تقدير قيمة ذلك العلم، و معرفة حدوده.

و لم يهمل الكتاب بين مساعيه في مكافحة الضلالات، و إزالة الشبهات الحديثة، معالجة ما قدم منها، و انتقل من الماضي إلى الزمان الحاضر، محتفظاً برواجهِ في سوق الضلالات الاعتقادية، لكونه جديدا في بطلانه، لم يعف عليه الدهر رغم قدمه، فكأن بطلانه أعاشه، و أفاض عليه الجدّةَ في نظر المصريين المغرمين بالأضاليل...

و نعني بهذا مسألة وحدة الوجود، التي لم نأل جهداً في درسها، و اكتشاف منشئها، و استئصالها بعون الله تعالى، و قولنا هذا الذي هو عبارة هنا عن الدعوى المجردة، يتجلى في الباب الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله؛ على القارئ المجد الصابر، لا صاحب النظر العابر.

********* ******** ****** *****

هذا ما يتعلق بتعمير الدين و تعزيزه، في نواحيه الأساسية الاعتقادية، المحتاجة إلى التعمير بعد الخراب، و التعزيز بعد الاستهانة.

أما ما طرأ على الناحية العملية، و الاجتماعية؛ فحسبك في تقدير مبلغه من الفساد أن تعرف مبلغ الضلال في عقليات القائمين بتنظيمها، و على الأقل المتكلمين في أمرها؛ فتقرأ معي في الجرائد، أو تسمع من الراديو في الذكرى الثلاثين مثلا من ذكريات قاسم أمين، صاحب الحملة على حجاب النساء، و مؤلف (كتاب تحرير المرأة)، مهزلةَ تأميل الثواب له من سفورهن....

نعم، مهزلة تأميل الثواب له، على الرغم من آيات الحجاب الموجودة في كتاب الله؛ و سنتكلم على هذه المسألة أيضا في محله من الكتاب، بما تستحقه من التفصيل.

و مما يقضي العجب من تلك الذكريات أنها تحتوي الكشف عن كون حركة قاسم أمين مقارنة بتأييد الشيخ محمد عبده<1/36>؛ فيقول الشاعر الكبير علي الجارم بك، خطاباً لقاسم صاحب الذكرى:

كنت في الحق للإمام نصيراً	و الوافي الصفي من أصحابهْ
نم هنيئا، فمصر نالت ذرى المجد،	و فازت بمحضه و لبابه
منك عزم الداعي، و فضل المجلى	و على الله ما ترى من ثوابهْ

لا شك للإسلام في كفر مستحل الحرام القطعي، الذي منه رفع الحجاب عن النساء، و جعلهن كالرجال في الظهور أمام الأعين، بل أكثر منهم إلى أن يصبحن كاسياتٍ عارياتٍ، كما في حالة النساء الحاضرة بعد العمل برأي قاسم أمين، مفتي الديار المصرية في النساء؛ في حين أن كتاب الله يحرم عليهن إبداء ﴿زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ [أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ] أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾[النور:31]، إلى آخر الآية الواردة في سورة النور بكل صراحة و تفصيل.

و إذا كان استحلال الحرام كفرا في الإسلام، فماذا يكون دعوى استحقاق الثواب على استحلال الحرام؟

و لذا سميناها مهزلة<1/37>.

التعريف بمنهج الكتاب في نقد الأقوال:

لم أسلك في الذين انتقدت آراءهم في هذا الكتاب -و هم كثيرون- السبيل المعتاد في زماننا للتأليف، لاسيما تأليف كتاب مثل كتابي في خطورة الموضوع و جلالته، و هو أن لا يشتغل المؤلف في صلب كتابه بمناقشة كل من خالفه في رأيه بأقوالهم المذكورة في الكتب و المنشورة في الصحف و المجلات، بل يتعرض لما يستحق منها التعرض في إشارة قصيرة على الهامش مع رقم صفحة الكتاب الذي يتضمن تلك الأقوال، أو على الأكثر مع النقل من نصوصها في اقتضاب و غير كفاية؛ حتى يحتاج من يريد من القراء أن يطلع على تمام النص، أو ما يقوم مقام التمام، إلى مراجعة ذلك الكتاب، ليكون حكَما عدلا في المقارنة بين المؤلف و المخالف.

و فيه شغل للقارئ ربما يعده شاغلا، فينصرف عن مراجعته، و يكتفي بما نقل عنه نقلا منقوصاً، و يتقبله بغير حق كالمنقوض، أو ينصرف في سبيل المراجعة عن الاستمرار في مطالعة الكتاب الذي بيديه، أو على الأقل يتأخر في قضاء حاجته الذهنية عن أوانه، و ربما تتعذر عليه المراجعة بالمرة.

و فضلاً عن هذا، فقد رأيت في اختيار هذا الأسلوب في نقد الأقوال شيئا مما ينافي الأمانة و الصراحة، و يشبه الخلس و الدلس في عرض المسائل على الأنظار.

أذكر مثالاً لهذا من كتاب (التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام)، المنتشر حديثاً للدكتور توفيق الطويل، مدرس الفلسفة بجامعة فاروق ص 9؛ فبعد أن عرف الغيب -نقلاً عن (كشاف اصطلاحات الفنون)- بـ: [الأمر الخفي، الذي لا يدركه الحس، و لا تقتضيه بداهة العقل].

قال في الهامش: [و قد رأى الأستاذ محمد فريد وجدي أن الغيب يقابل الواقع (مجلة الأزهر، في الجزء الخامس، من المجلد الثامن)؛ و لكن هذا التعريف أحنق فضيلة الأستاذ مصطفى صبري، شيخ الإسلام في الدولة العثمانة سابقاً، فندّد به في (القول الفصل بين الذين <1/38> يؤمنون بالغيب، و الذين لا يؤمنون)؛ و قرر في ص 149، بأن الغيب ما غاب عن الحاسة؛ و الذي يبدو لنا أن التعريفين ليس بينهما تناقض، و إن كان كلاهما غير واف بالحاجة].

فنقول: ماذا يفهم القارئ من هذا القول؟

يفهم أن كلاًّ منا، أنا و الأستاذ فريد وجدي بك مخطئ في الإتيان بتعريف للغيب غير واف، و زيادة على هذا الخطإ المشترك، فإني مخطئ أيضا في الحنق على الأستاذ فريد وجدي الذي جعل الغيب مقابلا للواقع، لكون تعريف لا يتناقض مع تعريفي؛ و نحن ننقل هنا نص الأستاذ فريد في الجزء المذكور من (مجلة الأزهر).

قال في مقالته التي كتبها على وفاة جميل صدقي، الفيلسوف -على تعبير الأستاذ- العراقي: [أسلوب الفلسفة الأولين الاعتداد بالمسلمات العقلية، و القضايا المنطقية، و التدرج منها إلى إدراك العلل الأولية -يعني: الإدراك المنتهي إلى الاعتراف بوجود الله-، و هو أسلوب أصبح لا يقنع أكثر المتعلمين، على الطريقة الحديثة]؛ و كأن الأستاذ يعذر بقوله هذا المتوفي، المعروف بإلحاده.

و من أقوال الأستاذ عن المتوفى في نفس المقالة: [افتتن بمقررات العلم الطبيعي، و شغف حباً بالفلسفة المادية، فخلعته عن العقائد الدينية، و لم يستطع أن يتغلب على عقائده الوراثية، فيعلن أنه أصبح مادياً؛ فوقف حائراً، لا يدري بأي فريق يلتحق؛ أبفريق الذين يؤمنون بالغيب؟ أم بفريق الذين يؤمنون بالواقع؟].

هذا قول الأستاذ فريد، الذي أحنقني؛ لكونه جعل فريق المؤمنين بالغيب، الذين أثنى عليهم الله في رأس كتابه، و الذين نحن المسلمين منهم، مقابلاً لفريق المؤمنين بالواقع؛ و معناه أنه اعتبر الفريق الأول -أعني المؤمنين بالغيب- مؤمنين بغير الواقع!!!

على الرغم من أن الإيمان بالله، داخل في الإيمان بالغيب، دخولاً أولياً، ثم يأتي الإيمان بملائكته<1/39>، و كتبه، و رسله، و اليوم الآخر؛ فهل كان هذا إيمان بخلافِ الواقع؟

فالأستاذ فريد كاتب (مجلة الأزهر)، يعيب على الفريق المثنى عليهم في كتاب الله، مادحاً ضد هذا الفريق، بأنهم المؤمنون بالواقع؛ مع أن الفيلسوف الذي تظاهر الأستاذ بانتقاد عقيدته كان يتردد -على رأي الأستاذ- حائراً بين الفريقين، غير جازم بتفضيل فريق الذين لا يؤمنون بالغيب على الذين يؤمنون به؛ كما فضل الأستاذ، فهو أشد في ارتباك العقيدة من الفيلسوف الزهاوي...

و لا أدري لماذا لم يُحنق الدكتور الطويل ما أحنق الشيخ مصطفى صبري، مؤلف (القول الفصل) من حالة الأستاذ فريد وجدي، في جعل المؤمنين بالغيب، و غير المؤمنين عاليهم و سافلهم، و مناورته القادحة في الفيلسوف الملحد بما يشعر المدح؟

و بعد هذا البيان، يظهر خطأ الدكتور فيما لا يرى تناقضاً بين تفسيري للغيب، و تفسير الأستاذ كاتب (مجلة الأزهر)، الذي يتناقض مع رؤوس عقيدة الإسلام، فضلا عن تناقضه مع تفسيري.

أما كون الدكتور المؤلف يعد كلا من التعريفين غير واف بالحاجة، فخطأه فيه ظاهر أيضاً بالنظر إلى اكتفائه في التعبير عن تعريف الأستاذ بأنه غير وافٍ بالحاجة؛ بل تعبير الدكتور نفسه غير واف بما يستحقه تعريف الأستاذ من التشدد في الرفض.

و أما خطأ ذلك التعبير بالنسبة إلى تعريفي فإني لم أقصد بما ذكرته في (القول الفصل) عن الغيب: "بما غاب عن الحاسة"؛ تعريف الغيب إلا بقدر ما يتبين به تخبط الأستاذ كاتب (مجلة الأزهر) في تفسير الغيب، و لا أقول في تعريفه، و لعله أيضاً لم يرد التعريف؛ لكنه فسره، ولو عرضاً، و إجمالاً، و أخطأ فيه خطأً فاحشاً؛ كما ذكرته.

و اكتفيت في تصحيح ذلك الخطإِ بحمل الغيب على ما غاب عن الحاسة، لا عن الوجود، كما يوهمه تفسير المخطئِ، فيكون الغيب على تفسيري مقابلاً للشهادةِ كما وردَ في قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[الأنعام: 73؛ التوبة:94، 105؛ الرعد:9؛ المؤمنون:92؛ السجدة:6؛ الزمر:46؛ الحشر:22؛ الجمعة:8؛ التغابن:18].

و يكون مغزى التفسير، هو الرد على جعله مقابلاً للواقعِ، المفهوم منهُ كونُ الإيمان بالغيب إيماناً بغير الواقعِ.

و قد كفاني هذا التفسير في الرد على ذلك<1/40> الخطإ الفاحش؛ كما فسره الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير، بما فسرتُ به؛ أعني: "الغائب عن الحاسة"، و قال: "إنه رأي جمهور المفسرين".

هذا، و لكون مقصودي مما ذكرته في (القول الفصل) متعلقاً بتفسير الغيب، بل من (القول الفصل) كله، و غيره مما نشرته، و أنشره إن شاء الله من الآثار... تصحيحَ ما صادفته في نشريات المعاصرين، المغترفين من مناهل الغرب، غير المصفاة، من الأخطاء الضاربة

لعقائد الإسلام في صميمها، لا الاشتغال بتفسير الألفاظ، و تفصيل المعاني، و التكاثر بكماليات العلوم و المعارف.

اكتفيت في تعريف الغيب بما بقي بحاجتي التي ذكرتها، غير مبال بأنه قد لا يكون وافياً بحاجة غيري، كمن أرادَ التأليف في موضوع الغيب، فأتى بتعريف من (كشاف اصطلاحات الفنون) للتهانوي؛ أضيف فيه إلى: "ما غاب عن الحاسة"؛ "ما لا تقتضيه بداهة العقول"؛ و لا مانع من أن يكون هذا التعريف أفضل من تعريفي، لمن أراد أن يأتي بتعريف للغيبِ يحدده تحديداً فنياً، و يخرج منه ما غاب عن الحاسة فقط.

على أن لي أن أقول: لا شك في أن المعنى المتبادر من الغيب في كلام العرب، و في كتاب الله الذي نزل على لغتهم، و على ما تنساق إليه أفهامهم في استعمال الألفاظ، هو مقابل الشهادة.... أما ما تقتضيه بداهة العقل من غير المحسوسات، فإن لزم إخراجه من الغيب -رغم كونه غائباً عن الحاسةِ-، و إدخاله في الشهادة، فالمعقول أن يكون ذلك من طريق إلحاقه بالشهادة تشبيهاً، لا لكونه مشهوداً حقيقةً.

و لي أن أقول أيضاً: إن الله تعالى داخل في الغيب الذي أثنى في كتابه على المؤمنين به، كما صرح به علماء الإسلام؛ و مع هذا فلا مغالاةَ في القول بأن إدراك وجود الله مما تقتضيه بداهة العقل، على ما ذهب إليه الفيلسوف العظيم ديكارت، من أن الإنسان يدرك وجود الله بعد إدراك وجود نفسه، و قبل إدراك وجود العالم، و سيجيء بحثه في هذا الكتاب.

فالأولى بالجمع بين هاتين الدقيقتين، أن يُقتصر في تفسير الغيب على<1/41> ما غاب عن الحاسة، لئلا يكون الله خارجاً عن الغيب، الذي يؤمن به المؤمنونَ، على مذهب ديكارت أيضاً.

فهذا نموذج أسلوب النقاش الذي التزمته في كتابي، ترجيحاً على الأسلوب المعتاد عند المعاصرين من أصحاب التأليف، الذين يستأثرون لأقوالهم بمتسع من صلب الكتاب، يخاطبون منه خصومهم، من غير أن يؤذن لهم بالدفاع عن آرائهم إلا بكلمات مقتضبة، يهمسونها من دهاليز الصحفات -الهوامش-، و قد رأيتم نموذجه المنقول من كتاب الدكتور الطويل؛ فليقارن القراء بين الأسلوبين.

نعود إلى استعراض مناهج المؤلفين في كتبهم إزاء مخالفيهم، و كما لا يعجبني عند النقل من الأقوال، التي يراد نقدها أن لا يعطى حق النقل، كذلك لا يعجبني الإعراض عن أقوال طائفة من المخالفين بالمرة مهما كانت صلتها بموضوع الكتاب، بل و مهما كانت قيمتها في نفس الأمر، لعدم كون أصحاب تلك الأقوال من أكفاء المناظرة للمؤلف؛ سواء كانوا من غير أكفائه حقيقة، أو في زعم المؤلف؛ ففي هذا المنهج الذي يُهتم فيه بالقائل أكثر من القول تقصير ظاهرٌ في مراعاة حق البحث العلمي، ترجيحا لمراعاة حظ النفس المتكبرة.

و من الناس من يتخذ من طبقات المناصب الحكومية، طبقات في العلم، يوشك من ارتقاها أن لا يصعد إليه صوت ناقد، و إني رأيت مصر في طليعة بلاد لا تعدم أناساً من هذا الطراز، أقاموا حولهم سياجاً من سمك المناصب الرسمية، إذا استووا عليها، سقط عنهم التكليف، مثل غلاة الصوفيين، المختلقين في مراتب الطريقة، مرتبة تسقط التكاليف الشرعية عمن بلغها.

و قد سبق حين حدثت في تركيا الكمالية فتنة ترجمة القرآن، أن كتب الأستاذ الأكبر المراغي في مقالة طويلة في (السياسة الأسبوعية)، و في (الأهرام)، يرتإي فيها لا جواز القراءة في الصلاة خلف الأعاجم بتراجم القرآن على لغاتهم، مع القدرة على قراءة الأصل العربي، بل ترجيح قراءة التراجمِ على قراءة الأصل، فضلاً عن جوازها[14].

و كنت انتقدت تلك المقالة في كتابي (مسألة ترجمة القرآن، المنتشر سنة 1351هـ)، انتقاداً مفصلاً، و كان الأستاذ لم يجب على انتقاداتي؛ ثم تجدد النقاش على موضوع ترجمة القرآن بعد سنين بين بعض الفضلاء، الذائدين عن حمى القرآن، كالشيخ محمد سليمان، و الأستاذ محمد الهيهاوي[15] رحمهما الله؛ و بين الذائدين عن حمى مشيخة الأزهر المروجة للموضوع، مثل الأستاذ فريد وجدي؛ فإذا بمقالة الأستاذ الأكبر المراغي القديمة قد نشرت في (مجلة الأزهر) مرة ثانية بعينها؛ إصراراً على ما فيه من الأخطاء، التي من جملتها عدم إصابة صاحب المقالة في فهم أقوال الفقهاء الأحناف، التي كان يستند إليها؛ و قد نبهت عليها في كتابي المذكور، فتجوهل للتنبيه و المنبه؛ فلعله لم يرني كفوا لمناظرته!!

أما مسألة التصريح بأسماء الذين أناقشهم على آرائهم، أو الكف عن ذكر الأسماء في المعاصرين، و الإكتفاء بنقد الأقوال و الآراء، كما أشار به إليّ بعض الأصدقاء، و أصر بعضهم على ترجيح هذا الرأي، قائلاً: "إن خلافه يخرج الكتاب عن وقاره، فيجعله كتاب جدالٍ، و قيل و قال، و يجلب عليه الخصومات"؛ فهذه المسألة تحتاج إلى شيء من الإيضاح و التمهيد.

فأقول: أيها القارئ الكريم، ما أعظم المهمة التي أخذها هذا الكتاب على عاتقه، و ما أغمض المشكلة التي وعدك حلها، و تحليلها قبل حملها، أعني مشكلة إنقاذ الدين عن الشكوك المسئولية على قلوب المتعلمين العصريين؛ لأن عملية التحليل الذي يتوقف عليه الحل تؤدي إلى نصب كلمات بنصها كتبها أصحاب تلك الشكوك في مقالة كذي< 1/43> أو كتاب كذا، أمام الأعين.

ثم أن الشكوك لا تُلقى في الأكثر صريحةً على أنها شكوك في الدين، و مُلقيها يريد التشكيك و التوهين في عقائد المؤمنين؛ بل تُلقى على طريقة الدس، و تهيئة الأذهان التي يشتغل بها نوابغ الشرق من زمان، كما سبق نقله من كلام الأستاذ فريد وجدي بك.

و بالنظر إلى كون أصحاب الشكوك راضين عن شكوكهم، مرتاحي القلوب إليها، في عصر سيادة العقلية الربيبة في الغرب، الذي هو قدوة الشرق الحديث في الثقافة، فهم ليسوا في حاجة إلى أن أنبههم على أخطائهم، و أذكرهم بأسمائهم في الكتاب مع أقوالهم التي أخطأوا فيها جنباً لجنبٍ، ليكون ضماناً لوصول التنبيه إليهم، لعلهم يستفيدون منه.

على أني ضعيف الأمل جداً فيما إذا كان ينفعهم التنبيه، لكونها شكوكاً في الدين، الذي لا يهمهم كما يهم المؤمنَ القديم؛ و كونها في زعمهم شكوكاً مبنية على أسبابٍ علمية غير مرجوة الدفع، لاسيما إذا كان من تولى الدفع واحداً من علماء الدين، الذين أصبحوا منذ أزمنة طويلة غير مسموعي الكلم، و امتاز من امتاز بينهم برواج القول؛ تابعاً لتيارات الضلالِ الحديثةِ، لا متبوعاً في معارضتها.

و على كل حالٍ، فذكر الأسماء عند نقد الأقوالِ، أعترفُ بأنه لا ينفع القائلين، و لا يؤثر فيهم، غير إثارة الضغائن

---

[14] و مما يلفت النظر أن هذه الفتنة على الرغم مما وجدت مظاهرين متطوعين في مصر، مثل الأستاذ فريد وجدي، و الشيخ المراغي، ما نجحت في تركيا التي هي محل حدوثها.

[15] سمعت في تأبين هذا الأستاذ قصيدة لمحمد الحناوي، لم يرقني روقها، في صدق القول شيء مما سمعته بمصر من المراثي.

على الكتاب، ربما تحول دون ذيوعه، أو دون إذاعة من أراد الإعلان عنه.

أما القراء، فهم لا يلفتهم كل كلمة تثير الشك في الدين، على أنها تثيره أو على أن المثار شك ذو خطر على عقيدة الإسلام، إلا بالقياس على خطورة مركز المتكلم، فلا ينجح ما بذلته في الكتاب من الجهود، ليكون كفيلا بتصحيح ما فسد من العقائد إزاء التشكيكات العصرية، مع دوام مراكز المشككين محفوظة في قلوب الناس، و لو بالنسبة إلى كلماتهم، التي تضمنت الزيغ و الإذاعة في العقيدة.

فحقيقة الواجب الذي توليت القيام به ليست عبارة عن تأليف كتاب في علم أصول الدين، يشرح مسائله، أو يشرح طائفة<1/44> مهمة منها، تشتد الحاجة في هذا الزمان إلى معرفتها على وجه الصحة؛ و ليس كتابي ككل كتاب علمي، يحتذي خطته المعتادة.

و إنما الغاية التي أهدف إليها مكافحة الشبهات العصرية، المسلطة على مسائل تقوم عليها دعائم عقيدة الإسلام و غيره من الأديان، مع مكافحة أشخاص المثيرين لتلك الشبهات من الغربيين، و مطبقيها على عقائدنا من الشرقيين...

مكافحة الشبهات، و مكافحة مثيريها معاً، بل و مكافحة المكامن أيضاً التي ربما يستتر المثيرون وراءها، إلى أن يتزعزع مكان الشبهات مع مكان مثيريها في قلوب الناس، كائنين من كانوا... فتنهار الشبهات و مروجوها، و تسلم عقيدة المؤمنين من شرورهم، و تسويلاتهم التي قد لا يحسونها بأنفسهم، أو لا يقدرون قدر مضارها؛ و موقفي منهم موقف المحارب، و لا تكون الحرب خفية، فإن كانت فأنا لا أعرف مزاولتها كما يعرفون؛ ثم إنهم مشككون، و يكفيهم العمل في الخفاء، كالصيد في الماء العكر...

فلا بد إذن من التصريح بأسماء الذين أناقشهم... و قد قلت في مقدمة الكتاب، التي أحصيت فيها أسباب تأليفه مبسوطة كل البسط: "و لما هاجرت بعد انقلاب تركيا إلى مصر، وجدت فيها العلم الحديث الغربي، الناظر إلى الأديان نظره إلى الأساطير، أنطق لساناً من علم أصول الدين الإسلامي، و أعلى صوتاً..".

فكان من واجبي إثبات صدق هذا القول... و قد كان معلوماً أن مهمة هذا الكتاب الرئيسية مكافحة اللادينيين، و محاربتها بطريقة علمية متجلية في القضاء على كل شك يرمي إلى الإلحاد.

و من المعقول أن تتقدم هذه المرحلة، التي هي مرحلة الغاية، مرحلة أخرى، يُشرح فيها وقوع الشرق الإسلامي في خطر من انسياب العقليات الغربية، المناوئة للدين إلى أذهان المثقفين، و إثبات هذا الخطر يتوقف على سرد شواهد من كلمات رجالٍ يستدل بأهمية مراكزهم الرسمية، أو الأدبية على أهمية الخطر.

و ليس من حق القارئ المنصف أن يتوقع مني في هذا الكتاب عند نقد الأقوال، التي لا يجوز الإغضاء عليها من رجال الدين، أن أضع توطئة لعملية النقد في كلمات متقدمة<1/45>، تتضمن مدح أصحاب تلك الأقوال، و إكبارهم، كما هو المعتاد في زماننا.

و في ظني أن الأقوال التي تستوجب التعقيب و الاستنكار، فالاشتغال قبلهما بمدح و إكبار القائلين أصبح عادة متبعة، بين نقاد الشرق الإسلامي، بعد أن تعودوا تقليد الغربيين، و هي من زيوف مدنيتهم، فيهتمون بالمصانعة أكثر من المصارحة؛ مع أن في الشرق اليوم شخصياتٍ و أسماء، أُكبرت، و اتخذت قدوة في الزيغ عن محجة الإسلام.. فالحق أو بالأولى من واجب رد الحق إلى نصابه، الحط من مراكزهم في القلوب، بقدر ما حازوه منها، بغير حق.

هذا الواجب الكتاب ليطمئن على كونه ناقماً للقراء المحايدين... ثم إني غير مسيءٍ للذين أصارحهم، ساعياً لإقامة ما في عقيدتهم، أو فهمهم لعقيدة الإسلام من عوج، و مصارحتي إياهم بالحق أنفع لهم من أن يغضبوا عليّ بسبب هذه المصارحة، و من كلمات الحكمة: "صديقك من صدقك، لا من صدّقك".

و المقصد الأسمى هو خدمة الدين، و العلم بمعناه الصحيح، و خلاصتها خدمة الحقيقة، من غير مسايرة العادات و التيارات، أو مراقبة المراكز؛ و لو كنت سايرت في خدمة الدين و العلم الاعتبارات الخارجة عنها، لقلت مع القائلين العصريين: [أن العلم و الدين ضدان لا يجتمعان]، و انصرفت عن تأليف هذا الكتاب؛ أو جعلته كتابين مفترقين، تفريقاً لخدمة أحدهما عن خدمة الآخر، كما فرق الشيخ الأكبر المراغي في خطابه للبعثة الأزهرية إلى أوروبا عند توديعهم في محطة القاهرة، و سيجيء نقله في هذا الكتاب بنصه.

ثم إن عدم التصريح بأسماء الذين أناقشهم، بعض التنكب عن مسلك الصراحة، و أهم من ذلك أن القول الذي أريد نقده من غير تعيين صاحب القول، قد يُظن أني زدت على أصله، أو نقصت، أو غيّرته، و صوّرته في صورة يسهل الرد عليه؛ و لو ذكر نصه بين القوسين، و أراد القارئ أن يتبين صحة النقل و تمام مطابقته للأصل، صعب عليه تعيين<1/46> محل القول من غير تعيين القائل.

فالأولى بمصلحة العلم، و أمانة البحث ما اخترته من طريق الصراحة.

و أمر ثانٍ: و هو أن البعض الآخر ممن قرأت عليهم من أصدقائي بعض أبحاث الكتاب، وجد في أسلوب مناقشاته شيئا من الشدة و القسوة، و رأى أن التأثير على القارئ عند الملاينة، يكون أكثر.

و جوابي عليه: أن ردي على المخالفين صفته في درجات مختلفة من الشدة، و اللطف، و أنه ليس تعنيفي و تشديدي موجهاً إلى القراء، بل إلى الذين أناقشهم، و هم لا أمل لي في تحويلهم عن آرائهم الضالة المضلة، بما جربتهم و جربهم غيري.

و إنما أنا أهزمهم، و أقضي عليهم بوابل من النقد العلمي، و لا غرو إذا كان الوابل قد تصحبه الرعد و البرق.

و بذلك أكون مؤثرا في عقول القراء، الذين يجري النقاش في مرأى و مسمع منهم، و الذين عنيت بتأليف هذا الكتاب لأجلهم؛ و لست بشاتم للذين صوبت نحوهم سهام النقد الحاسم؛ ثم إني ما قسوت في القول إلا على الذين قست أقوالهم على أساس من أسس الدين، أو علم من علومه، أو طائفة من علمائه؛ و ما فرطت في جنوب من ناقشتهم، و فيهم المفرطون في جنب الله، و المستهينون بالعقل و المنطق.

و قولي في الذين ناقشتهم: "و هم لا أمل لي في تحويلهم عن آرائهم الضالة المضلة بما جربتهم..."؛ أذكر لهم مثالاً من الأستاذ فريد وجدي، الذي يُرى اسمه كثيراً في هذا الكتاب، فقد ناقشته على إنكاره لمعجزات الأنبياء في بضع مقالات من الطرفين، منشورة في (الأهرام) قبل سنوات؛ فلم يقلع عن رأيه، بل أضاف إليه في ردوده عليّ إنكار البعث بعد الموت.

و مثالاً آخر من فضيلة الشيخ شلتوت، عضو كبار العلماء، انتقدت في (القول الفصل) قوله المنشور في

(الرسالة)، المنكر لرفع عيسى عليه السلام إلى السماء، و نزوله منها في آخر الزمان؛ فردّ عليّ بخمس مقالاتٍ أخرى، مصراً على إنكاره، و سيرى القراء جوابي على هذه المقالات إن شاء الله<1/47>.

و أحدث مثال لعدم تأثير بيان الحق في قلوب المثقفين، المصابين بالضلال العصري، مهما كان الحق ظاهراً، و بيانه مفحماً؛ أن الدكتور توفيق الطويل مؤلف (التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام)، يقول في هامش الصفحة 27: [رأي ابن خلدون يخالف الاتجاه الحديث الذي ينكر الكرامات، و خوارق العادات، و يؤول المعجزات، بحيث تبدو متفقة مع منطق العقل، متمشية مع سنن الكون، مسايرة لطبائع الأشياء، و بهذا يمتنع وصفها بالخوارق؛ و يقال: إن القرآن وحده هو الحجة القطعية على نبوة الرسول، و ما عداه شبهة لا حجة؛ و قد تصدى لدفع هذا الاتجاه الشيخ مصطفى صبري، و هاجم من أجله بعض أعلام المحدّثين].

و أنا أقول: ليس ابن خلدون وحده يخالف ما سماه الدكتور: [الاتجاه الحديث الذي ينكر الكرامات، و خوارق العادات، و يؤول المعجزات بما يخرجها من كونها معجزات تتمشى مع سنن الكون، و تساير طبائع الأشياء]؛ بل جميع علماء الإسلام على خلافه، إلى أن جاء الشيخ محمد عبده، و من أخذوا منه.

لأن تأويل المعجزات بما يخرجها عن خوارق العادة، يخرجها أيضا عن كونها معجزات، و يؤدي إلى إنكار نبوات الأنبياء مع المعجزات، لما في إنزال الوحي و الكتب عليهم، و إرسال الملك إليهم خرقاً لسنن الكون، و لا تكون المعجزات معجزاتٌ بدون خرقها.

حتى أن القرآن الذي يتظاهر الدكتور الطويل باستثنائه بين المعجزات، و الاعتراف بكونه وحده حجة قطعية، مع من قلدهم من المعترفين؛ لا يكون حجة، إن لم يكن كغيره من المعجزات خارقة من الخوارق؛ و هو متوقف على كونه كلام الله؛ إذ لو كان كلام سيدنا محمد لا يكون معجزة، كما لا يكون خارقة.

فمعنى [الاتجاه الحديث المنكر للكرامات، و خوارق العادات، و المؤول للمعجزات بما يخرجها عن إعجازها]؛ و يرجع إلى إنكارها أيضا، اتجاه إلى رفض أساس من أسس الدين.

فكيف يتأسس هذا الفكر المترجم عن الكفر البائح، و الجهل الفاضح<1/48> في جامعة مصر الإسلامية، و ينشر بقلم مؤلف من مدرسيها، من غير أن يلقى نكيرا من داخل الجامعة و خارجها؟

أما أن المعجزات بدون تأويل، لا تتفق مع منطق العقل، فتخرق العقل و العادة معاً، فهو غلط ناشئٌ من عدم التمييز، بين خارق العادة الممكن، و خارق العادة المستحيل.

و إني خصصت لتحقيق هذه المسألة، و توضيحها 15 صفحة من (القول الفصل)، من 25 إلى 39؛ و نبهت فيها إلى أن المتعلمين العصريين لا يدرون أن دائرة الإمكان أوسع بكثير مما يظنون.

و الدكتور الطويل الذي يُرى أنه قرأ كتابي، لا أقول لم يفهم تلك الصفحات، بل تعمد أن لا يفهمها عناداً و إصراراً على عقليته الراسخة فيه، تقليداً لملاحدة الغرب، أو تقليداً للمقلدين من أساتذته المصريين.

و هم يستهينون بالعقل و المنطق، مستضعفين الأدلة المبنية عليهما، ثم يقولون عن المعجزات -الخارقة للعادة، و بعبارة أخرى لسنة الكون، و التي لا مانع من اتفاقها مع العقل و المنطق-: [لا تتفق مع منطق العقل]؛ و ليتهم قلدوا من علماء الغرب المتكلمين بمنطق العقل؛ و هم موجودون، و مذكورون في (القول الفصل).

قال وليام استانلي جون -من كبار المنطقيين الإنجليز-: [القدرة التي خلقت العالم، لا تعجز عن حذف شيء منه، أو إضافة شيء إليه؛ و من السهل أن يقال عن أنه غير متصور عند العقل (لكونه مخالفاً لسنة الكون)؛ لكن الذي يقال عنه أنه غير متصور عند العقل، ليس غير متصور إلى درجة وجود العالم].

يعني، لو لم يكن شيء من هذا العالم موجوداً غير رجلين، أحدهما ينكر المعجزات الخارقة، و لا يتصور وجودها؛ و الآخر يؤمن بها، فقال المؤمن للمنكر: سيوجد عالم كذا، كان جوابه أنه غير متصور، و كان نفي تصوره أشد من نفي تصور المعجزات؛ و أصل هذه الإنكارات يرجع إلى عدم الإيمان بوجود الله.

قال استوارت ميل<1/49>: عند انتقاده لإنكار هيوم المعجزات: [إن من لا يؤمن بموجود فوق الطبيعة، و لا بتدخله في شئون العالم، لا يقبل فعل إنسان خارق للعادة، على أنه معجزة، و يؤوله مطلقاً بما يخرجه عن كونه معجزة].

و من كلامنا في (القول الفصل): "نقول لمنكري المعجزات الخارقة لنظام العالم؛ و هم يدعون أنهم يؤمنون بالله: أليس واضع هذا النظام المسمى بسنة الكون هو الله؟ فكيف تقيدون الله بالنظام، الذي هو واضعه بقدرته، و إرادته، و اختياره؟ فهل يكون القادر المختار عاجزاً عن تغيير ما وضعه متى شاء ذلك؟ أما أنه لم يغيره فيما رأيناه، و هو سنته، التي لن تجد عنه تحويلاً، فذلك بالنسبة إلينا؛ و معناه أنا لا نقدر على تبديل سنة الكون، فلا تكون النار إلا حارة محرقة لكل ما من شأنه الاحتراق، بموجب نظام العالم، و مصلحتنا في استمرار نظامه أنا نعتمد عليه مطلقاً في أمورنا و حاجاتنا، و تحصل لنا منه قواعد مضبوطة؛ و لكن نظام النار هذا مثلا الذي نحن مقيدون به، لا خالق النار، و واضع نظامها؛ ليس بمانع أن يجعلها الله برداً و سلاماً على نبيه و خليله إبراهيم صلوات الله و سلامه عليه؛ تأييداً لرسالته من عنده".

قلنا هذا، و أكثر من هذا، في صفحات (القول الفصل)؛ التي أشرنا إليها، و قرأه الدكتور الطويل، ثم قال المذكور سابقاً، كأنه لم يقرأها، و افترض أن القراء يقرأوها أيضاً.

و قرأ الدكتور في ص 121 -رداً على الشيخ رشيد رضا، القائل بأن المعجزات الكونية شبهة لا حجة-، قولي: "اعتبر قول علماء المصريين حجة، حين لا يعتبر معجزات الأنبياء حجة، و لا تعبير القرآن عن تلك المعجزات، تارة بالحق، و تارةً بالبينات، و تارةً بالآيات الكبرى، و تارة بالسلطان، و تارة بالبرهان، و تارة بالفرقان<1/50>؛ حجة في أنها حجةٌ"؛ و قرأ بعده الآيات التي تنطوي على هذه التعبيرات؛ ثم قال قوله المذكور سابقاً: [إن القرآن وحده هو الحجة القطعية على نبوة الرسول، و ما عداه شبهة لا حجة].

و نحن نقول هنا: إذا كان القرآن حجة قطعية على نبوة رسولنا، لزم أن يكون حجة أيضاً على أن معجزات الأنبياء غير القرآن حجة على نبواتهم، بشهادة القرآن في آياته التي أشرنا إليها و أحصيناها في (القول الفصل)؛ أفتؤمنون ببعض الكتاب و تكفرون ببعض؟ أم تقولون أن القرآن شهد على نبواتهم، فلا حاجة إلى شهادة معجزاتهم، التي هي شبهة، لا حجة؛ رغم تعبير القرآن عنها بأسماء عالية؟

فـإذن يلـزم أن تكـون نبـواتهم قبل نـزول القـرآن قائمة على شبهة، و إيمان من آمن بهم في عهـدهم مبنيـاً على شبهة، و معجزاتهم بعد أن نزل القرآن، و أشاد بذكرها، و تفنن في الإشادة أي تفنن؛ لا تزال شبهة.

أمثل هذه اللوازم المتصلة بإنكار حجية المعجزات، و الـتي ينقض بعضها بعضاً، تتفق مع منطق العقـل، حين لا تتفق المعجـزات نفسـها معه من غـير تأويل يخرجها عن كونها معجزات؟؟؟

و لو كـان الـدكتور الطويل، و غـيره ممن يصـرون على تأويل المعجـزات، و اعتبارها شـبهة لا حجـة، مثل الشـيخ رشيد، مصارحين بأنهم لا يـأبهون بنصـوص القـرآن الـتي أحصيتها في (القول الفصل)، لكونهم غير مخلصين أيضـاً في الإيمان بحجية القرآن، لهان الأمر، و انتهى الكلام.

و هذا هو الاتجاه الحـديث، الـذي قيل عن أعلامه بمصر إن الشـيخ مصـطفى صـبري هـاجمهم؛ أما ما قيل في نفس الهـامش عن مهاجمته بقسـوة على تعريف الشيخ محمد عبـده للنـبي، و رد الـدكتور الطويل عليه بـالتخفيف؛ فقد أرجأت التكلم عليه إلى محله.

و قد طـال الكلام هنا قبل الـدخول في الكتـاب، و سـبق الجواب على ما يرى في أسلوب نقدي من القسوة.

و لي جواب آخر عليه؛ و هو أن مـوقفي في الكتـاب ليس موقف الوعـظ؛ و لو كـان كـذلك، لكـان <1/51> الرفـق، و اللين أوفـق، و أنجـع؛ و كـان للوعظ أهل غـيري، من أهل اللسـان العـربي؛ لكن موضـوع الكتـاب علمي بحت، تنفق في سوقه الحقائق، المجـردة من كل تمويـه، و تطليـه، و تُقرع فيه الحجة بالحجة.

و لا بدع إذا كان صوت القراع و الصدام شديداً؛ لاسيما مع أصـحاب الأقلام الـذين طالما تلاعبـوا بعقـول قـرائهم، و بـاعوا الضـلالة بيع الهـدى، حـتى إنهم إذا عرضـوا على الناس الإيمان بالله، عرضوه غير مستيقنين، إن لم يكونوا مستبطني الإلحاد؛ أو إذا عرضوا عليهم الإيمان بالرسـول لا تكـون بضـاعتهم في ذلك غـير سمسـرة للمستشـرقين أعداء الإسلام؛ و لا شك أن إنقاذ القـراء، و اجتـذابهم من أيديهم يتطلب عملا عنيفاً، و صراعاً قاسياً.

فأمامنا عند النقـاش محـاربون لعقيـدة الإسـلام، محاربة مباشِـرةً، أو من وراء الحـواجز، و اللين مع المحـارب من شيمة الأحمق، أو العاجز.

هــذا، و قد يخطر ببــال بعض قــراء الكتــاب، أن بعض المناقشات التي عنيت بها كـان المحل الأولى به الصـحف و المجلات، لاسيما و في ذلك عـدم التـأخر في الـرد على ما يستحق الرد من الأقوال، و الأفكار الـتي انتقـدتها في الكتاب، عن أوانه.

و الجواب عليه: أن تلك الأقوال المنتقدة نُشرت متفرقـة، في أزمنة مختلفــة، و لفتت نظــري، فــأثرت في نفسي تـدريجاً؛ حـتى حصل عنـدي من مجموعها خـبرة و قناعة بمقـوف مصر من الإسـلام، و حاجتها إلى ما قمت به في هـذا الكتـاب من تـدقيق مسـائل هامـة، متعلقة بأصـول الدين، و فلسفتها، و إزالة شبه الزائغين فيها.

و قد عرضتها في الكتـاب شـواهد فعلية لأنـواع ذلك الزيغ المطلـوب إزالتـه، و كـان الأولى و الأوقع في النفـوس عرضـها جملـةً، و الـرد عليها جملةً، و تخليـدها جملةً في كتـــاب، لا تفريقها في مقــالاتٍ مفرقــــةٍ على الأزمنة المختلفـــةِ، و الصـــحف و المجلات المختلفة و القـــراء المختلفين.

و لقد رأيت كثيرا من كبريات الصحف و المجلات الواسـعة الانتشار واقعةً تحت سـيطرة كتـاب متـآزرين في السـعي لإضعاف نفوذ الدين في المجتمع متلاعـبين بأحكامه<1/52> و قواعده؛ فلهـذا لا تتسع صـدور تلك الصـحف و المجلات لمقالات الذود عن الدين برغبة صحيحة[16].

و قد ضـــاق نطـــاق اســـتطاعة مصر المالية إلى الآن عن تأسـيس جريـدة يومية إسـلامية، في حين أنها تملك عـدة جرائد حزبيـــــة؛ أما المجلات الإســــلامية بمصر فهي إما ضعيفة الانتشار، أو ضعيفة التمسلك بالمبدأ.

فقد رأينا (مجلة الإسـلام)، لم تحجم عن رثـاء مصـطفى كمال -جاعل دولة الترك المسلمة لا دينيـة، و مـاحي آثـار الـدين فيها حـتى الحلف الرسـمي باسم اللـه- لما مـات؛ فبكت عليه مع الباكيات، و كم ذا بمصر من المضحكات.

و على الـــرغم من أن كلمة التعريف بمنهج الكتـــاب في البحث و النقد تزداد طولاً على طولها، بانتقال الكلام من مسألة إلى مسألة، و تؤخر الدخول في الكتـاب على قـدر طولها؛ لا بد من إيراد مثـال لعـدم اتسـاع صـدور المجلات المعروفة بين العصـريين بمصر لمقـالات الـذود عن حمى الـدين، و كرامة أهلـه؛ حـتى بعد أن كـان الاسـتفزاز إلى الذود وقع من جانب تلك المجلات بمقالات منشورة فيها.

فقد كتب الأستاذ فريد وجدي بك مقالة افتتاحية لـ (مجلة الرسالة، عدد 602)؛ عنوانها الدين في معترك الطـرق؛ و كـانت مقالـةً يُظن من خطورتها الناعية للـدين أنها تثـير عواطف شـديدة، في قلـوب أهل الـدين، الـذين لا بد أن يكونـوا موجـودين في هـذه البلاد، و عائشـين؛ مهما نعي الـدين نفسه من زمـان، و انقضى عهـده، كما نصت عليه مقالة الأستاذ.

و كانت هذه المقالة كالذكرى عن ميت قديم، ربما لم يبق منه عظم بدون أن يدركه البلى؛ و كانت كذكرى شماتة، لا ذكـرى حسـرة، أو رحمـة؛ أو العلاج الـذي ذكـره صـاحب المقالة لإحياء هذا الميت، أشبه بالهزء<1/53> و السـخرية، أو الشـعوذة، منه بـالعلاج؛ و مع كل هـذه الـتي تضـمنتها مقالة الأستاذ، فلم تحرك ساكنا، و الحركة الـتي أردت أنا إبـداءها قد قـوبلت بمحاولة الإطفـاء و الإخفـاء من بعض شركاء الناعي الشامت، الذين يظاهرونه من وراء الستار.

و هذا هو المعـنى الظـاهر من كتـابتي الـرد على الأسـتاذ فريد وجدي، و إرساله إلى (الرسالة) لتنشره، كما نشـرت مقالة الأسـتاذ، ثم إبـاء (الرسـالة) عن نشـره، و انفهـام إبائها بعد انتظار النشر بأسابيع.

و لم يكن نشر مقالة الأسـتاذ في (الرسـالة)، دون (مجلة الأزهر)، التي هي مجلته نفسه، صوناً للأزهر عن مثل تلك المقالة الماسة للدين؛ بعد أن لم تُصن المجلـة، و الأزهـر، عن كـاتب المقالـة، طيلة سـنوات، تسـتغرق تمـام عهد المشيخة الثانية للشيخ المـراغي، و الشـيخ مصـطفى عبد الرزاق، و قسماً من عهد مشيخة الظواهري قبلهما....

---

[16] فقد كانت (جريدة الأهرام) تنشر مقالاتي، و تشيد بها أيام كانت تصدر تحت إشراف الأستاذ داوود بركات، ثم تغـير وجه الجريـدة في اسـتقبال ما أكتبه إلى حد أنها أبت في عهد أنطـــــون الجميل باشا الإعلان عن كتابي المسـمى (القـول الفصل بين الـذين يؤمنـون بـالغيب و الـذين لا يؤمنـون) المنشـور في السـنين الأخـيرة مع اسـتلام نسـخة من الكتـاب مهداة إليها، اتباعاً لعادة الإهداء إلى الجرائد من مـؤلفي الكتب، فـأعلن عنه كل جريـــدة أهـــديت إليهـــا، و اطلعت هي على محتوياته و شـــذت (الأهرام) في الإباء عن الإعلان.

بل اختير نشرها في (الرسالة) ليقرأها المثقفون العصريون، الذين لا يقرأون (مجلة الأزهر)، و إن كانت تصدر تحت رئاسة واحدٍ منهم.

و إني أريد أن أكتب هنا مقالتي، التي لم تحظ عند (الرسالة)، توفية للمثال حقه، و قبل الشروع في المقالة، أريد البحث عن سبب هذا الحرمان، ماذا يمكن أن يكون؟

لا تأبى (الرسالة) نشر مقالة الدكتور زكي مبارك، التي يعبر فيها عن علماء الدين بالجهلة، كما يأتي نصه؛ و تنشر مقالة الأستاذ فريد وجدي، الذي يردد فيها ذكر أهل الدين الصادقين في إيمانهم بالله و رسله باسم "الاعتقاديين"، و يصفهم بالسذاجة العامية، و يرى الدين نفسه تحت شبهات لم تدع محلاً للعقيدة، بعد أن أخذ العلم ينتشر بخطواتٍ واسعةٍ، و ضعفت حجة الاعتقاديين أمام هذا التحدي[17] <1/54>.

تنشر (الرسالة)، و سائر المجلات بمصر الراقية في أسلوبها الأدبي -كأن بين الأدب الراقي، و بين ضعف الدين نسباً- هذه الطعنات في الدين، و أهل الدين على حين غفلة، أو مسامحة من الشعب المتدين، سواء كانوا مسلمين، أو هوداً، أو نصارى.

و على حين أكثر من مسامحة من حكومة البلاد، التي لها دين رسمي -و ليس الرسمي هنا بمعنى ضد الحقيقي-؛ تنشر تلك المجلات مقالات الطعن في الدين، و يتسع لها صدرها اتساعاً لا يخلو من الترحيب.

و تنشر (الرسالة) مقالات لمؤلف كتاب (لماذا أنا ملحد؟)، أو تعتذر إليه في غاية من اللطف و المجاملة؛ و لا تنشر مقالة الدفاع عن الدين، رداً على المعتدين.

و إني أقرأ في الصحف شيئاً كثيراً عن حرية الصحافة في البلاد الديموقراطية، و عن الاهتمام العظيم بشأنها؛ فهل المقصود منها حرية خاصة بأصحاب الصحف التي هي صاحبة الجلالة كما يقولون؛ من غير أن يستفيد منها غيرهم من أفراد الأمة، إلا بشرط أن يدخلوا تحت حماية أصحاب الصحف؛ فتكون حصة الأمة من هذه الحرية الخاصة بالصحف مقصورةً على قراءة ما ينشر فيها، حتى إذا أنكرت صحيفةٌ فيما تكتبه حقاً، أو روّجت باطلاً، أو مست كرامةً، و أراد أي واحد من القراء الرد على ذلك، فالصحيفة حرةٌ في نشر الرد، أو وقفه بعيداً عن وقوف الجمهور عليه.

فعلى الحكومات أن تعترف بحرية الصحف، و ليس على أصحاب الصحف أن يعترفوا بحرية النشر للناس؛ فمن أراد الحصول على ذلك، فليؤسس صحيفة لنفسه، إلى أن ينقلب القراء كلهم صحفيين، أو يسايروا أهواء الصحفيين!!

فأنت إذا فتشت عن دخيلة الصحف و المجلات بمصر، وجدت في أصحابها المدعين <1/55> لحرية النشر كثيراً من أعداء هذه الحرية.

نعم، أنا معترف بمعذرة الصحف و المجلات، إن لم تنشر كل ما ورد إليها من القراء، ففيه ما يجدر بالنشر، و فيه ما لا يجدر.

و الثاني ينقسم إلى ما لا يجدر لتفاهته، أو مضرته، أو لعدم توافقه مع مبدأ الصحافة؛ و أنا أسلم بحرية الصحف أيضاً في امتناعها عن نشر ما لا يتفق مع مبدئها؛ بشرط أن تكون مصارحة لذلك المبدأ.

أما المستترون في المبادئ، ففيهم الطامة الكبرى، و عليهم ينطبق قول أبي العلاء المعري: "نطق اللسان، لا ينبئ عن اعتقاد اللسان"؛ و هم الذين ينشرون كل دعاية ضد الدين، لاسيما إذا كان تحت ستار التعبير بـ "الغيب"؛ و يكفون عن نشر كل دفاع عن الدين، لاسيما إذاكان الدفاع قوياً.

و لا محل لاحتمال أن يكون ردي على مقالة الأستاذ فريد وجدي بك لم يعجب (الرسالة)، لشدة لهجته؛ إذ لا يكفي كون الرد شديد اللهجة، مانعاً عن نشره، إذا كان المردود كبيرة من الكبائر؛ و أي ذنب أكبر من التشكيك في الدين؟

و عند ذلك يكون التشدد في الرد عملاً بمقتضى الحال، الذي يُهتم به في قانون البلاغةِ، و إن لم أكن أنا من البلغاء[18]، و لا يلام على الرد الشديد اللهجة، إلا إذا كان مع ذلك ضعيف الحجة؛ أما شدة اللهجة، مع قوة الحجة، فلا يرغب عن نشر مقالة تجمع بينهما، إلا ناشرٌ يضمر المخالفة لمبدإ المقالة، و يتظاهر بعدم الموافقة على لهجتها.

و في ظني -الذي يوشك أن يكون يقيناً- كان السبب في استنكاف (الرسالة) عن نشر ردي ما ذكرته في هذه الصورة الأخيرة، و كان الذي لم يعجب المستنكفين عن نشر الرد، قوة حجته، التي لا تدع استطاعة الجواب للأستاذ المردود عليه، المتفق مع (الرسالة) في المبدإ؛ لا شدة لهجته، التي يمكن أن يتعللوا بها، و هي في الحقيقة شدة الوطأة.

و المقصود من عدم النشر، محاباة الأستاذ فريد وجدي من (الرسالة)، و هي السلاح السري لشركة احتكار النشر في هذه البلاد، التي يتعارف أصحابها فيما بينهم بتوافق المبادئ [غير مصارحين بها غير أمثالهم]؛ كما يقول الأستاذ فريد وجدي -في مقالة أشرنا إليها، و سنضعها موضع البحث- عن نوابغ الكتاب و الشعراء في الشرق الإسلامي، [المستبطنين للإلحاد، المهيئين أذهان الناس لقبوله، دساً في مقالاتهم، و قصائدهم، غير مصارحين بها غير أمثالهم][19].

---

[17] لا يقال إن مقالة الأستاذ فريد لم تجد محلها في صدر (الرسالة)، لكونها مقالة اعتداء على الدين و أهله، بل باعتبارها مقالة المعالجة، التي تنجح في إزالة الشبهات العصرية، المتوجهة إليه، بعد ما تبين عدم فائدة المعالجة القديمة؛ لأني أقول إن كان هذا زعم (الرسالة) في مقالة الأستاذ فريد؛ كان الواجب عليها تصحيح خطئها الفاحش في ذلك الزعم بعد مطالعة مقالتي، التي أحييت فيها ما أماته الأستاذ من المعالجة، و أمت ما أحياه؛ فإن لم يكن تقدير (الرسالة) لمقالتي بهذا الحد الذي أقدره أنا لها؛ فلا أقل من أن يعرضها على الرأي العام، بدلا من إخفائها؛ و إلا كان هذا اشتراكاً لـ (لرسالة) مع الأستاذ في الجناية على الدين، المصورة في صورة الخدمة له.

[18] فإن كنت لم أحسن في ردي الشديد اللهجة على مقالة تصور ديني مهزوماً في معترك الشكوك شر هزيمة؛ بل ميتاً مدفوناً في قلوب السذج من العامة.. فهل أحسنت (مجلة الرسالة) في دفن مقالتي في سلة الإهمال، مانعة لها عن أن تجد محلاًّ، و لو في قلوب العامة، بجانب الدين المدفون؛ حين كانت المجلة فتحت صدرها للمقالة المردود عليها، و حين كانت مقالتي وحيدة في الرد؟

[19] أما احتمال كون مقالتي تستهل بصب الملام على الشيخ محمد عبده، إمام مصر الحديثة، لم يعجب (الرسالة)، و سبب الإعراض عنها، فجوابي عليه: أن مقالة الأستاذ فريد، التي يتسع لها صدر (الرسالة)، تحارب الأدلة القديمة التي كان يقوم عليها إثبات وجود الله، و لو إلى حين الحصول على ذلك الدليل الجديد؛ فكيف يصبر أصحاب (الرسالة) على هذا، و لا يصبرون على ما في مقالة الرد على مقالة الأستاذ من كسر بعض الأصنام الجديدة المصرية؛ و إني أوردت في هذا الكتاب انتقادات هامة علمية، على آراء هذا الإمام، و تلامذته الآخذين منه؛ فالواجب على كل من يريد الانتصار له أن يجيبوا على تلك الانتقادات لا أن يسدوا آذانهم لئلا يسمعوا الكلام ضده؛ فإن كان الدفاع عن كرامة الإمام محمد عبده و تلامذته عند هؤلاء الأنصار أهم، و ألزم من الدفاع عن حياة الإسلام، و كرامة أصول الدين، فلا كلام لي معهم.

و الآن نشرع في عرض مقالة الرد على الأستاذ فريد وجدي، التي لم يجد محلا للقبول في صفحات (الرسالة)[20]، على نظر القارئ، و بها تنتهي الكلمة الطويلة، المتقدمة على الكتاب<1/57>:

آخر وحي الغرب إلى الأزهر الحديث:

عفا الله عن الشيخ محمد عبده، لما أراد النهوض بالأزهر، حارب علماءه القدماء، و فض المسلمين، و خصيصا الشباب المتعلمين من حولهم... حاربهم حتى أماتهم، أو على الأقل أنساهم نسيان الموتى.

فأصبح بفضل النهضة التي نادى بها الشيخ محمد عبده، يقول رجل مثل الدكتور زكي مبارك (الرسالة، عدد 572): [نزعنا راية الإسلام من أيدي الجهلة (يريد بهم علماء الدين)، و صار إلى أقلامنا المرجع في شرح أصول الدين].

و لم تقف الحالة التي أدى إليها مشروع محمد عبده، فيما ذكرنا من مرحلة الهدم، بل ظهر الأستاذ فريد وجدي بك منذ سنوات على منبر الأزهر الناهض، فحارب علوم العلماء الذين حاربهم الشيخ محمد عبده فقتلهم، و قتل الأستاذ فريد علوم هؤلاء العلماء المقتولين، و على رأسها علم أصول الدين.

حتى أنه قال في الجزء التاسع من المجلد الثاني عشر من (مجلة الأزهر)، التي يديرها، و يرأس تحريرها: [فإذا كان في الأرض دين تأبى طبيعته أن ينشأ فيه علم الكلام فهو الإسلام].

و قد كانت النتيجة الطبيعية لإماتة علماء الدين و علومهم التي يعتمد عليها الدين موت الدين نفسه؛ فقد وقع ذلك أيضاً بفضل هذا الأستاذ! و كم لعب في مقالاته دور النعي له.

و هو الذي كتب في مقالة قديمة له عنوانها (سطوة الإلحاد على الأديان): [تقدم الزمان، و أفلتت الحكومات من سلطان رجال الدين، فاقتصر سلاح الدين على ما كان لديه من قوة الإقناع، و في هذه الأثناء كان العلم يؤتي ثمرات من استكشاف المجهولات، و تخفيف الويلات، و ترقية الصناعات، و ابتكارات الأدوات، و الآلات، و يعمل على تجديد الحياة البشرية تجديداً رفعها عن المستوى؛ فشعر الناس بفارق جسيم بين ما انتهوا إليه في عهد الحياة الحرة، و تحت سلطان العلوم المادية؛ و بينما كانوا عليه أيام<1/58> خضوعهم لحفظة العقائد؛ فانتهز الإلحاد فرصة هذا الشعور الجديد، و ازداد كلَباً على مهاجمة الدين، و استهتر في فظائعه فرمى إلى القضاء عليه القضاء الأخير].

و كتب قبل أسبوعين، مقالة افتتاحية لـ (مجلة الرسالة، عدد 202)، بعنوان الدين في معترك الشكوك، ردد فيها ذلك النعي، قائلاً: [حفظ الدين وجوده في العصور الأولى للإنسانية بالغريزة الطبيعية، فلم يجد العلماء في تاريخها كله جماعة مجردة عن الدين، حتى فيما نقبوا عليه من عهودها الأولى قبل التاريخ.

و لما أحال الإنسان فكره في الوجود المحيط به، و نشأت فيه خاصة النظر و الاستدلال، أيد الإنسان دينه بالعقل.

و لما استبحر علم الكون، و افتتن العقل بالبحوث المادية تحت تأثير المكتشفات الطبيعية في عالم القوى و النواميس، و وضع الدستور العلمي[21]، و ظهرت آثاره في ترقي المعارف، و تجنب الأخطاء التي كان دليلها مجرد النظر العقلي، لم يعد للمنطق سلطان على الإنسان، و أصبح الدين لا يستطيع البقاء، إلا إذا كان له دليل من الوجود المحسوس؛ و صرح علماء القرن الثامن عشر، و التاسع عشر بأن عهد الدين قد انقضى، و أن بقاءه على الأرض مرتبط ببقاء السذاجة العامية، فإذا نشر العلم على العامة رواقه، زال الدين كما يزول كل ما ليس له أصل ثابت يقوم عليه.

على هذا كان الإجماع منعقداً في العالم العلمي إلى زمان ليس ببعيد؛ فهل العقل يكفي لإيجاد الإيمان في العهد الذي نحن فيه؟

يكفي إذا كان يستمد مسلماته من العلم الكوني المحسوس، أما و العقل الذي يعتمد عليه الاعتقاديون يقوم على مسلمات، لا زال في نظر العلم مسائل تعوزها الحلول<1/59>؛ كنشوء الكون و المادة.... الخ؛ فما يقرره الاعتقاديون اعتماداً على أمثال هذه المسلمات، لا يراه العلم جديراً بالاعتبار[22].

و معنى هذا أن الاعتقاديين في هذا العصر قد أصبحوا عزلا من الأسلحة، التي تصلح للكفاح في هذا المعترك؛ فإذا لم يستكمل هذا النقص فلا يرجى للموضوع الذي هم بسبيله بقاء].

و نحن نقول بعد التنبيه على أن مراد الأستاذ من الذين يسميهم [الاعتقاديين]، هم المؤمنون بالدين؛ إنا نرى في هذا الكلام الذي نقلناه عن (الرسالة) بنصها؛ نص الدين بتمام معنى الكلمة من الأستاذ ترجمان لسان الأزهر، و اعترافاً منه بأن الدين ليس له في العصر الحاضر أصل ثابت يقوم عليه.

ثم أيد الأستاذ كلامه بقول و. ميرس، مدرس علم النفس بجامعة كمبردج: [كنت مقتنعاً بأنه لو أمكنت معرفة شيء عن العالم الروحي على أسلوب يستطيع العلم أن يقبله، و لن يكون ذلك بالتنقيب في الأساطير القديمة (يريد المعجزات، المنقولة إلينا من عصور الأنبياء)، و لا بالتأمل في علم ما بعد الطبيعة (كاستدلال علماء الكلام على وجود الله بالأدلة العقلية)، و لكن بواسطة التجربة، و المشاهدة؛ و بتطبيقنا على الظواهر التي تشاهد أساليب المباحث المضبوطة، هذه المباحث لا يجوز أن تبنى على التأكيدات التي صدرت عن هذا الوحي أو ذاك، بل يجب أن تؤسس ككل بحث علميٍّ بمعناه الصحيح على<1/60> تجارب يمكننا تكرارها اليوم، مؤملين أن نزيد عليها غداً، و يكون الدافع إليها هذه القضية؛ إذا كان يوجد عالم روحاني ظهر للناس في أي عهد كان، فيجب أن يكون كذلك قابلاً للظهور في أيامنا هذه..].

يشترط مدرس كمبردج للاقتناع بصحة الأديان المنقولة إلينا من عهود الأنبياء، و التي تستند إلى نزول الوحي عليهم، بتلك الأديان، من عالم غير عالمنا، يعني من طرف الله؛ فكان لهم على ما يقولون اتصال بذلك العالم، يشاهدون منه أموراً مثل ما نشاهد نحن من عالمنا الحاضر.

---

[20] و كانت مقالة الأستاذ فريد أولى من مقالتي بكف (الرسالة)، عن نشرها قائلة: ألا تكفي الأستاذ مجلته الأزهرية؟

[21] مراد الأستاذ من [الدستور العلمي] الذي يردده في مقالاته أن كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا يعتد به.

[22] يتمسك الأستاذ، رئيس تحرير (مجلة الأزهر) في معترك الشكوك الذي أثاره ضد الدين؛ بما يتمسك به منكرو الأديان القائلة بأن الله كان و لم يكن معه شيء، و أنه خلق العالم من عدمٍ؛ فيدعي المنكرون أن العالم قديم بمادته، غير قابلٍ للخلق و الإيجادِ؛ و الاستاذ رئيس التحرير يقيم لتلك الدعوى وزناً، حتى بعد أن كشف العلم -الذي يعتمد عليه الأستاذ في إثارة الشكوك ضد الدين- عدم وجود المادة، فضلاً عن قدمها الذي يمتنع معه عدمها، و الذي كان يقول به أدعياء العلم إلى يومنا هذا... و سيجيء منا في هذا الكتاب فصل خاصٌّ بحدوث العالم.

فيشترط هذا المدرس الإنجليزي للتصديق بصحة وقوع تلك الحالات المروية عن الأنبياء، أن يظهر لنا في هذا الزمان أيضاً مثل ما ظهر لهم، فينزل علينا مثلا الوحي من الله، كما نزل عليهم، و يظهر على أيدينا ما كان يظهر على أيديهم من المعجزات!!!

فكأن الرجل يقول: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله!!!!

و يقول الأستاذ فريد وجدي بك في مقالته، بعد أن نقل قول المدرس الإنجليزي: [و نحن نقول هذا شرط العلم في قبول الأصول الاعتقادية (يعني في الاعتراف بصحة الأديان السماوية كاليهودية، و المسيحية، و الإسلام)، و هو شرط لا يجوز الاستخفاف به، و لا إغفاله؛ لأن العلم آخذ في الانتشار بخطوات واسعة، و أساليبه المحررة (أي المحررة للإنسان من التقيد بالقيود الدينية)، و آثاره الفاتنة أثرت في العقول أبلغ تأثير؛ و انتشرت معها شبهات لم تدع محلا للعقيدة، و ضعفت حجة الاعتقاديين (يعني المؤمنين بالأديان) أمام هذا التحدي ضعفاً ظهرت آثاره في الجماعات، و خاصة في البلاد الشرقية].

و نحن نرى الأستاذ فريد يحكي في هذه الجمل ما وقع في الشرق، لاسيما الشرق الإسلامي، و لاسيما بين متعلميه العصريين من انتشار التجرد عن الدين، يحكي ما وقع من غير تحميل تبعة الواقع على عاتق أحد، غير الدين نفسه؛ فكل ما مني<1/61> به الدين عند الأستاذ من الاندراس ناشئ من ضعف حجته أمام انتشار حجة العلم، المشهود آثاره كل يوم بالتجربة، في حين أنه لا نصيب للدين من تأييد التجارب.

فالعلم الحديث أصبح في زماننا ألد أعداء الدين الذي زاحمه إلى أن قضى عليه القضاء الأخير؛ و هذا القضاء أمر طبيعيٌّ على ما قاله الأستاذ من أن آثار العلم الفاتنة، أثرت في العقول أبلغ تأثير.

لكن هذه العقول لا قيمة لها عندنا، بل عند أصحابها أيضاً، لكونها عقول الذين يقولون: [ليس للمنطق سلطان على الإنسان]؛ و يقولون: [إن مجرد النظر العقلي يكون دليل الأخطاء]؛ فهي عقولُ الذين خرجوا على سلطان العقل و المنطق.

و هل يعرف أصحاب تلك العقول أن عدم كون الدين مؤيداً بالتجربة ليس لعيب في الدين، بل في التجربة نفسها؛ لكونها ميزاناً قاصراً على الماديات، و الدين أرفع شأناً من أن يدخل في متناول هذا الميزان، و إذا لزمت التجربة للدين، فلا يجربه إلى العقل، الذي هو أيضاً منحة للإنسان من العالم العلوي، كالدين؛ و الذي يسمونه العلم، و يقوم على التجربة، فإنما يكون نفعه في الماديات، لا في المعنويات؛ و كل مخترعات الغرب أمور مادية، يستخدمونها في تطمين شهواتهم و مطالعهم.

فهم و إن كانت لهم عقول، فلا يهتمون بها إلا للاستفادة منها في المنافع الدنيوية، و لا ينقادون لأحكام العقل في غير ذلك، و لهذا نرى مقلديهم منا، كالأستاذ صاحب المقالة المنتشرة في (الرسالة)، تتناقض آراؤهم في أمر العقل، يجلونه تارةً، و يحتقرونه أخرى، كما سبق مثاله آنفاً؛ و احتقارهم العقل إزاء التجربة، حجة قاصرة، ينطبق حكمها على عقول المحتقرين فقط.

و على كل حال، ففي عقول الغربيين و المنهمكين في المادة، و عقول مقلديهم منا خلل يستعصى على مداويه، و هم رغم تبجحهم بفهم أسرار الكون، لاسيما ما يكون كثير الاتصال بنا منها، بعيدون عن فهم ماهية العقل، كما أنهم بعيدون عن النجاح في معالجة الأمراض العقلية، رغم ترقيهم في الطب، فلا يتصور منهم يوما من الأيام أن يعملوا فيما عملوا، و يعملون من الأعضاء الصناعية للإنسان، مخاً صناعياً، مع أن صنع المخ ليس صنعاً للعقل.<1/62>.

نعود إلى ما كنا فيه، فأستاذ (مجلة الأزهر) يتفق مع أستاذ جامعة كامبردج -كما تبين مما نقلنا عنهما- على أن ثبوت الدين في نظر العلم يتوقف على كون أصوله الاعتقادية ككل بحث علمي بمعناه الصحيح، مؤسسة على تجارب حسية، يمكن تكرارها لكل من أراد؛ فيجب أن لا نؤمن بوجود الله من دون أن نرى شخصه، أو نسمع صوته يكلمنا كما يكلم واحد في التليفون أو الراديو على الأقل؛ و أن لا نؤمن بالأنبياء الماضين، إلا بشرط أن يأتينا ما أتاهم من الوحي، أو الملك المبلغ عن الله، أو الكتاب المنزل من السماء؛ و إلا بشرط أن يظهر على أيدينا ما ظهر على أيديهم من المعجزات المعبرة بالأساطير، ما دام هذا الشرط لم يتحقق إلى الآن؛ و يجب أن تكون التجربة لصحة الدين و ثبوته كتجربة كون النار محرقة، أو كتجربة كون التيار الكهربائي قاتلا إذا مس الإنسان أو الحيوان؛ و يجب أن يتبين خطأ المنكر للدين عند التجربة الحالية، كما يتبين خطأ المنكر لاحتراق النار، أو خطر التيار الكهربائي.

و نحن نقول: لكن طبيعة الدين تأبى الشرط، الذي اتفق على قبوله عقل الأستاذين و ذوقهما، فهو لا يكون إلا غيباً كما جاء في نص القرآن، فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر، و ما أحسن قول الشاعر التركي القديم:

غيبه إيمان كتير أي ملحد بي دين كه سكا	آخر تدن خط تعليق ايله حجت كلمز

و معناه: "آمن بالغيب أيها الملحد، إن كنت تريد أن تكون مؤمناً، و إلا فلن تأتيك براءة من الآخرة بالخط الفارسي أو الديوان، كما تخط به البراءات".

و الأستاذان المتفقان يحاولان في الشرط الذي وضعاه للإيمان أن لا يبقى امتياز المؤمن على الكافر، فإما أن يتحقق شرطهما، فلا يبقى على الأرض كافر، كما لا يوجد أحد ينكر كون النار تحرق يده عند مماستها؛ و إما أن لا يتحقق شرط الأستاذين، فلا يبقى على الأرض مؤمن بالدين.

لكنهما لا يدريان أن الإيمان يتجلى في الإنسان بهداية الله و توفيقه؛ فلا يزال<1/63> الناس منقسمين بين من شرح الله صدره للإيمان، فيؤمن مستغنياً بأدلته العقلية عن غيرها، و بين من جعل صدره ضيقاً حرجاً ليشترط على إيمانه بما يجعل الدين من الأمور العادية، التي لا يختلف فيه الناس، و لا يمتاز من ينتفع بعقله على من لا ينتفع.

و لا يدري هذا القسم الغافل أنهم لا يؤمنون حتى و لو تحقق شرطهم الذي لا يتحقق، كما قال الله تعالى في الذين حُرموا هداية ربهم، و حقت عليهم الضلالة: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[الأنعام:109-111].

و أنا لا أتعجب من أستاذ كمبردج، و إنما أتعجب من الأستاذ فريد وجدي بك، الذي يقال إنه كتب فيما مضى تفسيراً للقرآن، أو كتب القرآن مفسراً؛ كيف لم ير هذه الآيات!!!

لكن المسألة إذا كانت في هداية الله، أو الحرمان من هدايته، فلا عجب مطلقاً، إذ ليس موقف من اشترط على الإيمان شرطاً بعد أن رأى هذه الآيات في كتاب الله، بأعجب من موقف الذين نزلت الآيات المذكورة لبيان مبلغهم في عدم الاستعداد للإيمان.

و لم يفكر الأستاذ الأول و لا الثاني -الذي يصدق الأول في اشتراطه للاقتناع بالدين، اقتناعه بوجود عالم روحاني وراء هذا العالم الجسماني-، أن رأس الدين هو الاقتناع بوجود الله، و أكبر شبهة الشاكين في الدين، يكون في وجود هذا الرأس؛ و بعد الاقتناع بوجود الله، فكل مشكلة سهلة الحل.

فإذا لم ينفع الأستاذين مثول هذا العالم الجسماني أمام أعينهما بكل عظمته و بداعة أنظمته، في الدلالة على وجود الله، مالك هذا العالم و موجده؛ فأولى بأن لا ينفعهما ظهور عالم آخر لأعينهما، أخفى من عالمنا لكونه غير جسماني؛ و أولى بمن لا يعترف بحاجة العالم الجسماني<1/64> يكون وجوده في غاية الظهور، إلى موجد ذلك العالم و مالكه: أن لا يعترف بالحاجة إلى الموجد المالك للعالم الثاني، الذي ليس في الظهور للعيان بدرجة العالم الأول، فيرتاب في وجود هذا العالم نفسه، قبل أن يرتاب في وجود موجده، و يعتبرَ ظهوره لعينه من قبيل الخيال الخادع.

ثم إن الأستاذ الثاني -أعني أستاذ (مجلة الأزهر)، و كاتب المقالة في (الرسالة)-، بعد اعترافه بوجوب تحويل الإيمان بالغيب لإثبات صحة الدين في نظر العلم، إلى الإيمان بالمعاينة... أشار إلى طريق الحصول عليه من اكتشاف العالم الروحاني، الذي يسعى له طائفة من العلماء في الغرب منذ مائة عام، و يزداد الأمل -أمل الأستاذ- يوماً عن يومٍ لفوزهم في مساعيهم!

كان الأستاذ قبل تعيينه مديراً، و رئيس تحرير لـ (مجلة الأزهر)، يهاجم الدين، و يهدمه بمعول العلم الحديث الغربي؛ و النزاع بين العلم و الدين معروف في الغرب، و لم يكن الدين الذي ينازعه العلم دين الأستاذ؛ و مع هذا كان ينقل ذلك النزاع ما بين العلم و ديننا؛ كأنه الآخر ليس دين الأستاذ أيضاً.

فلما جيء به قبل بضع عشرة سنة إلى رأس (مجلة الأزهر) ليبني الدين الذي هدمه، لم يدر ماذا يعمل؛ و ليس بواقع منه طول حياته الكتابية أن يتنازل عن رأيه، معترفاً بخطإه؛ فلاح له أن يهاجم العلم، الذي كان سلاحه عند مهاجمته للدين، فاشتغل بذلك حيناً، و لم يكن العلم علمه، كما لم يكن الدين دينه.

و إنما الذي للأستاذ من هذه الأمور، خالصاً، صحيح النسبة إليه، أن يكون واسطة الغرب إلى الأزهر، في أحدث آرائه و أفكاره، إن لم يكن آراء جميع العلماء هناك؛ فليكن رأي بعض منهم.

ثم ما وسع الأستاذ أن ينكر عدم إمكان القضاء على العلم، الذي يقضي على الدين، فأخذ يتزلف إليه من جديد، بدعوى كون الاستمرار في تجارب البحوث النفسية، و استحضار الأرواح، الذي ينتظر منه التأييد للدين، معدوداً<1/65> من الاستمرار في الطريق العلمي، و التأييد المنتظر من تلك التجارب تأييداً علمياً، فاهتم بهذه المسألة، و ذاك الانتظار، حتى جعل (مجلة الأزهر) مجلة دعاية لاستحضار الأرواح، و أداة لنشر، و ترويج أعمال المشتغلين به من الغربيين، في الشرق.

و أنا الذي[23] كنت أتعقب مقالات الأستاذ في "مجلة الأزهر"، و غيرها، منذ ناقشته على إنكار معجزات الأنبياء -و كان تعيينه لرئاسة المجلة قبل أن يجف مداد ذلك النقاش، في صفحات (الأهرام)، من عجائب مصر الحديثة، التي تبز عجائبها القديمة-؛ حتى رأيت انتهاء نزاع العلم و الدين في ذهن الأستاذ، و هو القائد الصحفي الأزهري، الأعلى لفض هذا النزاع و حسمه، إلى حالة النزع للدين، بل الحكم بموته و دفنه في قلوب من بقي على الأرض من العامة السذج.

الحكم بموته، و عدم إمكان إعادة الحياة إليه، إلا بشرط نجاح الغربيين المشتغلين باستحضار الأرواح في مهمتهم، علهم يجدون بين الأرواح التي يكتشفونها، أو يستحضرونها روح الدين أيضاً المفترقة من بدنه، فيعيدونها إليه، و ينقذون البشرية من وباء الإلحاد؛ إلحاد الخاصة العام، إن لم يكن إلحاد العامة!..

أنا الذي أتعقب مقالات الأستاذ و أمثاله ممن يتلقون الوحي من الغرب، حتى في الدين؛ تاركين وحي الشرق الإسلامي وراءهم ظهرياً؛ و أرى الصعوبات في مقابلة المقالات بالمقالات، للدفاع عن تراثنا العلمي جمة، من كون أولئك المستوحين المستعجلين في الشرق طلوع الشمس من مغربها؛ تغلبوا في حلبة الصحافة، و احتكروها، فضاقت على أقلام غيرهم بما رحبت.

قد كتبت كتاباً، هذا الكتاب، حللت فيه مشكلات<1/66> الأستاذ الاعتقادية، و ذللت بعون الله و توفيقه كل صعب في علاج مرضه العقلي العميق، الذي هو مرض مصر الحديث، و الذي قد يكون سبب هلاكها في الدنيا و الآخرة، إن بقي على حالته الحاضرة، و هو الكتاب الذي نشرت الباب الثالث منه قبل بضعة أعوام على شكل كتاب مستقل، مسمى (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون)، و أرجأت نشر الكل المسمى (موقف العقل و العلم و العالم من رب العالمين) إلى ما بعد أزمة الورق.

و هذا الكتاب الذي كرست فيه حياة مشيبي، حتى كان لي أرذلُ العمر بروح مستمدة منه، أعزه و الذي أرجو أن يكون كتابُ أعمالي يوم عرض الأعمال نسخةً منه... هذا الكتاب سأقدمه إلى مصر التي آوتني بعد مغادرة بلادي... أقدمه إليها لتقرأه، و تثبت عقيدتها الدينية المتزلزلة، من تشكيكات سماسرة الغرب الشرقيين، و ليس ببعيد أن يسألها الله عن هذا الكتاب فيما يسألها عند يوم الحساب.

لا أشتغل بتقريظ كتابي إلى القراء المصريين، فسيرونه، و إنما أنقل هنا صفحة منه، لتكون جواباً على مقالة الأستاذ المنشورة في (الرسالة)، الذي نعى فيها الأدلة العقلية، و نعى الدين المبني في الإسلام قِدَما على تلك الأدلة.

و الجواب بهذه الصفحة، من الكتاب المكتوبة من زمان المتقدمة على مقالة الأستاذ الجديدة؛ معجزةُ الدليل العقلي، الذي استهان به الأستاذ في مقالته.

فقد كان حضرته منذ مدة مديدة، يروج مسألة البحوث النفسية، و يعرضها على الأنظار، كملجإ للشاكين في الدين، مؤملاً منها إثبات الدين على الطريقة الحديثة العلمية، المبنية على التجربة الحسية؛ بعد ادعاء عدم كفاية إثباته بالطريقة العقلية، لكونها طريقة قديمة ميتةً، فأحييت في الكتاب طريقة الإثبات، التي أماتها الأستاذ، و أمتّ الطريقة التي اعتمد على حياتها؛ أمتُّها

[23] صفة "لأنا" المبتدأ لأخبر عنه، و الخبر "قد كتبته" الجائي بعد بضعة عشر سطراً، و الكاتب يحتاج إلى وصف الضمير عند اقتضاء الحال، و إن منعه ابن الحاجب رحمه الله في كافيته، قائلا: "و الضمير لا يوصف، و لا يوصف به".

فيما يتعلق بمسألتنا، و في غيرها فضلت ما جعله الأستاذ مفضولاً على ما جعله فاضلاً.

و دعواي هذه التي لا بد أن يستبعدها الأستاذ كل الاستبعاد، تنجلي في أعين الغافلين، عن عظمة<1/67> الإسلام، و متانة الأساس الذي وضع علماؤنا عليه إيمان المسلمين، تنجلي في أعينهم بعد التغلغل في أعماق الكتاب، و لا يمكنني أن أدرج كتابي المؤلف من أربع مجلدات كبيرة في هذه المقالة، مع أن في نموذج الإفحام الذي تضمنته الصفحة المنقولة عنه كفاية، و هي:

<<إن المؤمنين بالله القدماء، إيماناً بالغيب، أي من غير مشاهدته بإحدى الحواس الظاهرة، و لكن مستيقنين بوجوده كأنهم شاهدوه، لاسيما علماء المؤمنين، أسندوا إيمانهم -على قول الأستاذ و غيره من العصريين- إلى غير مسند، و هو الدليل العقلي، إلا أنهم كانوا يزعمونه دليلاً يُقتنع به، فاقتنعوا و آمنوا.

و لنقل: و قد تحقق بذلك ما ذكره الأستاذ في بعض مقالاته من أن الله تعالى يأتي العقول في كل زمان بما أحست الحاجة إليه من وسائل النجاح... و بانقلاب الزمان تبين للأستاذ و زملائه المتصلين بالعلم الحديث الغربي أن دليل الأولين ليس بدليل علمي جدير بالاعتبار، و الاقتناع -كما نص عليه في مقالته المنتشرة في (الرسالة)-؛ لكن الأستاذ وجد أخيراً ما يعوضه عما فات: و هو ما اكتشفه بعض العلماء الغربيين في بحوثهم النفسية، فاقتنع به و اعتبره دليلاً قاطعاً علمياًّ، و إن لم يوافقه على ذلك كثير من العلماء الآخرين، و قالوا: إنها أوهام قوم مخدوعين.

و على فرض كونه دليلاً قاطعاً يلزم التنبيه إلى أن ما وجده الباحثون الغربيون، و اكتشفوه بالطريقة العلمية التجريبية ليس ذات الله، أو وجوده بل وجود الروح، إلا أن هذا الاكتشاف قد أطمع الأستاذ في أنهم يجدون الله أيضا في الزمن القريب أو البعيد؛ سواء تحقق في المستقبل ما كان يطمع فيه، أو لم يتحقق، و صار طمعاً مقضياً عليه بالخيبة.

و على كلا التقديرين فليس لدينا، لا، لا بل ليس لدى الأستاذ و أمثاله العصريين، غير المقتنعين بغير الأدلة التجريبية، ليس لديهم فيما بين الزمان الماضي الذي كان يُعتمد فيه على الدليل العقلي المنطقي، و بين الزمان الذي يجد الباحثون الغربيون فيه<1/68> ذات الله، بالطريقة العلمية التجربية -إن وجدوها-، كما وجدوا الروح...

ففيما بين هذين الزمانين من المدة -مدة انتظار نتيجة البحوث النفسية- التي يمكن أن تطول أعصاراً، و فيها زماننا الحاضر، الذي وُجد الأستاذ فيه على رأس مجلة الأزهر، وهو يدافع عن الدين، ليس لديهم دليل على وجود الله.

و لا يجري بالنسبة إلى هذا الزمان المتوسط، ما قاله الأستاذ من أن الله يأتي العقول في كل زمان بما أحست الحجة إليه من وسائل البحث، لأنه لم يأت العقول الحاضرة أعني عقول العصريين، و فيها عقل الأستاذ، بما أحست الحاجة إليه من الدليل على وجود الله، و إنما أتاها بأن الدليل القديم على وجوده لا يكفي لإثباته علمياًّ، و لا أحست تلك العقول بالحاجة إلى دليل جديد يكفيه، إذ لو أحست لأتى به؛ و إنما أحست الانتظار إلى أن يكتشفه الباحثون.

فليس لدى الأستاذ و أمثاله المنتظرين في العصر الحاضر دليل على وجود الله، و لا حاجة إليه محسوسةٌ!!! و ما لا دليل على وجوده، فلا مانع من أن يقال عنه إنه غير موجود عندهم في الزمان الحاضر!!!

بل أقول إن الله تعالى لم يكن موجوداً عندهم في الأزمنة الماضية أيضاً، التي كان الناس فيها يظنونه موجوداً، لعدم كون دليلهم على وجوده دليلاً علمياًّ يصح الاعتماد عليه....

بل أقول: لا دليل عندهم أيضاً على أن الله تعالى سيكون موجوداً، بأن يكتشف وجوده في المستقبل بالدليل العلمي، إذ لا معنى لانتظار الاكتشاف في المستقبل عن وجود ما لم يوجد إلى الآن، و لم يقم على وجوده دليل يعتمد عليه.

فالله تعالى على رأي الأستاذ المنجلي من أقواله -و يا للأسف انجلاءً منطقياًّ- ليس بموجود في أي زمان من أنواع الأزمنة الثلاثة، نعم كان الله تعالى موجوداً عند أصحاب السذاجة العامية<1/69> و الذين يلتحقون بهم من العلماء المعتمدين على الدليل العقلي، غير أن العلم الحديث قضى على هؤلاء العلماء، و دليلهم المبني على العقول و المنطق؛ و الأستاذ بلَّغنا نبأ هذا القضاء من منبر الأزهر الحديث!..

فهذه خلاصة أعمال الأستاذ في رئاسة تحرير (مجلة الأزهر)، منذ بضع عشرة سنة، أعني إعدام الله الموجود عند الناس الذين يسميهم الأستاذ [الاعتقاديون]، و تعليق الحكم بوجوده من جديد إلى أجل غير مسمى بل غير مرجو المجيء.... هذه خلاصة أعمال الأستاذ، و خدمته للأزهر خاصة، و للإسلام عامة، فليقدر أجرها في الدنيا و الآخرة القادرون!!!>>.

و هذه صفحة من كتابي تتضمن نموذجاً من الدليل العقلي المنطقي في الرد على مقالات الأستاذ ضد هذا النوع من الأدلة؛ فإن لم تكفه مفحمة، و مفهمة لخطإه الفاحش في تقدير قيمة الدليل العقلي المنطقي قدرها، فسيقول رداًّ عليَّ: هذا كلام معقول منطقي، و لكن لم يعد للمنطق سلطان على الإنسان[24]<1/70>.

و هنا انتهيت من إيضاح منهج الكتاب في نقد الأقوال، بعد كلمتي إلى القراء، و الآن أشرع في نسخ الكتاب مستعيناً بالله، و مستمدا من توفيقه.

---

[24] المنطق الذي يستهين به من يستهين من العصريين، مثل الأستاذ فريد وجدي بك رئيس تحرير مجلة الأزهر، معلنين استهانتهم بأن يسموه المنطق القديم، أو المنطق الصوري، أو التجريدي؛ كما فعل معالي الدكتور حسين هيكل باشا، في مقدمة كتاب (حياة محمد)، هو المنطق العظيم الذي يجد القارئ أمثلة و نماذج هامة من عظمته و براعته، في أماكن مختلفة من كتابنا هذا... و من طريف غفلة المستهينين به في وصفه صوريا، أو تجريديا؛ أن منشأ عظمة هذا المنطق و قوته؛ في صوريته كما سيطلع عليه القارئ أيضاً؛ و قد استعان كتابنا هذا الفريد في تحليل خرافة وحدة الوجود العالمية، الذي يجيء دوره في الجزء الثالث من الكتاب، استعان في أدق مراحله كثيراً من فيض و فضل ذلك المنطق.

و من تلك النماذج الدالة على براعة هذا المنطق، أن في أدلة الفيلسوف ديكارت على وجود الله دليلا مسمى بالدليل الأنطلوجي، ذكره و أطراه صديقنا الدكتور عثمان أمين في كتابه (ديكارت)، و أيده الأستاذ الكبير العقاد في كتابه (الله)؛ على الرغم من أن ذلك الدليل نقد على كاشفة قدماً...

فلم يجد نفعاً نقد الناقدين في الحيلولة دون اتفاق الدكتور عثمان، و الأستاذ العقاد على الإعجاب بالدليل المذكور، و الاعتراف بمتانته.

و أنا قوي الظن بأن الأستاذين لن يسعهما بعد استماع بحثه مني أنا الآخر بلسان المنطق، إلا أن يسحبا اعتمادهما على ذلك الدليل، و يقتنعا بالخطإ المختفي في محل الاعتماد منه، و سيأتي بيانه في الجزء الثاني من الكتاب.

لكن من الصعوبة بمكان فهم القواعد المنطقية، ثم تطبيق المسائل المعضلة عليها، الأمرين اللذين بينهما و بين الأستاذ رئيس تحرير (مجلة الأزهر) المستهين بالمنطق بون بعيد، إلى حد أنه ينتظر كل الانتظار من الأستاذ العقاد، و الدكتور عثمان الاعتراف بفضل هذا المنطق، بعد اطلاعهما في هذا الكتاب على مسائل استعنت به في حلا مشكلاتها، و لا ينتظر من الأستاذ رئيس التحرير إلا ما هو دأبه من الإصرار على ما قال، سواء أصاب فيه أو أخطأ.

مصطفى صبري<1/71>

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾[آل عمران:18-19].

سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضى نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته، سبحان الله و بحمده، سبحان الله العظيم.

سبحان من كان لا يحصى ثناء عليه، من لا أُحصي ثناء عليه، فيقول: أنت كما أثنيت على نفسك؛ و هو كما أثنى عليه من هو كما أثنى على نفسه صلى الله عليه و سلم، و على إخوانه المرسلين، و آله و صحبه أجمعين.

و بعد، فيقول العبد الفقير في الدنيا إلى هداية ربه لسبيله، و صيانته بعد الهداية من زيغ القلب و سوء المنقلب، و في الآخرة إلى عفوه و مغفرته و واسع رحمته الشيخ مصطفى صبري التوقادي ابن أحمد بن محمد القازابادي: إن لهذا الكتاب المعروض على نظر القارئ قصة تستحق الذكر هنا[25].

و هي أني كنت قرأت في مقالة نشرتها (مجلة الرسالة)، قبل أكثر من عشر سنوات للأستاذ<1/72> محمد عبد الله عنان، عنوانها "حرب منظمة يشهرها الكماليون على الإسلام".

و كان من جملة ما كتبه الأستاذ في مقالته هذه الأسطر: [و مهما يكن من أمر البواعث التي تحفظ الكماليين إلى هذه الخصومة المضطربة نحو الإسلام، فإن الإسلام أقوى و أرسخ من أن يتأثر بمثل هذه الثورات العصبية الطارئة، و قد صمد الإسلام، و ما زال يصمد لخصومة الغرب كله، مع ما يحشده الغرب لغزوه من العوامل و الوسائل الخطرة؛ ذلك أن الإسلام أقوى بعقائده و مبادئه....

و لن يضير الإسلام أن يسقط من عداده تركيا الكمالية، و إذا كان الإسلام لم يعتز قط بتركيا يوم كانت دولة قوية شامخة، فكيف يحاول اليوم أن يعتز بهذه البقية الضئيلة من تركيا القديمة؟].

فآذتني الجملة الأخيرة من هذا القول، التي خرج فيها الكاتب خروجاً ظاهراً عن حدود الحق و الإنصاف[26]، فقد تعجبت أولا كيف يجمع الكاتب في نفسه التي بين جنبيه البغضاء نحو تركيا الجديدة و القديمة معاً؛ و هو يعرف ما يحشده الغرب من الوسائل الخطرة لخصومة الإسلام، و لا يعرف أنه -أي الغرب- كان يحفظ في خصومته للإسلام خصومةَ تركيا القديمة، و أن إنشاء تركيا الجديدة و إبادة تركيا القديمة من أهم تلك الوسائل الخطرة التي حشدها لخصومة الإسلام.

و الأستاذ عنان ينضم بعداوته لتركيا القديمة الإسلامية العثمانية، إلى تلك الوسائل المحشودة، لخصومة الإسلام، و يؤيد<1/73> جديدها الذي تظاهر بمعاداته مع قديمها؛ كما يؤيده الغرب الحاشد.

و ليس الأستاذ صميميا في هذه المعاداة؛ و إنما هو جاد في خصومة تركيا القديمة الإسلامية الشامخة، التي لا بد أن يكون من خاصمها من خصوم الإسلام؛ و الأمور التي أعجبت الأستاذ مما فعلته تركيا الجديدة، و أحصيناها في الهامش الآنف؛ تدل على ما قلنا دلالة باهرة؛ ثم إنك قد رأيت هذا الأستاذ يعترف بشموخ دولة الترك في الماضي.

أما كون تلك الدولة من الدول الإسلامية المعمرة، فلا شك فيه لأحد؛ و لا يمكن أن يشك فيه الأستاذ أيضاً، و قد كان عمر العثمانيين مع السلاجقة، و أبناء طولون و المماليك الترك، و غيرهم، لا يقل عن ألف سنة.

فهل يمكن أذن أن تكون دولة إسلامية من الدول الشامخة و معمرة غاية التعمير، ثم لا يعتز بها الإسلام؟

فهذا يخالف بداهة العقول، و قد كانت صلة العثمانية التي هي أطولها عمرا، و آخر دولة الترك الإسلامية، بالإسلام بدرجة أن هذه الصلة عدها الترك الجدد من أسباب انقراضها، و صدق ذلك المسلمون القاصون، حيث أصبحوا يعتبرون تركيا الحاضرة التي خلفت الدولة العثمانية، و شهرت حرباً على منظمة على الإسلام بشهادة الأستاذ عنان، أقوى من الدولة العثمانية في أواخر عهدها.

و إني لما قرأت مقالة الأستاذ عند انتشارها، و قمت للرد عليها، و الانتصاف لدولة الترك القديمة المسلمة، المنتهية في الدولة العثمانية، و أخذت أكتب مقالة في هذا الصدد، لم أملك إرادتي في تحديد مقدارها، حتى صارت من طولها كتاباً، و انتقل الكلام في الكتاب إلى مبحث ديني طال القول فيه أيضاً، حتى لاح لي إخراجه من الكتاب الأول، و جعله كتاباً بمفرده؛ و كان الدافع إلى وضع الكتاب الأول الدفاع عن الدولة التركية الماضية المسلمة، فإذا بي أدافع في الكتاب الثاني عن الإسلام نفسه؛ و إذا بدافع الثاني قد غلب في نظري، و أنسى الكتاب الأول، موجهاً كل عزيمتي إلى تحقيق الغرض الثاني الأسمى، حتى حصل هذا الكتاب بإذن الله و حمده و توفيقه وليد الكتاب<1/74> الأول؛ فإن لم يتيسر لي بعد هذا العودُ إلى الكتاب الوالد، فإني أتأسى بأن وليده قد يقوم مقامه، و يسد فراغه من حيث أن هذا الكتاب تأليف رجل من الترك المسلمين العثمانيين؛ فإن أدى فيه خدمة للإسلام يعتز بها خادمه إن شاء الله، على الرغم من أنه قد سبق أن طُعن بخيانة الديان و الوطن، إبان مجيئه إلى مصر مهاجراً، بسبب معارضته لمصطفى كمال[27]، كما طعن الأستاذ عنان الدولة العثمانية، بل الدول التركية الإسلامية بأجمعها -كان كتابه هذا جواباً على مقالة الأستاذ يغنيه عن الجواب.

على أنه قد رد على هذا الكتاب قبل ردي، بل قبل صدور مقالته عن قريحته الحاقدة على (الرسالة)، كاتب مصري أكبر منه بكثير، و هو المغفور له محمد فريد، زعيم الحزب الوطني، و خليفة مصطفى كامل باشا.

حيث قال في أول (كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية): [و بعد، فقد مضى على الشرق أجيال طوال، رأى أهلوه من أهوال الأحوال ما تشيب له الأطفال، و تندك من وقعه

---

[25] و هي أول و آخر قصة مع كلمة تاريخية، أعتذر إلى القارئ عن وجودهما في كتابي، الذي لا يعنيه فيما يتناوله إلا التمحيص، و التعمق العلمي في مسائل هامة دينية، و فلسفية؛ و هذا على عكس ما لا يجده القارئ في أكثر الكتب الفلسفية المؤلفة بمصر غير الحكايات التاريخية و التراجم.

[26] و لو كان طعن الكاتب في تركيا قديمها و جديدها بدافع من الغيرة الصادقة على الإسلام و الخبرة الصحيحة، بمبادئه لعذرته بعض المعذرة و عاملته بالتسامح؛ لكن الأمر ليس كذلك بشهادة أنه كان لا يرى في الخطوات الأولى للثورة الكمالية مثل إلغاء الخلافة، و حل الجماعات الدينية و الصوفية، و فرض الثياب المدنية و القبعة، و ما يثير الأذهان المستنيرة -على تعبير الأستاذ الكاتب- بل يقول: كانت هذه الأذهان تتبع جهود تركيا الجديدة في سبيل التجديد القومي و الاجتماعي -على أن يكون في تلك الجهود تجريد الدولة من صبغتها الدينية- بمنتهى الإعجاب و العطف.

[27] حتى كان بين الطاعنين من قال: إنك لست شيخ الإسلام و المسلمين، بل شيخ الأبالسة و الشياطين؛ و من أراد معرفة اسماء الذين أمطروا علي المطاعن، فليراجع الصحف المنتشرة بعد قليل من انتشار قصيدة الشاعر شوقي بك؛ التي أولها:

ارفعي الستر و حيي بالجبين * و أرينا فلق الصبح المبين

في مفتتح (جريدة الأهرام)، و التي أطرى فيها مصطفى كمال، و اعتدى على السلطن وحيد الدين؛ فرددت الاعتداء على الشاعر بخطاب مفتوح، فهاجم علي أتباعه الغاوون.

عزائم الرجال، بل شوامخ الجبال؛ و ما كان ذلك إلا بعد أن انفرط عقد بنيه، و تناثر نظام أهليه، و تشاغل كل بنفسه، عن أخيه و ذويه؛ فأغار الدهر بخيله و رجله على الشرق، و دوله، و قلب لأبنائه ظهر المجن، و قلبهم بين الإحن و المحن، فتناسوا ما كان لهم من فخامة الاقتدار، و جلالة الحضارة، و ضخامة العمران، و أصالة الإرادة، و انغمسوا في بحار الكسل و الخمول ذاهلين، و استكانوا إلى المذلة و الهوان صاغرين، حتى صاروا و هم على شفا جرف هار، و قد أوشكوا أن يقضي عليهم الدمار و الاندثار، و يكونوا عبرة لأولي البصائر و الأبصار <1/75>.

لكن العناية الصمدانية تداركتهم بلم الشعث، و رم الرث، و رتق الفتق، و رقع الخرق، فأضاءت الأفقَ الإسلامي بظهور النور العثماني، و أمدته بالنصر اللدني، و العون الرباني، فقامت الدولة العلية بحياطة هذا الدين، و حماية الشرقيين؛ و دعت إلى الخير، و أمرت بالمعروف، و نهت عن المنكر، فكانت من المفلحين.

ثم وقفت في طريق أوروبا حاجزا منيعاً، و سوراً حصيناً، و حالت دون أطماعها، و ألزمتها بكف غاراتها بأنواعها، ثم اهتمت بالإصلاح، و سعت في تأييد النظام، فصار لها بين الدول المقام الأول، و الرأي الراجح، و القول النافذ، فكانت لا يضاهيها دولة من الدول، بما أحرزته من الأملاك الواسعة في قارة أوروبا، و آسيا، و أفريقيا؛ و نالت من العزة، و التوفيق ما يجدر بكل شرقي أن يتذكره الآن، لتستفزه عوامل الغيرة، و دواعي النشاط في بذل نفسه و نفيسه، في سبيل تقويتها، و تعزيز رايتها، و تأييد كلمتها، ما كان و لا يزال من الحسنات الحسان، على كافة بني الإنسان، من غير نظر إلى الأجناس، و المذاهب، و الأديان، مما لا يراه الباحث في أي دولة غيرها قديماً و حديثاً، بل نرى عكس ذلك في الدول، ذات الدعاوي الطويلة العريضة، التي تتقول بأنها عماد المدنية و الإنسانية، و هي مع ذلك تصدر أوامرها الرسمية بارتكاب الفظائع و البشائع، التي لا يكاد يصدقها السامع، مما نمسك اليراع عن تعداده في هذا المقام، لعدم دخوله في موضوع الكتاب، لاسيما و أن التلغرافات و الجرائد تتوارد علينا كل يوم ببيان هذه الأنباء الشنيعة؛ و ذلك بخلاف الدولة العلية، فإن جميع الناس تعيش فيها بغاية الحرية و السلام، و كل المطرودين من الدول الأوروبية يفدون إلى أراضيها، فيرتعون في بحبوحة الراحة و الهناء، آمنين على أنفسهم و أعراضهم و عروضهم؛ و قد أصبحت الآن ملجأ وحيداً، لكل من تلفظه الدول الأخرى من أبناء الإنسان، فماذا يكون حظ هؤلاء المذكورين، إذا جارتهن في هذا المضمار، و ناظرتهن في هذا الفعال؛ و هذه حسنة من أقل حسناتها، يحق للعثماني مهما كان جنسه و دينه أن <1/76> يفاخر بها، و يذكرها في كل فرصة، و في كل حين؛ و في ذلك أكبر داعٍ، و أعظم باعثٍ إلى الوقوف على تفاصيل تاريخها].

فانظر قول المرحوم محمد فريد، هذا الذي يضع الدولة العثمانية المرحومة في أرفع مكان تبلغ دولة إسلامية، في الاحتفاظ بعزة الإسلام و المسلمين على وجه الأرض، في أحوج أدوار التاريخ إلى هذا الاحتفاظ، ثم انظر قول الأستاذ عنان: [إن الإسلام لم يعتز قط بتركيا، يوم كانت دولة قوية شامخة].

فهل ترى أن محمد فريد الذي لا يزال المصريون يكبرون منزلته في وطنيته، و تضحيته، و مجاهدته لمصر؛ ارتكب الكذب الصريح في قوله المنقول آنفاً المزكي للدولة العثمانية تزكية إسلامية و إنسانية عظيمتين؟ أم الكاذب هو الأستاذ عنان، الذي أنكر كل خدمة، و كل سابقة لدول الترك، في إعلاء كلمة الله، و تمجيد الإسلام و المسلمين؛ حتى إنه لا يحنقه حكم الفرنسيس و الإنجليز في مصر، و لا الصليبيين في بلاد العرب؛ حنقه على حكم العثمانيين فيها، كما سيأتي.

و إذا اعتمدنا على قول زعيم مصر الوطني، أكثر من قول الأستاذ عنان، كاتب المقالة المشهورة في (الرسالة)؛ فالدولة العثمانية المرحومة، فضلاً عن أنه لو لم تكن حمايتها للإسلام، و وقوفها طول حياتها في وجه أعدائه، لعاد الإسلام غريباً قبل ستة قرونٍ من غربته الحاضرة، الظاهرة للعيون؛ عم نفع هذه الدولة لغرباء آخرين من بني الإنسان المختلفي الأجناس و الأديان.

و مع قطع النظر عن هذا الرد المفحم، فإن انتهاء الحروب الصليبية، و انقطاع دابرها من الشرق الإسلامي بعد ظهور الدولة العثمانية، و انتقال الحرب إلى بلاد الصليبيين انفسهم، و اعتزاز الإسلام بهذا التحول العظيم طيلة أعصار؛ مما لا يمكن الجدال فيه.

و قال الأستاذ أنطون مؤلف (كتاب فلسفة ابن رشد)، و صاحب (مجلة الجامعة)، الذي ناقشه الشيخ محمد عبده، و تحامل في نقاشه على المسلمين من غير العرب؛ بأنهم أفسدوا الإسلام (ص 174 فلسفة ابن رشد، باب الردود): [إن الفرس لم ينفعوا الإسلام الحاضر إلا من حيث العلم، و أما الأتراك فقد حفظوا حياته بقوة السيف، و قد جاء في أمثال الإفرنج: "أريد أن أحيى قبل أن أخلد"؛ ففضل الدولة التركية على الإسلام لا ينكره أحد].

و قال هذا المؤلف في رده على الشيخ ص نفسها: [إن دولة سلاطيننا آل عثمان، ورثت الميراث العربي، بانتخاب طبيعي، فكفت بقوتها ذلك الميراث، ما كان يحدق به من المصائب و الأخطار].

ثم قال: [إن ميراث العرب لولا الدولة العثمانية لم يبلغ هذا المقام، بل ربما لم يثبت بعد أصحابه بضعة أعوام].

أقول: و شهادة هذا الشاهد البالغة، و ربما المبالغة في فقرتها الأخيرة، عن قيام الدولة العثمانية بحراسة كيان الإسلام في عهدها الطويل، لا تفترق في المعنى عن شهادة محمد فريد بك الوطني الكبير.

و مهما اجتهد الأستاذ عنان في غمط الترك القدماء المسلمين ما سبق لهم في خدمة الإسلام و إعلاء كلمته، فالحق لا يعدم أنصاراً...

فقد كتب الأستاذ حسن حبشي مقالة في (الرسالة، عدد 663)، بعنوان "السلاجقة عنصر القوة في الإسلام"؛ قال فيها بعد كلام: [... إن الحالة التي وصلت إليها الدولة العباسية من الضعف، كادت تودي بها، لولا أن قيض الله لها السلاجقة، فأنقذوا الإسلام].

ثم قال، نقلا عن تاريخ كمبردج: [كما أن شخوصهم شطر الغرب، و أضاف عنصراً جديداً إلى الإسلام، مكن المسلمين من الوقوف ضد الغزاة الأوربيين، و وحدوا الإقليم الممتد من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى حدود الهند، تحت زعامة واحدة، و إن كان لفترة محدودة، و ردوا الصليبيين البزنطيين].

ثم قال، نقلاً عن نفس المرجع: [و يعزى إليهم قيام الدولة الأيوبية بمصر].

و كتب هذا الأستاذ في الهامش: [يقول لين بول (Mohamed Dynasties 150): و لقد أحيوا عصبية المسلمين بعد ركودها، و أوجدوا جيلا من المحاربين المسلمين، المتعصبين، الذين يرجع إليهم -أكثر من أي شيء آخر-، ما مني به الصليبيون من إخفاق مرات عديدة؛ و هذا ما يجعل للسلاجقة المكانة الهامة في تاريخ الإسلام] <1/78>.

فلو سئل الأستاذ عنان الذي [ينكر اعتزاز الإسلام بالترك، حتى و لا يوم كانت دولة شامخة]؛ من أكبر رجل في

تاريخ مصر الطويل، بعد فتحها في عهد سيدنا عمر، بيد الصحابي العبقري عمرو بن العاص؛ تولى ملك مصر، و خدم الإسلام، و جاهد في سبيله حق الجهاد؟ فكان جوابه: "صلاح الدين الأيوبي"؛ فهل لا يخجل هذا الأستاذ إذا قيل له: إن قيام الدولة الأيوبية بمصر يرجع إلى السلاجقة الترك؟

و إذا فكرنا في أن السلطان صلاح الدين الأيوبي، الشهير بمجاهداته الإسلامية كان متخرجاً من مدرسة الجهاد ضد الصليبيين، التي أسسها السلطان محمد نور الدين ابن زنكي التركي السلجوقي؛ تبين كون النصبي الأسمى في الحروب المنتصرى على سيول الاعتداء الصليبي نحو الشرق الإسلامي قبل ظهور الدولة العثمانية، لطوائف الملوك السلجوقيين.

قال مؤلف (الفتوحات الإسلامية) أحمد بن زيني دحلان، مفتي السادة الشافعية، بمكة المكرمة، نقلاً عن ابن الأثير: [قد طالت تواريخ الملوك المتقدمين، قبل الإسلام، و فيه إلى زمننا هذا، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين، و عمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل، نور الدين].

و قال صاحب (الفتوحات) في صلاح الدين الأيوبي: [و هو مع ما جمع الله فيه من الصفات حسنة من حسنات السلطان محمد نور الدين بن زنكي؛ فإنه هو الذي أقامه حتى صار من الكاملين، و من عباد الله المقربين].

و قال أيضاً: [كان السلطان صلاح الدين بن أيوب من أتباع السلطان نور الدين، فجهزه إلى مصر].

و نقل عن صلاح الدين نفسه قوله: [كل ما ترى فينا من عدل، فمنه تعلمناه!].

و كان نور الدين قد عمل منبر البيت المقدس، رجاء أن يفتح الله على يديه، و أمر الصناع بتحسينه، و إتقانه إلى حد أنه لم يعمل مثله في الإسلام؛ و لما فتحه صلاح الدين، أمر بإحضار ذلك المنبر، فحمل من حلب، و نصب ببيت المقدس، و كان بين عمله و حمله ما يزيد<1/79> على عشرين سنة؛ و عد ذلك من كرامات نور الدين؛ كما في (الفتوحات الإسلامية، ص 15)، من الجزء الثاني.

فلولا أولئك المجاهدون من السلاجقة الأتراك، و فروع السلاجقة من الأيوبيين، و المماليك و الترك، و مماليكهم الشراكسة... و لولا ظهور العثمانيين في الأناضول آخذين التوسع إلى أوروبا الصليبية، و دام زحف جيوش الصليبيين إلى مصر، و سوريا، و فلسطين؛ ما كان من المستبعد أن يتقلص ظل الإسلام من تلك البلاد، باستقرار الصليبيين فيها؛ و أن لا يحتفظ الأستاذ محمد عبد الله عنان اليوم بهذا الاسم.

و ليس ببعيد أن يكون الذين يبغضون الدولة العثمانية المستولية على الشرق العربي من الكتاب المصريين -و قد رأينا منهم من حمد الحملة الفرنسية- يبغضونها، لكونها السبب في عدم وقوع ما ذكرنا من الاحتمال.

فقد انبسطت عزة الإسلام، و سلطانه على القارات الثلاث، كما ذكر المرحوم محمد فريد الوطني، و دامت مدة دوام العز و الغلبة للعثمانيين؛ حتى أنهم قد وضعوا الحصار على فينا، في قلب أوربا مرتين؛ و هم ما كانوا يفعلون ما فعوا من الفتوحات باسم الترك، بل باسم الإسلام[28]، و لم يكن الحاكم في البلاد التي يحكمونها قانون الترك<1/80>، بل قانون الإسلام الذي أعرضت عنه تركيا الجديدة الكمالية، فأخذت قانون سويسرة، كما أعرضت مصر، فأخذت قانون فرنسا.

و إن كانت في ريب من أن الدولة العثمانية كان الحاكم فيها هو الإسلام؛ فانظر ما قاله اد. انكلهارد من سفراء فرنسا بتركيا؛ في مقدمة كتابه (تركيا و التنظيمات في تاريخ إصلاحات الدولة العثمانية): [كان الغرض من التنظيمات تقريب الهيأة الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية المسيحية، التي عاشت منذ قرون بعيدة عنها معنى و سياسة؛ و لا شبهة في خطورة المشكلات التي يتضمنها هذا المشروع؛ فقد كان العامل في وقف الأمبراطورية العثمانية في موقفها بالقرون الوسطى، الذي غمسها يوماً عن يوم في ظلام تلك القرون الكثيف؛ و الذي سينتج يوما من الأيام اندراسها التام، بقاء الحكومة العثمانية<1/81> منفردة في خارج الهيأة الدولية الأوروبية؛ و كان السبب الحقيقي في هذا الانفراد هو الدين.

و في الحقيقة أن الإسلام الذي قد كان مؤسس الحكومة العثمانية بقي حاكما مطلقاً فوق الحكومة ناظماً؛ فقد كان القانون المدني متحدا مع القرآن؛ و لكون تشكيلات الأمة اشتبكت بالعقائد الدينية بحيث لا يمكن تفريق بعضها عن بعض، كانت تشكيلات الأمة لا تقبل التغيير كالعقائد الدينية.

فوجب تحصيل الائتلاف الذي لا تستطيع تركيا الاستمرار على الاستغناء عنه، إما إزالة الحائل في البين بالمرة، أو تخفيف وطأته؛ و معناه إما أن تحول الحكومة من الروحانية إلى الدنيوية بتخليصها عن تأثير القوانين الدينية، كما وقع في العالم المسيحي؛ و إما أن تخلص بالتدريج من الحدود و القيود الدينية، من طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيراً موسعاً.

و للاحتراز من الحالات الموجبة لاشمئزاز شعب جاهل، متعصب، لا يلبث أن ينفعل، و يتأثر من كل شيء؛ كانت الحكومة العثمانية اختارت الشق الثاني].

---

[28] و قد لفظ الترك يستعمل أجيالاً طويلة على لسان الغربيين، كمرادف المسلمين كما صرح به المرحوم الدكتور علي زيني عميد كلية التجارة، بجامعة فؤاد في كتابه (أصول القانون التجاري، ص 41)، و كما كتب ابني و صديقي العزيز الأستاذ علي حسين يعقوب الألباني اليوجوسلافي، الموظف بمكتبة جامعة فؤاد، و الذي تطوع بتبييض هذا الكتاب، لما وصل إلى هذا المحل؛ كلمة من عنده قائلة: "و لا يزال لفظ الترك يستعمل في ألسنة عامة الشعوب البلقانية كمرادف للمسلمين"؛ فأثبتها هنا شاكراً له.

و في هاتين الشهادتين ما يقصم ظهر الأستاذ عنان المحاول لقطع صلة الترك بالإسلام في أدوار اعتزازه و انتصاره؛ أما أنا فقد كتبت في الباب الرابع من هذا الكتاب، على هامش قول الدكتور زيني المنقول هناك أيضا بعد كلام من كتابه انتهى إليه: "أعظم مفخرة امتاز بها قومي الترك، إلى أن جاء دور الإنقلاب الكمالي في تركيا، و أعظم مخزاة للترك بعد ذلك الانقلاب اللاديني، فليس بكثير إذن أن ألف في أوروبا المعادية للإسلام منذ الحروب الصليبية، ما ينيف على ستمائة كتاب إشادة باسم زعيم الانقلاب القاضي على إسلام الترك، الذين كانت أوروبا تستعمل اسمهم كمرادف للمسلمين".

و لعل ذلك لانتهاء الحروب الصليبية المبتدئة منذ عهد السلاجقة الأتراك؛ في أيدي الترك العثمانيين، و تحول تلك الحروب في عهدهم من شكل الدفاع إلى شكل الهجوم، كما أشار إليه زعيم الوطنيين المصريين محمد فريد؛ فلذلك اعتبرت أوروبا انتهاء الدولة العثمانية، و انتهاء الخلافة بفضل مصطفى كمال، انتهاء دولة الإسلام.

فليس بكثير إذن تلك الكتب المؤلفة في أوروبا بشأنه؛ و ليس بكثير أيضاً كتاب الأستاذ عزيز خانكي بك عنه بمصر، المسمى (كمال آتاتورك)؛ و لا معيب عليه لكونه في دين الصليبيين، المحاربين القدماء، إن لم يكن في عروقه شيء من دمائهم.

و ما نقله أعداء الإسلام من أمم أوروبا في الإشادة المنقطعة النظير بظهور مصطفى كمال في تركيا؛ قد وقع مذكرا لما سبق أن أقامت الدول المسيحية من أعياد المسرة و الفرح على وفاة السلطان محمد فاتح العثماني، ما لم يقم مثلها في الدنيا على وفاة أحد؛ و من عجائب المصادفات أن الأستاذ خانكي بك أنكر كون السلطان المذكور فاتح قسطنطينية، في نقاش جرى بيني و بينه على صفحات جريدة الأهرام؛ فهو يعترف بمصطفى كمال فاتح تركيا المسلمة، و لا يعترف بالسلطان محمد الثاني العثماني فاتح قسطنطينية المسيحية!!! فهل كانت إذن تلك الأعياد على وفاته عبثاً؟

فهذه الكلمة المنقولة من كتاب اد. انكلهارد، الذي ألفه في سنة 1882، للبحث في تاريخ تطورات الدولة العثمانية، منذ عهد السلطان محمود الثاني، و طبعت ترجمته إلى التركية، بقلم علي رشاد بك، في سنة 1912، تعلن ما كان يضمره الترك المتفرنجون أن يفعلوه بدين الأمة -ثم ظهر مع الإنقلاب الكمالي-؛ و ما يضمره المتفرنجون العرب في مصر و غيرها؛ و لم يظهر تمامه بعد.

و في قول هذا المؤلف الفرنسي، عن صلة الدولة العثمانية بالإسلام لحد كون الإسلام في تلك الدولة مؤسس الحكومة، و بقائه بعد ذلك حاكماً مطلقاً، فوق الحكومة أكثر <1/82> من خمسمائة سنة إلى زمن التنظيمات الجديدة.... و عن كون المقاومة لإسلام هذه الحكومة على طول عهدها، شغلا شاغلاً لدول أوروبا المسيحية، حتى أن تلك الدول لجأت إلى طريق الحيلة، بعد أن رأت عدم نفع الشدة في المقاومة...

في هذا فخر عظيم للدولة العثمانية المرحومة، و إرغامٌ للأستاذ محمد عبد الله عنان، الذي أنكر اعتزاز الإسلام بالترك، حتى يوم كانت منهم دولة شامخة؛ و كيف لا يعتز الإسلام بدولة يصفها المنكر نفسه بالشموخ، و تشهد الدنيا باتصالها بالإسلام، اتصال الجسم بالروح؟

نعم، إن المؤلف الفرنسي أتى بهذه الشهادة عائباً على الدولة العثمانية صلتها القوية بالإسلام، و عاداًّ لها في رأس الأسباب الموجبة لضغائن الدولة، كما يقول بذلك الترك الجدد اللادينيون أيضاً، الذين ورثوا دولة الترك القدماء المسلمين.

لكني لا أبالي بذاك التعييب، المتولد من عدم اتباع العثمانيين لأهواء الدول المسيحية المتغلبة على الأرض ظلماً، فمن حق كل حكومة أن تختار لنفسها من القوانين ما يتفق مع طبيعتها و دينها؛ و إنما المطلوب مراعاة العدل في معاملة الحكومة مع الناس؛ و لا شبهة في كون الدولة العثمانية، المتمسكة بقانون الشريعة الإسلامية، لا تظلم أحدا من سكان بلادها، مهما كان جنسه و دينه.

لا أبالي بذاك التعييب، و أباهي بتلك الشهادة المثبتة لدعواي ضد الأستاذ عنان المدعي خلافها؛ بل أباهي بطول عمر الدولة العثمانية المسلمة، رغم تألب الدلو أعداء الإسلام عليها من الخارج، و مشايعيهم المنافقين في الداخل؛ حتى كان انقراضها بأيدي أعدائها الداخليين، و لكل أمة أجل[29] <83>.

هذا، و قد كنت منذ قرأت مقالة الأستاذ عنان في (الرسالة)، و كتبت في الرد عليها إلى أن أصبح ردي من طوله كتابا، ثم تولد منه كتاب ثان، انصرفت بكل عنايتي إليه، و نسيت كتاب الرد...

[29] و قد كان تجريد الدولة من دينها، و خلافتها، و محاكمها الشرعية، و معاهدها الدينية، استجلابا لمرضاة الدول الكبيرة، الغالبة في الحرب العالمية الأولى؛ ثم أضافوا إلى ذلك تغيير كل شيء من مشخصات الأمة، كزيها، و حروفها التي تشترك فيها مع الأمم الإسلامية، فكفى هذا التغيير الأخير وحده في قطع صلة تركيا بماضيها، و مؤلفاتها العلمية و الأدبية؛ و اليوم لا يؤذن لكتاب من مؤلفات الترك أنفسهم أن يدخل من حدود تركيا، بسبب كونه مطبوعا أو مخطوطا بالحروف العربية؛ و قد حصلوا في أقل من ربع قرن بعد الإنقلاب الكمالي على إنساء الماضي؛ حتى إذا أرادت الحكومة معرفة مسألة تتعلق بتاريخ الترك القريب احتاجت إلى ترجمان من بقية السلف القادرين على قراءة الحروف العربية.

و في السنوات الأخيرة أخذوا يحدثون تغييرات في اللغة نفسها تثقل على اللسان، و الفهم، و الذوق؛ و لا تفيد فائدة غير إيجاد حاجز ثان بين حاضر الترك و ماضيها القريب و البعيد؛ فمن أراد أن يرى أمة مسخت نفسها لتجعلها أمة جديدة، مبتعدة عن قديمها في كل ناحية من نواحي القومية، غير اسم الترك؛ فلير تركيا الحاضرة!!!

كنت طيلة هذا الزمان و ما حصل لنفسيتي فيه من التطورات، لا أعرف طعنا للأستاذ في دولة الترك الماضية غير ما نقلته من مقالة (الرسالة)؛ فإذا بي عند التأهب لنشر هذا الكتاب المولود، أطلع على طعنات له في تأليفاته، يكاد نقلها بجملتها، و الاشتغال بالرد عليها يعوقني من نشر الكتاب الذي هو قرة عني، و ذخر آخرتي في آخر عمري؛ و يرجعني إلى الكتاب الأول، الوالد، بعد الانصراف عنه.

لكني أغالب نفسي الثائرة من جديد، و أكف من سرد تلك الطعنات، مكتفيا بنقل ما كتبه في كتابه (مصر الإسلامية، ص 149)؛ و هذا نصه: [إن مصر الإسلامي لم تعرف رغم ما توالى عليها في عصور الاضطراب و الفتنة من الخطوب و المحن، نكبة أعظم من الفتح العثماني، و لم تعرف حكما أقسى و أمر من حكم الدولة العثمانية الذاهبة؛ و إن كانت فتوح الوندال، و البربر، و الهون، تبقى على مر الأحقاب، مضرب الأمثال في الشناعة و الهول؛ و إذا كانت آثارها المعنوية تقدر دائما بمعيار ما حطمت من صروح المدنية الرومانية؛ و ما قتلت من مجتمعات أوروبا، نصف المتحضرة، فإن غزاة الترك كانوا أشد وندالية، و فظاعة؛ إذا ذكرنا فروق الأعصار<84>، و المدنيات، و إذا قدرنا مدى الضربة التي أصابت الإسلام و الأمم الإسلامية من جراء الفتح العثماني....].

ثم قال: [و الحقيقة أن فتح الترك للأمم العربية الإسلامية، لم يكن إلا تتمة لأعمال السفك و التخريب الهائلة التي بدأها هولاكو و برابر التتار، بسحق الدولة العباسية، و المدنية الإسلامية، و استأنفها تيمور لنك، في أواخر القرن الرابع عشر؛ بيد أن الفتح العثماني كان باستقراره أعمق أثراً من الوجهة المعنوية، و أشد تقويضا للمدنية الإسلامية من الفتوح التتارية المؤقتة...].

و قال في ص 161: [لبث سليم الأول في القاهرة ثمانية أشهر، يذيق و جنده المصريين أشنع ألوان السفك و الظلم، و المصادرة، و جمع من تراث مصر و ثروتها الفنية، كل ما وصلت إليه يده، و يخرب المساجد و الآثار الخالدة، لينتزع منها نفائسها الفنية، و يبعث بها إلى القسطنطينية، و يقبض على أكابر مصر، و زعمائها، و علمائها، و رجال الفنون، و مهرة الصناع، و العمال؛ و يحشدهم أكداسا في السفن، و يبعث بهم إلى القسطنطينية....].

و الأستاذ يسمي هذا البعث في محل آخر من كتابه: [النفي]؛ و لعل معظم الآثار التي ادعى نقلها إلى الآستانة هي الكتب المخطوطة، كما سمعته من غير الأستاذ عنان.

لكن كيف يعد عمل السلطان بالكتب الدينية و العلمية، التي وجدها في خزائن مصر، و نقلها إعجابا بها، و اعتناءاً بشأنها إلى عاصمة ملكه، بعد أن أصبحت مصر جزءاً من بلاد الدولة، لا فرق بينها و بين الآستانة في ذلك؛ من أعمال التخريب؟

و يعتبره تتمة لتخريبات هولاكو في بغداد، الذي قذف بما في خزائنها من الكتب إلى الدجلة و الفرات؟

و كيف يعد الذين أخذهم من علماء مصر، و زعمائها، و مهرة الصناع فيها، و ذهب بهم في معيته إلى عاصمة ملكه منفيين؟

فهل في نقل أولئك إلى بلد يقيم فيه السلطان نفسه، و إيوائهم به، ليكونوا من المقربين إليه، و يكون نفعهم عاما لجميع البلاد التي يحكمها، و التي<85> من جملتها مصر، و أهلها إخوان المصريين في الدين و الوطن؛ معنى النفي المتضمن للإبعاد و الإيذاء؟؟

لكن الأستاذ الذي في قلبه مرض التفريق بين المسلمين العرب و الترك، و على بصره غشاوة من معاداة آل عثمان، لا يتحرج من تصوير عمل التقريب و التحبيب من السلطان سليم في صورة النفي و التعذيب؛ فالذي يُغضبُه من عمله بمصر فتحُها أكثر مما جرى بعد الفتح من الأعمال التي ذكرها.

و لم يكن مقصود سليم من الفتح إلا توحيد مصر الإسلامية بتركيا الإسلامية، فإن رضيه الأستاذ كان هذا معنى الفتح؛ و إن أبى، و عدَّه انتزاع مصر من حكم المماليك الشراكسة، فقد كانوا هم الآخرون انتزعوها من حكم المماليك البحرية الترك، و هم مماليك هؤلاء المماليك؛ و لم تكن مصر يومئذ تحت حكم فاتحيها العرب، و لا المقصود من الفتح التحكم على الشراكسة و المصريين العرب.

و يؤيد ما قلنا أمير الشعراء المصري، بقوله في قصيدته الطويلة، التي عنوانها (في وادي النيل):

و اذكر الترك، إنهم لم يطاعوا،	فيرى الناس أحسنوا أم أساءوا
حكمت دولة الشراكس عنهم؛	و هي في الدهر دولة عسراء

هذا جوابي على الفقرة الأخيرة من مطاعن الأستاذ في آل عثمان، بمناسبة فتح مصر، و ما فعل فيها سليم الأول[30].

أما تسمية أولئك الفاتحين عامة بأشنع أسماء البرابرة<86>، الطغاة، الهمج؛ فإني أكتفي في الرد عليها بنقل أسطر من مقالة (الأهرام؛ 22/10/1944)، بعنوان: "آخر الخلفاء": و قلم كاتب مصري أكبر بكثير أيضا من الأستاذ عنان، و أكثر معرفة بالترك؛ و هو سعادة عبد الرحمن عزام بك باشا، أمين الجامعة العربية، و هذا نصها: [لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا، و كلها سجون أبدية، يتوالد فيها الفلاحون للعبودية، فكسروا أغلال السجون، و أقاموا مكانها صرح الحرية الفردية، فهم الذين قضوا على نظام الاقطاع، و الارستقراطية، ليحل محله نظام المواطن الحر، و الرعية المتساوية الحقوق، فوصل في دولتهم الرقيق الشركسي، و الصقلبي، و غيره إلى أكبر مقام في الدولة، كما وصل النابه من عامة الناس، حتى المجهول الأصل، إلى مقام الصدارة العظمى، و القيادة العليا، و تعلمت أوروبا الشرقية على يد محرريها سيادة القانون على الأحساب، و الأنساب، و الطوائف، و الملل، و النحل.

فترتب على ذلك تطور هائل في اتجاه الحرية، و الديمقراطية الغربية الحديثة؛ و كانت القرون الأولى لسيطرة آل عثمان عصورا ذهبية، شمل فيها الناس الأمن و الرخاء، و السلام الروحي؛ و لم تكن فوز آل عثمان كما يظن بعض الناس، مستمدة من سيف و شجاعة، بل مما هو أعظم من السيف و الشجاعة؛ احترام الحق، و الوفاء بالعهد، و الخضوع لسلطان القانون و الشرع.

و لو كان الأمر كما يتصوره الذين ينخدعوا بآثار دور الانحطاط من استخدام الطوائف و الغيرة بين العناصر، و البطش، لتغطية الضعف، لاستحال أن يدوم ملك آل عثمان ستمائة سنة، منها مائتان لا يسندهم فيها إلا سيف مبتور<87>.

لقد رويت لي في رحلاتي بالبلقان، و ملدافيا، أمثلة باقية في لغة العامة من عدل آل عثمان، بين بيوت الملك الذي طال أمده، و تنوعت رعاياه، و قد ثقلت كفته بالخير، و الرحمة، و المروءة، و الشرف...].

أقول: من الغريب المفهوم من شهادة سعادة هذا الوزير المصري السابق، و أمين الجامعة العربية حاليا، أن آل عثمان الذين وصفهم الأستاذ عنان بأفظع الوندالية و أوحش الهمجية، المتغلبة على همجية التتار، نشروا الحرية، و الديمقراطية، و العدل، و المروءة، و المساواة في شرق أوروبا، و تعلم غربها منهم الحرية، و الديمقراطية الحديثة.

هذا، و ما وسعني مهما سعيت في إيجاز القول على موضوع الدولة العثمانية[31]، إلا أن أنقل بعض كلمات قصيرة، مما قرأته في تعليقات صديقي المرحوم أمير البيان شكيب أرسلان[32] على (حاضر العالم الإسلامي الجزء 3/ ص 326)، نقلا عن كتاب (مائة مشروع تقسيم لتركيا)، تأليف دجوفارا، عقب الحرب العالمية الأولى<88>، و المؤلف على تعبير الأمير من أفاضل وزراء رومانيا.

قال بعد كلام طويل: [ثم إن احترام المعاهدات، و العمل بموجب الكلمة المعطاة، من مزايا العثمانيين، يدور عليهما التاريخ كله...].

ثم قال: [فإن كان الشعب التركي قد غُلب (يعني في تلك الحرب)، فإنه قد فقد كل شيء إلا الشرف.

و أنا أقول (القائل الأمير شكيب): احترام المعاهدات، و العمل بموجب الكلمة المعطاة، الذي يدور تاريخ العثمانيين كله عليه، ناشئ من كونهم مسلمين حقيقيين..].

و قال الوزير الروماني أيضا، بعد أن أحصى مائة مشروع تقسيم لتركيا، و نقلها الأمير شكيب مفصلة: [هذه كانت في مدة ستة قرون مساعي المسيحيين في سلطنة العثمانيين، التي كانت من أعظم الممالك، التي عرفها تاريخ البشرية..].

---

[30] إن السلطان سليم فتح مصر، بعد محاربة إيران، و هزم جيوشها إلى أن اغتنم عرش الشاه إسماعيل الصفوي، المحفوظ الآن في خزينة المتحف التركي، و يقال إن حرب إيران دعت إلى محاربة مصر، التي أحس سليم في أثناء الحرب مع الإيرانيين بانحيازها إلى جانبهم، و التي يحاول الأستاذ عبد الله عنان أن يأخذ ثأرها بحملاته ضد السليم الأول، عن الدولة العثمانية، كما أخذ مصطفى كمال ثأر الدول الأفرنجية، بهدم هذه الدولة التي عانت منها تلك الدول ما عانت؛ و ساعده في هدمها غلاة الروافض الموجودون في تركيا المسمون "قيزيلباش"، و لهم قرى خاصة في أنحاء الأناضول، و هم الآخرون أخذوا بواسطة الإنقلاب الذي تم على يد مصطفى كمال، ثأر هزيمة الإيران بيد السليم العثماني؛ و الباحث يجد في بعض معاهدات الدولة العثمانية مع الإيرانيين نصوصا تفرض عليهم أن يكفوا عن شتم سيدنا أبي بكر و عمر، و سيدتنا عائشة؛ فانظر المجتمعين ضد الدولة العثمانية لأخذ الثأر!!!!

[31] و أنا أرجو من قراء كتابي أن يعذروني فيما شغلتهم بهذه النبذة التاريخية الخارجة عن موضوع الكتاب، و ينظروا إلى أنها غير خارجة عن موضوع الكتاب الأول، الذي له حق في ذمة هذا الكتاب الثاني، المولود منه، و الذي اشتغالي به عن مولوده لا يبلغ عشر معشار اشتغالي بالمولود عن الوالد.

[32] الذي قال في ديوانه ص: 129، يخاطب الأتراك العثمانيين مرغما لأنف الأستاذ عبد الله عنان، القائم بدعوى عدم اعتزاز الإسلام بالترك قط، يوم كانت لهم دولة شامخة، و دعوى أنهم همج لم تر الإنسانية خيرا منهم كما لم ير الإسلام:

أحبكم، حب من يسعى لطينه * في طاعة العقل، لا في طاعة الغضب
أحبكم حب من يدري موافقكم * في خدمة الدين، و الإسلام من حقب
و مذ تقلدتموا أمر الخلافة قد * آويتموا بينها من كل مغترب
و كل غر يماري في فضائلكم * لا يعرف الخشف البالي من الرطب
مهما يكن من هنات بيننا فلنا * معكم على الدهر عهد غير منقضب
كفى الشهادة فيما بيننا نسبا * إن لم تكن جمعتنا وحدة النسب
مجدي بعثمان حامي ملتي، و أنا * لم أنس قحطان أصلي في الورى و أبي

و قال: [كانت السلطة العثمانية سلطنة عسكرية، محضا، مستندة على شرع سماوي..].

و قال: [العداوة الحقيقية كانت عداوة النصارى للمسلمين، برغم تسامح المسلمين في الحرية الدينية، التي يتمتع بها المسيحيون في السلطنة العثمانية...].

و قال: [مدة ستة قرون متتابعة كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية...].

أقول: و لعل عداوة الأستاذ عنان لهذه الدولة من تأثيرات العداوة المسيحية المعدية، إلى بعض المسلمين في الأزمنة الأخيرة، الذين لا يعرف بعضهم بعضا، و من الإسلام إلا اسمه؛ (انظر الهامش السابق في أول هذا البحث ص 72).

و قال الأمير شكيب: [بقي علينا أن نترجم خلاصة هذا الكتاب، تأليف دجوفارا الروماني، مؤثرين منقوله على مقولنا؛ لأنها شهادة رجل أجنبي عنا، رجل سياسي مسيحي، كانت الأمة التي ينتمي إليها من جملة الأمم التي تحررت من حكم تركيا...].

أقول: فهل الدولة العثمانية التي لم تظلم المسيحيين من أتباعها بشهادة شاهد من كبار السياسيين المسيحيين، كانت تظلم العناصر الإسلامية، حتى استجلبت شكاية الأستاذ عنان، المارة الذكر، و هي في غاية المرارة، أم كان الظالم هو الأستاذ نفسه<89>؟؟؟

و قال الأمير أيضا عن المؤلف الروماني: [ثم ذكر في خلاصة كتابه أن أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية، و المدرسية التامتين للأمم المسيحية، التي كانت خاضعة لها؛ لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين، كانت تبث دعايتها القومية، و تتماسك، و تنهض، و تتمالأ، و تسير سيرا قاصدا في طريق الإنفصال عن السلطنة العثمانية؛ و سواء كان هذا المؤلف قد أعلن هذه الحقيقة، أم لم يعلنها، فإنها الحقيقة التي لا شائبة فيها؛ و لذلك تجد ملاحدة أنقرة يجعلون من جملة حججهم في التقصي عن الشريعة الإسلامية، قولهم أنه لولا مراعاة هذه الشريعة، لكانت السلطنة التركية بقيت على عظمتها الأولى، و لم يطرأ عليها هذه المصائب، التي لزمتها مدة قرون، بسبب كون الثلث من سكانها، و ربما أكثر من الثلث؛ مسيحيين، و بأن الشريعة كانت تمنع السلاطين من إجبارهم على الدخول في الإسلام أو الجلاء...].

و أنا أقول: و لئن كان حقا ما يقول ملاحدة أنقرة من كون تمسك الدولة العثمانية بالإسلام، و جهادها في سبيله جر عليها عداوة نصارى الدنيا، و جرت هذه العداوة التي لم يخففها ما ناله أهل الذمة تحت حكم آل عثمان من الحرية و التسامح؛ مصائب جمة لم تنته إلا بعد انتهاء الدولة؛ فإن رقي هذه الدولة إلى أوج عظمتها ثم بقاءها هذه المدة الطويلة في جهاد متوال لأعداء الإسلام، منقطعة النظير بين الدول الإسلامية في طول بقائها، و كثرة أعدائها، بل و اتساع بلادها...

كان نعمة عليها من نعم الإسلام، و معجزة من معجزات الجهاد في سبيله، لا يقدر على إنساء تلك النعمة و تلك المعجزة من تمادى في معاداة العثمانيين، و معاداة الإسلام معهم، و الدعاية ضده و ضدهم، حتى بعد انقضاء عهدهم، من ملاحدة أنقرة و غيرهم.

و آخر رد على الأستاذ عنان جدير بالذكر، تولاه كتاب (تاريخ أوروبا الحديثة) تأليف رتشاردلوج؛ و تعريب محمد عبد الله عنان؛ حيث قال (جزء 1، ص 47): [و سر نجاح الترك يرجع إلى استبسالهم في تضحية نفوسهم، و هي عاطفة الجهاد التي<90> غرسها الإسلام في قلوبهم، و كذا يرجع بالأخص إلى حسن إدارتهم المدنية و الحربية...].

و هنا أنهينا الكلام في مناقشة الأستاذ عنان، دفاعاً عن الدولة العثمانية المرحومة، التي لا نحصي شهادات الرجال من مختلفي الأجناس، و الأديان، بأن الإسلام، و ما يستتبعه من الإنسانية و الرجولة و المروءة جميعاً؛ عاش قروناً طويلة في وجه الأرض عزيزاً، مرفوع الرأس، مع قوة تلك الدولة و عزتها؛ و أنا لا أقول إن آل عثمان حتى الأعاظم المشهورين منهم في تاريخ العالم براء من كل ما ينتقدونهم به، و إنما أرد على من أنكر اعتزاز الإسلام بهم.

****

دامت عزة الإسلام إلى أن أخذ يطرأ الضعف على صمصام الدولة العثمانية، فعند ذلك بدأ الإسلام يضعف يوما بعد يوم، و يسير لجنب مع ضعف شوكتها؛ فكأن بين قوة الحجة و قوة السيف رابطة طبيعية، إن كان الإسلام الذي يسمو بعقائده و رجحان مبادئه في غنى عن هذه الرابطة، كما قال الأستاذ عنان؛ فطبيعة الإنسان الراكنة إلى الغالب، في حاجة إلى الاحتفاظ بهذا الارتباط.

و لا يرتاب مسلم ساهر على دينه أن الإسلام فقد حتى بين مسلمي الأزمنة الأخيرة كثيرا من كرامته و أهميته؛ فهل زالت في هذه الأزمنة قوة حججه و براهينه التي كان يعتمد عليها؟

فالحق أن تجريد الإسلام من قوة السيف -كما يسعى إليه كثير من حملة العلم و القلم بمصر- يكون كتجريد الإسلام من غزوة بدر الكبرى.

و من غريب المصادفات الهامة المؤثرة في التحول الطارئ على مركز الإسلام، أن اكتشاف الآلات الجديدة الحربية الذي كان مبدأ قوة الدول الغربية، و ضعف دولة الإسلام... لا يختلف زمانهما عن زمان ظهور العلم الحديث في الغرب.

ذلك العلم الذي يدور مع الحس و التجربة، و لا يعتد بحجة العقل، على الرغم من أنها كانت<91> مستند أساس الدين منذ قرون الإسلام، التي راج علم الكلام فيها عند علماء المسلمين، و احتفظ برواجه مدة احتفاظ الأمم الإسلامية برواج الدين فيما بينهم؛ فلولا تقهقر دولة تلك الأمم أمام سلاح الدول المعادية للإسلام، لما تسنت مزاحمة العلم الحديث المادي، و فلسفته الوضعية الإلحادية لعلم الكلام الإسلامي، و فلسفته، و تقهقر سلاح هذا العلم أمام سلاح ذاك، المنتهي إلى احتلال العلم الثاني مكان الأول في قلوب المتعلمين، كما احتلت تلك الدول بلاد المسلمين.

و معنى هذا القول مع عدم الرابطة الحقيقية بين قوة السلاح و قوة الحجة، أنه لولا قوة السلاح المادي و غلبته التي أضاعها المسلمون و تملكها غيرهم، لما أضاع أبناؤهم المتعلمون الذين هم الآخرون المعتلون بعلة الميل إلى الغالب، قوة التفكير الصحيح في تقدير الحجج قدرها.

و زادت في إضعاف المسلمين و إضعاف الرابطة الدينية بينهم -بل و في إضعاف الإسلام نفسه في قلوبهم، بقدر ما أضعف السلاح الحديث و العلم الحديث من كل ذلك- فتنة النزعات القومية الداخلة فيما بين الأمم الإسلامية تقليدا منهم لأمم الغرب، و إغراءً من تلك الأمم بينهم بواسطة الدعاة إلى تلك النزعات.

فقد قرأت كتاب (حاضر العالم الإسلامي) من ترجمته العربية، فأحسست منه أن مؤلفه الأمريكي كتبه لتنفير المسلمين العرب من المسلمين الترك؛ و قد أدخل

الإنجليز الدعاية ضد عهد الدولة العثمانية بمصر في برامج المدارس المصرية.

فمن كل هذا ضعُف مركز الإسلام عند المسلمين أنفسهم فضلا عن سواهم؛ و هزل حتى بدا من هزاله كلاه، فالمسلمون اليوم أقوام متفرقة أكثر من أنهم مسلمون، فلا يمنع إسلام قوم أن يناوئهم، و يتجرأ عليهم مسلمون من قوم آخر... بل لا مانع لمن شاء من المسلمين، أو بالأصح لمن تسمى بأسمائهم عن التجرؤ على الإسلام نفسه.

فهذا محمد عبد الله عنان العربي الذي ينكر إفادة الإسلام من تركيا، يوم كانت دولة شامخة، و يرميها بأشد أنواع الهمجية و التخريب...

و يقوم شيخ عربي نجدي<92> قصيمي فينكر إفادة الدنيا من المسلمين أجمعين، في جميع القرون، و يرميهم بما رمى عبد الله عنان به الترك.

حتى قال الأستاذ سيد قطب، كاتب مقالة الرد على الشيخ في (جريدة شباب محمد) -النذير-: [و ليس المسلمين هم الأتراك مثلا، فأجد عذرا، و لكنهم أصحاب محمد بن عبد الله، و عمر بن الخطاب، بل القرآن الذي أباح التخريب و التمثيل: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر:5]].

و يقوم شاعر عربي آخر فيقول:

أليس قريشكم قتلت حسينا	و قام على خلافتكم يزيد

و قد كذب الأستاذ عدو الترك، و كذب الشيخ عدو الإسلام ألف مرة، و صدق الشاعر، و قال أصدق القائلين: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ﴾ [المؤمنون:101].

و أنا أقول: إذا تكلمنا في المفاضلة بين الأقوام، فإني فضلت العرب على قومي الترك، و أعلنته قبل موقفي الحاضر بمصر مهاجرا من تركيا، أعلنته في البرلمان العثماني، يوم كنت عضوا فيه، و سمعه أعضاؤه العرب السوريون، و الحجازيون، و العراقيون، و اليمانيون.

و أنا اليوم أيضا ثابت على رأيي القديم في تفضيل العرب، لأن القرآن نزل على لغتهم، و بقي محفوظا كما نزل فأصبحت هذه اللغة بفضل القرآن، و باهتمام علماء الإسلام بها من كل أمة، بذلك الفضل -و قد وضعوا علم النحو العربي، الذي ليس له مثيل في أي لغة الدنيا[33]- أصبحت لغة العرب أفصح جميع اللغات و أفضلها.

و لأن فيهم أي<93> العرب فضلا عن محمد بن عبد الله العربي، المبعوث إلى الناس، خاتم النبيين، و رحمة للعالمين؛ رجالا ممتازين مثل: أبي بكر، و عمر، و لا يوجد، و لا يمكن أن يوجد نظيرهم في الإسلام و الإنسانية في غير العرب...

و إن كان في العرب أيضا مثل الأستاذ عبد الله عنان المصري، و الشيخ عبد الله القصيمي[34].

اللذين أولهما: أعمى التعصب القومي الجاهلي عينه، و قلبه؛ فلم يتحرج عن محاربة دولة مرحومة حاربت طيلة عهدها في سبيل الإسلام.

و ثانيهما: ملأ الكفر و النفاق إهابه فتولى دعاية الأوروبيين في غاية من التذلل و التطفل<94>، حيث يهجم المسلمين، و يهجم معهم الإيمان، و الأديان، و الأخلاق، و يجمع في نفسه الدعاية للمستعمرين أعداء الإسلام مع الدعاية لدولة الحجاز خازنة بيت الله و روضة الرسول ﷺ، مستظلا برعاية هذه الدولة، و مدعيا بين كفرياته، و تحاملاته على المسلمين في جميع القرون أنه يحمل جميع أوزار التأخر و الانحطاط عليهم أنفسهم، و ينفي عن الدين ذاته هذه الأوزار...

و هنا ينسى المجنون حملته على القرآن، الذي لا يمكن تفريقه عن الدين إن أمكن على زعمه تفريق جميع المسلمين عنه.

و جوابه أن الآية التي أوردها بهذه الصدد، و هي: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر:5]؛ نزلت في بني النضير، و هم رهط من اليهود، نقضوا العهد.

---

[33] و في الأيام الأخيرة أخذت نغمة جنونية تسمع في مصر من الكتاب المستصعبين لعلم النحول العربي، داعية إلى إلغاء هذا العلم أو تعديله، على وفق أهواء الجاهلين به، مع أن له صلة قوية، يعلم الفقه الإسلامي الذي هو من معجزات هذا الدين؛ كما أن في إلغاء النحو جناية كبيرة على لغة العرب، و مساسا بإعجاز القرآن المنزل من عند الله... في حين أن علم النحو العربي، ليس ملك أولئك المجانين، و لا ملك العرب خاصة، بل ملك جميع علماء الإسلام، الذين لم تكن خدمتهم للقرآن و علم النحو، أقل من خدمة العرب، و هي أعظم مفاخرهم القومية؛ فهل تجد في الدنيا لغة من اللغات الحية بقيت على مر العصور غير مختلف قديمها عن حديثها في الالتذاذ و الاستئناس بها اليوم، و لو حال دون القديم و الحديث ألف و مئات من السنين.

و من عجائب مصر المضحكات المبكيات أن واحدا من أكابر أعضاء مجمع اللغة العربية اقترح قبل سنين استبدال الحروف اللاتينية العاجزة عن كتابة كثير من الحروف الموجودة في لغة العرب، بالحروف العربية، و في اقتراحه النام على مناوأة النحو العربي الناشئة من استصعابه، مناوأة اللغة العربية نفسها من طريق هدم الفصحى التي بها تتحد لغة العرب بلغة القرآن، و مع كل هذا لا يخرج الرجل من عضوية المجمع رغم خروجه على المجمع و ما وضع له، و قد حاول سد الفراغ الحاصل من وجود حروف في لغة العرب لا مقابل لها في الحروف اللاتينية، بوضع حروف جديدة، تضحك الثكلى نصفها لاتيني و نصفها عربي، و تفسد الحروف اللاتينية و العربية معا.

و إني قد كتبت كثيرا في رجحان الحروف العربية التي كانت حروفنا نحن الترك أيضا قبل الإنقلاب الكمالي اللاديني على الحروف اللاتينية، لما كنت في بلاد اليونان أحارب فتنة تغيير الحروف في تركيا، و تصدر مع ابني إبراهيم جريدة تركية، و مما قلته في هذا الموضوع أن الغربيين إن كان لهم عقل يميز الراجح من المرجوح فليقلدونا في حروفنا العربية بدلا من أن نقلدهم في حروفهم اللاتينية.

[34] اطلعت عليها بعد بياني المذكور في البرلمان العثماني على مسمع من نواب الولايات العربية؛ و قبل اطلاعي عليهما، كنت أعرف قتلة حسين من العرب، و فيهم عمرو بن سعد بن أبي وقاص، أحد العشرة المبشرين بالجنة، عينه عبيد الله بن زياد بن أبيه، قائدا أعلى للجيش المأمور بقتال حسين و وضع جسده بعد قتله و فصل رأسه عنه، تحت أقدام الخيل لتطأه على صدره ثم على ظهره، و اتفق مع الرجل على هذه الأعمال الشنيعة في مقابل إمارة رقة، التي سألها من عبيد الله والي كوفة، فقام بكل ما أمر به لا بغضا لحسين، و لكن حبا في المنصب الموعود.

و كان رسول الله ﷺ صالحهم على أن لا يكونوا عليه و لا له؛ فلما ظهر يوم بدر قالوا هذا النبي المنعوت في التوراة بالنصر، و لما هزم المسلمون بأحد ارتابوا، و نكثوا، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى المدينة، و حالفوا أبا سفيان عند الكعبة، فأمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري فقتل كعبا غيلة، و كان أخاه من الرضاعة، ثم صبحهم رسول الله ﷺ بالكتائب، و هو على حمار مخطوم بليف، فقال لهم: «أخرجوا من المدينة»؛ فقالوا: الموت أحب إلينا من ذلك، فنادوا الحرب...

و قيل: استمهلوا رسول الله ﷺ عشرة أيام ليتجهزوا للخروج، فبعث إليهم عبد الله بن أبي، و قال: لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، و لئن خرجتم لنخرجن معكم...

فحصنوا الأزقة، فحاصرهم رسول الله ﷺ إحدى و عشرين ليلة.. فلما قذف الله الرعب في قلوبهم و أيسوا من مدد المنافقين، طلبوا الصلح، فأبى إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم، فجلوا إلى الشام إلى أريحا و أذرعات إلا أهل بيت منهم آل أبي الحقيق، و آل يحيى بن أخطب، فإنهم لحقوا بخيبر، و لحقت طائفة بالحيرة.

فالنبي ﷺ شدد في معاملة بني النضير لكونهم نقضوا العهد مع<95> المسلمين، و سلكوا سبيل الغدر و الخيانة، فاستحقوا التشديد في الجزاء، و جاء القرآن مؤيدا له.

و قد سبق قبل غلبة الفتنة الكمالية في تركيا، و أنا لم أغادر البلاد، أن كتب الدكتور عبد الله جودت صاحب (جريدة الاجتهاد) المعروف بنزعته اللادينية، مقالة عاب فيها على النبي ﷺ ما فعله بيهود بني قريظة حيث أمر بقتلهم بعد استسلامهم للمسلمين و عده ظلماً!!..

و كتبت أنا في مقالة الرد عليه أنهم نقضوا العهد في أحرج وقت على المسلمين، و انضموا إلى أعدائهم في حرب الأحزاب، التي زحفت إلى المدينة من فوقها و من تحتها، و حاصرت عاصمة الإسلام، ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب:11][35] <96>.

فهل يظن الرجل الذي يعد ظلما ما لقي ناكثو العهد من الجزاء الشديد بعد إنقاذ الله المؤمنين من المأزق الذي زادت خيانة الناكثين خطرا على خطره... أن سياسة الإسلام ينبغي أن تكون سياسة الحمقى المغفلين بعيدة من الحزم، و الحسم، يَغتَفِر ما لا يُغتَفَر، و يضع الندى في موضع السيف؟؟؟

و كتبت في آخر هذه المقالة التي أشرت هنا إلى خلاصتها، و التي نال شكرا من السلطان المغفور له محمد وحيد الدين... قول أبي تمام:

و ما خير حلم لم تشبه شراسة	**و ما خير لحم لا يكون على عظم**
و هل غير أخلاق كرام تكافأت؛	**فمن خلق طلق، و من خلق جهم**
نجوم، فهذا للضياء إذا بدا	**تجلى الدجى عنه، و آخر للرجم**

******* *********** *******

نعود إلى ما كنا بصدده:

استمر تقهقر الدولة التي تولت الجهاد في سبيل الإسلام من استمرار تألب أعدائه عليها، و استمر معه تقهقر مكان العلم القديم، الذي تولى قرونا طويلة المحاجة لانتصار عقائد الإسلام، أمام العلم الحديث المبني على الحس و التجربة.

---

[35] كانت أحزاب المشركين الذين اجتمعوا و زحفوا إلى المدينة لقتال المسلمين زهاء 12 ألفا، و على قول (فتح الباري شرح البخاري 24 ألفا)؛ إذ جاؤوهم من فوقهم -كما حكاه القرآن-، و هم بنو غطفان، و من تابعهم من أهل نجد، و ضامنهم اليهود من بني قريظة، و النضير؛ و من أسفل منهم، و هم: قريش، و من شايعهم من الأحابيش، و بني كنانة، و أهل تهامة... فاضطر المسلمون و كان عددهم ثلاثة آلاف، إلى حفر الخنادق حول المدينة، بأمر رسول الله بعد استشارة سلمان، و اشترك الرسول في عملية الحفر؛ و مضى على الطرفين ما يقرب من الشهر لا حرب بينهما غير حرب الأعصاب.. حتى زاغت الأبصار، و بلغت القلوب الحناجر، و ظن بالله الظنون المختلفة، باختلاف أصحاب الظن، و نجم النفاق بين المنافقين حتى قال معتب بن قشير: "كان محمد يعدنا كنوز كسرى و قيصر، و لا نقدر أن نذهب إلى الغائط"؛ و غير حرب جرت بين فوارس من قريش يتقدمهم عمرو بن عبد ود، اقتحموا من الخندق مكانا ضيقا، فخرج علي بن ابي طالب في نفر من المسلمين، و قتل عمرا، فانهزمت خيله بقتله، و قتل مع عمرو رجلان.

و قيل: لم يكن بينهم إلا الترامي بالنبل و الحجارة، حتى أنزل الله النصر، إذ أرسل على أعداء المسلمين، الذين طوقوهم ريحا و جنودا لم يروها، و رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، و كفى الله المؤمنين القتال؛ و في صبيحة الليلة التي هزم جنود الله جنود الأحزاب، فولوا هاربين، و رجع المسلمون إلى المدينة و وضعوا السلاح؛ أتى جبريل رسول الله صلى الله عليه و سلم، فقال: أتنزل لأمتك و الملائكة ما وضعوا السلاح، إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، و أنا عامد إليهم؛ فأذن في الناس أن لا يصلوا العصر إلا ببني قريظة، فحاصروهم إحدى و عشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار؛ فقال: تنزلون على حكمي؟ فأبوا؛ فقال: على حكم سعد بن معاذ سيد أوس؟ (الذي كان بنو قريظة من حلفائها)، فرضوا به؛ و قد نسوا ما قالوا له لما جاءهم مع سعد بن عبادة سيد الخزرج، يحذران مغبة الالتحاق بالأحزاب... و لما ذكرهم ما بينهم و بين رسول الله صلى الله عليه و سلم من العهد، قالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا و بينه، و لا عقد..؛ فحكم سعد بقتل مقاتليهم، و سبي ذراريهم، و نسائهم؛ فكبر النبي صلى الله عليه و سلم، و قال: لقد حكمت بحكم الله -يريد حكم التوراة- فقتل منهم 600 أو 400 مقاتل؛ و فيهم امرأة طرحت الرحا على خلاد بن سويد تحت الحصن...

حكم به على الرغم من أنه حليفهم، و أوصاه كثير من الأنصار بالرحمة عليهم في الحكم؛ و كان سعد بن معاذ لما دعي للحكم يداوي من الجرح الذي أصابه في حرب الأحزاب بسهم واحد من قريش لا من اليهود حتى يتأثر به حياده في الحكم.

كان موقف بني قريظة المنضمين إلى أعداء المسلمين في حرب الخندق، لا يقاس في شدة الخطر، و جسامة احتمال الضرر على المسلمين، بموقف بني النضير المار ذكرهم، و إن كانت كلتا الطائفتين خانت و نكثت عهدها... لكون خيانة بني قريظة في أحرج وقت على المسلمين؛ حتى أن النبي صلى الله عليه و سلم لما سمع نبأ هذه الخيانة، و أرسل زعيمي الأوس و الخزرج و أنصاريين آخرين ليقفوا على جلية الأمر لفتهم إلى أن يتكلموا في العودة بما لا يفهم غيره صلى الله عليه و سلم إن كان حقا، كيلا يفتوا في أعضاد الناس، لكون خيانتهم مؤدية إلى انقطاع المدد و الميرة على المسلمين، و فتح الطريق لدخول المدينة من ناحيتهم... فألفاهم الرسل على أخبث ما بلغ عنهم...

و حتى أنه صلى الله عليه و سلم فكر في البعث إلى غطفان بعدها ثلث ثمار المدينة إن هي انسحبت، ثم رجع عنه لما استشار السعدين في الأمر، فقالا: إن كنت هذه الفكرة وحيا من الله، و إلا فنحن لم نؤد هذه الجزية في الجاهلية، فكيف نؤديها في الإسلام الذي أتانا بحياة جديدة، و سر هذا الجواب رسول الله صلى الله عليه و سلم غاية المسرة...

أما ما كتب معالي هيكل باشا في كتابه (حياة محمد صلى الله عليه و سلم؛ صحيفة 326 الطبعة الثانية) من تنفيذ فكرة البعث إلى غطفان بالوعد المذكور و إيهام تأثيره في انسحاب غطفان فلا أصل له... و إنما هو مسايرة من المؤلف المعتل بعلة إنكار المعجزات، على مبدإ بناء انهزام الأحزاب على أسباب مدبرة دون بنائه على المدد السماوي المذكور في كتاب الله؛ و كانت دعواه في مقدمة كتابه أنه لا يثق بما جاء في كتب الحديث من تلك المعجزات، فماذا عذره فيما جاء به القرآن؟

على أن المؤلف كتب في الصفحة التالية ما يناقض قوله الأول عن بعث رسول الله إلى غطفان يعدها ثلث ثمار المدينة، من أن ذلك الوعد لم يتم أن اعترض سعد بن معاذ و سادة المدينة من الأوس و الخزرج و من أصحاب مشورة رسول الله صلى الله عليه و سلم، و ماذا يكون معنى عدم تمام الوعد بعد أن بلغ غطفان، كما يدل عليه ما قاله من تردد غطفان في الإقدام على قتال محمد، متأثرة بما كان قد بدأ به من وعدهما ثلث ثمار المدينة؛ إلا إخلافه صلى الله عليه و سلم ما وعده باعتراض أصحابه؟ و فيه ما لا ينبغي له و لا لأصحابه؛ كما أنه لا معنى لاستشارته إياهم بعد الوعد.

و لم يكن هذا التقهقر ناشئا من نفس العلم القديم، كما سينجلي ذلك على قراء هذا الكتاب، بل من نظر أناس أحداث متزلفين إلى العلم الحديث تزلفا إلى الأمم الغالبة بأسلحتها المستفادة من ذلك العلم، فالتبست عليهم الغلبة بالسلاح بالغلبة بالحجة...

استمر التقهقر للمسلمين من الناحيتين، حتى أنه لما ختمت الدولة العثمانية أنفاسها، و انسلخت الدولة المحتلة مكانها<98> من صبغتها الإسلامية؛ استتبع هذا الانقلاب الخاص بتركيا انقلابات كثيرة في البلاد الإسلامية الأخرى أيضا، فلم يقتصر تعري النساء من جلابيبهن و خمرهن على نساء تركيا المقلدة للغرب في الظاهر و الباطن.

و لما هاجرت بعد انقلاب تركيا إلى مصر وجدت العلم الحديث الغربي فيها الناظر إلى الأديان نظرها إلى الأساطير، أنطق لسانا من علم أصول الدين الإسلامي، و أعلى صوتا حتى عند الأزهريين، أو على الأقل عند ذوي القول السائد منهم...

<u>حسبك دليلا على هذا أن الأستاذ الأكبر المراغي شيخ الجامع الأزهر، قال في كلمة ألقاها قبل سنوات عند توديعه للبعثة الأزهرية المؤلفة من بعض شبان المدرسين إلى مدارس أوروبا لطلب العلم: [و لو أن حملة الدين سايروا حملة العلم...]</u>.

فذكر حملة الدين في مقابلة حملة العلم، و اعتبر علماء الدين خالين عن العلم بالمرة، لعدم كون ما عندهم من العلم جديرا عنده باسم العلم؛ و تمام الكلام منا على كلمة الأستاذ الأكبر يأتي في مكان آخر من هذا الكتاب مع نقل تمام الكلمة بنصها.

و من الدليل الواضح على كون علوم الدين القديمة غير محتفظة بقيمتها و كرامتها عند سادة الأزهر الحاضر، صدور (مجلة الأزهر) تحت إشراف الأستاذ فريد وجدي بك (مدير المجلة، و رئيس تحريرها)، على الرغم من حملاته الشنيعة على علم الكلام في الجزء التاسع من المجلد الثاني عشر للمجلة؛ و سيجيء ردنا أيضا على تلك الحملات.

و دليل آخر أهم منه، كون تلك الحملات لم تحرك ساكنا من الاحتجاج و الانتقاد؛ و قد قرأت قبل ذلك في (جريدة الأهرام) لشاعر مسلم قوله بعد أبيات:

آمنوا بالعلم دينا و هدى؛	ليس بعد العلم للأفهام دين

و مما زاد في الطين بلة، أن المعروف عند حملة الأقلام بمصر كون المراد من العلم ذلك العلم الحديث، الذي يتمرد على الدين، فيقذف به في الأساطير، كما سننقله عن الأستاذ فريد وجدي بك؛ أو على الأقل، كما يقول عنه هيكل باشا: [لا يثبت و لا ينفي].

و هم لا يرضون بغيره من العلوم المعروفة عندنا، أن يسمى علماً؛ فليس علم أصول الدين<99> مثلا -و هو اسم آخر لعلم الكلام، الذي كان علماؤنا يبنون إيماننا بالله و رسله عليه- بمستحق عندهم لاسم العلم.

و على هذا يكون الإسلام خارجاً عن ساحة العلم مثل النصرانية، كما ادعاه الأستاذ فرح أنطون منشئ (مجلة الجامعة) في مناظرته الشيخ محمد عبده، و سيجيء تمام قول الأستاذ فرح.

و هنا مسألة أخرى: و هي أن هذا الشيخ الذائع الصيت في البلاد العربية، و في عالم الإسلام بواسطتها؛ يكافح الأستاذ الذي قد ضرب أساس الدين في مناظرته بمعول التشكيك، ثم نراه -أي الشيخ- و من تلمذوا عليه مثل الشيخ الأكبر المراغي، و الشيخ رشيد رضا؛ ينكرون معجزات الأنبياء، و يسعون لتأويلها بأمور عادية؛ كما ستطلع عليه في الباب الثالث من هذا الكتاب[36]؛ و تطلع أيضا على أن إنكار المعجزات ليس إلا رمزا لإنكار النبوات، و أن أساس الدافع إلى هذه الإنكارات هو العلم الحديث، الذي لا يقبل الخوارق.

فدهشت من كل ذلك، و قلت في نفسي: ما هذه الحالة التي وقفت عليها بمصر؟

فكأن شيطان العلم الحديث الغربي قد أضل مبرزي كتابها و علمائها السبيل، فتسابقوا بوسوسته في الخروج على الإسلام، إن لم يكن علانية ففي السر، و كأن ما قاله الأستاذ فريد وجدي بك في مقالة منشورة على (الأهرام)، و سننقله عنه بنصه من أن نوابغ الكتاب و الشعراء في البلاد الإسلامية يستبطنون الإلحاد و يهيئون الأذهان لقبوله دسا في مقالاتهم و قصائدهم، قد كان....

و كأن في مصر مثل ما في تركيا من الانقلاب غير أن ذلك حصل هناك، و استتب أمره جبرا من الحكومة، و في مصر اختيارا من كتابها و علمائها، بعد البحث و التفكير فيما بينهم....

و إنا نحن المهاجرين من تركيا المنقلبة لو وجدنا حرية القول فيها من غير خطر على حياة القائل، لما فاتتنا الغلبة بالحجة على دعاة الانقلاب، و لما احتجنا إلى مغادرة البلاد، أليس في مصر من العلماء و العقلاء من يضطلع<100> الوقوف في وجه انقلابها المقنع أو بالأولى من يسمى لكشف قناعه ثم مواجهته بضربات الحجج؟

مع أن أصحاب القلم من العلماء و خلص المسلمين في مصر أكثر منهم في تركيا، و لا خطر يخاف منه بمصر في سبيل الجهاد للدين إلا على مناصب المجاهدين، و هذا إذا فرضنا كفة نفوذ الملاحدة أثقل في ميزان الحكومة.

فلعل البقية الصالحة من العلماء و الكتاب -الذين لم يغفلوا عن مكايد الملاحدة للإسلام، و لم يشايعوهم في الإيمان بالعلم الحديث، أكثر من الإيمان بالله و رسله- تهيبوا معارضة ذلك العلم، و لم يثقوا بالنجاح في معارضته، فالتزموا السكوت، و خلوا الجو للملاحدة و مشايعيهم...

مع أن حقيقة الوقف الذي يقفه المجاهد المدقق ليست معارضة العلم المذكور، بل معارضة طائفة من علمائه الغربيين الذين يستخرجون منه مضادة الدين و مناوءته؛ و معارضة مقلديهم من ملاحدة الشرق؛ إذ لا يمكن أن يكون أي علم من العلوم الناصبة نفسها لاكتشاف الحقائق، مناوئا للدين الصحيح الذي هو أيضا حقيقة من الحقائق التي لا يتصور أن يزاحم بعضها بعضا....

و إن أمكن دائما أن يكون علم من العلوم غير مطلع على بعض الحقائق، لكونه خارجا عن موضوعه، أو لكون العلم المذكور لم يبلغ في مرحلة رقيه الحاضرة مبلغ الاطلاع عليه.

و على كل حال فمصر في حاجة إلى أن لا تخذل دينها الذي يوشك أن يتغلب عليه الإلحاد، لقوة دعاته، و انقسام العلماء المكلفين بحراسة الدين على أنفسهم....

فهل لي أن أكون القائم بهذه المهمة على الرغم من شتات بالي بعد شتات شملي في حياة المهاجرة، و ضعف صحتي بعد مفارقة شبابي مفارقة بعيدة؟

---

[36] قد وقفنا بحمد الله لنشر هذا الباب من قبل؛ في شكر كتاب مستقل مسمى (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب و الذين لا يؤمنون).

فهل لي أن أجد بين مفارقة الشـــباب و مفارقة البلاد و الأحباب ما يعوضني عن كل ذلك بما هو أعز من الكـل، ألا و هو خدمة الإسلام؟

و لقد أحسن من قال:

في الله من كل ما ضيعته خلف	و ليس لله إن ضيعت من خلف

إن دولة الترك الماضية الشامخة الوارثة لحكومة الإسـلام، قـد حفظت تراثهـا مـدة<101> حياتهـا الطويلـة بقـوة سيفها، ثم شابت، ثم ماتت؛ و لكل أمة أجل.

و لا عيب فيهم غير أن سيوفهم	بهن فلول من قراع الكتائب

و بعد انتهاء الدول العثمانيـة، لم تظهر دولة أخـرى تقـوم مقامها في الذود عن حيـاض الإسـلام بسـلاحها؛ فـانتهت قوة السيف في الإسلام[37].

و إني أتيت مصر في هـذه الفـترة، فوجـدت ما فيها من قـوة الإسـلام العلمية أيضا في حالة الـنزع بعد نـزاع دام مدة بين أنصاره و أعدائه، و كان من آثـار حالة الـنزع أني رأيتها لا تميز بين أنصار الإسلام و أعدائـه، فرمـاني بعض أهلها في الجرائد بخيانة الدين و الوطن، و سكت الباقون سكوتا ينبئ عن موافقتهم على رمي الرامين...

و لكـني مضـيت في سـبيلي واثقا أن الحق يمـرض و لا يموت...

و كما أن الدولة العثمانية ودعت الحيـاة مسـلولة السـيف بعد الدفاع عن الإسلام ستة قـرون، فقد عـزمت أنا الآخر على أن أدافع في آخر عمري عن قوة هذا الدين العلميـة، التي تعيد الشيوخ المجتهدين تحت رايتها إلى الشباب...

و أنا عارف بما يحيطني من عوامل الضعف التي ذكرتهـا، على أن بي ضعفا آخر كدت أنساه مع جدارته بالـذكر قبل كل شيء و هو ضعف اللغـة، مع ما كـان في طبيعـتي من شـدة الحــرص على التعمق في المسـائل الـتي أضـعها موضع البحث، فكيف يكون لي الجمع و التأليف بين ضعف اللغة و التعمق في بحث المسائل؟

أضف إلى ذلك أن القارئ المصري ينجذب في الغالب إلى قـوة اللغـة، و جمـال الأسـلوب، و يسـأم من التعمق في البحث مهما كان الموضع هاما حيويا؛ و لا يبالي بأن يكون مثله في هـذه الحالة كمثل مـريض يسـأم من<102> فحص أسباب المـرض، و أماراتـه، و لا يهتم بتنفيذ ما في تـذاكر العيادة الطبية...

بل ربما يلقيها بعد تمزيقها في سلة الإهمال، بحجـة أنهـا لم تكتب على أسلوب عال من الأدب الفني... و إني أرجو الله تعالى أن يجعل ضعفي في اللغة و ما يـؤدي إليـه من معاناة الصعوبة عند الكتابة، ثقلة للكتاب في ميزاني يـوم عـرض الأعمـال لا ثقلـة على قارئـه في الـدنيا... و اللـه تعـالى قـادر على أن لا يخيب سـائله مهمـا كـان السـائل

[37] و إني أقرأ على المسلمين المنهومين في أكل لحـوم الدولة العثمانية الزائلة كالأستاذ عبد الله عنان و غيره، قـول حطيئة الـذي كـان الأسـتاذ علي عبد الرزاق بك باشا قـرأه في غـير محله على المسـلمين الـذين لا يعجبهم أفعـال مصطفى كمـال في تركيا الجديـدة، و ذلك في مقالة له منشورة في الزمان الماضي:

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم * من اللوم أو سدوا الفراغ الذي سدوا

فلو كـانت الدولة العثمانية و رابطة مصر بها موجــودة لما اجــترأ فيها الكاتب عبد الله عنان على ما اجترأ، و خصيصا ما اجترأ الشيخ القصـيمي أن يعتدي في مصر على المسلمين و كتاب المسلمين.

عـاجزا عن القيـام بمهمتـه، و من يتوكـل على اللـه فهـو حسبه:

عذيري من لسان أعجمي	أراوده على تعريب كتبي
و قد أنطقته ما اسطاع حتى	إذا لم يُروني أنطقت قلبي

****** *********** *****

انتهينا من قصة الكتـــاب، و قد فهم من القصة ســـبب تأليفه إجمـالا... لكنا لا نكتفي بـذلك، بل نضم إلى هـذا الإجمال تفصيلا طويلا، قد يزيد في طـول مقدمة الكتـاب لنورد في غضـونها شـواهد تثبت ما قلنا في الإجمـال عن حالة مصر بـالنظر إلى عقلية كتابها العصـريين و علمائها التابعين لهم بغير إحسان من التـابع و المتبـوع المتفقين على هدم العقليات القديمة الإسلامية فنقول:

إن مما لا يخفى على المســلمين الــذين يهمهم بســبب إخلاصـهم لـدينهم أولا، و تـأثيره في حـالاتهم الاجتماعية ثانيـا، ما مر و لا يـزال على الإسـلام في الأزمنة الأخـيرة التي اتصل فيها الشرق بالغرب، من أدوار أعقبت عقليات مختلفة في خــواص النـــاس المحـــدثين، مع الاتصـــال المـــذكور، إن لم يكن في عـــامتهم و في خاصـــتهم القدامى....

فكان أول مرحلة أن أثيرت الشكورى من جمود المسلمين و علمــاء الإسـلام في دينهم، و شـاطر تلك الشـكوى و ناصرها بعض العلماء أنفسهم...

و لعدم كون الشـاكين و مناصـريهم على جـانب كبـير من العلم الناضج و العقل السـليم التبس الأمر عليهم، فهُجم على الــدين نفسه عند الهجـــوم<103> على الجمـــود في الدين[38].

و استمرت الشكوى، و لا زال شـيء من جماحها باقيا في بعض الأقلام حتى أذيب الجامـد، فنجم الجاحـد، و تطـاول الناقص، بفضل جحـوده على الزائـد، ثم حل تقليد الغـرب محل الجمود في الإسلام....

و جاء دور ساد فيه القول بين صراحة و دلالة بأن العلم لا يعترف بوجود ما لا يثبت وجـوده بالتجربة الحسـية، و ربما ألحق العقل بالعلم في عدم الاعتراف بغير المحسوسـات، و لم يفحص أي علم ذاك العلم، و أي عقل ذاك العقــــل، فقُبل كل منهما على إطلاقه عـدوا للـدين لعـدم اسـتناده إلى دليل محســوس، و اعتـــبر الإلحـــاد مـــذهب العلم و العقل...

و استقر الأمر على هذا حتى استولى اليـأس على قلـوب الغيورين على دينهم، و أصبح لا يجـترئ على الـدفاع عن دينه علميـــاً إلا متهـــور، أو متغـــاض عن معارضة العلم و العقل...

و ربما خـالج بعض الأذهـان أن العقل عُـرف في سـالف الزمان باستدلاله على وجود الل، ثم لم تثبت هذه الفكرة كبصـيص الأمل للمـدافعين عن الـدين أن أطفئت بنفس واحد يعيد اليـــأس إلى قلـــوبهم قـــائلا: إنه حلم العقل المحض و المنطق التجريدي اللذين لا يقـام لهما وزن في أعصر العلم المثبت.

[38] و هانت تهمة الجمود موجهة إلى الإسلام نفسه -مع أنها غير هينـة- لو اقتصرت على أحكامه العملية، و اعتمدت على دفع الحرج، و لم تنعد إلى العقيدة التي لا يتصور فيها الحرج...

و من هذا يتبين أن أصحاب الشكاية عن الجمود في الدين غير مخلصـين في مرامهم و نواياهم يبتغون الهـدم لا التيسـير، إذ لا يسـوغ و لا يعقل أن يكون معنى السهولة في العقيـدة إلى سـهولة الضـلالة بالنسـبة إلى الهدى.

ثم تــبين لمتحمسي المراحل الأولى بعد أن قضى النــاس شــــهواتهم من الأمــــاني اللادينية في المراحل الثانية و الثالثة، ما ترك الإلحـاد في أرواحهم من الخلاء المـوحش، و أخذوا ينزعجون منه، و يحسـون بحـاجتهم إلى ملء ذلك الفــراغ، و كــادوا ينــدمون و يتحســرون على فــراق ذلك الأنيس الـروحي الـذي هو الـدين، لـولا أن العلم و العقل اللــذان باعــدا بينهم و بينــه، بالمرصــاد يقطعــان عليهم طريق العود إلى حضانته المؤنسة المطمئنة<104>.

فلنبــدأ من تحليل ما حــدا هيكل باشا إلى تــأليف (حيــاة محمد ﷺ).

1- (الرد على هيكل باشا في كتاب حياة محمد):

قال معالي هيكل باشا فيما يقرب من آخر مقدمة (كتاب حياة محمد ﷺ): [فالتفكير الإسلامي -على أنه تفكير علمي الأساس على الطريقة الحديثة في صلة الإنسان بالحياة المحيطة به، و هو من هذه الناحية واقعي بحت- ينقلب تفكيرا ذاتيا حين يتصل الأمر بعلاقة الإنسان بالكون و خالق الكون؛ و يدع له ذلك في النواحي النفسية و النواحي الروحية آثارا قد يقف العلم بوسائله حائرا أمامها لا يستطيع أن يثبتها، و لا أن ينفيها و هو لذلك لا يعتبرها حقائق علمية.

ثم هي تظل مع ذلك قوام سعادة الإنسان في الحياة مقومة سلوكه فيها، فما الحياة؟

و ما صلة مكان الإنسان من الوجود و وحدته؟؟

هذه مسائل خضعت للمنطق التجريدي، و وجدت أدبا مترامي الأطراف لكنك تجد حلها في حياة محمد و تعاليمه، أدنى لتبليغ الناس سعادتهم من هذا المنطق التجريدي، الذي أفنى فيه المسلمون قرونا منذ القرن العباسي[39]، و أفنى في الغربيون ثلاثة قرون منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، مما انتهى بالغرب إلى العلم الحديث، على نحو ما انتهى بالمسلمين فيما مضى؛ ثم وقف العلم في الماضي كما أنه مهدد اليوم بالوقوف دون إسعاد الإنسانية، و لا سبيل إلى درك هذه السعادة إلاالعود إلى حسن إدراك هذه الصلة الذاتية بالوجود، و خالق الوجود في وحدته التي لا تتغير سنتها، و لا يعتبر الزمان أو المكان فيها إلا وجود نسبي لحياتنا القصيرة.

و حياة محمد ﷺ هي لا ريب خير مثال لدراسة هذه الصلة الذاتية دراسة علمية، لمن أراد، و دراسة عملية لمن تؤهله مواهبه أن يحاول هذا الاتصال في مراتب أولية لبعد ما بينه و بين الصلة الإلهية التي أفاء الله على رسوله.

و أكبر ظني أن هاتين الدراستين خليقتان يوم يتاح لهما التوفيق أن تنقذا عالمنا الحاضر <105> من وثنية تورط فيها على اختلاف عقائده الدينية أو العلمية، و ثنية جعلت المال وحده معبودا، و سخرت كل ما في الوجود من علم و فن و مواهب لعبادته و التسبيح بحمده].

و خلاصته أن معاليه من المستيئسين من إحياء الفكرة الدينية في قلوب الناس، مبتدئا من إثبات وجود الله على طريقة علمية، و بانيا لأساس الأخلاق التي هي مدار سعادة الجمعية البشرية على هذا الدين المثبت...

و هو يعتبر ما اعتمد عليه علماء الإسلام المتكلمون قرونا طويلة من إثبات عقائد الدين بأدلتها المبسوطة في كتبهم، و التي يدرس شيء منها في كلية أصول الدين الأزهرية، غير جدير بأن يسمى إثباتا بالطريقة العلمية، و لا أدلة ذلك الإثبات أدلة علمية، بناء على أن العلم الحديث الغربي لا يعتد بتلك الأدلة، و لا يعد العلوم المشتملة عليها علماً.

و قوله في ص 15 أصرح في هذا الصدد: [انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير في الأديان، و في الرسالة الإسلامية و صاحبها؛ و زادهم انصرافا ما رأوا العلم الواقعي و الفلسفة الواقعية "الوضعية" يقررانه، من أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق و لا تدخل في حيز التفكير العلمي، و أن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدي "الميتافيزيقي" ليس هو أيضا من الطريقة العلمية في شيء....].

و ترى معاليه قائل هذين القولين يناقض نفسه، فيقول في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه ص 55: [فالإيمان بالله و حده لا شريك له لا يحتاج إلى أكثر من النظر في هذا الكون الذي خلقه الله][40].

مع أن النظر في الكون لا يكفي المستدل على <106> وجود الله في نظر العلم الحديث، كما ذكرنا فيما نقلنا عن معاليه آنفا؛ لكن قوله هذا وقع بصدد نفي الحاجة في الدين إلى الإيمان بالمعجزة، فلم يتحرج أن يعترف في سبيل هذا النفي بما لا يعترف به العلم من وجود الله.

و إنكار المعجزة اعتمادا على الإيمان بالله، و استغناء الإيمان به عنها، ثم إنكار الدليل على وجود الله اعتمادا على العلم الحديث من عجائب العقليات الحديثة؛ مع أن الإيمان بالله يذهب بالإنسان إلى الإيمان بالمعجزة لا إلى إنكارها.

و على كل حال فمؤلف (حياة محمد ﷺ) لا يعجبه عدم وجود الله، و إن كان يعجبه عدم وجود المعجزات، مع أن المانع من وجود الأمور الغيبية كلها يرجع إلى أصل واحد هو العلم الحديث، و العقل المقيد به.

و لا ينتظر من معالي المؤلف شن الحرب على هذا العلم، و هذا العقل، اللذين شنا الحرب على وجود أي شيء ثابت فيما وراء الطبيعة.

فبالضرورة التجأ المؤلف إلى حياة محمد ﷺ، و دل الناس على الالتجاء إليها، لعلهم يجدون فيها ما لا يجدون في العلم و العقل، من طريق الوصول إلى الدين و واضعه جل شأنه.

و نحن نأمل من الاطلاع على سيرة نبينا ﷺ كل خير و بركة و هداية، لاسيما سيرته المكتوبة على وجه أمثل مما كتبه معاليه.

إلا أن هذه السيرة المباركة التي لم يأل معالي المؤلف جهدا في تصويرها على صورة لا تتنافى مع سنن الكون، ليأتلف مع العلم و العقل، لا مناص من أن تتعارض نتيجتها التي تنتهي إليها -و كان الانتهاء إليها مقصود المؤلف أيضا من كتابه، و هي صلة الإنسان على تعبير المؤلف بالوجود، و خالق الوجود- لا مناص من أن تتعارض هذه النتيجة مع العلم و العقل المقيد بالعلم.

فكيف يتصل الإنسان بخالق الوجود الذي لا يقر العلم و العقل بوجوده، إن كان هذا الإنسان مقرا بالعلم و العقل؟

و كيف يتصور رسول الله مجردا عن الله إن أمكن <107> تجريده عن المعجزات؟

مع أن العلم و العقل الذين لا يعترفان بالمعجزات لكونها من الأمور الغيبية الميتافيزيقية، لا يعترفان بالله أيضا للسبب نفسه.

و صفوة القول هنا أن الدين يقوم على ركنين رئيسيين: الإيمان بالله، و الإيمان برسوله من البشر.

لكن العلم الحديث التجربي الذي هو أساس ما يؤمن به المتعلمون العصريون بمصر المقدرة للغرب، لا يعترف بالله و لا برسوله على أنهما من الحقائق الثابتة المستندة إلى التجربة الحسية.

---

[39] يشير إلى زمان تدوين علم الكلام الإسلامي ممزوجا بالفلسفة المشتقة من الفلسفة اليونانية، و مستندا إلى منطق أرسطو اللذين اطلع عليهما علماء الإسلام في عهد الخليفة العباسي مأمون.

[40] لا يجوز وصف الكون عند النظر فيه للوصول إلى معرفة وجود الله، بأنه خلق الله كما فعل المؤلف؛ و إلا كان في هذا الاستدلال مصادرة على المطلوب تفسده؛ لأن من يعرف أن خالق الكون هو الله؛ لا يحتاج في الإيمان بالله إلى النظر في الكون، و من يحتاج للإيمان به إلى النظر في الكون لا يعرف أنه خلق الله.

أما العلم القديم المبني على العقل المحض، و المنطق التجريدي، و الذي آمن بالله أولا، و آمن برسوله بعد الإيمان بالله، و آمن بهما علماء الإسلام المتكرمون من قديم الزمان بواسطة هذا العلم -فغير معتد به عند المتعلمين العصريين-؛ فالعلم قديمه و حديثه لا يضمن الإيمان بالله و رسوله، و لهذا اتخذ معالي هيكل باشا تتبع حياة نبينا محمد ﷺ خير وسيلة للإيمان بالله، عكس ترتيب العلم القديم و علمائه المتكلمين، و إن لم يصرح بترتيبه هذا.

و قد يلاحظ في أسلوب معالي الباشا للإيمان بعض الشبه بإيمان المسلمين في عصر النبي ﷺ، و يمكن أن يكون هذا الشبه هو الذي جذبه.

كما قال في (مقدمة الطبعة الثانية لكتابه ص: 55): [و لو أن أمة غير مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين من غير حاجة إلى التصديق بمعجزة غير القرآن؛ لكان الذين آمنوا من أبنائها أحد رجلين: رجل لم يتلجلج قلبه، و لم يتعثر فؤاده، بل هداه الله إلى الإيمان أول ما دعي إليه، كما هدى أبا بكر فآمن، و صدق، من غير تردد؛ و آخر لم يلتمس فيما وراء سنة الكون من خوارق، بل التمسه في خلق الله، هذا الكون الفسيح الأرجاء، الذي يقصر تصورنا دون إدراك حدوده في الزمان أو في المكان، و تجري أموره مع ذلك على سنن لا تحويل لها، و لا تبديل؛ فاهتدى من سنة الله في الكون إلى بارئه و مصوره، سواء عند هذين أكانت الخوارق؟ أم لم تكن؟].

و خلاصته: أن من يهتدي إلى الإسلام في هذا الزمان من الأمم غير المسلمة، يهتدي إليه بأحد طريقين:

إما بأن يدخل الإيمان في قلبه أول ما دعي إلى الإيمان، و أول ما سمع القرآن، فيؤمن من غير أن يتلجلج قلبه، كما آمن أبو بكر من غير تردد؛ فهذا الرجل لا يحتاج طبعاً إلى غير معجزة القرآن.

و إما بأن ينظر إلى سنة الله في هذا الكون الفسيح الأرجاء، فيهتدي منها إلى بارئه؛ و هذا الرجل أيضا لا يحتاج في إيمانه بالله إلى المعجزات وا لخوارق؛ أما إيمان هذا الرجل بالرسول، فكأنه تكفل به معجزة القرآن.

و أنا أقول: مؤلف (كتاب حياة محمد ﷺ) معلول العقلية بداء إنكار المعجزات غير معجزة القرآن[41]؛ و لذا ينساق إلى تأييد هذه العقلية المريضة في مناسبة و غير مناسبة؛ و نحن نوفي حق الكلام على مسألة المعجزات في الباب الثالث من كتابنا هذا.

و المقصود هنا: التنبيه على أن ما ذكره من الطريقين لإيصال أي أمة غير مسلمة إلى الإيمان بدين الإسلام في هذا الزمان، فكلاهما غير ضامن للوصول إليه.

فالرجل الأول الذي يؤمن أول ما دعي إلى الإيمان من غير و حاجة إلى التصديق بمعجزة غير القرآن، كما آمن أبو بكر، لا وجود له في هذا الزمان، الذي لا يوجد فيه داع إلى الإيمان، كالنبي ﷺ، و لا مدعو كأبي بكر.

و الرجل الثاني، الذي ينظر إلى الكون الفسيح الأرجاء، و سنته المنظمة للاهتداء إلى بارئه، غير مضمون له الإيمان أيضا على مذهب المؤلف؛ لأن طريقة هذا الرجل إلى الإيمان بالله تعالى هي طريقة الاستدلال من الآثار إلى مؤثرها، أعني بها طريقة العلم القديم، المبني على العقل المحض، و المنطق التجريدي، اللذين لا يعتد بهما العلم الحديث، و لا متعلموه العصريون أشباه المؤلف، و لا يعتبرون ما يبنى عليهما من المسائل حقائق علمية؛ و

[41] على أن رأيه في معجزة القرآن الذي يأتي تفصيله في محله يتنافى مع الاعتراف التام بكون القرآن معجزة.

هل هذا إلا تناقض من المؤلف مع ما ذكره أولا، و بنى عليه تأليف كتابه.

و لعله يظن أن الدين غير لازم بلوغه عند المتدين مبلغ الحقائق العلمية، و فيه حط الدين عن مرتبة العلم و علمائه عن مرتبة العلماء، و سيسمع القارئ كلمة من الشيخ الأكبر أيضا تنم على هذا.

و لو تغاضينا عن هذا التناقض، و فرضنا كفاية النظر إلى الكون، و سنته في إيمان الرجل الثاني ببارئ الكون، و بلوغ هذا الإيمان في قلبه مبلغ الحقائق الثابتة مخالفاً لرأي العلم الحديث فيه؛ فماذا يكون سبب إيمان هذا الرجل بالرسول من غير حاجته إلى التصديق بالمعجزات غير القرآن؟ و لم يذكر المؤلف هذا الإيمان منه، و لا سببه.

فإن قال: إن السبب هو القرآن؛ وَرَد عليه ماذا يكون تأثير معجزة القرآن التي يدعي المؤلف استغناء أي أمة غير مسلمة في هذا الزمان عن التصديق بمعجزة غيرها؛ في إيمان الأمم من غير العرب؟

و العرب نفسها لا تربط اليوم معجزة القرآن بهذا الدين كثيرا من أبنائها المثقفين؛ و قد انقضى عهد الذين أدركوا الإعجاز بالذوق، و آمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك، على ما قاله الأستاذ الأكبر المراغي في مقالة نشرها في (الأهرام)، و (السياسة الأسبوعية)؛ قبل بضعة عشر عاماً في مسألة ترجمة القرآن، و انتقدناها عليه في كتاب نشرناه يومئذ؛ قال: [إن قراءة الأعاجم للنظم العربي نفسه لا يدلهم على الإعجاز، و ليس في استطاعتهم فهمه، و الأمم العربية الآن، و من أزمنة طويلة خلت لا يفقهون الإعجاز من النظم العربي، و قد انقضى عصر الذين أدركوا الإعجاز من طريق الذوق، و آمنوا بالقرآن بسبب هذا الإدراك؛ و نحن الآن نقيم على الإعجاز دلائل عقلية، فنقول: إن القرآن تحدى العرب، و أنهم عجزوا، و هذا يدل على أنه من عند الله].

أما قول معالي المؤلف بعد أسطر من القول الذي نقلنا عن كتابه آنفا: [مثل الذين يؤمنون اليوم بالله و رسوله من غير أن تحملهم المعجزات على الإيمان، كمثل الذين آمنوا بالله و رسوله في حياة النبي العربي؛ فلم يذكر التاريخ أن المعجزات حملت أحدا <110> منهم على أن يؤمن، بل كانت حجة الله البالغة عن طريق الوحي على لسان نبيه، و كانت حياة النبي ﷺ في سموها البالغ غاية السمو، هي التي دعت إلى الإيمان].

فجوابي عليه: أني كنت أيضا في رأي معاليه، على أن تكون طريقة الإيمان هذه خاصة بالأمة العربية، التي تنقاد أفئدتهم لجمال البلاغة، و يملهم التعمق و الاستقصاء في الاستدلالات العقلية، و لا أزال شديد التعجب من أن يكون المرء يفهم القرآن، و لا يدين بالإسلام، و لا أزال أيضا قوي الاعتقاد بأن مسئولية أبناء العرب إزاء الإسلام تكون أشد.

إلا أنه مع كل هذا فبين الذين يتوقع منهم الإيمان بالله و رسوله في الأزمنة الأخيرة، و بين المؤمنين به في عصر النبي ﷺ فارق عظيم؛ من حيث أن العلم الحديث و العقل الحديث -اللذين اقتبسهما الشرق المقلد من الغرب، و اللذين يعتبران مانعين عن الإيمان بالله و رسوله ﷺ، و جاعلين وجود الله و رسوله ﷺ في خارج الحقائق الثابتة ثبوتا علميا- لم يكونا موجودين حين آمن النبي ﷺ و أصحابه.

و من هذا الفارق نرى معالي الباشا كات بحياة نبينا ﷺ يجتهد في إخلائها عن ما عدا القرآن من المعجزات التي يعبر عنها بالخوارق....

كما يظهر مبلغ اجتهاده هذا من الكلمتين المنقولتين عن كتابه.

و لا يدري معاليه أن معجزة القرآن بصفة أنها معجزة يلزم أن تكون هي أيضا من الخوارق التي يصر على نفيها من حياته ﷺ؛ حتى أن النبوة نفسها خارقة، تقتضي إخلاء حياة النبي العربي ﷺ عنها على شرط كاتبها الحديث؛ و سنبين ذلك في محله إن شاء الله.

فمعاليه يناقض نفسه من حيث لا يشعر، و يبتعد في مسألة النبوة و معجزة القرآن عن العلم؛ و لذا نرى الأستاذ فريد وجدي بك يرد النبوة في (السيرة المحمدية على ضوء العلم و الفلسفة)؛ التي أخذ يكتب مقالات بهذا العنوان في (مجلة الأزهر) إلى العبقرية؛ كما سنذكره.

فهذا الكاتب عن حياة النبي ﷺ بعد الدكتور هيكل باشا، يراعي العلم أكثر من معاليه؛ لأن العلم في نظر الكُتَّاب العصريين<111> -كما لا يقبل المعجزة- لا يقبل النبوة أيضا، بمعناها المعروف عند المسلمين، و غيرهم من أهل الملل.

ثم من الفوارق بين اليوم و عصر النبي ﷺ، أنه لم يكن في عصره مستشرقون من أهل الغرب، يدرسون حياته من غير إيمان بنبوته، و يكون أكثر اعتماد كتاب من المسلمين عن حياته على أقوالهم، حتى أنه يوشك أن يتبعوهم أيضا في عدم الإيمان بنبوته، لكون النبوة بمعناها المعروف خارقة لسنة الكون، كخوارق المعجزات[42]؛ في حين أنهم يهتمون بإخلاء حياته عن الخوارق أي اهتمام، فيجعلون نبوته، أو يلزمهم أن يجعلوها عبقرية!!!

فلو كان درس حياته صلى الله عليه و سلم مؤديا كافيا لدارسها<112> إلى الإيمان بالله و رسوله، لكان أولى الناس بهذا الإيمان هم المستشرقين، الذين لهم الحظ الأوفر في درس حياته على رأي معاليه، حتى أنه يعول على ما كتبوا عنها أكثر من كتب مؤلفي الإسلام، كما يطلع عليه القارئ، فيما يأتي.

فالحق، أن الاطلاع على حياة نبي الإسلام في إيمان أي امرئ، بنبوته مشروط بطهارة دماغ المطلع عن عقلياتٍ، تُمانع الإيمان، كإنكار الخوارق لسنن الكون، و نفي كل ما يغيب عن الحواس، و اعتبار هذا النفي، و ذاك الإنكار، أو على الأقل نفي و إنكار ثبوت شيء منها، علما.

و قد علمت من كلام الدكتور هيكل باشا أن الإيمان بالله لا يكفل به العلم الحديث، لكونه حائرا في مسألة وجود الله، لا يثبته و لا ينفيه لعدم كونه في متناول التجربة.

و العلم القديم لا اعتداد عند العصريين بما أثبته، فوجود الله تعالى إذن غير ثابت ثبوتا علميا في نظر مؤلف (حياة محمد ﷺ)، و أمثاله من المثقفين ثقافة جديدة غربية، و علمت من كلامي أن درس حياة النبي ﷺ الذي التجأ إليه الدكتور المؤلف، لاثبات الدين لا يجدي بمجرده في دفع الشبهة في وجود الله، لا سيما الذين شحنوا أذهانهم بصادرات الغرب، و إن كانت الشبهة في وجود الله تضر دارس حياته ﷺ أيضا، و تبعده عن الاقتناع بنبوته.

فيجب إذن على من يريد إثبات الدين أن يتشجع، و يبدأ الأمر كما قلنا من إثبات وجود الله إن لم يكن بالعلم الحديث فبالعلم القديم.

و سيعلم الذين يستخفون بهذا العلم أن هذا العلم يثبت وجود الله إثباتا أقوى و أفضل مما لو أثبته العلم الحديث، و أحرى من هذه الناحية أن يكون إثباتا علميا.

و لا بد إذن لإثبات الدين الذي هو اتصال الانسان بخالقه - و يكون مبدأ هذا الاتصال و مجلاه في اتصال النبي الذي يبدأ الدين منه- و إثبات إمكان هذا الاتصال<113>، أن نكافح العلم الحديث، المانع عن الإيمان بالغيب و العقلَ المقيد بذلك العلم، مادام لا ينفع الفرار من مكافحتهما، فإن لم نكافحهما نحن المؤمنين بالغيب، فهما يكافحاننا...

و بعبارة أولى و أوضح، لابد أن نبتدئ الأمر بدعوة العلم و العقل إلى الإيمان، و هما بشرط أن لا نكون نحن الداعين جبناء، أسارى التقليد للغرب اللاديني من ناحية، و الغرب المسيحي من ناحية، الذي يبني دينه على العاطفة الروحية، لا على العلم و العقل- أكثر استعدادا لقبول الحق من مدعي العلم و العقل الغافلين.

فأمامنا ثلاث مسائل: وجود الله، و وجود منصب النبوة، و وجود معجزة النبي.

فالمسألة الأولى مع كونها أساس المسألة الثانية، بل أساس كل شيء... لا يجد المتعلمون تعلما عصريا الاستطاعة في أنفسهم، و الشجاعة لإثباتها علميا، فيغفلونها[43].

و المسألة الثالثة لا يريدون إثباتها، و لا يرون حاجتهم إلى ثبوتها، لكونها مخالفة لسنن الكون و العلم المبني على التجربة الحسية، و هذا المانع نفسه هو المانع لثبوت المسألة الأولى.

فبقيت المسألة الثانية -أعني مسألة النبوة- أسوة للذين يحنون إلى الدين بعد خراب بنيانه، فاليوم يبكي على أطلالها من أراد أن يبكي على الإسلام.

ثم إن هؤلاء الذين تمسكوا بالنبوة، و خلوا ما يسمونه العلم يقضي على المسألة الأولى، و الثالث، لا يروقهم النبوة أيضا، من دون أن يجري عليها عملية من التعديل، بجعلها ملتئمة مع العلم؛ فالعملية الأولى: تجريدها من المعجزات.

و ربما يكون هذا التجريد<114> مغيرا للنبوة عن حقيقتها الأصلية، و يغني المجددين عن إجراء العملية في نفس

---

[42] بل النبوة تنطوي على ثلاث معجزات، كما قال الفخر الرازي في تفسيره، عند قوله تعالى: {و ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء}؛ البحث الثاني: أن الرسول إذا سمعه من الملك، كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك معصوم، لا شيطان خبيث؛ و على هذا التقدير فالوحي من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب في ظهور المعجزات: المرتبة الأولى: أن الملك إذا سمع ذلك الكلام من الله، فلا بد من معجزة تدل على أنه كلام الله؛ و المرتبة الثانية: أن الملك إذا وصل إلى الرسول، فلا بد له أيضا من معجزة؛ و المرتبة الثالثة: أن الرسول إذا أوصله إلى الأمة، فلا بد له أيضا من معجزة؛ فثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع ثلاث مراتب من المعجزات].

أقول: إن هذه الكلمة القصيرة، التي نقلتها من تفسير الإمام الرازي مهمة جدا من حيث إن فيها تجلية لزوم المعجزة للنبي، و خصيصا للرسول صلى الله عليه و سلم، الذي أخص من النبي، و تجلية أن الرسالة من الله متضمنة لثلاث معجزات، لا يكون الرسول رسولا بدونها، و بها يحصل التثبت في الروابط الثلاث، التي يحتاج إليها تحقق صفة الرسالة من الله المذكورة في قوله تعالى: {الله يصطفي من الملائكة رسلا و من الناس}؛ و الذين يؤلفون في حياة سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم من الكتاب العصريين المنكرين للخوارق، يناقشوننا في الاعتراف بالمرتبة الأخيرة من مراتب المعجزات الثلاث، التي هي أوضح المراتب، فضلا عن المرتبتين الأوليين اللتين يغفلون عنهما بالمرة، فليقرأوا هذه الكلمة المنقولة، و ليقرأها معهم طائفة من الكتاب و العلماء المحدثين بمصر، ابتلوا بداء الإعراض عن كتب التفسير القديمة، استخفافا بشأنها، و نكرانا لجميل مؤلفيها عليهم الرحمة و الرضوان.

[43] نعم، كتب الأستاذ العقاد كتابه الحديث عن الله، مسمى باسمه جل و علا، و هو كتاب ينقب و ينقر عن منشأ فكرة الألوهية في الإنسان، و يهدف إلى الإحاطة بتاريخ تطورات هذه الفكرة، أكثر من إثبات وجود الله علميا، و حل شبهات تخالج أذهان المتعلمين العصريين حول هذا الإثبات الذي هو حاجة مصر العاجلة في هذا الزمان بل الشرق الإسلامي كله؛ و إن كان الكتاب لا ينقصه أيضا ما يتعلق بهذا الصدد عرضا من بعض نفائس لم نكتم إعجابنا به في محله المناسب، و مآخذ لم نحجم عن نقدها.

النبوة، بناء على أن النبوة نفسها معجزة خارقة لسنن الكون، لأنها بمعناها المعروف عند المسلمين اتصال صريح بعالم الغيب، لا يشبه صلة العاقل بذلك العالم بعقله، و صاحب الحدس بحدسه، مع أن العلم و أعني به العلم الحديث المؤسس على شهادة الحواس لا يعترف بوجود عالم الغيب.

و صفوة الصفوة من الكلام الذي يجرنا إليه تحقيق الحق في هذا المقام: أن قضيتنا نحن المسلمين القدماء، الذين لم يطرأ على عقيدتهم بحمد الله أدنى شبهة في وجود الله و رسله، رغم تطور الزمان، و اتصال الشرق الإسلامي بالغرب، و كذا قضية المسلمين الذين أصيبت قلوبهم بشيء من الزيغ، أو على الأقل خالجها شك في عقيدتهم و زين لهم الشيطان هذا الشك، أو ذاك الزيغ، باسم التجديد، أو الخلاص من التقليد؛ على الرغم من كون حقيقة هذا الخلاص هو الميل إلى التقليد الجديد...

خالجها شك، ثم حدث في نفوسهم الحنان للرجوع إلى صوابهم، و اطمئنانهم اللذين لا يجدونهما في غير أحضان عقيدتهم القديمة... قضية هاتين الطائفتين التي هما في حاجة إلى اكتسابها و تخليصهما من شر دعاة الإلحاد الذين هم أشد المبشرين في هذا الزمان خطرا على الإسلام، لا يدانيهم مبشرو النصرانية مكيدة و خبثا، لكونهم جائين من جانب العلم- تتكون من مسألتين: وجود الله، و وجود رسل الله.

و لا ريب في أن إثبات وجود الله أهم و أقدم من إثبات وجود رسل الله، حيث لا معنى لوجودهم على تقدير عدم وجوده، أو على الأقل على تقدير الشك في وجوده، فضلا عن أن دليل وجوده أقوى و أظهر من دليل وجودهم، و حسبك من الفرق أن الرسول ليس بواجب الوجود، مهما صح و ثبت وجوده، و لو وجب وجوده لكان الله، و كان واحداً.

و لما أن الفرق بين المسألتين واضح لحد الفرق بين الله و رسله، تجد الكثرة الساحقة من الفلاسفة الغربيين مؤمنين بالله، و تجد أقل قليل منهم يؤمنون بالنبوات، حتى إنهم أغفلوا مبحث النبوة في المطالب <115> الفلسفية، و حتى أن المذهب السائد اليوم في أوساط الغرب المثقفة، الاعتراف بوجود الله دون وجود الأنبياء، بل هو مذهب كثير من المثقفين العصريين منا أيضاً، الذي يكنونه في صدورهم، و لا يظهرونه إلا إذا خلوا إلى أمثالهم.

و هذا مع الفرق في إيمان العصريين منا بالله من إيمان الغربيين، بناء على أن إيمان الأولين أضعف من إيمان الآخرين، لكونهم مقلدين، و لكون ميلهم إلى ملاحدة الماديين من الغربيين لا يقل عن ميلهم إلى المؤمنين منهم؛ و حالة هؤلاء المثقفين هذه، التي تلازمهم، هي سر ضعفهم الذي يلازمهم، و يضمن لمثلي الغلبة عليهم دائما عند النقاش في أي مسألة دينية، فليس لهم حق التمسك بكتاب الله و سنة رسوله ﷺ، و إنهم في حرمان دائم عن بركة هذين المنبعين، فإن تمسكوا بهما فقلما يستفيد المرء من تمسكه بما لا يكون ممسكا عنده، و في هذا أيضا سر كونهم يخطئون كثيرا في فهم معاني القرآن، متى وقعت آية من آياته محل الخلاف بيننا و بينهم.

و من كل هذا الذي قلنا، نرى تقديم مسألة وجود الله في الإثبات على مسألة وجود الأنبياء، حين كان الكتاب العصريون الموجهون أنظار الناس إلى درس حياة نبينا ﷺ، يرون أنفسهم في غنى عن درس المسألة الأولى، حتى بعد الاعتراف بمنهم بعدم قول العلم فيها إثباتا أو نفيا، المؤدي إلى القول بالتشكيك الذي لا يجتمع مع الإيمان بالله.

على أن المسألة الأولى التي هي إثبات وجود الله، نحن محتاجون إليها أيضا في الاقتناع و الإقناع بوجود رسل الله، و لذا جعلناه مسألة ثانية، و قلنا: إنه أصعب من الاقتناع و الإقناع بالمسألة الأولى التي هي إثبات وجود الله.

فكأن كتابنا العصريين اهتموا بإثبات الأصعب، و استغنوا عن إثبات الأسهل؛ و كنا قلنا عن القيام بواجب الخدمة للإسلام على هذا الشكل من الترتيب: إنه أوفق لمسلك الأنبياء، و حال المسلمين في مبدإ الإسلام، حيث كانوا يلبون دعوة الرسول بعد اختبار صدقه في دعوى الرسالة من الله بمعجزته، التي هي وسام صدق تلك الرسالة، فيؤمنون برسالته، و يصدقونه فيما بلغه <116> من الله، و يكون تصديقهم هذا يتضمن الإيمان بالله أيضا...

كنا قلنا كذلك، لو لم نكن نرى أولئك العصريين المشتغلين بكتابة حياة نبينا ﷺ، خصومَ معجزات الأنبياء اللُّدَّ، جريا وراء العلم الحديث المادي؛ و لو لم تكن أيضا هذه الخصومة منهم كالسعي في هدم ما تستند إليه نبوة النبي الذي يشتغلون بالكتابة عن حياته.

فعملهم بالبناء مقترن بالهدم، و الدسم الذي يقدمونه للقراء خليط بالسم، ليس فيه ما يسر المسلم الساهر على دينه و منزلة نبيه...

إلا أن النبوة التي لم يبلغ دليل إثباتها في القوة و الظهور مبلغ أدلة وجود الله، و التي أهملها الفلاسفة و لم يدخلوها في المطالب الفلسفية... أصبحت في نبينا محمد ﷺ بفضل حياته الناصعة المضبوطة، ذات قوة و جاذبية، حملت كتابنا العصريين الذين أخذوا يرجعون إلى رشدهم، و يقومون بدور علماء الدين في دعوة الناس إلى الرغبة في الإسلام، و تقدير نبيه الجليل قدره... حملهم نصوع حياة هذا النبي ﷺ و جاذبيتها على تقديم مسألة النبوة في ترتيب الخدمة للدين الإسلامي، و عقيدته في عصر ساور كثيرا من القلوب الشك في صحة جميع الأديان.

و كانت هذه الفائقية الناصعة في حياة محمد ﷺ أمرا زائدا على علامة نبوة النبي، يصح عدها من الكماليات، و أكمل الكماليات بالنسبة إلى الضروريات، التي هي المعجزات الخارقة... لكن الكتاب العصريين تصوروا -و يا للأسف الزائد- في النصوع و الفائقية المشهودين في حياة محمد ﷺ، مزاحمة للمعجزات[44]، ساعين في تفسيرهما بتجريد حياته عن الخوارق، مع كون النبوة نفسها منها، فأبانوا رغم اشتغالهم بكتابة حياة النبي ﷺ عن عدم فهمهم لأساس معنى النبوة و الرسالة من الله، التي هي اتصال بعالم الغيب... و منشأ المرض كون العلم الحديث لا يقبل وجود عالم الغيب، و كون الكاتبين لا يزال يزاحم إيمانهم بهذا العلم إيمانهم بالنبي <117>.

---

[44] رغم ما ينبغي للعاقل أن يرى فيهما تأييدا للمعجزات.

2- [فريد وجدي بك][45]:

و مع هذا، نرى الأستاذ فريد وجدي بك، الذي كان قبل بضع عشرة سنة قد أنكر معجزات الأنبياء على صفحات (جريدة الأهرام)، فلما أنكرتُ عليه هذا الإنكار، أضاف إليه إنكار البعث بعد الموت، لكونهما من جنس واحد، يأباه العلم، و لا يسيغه العقل المدرب على العلم... نراه في الأزمنة الأخيرة يكتب في (مجلة الأزهر) التي يرأس تحريرها، مقالات بعنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم و الفلسفة)، محاولا إثبات إمكان الوحي بوجود العبقريات، ثم يتحول فينفي عن نفسه القول بأن النبوة عبقرية، و مع هذا لا يجاوز في إيضاحها إلى ما وراء التمثيل بالعبقريات، تجنبا لمخالفة العلم، و خرق سنن الكون، و هو غافل، أو متغافل عن أن النبوة لا تكون نبوة إلا بخرق سنن الكون، التي يعترف بها العلم، و لا يعترف بما وراءها؛ و الأستاذ يجعلها أي النبوة- حدا بين العبقرية و الخارقة؛ بل يجعلها عبقرية ممتازة، فاقت في محمد ﷺ كل ما في عباقرة الدنيا!..

يشهد به قوله: [ربما يخيل لمن يطلع على شرطنا إيراد السنة النبوية على أصول الدستور العلمي أن جانب الإعجاز فيها سيكابد نقصا عظيماً، إن لم يغفل إغفالا تاماً، و إغفال هذا الجانب منها يجعلها أمراً طبيعياً، فتفقد النبوة صبغتها المميزة، و تصبح سيرة النبي كسيرة أحد عظماء الرجال، و ليكن من الممكن إثبات أنه أعظمهم، فتكون النتيجة سلبية من الناحية الدينية.

نقول: لا؛ فإننا نرى إن سِرْنا على شرط العلم في إثبات الحوادث، و عزوها إلى عللها القريبة، فإنه سيتألف من جملتها أمر جلل، يقف العلم نفسه أمامه حائراً، لا يستطيع تعليل صدوره من فرد واحد، و سيكون مضطرا إلى أن يعترف بأن محمدا <118> ﷺ كان عبقريا من طراز خاص، فاق جميع العباقرة؛ و هذا كسب عظيم للقائلين بنبوته[46]؛ لأن العبقرية في العلم لا تعني ما تعنيه في عرف العامة؛ هي في العلم: ما يلقى في روع العبقري من علم أو عمل بدون جهد منه؛ فيجيء فذا لا سابقة له تتخذ مثالا لغيره، و لا يمكن تقليده؛ فالعبقرية بهذا المعنى العلمي تقرب معنى النبوة إلى العقل[47]، و تسوغها في العلم]؛ (الجزء الأول من المجلد العاشر من مجلة الأزهر، ص 15).

و أنا أقول: كثرة وقائع العبقرية لا تصعد العبقري إلى مرتبة النبي، و لا يكون هذه الكثرة كسب للقائلين بنبوة سيدنا محمد ﷺ، و إن طمع فيه الأستاذ، الذي وضع نبوته موضع المساومة؛ و إنما يكون فيها كسب القائلين بعبقريته الفائقة.

و الأستاذ يحاول أن يتصور في نبينا نبوة يسوِّغها العلم، الذي لا يسوغ الخوارق و المعجزات، فيحذف شيئا من إعجاز النبوة، و يستلين شيئا من قسوة العلم، فيتردد بين الضدين.

و يقول: [العلم حائر أمام عبقرية محمد] ﷺ؛ يعني أنها نبوة لا عبقرية.

ثم يقول -بعد أن أدخل فيه ما أدخل من التغيير-: [إن العلم يسوغها]؛ يعني أنها عبقرية لا نبوة.

و مهما أتعب الأستاذ قلمه، فإنه لا يستطيع أن يجعل العلم -الذي لا يعترف بغير الطبيعيات يقبل النبوة، التي هي حالة وراء الطبيعة، اللهم إلا أن تكون نبوة معدلة، عصرية للمسلمين العصريين!!!

فليقل الأستاذ بصراحة: هل يعترف العلم -أي العلم الذي لا يعترف بشيء فيما وراء الطبيعة؛ و هو يؤمن بهذا العلم، و بمبدئه القائل: [كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به].

و هو يعلم أنه بمبدئه هذا لا يعترف بالله، و لا بالنبوة، و لا بالمعجزة، و لا باليوم الآخر، كما قال معالي الدكتور هيكل باشا: [إن العلم يقف حائراً أمام مثل هذه الأمور، لا يستطيع أن ينفيها، و لا أن يثبتها]؛ و معنى هذا أنه ينفي ثبوتها، فلا يصدقها، و ينافي بذلك الدين كل المنافاة؛ و لذا قال بعده: [و هو بذلك لا يعتبرها حقائق علمية]<119>.

فليقل الأستاذ وجدي بك بصراحة: هل هذا العلم، و من لا يسعهم من الكتاب إلا أن يسايروه، مثل الأستاذ الذي اشترط على نفسه كتابة السيرة المحمدية على أصول الدستور العلمي... هل يعترف، و معه المسايرون بأن محمدا ﷺ كان ينزل عليه ملك، و يأتيه ببلاغ من ﷲ؟

و ليقل بصراحة إنه لا يعترف به؛ فمن شاء فليكن مع العلم، و من شاء فليكن مع الدين... ليقل ذلك، و لا يتعلل بإخراج نبوة محمد ﷺ إلى سوق السماسرة، ليكسب القائلون بنبوته في تلك السوق بعض أرباح معوضة عن فقد النبوة صبغتها المميزة..

و ماذا يقول الأستاذ في نبوة سائر الأنبياء، الذين لا يجتمع فيهم ما يجتمع في سيدنا محمد ﷺ من حوادث العبقرية، ليجعل له من جملتها عبقرية من طراز خاص، فيخسر القائلون بنبوتهم على تقدير ردها إلى العبقرية، حتى ما يكسبه القائلون بنبوته؟

و هذا الأستاذ الذي سيراه القارئ -عندما أمعن في قراءة مقدمة كتابنا هذا الطويلة- في موقف عجيب من العلم المزاحم للدين، لا يقر له قرار؛ أيستمر في التمسك به، أم ينبذه و يحمل عليه...

هذا الأستاذ له في مراحل خضوعه للعلم، كلام في سوق المساومة على مسألة وجود الله أسخف من كلامه في سوق المساومة على نبوة سيدنا محمد ﷺ.

قال في المقالة التي كتبها للعدد الممتاز في (مجلة الرسالة، المنتشرة في 5 يناير 1947): [ظل العلم من الناحية الاعتقادية عدواً للدين، راميا إلى محو أثره من النفسية البشرية، لاعتباره إياه عاملا انقضى زمنه، و بطلت الحاجة إليه؛ و ما ليس إليه حاجة مادية و أدبية كان وجوده معطلا للآخذين به من التأدي إلى الكمال المنشود.

و لكن في القرن التاسع عشر نفسه الذي نال العلم فيه أقصى مناه من الدين، ظهرت آثار علمية قضت بها الضرورة، كان لها أثر في إعادة سلطان الدين إليه، منها الحاجة الملحة إلى افتراض وجود عنصر أولي لطيف إلى أقصى حد، مالئ للكون كله، و هو الأثير الذي لا يخلو منه حيز في الأرض و لا في السماء، و إن كان موجودا من أزل الآزال<120>، و سيبقى موجوداً أبد الآباد، و إنه أصل المادة، منه نشأت، و إليه تعود.

و غلا الأستاذ هيكيل المدرس بجامع بينا من ألمانيا، فكتب في (كتابه وحدة الوجود المونسيم) يقول: إن نظرية الأثير إذا أخذت كقاعدة للإيمان، يمكنها أن تعطينا شكلا معقولا للدين، و ذلك إذا جعلنا تلك الكتلة الجامدة الثقيلة، و هي المادة، ذلك الأثير الموجود في كل مكان، الذي يمكن اعتباره إلهاً خالقاً].

ثم قال الأستاذ فريد بعد نقل قول في الأثير عن أستاذ ألماني آخر، يؤيد قول الأول: [العمري إن ما ذكرناه لريح

---

[45] تحت هذه الأرقام نعد بعض الأسباب الداعية إلى تأليف هذا الكتاب.

[46] ليتأمل القارئ -القائل بنبوته- تعبير الأستاذ.

[47] المفهوم من هذا أن النبوة من غير تأويلها بالعبقرية بعيدة عند الأستاذ عن العقل.

للدين من العلم، أعاد إليه ما سلبه منه من الاحترام في نظر أتباعه؛ فكان هذا جزاء للعلم من جنس العمل، على نحو لا يمكن إخفاؤه؛ يجب أن يفطن له الذي يهيمنون على العقائد].

ثم نقل أقوالاً لعلماء الغرب عن المادة، و عن التنويم المغناطيسي؛ يزعمها نافعة للدين؛ و قال في مختتم مقالته: [أليس من العجيب بعد هذا أن رجال الدين لا يأبهون لهذه الأسلحة العلمية، بل يوجد فيهم من يكذبها، و يعمل على ملاشاتها!! ألا فليتحققوا أن العصر الذي نعيش فيه عصر العلم، و أن أي مدرك من المدركات لا يمكن أن يأبه به أحد، إلا إذا جاء من طريق العلم، فلا نجعلن بيننا و بينه حجابا].

أقول -بعد التنبيه على أن مراده من العلم الحديث، الذي لا يعترف بغير ما ثبت بإحدى الحواس الظاهرة، و الذي لا يعرف الأستاذ غيره علما، و لا يأبه به-: لكنه أي **الأستاذ** يغفل عن أن الاعتراف بوجود الأثير ضرورةَ تعليل بعض ظواهر الطبيعة به، تراجعٌ من العلم الحديث -المبني على الحس-، إلى العلم القديم العقلي، الذي يستند علماء الدين إليه في إثبات عقائد الدين، غيرَ محتاجين إلى شهادة الحواس، كما احتاج أهل العلم الحديث.

و ثانيا: إن احتمال تصور الألوهية للأثير، و تصور الكسب للدين من هذا الاحتمال<121>، لا يطوف إلا ببال الغافلين عن أول مانع في الأثير عن الألوهية، و هو تركبه من الأجزاء، المنبئ عن حاجته إليها، فإن كان كل جزء منها إلهاً، كان آلهة متعددة بعددها الذي يكاد أن يكون غير متناه؛ و فسدت السماوات و الأرض بها أكثر من فسادهما على فرض إلهين اثنين، و إن كان الله مجموع تلك الأجزاء، كان محتاجاً إلى كل جزء منها.

و لهذا يُعنى العلم القديم بنفي كل شائبة التركب عن الله؛ و لعل الأستاذ لا يعرف هذه الأمور[48]، و لا كون الفلاسفة القدماء ينزهون الله تعالى، حتى عن الأجزاء الذهنية؛ فيقولون: إن وجوده عين ذاته، كيلا يكون مركبا من الذات، و صفة الوجود.

و ثالثا: أن الأثير على تقدير وجوده يكون أضأل الموجودات، و أوغل الخامات في الخامية، و بالاختصار أقرب الأشياء إلى التلاشي، و أبعدها عن العلم، و القدرة، و الإرادة؛ فكيف يكون إلهاً خالقاً؟

نعود إلى قول **الأستاذ** في مسألة النبوة.

و انظر إلى ما قاله في الجزء الثاني من المجلد العاشر من (مجلة الأزهر)، أي في العدد الذي يلي العدد المتقدم (ص 90): [الأدلة المنطقية على صحة النبوة، و إمكان الوحي كثيرة؛ و لكن العقلية العصرية يصعب عليها أن تقنع بها، فإن الفلسفة المادية قد أثارت شبهات جمة على النبوات، و نفت وجود العالم الروحاني، و ادعت أن كل ما يقال فيه، و يسند إليه من أوهام الأقدمين و أساطيرهم، و قد تسربت هذه الفلسفة إلى عقول الناس من مصادرة عدة؛ لذلك وجب على من يعالج مسألة النبوة و الوحي أن يعدل عن الاستناد<122> إلى الأدلة المنطقية، إلى الأدلة العلمية؛ بشرط أن تكون مبنية على أمور يقينية، سرى على بحثها الأسلوب العلمي].

كأن الواجب على من يعالج مسألة النبوة و الوحي نظرا إلى قول **الأستاذ** أن يعدل عن الأدلة المنطقية إلى الأدلة الغير منطقية؛ و من هنا تبتدئ عقلية **الأستاذ** غير المنطقية.

و لذا قال بعده: [و هذه محاولة عنيفة تستدعي كثيرا من الجهد، يبذل في سبيل جمعها، و ترتيبها، و تهيئتها للدفاع عن النبوة].

أقول: من الصعب في الحقيقة إثبات مسألة بأدلة يلزم أن تكون علمية، و لا تكون منطقية في وقت واحد؛ بل إن هذا لا يمكن حتى بعد بذل الجهود التي ذكرها؛ لأن الدليل إن كان علميا، كان منطقيا؛ و إن لم يكن منطقيا لم يكن علميا أيضا.

و كان الواجب على الأستاذ الذي يرى التعارض بين العلم و المنطق مع الرائين من ذوي العقلية العصرية، الذين عزا إليهم الاستخفاف بالأدلة المنطقية، و هو واحد منهم، لكنه يتظاهر كالحاكي عن الآخرين اتباعا لقانون الدس في ترويج الأباطيل، كما أشار إليه في مقالة من مقالاته، عازيا ذلك أيضا إلى غيره....

كان الواجب عليه أن يبطل أحد المتعارضين من العلم و المنطق بصراحة، و لو كنت مكانه لما ترددت في إبطال العلم المخالف للمنطق، الذي وضعه العقلاء لتمييز صحيح الفكر من سقيمه؛ لكن **الأستاذ** يفضل الانحياز إلى جانب العلم، و إلى جانب الذين تسربت إلى عقولهم الفلسفة المادية، و لم يعرفوا المنطق عن كثب.

و أي مزية لعلم لا يخضع للمنطق، فتخضع له عقول الناس؟

فهل مزيته في معارضته للدين، و في معارضته للمنطق مع الدين؟

و أصدق القول أن الانحياز في تدقيق المسائل إلى ما لا يليق مع المنطق شيء مضحك، و التبجح به جهل فاضح[49].

و من الأمور<123> المشرفة لكتابي هذا، أنه يتولى الدفاع عن حقوق المنطق، كما يتولى الدفاع عن الدين.

و عندي أن محاولة تأليف النبوة بالعلم، الذي لا يقبل وجود شيء فيما وراء العالم المادي المحسوس، و لا يعترف حتى بوجود الله، من قبيل طلب المحال؛ ففضلا عما في مسلك الأستاذ من عيب التنازل عن المنطق، فلا بد إما أن يكون العلم الذي يريد أن يتمشى معه، يأبى الاعتراف بالنبوة مصرا على إبائه، و إما أن تخرج النبوة عن حقيقتها.

و كيف يقر العلم برسالة من الله، و هو لا يقر بوجود الله؟

ثم ما حاجة الناس إلى رسول من الله، إن لم يكن لهم البعث بعد الموت؟

كما هو مذهب **الأستاذ** تمشيا منه أيضا مع العلم؛ و سيجيء الكلام في مذهبه هذا؛ كما أن للكلام منا على مقالاته المعنونة (السيرة المحمدية على ضوء العلم و الفلسفة) بقية تأتي في محله.

الحاصل: أن أصحاب العقليات الحديثة، المتمسكين بالعلم المادي، مع الاعتناء بسيرة محمد و نبوته، لا يستقيم لهم الطريق، كما لا يستقيم للجامع بين الضدين.

---

[48] كما أنه كان الزهاوي الشاعر العراقي لا يعرفها، و قد كتب عنه إلى (مجلة الرسالة، عدد 745) من الموصل بتوقيع لؤي النوري، أنه كان يعتقد أن الله هو الأثير؛ لقوله:

ما لكل الأكوان إلا إله * واحد، لا يزول؛ و هو الأثير

أقول: و لعل الكاتب من الموصل أيضا لا يعرف ما في الأثير، على تقدير وجوده من موانع الألوهية، حيث احتاج إلى استفتاء الأستاذ العقاد.

[49] و قد ظهر قبل سنين ملحد باسم إسماعيل أدهم، و نشر كتابا باسم (لماذا أنا ملحد؟)؛ فحاول الأستاذ فريد وجدي بك حل شبهة الرجل بما كتبه في مجلة الأزهر، مع أن النجاح في حل شبهته كان متوقفا على الأدلة العقلية، التي يعاديها الأستاذ بدل أن يعرفها؛ و يأتي بحث هذه المسألة أيضا في كتابنا هذا إن شاء الله.

و ماذا قد يكون مأرب المؤمنين بالعلم المعارض للإيمان بالغيب، المستهينين بالأدلة المنطقية و فلسفة ما وراء الطبيعة؟

ماذا قد يكون مأربهم في سيرة محمد و نبوته، التي هي اتصال بعالم الغيب، عالم ما وراء الطبيعة، و بعالم الغيب و الشهادة؟

إلا أن يكون مأربا قوميا، للباحث العربي، فعند ذلك يجوز أن لا يراعى المنطق في مبحث النبوة، كما لا يراعى في المباحث القومية.

فالمتعلمون العصريون الذي أبعدهم عن الدين ما اقتبسوه من علم الغرب المادي ثم أحسوا بحاجة الرجوع إلى حضانة الإسلام، فحاولوا أن يجدوا ما فقدوه من لذة الإيمان و الاطمئنان في مطالعة حياة نبينا...

نراهم لا يزالون تحت سلطة العلم، الذي أضلهم الطريق أولا، حيث أنكروا المعجزات في حياة النبي، الذين يؤملون في مطالعتها هداية لهم إلى الحق بعد الضلال، فحرفوا تلك الحياة عن حقيقتها، و أفسدوها بدلا من أن يستفيدوا منها الصلاح و الهداية لأنفسهم؛ بل أفسدوا نبوة النبي ساعين في تحويلها إلى العبقرية، ليمكنهم الاعتراف بها، فأصبح مثلهم كمثل مريض أفسد الدواء عند التداوي به.

و قد كنت رأيت في (مجلة الرسالة) الممتاز، الخاص بأول العالم الهجري 1385 مقالة للدكتور زكي مبارك بعنوان (النواحي الإنسانية في الرسالة)؛ كان يقول فيها بعد أمور كثيرة نرجئ ذكرها إلى الباب الثالث من هذا الكتاب: [إن محمدا حرم نفسه الشهرة، بإجادة البيان، و بفضل الكتاب الذي بلغه عاش البيان].

فماذا الذي يعنيه الرجل؟ أيمدح سيدنا محمدا بعدم الجري من وراء الشهرة، و الظهور؟ أم يرميه بالكذب في نسبة القرآن إلى الله؟؟

و كان أصل الضلال في عدم إيمان هذه الطائفة المتعلمة بالدين عدم إيمانهم بالأمور الغيبية، التي في رأسها وجود الله، ثم وجود الأنبياء المتميزين على الناس بمعجزاتهم، و نبواتهم كمعجزاتهم من الغيبيات التي لا يعترف بها علمهم الحديث.

فهؤلاء المتعلمون النادمون على ما فقدوا من حضانة الدين، و حلاوة اليقين؛ لن يصلوا بأي وسيلة مباركة إلى ما ينشدونه من استدراك ما فات، ماداموا ينكرون الغيبية.

و معناه أنهم ينكرون المعقولات، و لا يؤمنون بغير المحسوسات، و لعدم إيمانهم بغير المحسوسات لا يؤمنون أيضا بالمنطق، و يكون إيمانهم به و بالعقل مشوبا بالاستخفاف؛ و هذا هو الضلال البعيد والخسران المبين.

فإن كان داء المرء في عقله و منطقه فلا دواء له، و أشد أدواء العقل و المنطق يتجلى في الاستخفاف بهما، و حصر الثقة في المحسوس.

فالواجب عليهم قبل كل شيء أن يقيموا أود عقليتهم التي جعلتهم لا يؤمنون بغير المحسوسات، و ينتبهوا إلى ما في علمهم الذي ينهاهم عن الإيمان بالغيب مطلقا، من الجهل.

و نحن الذين نأمل كل خير و بركة -كما قلنا من قبل- في درس حياة نبينا، التي اتخذها كتاب مصر العصريون موضوع كتاباتهم في الأزمنة الأخير، لسد الفراغ <125> الحاصل في قلوب الناس من ضعف العقائد الدينية، التي حاربها بين تصريح و تلميح هؤلاء الكتاب و حلفاؤهم من العلماء الأزهريين حتى حصل الضعف...

نحن الذين نأمل كل خير و بركة في درس حياة نبينا، لا نأمل من أقلام هؤلاء الدارسين خيراً، إلا و معه شر أكبر منه...

خير يسلم المسلم الذي وصفه الحديث النبوي بأنه: «غر كريم»، يسره رواج سيرة النبي بين حملة الأقلام، و يُنِيمُه عن المكائد الزمنية الموجهة إلى الإسلام، و شر يهمس في أذن العلم الناشئ بأن نبيك ليس نبيا، و إنما هو عبقري من الطراز الأول، و نحن عباقرةَ الكتاب نطلعك على هذه الحقيقة الخفية، التي اكتشفها العلم الحديث الغربي... نطلعك عليها بين تصديق لنبوته، و إنكار لمعجزاته غير القرآن؛ و أنت تفهم معنى معجزة القرآن من إنكار المعجزات!...

هذا ما يرمي إليه الكتاب العصريون، لاسيما و قد نقلنا من إفشاءات الأستاذ فريد وجدي بك عن نوابغ الكتاب و الشعراء في الشرق الإسلامي بعد اتصاله بالغرب، و علمه الحديث أنهم يستبطنون الإلحاد، و أنهم يهيئون الأذهان لقبوله دسا في مقالاتهم و قصائدهم... و كان الأستاذ نفسه يلعب في هذه الإفشاءات الهامة دور شاهد الملك، و إفلاتها من قلمه وقع قبيل توليه الوظيفة الأزهرية؛ و سيجيء الكلام مفصلا على هذه المسألة.

و قد علمت أن مبدأ الضلال إنكار الغيبية، و أوضح ما يدل على وجود عالم الغيب هو المعجزة التي تخرق سنن الكون، و التي نعتبر الاعتراف بها علامة الاعتراف بالأديان؛ و لشدة اتصال المعجزة بالدين نرى الكتاب العصريين الذين نحن مضطرون إلى الشك في ديانتهم، ينفون المعجزات و يخصون هذا النفي بعناية بالغة؛ حتى إن مؤلف (حياة محمد) وضع جميع كتب الحديث و السيرة، و جميع ما فيها من الأحاديث المنسوبة إلى النبي تحت شبهة الكذب، لئلا يصدق الروايات الواردة في تلك الكتب عن معجزات نبينا الكونية، أي المخالفة <126> لسنة الكون كما ستطلع عليه في الباب الثالث[50].

و من قرأ ما كتبه الدكتور شبلي شميل مقدمة لتعريب كتاب بوخنر في (شرح مذهب داروين)، و هو يسمِّي الإيمان بالدين إيماناً بالمعجزة المستحيلة؛ و لكن الغافل لا يعرف أن المعجزة مهما كانت مما تستبعده طبيعة الإنسان المرتبطة بالعادات و المحسوسات، فلا يكون استبعادها بدرجة الإلحاد الذي تسلط على ذهنه، و أقنعه بوجود هذا الكون من غير موجد، و لاسيما وجود هذا الكون المنظم من غير موجد حكيم عليم.

ثم إن من أخطاء الرجال -أعني شبلي شميل- الفاضحة أنه يرى في الإلحاد سعادة الدنيا، مع أن السعادة بعيدة

---

[50] مما يسرني ذكره لإعطاء كل ذي حق حقه، أن الدكتور هيكل باشا مع كونه في غاية البعد عن الحق، نظرا لإصراره على إنكار المعجزات، و كونه في مرتبة واحدة مع الأستاذ فريد وجدي بك في هذه المسألة؛ يفترق بالنظر إلى رأيه في مسألة النبوة، عن الأستاذ فريد وجدي، و يقترب إلى جانب الحق، لأن الأستاذ لا يقبل النبوة إلا بعد التلاعب في تصويرها و إخراجها عن حقيقتها، فلا حاجة للنبي في مذهبه إلى تلقي الوحي من الله، بل يكفيه وحي عقل الزائد إلى حد العبقرية الممتازة، كما عرفت رأيه في نبوة سيدنا محمد.

أما معالي هيكل باشا فهو مجتنب عن إنكار الوحي، و مستعد لقبوله في شكله المعروف عند المؤمنين بالأنبياء، و هو مع هذا حائر في تأليفه مع العلم، الذي لا يعترف بالوحي كسائر المغيبات، و الذي يؤمن به معاليه، و يريد أن يجمع بين إيمانه بالعلم، و إيمانه بالوحي، فلا يستطيع، كما يفهم من مقدمة كتابه.

و كان تمام الحق أن يبت في تخطئة نظر العلم إلى الوحي، بعدم القبول، و قد أوشك معاليه أن يصل إلى هذا التمام في قوله -هداه الله إلى مثله في مسألة المعجزات-: [و قد يصل العلم إلى إدراك بعض الحقائق، و معرفة سننها، و أسرارها بعد أجيال و قرون، و قد يظل بعضها لا يتناوله العلم، حتى يرث الله الأرض و من عليها، و هي مع ذلك حقائق يقينية، تهتدي قلوب المؤمنين الصادقين إلى حقيقتها، على حين تظل قلوب عليها أفعالها جاهلة إياها لغفلتها عنها]؛ حياة محمد، ص 41.

عن الدنيا، التي لا تكون فيها مخافة الله، لكون الأخلاق التي تتوقف سعادة الدنيا على سيادتها لا تجد ضماناً أقوى من هذه المخافة.

حتى قال الفيلسوف فيختة: [إن الأخلاق من غير دين عبث].

و قد بنى الفيلسوف كانت إثبات وجود الله على دليل الأخلاق، كما يأتي بيانه مع الكلام عليه.

و قال كلفين<127> -المصلح المشهور، الذي كان هو و لوتر سبب وجود البروتستانية-: [إن الملك الذي لا ينشد مجد الله، فليس بالذي يقيم مملكة، و إنما يقيم لصوصية].

3- [مناظرة الشيخ محمد عبده، و الأستاذ فرح أنطون]:

و مما اطلعت عليه بعد مهاجرتي إلى مصر أنه جرت مناظرة قلمية قبل أكثر من أربعين عاما بين العالم الشهير الشيخ محمده عبده مفتي الديار المصرية، و بين الأستاذ فرح أنطون منشئ (مجلة الجامعة) في ست مقالات من الطرفين[51].

فجرَّت الشيخ المفتي إلى القول بأن الدين المسيحي لا يتفق مع العقل، و الأستاذ المنشئ إلى مقابلته بادعاء: [أن كل دين كذلك لا فرق بين المسيحية و الإسلام و غيرهما، لأن الدين هو الإيمان بخالق غير منظور، و آخرة غير منظورة، و وحي، و نبوءة، و معجزة، و بعث، و حشر، و حساب، و ثواب، و عقاب في الجنة و النار؛ و كلها غير محسوسة و لا معقولة؛ و لهذا كان العقلاء من الفلاسفة و رجال الدين في كل ملة ينادون بإبعاد العقل عن الدين؛ بل إن الأديان تخالف أيضا العلم الذي يجب أن يوضع في دائرة العقل لكون قواعده مبنية على المشاهدة و التجربة و الامتحان؛ و أما الدين فيجب أن يوضع في دائرة القلب؛ لأن قواعده مبنية على التسليم بما ورد في الكتب المقدسة من غير تمحيص في أصولها].

ثم قال الأستاذ فرح: [إن العدو الحقيقي للإسلام، و المسيحية، و اليهودية، و البوذية، و الكونفوشيوسية، و الوثنية في هذا الزمان لم يعد منها، بل صار خارجا عنها؛ فهو عدو جديد، أخرجه التمدن الجديد؛ و هذا العدو للدود تطربه أصوات تنازع الأديان بعضها مع بعض، و يثلج صدره سروراً كلما رآها يكفر بعضها بعضا، و يطعن بعضها على بعض؛ و هذا العدو الذي يهددها على السواء، و الذي إذا استطاع هدم واحدة منها هدم معها الباقيات بلا مراء، هو المبادئ المادية المبنية على البحث بالعقل دون سواه] <128>.

و أنا أقول: كلام الأستاذ فرح مناظر الشيخ محمد عبده يستهدف لانتقادات واسعة في أمكنة مختلفة من كتابي هذا، حتى أني قلت في أحدها إنه أي الكتاب استئناف المناظرة التي جرت في الماضي بين الشيخ محمد عبده و الأستاذ فرح أنطون[52].

و سلفا أقول هنا، و أزيد على قول الأستاذ الذي تعزى بمعاداة العلم الحديث المادي للإسلام كمعاداته للمسيحية: إن ذلك العلم أضرَّ بالإسلام أكثر من المسيحية، و إن كان الإسلام المتضرر إسلام المتعلمين المحدثين المكتفين في تعلمهم بالتطفل على الغربيين.

و لم يكن السبب في هذا الفرق بين المسيحية و الإسلام من ناحية التأثر و التضرر مع العلم الحديث، زيادةَ الإسلام في الابتعاد عن العقل الذي يلازم ذلك العلم، بل كون الإسلام بالعكس متمشيا مع العقل، و مبنيا في أصوله على أدلة عقلية.

و توضيحا لهذا، رأيت أن أنقل القسم الأول مما كتبته في التقرير المتقدم إلى وزارة الأوقاف المصرية، لما جمعت قبل سنين من المفكرين باسم (لجنة النهوض بالمساجد)، تحت رئاسة الوزير و دعتني عضوا فيما بينهم:

[حضرة صاحب المعالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق بك؛ أتشرف بعرض آرائي الخاصة في إنهاض المساجد على الوجه الآتي:

1. لفتني ما سمعته في خطبة ألقيتموها في ديوان الوزارة و فتحتم بها الجلسة الأولى للجنة النهوض بالمساجد، من أن مساجدنا لا يَرَى فيها الباحثُ عن الذين يُسَمَّوْن الطبقة العليا ما بحث عنه، في حين أن معابد مواطنينا اليهود و النصارى لا يقل <129> في المصلين بها أشراف القوم و كبار الماليين.

و قد بنيتم معاليكم هذا القول على مشاهداتكم، كما أن حضرة الدكتور منصور فهمي بك باشا من أعضاء اللجنة أيد قول معاليكم بما رآه في مدن أوروبا، و قراها من عمارة المعابد، سواء بحضارها، أو بجمع أسباب الجمال في داخلها، و خارجها، و محيطها.

و في الحقيقة أن مساجدنا نحن المسلمين نراها مقفرة من علية القوم و خاصتهم مثل رؤساء الدواوين و كبار المثقفين، لا تتردد إليها غير العامة، و الفقراء، و القليل من تلامذة المدارس و صغار الموظفين؛ و هذه الحالة عميقة السبب، لا تستطيع لجنة النهوض بالمساجد علاجها؛ و أصل المرض المؤدي إلى ما نرى من هذا البون الشاسع بين مساجدنا و معابد أهل الملل الين نساكنهم في بلاد الشرق أو نطلع على أحوالهم في الغرب؛ ينتهي إلى أمرين:

الأول: أن المسيحين متغلبون اليوم في الأرض، و المعروف أن الغالب يكون له و لمن يمت إليه بصلة، كرامة النفس التي توحي إلى صاحبها أن يكون دينه أيضاً محفوظ الكرامة؛ فهو يدري جيداً أن لا كرامة لنفس من لا كرامة لدينه؛ من حيث أنه أقرب شيء إلى نفسه؛ و حسب صاحب الكرامة اعترافاً بهذا القرب كونه منسوباً إلى الدين الذي يدين به في التقسيمات الرئيسية الأولية للأمم.

أما اليهود، فلهم سيطرة مالية على العالم، إن أعوزته سيطرة الحكومة، و كلاهما من عوامل الغلبة التي تدور معها كرامة النفس و الدين.

فخلاصة الكلام: أن المسلمين فقدوا كرامة دينهم فيما بينهم، منذ فقدوا كرامة نفوسهم، بانتزاع قوة السلاح من أيديهم؛ و مهما كان لخلو معابدنا عن مغريات النظافة و الجمال دخل في إعراض كثير من الناس عنها؛ فإن التقدير الصحيح في منشإ الأمر هو ما قلنا؛ بناء على أن المعرضين عن المساجد بالمرة لا يصلون <130> في بيوتهم أيضاً.

فالإعراض عن الصلاة في المساجد ناشئ من الإعراض عن الصلاة نفسها التي هي عماد الدين الإسلامي.

الثاني -و هو المهم-: أن الإعراض عن المساجد يبدو على الأكثر كما قلنا من كبار المسلمين، و يكون أكثر هؤلاء الكبار في زماننا من المثقفين ثقافة غربية؛ ثم يسري المرض من هؤلاء إلى غيرهم، فيصبحون شر قدوة للناس، و يأخذ المرض، أو سيأخذ شكل الوباء العام.

أما إعراض المثقفين عن المساجد، فسبب هذا المرض فيهم أعمق مما يظن في بادئ النظر، و معنى هذا أن ضعف رغبتهم في حضور المساجد

---

[51] و المقالات جمعها الأستاذ فرح و كتبها في باب الردود من كتابه (فلسفة ابن رشد).

[52] و إن كان من ناحية أخرى استئناف ما بين الشيخ محمد عبده، و بين مشايخ الأزهر القدماء من الخلاف الذي انحاز فيه المثقفون العصريون إلى جانب الشيخ و خذلوا خصومه... في حين أنهم خذلوه في اختلافه مع الأستاذ فرح أنطون و انحازوا إلى الأخير... و كل هذا ينجلي للقارئ النبه عند التغلغل في أعماق الكتاب... و ينجلي أيضا إمكان القول بأنه أي الكتاب يتلخص فيما عدا بحث (وحدة الوجود)، و مسألة فصل الدين عن الحكومة؛ بهذين الاستئنافين.

ليس راجعاً إلى ضعف الرغبة في الصلاة فحسب، الناشئ من تكاسل النفس، أو ضعف كرامتها، كما قلنا في الفقرة السابقة؛ بل إلى ضعف في العقيدة أيضاً، مبنى على الشك في صحة الدين الذي ورثوه من آبائهم.

و هم وقعوا في هذه الحالة بعد اتصالهم بعلوم الغرب، التي لا تؤمن بغير المحسوسات؛ و لذا قال الله تعالى في كتابه: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله و اليوم الآخر و أقام الصلاة و آتى الزكاة و لم يخش إلا الله﴾؛ أقول قولي هذا بالصراحة التي جُبلت عليها؛ و من هذا قلت أولا إن لجنة النهوض بالمساجد لا تستطيع علاجه، فهل في وسعها أن تقترح على الحكومة سن قانون يحتم على رؤوس الدواوين، و فيهم الوزراء و المسلمون، أن يحضروا صلوات الجمعة على الأقل، و يضطر الغائبين من غير عذر إلى الاستقالة من مناصبهم؟

فعند ذلك تكون هذه اللجنة لجنة النهوض بالمساجد في معناه الصحيح، و يتحقق كون هذا النهوض مقترنا بإرادة حقيقية من الحكومة.

و إلا فما دام الشك في قلوب المثقفين العصريين المؤمنين بالعلم الحديث فوق إيمانهم بالدين، و ما دمتم لا تخرجون الشك من قلوبهم، أو لا تُدخلون فيها الخوف على مناصبهم، فلا تستطيعون أن تدخلوهم المساجد؛ و الاعتناء بالمواعظ و الخطب في المساجد، الذي كان موضوع البحث في الاجتماع الأول للجنة، لا يجدي نفعا في البعيدين عن المساجد و عن سماع تلك الخطب و المواعظ؛ للسبب المذكور الذي جعلهم معرضين عن<131> المساجد و الصلاة؛ بل لا تنفع فيهم الخطب و المواعظ، و لو سمعوها في غير مناسبة الصلاة بالمساجد؛ و إنما تنفع فيهم المحاجة في الصحف، و المجلات، و الكتب إلى أن يقلع الشاكون عن عقليتهم الباطلة، القائلة بأن الثقافة الحديثة الغربية من حق حاملها أن يشك في دينه.

بقي هنا سؤال؛ و هو: لماذا تذهب الثقافة الحديثة بحاملها من بعض المسلمين إلى ضعف في الدين؛ و لا تذهب بالمثقفين من اليهود و النصارى إلى هذه النتيجة المشؤومة، فلا يكون العلم خطرا على دينهم، و من هذا لا نراهم معرضين عن معابدهم على خلاف ما نرى في المسلمين، حيث يبعدهم العلم بمعناه العصري عن المساجد و الصلاة، و الصوم، و العقيدة الدينية؟

و الجواب: أن اليهود أصحاب المبادئ الراسخة المحافظون على قوميتهم و دينهم، الذي مزجوه بقوميتهم كل المزج، بل إنهم أفنوا قوميتهم في دينهم، فلا يوجد لهم اسم من أسماء القوميات يُدعون بها و يمتازون عن غيرهم من الأمم إلا اليهود؛ أينما كانوا، و مهما اختلطت دماؤهم بدماء الأمم المختلفة؛ فعنصر الدين اليهودي يبقى فيهم، و يُحتفظ به رغم كل انقلاب سياسي، أو ثقافي في العالم؛ بل إن اليهود على ما سمعت من الواقفين على أحوالهم لا يعملون أي دعاية لترغيب الأجانب في دينهم، فلا يعتنق اليهودية من يعتنقها من غيرهم إلا على خلاف إرادتهم، لأنهم ينظرون إلى دينهم كأعز ما يملكونه فيغارون عليها من دخول الأجنبي.

وا لنصارى يعتمد دينهم الحاضر على العاطفة[53]، و لا صلة له بالعلم تأييداً، أو نقضاً؛ فلم يكن العلم مؤيده بأدلته القديمة، حتى ينقلب ضده بأدلته الحديثة المبنية على التجارب الحسية.

لكن الإسلام ليس كذلك[54]، فقد كان له في الماضي أدلة من العلم مبنية على العقل و المنطق، الذي يستخف به اليوم بعض المتعلمين منا بحجة أنه منطق تجريدي!

و منذ أصبح العلم في الغرب و الشرق -المقلد له- لا يعترف إلا بما يثبت وجوده بالتجربة الحسية، و يقول: إن كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا يعتد به؛ ظن كثير من الناس الذين هم في عقلية المتعلمين المذكورين المستخفين بالمنطق التجريدي: أن الإسلام فقد مستنده من العلم، و إن شئت فقل ظنوا أن العلم الذي يستند إليه الإسلام أصبح لا يقام له وزن، و ربما ظنوا لظنون بالعقل أيضا، فرجعوا عن ثقتهم بالعلم المبني على العقل؛ و هذا خطأ عظيم ناشئ من طغيان التجربة على العقول الضعيفة][55].

انتهى ما أردت نقله من التقرير الذي قرأته في لجنة النهوض بالمساجد، بوزارة الأوقاف المصرية؛ و الجملة الختامية منه أعني بها قولي: [و هذا خطأ عظيم ناشئ من طغيان التجربة على العقول الضعيفة]؛ يشرحها هذا الكتاب إن شاء الله.

نعود إلى بحث الأستاذ فرح أنطون، مناظر الشيخ محمد عبده؛ و كانت فيما ادعى<133> هذا الأستاذ في مقالاته حاجة الأمم في إصلاح أحوالها إلى فصل الدين عن الدنيا، و عن سياسة الحكومات؛ و قد عزا رقى أوربا في العلم و المدنية إلى العمل بهذا الفصل، كما رأى سبب تأخر المسلمين في إهمال العمل بمبدإ الفصل؛ و مناظرة الشيخ ناقشه في هذه المسألة أيضا، و لم يوافقه في الظاهر على رأي الفصل، أما تأخر المسلمين فأجاب عنه بحمل تبعته على جمود علماء الدين.

و على ضوء هذه المناظرة وضع الشيخ محمد عبده (كتابه الإسلام و النصرانية مع العلم و المدنية)، و بالنظر إلى شهرة الكتاب، و تأثيره في شهرة واضعهِ، يُظن أنه غلب خصمه في تلك المناظرة، لكن الواقع الذي نشاهد آثاره اليوم في جو مصر الثقافي غلبة فكرة الإلحاد الدالة على غلبة الأستاذ منشئ (مجلة الجامعة) في المناظرة على الشيخ المفتي.

---

[53] و لذا جعل له الأستاذ فرح أنطون المار و الآتي ذكره، دائرة القلب دون العقل.

[54] ليس معنى قولي هذا ترجيح بناء الدين على العواطف القلبية، كما وقع من بعض الأساتذة العصريين بمصر، و سيجيء الكلام عليه.

[55] و لم يسلم بعض علماء الدين بمصر منذ عهد قريب من تأثير هذا التيار، ففسروا نصوص كتاب الله و سنة رسوله المتعلقة بالمغيبات، و التي لا تتفق مع العلم الحديث؛ بما يخرجها من ظواهرها، و فتحوا أمام حملة الأقلام باباً واسعاً لتأويل النبوة بالعبقرية و رد معجزات الأنبياء الخارقة للعادة إلى العاديات.

و كان هذا بمثابة إلغاء الفارق بين رسل الله و بين عقلاء الناس المتطوعين بإصلاح المجتمع بدافع من جباتهم، بإلغاء الرمز الحقيقي الذي ميز الله به رسله عن غيرهم، كما يميز الملك مندوبه بمرسومه الخاص، و هو المعجزة الخارقة.

فأصبح بعد ذلك الوحي، و الملك، و الكتاب المنزل بواسطة الملك، كلها ملغاة؛ و عاد عدم تصديق الأنبياء في دعوى رسالتهم من الله: لا فرق بينه و بين عدم تصديق المصلحين من الناس الممتازين عن الجمهور بقوة عقولهم فقط؛ إن لم يترتب على عدم التصديق هذا عقاب في الدنيا فلا معاقبة عليه في الآخرة قطعا؛ فبهذا الشكل الذي أوضحته ذهب دين الطبقة العليا أدراج الرياح.

فيفهم أن الشيخ اكتسب الشهرة و خصمه اكتسب القضية المنازع فيها؛ فمن الذي يستحق منهما لقب الغالب إذن؟

و لو كان الشيخ هو الذي اكتسب القضية ضد مناظره، لما ارتكزت في مصر اليوم عقلية اعتبار الدين في جانب و العقل و العلم في جانب مقابل؛ و لما سر هذه العقلية حتى إلى الأزهر، و قد ذكرنا و سنذكر له من الأمثلة ما يقتنع به القارئ إن شاء الله.

ثم لو كان محمد عبده هو الذي كسب القضية ضد مناظره، لما اجترأ الأستاذ فريد وجدي، الذي لا بد أن يكون في طليعة الشاهدين لتلك المناظرة، أو على الأقل العارفين بها، على نشر قوله الآتي في رقم (5) على (صفحات الأهرام)؛ و الذي أسفر عن قضاء العلم على الأديان كلها كما يراه الأستاذ فرح، و عن استيلاء الإلحاد على نوابغ الشرق الإسلامي.

أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ محمد عبده، فخلاصته أنه زعزع الأزهر عن جموده على الدين، فقرب كثيرا من الأزهريين إلى اللادينيين خطوات؛ و لم يقرب <134> اللادينيين إلى الدين خطوة.

و هو الذي أدخل الماسونية في الأزهر[56]؛ بواسطة شيخه جمال الدين الأفغاني، كما أنه -على ما يقال، و سيأتي إيضاحه في هذا الكتاب- هو الذي شجع قاسم أمين على ترويج السفور في مصر.

فالشيخ بدلاً من أن يتغلب على مناظره، و يهزم جيوش المتفرنجين الكامنين وراءه، هزم جيش علماء الدين، الذي هو جيشه نفسه، بطول ما رماهم به من وصمة الجمود؛ و بفضل ذلك حاز مكانة عظيمة عند المتفرنجين طبعاً و عند المنهزمين تبعاً[57].

قال الأستاذ محمد صبيح في (كتابه: محمد عبده؛ ص 86-88): [لم يتحرج محمد عبده طول حياته في أن يسعى إلى المعارك العقلية و العلمية، يخوض غمارها، و هو يعلم أن سلاحه بتار، و أنه سيوقع الرجفة في قلوب خصومه، و يفتح أعين النائمين من أبناء الأزهر، و أجياله المتعاقبة....

ففي أثناء درس من دروس التوحيد، التي كان يلقيها قال لطلبته: إنكم تعلمون أن الإيمان بوحدانية الله تعالى هو الأساس الأعظم لدين الإسلام؛ و لذلك جُعلت كلمة التوحيد عنوان الدخول فيه، حتى إذا ما قالها المشرك في ميدان القتال، وجب الكف عنه؛ و سيكون موضوع درسنا الآتي إقامة البرهان على هذه العقيدة<135>، و إني سأحضر معي عند المجيء إلى هذا الدرس 100 جنيه، و أعدكم بأن من أقام أمامي البرهان على الوحدانية قبل أن يسمعه مني، و أمكنه أن يجيب عما أورده عليه من الاعتراض جواباً صحيحاً فإني أدفع إليه هذا المبلغ، و ليبلغ الشاهد منكم الغائب.

ألغى الشيخ محمد عبده هذه القنبلة متحديا الأزهريين شيوخهم و شبابهم، قدمائهم و محدثيهم، فدوت في رحابه دويا شديداً؛ أذهلت الناس كلهم، و أيقن الجميع أن حدثاً من أعظم الأحداث في تاريخ الفكر الإسلامي، يوشك أن يحدث أو هو حدث فعلا قبل المناظرة و قبل تمثيل فصولها].

ثم قال الأستاذ المؤلف: [ما معنى التحدي من هذا الشيخ المتعقب؟ معناه أنه لا يوجد بين علماء الأزهر طبعاً أن يجادل عن عقيدة وحدانية الله تعالى جدلاً قوياً يرد كل شبهة و ينفي كل اعتراض؛ معناه: أن الأزهر بعلومه، و شيوخه، و متونه، و شروحه، لا يصلح لإظهار مسلم مستنير يجابه الجدل بقوانينه الحديثة، و يفتح عينيه بثبات أمام أضوائه.

و كان من المتنظر في الموعد المضروب، أن يفد عالم، أو علماء يتصدون للرد و الجواب؛ لا طمعاً في الجنيهات المائة، و لكن رغبة في إزالة شبهات الجهل التي ألصقها بهم الشيخ محمد عبده، و قد ازدحمت ساحة الأزهر بخلق عديد من كل لون و مثال؛ و أخذ الشيخ مجلسه، و قال: هذه هي الجنيهات المائة، فمن كان مستعداً لإقامة البرهان قبل أن يسمع مني، فليتقدم؛ و كان صمت، و طال الصمت؛ و كان انتظار، و تقليب البصر في وجوه من حضر؛ و لكن لم ينهض للمبارزة فارس من فرسان العلم].

ثم أطرى الأستاذ صبيح في البرهان الذي أقامه محمد عبده فارس مضمار العلم الوحيد<136>؛ بين ظهراني علماء الأزهر الذين أصمتهم التحدي.. أطرى البرهان، و أطرى ما في تقرير من البلاغة من غير نقل كلمة عن نص البرهان المعجز بمادته و صورته تقريره؛ كما هو عادة أكثر المؤلفين بمصر في العلم و العالِم، يكتبون حكاية و ترجمة أو منقبة، و لا يدخلون في مسائل العلم...

ذكر هذا المؤلف أيضا جميع ما حدث في مجلس التحدي، و استحق الذكر من حركات الشيخ القاهر، و سكنات شيوخ الأزهر المقهورين؛ و إنما لم يذكر شيئا من لب المسألة العلمية، و نسي فيما ذكره من الحركات و السكنات أن ينص على انتهاء الجلسة بأن قام الشيخ ملقيا جنيهاته التي وضعها على المنصة إلى جيبه، و خرج يمشي مشية الظافرين.

و الذي فعل الأستاذ في السطور المنقولة عن كتابة عبارة عن إصغاء علماء الأزهر، حاضرهم و غابرهم، و علومهم، و كتبهم متونا و شرحاً؛ لإكبار الشيخ محمد عبده؛ و إني لا أعرف هؤلاء العلماء، هل كانوا جاهلين إلى حد ما حكاه الأستاذ المؤلف من عجزهم، عن إقامة الدليل على وجود الله قبل أن يقيم على وحدانيته، بناء على أنه ينكر بطلان التسلسل، و لا يفهم أن وجود الله لا يمكن إثباته ما لم يبطل التسلسل، كما سيجيء بحثه.

و إني مدرك بثقل هذا القول مني، و لكني لا يسعني أن أضحي بالله و بالحقيقة في سبيل إكبار الشيخ محمد عبده، كما ضحى الأستاذ مؤلف (كتاب محمد عبده) بعلماء الأزهر أجمعين في هذه السبيل!

أما مسألة إثبات الوحدانية فقد راعت رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده، فوجدت هذه المسألة أيضا لم يؤد حقها؛ بأن يقول: [لو تعدد الواجبون (يعني الآلهة) تخالفت أفعالهم، بتخالف علومهم، و إراداتهم، و هو خلاف يستحيل معه الوفاق، و كل واحد بمقتضى وجوب وجوده، و ما يتبعه من الصفات له السلطة على الإيجاد في جميع الممكنات، فكل له التصرف في كل منها على حسب علمه و إراداته، و لا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين

[56] روى ثقة عن أستاذ من المدرسين في إحدى كليات الأزهر، الذي كان من أقرب أصحاب المرحوم الشيخ بخيت، أنه استفسر الشيخ ذات يوم من أخريات أيامه عن الماسونية، فنهره بشدة، و تحذير ينمان على التأسف و الندم على ما سبق له من الانتساب إليها؛ ثم لقيت أنا هذا الأستاذ يوما من الأيام، فسألته عما جرى له مع الشيخ المرحوم، فأجاب بتصديق ما سمعته أولاً، و نقلته آنفا.

[57] و كان من مضار الشيخ بالإسلام و علمائه الناشئين بعده، أن حملة الأقلام بمصر المنحرفين عن الثقافة الإسلامية؛ لما أكبروا الشيخ و آراءه الشاذة التي انتقدتها في هذا الكتاب-؛ و أوجدوا له من السمعة العلمية السامية ما لا يزال طنينه في أذن الشرق الإسلامي و لا شك في تأييد القوة الماسونية له-؛ كان ذلك حثا للذين يحبون الشهرة و الظهور من شباب العلماء و كهولهم؛ على نيل ما أرادوه بواسطة الشذوذ في الرأي و التزلف إلى الكتاب المتفرنجين بل الانتماء إلى الماسونية.

دون الأخرى<137>، فتضارَبُ أفعالهم حسب التضارب في علومهم و إراداتهم، فيفسد نظام الكون، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات؛ لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد، على حسب العلوم و الإرادات المختلفة، فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة، و هو محال].

لأن مدار الإثبات في هذه الجمل الكثيرة على اختلاف الآلهة في علومهم و إراداتهم، و استحالة الاتفاق في الأفعال بعد هذا التخالف، مع أن هؤلاء الآلهة المفروضين لا بد أن يكونوا قادرين على الاتفاق فيما بينهم من الأفعال، كما يكونوا قادرين على الاختلاف؛ و ليس كونهم متخالفين في العلوم و الإرادات بمعنى التضاد و التضارب، حتى يستتبع التضارب فيهما التضارب في الأفعال؛ بل بمعنى الاستقلال في العلم و الإرادة؛ فلا ضرورة لأحد منهم أن يكون على خلاف مع صاحبه فيستحيل الاتفاق و يتعين الاختلاف، و إلا لا يكون مستقلا و لا يصح فرضه إلها.

و هذا ظاهر لا يحتاج الإنسان في فهمه إلى أن يكون من العلماء المبرزين، بدرجة الشيخ محمد عبده، الذي تحدى مشايخ الأزهر، فأعجزهم و أصمتهم... فضلا عن أن يكون ذلك المتحدي نفسه.

و كان في إمكان الشيخ المتحدي و المتعدي إثبات وحدانية الله بصحة و سهولة، ما دام يعرف أن الله تعالى واجب الوجود؛ أي من يضطرنا العقل إلى الاعتراف بوجوده، لبناء وجود العالم على إيجاده؛ و سيجد قارئ هذا الكتاب تفصيلا وافياً عن أهمية وجوب الوجود الذي هو أخص ميزة الله تعالى على سائر الموجودات...

كان في إمكان الشيخ أن يستخرج دليل وحدانية الله من كونه واجب الوجود، فيقول باختصار: لو تعدد الآلهة الواجبون، و كانوا على الأقل إلهين اثنين أي واجبين؛ فإما أن يحتاج كل منهما، أو أحدهما إلى الآخر في إيجاد العالم، فلا يكون أي منهما أو أحدهما المحتاج إلهاً؛ و إما أن يستغني كل منهما أو أحدهما عن الآخر في إيجاد العالم<138>، فلا يكون المستغنى عنه واجبَ الوجود؛ و كلا الاحتمالين يؤدي إلى خلاف المفروض أي التناقض المحال.

و الشيخ المتحدي أراد إثبات الوحدانية بدليلها المعروف المسمى "برهان التمانع"، فلم يأت بالصورة الصحيحة له، التي لا تقبل النقض؛ و نحن نذكرها إن شاء الله في محلها من هذا الكتاب؛ و ليكتف القارئ هنا بما ذكرنا.

***** ***** **** **** ****

و انظر ما قاله معالي هيكل باشا في مقدمة (كتابه حياة محمد) بعد الكلام عن الطاعنين في الإسلام من كتاب الغرب المتعصبين، يدلك على أن الشيخ محمد عبده ما نجح في الدفاع عن الإسلام لعدم سلوكه الطريقة العلمية فيه؛ و لكونه متهما بالكفر و الإلحاد و الزندقة؛ و مع هاتين الوصمتين اللتين ألصق به إحداهما على الأقل معالي هيكل باشا، لم ينصرف عنه الشبان المتعلمون الذين ذكر معاليه انصرافهم عن الأديان.

و هذا قول الباشا بنصه: [و لقد قام بعض علماء المسلمين بمصر في ظروف مختلفة، فحاولوا إدحاض مزاعم أولئك المتعصبين من أبناء الغرب، و اسم الشيخ محمد عبده من أنصع الأسماء في هذا الصدد؛ لكنهم لم يسلكوا الطريقة العلمية التي زعم أولئك الكتاب و المؤرخون الأوروبيون أنهم يسلكونها، لتكون لحجتهم قوتها في وجه خصومهم؛ ثم إن هؤلاء العظماء المسلمين و الشيخ محمد عبده في مقدمتهم قد اتهموا بالإلحاد و الكفر و الزندقة، فأضعف ذلك من حجتهم أمام خصوم الإسلام؛ و لقد كان اتهامهم هذا عميق الأثر في نفوس شباب المسلمين المتعلمين].

و فيه أن الحجة إن كانت قوية فلا يضعفها كون المستند إليها متهما بعيب في نفسه؛ لاسيما إذا كان ذلك عيباً في نظر المسلمين يبعد أصحاب الحجة عن محاباتهم؛ و من المعروف أن العبرة بالقول لا بالقائل؛ حتى أن معاليه الحاكي لحالة المتهمِين، و المتهَمين<139>، و شباب المسلمين المتعلمين المذكورين في الحكاية؛ عابوا المتهمين، و أكبروا المتهَمين.

نظراً إلى قوله بعده: [شعر هؤلاء الشبان بأن الزندقة تقابل حكم العقل، و نظام المنطق في نظر جماعة من علماء المسلمين و أن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد، كما أن الإيمان قرين الجمود].

فلا نظام منطقيا، بين كون الاتهام المذكور أضعف من حجة العلماء المتهَمين أمام خصوم الإسلام، و بين كونه أعلى منزلتهم عند المتعلمين من شباب المسلمين، حتى انصرفوا بسبب ذلك الاتهام الممقوت من الأديان -كما سيذكره أيضا- و لم ينصرفوا من العلماء المتَّهَمين.

و في الحقيقة ماذا يمكن أن يكون سبب اشتهار الشيخ من بين علماء مصر و استحقاقه لدوام الصحف، و المجلات في الإشادة باسمه؛ هل هو عدم سلوكه الطريقة العلمية كغيره في الدفاع عن الدين، و عدم نجاحه فيه لهذا السبب، كما ذكره هيكل باشا؟ أو كونه متهما في دينه؟

و الأول غير معقول جدا أن يكون سببا لاشهار أحد من العلماء، و امتيازه على غيره؛ فتعين الثاني.

و لا تقل غير معقول أيضا أن يكون اتهام الرجل في دينه مزية له و منقبة أدبت إلى ارتفاع درجته عند الناس؛ إذ لا يستبعد كونه مزية له عند الذين يعدون هذه التهمة حرية و عبقرية؛ و هم المتغلبون في زماننا.

و قد قال فضيلة الأستاذ المراغي شيخ الجامع الأزهر في خطبة ألقاها بمناسبة الاحتفال بذكرى الشيخ محمد عبده يوم 11 يونية، سنة 1941، نقلا عن الإمام الغزالي: [استصغر كل من بالكفر لا يعرف، و بالضلال لا يوصف].

و كان هذا القول من الشيخ الخطيب بعد كلام عن الاتهام المعروف الموجه نحو الشيخ المحتفل بذكراه؛ لكن صيغة القول المذكور، كائنا من كان قائله سيئة جدا؛ بحيث إن الإمام الغزالي إن كان قال هذا القول الذي يحث العلماء على الكفر و الضلال، و الناسَ على اتباع المشهورين منهم بهما، كان أحق العلماء عنده بالإكبار<140>، أكفرهم و أضلهم في نفس الأمر، فلا بد أن يكون هو أي الإمام الغزالي أيضا منهما في دينه أو عقله، و إلا فعقل السليم لا يقبل أن يكون مجرد الاتهام بالكفر و الضلال رمزا للعظمة في علم الدين.

نعم يحتمل كون الشيخ محمد عبده أعلم معاصريه، و أنجحهم في الدفاع عن الدين، فيحسدوه عليه، و يختلقوا له تهمة الكفر و الزندقة، لكن الشيخ الخطيب مدح بالقول الذي نقله عن الغزالي الاتهام مطلقا حقا أو باطلا.

و قد صرح هيكل باشا بعدم نجاح محمد عبده في الدفاع عن الإسلام لعدم سلوكه الطريقة العلمية في دفاعه، فلا وجه لكون معاصريه من العلماء يحسدونه.

ثم إنه يجب التنبيه هنا على أن الطريقة العلمية التي عاب الدكتور هيكل باشا على الشيخ محمد عبده و غيره أنهم لم يسلكوها؛ يلزم أن تكون الطريقة العلمية التي فضلها الستاذ فريد وجدي بك فيما نقلناه سابقا من كلامه، على الطريقة المنطقية.

فيفهم أن الشيخ و أصحابه أغفلوا هذه الطريقة التي يسميها العصريون الطريقة العلمية؛ و سلكوا الطريقة المنطقية، فاعتبر هذا ذنبنا عليهم!

فانظروا أي مبلغ بلغت عقلية الكتاب المسلمين العصريين؟

فيحتاج المنطق نفسه في نظرهم إلى الدفاع عنه، قبل الدفاع عن الدين؛ و يظهر أن ذنب الشيخ محمد عبده الحقيقي و من معه عدم دفاعهم أولا عن حقوق المنطق، إزاء الخصوم الغربيين المتمسكين بالعلم من غير خضوع للمنطق، و إزاء مقلديهم من المسلمين، الذين ينصرفون عن المنطق عندما رأوا الغرب ينصرف عنه.

فالشيخ محمد عبده لم يقدر موقفه في الدفاع عن الإسلام مع موقف خصومه، الذين يناقشهم، و السامعين الملتحقين بالخصوم، حق قدرهما.

فهو -أي الشيخ- و أضرابه، الذين نص الدكتور هيكل باشا على عدم نجاحهم في دفاعهم عن الإسلام، لعدم سلوكهم الطريقة العلمية؛ إما لم يفطنوا لكون خصوم الإسلام، بل خصوم الأديان جميعا الناجمين في الغرب، و المتشبثين بأذيالهم من الشرقيين، يصوبون حملاتهم على الأسس العلمية، التي يستند إليها العلماء المدافعون عن الدين، فلا يقيمون للأدلة العقلية المنطقية -التي هي أفضل ما عند العلماء<141>، و أقصى ما يرغبون فيه- وزناً، و لا يعتبرون الأدلة العقلية أدلة علمية، و يسمون المنطق الذي نعتبره رمزا لقوة الدليل و قطعيته، منطقا تجريدياً، أو صورياً؛ و إنما الدليل العلمي عندهم ما يكون مستنداً إلى الحس و التجربة؛ و المنطق الموثوق به في نظرهم هو المنطق الاستقرائي؛ فكأن المنطق الاستقرائي يناوئ المنطق التجريدي و يزاحمه؛ و كأنما الجديد منهما نسخ القديم، و قضى على قيمته العلمية؛ على أنا لا نرى في أقوال المدعين العصريين مسحة من المنطق قديمه و حديثه.

فالشيخ محمد عبده و من معه؛ إما لم يفطنوا لِمَحال الضعف في دفاعهم عن الدين عند الخصوم؛ أو فطنوا لها، و لم يقدروا على مجابهة الخصوم بإثبات القوة لما يستضعفونه، و تبيين الخطأ فيما يدعونه، و يتمسكون به من الانقلاب في نظام الاستدلال؛ كما نفعله نحن إن شاء الله.

فقد تولينا مستعينا بتوفيقه إحياء ما حاول الدكتور هيكل باشا، و الأستاذ فريد وجدي بك، و من على عقليتهما من إماتة العلم القديم، المبني على الأدلة العقلية المنطقية، و الذي اعتمد عليه علماء الإسلام المتكلمون قرونا طويلة في إثبات الدين، المبني أساسه على وجود رب العالمين؛ و حرسوا المسلمين على طول تلك القرون، من الوقوع في هاوية الإلحاد السائد اليوم بين المتعلمين العصريين، القاصرين اعتمادهم على العلم الحديث، المبني على شهادة الحس و التجربة، و الحائرين في وجود كل ما لا يدخل في متناول الحواس و التجارب كوجود الله، مع العلم الحائر فيه؛ الذي قال عنه الدكتور هيكل باشا: [لا يثبت، و لا ينفي]؛ فإن قالوا بوجود الله، كان قولا غير علميّ.

فنحن نخرق هذه العقلية المظلمة في هذا الكتاب إن شاء الله، و ندافع عن حقوق العلم القديم، المستند إلى العقل و المنطق، أمام العلم الحديث، المباهى باستناده إلى الحس و التجربة.

و لعل الشيخ محمد عبده لم يقم بهذا الواجب، لعدم كونه تام الإيمان بالعلم القديم، كما يدل عليه إنكاره لبطلان التسلسل بتهور لا مثيل له، مع أن إبطال التسلسل له موقف خطير في مسألة إثبات وجود الله، و سيجيء بحثه<142>.

و المقصود هنا التنبيه على موقف الشيخ محمد عبده، الأستاذ الإمام لمصر الحديثة، موقفه العجيب المرتبك ارتباكاً شديداً يصيب رأس الناقد البصير منه الدوار، يدافع عن الإسلام طائفة من العلماء، يقول معالي هيكل باشا اسم الشيخ محمد عبده أنصع الأسماء بهذا الصدد؛ ثم يقول ما خلاصته: أنهم لم ينجحوا في دفاعهم، لعدم سلوكهم الطريقة العلمية؛ و أنهم و الشيخ محمد عبده في مقدمتهم قد اتُّهموا بالإلحاد، و الكفر، و الزندقة؛ فأضعف ذلك من حجتهم أمام خصوم الإسلام.

و يدافع الشيخ أيضا عن الإسلام عندما جرت مناظرة بينه و بين منشئ (مجلة الجامعة) الأستاذ فرح، فيقول فيها الشيخ: "إن الإسلام دين العقل"، و يدعي خصمه: "أن جميع الأديان لا تتفق مع العقل و العلم"؛ فينفق ادعاؤه في سوق الثقافة العصرية بمصر، و ينتشر الإلحاد، و الاجتهاد في تهيئة الأذهان لقبوله، إن لم يكن جهاراً فدسا في المقالات المنشورة في الصحف، كما سنذكره في أحد الأرقام الآتية، نقلا عن الأستاذ فريد وجدي بك؛ و معزواً إلى نوابغ الشرق الإسلامي، المستبطنين للإلحاد، تيقنا منهم بأنه مصير إخوانهم كافة متى وصلوا إلى درجتهم العلمية....

ينفق رأي الأستاذ خصم الشيخ في سوق الثقافة، و لا يُسمَع قول الشيخ بأن الإسلام دين العقل، بل الشيخ نفسه يخالف العقل، فينكر بطلان التسلسل؛ مع أن وجود الله هو رأس الدين يتوقف إثباته بدليله العقلي على إبطال التسلسل، كما سنذكره في محله من هذا الكتاب.

فإن كان العقل يقبل التسلسل، و لا يقبل بطلانَه كما هو رأي الشيخ، فلا يقبل العقل وجود الله، لتوقف إثباته على إبطال التسلسل الذي لا يمكن إبطاله؛ و إن كان العقل لا يقبل التسلسل، لزم أن لا يقبل عقلُ الشيخ الذي يقبل التسلسل و لا يقبل بطلانه وجودَ الله.

ثم إن الشيخ الذي قال معالي هيكل باشا إنه متهم بالإلحاد و الكفر، و الذي لا يأتلف عقله مع العقل الديني المبطل للتسلسل، لا يعترف بكثير من المغيبات عن الحواس: كالملائكة، و الشيطان، و المعجزات التي نصت الكتب المقدسة على أنها ظهرت للناس في عهد الأنبياء، و لكنها<143> لا يظهر مثلها للناس في هذا الزمان.

فكأنه أي الشيخ يتفق مع خصمه في المناظرة، و يخالف نصوص الكتب المقدسة، و يكون له إصبع في سفور المسلمات، و هو القائل بأن وجود شيء في القرآن لا يقتضي صحته، كما نقلوا عنه هذا القول عند حدوث فتنة القصص الفني في القرآن بمصر؛ وسنوفي بحثها في أحد الأرقام الآتية.

فما هي حقيقة موقف الشيخ من الدين، الذي يدافع عنه، ثم لا يقبل كثيرا من نصوصه، و يخرج على صراحة الكتاب في احتجاب النساء، و يكون دفاعه عن الدين غير ناجح، لعد سلوكه الطريقة العلمية قديمها و حديثها؟

أما حديثها فهو مراد هيكل باشا في قوله بأن الشيخ و زملاءه من العلماء المدافعين عن الإسلام لم يسلكوا الطريقة العلمية، و أما قديمها فقد علمت، و ستعلم أنه يجيز التسلسل في العلل، و يرى ما قيل أو يقال في إبطاله للتوصل إلى إثبات وجود الله، أوهاماً و خيالات كاذبة.

و ينحرف في تحريف النبي و الرسول ن طريقة العلماء المتكلمين، فيأتي بتعريف غير معروف، ينطبق على العظماء المصلحين من الناس غير الأنبياء، و المرسلين الحقيقيين؛ و سيأتي تفصيل هذا البحث أيضاً.

فما هي إذن حقيقة موقف الشيخ من الدين؟

هل هو صديقه الساهر؟ أو عدوه الماكر؟

و ماذا سر إصرار الأقلام العصرية على إكباره، و إعلاء منزلته بين العلماء، مع عجزه عن إثبات وجود الله، و إثبات وحدانيته؛ رغم تبجحه بأنه المثبت الوحيد، و تمرده على كثير من نصوص الدين، و عدم نجاحه عند دفاعه عنه إلى حد اتباع المثقفين رأي خصمه في النقاش و المناظرة؟

فهل هو يناقش، و يناضل أعداء الدين ليغلبوه، و يكون هو من الخاسرين مع الدين؟

أجل، إنه فاز في إحدى محارباته فقط، و هي محاربته لشيوخ الأزهر القدماء، فأسقطهم من عيون الناس[58]؛ و فوزه هذا أيضا جدير بأن يعد من غلبات خصمه<144> الأستاذ فرح أنطون على الشيخ، حيث عاب الإسلام بعدم فصل الدين عن السياسة، الذي أدى إلى تقدم الغربيين، و عدمه في الإسلام إلى تأخر المسلمين.

و كان جواب الشيخ عليه عبارة عن حمل تبعة هذا النقص في الإسلام على علماء الدين، الذين يتهمهم بالجمود.

و يعني بهذا الحمل و الاتهام أنه من أنصار فصل الدين عن السياسة أي الدولة، رغم أنه مضاد للإسلام، الذي يعلو و لا يعلى عليه، و فصله عن السياسة إدخاله تحت حماية السياسة، و رحمتها كما سنفصله في محله من الكتاب.

فالشيخ يغلب علماء الأزهر، و الأستاذ فرح أنطون يغلب الشيخ، فلعله و صديقه، أو شيخ جمال الدين أرادا أن يلعبا في الإسلام دور لوتر و كلفين زعيمي البروتستانت في المسيحية، فلم يتسن لهما لأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين، و إنما اقتصر تأثير سعيهما على مساعدة الإلحاد المقنع بالنهوض و التجديد.

و كان مؤسسو البروتستانت لم يريدوا هدم المسيحية، و إنما أرادوا هدم اللاعبين الأولين بها، و قد أعانهم كون المنابع الأصلية للدين المسيحي لم يحتفظ بها سليمة كما احتفظ بها في الإسلام، فأراد المتزعمان للتجديد فيه أن يضعا أئمة الفقه المجتهدين مثل الإمام أبي حنيفة و إخوانه في درجة الاجتهاد رضي الله عنهم و حاشاهم، موضع اللاعبين الأولين في الإسلام، و تشجعا لفتح الباب إلى هدم ما قاموا به[59] كما<145> هدم لوتر، و مساعده الكثلكة، و الأرتودوكس، فأسسا البروتستانت، و لكن خان القياس للشيخين أي خيانة، فأبان ما في محاولتهما من الجناية.

نعود إلى أسباب سيادة الزيغ في عقليات المتعلمين.

و من ناحية أخرى، فإن كون كتب الفلسفة المهمة المؤلفة في الشرق و الغرب غير سهلة الدرس، و المطالعة، و كون الاهتمام بتدقيق المسائل و قلتها بحثاً، غير معتاد بين الأوساط العلمية بمصر سبباً شيوع الإلحاد فيها.

و قد كان لإهراع أبناء أعيان البلاد و بناتهم إلى الغرب، و كل من استطاع إليه سبيلا من الناشئين، ليرووا غلتهم من مناهله، من غير اكتراث بالمحافظة على كيانهم الإسلامي، أثرٌ أيضاً في تكون الجو اللاديني بمصر.

لكن فكرة الإلحاد ما راجت في الغرب رواجها اليوم في مصر، و أن دور رواجها في الغرب عقب الثورة الفرنسية، و بلغ غايته في القرن الثامن عشر[60]؛ ثم لم يلبث أن ثابت العقول إلى رشدها، و خمدت سورة الماديين المنكرين للإله الخالق، و إن كانت مصر الحديثة المخيرة تزعم كتركيا الحديثة المسيرة؛ أن الغرب باق على عهده الذي ساد فيه اعتقاد أن الكون بجميع أجزائه تابع لقوانينه الطبيعية، التي لا يمكن تغييرها، و ما نرى فيه من النظام فمصادفة<146>، مجردة عن تدبير مدبر، و إرادة مريد.

فلا إله، و لا فعل له في الكون، و لا نبوة، و لا معجزة، و لا الحياة الأخرى بعد الموت، بل و لا الحياة الدنيا، و لا الروح؛ و الإنسان آلة ميكانيكية، و جسم متحرك من غير إرادة لا فرق بينه و بين الأجسام المتحركة[61].

---

[58] كنت أردت عند قولي عن محيط الفاتح باستانبول في كلمة خاطبت بها روح والدي، و كتبتها في أول الكتاب: "إنه كان أفضل من الأزهر الحاضر..."؛ أن أضع هامشا لذاك القول الخاص بما قبل عهد الكماليين، ثم رأيت إرجاءه، و كان نص الهامش هكذا: "يدل على رجحان استانبول بعلماء دينها، الراسخين في مبادئهم العلمية أمران: الأول: أن الشيخ جمال الدين الأفغاني لم يستطع أن يسحرهم برسالته، التي أنجحها في مصر، فخرج من بين علمائها من يشد أزره، و يشترك في أمره، ثم يلعب دورا هاماً في هدم الأزهر، بزحزحته عن نهجه القديم القويم. و الأمر الثاني: أن وباء الماسونية لم يجد بيئة صالحة للانتشار بين رجال الدين في الآستانة، كما وجدها بين أقطاب الأزهر. و هذا على الرغم من أن مصر كانت في الماضي البعيد مركزاً كبيراً للعلوم الإسلامية، قبل دخول الإسلام في استانبول.

[59] و في تصريح رجلين من تلامذة محمد عبده، و من أقطاب الأزهر الأستاذ الأكبر المراغي، بمناسبة مناقشة الرسائل، التي قدمها لأول مرة المتخرجون من كلية الشريعة لنيل شهادة الأستاذية في الشريعة، و الأستاذ عبد المجيد سليم، المفتي الأكبر سابقا، بمناسبة كونه وكيل لجنة التقريب بين المذاهب لاحقاً... في تصريح الأول بعدم عد علم الفقه من الدين -و سيجيء تفصيله في الباب الرابع من هذا الكتاب-؛ و تصريح الثاني بأن مذاهب الأئمة المجتهدين مبنية على السياسة، تأييد ظاهر لما قلنا.

[60] و مع هذا، فلم يؤلف في أي قرن ما ألف في ذلك القرن من الكتب الكثيرة في إثبات وجود الله على ما ذكره الفيلسوف الفرنسي "بول زانه"، مؤلف "المطالب و المذاهب"، في تاريخ الفلسفة، حتى قال أنه أجدر بأن يسمى عصر العقلية الإلهية "ده تيزم"؛ من أن يسمى عصر الإلحاد "آنه تيزم".

[61] قال المادي المعروف "بوخنر" في خلاصة الفصل الثالث و العشرين من كتابه "الطاقة و القوة": "حتى أن المتفكر المشهور شوبنهاور لم يتخلص -تحت تأثير أفكاره الفلسفية الباطلة- من فكرة القوة الحيوية، و عد المعترض عليها من الحمقى".

ثم قال: "و هي يعني فكرة القوة الحيوية -كما قال ويرشو- ليست بخطأ فقط، بل فكرة باطلة، كالشيطان، و الإكسير".

ثم قال بوخنر: "إن الحياة غير تابعة لأي قانون استثنائي، و إنما هي محصلة الفعل المشترك للقوى الطبيعية و الكيميائية، أو مثال آخر للحركات الميكانيكية، و هيأة مجموعة لها مختلطة معقدة -بحد غير معلوم- يقتضي إيضاحها بقوانين الطبيعة العادية المعلومة؛ و من لم يفهم الحياة إلا بفرض قوة حيوية فقد استدل بصورة غير معقولة كما حاول إيضاح حركة ساعة بقوة خصوصية للساعة، بدلا من إيضاحها ببنيتها الميكانيكية؛ فكما أن حركة الساعة محصلة الحلكات المرتبة المنتظمة للمواد اللازمة المنتظمة و القوى المتصادقة بعضها مع بعض، فكذلك الحياة ليست بقوة، بل محصلة حركات، أو حركة لأقسام مجتمعة معينة".

ثم قال: "و الحادثات الطبيعية في داخل الجسم ذي الحياة تقع مثل الحادثات الكيميائية، و حركة الدم ميكانيكية خالصة، و الجهاز الذي يحصلها مشابه من كل وجه للماكينة المصنوعة بيد الإنسان".

ثم قال: "إلا أنه يجب أن يعترف بأن جميع الحادثات الواقعة في العضو ذي الحياة إن لم يوضح بالقوانين الطبيعية و الكيميائية، و صودف المعمى في المعمى، فليس ذلك بناشئ من طبيعة الأشياء، بل من نقصان علومنا، و ذلك النقصان يقل كل يوم برقي العلوم؛ و هذا يظل يجعلنا قادرين على إرجاع الحادثات الحيوية يوما عن يوم، إلى القوانين الطبيعية".

أقول: و هذا تسويف لا ينقضي أمده، و كان اللائق بصاحب العلم الواقعي أن يقتدر حالا على إرجاع الحياة إلى القوانين الطبيعية و الكيميائية؛ بل على إيجاد ذي الحياة توفيقا لتلك القوانين؛ ثم يقول: "نحن قادرون"؛ و نحن نجتزئ بنقل أقوال بوخنر، الدالة على حماقته، كما نقل هو نفسه عن "شوبنهاور"؛ و إنما نعلق كلمة قصيرة على قوله: "فالجهاز الذي يحصل القوى الحيوية يشابه من كل وجه للماكينة المصنوعة بيد الإنسان"؛ فنقول: و من هو صانع هذا الجهاز؟ فهل هو إنسان أيضا؟

و كلمة على قوله: "إن حركة الساعة محصلة الحركات المرتبة المنتظمة للمواد اللازمة و القوة المتصادقة بعضها مع بعض..."؛ فنقول: إن كان هناك ترتيب و انتظام فلا تصادف؛ ثم من المرتب، و الناظم؟ و إن كان تصادف، فلا ترتيب؛ و هل سمعتم ساعة منصوبة بالمصادفة؟

و قد كــان أحد<147> الغربـــيين المضـــلين ألف في عصر الإلحاد كتابا سماه "هوم ماشين"؛ يعني الإنسان الـذي هو ماكينة؛ فراج في سوق الضلالة.

و مع ذلك كله كان العالم الشهير "مونتسكيو" رد في ذلك الحين على هؤلاء الملحدين، قائلا: [ما أبعد أن تكون قدرة عمياء خلقت ذوي العقول].

و رد كثيرون آخـرون، لا سـيما في العصر الأخـير، و منهم الحكيم المشـــهور "جوســـتاف لوبـــون"، و إن لم يكن من الحكمـــاء الإلهـــيين، حيث قـــال في كتابه "الأفكـــار و العقائد": [العلم الذي أفلت من يوم إلى يوم من العقيدة، فهو خليط بهـــا، و تـــابع لها في جميع الأمـــور، الـــتي لم يعرفها الإنسـان حق المعرفـة، كأسـرار الحيـاة[62]، و منشأ الأنــواع[63]، و النظريـــات المتبعة فيهـــا، لا قيمة لها غـــير ســـمعة الأســـاتذة الـــذين قـــرروا نظريـــاتهم في شـــكل الدساتير].

و هناك غلطة فظيعة، و جعجعة مثارة حول الذين يسمون الإثباتيين، و يبتدئ الغلط من تسميتهم أصحاب الفلسفة المثبتـة، بادعـاء أنهم يبنـون العلم على ما ثبت من طريق الحـــواس، و التجربـــة، فينكـــرون كل ما ثبت من غـــير طريقها، و يخرجونه من دائرة العلم؛ و هم الـــذين اتخـــذوا فرنسا قـــدوة لهم[64]؛ فهم أعـــني الإثبـــاتيين مع حلفـــائهم المـــاديين أصـــبحوا أئمة<148> الكفـــر، يـــأثم بهم من ســـفه نفسه، و كفر بدينه من مثقفة الشرق أنصاف العلماء.

و قد قال "باكون" إمام المـذهب التجـربي ما معنـاه: [إن قليل العلم يبعد صـاحبه عن اللـه، و كثـيره يرجعه إليـه]<149>.

و كلمة "بـــاكون" هـــذه ربما يستشـــهد بها غـــيري على الموضـوع نفسـه، و فعلاً أعـرف الأسـتاذ فريد وجـدي بك استشـــهد بها في بعض أعـــداد "مجلة الأزهـــار"، كما أنه يستشـــهد في كل عـــدد من أعـــداد تلك المجلـــة، بكلمـــات فلاسفة آخرين غربـيين يؤمنـون باللـه، و لكن شـواهده لا تـــؤثر في تصـــحيح عقلية المستشـــهد المربوطة بـــالعلم الحديث، بله عقليات قارئيه المنصرفين عن الـدين؛ لأنه لا يزال يعتقد عـدم إمكـان المعجـزات، و الخـوارق المخالفة لقوانين<150> العلم الطبيعي، و لهذا يصـعب عليه تصـوير مسألة النبوة، فيذهب لتقريبها من العقول مذاهب بعيدة؛ و خصوصا يعتقد الدستور العلمي القائـل: "كل معقـول لا يؤيده محسوس، فلا يعتد به".

فكيف يعترف إذن بوجود الله قبل أن رآه بعينـه؟ كما قاله الأســتاذ فــرح أنطــون منشئ مجلة الجامعة في مناظرته الشيخ محمد عبده.

و على الأقل، كيف يعترف به علميا؛ و العلم حائر فيــه، لا يثبته، و لا ينفيه لعدم قابليته لأن يكون موضــوع التجربــة، و كيف يجمع بين ذلك الدســـــتور العلمي، و بين هـــــذا الاعتراف؟

لكني عندما استشـهد بقـول "بـاكون"، لا أفعله جريا على عـــادة الاستشـــهاد بـــأقوال علمـــاء الغـــرب، كما أني قبل الاطلاع على قوله أعـرف بعقلي الـذي أعطانيه الله أنه لا يصح قولهم: [كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا يعتد به]، على إطلاقه؛ و لا يمكنه أن يصح.

و عندما استشهد بقول "باكون"، أقف عليـه، و اسـوتقف القارئ، فأقول: هذا إمام العلم التجربي، كيف يقول هـذا القول الناص على اعترافه بوجود الله، لو صح أن العلم لا يعـترف بـه؟ حـتى أنه يبـني اعترافه على اعـتراف العلم؛

هذا و المقصود هنا بيان أن الملاحدة ينفون الحياة و الروح، و يتحملـون تبعة إنكـار البـديهيات لحاجة في نفوسـهم قضـوها على زعمهم؛ و هي عدم اللجوء إلى الاعتراف بوجود الله خالق الحياة و الروح.

[62] تعريض لإنكـار غلاة المـاديين القـوة الحيويـة، و الـروح كما نقلنا قريبا عن "بوخنر".

[63] تعريض لمذهب "دارون" النافق عند مثقفي مصر، و سائر بلاد العـرب، لحد أن من علماء الدين من تأهب لتأويل آيات القرآن -الـتي لا تـأتلف و هذا المذهب- إزاء كل احتمال.

[64] الفلســفة الإثباتيـــة، أو الفلســفة المثبتة يســميها أصــحاب الثقافة العصرية بمصر "الفلسفة الوضعية"، و التسمية الأولى للمثقفين الترك، و هي أحسن، و إن كان "بوزيتيويزم"، الذي هو الاسم الأصلي الفرنسي لتلك الفلسفة تحتمل كلتا الترجمتين؛ لأن الترجمة التركية تتضمن معنى مادحا لتلك الفلسفة، و تكـون أوفق بمقصـود صـاحبها الفرنسـي، الـذي أسسها، و سماها بذلك؛ في حين أن الفلسفة الوضعية لا تتضمن معـنى خصوصيا تمتاز به هذه الفلسفة، و يوفي زعم صاحبها، إذ لا بد أن يكـون كل مذهب فلسفي وضعيا، أي موضوع شخص، أو طائفة من الفلاسفة.

و هـذه الفلسـفة الإثباتية -أو الوضـعية على التعبـير المصـري- لم تخل أقوال الدكتور هيكل باشا، و الأستاذ فريد وجدي بك المنقولة في كتابنا هذا، عن التنويه بها! حـتى أن الأسـتاذ فريد قـال في الجـزء الثـالث من المجلد السـادس عشر من مجلة الأزهر ص 99 عنهـا: [إنها أدق و أصـدق من جميع الفلفسات العصرية في أصولها الأولية].

جـاءت مدرسة الفلسـفة الإثباتيـة، فـادعت للـروح الإنسـانية حـالات و أطواراً ثلاثاً: الحالة الإلهية، و الحالة وراء الطبيعيـة، و الحالة الإثباتية أو العلميـة؛ فالحالتـان الأوليـان عرضـيتان زائلتـان، و الحالة الأخـيرة هي الحالة الكمالية، و الحالة الحدية "مقابل العرضـية"؛ فالإنسـان في حالته هـذه يـترك مسـائل المبـدأ و المعـاد، و يتفـرغ لمشـاهدة الحادثـات و ما بينهما من النسب الثابتة؛ فيجب على رأي "أوجست كونت" مؤسس هذه الفلسـفة أن ينحى الـدين و الصـبغة الدينية عن العلم؛ و قد أطـاع هـذا القانون مؤلفو الشرق العصريون، حيث أخلوا مطـالع كتبهم عن التـبرك باسم الله و بحمده.

و مع ذلك ما لبث زعيم الإثبـــاتيين أن وضع دينا جديـــداً تثليثيـــا، قـــال: "أقانيمه الموجود الأعظم، و هو الإنسان، و الوثن الأعظم، و هو الأرض؛ و المحيط الأعظم، و هو الفضاء المحيط بالأرض؛ فالوثن الأعظم ضـحى بنفسه، فعرضها للتقلب و المذلة، ليكون منشأ للموجـود الأعظم؛ فنحن مدينون له بالعبـادة شـكرا؛ لكن ممثل الكمـال الأعلى هو الإنسـان، فهو الحقيق لأن يتخذ معبـودا؛ بل الإنسـان افضل من اللـه، و أجـدر بالعبـادة لكونه مسـتفيدا من محبتنـا، و محتاجـاً إلى خـدمتنا، و لأنه لا يحثنا بوعد المكافـأة على الملاحظـات الكسـبية، و لا سـيما المـرأة في الجـدارة بالعبـــادة، لكونها محلا لتحقيق أمـــاني الصـــداقة و العشـــق، و هي رمز البشرية؛ و فالأم تمثل الماضي، و المرأة -يعني الزوجة- تمثل الحـال، و البنت تمثل الاستقبال"؛ و في هذا الدين 84 عيـدا في السـنة للاحتفـال بالمرأة، و 9 مراسم للتقديس".

و هذا الدين اشـتهر بـدين الأشـراف؛ و عنـدي أن الأنسب تسـميته بـدين العشاق، و الفساق.

قال "بول زانه": "إن أوجست كونت، سواء كان الدين الذي وضعه جافـا، أو فلسفيا قليلاً، فهو حسبه ناقضا نقضا تامـاً، لقـانون الحـالات الثلاث، الذي اتخذه أساساً لدينه، و فلسفته، و الـذي اعتـبر الانكشـافات الدينية في الإنسان الحالة الأولى الابتدائية".

و في التزامه التثليث دليل على أن فلاسـفة الغـرب حـتى ملاحـدتهم، لا يزالون يحومون حـول النصـرانية؛ و للفيلسـوف "اسبنسـر" أيضا حملات على هذا الدين، كما أن لـ "هـ كسله ي" ردا على نظرية الحالات الثلاث.

و لما التحق العلامة "باستور" بالأكاديمية الفرنسية، و ألقى خطبته التي تتضمن الثناء على سـلفه "ليـنزه"، كما هو المعتـاد؛ و كـان أكـبر تلامـذة "أوجوست كـــونت"، نبه على الخلاف بينه و بين ســـلفه في الأفكـــار الفلسـفية، فعـاب على مـذهب الفلسـفة المثبتة عـدم مراعاته لمعلومة اللامتنـــاهي، الـــتي هي أهم المعلومـــات المثبتـــة، و أراد بمعلومة اللامتناهي، معلومة وجـود اللـه؛ ثم إن تعليل رجحـان الإنسـان على الله عند الإثباتيين في اسـتحقاق العبـادة، باسـتفادته من محبتنـا، و احتياجه إلى خدمتنا، غاية في السخافة.

بقي أن صديقي العالم الكبير، مترجم كتاب "بـوال زاهـة"، "المطـالب و المذاهب" إلى اللغة التركية، ذكر بمناسبة الدين الـذي وضـعه "أوجوست كونت" أمورا تلفت النظر:

منها: أن اعتراض العصريين على ممنوعية التصوير في الإسـلام بـدعوى أنه لا احتمـال للإنسـان من بعد في الرجـوع إلى عصر عبـادة الأوثـان، ينتقض باتخـاذ المـرأة معبـودة في دين الإثبـاتيين الموضـوع في عصر الرقي الغربي.

و منها: أن العاقر إذا نظر في الدين الذي وضعه فيلسوف كبير فرنسي، و قـارن بينه و بين الـدين الـذي أتى به من عند الله نـبي، أي قبل ثلاثة عشر قرناً، ينـدهش من الفـرق البـاهر بين الـدين الحقيقي المـنزل من عند الله، و بين الدين الصناعي، و لو كان مصنوعا في عصر العلوم.

و منها: أن كتب تاريخ الأديان التي ألفها علماء الغـرب، يعتـبرون الوثنية "فيتشـــيزم" أصـــلا، و التوحيد تطـــورا، و تكـــاملا؛ لكن دين الإثبـــاتيين "بوزيتويزم" يرى عكس ذلك، و يثبت أن الوثنية تحدث بازدياد الشـهوات، بعد أن كان الأصل هو التوحيد.

انظر قوله في شطره الثاني: [كثير العلم يوصل صاحبه إلى الله]؛ مع أن أساتذتنا العصريين إن تفضلوا فقادونا إلى الإيمان بالله، قادونا مهربين عن العلم حذرين؛ فما قولك فيهم؟

ألا ينطبق عليهم الشطر الأول من كلام "باكون"، أعني أليس هذا من نقصان العلم؟

و لي تعليقة، أو بالأصح وقفة على قول "باستور" العظيم أيضا، الذي استشهدت به في الهامش السابق، تأتي في محلها من الكتاب إن شاء الله تعالى.

و هذا الأستاذ فرح أنطون مناظر الشيخ محمد عبده، على الرغم من تصريحه بأنه مسيحي صميم، يظهر من قوله المار النقل أنه من الذين يؤمنون بالعلم، و يزعمون أن الإيمان بالعلم يجافي الإيمان بالله و رسله؛ و بالاختصار من الذين يبيعون بضائع الغرب القديمة الفاسدة بأثمان باهظة في الشرق<151>.

4- [هيكل باشا، و كتابه حياة محمد]:

و إن أردت زيادة الوقوف على مبلغ اعتلال العقلية في أساتذتنا العصريين، و اختلالها، و ابتعادها عن الحق إزاء الدين، و العلم، و علماء الدين؛ فانظر قول معالي هيكل باشا في مقدمة كتابه "حياة محمد".

و قد كنا نقلنا رأينا في دفاع الشيخ محمد عبده، و غيره من العلماء عن الإسلام، و هو أنه ما كان دفاعاً دافعاً نافعاً، لعدم سلوكهم الطريقة العلمية، و لأنهم اتُّهموا بالكفر و الإلحاد، و الزندقة؛ فأضعف ذلك من حجتهم أمام خصوم الإسلام.

و نقلنا قوله أيضا بعده: [و لقد كان اتهامهم هذا عميق الأثر في نفوس شباب المسلمين، المتعلمين،...].

ثم قال: [شعر هؤلاء الشبان بأن الزندقة تقابل حكم العقل، و نظام المنطق في نظر جماعة من علماء المسلمين، و أن الإلحاد عندهم قرين الاجتهاد، كما أن الإيمان قرين الجمود؛ لذلك جزعت نفوسهم، و انصرفوا يقرأون كتب الغرب، يلتمسون فيها الحقيقة، اقتناعاً منهم بأنهم لن يجدوها في كتب المسلمين؛ و هم لم يفكروا في كتب المسيحية، و التاريخ المسيحي بطبيعة الحال، إنما فزعوا إلى كتب الفلسفة، يلتمسون في أسلوبها العلمي ري ما في نفوسهم من ظمأ محرق للحق؛ و في منطقها ضياء للجذوة المقدسة، الكمينة في النفس الإنسانية، و وسيلة للاتصال بالكون، و حقيقته العليا.

و هم واجدون في كتب الغرب -سواء منها كتب الفلسفة، و كتب الأدب الفلسفي، و كتب الأدب نفسه- الشيء الكثير مما يغري الإنسان بالأخذ به، لروعة أسلوبها، و قوة منطقها، و ما يظهر فيها من صدق القصد، و خالص التوجه إلى المعرفة، ابتغاء الحق؛ لذلك انصرفت نفوسهم عن التفكير في الأديان كلها، و في الرسالة الإسلامية و صاحبها، حرصا منهم على أن لا تثور بينهم و بين الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها؛ و لأنهم لم يدركوا ضرورة الاتصال الروحي بين الإنسان و عوالم الكون اتصالاً يرتفع به الإنسان إلى أرقى مراتب الكمال، و تتضاعف به قوته المعنوية.

انصرف هؤلاء الشبان عن التفكير في الأديان كلها، و في الرسالة الإسلامية<152> و صاحبها، و زادهم انصرافاً ما رأوا العلم الواقعي، و الفلسفة الواقعية "الوضعية" يقررانه، من أن المسائل الدينية لا تخضع للمنطق، و لا تدخل في حيز التفكير العلمي، و أن ما يتصل بها من صور التفكير التجريدي ليس هو أيضا من الطريقة العلمية في شيء؛ ثم إنهم رأوا الفصل بين الكنيسة و الدولة واضحاً صريحاً في البلاد الغربية، و رأوا البلاد التي تقرر دساتيره أن ملكها هو حامي البروتستنتية، أو الكثلكة، أو تقرر أن دين الدولة الرسمي المسيحية، لا تقصد من ذلك إلى أكثر من مظاهر الأعياد، و المراسم، و ما يتصل بها؛ فأرادوا انخراطاً في هذا التفكير العلمي، و حرصا على الأخذ منه، و مما يتصل به من فلسفة، و أدب، و فن، بأوفر نصيب].

فأنت ترى معاله ينتقد كلا الفريقين من العلماء الجامدين، و الذين ذابوا في بوتقة التجديد، حتى اتُّهموا بالكفر و الزندقة، و الإلحاد؛ و كان انتقاده العلماء الجامدين أشد من انتقاده العلماء المتهمين بالزندقة، و الإلحاد؛ بل و من انتقاده للشبان المتعلمين، المنصرفين عن الدين الذين بينما يأسف لحالهم، إذا به يسرد أعذارا عنهم، و يروجها من عنده، ثم يحمل أوزارهم -إن كان لهم ذلك- على العلماء الجامدين، المتهمين للعلماء المجددين، متهماً أولئك المتهمين بأنهم اعتبروا حكم العقل، و نظام المنطق زندقة، و الجمود إيماناً، و لهذا اختار الشبان المتعلمون الزندقة التي تتفق مع حكم العقل، و نظام المنطق، و نبذوا الإيمان مع الجمود.

و لم يمكن معاليه منصفا في اتهام العلماء بمناوأة حكم العقل، و نظام المنطق؛ لأني لا أعرف عالماً من علماء الدين بعد تأسس علم الكلام في الإسلام يستهين بالعقل و المنطق؛ بل الأساتذة العصريون أنفسهم هم الذين يستهينون بهما، و لا يعدون طرقتهما طريقة علمية.

و معاليه نفسه عندما عاب على الشيخ محمد عبده، و زملائه المدافعين عن الإسلام بأنهم لم يسلكوا في دفاعهم الطريقة العلمية، إنما عاب عليهم سلوكهم الطريقة القديمة المنطقية، التي حكم أولا بأن علماء الإسلام أفنوا فيها قروناً طويلةً؛ كما أن الأستاذ فريد وجدي تمدح بأنه سلك الطريقة العلمية، في إثبات إمكان النبوة، و لم يسلك الطريقة المنطقية.

أما حكم العقل، فعلماؤنا يتمسكون في إثبات وجود الله بالدليل العقلي، و الأساتذة العصريون لا يعدون الدليل<153> العقلي دليلا علمياً، و سيراني القارئ كيف أعنى في هذا الكتاب بالدفاع عن كرامة العقل إزاء المستخفين بها.

و لم يكتف معاليه باتهام العلماء الجامدين في انصراف الشباب المتعلمين عن الدين، بل اتهم الدين نفسَه أيضاً، حيث عاب المسائل الدينية بعدم خضوعها للمنطق، و قد كان فيما نقلنا عنه عاب المنطق التجريدي، الذي أفنى فيه المسلمون قرونا طويلة؛ فالمسائل الدينية إذن معيبة مطلقاً، خضعت للمنطق، أو لم تخضع؛ حتى إنها إن خضعت للمنطق يكون المنطق نفسه معيباً معها؛ فليزم لأن ينال المنطق تقدير المنصرفين عن الدين، و الذين يعذرونهم، أن يكون منطقاً خاصاً بالعلم، الذي انصرفوا إليه لما انصرفوا عن الدين؛ لكن المنطق الذي هو ميزان العلوم لا يختص بعلم، و يكون تجريدياًّ بطابعه الأصلي.

و لذا قال الفيلسوف "كانت" منتقدا لمذهب الإحساسية: [إن المنطق مستند إلى القوانين العقلية المحضة، و إن الخواص التي هي موضوع الرياضيات، و ما يتبعها من القوانين ليست بموجودة في الطبيعة، و إنما هي موجودة في العقل، فالحادثات الطبيعية تحل بهذه القوانين].

و هذا المنطق الذي يجله معاليه تارة، و يحتقره أخرى محترم مطلقاً، إذا كان منطق الغربيين فهو يمدح كتبهم بدقة المنطق؛ و يزيد فيقول: [يلتمس الشبان المتعلمون في منطقها ضياء للجذوة المقدسة، الكمينة في النفس الإنسانية].

و أنا أقول: فهل لذلك كان انصرافهم عن الدين غير الخاضع للمنطق؟

و كان أبشع أقوال الدكتور هيكل باشا، و أمسها بكرامة مؤلفي الإسلام و كتبهم، وصفه لمؤلفي الغرب بصدق القصد، و خالص التوجه إلى المعرفة ابتغاء الحق، مما لم يجده الشبان المتعلمون، أو بالأصح لم يجده عاذرهم الدكتور هيكل باشا، حتى في كتب أئمة الإسلام الأقدمين، من المحدثين و المجتهدين[65]؛ و لذلك أسقط

[65] و أنا لا أنكر أن الغرب، و كتبه العلمية، و الفلسفية، و الأدبية ما تحتاج إلى الأخذ منه، و الاعتبار به؛ و ليت علماء مصر تعلموا من علماء الغرب، إن لم يتعلموا من علمائنا الماضين، السعي البالغ لتدقيق المسائل العلمية من غير ملل، و تقويم الآراء، و الأفكار بقيمتها الذاتية، لا بمراكز أصحابها الرسمية، و لا بسمعتهم المموهة؛ و ليتهم تعلموا الشجاعة، و الجهاد، و التضحية في نصرة الحق، و إزهاق الباطل، و عدم السكوت عليه، بعد استعمال البصيرة، و التثبت في تمييز الحق من الباطل... و خصيصاً لا أنكر ما يحتاج إليه كتاب مصر، و أدباؤها، و

في مقدمة كتاب "حياة<154> محمد"، الطبعة الثانية، جميع ما في كتب الحديث، فضلاً عن السيرة؛ مثل صحيح البخاري، و مسلم، و سنن أبي داود، و النسائي، و ابن ماجة، و موطأ مالك، و مسند أحمد، و غيرها من أحاديث معجزات نبينا ﷺ، من حيز الاعتداد، و الاعتماد[66]؛ حتى إن هذه المقارنة<155> بين مؤلفي الغرب و الإسلام، المثيرة للشبهة في أمانة المؤلفين المسلمين، تضر كتاب هيكل باشا هذا، أي "حياة محمد"، الذي في مقدمته هذه المقارنة... تضره، فتحط من قيمته بصفة أن مؤلفه من كتاب المسلمين، و لا تحول دون هذا الحط المضر، المزري تزكية<156> المؤلف نفسه لكتابه، و لا تزكية فضيلة الأستاذ الأكبر المراغي شيخ الجامع الأزهر، بعد إن لم تنفع شهاة المسلمين قاطبة في جميع قرون الإسلام الماضية على أن أصح الكتب بعد القرآن صحيحا البخاري و مسلم، و لا شهادة القرآن على أمانة هذه الأمة، بقوله: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}؛ و قوله: {و كذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا}؛ بناء على أن المسلمين متهمون كائنين من كانوا، و تهمتهم إسلامهم.

و لو ذكّرتم المؤلف أن إجماع المسلمين حجة قاطعة، و هو ثالث الأركان الأربعة، التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية، فلعله يضحك منكم، و يقول: أنا لا أعتمد على ركن السنة، و هو قول النبي ﷺ، و فعله؛ و أنتم تذكرون لي أقوال الناس.

و قد أخذني العجب كل الأخذ من قوله بعد هذه المقارنة الظالمة: [لذلك انصرفت نفوس شبابها المسلمين المتعلمين عن التفكير في الأديان كلها، و في الرسالة الإسلامية و صاحبها، حرصاً منهم على أن لا يثور بينهم و بين الجمود حرب لا ثقة لهم بالانتصار فيها].

فلماذا لا يثقون بانتصارهم في محاربة الجمود، و الدكتور المؤلف المحارب نفسه صعد إلى كرسي الوزارات؟

و كذا مؤلف كتاب "الإسلام و أصول الحكم"، قاضي المنصورة الشرعي سابقا، و المفصول بسبب كتابه عن الأزهر، و الشيخ المحارب قبلهما كان مفتي الديار المصرية؛ و انتصاره الأكبر، أن اسمه يعيش على الصحف و المجلات أكثر من اسم أي عالم عاش من قبله بمصر[67].

و قبل عشر سنوات أنكر الأستاذ فريد وجدي بك معجزات الأنبياء، و أنكر البعث بعد الموت، أثناء المناظرة بيني و بينه على صفحات "جريدة الأهرام"، يعني أنه حارب الجمود، و عقب المحاربة، و المناظرة قرر مجلس الأزهر الأعلى<157> تعيينه بمرتب قدره خمسون جنيها، مديراً، و رئيس تحرير لـ "مجلة الأزهر"، المسماة يومئذ "نور الإسلام"، و لو أحصيت أسماء المنتصرين في محاربة الجمود، لطال الكلام، فماذا يطلبون فوق هذه الانتصارات[68]؟<158>.

شعراؤها من تعلم هذه الخصلة الشريفة، خصلة الجهاد، و التضحية في نصرة الحق بعد بذل المجهود في تمييزه من الباطل، فلهم وظائف عالية غير الوقوف في صف المداحين أما الأحياء، الذين قال عنهم نبي الإسلام صلى الله عليه و سلم: "احثوا في أفواه المداحين التراب"؛ و في صف النائحات من وراء الأموات، فقد كان الشاعر الفرنسي "هوجو" يمطر في أشعاره من منفاه سهام الإنذار، و التنديد على نابليون الثالث؛ و من أوجب واجبات الشعراء، أن لا يمدحوا من يمدحونه إلا بميزان، و مقياس ينطبق على الممدوح فلا يطول عن قده، كثوب طويل يكنس بأذياله مواطئ الأقدام؛ و خلافه يكون إعلاناً من الشاعر بأن مدحه لا قيمة له، فيبذله جزافاً بغير حساب؛ و لهذا الهامش بقية وضعتها لطولها في آخر هذا الجزء من الكتاب.

[66] و لمعالي الدكتور هيكل باشا المنكر لمعجزات سيدنا محمد مع تظاهره باستثناء معجزة القرآن عنها، محاولة غير محمودة في مقدمة كتابه "حياة محمد"، ترفع الأمان عن كتب الأحاديث، و تشكك في صحة ما ورد فيها بجملته منسوبا إلى النبي صلى الله عليه و سلم، للتشكيك في صحة أحاديث المعجزات.... و كلامه المنقول هنا في إكبار مؤلفي الغرب، و إصغار مؤلفي الإسلام يحوم حول تلك المحاولة. و إني بجانب موقف معالي الباشا المذكور ضد كتب الحديث، أعتبر علم الحديث، و الفقه، و أصول الفقه تلك العلوم التي دونها علماء الإسلام، و قاموا في تمحيصها بمساعي جبارة، لم تر عين الدنيا مثلها في أي طائفة من أهل العلم المتطوعين بالبحث عن الحقائق العلمية، لا في سبيل الوصول إلى الغايات الفانيات، بل في سبيل الحصول على رضوان من الله أكبر.... ثم اتخذتها دول الإسلام العظيمة من العرب، و الترك، و المغول أساساً لقوانينها في القرون الطويلة، التي كان المسلمون فيها أصحاب الكلمة النافذة على وجه البسيطة، و حماة الحقوق الإنسانية الصادقين، لا يجرمنهم شنآن قوم على أن لا يعدلوا... و قد صدق القول بأن الإسلام دين و دولة.

اعتبر هذه العلوم و علماءها -و قد ذكرته في أمكنة مختلفة من هذا الكتاب- معجزة من معجزات الإسلام، الباقية بعد عصر نبيه صلى الله عليه و سلم، كالقرآن، و أعم تأثيرا من القرآن، الذي لا يسحر إعجازه غير العرب، بل لا تلين له أيضاً قلوب كثير من العرب الحاضرين، و منهم الشيخ الأكبر المراغي، كما صرح في مقالته المنشورة لترويج فتنة ترجمة القرآن...

و أنا الذي اعتبر علم الحديث، و الفقه، و أصول الفقه، و علماءها من معجزات الإسلام، و لا بد أن يشاطرني في هذا الاعتبار غيري، ممن لهم صلة بتلك العلوم عن كثب.. يعز علي، و على أولئك المشاطرين أن يستهين معالي الدكتور هيكل باشا بعلماء هذه العلوم، أئمة الحديث، و الفقه، و أصول الفقه؛ فيفضل عليهم المؤلفين الغربيين.... حتى في صدق القصد، و خلوص التوجه، إلى المعرفة ابتغاء الحق.

نعم، أنا أكبر علم الحديث، و الفقه، و أصول الفقه إلى حد عدها من معجزات الإسلام، مع عدم كونها من الخوارق الحقيقية لسنن الكون، و مع أن كون المعجزة من الخوارق ليس بلازم في نظر معاليه، و لهذا فاعتبار هذه العلوم و علمائها من معجزات الإسلام، كان أولى مني بمعاليه، لو كانت له صلة بتلك العلوم، و لم تكن معرفته بها و بعلمائها تقتصر على ما قرأه في كتب الغربيين عنا و عنهم.

فهل يمكن أن يكون محمد الأمي حكيما فقط، و إن شئت فقل كما قالوا: عبقريا فقط؛ لكن إلى حد أن يستخرج علماء الإسلام من أقواله و أفعاله التي نسميها نحن الكتاب و السنة، قوانين كافية لإدارة الدول الكبيرة، و سيادة الدنيا و الآخرة. و قد بسط أحد هؤلاء العلماء بتلك القوانين في كتاب يكون ثلاثين مجلداً على مذهب الإمام أبي حنيفة في الفقه سماه "المبسوط"...؛ هل يمكن أن تكون أقوال، و أفعال محمد الأمي تحتوي خزائن أحكام يكتشفها، و يستخرجها علماء أمته؟ ثم يكون هذا الاختزان منه، و ذاك التوفيق للعلماء المستخرجين، من غير أن يكون ذلك الأمي نبيا، مؤيدا من عند الله، و هؤلاء العلماء المستخرجون معجزة من معجزات نبوته؟... و كم يكون مضحكاً ما يدعيه بعض الغربيين الذين أكبر معاليه علماءهم، مستهينا بعلمائنا، أن الكنوز التي حفظها أئمة القراءة، و الحديث، مما أوتي محمد الأمي من الحكمة، و فتحها، و شرحها أئمة الفقه المجتهدون، إنما هي تفصيل ما تعلمه من الراهب المسيحي بحيرا، في دقائق معدودة، من مقابلته في طريق سفره إلى الشام، و هو مراهق في الثانية عشرة من عمره؟.... و لماذا لم ينفق ذلك الراهب من خزائن علومه التي فتحها علماء الإسلام في دينه المسيحي؟

[67] أما أستاذه، و مجدده جمال الدين الأفغاني فحدث عن مركزه بمصر و لا حرج، و أنا لا أدري أحدا من النازلين بها اشتهر، و دامت شهرته في ألسنة المتعلمين و أقلامهم مثل جمال الدين، حتى إن الإمام الشافعي لا يعدله في التذكار إن لم يكن في الإكبار؛ كما أن فرعون أشهر في مصر الحاضرة من سيدنا موسى، و أدعى منه إلى الفخر للمصريين المجددين.

[68] و هل يظن معاليه أننا لا ندري أن الرياء القديم، الذي كان يطلق على الظهور في مظهر الديانة من غير أهلها قد كسدت سوقه، و انقلب على عكسه، حتى أن بعض ضعاف الدين من العلماء و الكتاب يودون اليوم أن يظهروا في مظهر الخروج على أحكام دينهم، ليختلسوا من يد الدهر المغلوب ما يستحقونه من المركز الدنيوي، يودون ذلك، لو أن مبدأ الديانة سامح ذويه، و لم يحظر عليهم التنكر و الإنكار معاً، كما سامح المتفرنجين مبدأهم، و سوغ لهم التسلح في نضال الحياة بسلاحين، و قد يكون هذا المبدأ موافقاً لمبدأ التحرر التام.

و هل يظن معاليه أننا لا ندري، و معنا الواقفون على الأحوال أن ضعف الدين أضمن للنجاح في مضمار الثقافة المصرية من قوة العلم، كما أن شهادات العالمية، لا سيما الشهادات المكتسبة في الغرب أكثر رواجاً من العالمية نفسها؛ و قد ظهر في الآونة الأخيرة كتاب يدعو فيه مؤلفه الشيخ عبد الله القصيمي -كما قال الأستاذ سيد قطب في مقالته المنشورة في "مجلة الرسالة" عدد 702: [إلى إيثار العقلية الأوروبية، لأنها خلعت ربقة الدين، و ربقة الخلق، و ربقة التطلع إلى الله، و انطلقت تهدف إلى الأرض وحدها، و لا تطلق نظرها مرة إلى السماء، لأن التطلع إلى الله كفيل بإفساد الحياة. و في ثنايا هذا الذي يبدو تحررا فكريا في ظاهره، يخدع المخدوعين ممن يحسب التحرر الفكري مجرد التحلل من الأديان، و الأخلاق على أي وضع من الأوضاع؛ من ثنايا هذا يدس الإيماء إلى الشرق العربي المسلم، بأن لا حق له في كراهة الاستعمار و المستعمرين؛ لأنهم ورثة الأرض التي يستحقون كنوزها و

و لا أدري، لماذا كتب معالي المؤلف بعد سرد أعذار الشباب المتعلمين في انصرافهم من الأديان قوله: [و لأنهم لا يدركون ضرورة الاتصال الروحي بين الإنسان و عوالم الكون اتصالاً يرتفع به الإنسان إلى أرقى مراتب الكمال، و تتضاعف به قوته المعنوية]؟.

و لماذا لم يأتهم الإحساس بهذه الضرورة المكملة في نتيجة الانصراف بكليتهم إلى كتب الغرب المهذبة للنفوس<159>؟

ثم إن معاليه اعتنى غاية الاعتناء بالفلسفة الوضعية "بوزيتويزم"، التي سبق منا ذكرها باسم الإثباتية، مع التنبيه على زعيمهم الذي احتقر فكرة الدين، و عدها حالة ابتدائية في الإنسان، ثم وضع دينا جديداً معبوده

خيراتها].

و أنا أقول: لقد أحسن الأستاذ في كشف الستار عن الضجة المفتعلة التي أثيرت حول هذا الكتاب التافه المريب، كما عبر الأستاذ، و التي انزلق فيها بعض كبار الكتاب، مخدوعين بما صور لهم المؤلف من مخاوف تحيط به، و تدنيه من حبل المشنقة، بسبب كتابه، كما قال الأستاذ أيضا؛ و أحسن كل الإحسان في عد هذه الضجة، و ذلك الإنزلاق فضيحة أدبية لمصر، و ربما دليلا على غفلة النقد فيها إلى حد مخجل.

ثم أقول: ليس كل مقصود المؤلف المعتدي الأثيم، التزلف إلى المستعمرين الأقوياء في مغارب الأرض و مشارقها، بل التزلف أيضاً، أو بالأصح أولا إلى الأوساط المثقفة المسموعة الكلم في الشرق الإسلامي الحديث، و في مصر خاصة، التي يعجبها ضعف الدين، و يروج عندها كأقوى شهادة علمية، تؤهل صاحبها مركزا ممتازاً، لاسيما إذا كان التزلف من الشيوخ المعممين.

يؤيدني في هذا التوجيه قول الأستاذ صاحب المقالة، التي قصمت ظهر الشيخ القصيمي، و قذفت بكتابه إلى أسفل سافلين: [أولئك هم جميع المسلمين في نظر المؤلف، و هذه هي عقليتهم الإسلامية التي جرد قلمه لينسفها نسفا، فيقف جماعة من النقاد في مصر معجبون بهذا القلم القوي البتار].

فليس الشيخ المؤلف سوى واحد من مستبطني الإلحاد في الشرق الإسلامي الحديث المذكورين في مقالة الأستاذ فريد وجدي القديمة.... واحدٌ منهم آن له أن يخلع ثوب الاستبطان، و يخرج على الملإ عرياناً، فإن كان الأستاذ فريد وجدي وصفهم بالنوابغ، و كان الشيخ بعيداً عن هذه الصفة، اللهم إلا أن تعده نابغة في سرقة فصول كاملة من كتاب الأستاذ عبد المنعم خلاف، فهو على كل حال يؤمل الحصول على رتبة النبوغ في الأوساط المذكورة الذي من أعظم و أسهل شروطه ضعف الدين.

أما النقد في مصر، فليس الحاكم فيه هو الغفلة فقط، كما يرى الأستاذ قطب، و إنما هو يستند في أكثر من الغفلة إلى يقظة منتكرة، أو متغافلة، و يباع كسلمة في سوق التغرير، و الإغراض السوداء الصائتة، أو الصامتة، و يبتعد ابتعاداً من النقد الحر.

و لا بد أن أذكر هنا مثالين ذكرتهما من قبل أيضا؛ فقد سبق أن حدثت فتنة ترجمة القرآن في تركيا الكمالية، و كتب الأستاذ الأكبر المراغي في "السياسة الأسبوعية"، و "الأهرام" مقالة طويلة، يرتإي فيها لا جواز القراءة في الصلاة للأعاجم بتراجم القرآن على لغاتهم، مع القدرة على قراءة الأصل العربي... بل ترجيح قراءة التراجم على قراءة الأصل؛ فضلا عن جوازها.

و كنت انتقدت مقالته تلك انتقاداً مفصلاً في كتابي "مسألة ترجمة القرآن"، المنشور سنة 1351هـ؛ و كان الأستاذ المراغي لم يجب على انتقاداتي، ثم تجدد النقاش على موضوع ترجمة القرآن بعد سنين بين بعض الفضلاء الذائدين عن حمى القرآن، كالشيخ محمد سليمان، نائب المحكمة الشرعية العليا، و الأستاذ الههياوي، صاحب "جريدة المنبر"، تغمدهما الله برحمته، و بين الذائدين عن حمى مشيخة الأزهر المروجة للموضوع؛ فإذا بمقالة الأستاذ الأكبر المراغي القديمة قد نشرت مرة ثانية بعينها في "مجلة الأزهر"، إصراراً على ما فيها من الأخطاء، التي من جملتها طيش سهم صاحب المقالة عن فهم أقوال الفقهاء الأحناف؛ و هو يشبه خطأه في فهم بيت من أبيات البردة، استشهد به في مدح كتاب هيكل باشا، نافيا لمعجزات سيدنا محمد غير القرآن، ثم سد أذنيه لئلا يسمع نقدي كما أغمض عينيه عن أبيات أخرى في نفس القصيدة، ناطقة بتلك المعجزات المنفية، و مكذبة للمادح و الممدوح؛ و قلما يوجد في الدنيا استهتار كهذا في الجهل و التجاهل؛ و كنت قد نبهت إليها في كتابي المذكور، فتجوهل التنبيه و المنبه، اعتماداً على غفلة الناس عن الاطلاع على الحقيقة.

و المثال الثاني أني لما نشرت كتابي "القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب و الذين لا يؤمنون"؛ و فيه انتقادات على كثير من كبار الكتاب، و ذوي المناصب، لاسيما معالي هيكل باشا مؤلف "حياة محمد"، و جريت على عادة المؤلفين في الإهداء إلى الجرائد المعروفة، فأعلن عن كتابي كل جريدة أهديت إليها، و اطلعت هي على محتوياته، و شذت

الإنسان، و لا سيما المرأة؛ و على أنها أحدث فلسفة لدعاة الإلحاد في الغرب العاملين في زيغ فرنسا إلى الحكومة اللادينية؛ اعتنى بهذه الفلسفة الملعونة لحد اعتبارها حجة للمنصرفين عن الدين، و استهان بالتفكير التجريدي الميتافيزيقي، أعني فلسفة ما وراء الطبيعة، التي منها الفلسفة الإلهية، و لم يعتد بها تفكيرا علميا، لكونها ميتافيزيقة غير مستندة إلى التجربة الحسية، و لعدم اعتداد الميتافيزيق من العلم.

و هذ هو المرض المستولي على عقول المتعلمين العصريين، طبقا لبرنامج الملاحدة الإثباتيين؛ و الذي بذلت لمداواته كل مجهود في هذا الكتاب.

و أنت ترى<160> الفيلسوف الكبير ديكارت يقول، تقديراً لجلالة قدر الميتافيزيق: [لما كان الذهن الإنساني مشغولاً بالمحسوسات، فقد وجب تخليصه منها، و فتح عينيه إلى مسائل الميتافيزيقا، لكي يرى الأفكار، و المعاني في صفائها، و جلائها، و يحتاج ذلك إلى مجهود خاص، و هو ما يسمى بالانتباه، أي تركيز الفكر كله في الأمر المعروض عليه][69].

و يقول أيضا: [من أراد الوصول إلى الحقيقة في المسائل النظرية، وجب عليه أن يتدرب على المنهج، و أن يمارس قواعده، لكي يصل إلى استعمالها في يسر و اطمئنان، و بعد أن يطول مران الإنسان على استخدام المنهج، يجب أن يبادر بالنظر في الفلسفة الحقيقية، التي جزؤها الأول الميتافيزيقا، و الثاني الفيزيقا...؛ الخ.

و إذن فالمنهج قد ألف ليكون سبيلاً لإقامة الميتافيزيقا، التي منها يكون الشروع في كل ماعداها][70].

و يقول: [إن القوانين التي تسيطر على العالم الطبيعي، يحددها ما تُعلِّمنا الميتافيزيقا عن الله][71].

و إذا كان الله تعالى لا يثبت وجوده إلا بطريقة ميتافيزيقية، و كانتْ هذه الطريقة غير معترف بها من العلم؛ فماذا فائدة كتاب عن حياة محمد رسول الله، الذي لم يثبت وجوده علميا؟

و ماذا فائدة مراعاة الطريقة العلمية الحديثة الغربية في تأليف هذا الكتاب، كما ادعاه مؤلفه، و كرر دعواه بهذا الصدد تكريراً؟

و هل أول مراعاته للطريقة العلمية الحديثة الغربية في وضع كتاب عن حياة محمد رسول الله، أن يعتبره رسولا من غير ثبوت وجود مرسله ثبوتاً علمياً؟

اللهم إلا أن تكون فائدته إثبات زعيم عربي، عظيم، مستحق بالوجوه للزعامة، و وضع كتاب عن حياة ذلك الزعيم تحت عنوان رسول الله كما أشرنا إليه من قبل أيضا؛ فإن لم تثبت رسالته، لعدم ثبوت وجود مرسله، فلا كلام في زعامته، و استحقاقه للزعامة<161>.

لكنا نحن لا يقنعنا، و لا يُروي علمَنا و عقلنا إلا أن يكون الله موجوداً، أحق بالوجود من كل موجودٍ، و أقدم؛ و إلا أن يكون محمد العربي صلى الله عليه و سلم رسول الله، على الرغم من كون كل من وجود الله و الرسالة عن الله

"الأهرام" في الإباء عن الإعلان، مع استلام النسخة المهداة إليها؛ فكانت هذه المحاولة الصامتة من الجريدة في عهد رئيس تحريرها أنطون جميل باشا، دفن النقد الحر في التراب، كما أن ترك الرد من الأستاذ الأكبر على نقدي تجاهلا له، كان خوفا من شيوع النقد أكثر من النقد نفسه.

و عندي مثال ثالث أغرب من الأولين، لقيه كتابي "تحت سلطان القدر"، المنشور قبل "القول الفصل"، و بعد "مسألة ترجمة القرآن"؛ ليس من الحكمة أن أذكره، و ربما يذكره التاريخ.

[69] ص 83 من كتاب ديكارت، للدكتور عثمان أمين، طبعة ثانية.

[70] ص 116 من الكتاب المذكور.

[71] ص 182.

من المسائل الميتافيزقية، فتلزم لضرورة وجود الله قبل كل شيء، الذي هو موجود ميتافيزيقي، ضرورة الاعتراف بالموجود الميتافيزيقي؛ فإن كان في الوجود موجود فيزيقي، فلا بد أن يكون قبله موجود ميتافيزيقي، كما ستعرف ذلك في هذا الكتاب إن شاء الله.

فإذن الموجود الميتافيزيقي أثبت في الوجود من الموجود الفيزيقي، بله أن يكون وجود الأول أضعف ثبوتاً من وجود الثاني، كما أوهمه كلام معالي المؤلف.

و كما أن الله تعالى موجود ميتافيزيقي، فالعقل الذي به نفكر في كل شيء، و نحكم بوجوده أو عدم وجوده ميتافيزيقي أيضاً.

و من هنا قال "شاتوبريان": [إن الإنسان حيوان ميتافيزيقي].

و من هنا أيضاً لا يعترف العلم الذي لا يعترف بما وراء الطبيعة، بالعقل كقوة خاصة، تمتاز عن القوى العادية الطبيعية، كما لا يعترف بالله، و لا بالروح.

لا يقال إن الماديين النافين للميتافيزيق لا ينفون العقل، و لا يلزم من إنكار كونه قوة خاصة مختلفة عن القوى الطبيعية نفي وجوده بالمرة، فهم يقولون إن الإدراك فعل المخ، و أثره الطبيعي، كما يلد الكبد الصفراء و الكلية البول.

لأنا نقول: ليس الفكر أثر المخ، الذي هو موجود مادي، و إن كان وجود المخ شرطاً عاديا لوجود الفكر.

فلو كان الفكر أثر المخ، و مولوده لكان مادياً كالمخ، و كان متعلق إحدى الحواس، كما كانت الصفراء و البول؛ فليس الفكر مادة، و لا قوة من القوى المادية المعلومة، مع أن الموجود الطبيعي منحصر في المادة، و قواها المعلومة؛ فيلزم أن لا يكون الفكر موجوداً على قاعدة العلم الطبيعي، لعدم كونه محسوساً بإحدى الحواس.... فوجود الفكر في الإنسان أجلى دليل على وجود موجود ميتافيزيقي، و وجوده غير القابل للإنكار ينقض نقضاً ظاهراً لقاعدتهم<162> القائلة بأن: "كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا يعتد به"[72].

حتى إن وجود الروح لو ثبت بالتجارب الجديدة الحسية، كما يدعونه، و أمكن الماديين أن يعترفوا بوجودها إلحاقاً لها بالمادة لكونها محسوسة، فلا يمكنهم أن يعترفوا بوجود الفكر كوجود الأشياء المادية الطبيعية.

و لأن يكون معالي المؤلف قد جمع أخطاء جمة في صفحة واحدة من مقدمة كتابه، أثنى في مختتم كلامه على المبدإ الغربي، المتعلق بفصل الدين عن الدولة فصلا واضحاً صريحاً؛ و الدين في مصر -و إن كان مفصولاً عن الدولة و الحكومة إلى حد ما، لانقسام المحاكم فيها إلى شرعية، و غير شرعية؛ و لعدم دخول شيخ الأزهر في هيأة الوزارة....، لكن معاليه يتمنى فصلاً أوضح، و أصرح؛ يأن يحذف بتاتاً من الدستور كون دين الدولة الرسمي الإسلام، كما وقع في تركيا الحديثة، أو يجرد لفظه عن كل معنى حقيقي، كما فعلت الدول الأوروبية بدينها المسيحي الذي يبتدئ خطأ الخاطئين من قياس الإسلام عليه...

و هذا الفصل الواضح الصريح، الذي هو آخر آمال المتعلمين العصريين، و آخر منالهم من ديننا، و الذي ذكره الأستاذ فرح أنطون أيضاً عند مناظرته الشيخ محمد عبده، و جعل رقي أوروبا مديناً له، و يفهم من اتفاق رأي معاليه مع رأي الأستاذ فرح صدق ما قلته من قبل، أن الرجل اكتسب القضية ضد مناظره عند الرأي العام؛ أفردت في آخر كتابي باباً للنظر فيه.

و هنا أقول سلفاً و باختصار: إن معناه خروج حكومة المسلمين من ربقة الإسلام، و رقابته عليها، و خروج الأمة أيضا من ربقته باختيارها الحكومة الخارجة على الإسلام حكومةً لها، لاسيما الحكومة المستندة إلى البرلمان، المستند إلى الأمة، فمثل الفصل في تلك الحكومات كمثل المناداة بالردة حكومة، و أمة؛ و إذا كان الأفراد، أو على الأصح<163> في بعضهم دين يعيش إلى أن ينقضي جيلهم، يعيش محكوماً للحكومة، لا حاكماً عليها، كما كان قبل الفصل؛ و هذا وحده كاف في أن يكون الفصل كفراً، لاسيما إذا كان تنزيل الإسلام عن عرش حكمه، بأيدي المسلمين أنفسهم، لأن الإسلام يعلو و لا يعلى عليه.

و المضحك المبكي، أن حكومات المسلمين أيام كانت في أوج عزها و قوتها و خضعت لها الدول، كانت تخضع لحكم الإسلام، و ترضى أن تكون تحت رقابته و إشرافه، و الآن يسول لحكومات المسلمين العاجزة المهزولة ان تخرج على الإسلام و تتحكم هي عليه.

و قد يقول المجددون الأكياس لا حاكم هناك و لا محكوم عليه، و إنما يراد بالفصل أن يكون الدين و الحكومة مستقلين، لا يتدخل أي منهما في شأن الآخر.

لكني أعرف جيداً، و يعرف الإسلام الذي هو أكيس منهم، أن الجانب الذي يتولى السياسة و السلطة، لا بد أن يحكم على الجانب الذي تنازل عنهما، فيصير الدين المنعزل عن السياسة و السلطة، لا بد أن يحكم على الجانب الذي تنازل عنهما، فيصير الدين المنعزل عن السياسة كالخليفة الزائف عبد المجيد، الذي تنازل عن السلطة لمصطفى كمال، فكفى في إجلائه عن عرش خلافته الاسمية و عن بلاده في منتصف ليلة من الليالي، ورود أمر من أنقرة إلى مدير البوليس بالأستانة، و قيام البوليس بتبليغه أياه مع إيقاظه عن نومه بكلا معنييه.

و بالنظر إلى أن بلاد الإسلام تطلق في عرف الشرع على بلاد تحكم فيها قوانين الإسلام، و أن عزل الدين عن التدخل في أمور الدولة يُخرج تلك البلاد من عداء بلاد الإسلام....

فبالنظر إلى هذا و على الرغم منه إن كانت المخالفة لمبدإ الفصل و العزل معدودة من الجمود المعيب عند معاليه، و أمثاله من المجددين، فأنا أجمد الجامدين، و أحمد الحامدين لله تعالى على جمودي هذا؛ و باقي الكلام على مبدإ فصل الدين عن الدولة يأتي إن شاء الله في محله، الذي هو الباب الرابع من هذا الكتاب.

و كنت أود إرجاء الجواب أيضاً على قول معاليه في الدول الغربية المنتمية إلى الدين إنها لا تقصد منه سوى مظاهر الأعياد و المراسم، إلى ذلك الباب الذي ينتهي فيه الكتاب، و معنى قول معاليه هذا أن الأولى بالدول الإسلامية أيضا أن تكتفي في<164> ديانتها بما اكتفت به الدول المسيحية؛ لكن خطورة هذا المعنى تضطرني إلى أن أتعجل في الجهر بالحق.

فأقول: إن كون الدولة لا تقصد في ديانتها سوى مظاهر الأعياد و المراسم، ليس من الديانة الحقيقية في شيء؛ و إنما هو نفاق، أي ديانةٌ في الظاهر، و كفر بالدين في الباطن، إن كان الدين المسيحي يقتنع بهذا و ينخدع، فلا يقنع الإسلام و لا ينخدع به في المنتمين إليه أفراداً، أو جماعات متشكلة...

و لهذا، فنحن المسلمين إن كنا جادين في ديننا، معترفين بأننا تحت حكم الله و تكاليفه الواصلة إلينا بواسطة رسوله، فلا فرق بيننا في هذا الموقف منفردين أو

[72] بل المحسوسات أشد احتياجاً إلى تأييد المعقول من عكسه، فلا يمكن الاقتناع بوجود المحسوس لو لم يكن المعقول، و سيأتي بيان كل ذلك إن شاء الله.

مجتمعين، فكما لا يجوز أن ينفصل الفـرد المـؤمن بالله و رسـوله عن دينـه، فيكـون في أفعاله محـررا عن القيـود الدينية، لا يجوز لدولة تُعتبر دولـةَ المسـلمين فصل الـدين عن نفسـها، لتكـون الهيـأة الحاكمة فيها تفعل ما تشـاء، غير مقيـدة بـأمر الـدين و نهيـه؛ فـإذا خـرجت حكومة أمة مسلمة عن حدود دين الأمـة، من غـير ادعـاء لنفسـها حق الانفصال عن الدين، كانت حكومة فاسـقة كأحد المـذنبين من أفـــراد المســـلمين، و لم تكن حكومة مرتـــدة عن الإسـلام، لأنها فصـلت الـدين عن الدولة عمليا لا علميا و اعتقاديا؛ فينطبق عليها قول الله تعالى: {و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون}.

أما إذا خرجت عن حدود الدين مدعية لكـون الخضـوع لأمر الدين، و نهيه واجبا على الأمة دون الحكومـة، فهـذا فصل الـدين عن الدولة مبـدئياًّ، أي علميـاًّ و اعتقاديـاًّ؛ و هـذا ارتداد الدولة عن الإسلام، و ارتداد الأمة معها، إذا رضـيت هـذه الحالة لحكومتهـا، أو كـانت في حكم الراضـية بـأن تكـون الحكومة حكومة برلمانيـة، تحكم بالنيابة عن الأمـة؛ فينطبق عليهما حينئذ قوله تعـــالى: {و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}.

و موقف الحكومات الإسلامية من الإسلام، لا يقـاس على مواقف الحكومـات الغربية المكتفية من دينها المسـيحي بمظاهر الأعياد، لأن رجال تلك الحكومـات<165> اللـذين لا بد أن يكونـوا من عقلاء بلادهم، لابد أيضـاً أن يكونـوا غـير صـميميين في دينهم الـذي لا يتفق مع العقل -كما سـبق بيانه منا في أول هذا الكتاب- فيكتفون بالمظاهر احتراماً للعامة المتـدينين، و اعترافـاً بمصـلحة البلاد في احتفـاظ العامة بالدين.

بخلاف الإسلام، الذي تسير أصول الدين فيه مع العقـل، و يحق من هـــذه الحيثية أن يكـــون دين العقلاء، فلا يختلف خاصة المسـلمين عن عـامتهم في إخلاصـها للديانـة، بل يكون الخاصة أولى به من العامة....

و كتابنا على طوله يثبت هــذا المــدعى، حــتى أن مؤلفه يحتــاج عند كل دفــاع عن الإســلام إلى الــدفاع عن قيمة العقل و كرامته.

هذا، و مع كون الإسلام لا يقاس بالمسيحية إن كـانت هي يتسع صدرها لفصل الدين عن الدولة، فقد صـرح المصـلح المسـيحي المشـهور "كلفين" بالاسم الـذي يسـتحق أن تسمى به الدولة المتجردة عن الـدين، كما سـبق نصه في آخر الرقم (2).

5- [رد فريد وجدي على شيخ الإسلام في جريدة الأهرام]:

و انظر إلى قول الأستاذ فريد وجدي في "جريدة الأهرام" رداً على مقالتي في مسألة معجزات الأنبياء، و القارئ يرى مقالتي و مقالة الأستاذ المنشورة قبيل توليه الوظيفة الأزهرية... يراهما بتمامهما في ذيل الكتاب.

يقول الأستاذ[73]: [في تلك الأثناء ولد العلم الحديث، و ما زال يجاهد القوى التي <166> كانت تساوره، حتى تغلب عليها، فدالت الدولة إليه في الأرض؛ فنظر نظرة في الأديان، و سرى عليها أسلوبه[74]، فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا "الأساطير"، ثم أخذ يبحث في اشتقاق بعضها عن بعض، و اتصال أساطيرها بعضها ببعض، فجعل من ذلك مجموعة تُقرأ لا لتقدس تقديساً، و لكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية، التي كان يستعبد لها الإنسان نفسه، و يقف على صيانتها جهوده، غير مدخر في سبيلها روحه و ماله....

و قد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب، منذ أكثر من مائة سنة، فأخذ يرتشف من مناهله العلمية، و يقتبس من مدنيته المادية، فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا، و وجد دينه ماثلا فيها، فلم ينبس بكلمة، لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله]؛ ليتأمل القارئ هذه الكلمات؛ [و لكنه استبطن الإلحاد، متيقنا أنه مصير إخوانه كافة متى وصلوا إلى درجته العلمية]، ليتأمل القارئ.

[و قد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب و شعراء، وقفوا على هذه البحوث العلمية، فسحرتهم، فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها، دساً في مقالاتهم و قصائدهم، غير مصارحين بها غير أمثالهم من أن يقاطعوا، أو ينفوا من الأرض.

و قد عثرنا نحن في جولاتنا العلمية على ما عثروا عليه، فكانت صدمة كادت تقذف بنا إلى مكان سحيق لولا أن من الله علينا بوجود المخلص منها، و هو قوله تعالى: {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب و أخر متشابهات...}، الآية؛ فسجدنا شكراً، و قلنا: مانعة الصواعق، بل مانعة الغرق].

و أنا أقول: ماذا هو مناسبة كون القرآن مشتملاً على المحكمات و المتشابهات -حتى لو فرضنا المحال أن آيات المعجزات، و آيات البعث بعد الموت داخلة في المتشابهات لا المحكمات، كما زعم الأستاذ-... ماذا مناسبة هذا بكارثة حلت بالأديان؛ و هي كونها مقذوفاً بها بيد العلم الحديث في عالم الأساطير ثم جعلُ مجموعةٍ منها تُقرأ لا لتقدس تقديساً، بل تقرا كتاريخ الأديان، ليفهم منه الإنسان الحديث مبلغ حماقة قديمه، الذي استبعد نفسه لدينه، و ضحى في سبيله بماله و روحه؟

فهل كانت مانعةُ الصواعق، أو مانعة الغرق هذه -أعني متشابهات القرآن- منقذةً للأديان عامةً و للإسلام خاصةً، الذي رآه المسلمون الشرقيون المطلعون على علوم الغرب، مقذوفاً به مع سائر الأديان إلى حفرة الأساطير، فلم ينبسوا بكلمة في الدفاع عن دينهم، لكون حكم العلم -الذي هو صاحب الدولة اليوم في الأرض ضد الأديان- أكبر من أن يحاول دفعه محاول، فلهذا تركوا الدفاع عن دينهم، بل تركوا دينهم، و استبطنوا الإلحاد، و تمسكوا به، غير مصارحين الناس، متيقنين بأن مصيرهم أيضا الإلحاد متى وصلوا إلى درجتهم العلمية؟

كلا، لم تنقذ آية المتشابهات شيئا من ذلك، و إنما سجل الأستاذ فريد وجدي في كلمته هذه على كبار المثقفين من أهل الشرق الإسلامي باستبطان الإلحاد، و على نفسه بما يؤول إليه، و إن شئت فسمه باستبطان الاستبطان!!.

فلو فُرض أنا استقبلنا الملاحدة المعتدين على الأديان عامة، و الإسلام خاصةً بسلاح العلم الحديث الذي لا يؤمن إلا بما ثبت بالتجارب الحسية... لو فرضنا أنا استقبلنا سلاحهم بالسلاح الذي اخترعه الأستاذ فريد وجدي بك، و قلنا لهم: إن في كتاب الله المنزل على رسولنا آيات محكمات، و آيات متشابهات، لضحكوا منا، و من مناسبة كلامنا بدعواهم ضد الأديان؛ فهم لا يعترفون بوجود الله، لعدم كونه في متناول التجربة الحسية التي لا يعتمد العلم الحديث على غيرها، و نحن نقول لهم: إن في كتاب الله آيات كذا، و كذا!..

لكن مصر لم تضحك من الأستاذ فريد، و من تظاهره بالدفاع عن الإسلام، بل ولَّته إدارة مجلة الأزهر، و رئاسة تحريرها، ليستمر في الدفاع عن الدين من فوق منبر الأزهر بهذا الشكل المضحك لأعداء الإسلام، و أعداء الأزهر؛ و لم يضحك الأستاذ من نفسه، بل من المسلمين الغافلين <168> الذين انتدبوه للدفاع عن دينهم، و هو نفسه من الضاحكين مع أولئك الأعداء.

و كما لم تكن آية المتشابهات التي تمسك بها الأستاذ لإنقاذ الإسلام من قذف العلم الحديث به مع سائر الأديان إلى حفرة الأساطير، منقذة له منه، و منقذة لنوابغ الشرق الإسلامي، و فيهم الأستاذ نفسه من استبطان الإلحاد، و لم يوجد في تلك الآية أي مخلص من الصعق، أو الغرق؛ فكذلك لا تكون هذه الآية، و لن تكون بمنقذ للأستاذ من إنكار معجزات الأنبياء، و البعث بعد الموت؛ افتتانا منه بالعلم الحديث، الذي لا يعترف بالمغيبات الخارجة عن متناول التجربة في الزمان الحاضر.

فلا وجه إذن لتمسك الأستاذ بهذه الآية كعروة النجاة من الانزلاق إلى الإلحاد الذي انزلق إليه غيره من نوابغ الكتاب و الشعراء في الشرق الإسلامي، و كان هو الآخر نفسه موشكاً للإنزلاق لولا هذه الآية في كتاب الله...

لا وجه للتمسك بها دفعاً لتيار الإلحاد الجارف، إلا أن يكون معنى التمسك بها أن السبب في إلحاد هؤلاء النوابغ و انصرافهم من الأديان انطواء الأديان على أنباء من الماضي، و المستقبل لا يصدقها العقل، لمخالفتها السنن الكونية.

و لا العلم، لعدم إمكان وزنها بميزان التجربة، كظهور خوارق المعجزات على أيدي الأنبياء السالفين، المعروفين بأسمائهم في الكتب المقدسة، و بعث الناس من قبورهم للنشأة الآخرة، بعد أن ماتوا، و أكلت الأرض أبدانهم.

فالأستاذ فريد على زعمه، أو بالأصح على ما يتظاهر منه؛ حل هذه المشكلات التي أخرجت غيره من دينهم، بآية المحكمات و المتشابهات، فكأن هذه الآية تقول إن أنباء الخوارق الماضية و الآتية، المذكورة في كتاب الله لم يرد الله بها ما يفهم الناس منها، لكونها من قسم المتشابهات، التي تنقسم آيات القرآن إليها، و إلى

---

[73] قول الأستاذ هذا سبق ذكره مني مراراً بعينه، أو بصورته الملخصة، و سأذكره كذلك بنصه، أو بخلاصته عند كل مناسبة تقتضيه، فقد عزمت على ذلك، و وعدته للقارئ في أوائل الكتاب؛ لأني وجدته حجة ضد الأستاذ و من على عقليته من ضعاف الإيمان بالإسلام أفلتت من قلمه عند أول ما التقينا في حلبة المناظرة على صفحات الأهرام؛ و كان مقصوده من هذا الإفشاء عن الشرق الإسلامي المنهزم أمام سلاح العلم الحديث، تهديدي بسمعة ذلك السلاح عند المنهزمين، و مقصودي من تكرارها عكس سلاح الأستاذ عليه، و الاستمرار في تذكيره بأني لا أعبأ بذلك السلاح الذي غالى في إعظامه.

[74] يريد بـ "أسلوبه": قانونه القائل بأن: "كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا يعتد به".

المحكمات، فلا معاني لها مفهومة، و لا مطلوبة الفهم؛ و ما أراده الله بها مستور عنا.

لكنه يـرد على حمل التمسك بالآية المـذكورة على هـذا المعـنى، أن فيه تصـديقاً للعقلية<169> غـير المعترفة بالمغيبات الخارجة عن متنـاول التجربة الحسـية، و يـدخل في هذه العقلية عدم الاعتراف بوجود الله أيضا، كما قـال الأستاذ فرح أنطون: [إن في رأس الـدين الإيمـان بخـالق غير منظور].

فليس الله على هـذه العقلية بموجـود، أي ثـابت الوجـود، حتى يكون له كتاب منزل كـالقرآن، وي كـونَ في آية من آيات ذلك الكتاب حلُّ شبهة الأستاذ، و إنقاذه من المشكلة العلمية، التي تسوق الإنسان إلى أعماق فكـرة الإلحـاد، و قد ساقت إليه غيرَه من نوابغ الشرق الإسلامي، الذين لم يطلعوا على ما اطلع عليه ذكاء الأستاذ من الآية المذكورة المنقذة.

فتبين أن الأستاذ لم يكن له أي نفع من الآية الـتي تمسك بهـا، يجعله مختلفاً عن الملاحـدة النوابـغ، فهو كهـؤلاء لا يعترف بما يعترف به العلم الحديث، الذي هو سائقهم إلى الإلحاد، فينكر المعجزات، و سائر المغيبات كما ينكرون.

بل الأسـتاذ أسـخف موقفـاً منهم، لأنهم على الأقل لا يضيفون إلى ضلال الإلحاد الذي في إنكار المغيبات ضلالاً آخر، هو حمل آيـات المعجـزات و آيـات البعث بعد المـوت، الصـريحات المالئـات للقـرآن، على المتشـابهات غـير مفهومة المعـاني، لكن الأسـتاذ ينكر المغيبـات، فيلحـد، و يقيم على إلحـاده دليلاً من القـرآن[75]، فيلغي بهذ الـدليل آيـات لا تحصى من القـرآن، و يخليها عن المعـنى المفهوم<170>.

و كـان الأسـتاذ قد كتب عليه مقالتـه، الـتي نقلنا الجمل السابقة منهـا، مقالة ادعى فيها اسـتحالة كل ما ورد في القرآن من قصص معجزات الأنبياء عليهم السلام، و قصة أصـحاب الكهـف، و خـروج دابة من الأرض تكلم النـاس، و خـروج المـوتى من قبـورهم للحشر و الحسـاب.... ادعى اسـتحالة كل ذلك عند العقل و العلم، ثم رد تلك الآيـات الواردة فيها، و التي تكاد تكـون من كثرتها و تكرارها ربع القرآن، إلى متشابهات غير مفهومة المعاني.

و كان سبب ردي عليه في مقـالات نشـرتها "الأهـرام"، و قد جمعتهـا، و كتبتها في آخر هـذا الكتـاب مع مقـالات الأستاذ التي قابل مقـالاتي بهـا، لتسـهل المقارنة بينهما للقارئ<171>.

و لا شك أن تلك الأمـور المـذكورة، الـتي أنكرها الأسـتاذ زاعمـاً عـدم إمكانهـا، لا يراها المعتقـدون للأديـان، و المقتنعـون بوجـود اللـه، خارجة عن متنـاول قدرتـه، المحيطة بجميع الممكنـات -و هي ممكنة في حد ذاتهـا-، فلا يترددون في تصديق أن ما نطق به كتاب الله من أنباء المعجزات، قد وقع كلها في عهود الأنبيـاء الماضـين، كما نطـق، و فُهِمت معانيهـا، و تفهم حـالاً و اسـتقبالاً فهمَ معاني أوضح آيات الكتـاب، كما أن من نطق به من أحـوال النشـأة الآخـرة فُهمت معانيهـا، و آمن بها المؤمنـون في كل عصـر، و كيف لا تُفهم، و قد خصـها الله سـبحانه بالاعتناء بتفهيمها.

فـيرى قـارئ كتـاب الله في آياتـه، الـتي قلما تخلو عنها سورة من سوره، كيف يجـادل القـرآن منكـري البعث، بعد أن كـان الإنسـان ترابـاً، أو عظامـاً نخـرةً، و يتشـدد في محاجتهم؛ حتى إذا قال أحد من الناس المدعين لأنفسهم الفهم أكثر من غـيرهم، أو المتسـاوين معهم في الفهم: "لا أفهم تلك الآيات"؛ كان ذلك معاندة القرآن، لا أكـثر، و لا أقل؛ و هذا كما تحدى الله بما أظهره على أيـدي رسـله إلى الناس من المعجزات، منكري رسـالاتهم في القـرون الماضـية، و قد أظهرها الله لإعجـازهم عن المعارضة بأمثالها؛ و قصها القرآن تـذكرة، و عـبرة للخلف من عجز السـلف، لا لإعجـاز الخلف عن فهم ما وقع للسـلف مع أنبياءهم.

فهل يمكن بعد هذا و ذاك أحداً ممن يؤمن باللـه، و كتبـه، و رسـله، و اليـوم الآخـر؛ أن يبلغ به اسـتبعاده لوقـوع معجـزات الأنبيـاء فيما مضى من الزمـان، كما قصـها الله علينا في كتابـه؛ و وقع البعث بعد المـوت في مسـتقبل الزمان، كما أخبر الله بـه، فيما لا يحصى من آيـات كتابـه، مبلغ أن يقـول: "لا أفهم مـاذا يقـول الله في تلك الآيـات الكثيرة، و لا يفهمه أحد من أصحاب العقول، فتلك الآيـات آيــات متشــابهة، خارجة عن طـــور الفهم لما أراده من معانيهـا، كما أن المعـاني الظـاهرة منها خارجة عن طـور العقل و الإمكـان..."؛ فـإن بلغ به اسـتبعاده لما نطقت به تلك الآيـات الصـريحات الصـارخات، مبلغ أن يقـول هـذا القول كـان ذلك إنكـاراً مضـاعفاً لتلك الآيـات و ما نطقت هي به<172>.

لا، لا، إن دعـوى كـون تلك الآيـات من المتشـابهات غـير المفهومة، احتقار من الأستاذ لقراء كلامه، بنسـبتهم إلى العجز عن فهم ما يـرمى إليـه، بـدعواه من عـدم إيمانه بصدق تلك الآيـات، أو إشارةً منه إلى أن في مصر يقـول من شـاء ما يشـاء، و لا يخـاف تبعة ما قالـه؛ لا من حيث حرية القــول الدسـتورية، بل من حيث أنه لا تــراعى بها حرمة القول و كرامته، فيُلقى به جزافاً، و لا يُبـالى بكونه حقاً، أو باطلاً، أو مصادماً للبـديهي؛و إنما يبـالى بأسـلوب

---

[75]لا أريد أن أتهم الأسـتاذ بـالكفر، و الإلحـاد، و لا أخاله ينفي وجـود الله عمـداً؛ فهو ليس غـير رجل متقلب في شـكه الـذي اسـتفاده من العلم الحديث، و ربما تـراه في بعض تاراته و تطوراته خصـماً على هـذا العلم، الذي أكبره هنا كل الإكبار؛ تراه خصماً هاجمـاً عليـه، من غـير تخلص عن مخالب إضلاله....

لا أريد أن أتهمه، و إنما ألفت النظر إلى ما يلزم أقواله، التي صرح بهـا، أو يستنتج منها، و أنا أعرف أيضاً عدم جواز الحكم في حق أحد بما يلزم قوله، أو يستنتج منه؛ و أعترف بأن لزوم الكفر ليس بكفر؛ و إنما الكفر في التزامه، كما أن لازم المذهب ليس بمذهب، إلا أن يكون اللـزوم في المسألتين لزوماً بيناً؛ إذ عند ذلك يكون اللزوم في قوة الإلتزام.

أعرف كل ذلـك، و ليس لي أي عـداوة أو خصـومة نحو الأسـتاذ؛ لكن من واجـبي في هـذا الكتـاب، و قد أردت أن أكـون مشخصـاً للـداء العصـري، الـذي أصـيب به المسـلمون المتعلمـون في دينهم، حق التشـخيص، ثم مــداويهم بكل ما أوتيته من قـــوة، و ألهمته من حجة -أن أتتبع أقـــوال الأساتذة العصريين، و أتعقبهـا، فربما يكـون لازم القـول الـذي لا يكـون عقيدة لقائلـه، مـذهباً متبعـاً لكثـير من الـذين اتخـذوا ذلك القائل قـدوة لهم؛ فيكـون فيما لا يضر القائل -إن فرضـنا ذلـك- ضـرر عظيم لقرائـه، فيجب تنبيههم عليه؛ لأني كتبت هذا الكتاب للقراء المحايدين، الصـادقي الرغبة في معرفة الحـــق، و اتبـــاع ما هو الأحق بـــالقبول، و لم أكتب للأسـاتذة الـذين ناقشـتهم، و أنا أعـرفهم، لا يعـترفون بأخطـائهم مهما تبينت عند النقد، لأنهم مرتبطون بما وصل إليهم من مـذاهب الغربـيين، فلا يحيدون عنه، و حسبك أنهم لا يعتدون بالأدلة المنطقية، فأصـبحوا لا دواء لدائهم؛ كما قال الشاعر:

جنونك مجنون، و لست بواجد * طبيبا يدواي من جنون جنون

و حسبك أنهم لا يثقون بغير ما ثبت بالتجربة الحسية، و قد قال الأسـتاذ فريد وجدي: "كل معقـول لا يؤيـده محسـوس، فلا يعتد بـه"؛ لأن ذلك ما وصل إليه من علم الغـرب، و مقتضى هـذا عـدم ثبـوت وجـود الله ثبوتـاً علميـاً، لأنه لا يـدخل تحت التجربة الحسـية؛ و على الأقل لم يـدخل إلى الآن.

ثم إن الأسـتاذ رغم هـذا المـانع العلمي، يصـدق بوجـود اللـه، لأن كبـار العلمـاء في الغـرب مثـل: "كـانت" الألمـاني، يؤمنـون باللـه، و لا يسع الأسـتاذ أن يخـالفهم، و هو أي "كـانت" لا يبـني إيمانه على دليل عقلي نظـري، بل على دليل سـماه دليلاً أخلاقيـاً، أساسه الإيمـان بالنشـأة الأخـرى، كما سـيأتي تفصـيله في هـذا الكتـاب؛ لكن الأسـتاذ لا يـؤمن بالنشـأة الآخـرة، و يـرد آيـات البعث بعد المـوت أيضـاً، إلى متشـابهات القـرآن، فلا يتمشى مذهبه في الإيمـان بالله مع مـذهب "كـانت" أيضـاً؛ فهل يستطيع أحد من العقلاء المنصفين أن يقـول معتـذراً عن الأسـتاذ: ليس في رد آيـات البعث بعد المـوت في القـرآن إلى المتشـابهات غـير مفهومة المعاني، و لا سيما مفهومة المعاني لاستحالتها؛ إنكـار للنشـأة الآخرة؟

الإلقاء، و بما في القول من إرضاء هوى محمي بقـوة من القوى الزمنية....

فقد قرأت لأحد من كبار الأساتذة بمصـر -المرحـوم عبـد الله عفيفي بـك- أنـه كـان يـدعي في مناقشـة واحـد من أعيان محرري "الأهرام"، أن الشاعر المتنبي لم يهجُ الأمة المصرية في مناداتها بقوله:

> يا أمة ضحكت من
> جهلها الأمم

في قصيدة له في هجاء كافور[76]<173>.

و هنا شـيء آخـر، و هو أن منكـري معجـزات الأنبيـاء، و النشأة الأخرى، يكونـون فيما نعرفه من منكـري الأديـان، أما الجمع بين إنكار المعجزات، و إنكار اليوم الآخر، و بين ادعــاء الإسـلام، و رئاسة "نــور الإســلام"[77]؛ فهــذه أول قارورة كسـرت، و أعجب حادثة وقعت من عجـائب مصـر، التي تباري أمريكا بلاد العجائب.

و قد كان الشـيخ محمد عبـده أورد في كتـاب "الإسـلام و النصرانية" أمثلة في تاريخ الخلفـاء عن سـماحة الإسلام، فلو عاش، و رأى الأسـتاذ فريد وجـدي بك في رأس "نـور الإسلام"، و "مجلة الأزهر"، لأضاف مثـالاً هامـاًّ إلى أمثلة سماحة الإسلام، و شاهداً إلى شـواهدها؛ و لاعـترف بـأن الأستاذ بقوله في تفسير آيـات المعجـزات، و آيـات البعث قد ضرب الرقم القياسي الذي وضـعه الشـيخ في تفسـير سورة الفيل!!

و كــانت قد أدهشــتني عقلية الأســتاذ فريد في زعم أن معجـزات الأنبيـاء مسـتحيلة عند العقـل، و كـذا البعث بعد الموت، طبق زعم الملاحدة من الماديين، و الطبيعـيين؛ و زعم أن هــذا الحكم باســتحالتهما مقتضى العلم، كما أنه مقتضى العقــل؛ و هو يعلن عقليته هــذه على صــفحات "الأهرام"؛ و لا يقابلها الرأي العام الإسلامي بالاســتنكار؛ حتى و لا إفشاءه عن نوابغ البلاد الإسلامية من الكتـاب، و الشعراء في استبطانهم الإلحاد، و تمسكهم بهـا، تماشـياً مع العلم و العقل؛ و لا يكـون بين إعلان هـذه العقلية عن نفسه، و عن وابغ الشرق الإسـلامي، و بين تعيينه لرئاسة "مجلة نور الإسلام"ـ الأزهرية إلا بضعة أيام[78]<174>.

ســاورتْ أفكــاري هــذه الأحجيـات الغامضـة، حـتى اطلعت على المناظرة القلمية بين الشيخ محمد عبـده، و الأسـتاذ فــرح أنطــون صــاحب "مجلة الجامعــة"، الــذي ادعى في غضــون المنــاظرة أن جميع الأديــان تتنــافى مع العقل و العلم، و لم يتغلب الشـيخ المنـاظر على خصـمه، أو على الأقل لم يقتنع الرأي العام الثقافي بغلبته عليه، بل تــأثر الشيخ نفسه من عقلية الأسـتاذ[79]، و لم يسـلم عن التـأثر بها حتى بيئة الأزهر.

و بفضل هذا الاطلاع، انحل عليّ كثـير من الألغـاز العجيبة المصرية، حتى أصبح مفهومـاً سر اسـتقبال "كتـاب حيـاة محمد"، الذي سـعى مؤلفه جهد طاقته لإخلاء حياته صـلى الله عليه و سلم عن المعجزات؛ برغبة عظيمة من القراء، اســتلزمت طبعه مــرة ثانيــة، قبل أن يمضي على طبعته الأولى ســـنة، و ما كفت ثانية الطبعة في ريّ الرغبــات المتعطشة حتى احتيج إلى ثالثة... أصبح سره مفهومــاً، و معه سرّ تقريظ الأستاذ الأكبر المراغي للكتاب المذكور.

فبعد أن رأيت بمصر ذلك التيار، الذي يقلب الحقائق رأساً على عقب فيعد الديانة جهلاً و غبـاءً؛ و الإلحــاد علمــاً، و عقلاً، و نبوغاً؛ و قد علا التيار حتى تسـلق منـبر الأزهر، و بعد<175> أن رأيت بها من العجــائب باسم العلم ما يعتــبر الممكنـات مسـتحيلات؛ في حين أن العلم يسـعى، فيكـاد يجعل المسـتحيلات ممكنـات؛ و باسم الــدين و تأليفه مع العقل و العلم، ما يلفي ربع القرآن، و يخليه عن المعــنى باسم المتشابهات....

بعد أن رأيت كل هذا، أصبح عنـدي من الـواجب كبح جمـاح المقتنعين، و المغترين بالدعاوى الإلحاديـة، تقليـداً منهم، و انخــداعاً بما سـمعوا من بعيـد، أن في الغـرب علومـاً مثبتــةً، و علمــاء إثبــاتيين، و على التعبــير المصــري: "وضعيين"؛ لا يعترفون إلا بما يشهد به الحس، و ينكــرون ما وراء ذلك، لعدم ابتنائه على أساس صحيح من العلم.

فمنهم الأسـتاذ فـرح أنطـون منـاظر الشيخ محمد عبـده، الـذي يقـول: [إن العقل و العلم لا يعترفـان بوجـود اللـه، لعدم كونه منظوراً بالعيون؛ و كذا كل ما جاءت به الأديان، و لم يدخل تحت المشاهدة و التجربة لأهل هذا العصر من المعجزة، و الوحي، و النبوة، و البعث، و الجنة، و النار].

و منهم نوابغ الكتاب، و الشعراء المسـلمون، الـذين شـهد الأستاذ فريد وجدي بك باسـتبطانهم الإلحـاد من غـير ذكر اسمائهم.

و منهم الأستاذ المذكور نفسه، المنقـول كلامه من قبـل، و هو ينص على أن: [الأديــــان لا تــــأتلف مع العلم؛ فهي

---

[76] و في مصر التي أصبح فيها العلم عبارة عن تحسين الكلام، و تزيينـه، لم يحتفظ الكلام أيضا بقيمتـــه، و لم تعد صـــلة صـــحيحة بين اللفظ و مدلولـه، إذ لا يقـرأه القـارئ -من تعويـدة الكتـاب عليـه- على أنه كلام صـادق، و إنما يقـرأه على أنه قـول بليغ جـاذب؛ و هـذا هو الـذي تواضع الكتاب، و قراؤهم عليه؛ و هذا هو ما ينتظره القراء من الكتاب؛ فلو شذ أحد و اهتم فيما كتبه بمطابقة الواقــع، ذهب اهتمامه هــدراً، فــارتفع الأمــان من تــأثير القائل بقوله في قلب الســامع، من ناحية مطابقته للواقع؛ و إذا كان قول الله في كتابه عن معجزات أنبيائه، و بعثه النـاس عن قبـورهم للنشـأة الآخـرة، و ما بعد البعث من الحشـر، و الحسـاب، و الثواب و العذاب؛ لا يؤثر في قلب قارئ القـرآن، على ما تلقـاه الأسـتاذ فريد وجـدي، بوقـوع تلك المعجـزات في سـالف الزمـان، و وقـوع تلك الأحــوال الأخروية في المســتقبل، فما ظنك بما يقوله الإنســان ليــؤثر بقوله في نفوس سامعيه.

ثم إنك لو أردت مثلا أن تمـدح أحـداً بما يسـتحقه، فقد قيل بمصر فيمن هو أدنى من ممــدوحك، بما هو أكــثر من قولك و أغلى؛ و إن شـئت أن تهجو أحـداً بما يتفق مع حالتـه، فقد هجي في مصر من هو أهـون شـراًّ من مهجوك، بما هو أشد، و أمر من قولك الذي وازنته مع المقول فيه و قدرته بقـدره؛ و قلما يقـرأ كتـاب في مصـر، و يشـاد بـذكره من دون محسـوبية، كما أن المـوظفين يعينـون لوظـائفهم، و ينـالون فيها المنح بهذا الشكل، و أكبر المحسـوبيات الـتي تنـال بها كبريـات الوظـائف، هو المحسوبية المتصلة بالإنجليز، ثم الأقوى، فالأقوى من القوى الداخليــة، المختلفة الألـــوان، و ليس للحق أي نفـــوذ بجنب هـــذه القـــوى، فمن العجــائب أن الجريـــدة المعروفة الإنجليزية "تيمس"، كــانت هي الــتي رشحت الأستاذ المراغي لمشيخة الأزهر الشريف في المرة الثانية.

[77] اسم لـ "مجلة الأزهرية" في مبدإ تولي الأستاذ الوظيفة.

[78] و من العجائب أن الشيخ المرحوم الظواهري، الـذي كـان شـيخ الأزهر يومئذ، يقول في مذكراته التي نشرها ابنه بعد وفاته (ص 289)، متعمدا لتبرير هـذا التعـيين، و متحملا لأوزاره عند اللـه: "عند انتشـار مجلة نـور الإسلام، أوصاني توفيق نسيم باشا بتعيين صـديقه عبد العزيز محمد بك "الباشا وزير الأوقاف سابقا"؛ مديراً لها، و أثـنى عليه كثـيراً، فعينتـه، و لكن بالأسف وجدته بعد ذلك غـير كفء لهـا، فأبعدتـه، و عينت الأسـتاذ فريد وجدي بدله، فتألم توفيق نسيم باشا من ذلك كثيراً، و كان هـذا من ضمن مخاصمته لي فيما بعد..."؛ و كـان المعقـول للأسـتاذ فريد وجـدي بـك، الـذي ثبت في منصـبه الأزهـري على طـول عهد مشـيخة الأسـتاذ المـراغي الثانيـة، أن يكـون تعيينه أيضـاً في ذاك العهـد، و لا أدري من أوعز إلى الشيخ الظواهري الضعيف الإرادة بهذا التعيين السابق لأوانـه، و لم يبعد الشيخ الظواهري في هذا التبديل عبد العزيز بك محمد فقـط، بل أبعد معه عن "المجلة الأزهرية" فضيلة الأستاذ محمد الخضر حسـين، لعدم إمكان اتفاقه مع الأستاذ فريد وجدي في المبادئ، فاستبدل بهذين الرجلين المؤمنين بمعجزات الأنبيـاء، و النشـأة الآخـرة من أنكرهما على صفحات الأهرام، و لم يجف مداد الإنكار بعد.

[79] و كان الشيخ قبل مناظرته الأستاذ تحت تأثير مشـكك آخـر؛ و من أجل ذلك قابل شبه خصمه في مناظراته هذه بإيمـان ضـعيف، لا يكفل لحجته النجاح و الغلبـة؛ و لو لم يكن الشـيخ تحت هـذه المـؤثرات لما وسـعه أن يـذهب في تفسـير بعض آيـات القـرآن الحكيم إلى تـأويلات سـخيفة، لا يقبلها العقل و الذوق السـليمان؛ كقوله في عـرش بلقيس إنه لم يـؤت به سـليمان عليه السـلام، كما هو مقتضى صـراحة القـرآن، و إنما صـنع مثلــه، و قوله في انفلاق البحر لموسى عليه السـلام، ثم انطباقه على فرعون و جنوده إنه كان جزراً و مداً.

منبوذة بيد العلم، إلى عالم الأساطير، و كل ما رود في كتبها المقدسة مما ذكرنا فمن المستحيلات في نظر العلم و العقل، و غاية ما يقال في تأويلها أنها متشابهات غير مفهومة].

و قد كان من جملة أقوال الأستاذ فريد وجدي المنقولة: [إن الشرق الإسلامي لما اتصل بالغرب، و ارتضف من مناهله العلمية، و وقف على الميتولوجيا، و الأديان المقذوف بها فيها، و وجد الإسلام أيضا بين تلك الأديان، لم ينبس بكلمة؛ لأنه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله؛ و لكنه استبطن الإلحاد، و تمسك به متيقنا أنه مصير إخوانه كافة، متى وصلوا إلى درجته العلمية...].

ففي هذا القول شيء كثير من المغزى، جدير بأن تطال عليه وقفة التأمل؛ رجال من نوابغ البلاد الإسلامية، يستنبطون الإلحاد، و يتسترون في تهيئة الأذهان لقبوله، و لا يصارحون به غير أمثالهم، لئلا يقاطَعوا، أو ينفوا من الأرض، مع أن الأستاذ يعرف أن الإلحاد في زماننا لا يكون مدعاةً لنفي الملحد، أو مقاطعته، بل يهيئ له<176> مركزاً و أنصاراً، بقدر ما يهيء له من الأذهان الجديدة، فضلا عن المهيِّئين، و المهيَّئين من قبل.

و إنما السبب في اجتنابهم المصارحة لغير أمثالهم أن الدعوة إلى الإلحاد من وراء الستار تكون أنجح، و هم يعرفون ذلك، كما يعرف الأستاذ، و يقلدهم في السعي من وراء الستار.

ثم لا شك أن الأستاذ صور نفسه حين يصور الشرق الإسلامي الذي أخبرنا باستبطانه الإلحاد، بسبب اتصاله بالغرب و علومه، إذ لا معنى لاستبطان الشرق الإسلامي، و خصوصاً لا معنى لقوله: [و تمسك به متيقناً أنه مصير إخوانه كافة، متى وصلوا إلى درجته العلمية!]؛ لأن ذلك القول لا ينطبق على الشرق الإسلامي، فمن هم إخوان الشرق الإسلامي الذين سيكون مصيرهم مصيره في الإلحادث، متى وصلوا إلى درجته في العلم[80]؟

و الحق أنه لا معنى لهذا البيان، فليس مراده من الشرق الإسلامي إلا نفسه، و إخوانه، الذين ينتظر أن يكون مصيرهم مصيره، إخوانه...

ثم ذكر أن في البلاد الإسلامية نوابغ مثله من الكتاب و الشعراء، يستبطنون الإلحاد، و يهيئون الأذهان لقبوله دساً في مقالاتهم و قصائدهم كما يدس الأستاذ...

فإن كان للفقرة المتقدمة من كلام الأستاذ معنى غير ما ذكرنا، كانت هذه الفقرة الثانية تكراراً للأولى من غير طائل[81]<177>.

و كان دس الأستاذ أبلغ، و أقرب إلى المصارحة، لاسيما في قوله: [لم ينبس بكلمة، لما رأى دينه ماثلاً بين الأديان المقذوف بها إلى عالم الأساطير؛ لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله....].

يعني أنه يرى غير ممكن أن ينقذ دينه، فيخرجه من الحفرة التي قذف به إليها مع سائر الأديان، بأن يدافع عنه بالمحاجة، فقد سجل على نفسه نيابة عن الشرق الإسلامي بالعجز عن الدفاع عن الإسلام، و لقن من يحاول الدفاع عنه درس اليأس؛ و بهذه تم الدس.

و قد جاءت كتابه هذه الكلمات من الأستاذ جواباً عما كتبته في الرد على مقالته الأولى، فكأنه حاول تهديدي بسلاح العلم الحديث، قائلاً: إن هذه المسائل التي تصر أنت على الاحتفاظ باعتقادها، و توصي بها للناس، ليعضوا عليها بالنواجذ، قد قذف بها العلم الحديث -الذي له الدولة اليوم في الأرض-، قذف بها مع الأديان المنطوية عليها إلى حفر الأساطير....

و قد جرى قبلك أمور أنت في غفلة منها، و هي أن متعلمي الشرق الإسلامي بعد الاتصال بعلوم الغرب، رأوا دينهم في تلك الحالة المنبوذة، فلم يستطيعوا أن يتكلموا في الذود عن دينهم كلمة....

قاله، و ظنني أتهيب كون القاذف بالأديان جملة هو العلم، و أكم فمي، كما تهيب الشرق الإسلامي و كم فمه؛ و قد عرفت أنه كنى بالشرق الإسلامي عن نفسه؛ أو ظنني أشوب دفاعي عن كرامة الدين الإسلامي<178> بشيء من التخويف، و التقهقر أمام ذلك السلاح الراقي، كما شاب الشيخ محمد عبده في مناظرة الأستاذ فرح أنطون لما حمل عليه الأستاذ بسلاح فصل الدين عن الدولة الذي تمسك به الغربيون، فتقدموا على زعمه بفضل هذا التمسك، و أهمله المسلمون فتأخروا.

فجعلته -أي الشيخ- هذه الحملة يتقهقر أمامها، و يهاجم علماء الدين، بدلا من خصمه، متهماً إياهم بالجمود، و محمِّلاً عواتقهم وبال تأخر المسلمين؛ فكأنه لولا جمودهم الذي يمنعهم من الأخذ بكل جديد لاقتبس المسلمون مبدأ الفصل أيضا؛ كأنه لا مانع من العمل به غير جمودهم؛ أو كأنه لا جواب عن مسألة إهمال هذا المبدإ غير الطعن في علماء الدين بدلا من الطعن في مبدإ الفصل نفسه.

لكن الأستاذ سيراني إن شاء الله أصمد، و لا أتقهقر أمام أي خصم في الدفاع عن الإسلام، حتى و لو كان الخصم علماً من العلوم، أو بالأصح و لو كان زعم كثير من الناس كذلك؛ لأن لي عقيدة راسخة، و إيماناً ثابتاً، يكفلان لي بأن الإسلام يعلو و لا يعلى عليه، و أنه لن يجعل الله لكافرين على المؤمنين سبيلا.

أما تظاهر الأستاذ بالدفاع عن الإسلام، بعد أن لقن الناس درس اليأس عن الدفاع، برد ما في القرآن من أنباء المعجزات، و البعث عن القبور للحشر، و الحساب، و الثواب، و العقاب... برد كل ذلك إلى المتشابهات؛ فلا يزيد على العجز الذي سجله على نفسه في تسجيله على الشرق الإسلامي، بشيء غير ما يشبه قولهم: "عذره أقبح من ذنبه"؛ إذ ليس معنى رد تلك الأنباء إلى المتشابهات إنكار ما جاء عنها في القرآن بلطف، بل معناه إنكاره بأقسى تعبير و أشنعه...

ففيه تكذيب القرآن، بادعاء أن ما ورد فيه على صورة الواقع، غير واقع؛ و فيه تجهيل القرآن، بادعاء أنه لا يميز

---

[80] و من العجائب أن مشيخة الأزهر تحاول دعوة الغرب إلى الإسلام، بواسطة ترجمة القرآن إلى لغات الغربيين في حين أن الشرق الإسلامي يستبطن الإلحاد على قول رئيس تحرير "مجلة الأزهر"، و "نور الإسلام"؛ فهل لا يلزم إذن أن يكون الشرق الإسلامي أحوج إلى الدعوة إلى الدين قبل الغرب؟ و إن كان المراد من الشرق الإسلامي المستبطن للإلحاد هو الأستاذ نفسه، أعني رئيس تحرير مجلة الأزهر، تبتدئ الحاجة إلى الدعوة من دعوة الأزهر، و تسفتحل الرزية.

[81] مثلا؛ إن الأستاذ لا يصدق، أو على الأقل يلزمه أن لا يصدق بخارقة تولد المسيح عليه السلام من مريم البتول، بسبب كونها مخالفة لقانون العلما لطبيعي، و يرد قول كتاب الله فيها إلى المتشابه، كما رد إليه سائر آيات المعجزات بعين السبب، و نص الكتاب هكذا: {و اذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا * فاتخذت من دونهم حجابا فارسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا * قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت أنى يكون لي غلام و لم يمسسني بشر و لم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو علي هين و لنجعله آية للناس و رحمة منا و كان أمرا مقضيا * فحملته فانتبذت به مكانا قصيا}؛ و لينظر القارئ كيف تكون هذه الآيات الصريحة متشابهة غير مفهومة؟

نعم، فيها من التشابه قوله تعالى فقط: {فأرسلنا إليها روحنا}.

المحال من الممكن، فيحدث عما لا يمكن وقوعه في صيغ الواقع[82].

و فيه مع ذلك رمي القرآن بالفشل<179>، و الإخفاق في محاجة المنكرين، فلا يحصل على شيء من غير إضاعة أنفاسه، حيث يجتهد ليقيم شواهد على قدرة الله و صدق أنبيائه بالمعجزات، التي أخبرنا بظهورها على أيديهم، فتكون نتيجة عجز الله عن خلق تلك المعجزات، و عن تفهيم الناس أنباءها المسرودة في كتابه المنزل على خاتم رسله.....

ففضلا عن إقناعهم بوقوعها، يأتي بالقول المتشابه بدلا من المقنع؛كما أنه أي القرآن يحاول محاجة المنكرين لليوم الآخر، استبعاداً منهم لبعث الموتى عن قبورهم بعد أن كانوا تراباً، بإيضاح قدرة الله عليه في فنون من أساليب الإقناع، و أمثلة القدرة، ليقربه من الأفهام، فلا يستطيعه، و يقضى عليه بالفشل، فهو حينما يقول مثلا في آخر سورة يوسف: {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حدثا يفترى و لكن تصديق الذي بين يديه.....}، الآية.

و فيما يقول: {ذرهم يخوضوا و يلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي يوعدون}.

و فيما يقول: {فلينظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب و الترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة و لا ناصر و السماء ذات الرجع و الأرض ذات الصدع إنه لقول فصل و ما هو بالهزل...}.

وفيما يقول: {و نادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين< 180> الذين يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجا و هم بالآخرة كافرون}.

و فيما يقول: {فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أإنك لمن المصدقين، أإذا متنا و كنا ترابا و عظاما أإنا لمدينون؛ قال هل أنتم مطلعون فاطلع فرآه في سواء الجحيم قال تالله إن كدت لتردين و لولا نعمة ربي لكنت من المحضرين أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى و ما نحن بمعذبين إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون}.

و فيما يقول: {و أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا و لكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذي يختلفون فيه[83] و ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون}.

و فيما يقول: {و من آياته خلق السماوات و الأرض و ما بث فيهما من دابة و هو على جمعهم إذا يشاء قدير}.

و فيما يقول: {زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى و ربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم و ذلك على الله يسير}.

و فيما يقول: {يخرج الحي من الميت و يخرج الميت من الحي و يحيي الأرض بعد موتها و كذلك تخرجون}.

و فيما يقول: {أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد}.

و فيما يقول: {أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات و الأرض و لم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير}<181>.

و فيما يقول: {ق و القرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب أإذا متنا و كنا ترابا ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم و عندنا كتاب حفيظ}.

و فيما يقول: {لا أقسم بيوم القيامة و لا أقسم بالنفس اللوامة أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه؛ بلى قادرين على أن نسوي بنانه؛ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه يسأل أيان يوم القيامة}.

و فيما يقول: {ويل للمكذبين الذين يكذبون بالدين و ما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون}.

و فيما يقول: {ويل يومئذ للمكذبين فبأي حديث بعده يؤمنون}[84].

و فيما يقول: {يوم يقوم الروح و الملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن و قال صوابا ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه و يقول الكافر يا ليتني كنت ترابا}.

و فيما يقول: {فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض و السماوات و برزوا لله الواحد القهار و تروي المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرابيلهم من قطران و تغشى وجوههم النار ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس و لينذروا به و ليعلموا أنما هو إله واحد و ليذكر أولو الألباب}.

في كل ذلك و أمثاله التي لا تحصى من كثرتها؛ يلزم على رأي الأستاذ فريد وجدي<182> أن يكون القرآن ببلاغته المسلمة لم ينجح في مهمته، و لم يقم بحجته، و إنما أتى بعبارات غير مفهومة؛ و إذا لم ينجح القرآن في تفهيم قدرة الله على إنشاء الناس بعد موتهم و كونهم تراباً؛ نشأة ثانية، بالرغم من كمال اعتنائه بتفهيم ذلك فليس بناجح فيما سواه من مقاصده، و لم يبق معنى لكونه في أعلى درجات البلاغة.

و إذا كان القرآ معجزا؛ فهل إعجازه في أن لا يستطيع تفهيم كلامه، و تبليغ مرامه فيأتي بما لا يفهم، و يكرره في أساليب منوعة غير مفهومة؟

فهو معجز؛ أم عاجز؟[85]

---

[82] و كان واجب الأستاذ لو أن عنده شيء من الغيرة الدينية، أو استقلال الفكر، أن لا يحكي فعل العلم الحديث هذا بالدين كمسلم بصحة ما فعله، بل يحتج عليه بما في معناه: غاية ما يكون؛ من حق العلم المبني على التجربة الحسية أن لا يحكم في شأن الدين إثباتا و نفيا كما قال معالي الدكتور هيكل باشا: "لا يثبت و لا ينفي"؛ أما قذفه بالأديان جملة إلى عالم الأساطير، الذي يرجع إلى الحكم فيها بالنفي، فليس ذلك من حق هذا العلم بميزانه الحسي الضيق، فإذا اجترأ عليه خرج عن حدوده فانقلب جهلا؛ و سيطلع القارئ على تحقيق قولي هذا، و تفصيله إن لم يطلع عليه فيما سبق من هذا الكتاب.

[83] الأستاذ فريد أحوج الناس إلى البعث ليبين له الله ما اختلف فيه مع مجادليه و فيهم القرآن و آياته التي أوردنا بعضا منها؛ و لم يقع من الأستاذ أن عدل عن دعواه، و اعترف بأنه مخطئ أمام أية حجة قطعية؛ و لعله ينكر البعث لئلا يظهر أخطاؤه في مجادلاته مع الناس ظهوراً لا قبل له بإنكاره.

[84] و هذه الآية آخر سورة كرر فيها قوله: {ويل يومئذ للمكذبين} عشر مرات.

[85] و ليت شعري، كيف يؤلف الأستاذ فريد الذي كان في طليعة المحبذين لحادثة ترجمة القرآن إلى اللغة التركية، ليقرأها المصلون في تركيا الحديثة، و في طليعة المنفقين في سبيل تحبيذها كثيرا من الحبر و الورق؛ كيف يؤلف بين ادعاء إمكان الترجمة، و بين كون كثير من آيات القرآن متشابهاً عنده لا يفهم مراد الله منه؟

أجل، و لا عجب في ذلك؛ فإن الأستاذ فسر القرآن فيما مضى من الزمان من أوله إلى آخره؛ فيظهر أنه فسره من غير فهم، فلا بدع إذن أن ترجمه المترجمون أيضا غير فاهمين.

مع أن نصوصه التي أوردنا قبل هذا الكلام نماذج منها واضحة يفهم معانيها كل من يعرف العربية الفصحى؛ و الحقيقة أن قول القائل في حق كلمات ظاهرة المعاني: "إنها لا تُفهم"؛ معناه إنكار ما فهم منها ببرود و مرود.

هذا إذا كان مراد الأستاذ من اعتبار آيات المعجزات، و آيات البعث بعد الموت من المتشابهات، اعتبارَها من متشابه اللفظ الذي لا يفهم معناه اللغوي، كالحروف المنفصلة الواردة في أوائل بعض السور[86]؛ أما إذا كان مراده من رد المتشابهات اعتبارَها من متشابه المعنى مثل: {الرحمن على العرش استوى}؛ بناء على أن له معنى مفهوماً، و لكن<183> المعنى المفهوم منه محال في حقه تعالى، لإيهامه الجسمانية؛ فكأن المعاني المفهومة من آيات المعجزات، و بعث الأموات مستحيلة أيضاً لاستحالة وقوعها، و قد صرح الأستاذ في مقالاته بهذه الاستحالة عند نقاشنا المسألة.

فإذا كان الأمر كذلك، كان مراده من تسمية هذه الآيات بالمتشابهات تكذيبها، لكونها ناطقة بالمحالات، مع استبطان هذا التكذيب.

ثم إنا لو فرضنا أن الأستاذ يتأول آيات المعتجزات، و البعث، و النشور بهذا التأويل الفاسد المبني على الفاسد، و ينقذ القرآن على زعمه من أن يكون ناطقاً بالمستحيلات، فماذا يفعل فيما يعتقده المسلمون من أن القرآن كلام الله المنزل بواسطة الملك على محمد ﷺ، و ينطق به القرآن نفسه، كما ينطق بنزول التوراة، و الإنجيل، و الزبور على موسى، و عيسى، و داود عليهم السلام؟

مع أن العلم الحديث، الذي تبجح الأستاذ به، و بنبذه الأديان إلى عالم الأساطير، لا يقر بمسألة الوحي، و إنزال الكتب، و يراها أيضاً من المستحيلات المخالفة لسنة الكون، كما يرى المعجزات، و بعث الأموات منها[87]؛ و يعتبر هذا الرأي في رأس أسباب نبذه الأديان إلى عالم الأساطير، فهل يصدق الأستاذ العلم الحديث في رأيه هذا أيضاً.

ثم يراجع المخلص الذي ابتدعه إزاء آيات المعجزات، و إحياء الموتى، فيرد آيات الوحي، و إنزال الكتب أيضاً إلى المتشابهات، التي لا تفهم معانيها، أو لا تقبل على ظواهرها، و ينتهي بسخافته إلى إنكار أساس النبوة، و إنكار أن يكو القرآن كتاب الله المنزل؟؟؟؟

و إذن فما معنى تأويل آياته، و تأليفها بمقتضى العقل و العلم؟

و ما الحاجة إلى هذا التكلف في تصحيح نصوص كتاب ليس بكتاب الله، و لا بضروري<184> من هذه الناحية أن يكون جميع ما حواه مضمون الصحة؟

مع أن التصحيح في معنى الإفساد و الإلغاء.

هذا رأي الأستاذ فريد وجدي بك، و هذا ما ينتهي إليه رأيه، و هو يعلن على صفحات "جريدة الأهرام"، و لا يقابله الرأي العام الإسلامي بمصر بالاستنكار حتى، و لا إفشاءه عن كتاب المسلمين و شعرائهم النوابغ، في استبطانهم الإلحاد، و ما ينتظرونه من أن يكون مصير غيرهم مصيرهم متى وصلوا إلى درجاتهم العلمية.

و قد يتوقع الأستاذ بعد اطلاعه على قولي هذا أن يقول: "إذا كان الرأي العام الإسلامي لم يقابل ما جهرت به من الفكرة بالاستنكار، و لا الكتاب، و الشعراء النوابغ، الذين أفشيت عنهم ما يستبطنونه من الإلحاد، و ما يدسون في مقالاتهم و قصائدهم من تهيئة الأذهان لقبول ما يستبطنونه إلى أن يكون الباطن ظاهراً.... إذا كان هؤلاء و هؤلاء، لم ينكروا علي ما كتبته، و أنا اليوم رئيس تحرير "مجلة الأزهر"، و مديرها بعد "مجلة نور الإسلام"؛ فماذا يكون من حق الشيخ مصطفى صبري أن يقوله، و معي من المؤيدات ما أحصاه هو نفسه؟ و من بديع المؤيدات، أن تعييني من مجلس الأزهر الأعلى لرأس مجلة الأزهر المسماة يوم التعيين "نور الإسلام"، صادف زمناً أوشط فيه النقاش بيني و بين الشيخ أن ينتهي، و لم ينته بعد؛ فجاء ذلك جواباً على حملة الشيخ أبلغ من الرد الذي تتضمنه مقالاتي المقابلة"!!!!!

و أنا أجيب على قول الأستاذ هذا المفروض، بأني لا أنكر هذه المؤيدات، لاسيما الأخيرة التي نالها كمكافأة على رأيه في معجزات الأنبياء، و بعث الناس بعد الموت، و تحمسه في حكاية ما فعله العلم الحديث بالأديان، و ما عجز الشرق الإسلامي أن يفعله من الدفاع عن دينه، و ما زاد الطين بلة من تطوع نوابغ الكتاب، و الشعراء، و كلاء العلم الحديث الغربي في الشرق الإسلامي، للسعي في القضاء على ما بقي في القلوب من الإسلام<185>، إقامة الإلحاد مقامه، دساًّ في مقالاتهم و قصائدهم...

أنا لا أنكر وقوع المكافأة؛ على ما لعب الأستاذ من دوره في هذه الأفعال، التي مثلها بمهارة، حتى إني لا أنكر احتمال ارتقائه بعد حملاتي الجديدة عليه في كتابي هذا، إن لم أقل إلى مشيخة الأزهر، فإلى مشيخة كلية أصول الدين!...

و ربما أكون أخدم مصلحته بتلك الحملات، و لا أضن به عليه، بصفة رجل ضحى بكل شيء في سبيل التصريح بكلمة حق؛ لاسيما فيما يتعلق بالدفاع عن الإسلام، و عقائده العزيزة....

لا يمنعني من نقد أفكار الأستاذ، و مبادئه المستندة إلى التقليد المحض للغرب، كثرة المؤيدات التي وجدها، و قد لا يزال يجدها في مصر الحاضرة، المقلدة، بل المستبطنة للإلحاد على تقدير الأستاذ نفسه في حق الشرق الإسلامي، الذي لا يمكن أن تكون مصر خارجة عنه.

و لا يكبر في عيني أن تكون الدنيا مع الأستاذة، زيادة على مستبطني الإلحاد النوابغ، بل و لا العلم الذي يدعي أنه يستند إليه فيما يستند إليه؛ إذ لا يمكن أن يكون العلم الذي يدعو متعلميه إلى الإلحاد، علماً صحيحاً، تجاه قوله تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط}.

بل إني لا أقول قولاً يحل ما أشكل على الأستاذ في مسألتي المعجزة، و البعث بعد الموت من أساسهما؛ و هو أن الأستاذ الذي أنكرهما، و ادعى استحالتهما عند العقل.... لا شك أنه تابع في هذا الرأي للغربيين علماء العلم الحديث، الذي أطراه في صدر مقالته، كما نقلناه من قبل.

و لكن هل يعرف الأستاذ أن منكري المعجزات، و النشأة الأخرى من علماء الغرب، ينكرونها لعدم اعترافهم بوجود الله، و بنائهم الكائنات على أساس الطبيعة؟

[86] و هذا الاحتمال على الرغم من كونه في غاية البعد، قد حملنا مراد الأستاذ عليه أولا، لكون المحذور المترتب على الاحتمال الثاني الذي ذكرناه بعده، و هو تكذيب ما نطق به القرآن، مستورا غير ظاهر في هذا الاحتمال، و لأن ما ادعاه الأستاذ في مقالاته التي رد بها علي، من عدم كون ما أراد الله من تلك الآيات مفهوماً، و لا كونه مطلوب الفهم؛ يميل إلى هذا الاحتمال،كما كان في كلامه ما يميل إلى الاحتمال الثاني أيضاً.

[87] ألا ترى أن الأستاذ فرح أنطون حين أحصى ما لا يقبله العقل و العلم على زعمه من العقائد الدينية الأساسية؛ مثل: وجود الله، و المعجزات، و البعث، و الحشر، و الثواب، و العقاب؛ ذكر معها الوحي و النبوة أيضا؛ و من هنا يظهر سر اجتهاد الأستاذ فريد لما لاح له أخيرا أن يكتب مقالات في "مجلة الأزهر"، لإثبات إمكان النبوة و الوحي؛ في تصوير النبوة بما يشبه العبقرية، إن لم يجعل منها صراحة؛ و قد سبق الكلام عليه.

فلو كانوا اعترفوا بوجود الله، الذي يخلق ما يشاء و يختار، فلا داعي إذن إلى إنكار المعجزات و النشأة الثانية، و لا إلى القول باستحالتهما عند العقل، لأنه إذا كان الله هو الذي خلق الناس في نشأتهم الحاضرة، ففي الإمكان دائماً أن يخلقهم بعد موتهم، و تلاشي أبدانهم مرة ثانية، أو ثالثة، أو كلما شاء ذلك؛ و كذا إذا كان خالق الحيوان و النبات بجميع أنواعهما فمن السهل عليه أن يخلق ثعباناً من عصا موسى عليه السلام<186>، و لا مانع منه أصلاً في نظر العقل، بعد تسليمه بوجود الله؛ و بعد الاعتراف بوجود الله يكون كل شيء سهلاً، و يكون التوقف في مسألة المعجزات، أو البعث بعد الموت؛ لا داعي له، إلا غباوة المتوقف[88].

فلا بد للأستاذ فريد وجدي؛ إما أن يؤمن بالله، و يؤمن معه بما جاء في كتابه من أنباء معجزات أنبيائه، و بعث الناس بعد موتهم، كما يفعله كل مؤمن بالله و ملائكته، و كتبه، و رسله، و اليوم الآخر؛ و إما أن لا يؤمن بالله، و لا بما جاء في كتابه من أنباء المعجزات، و البعث، كما يفعله الذين أخذ عنهم إنكار المسألتين من ملاحدة الماديين، و الطبيعيين، و الذين سأناقشهم في هذا الكتاب على أساس ضلالاتهم، أعني إنكار وجود الله.

---

[88] على ان الفيلسوف الكبير "كانت"، الذي انتقد جميع أدلة وجود الله المعروفة، و اختار دليلاً آخر اخترعه كما سيأتي بيانه في هذا الكتاب، أثبت وجود عالم الآخرة بالدليل نفسه، الذي أثبت به وجود الله، و معنى هذا أن لوجود عالم الآخرة أهمية عند "كانت"؛ بدرجة أهمية وجود الله، حتى إنه إن لم يصح وجود الآخرة، لعيب في دليله، لم يصح وجود الله أيضاً، لاستنادهما عنده إلى دليل واحد.

6- [المقالة الواردة من باريس بعنوان: "عدة النجاح لرجل القرن العشرينِ"]:

ثم إنا لا نقتصر في الاستشهاد لغلبة عقلية الإلحاد في مصر بين المتعلمين العصريين بدافع تيار الضلال العلمي، على الشواهد المتقدمة؛ و إن كان كل من تلك الشهادات لاسيما شهادة الأستاذ فريد وجدي بك بالنظر إلى مركزه الأزهري الذي حصل عليه قبل خروجه من حلبة المناظرة، قائمة مقام شهادات شهور غفيرة.

فقد وقع في مقالة أرسلت من باريس إلى مصر، قبل سنوات[89] نالت الجائزة الأولى في المباراة الصحفية، عنوانها: "عدة النجاح لرجل القرن العشرين"؛ و قد نشرتها "جريدة الأهرام" في عددها "1858": [و إذا أردت أن تعرف الفرق بين العقليتين الغيبية، و العلمية، فسل من شئت من عامة الناس: لماذا يطير الطائر؟ فسيكون جوابه حتماً: لأن له أجنحة، و هو بذلك يجعل الطيران نتيجة العضو، و العلم يرى عكس ذلك، أي يرى الوظيفة متقدمة، و قد نتجت عنها العضو.

و صفوة القول أن الرجل العصري، يجب أن ينبذ العقلية الغيبية[90]، و يطاردها في كل مكان حتى تستوي له عقلية علمية من هذا الطراز، الذي نشاهده في معامل العلماء.

يتصل بالعقلية الغيبية هذا الاعتقاد الشرقي، بأن العالم مسير لا قدرة لنا فيه، و أن القوة المسيرة تتدخل في تتابع أحداثه، فتقدم، و تؤخر، و تحيي، و تميت بغير حساب؛ و يجوز أن تعدل عما سبق أن كتبت من آجال، و قد تسرب هذا الاعتقاد إلى فلسفاتهم دينية كانت، أو عقلية؛ فقد بحث متكلمو المسلمين في: هل يستطيع الله أن يقدم الآجال، أو يؤخرها عن ساعتها، فذهب بعضهم إلى إمكان ذلك، و هم لعمري لم يفهموا بذلك قدرة الله تعالى، فإن النظام المطرد في العالم، و تسلسل العلل، و معلولاتها أدل على القدرة اللامتناهية من ذلك التصور الركيك، الذي يجعل من قدرته تعالى وسيلة لتغيير النظام الذي فطرته، و أبدعته[91]؛ و كأني بأولئك المتكلمين و من لف لفهم، يتصورون هذا النظام على أنه ليس من طبيعة الأشياء نفسها، و لكنه فُرض فرضاً عليها من خارجها، يمكن تعديله، أو العدول عنه في كل لحظة؛ لهذا استسلم أهل الشرق إلى ما أسموه تارة بـ "القدر"، و تارة بـ "القسمة"، أو "النصيب"]<188>.

أوجب كاتب المقالة على رجل القرن العشرين أن يطارد العقلية الدينية، التي ذكرها تحت ستار العقلية الغيبية، أي عقلية الإيمان بالغيب، في كل مكان، و يطارد معها ما يتصل بها من الاعتقاد الشرقي القائل بأن العالم مسير لا قدرة لنا فيه؛ ذلك الإعتقاد الذي نسميه الإيمان بالقدر.

و أنا أقول: إن الشرقيين المتدينين، يعتقدون كون العالم مسيراً من قِبل الله، و هذا ما لا يرضاه الكاتب؛ لأنه على مذهبه، الذي يفهم من كلامه سائر بنفسه، و لا مسير له.

و خلاصة ما لاكهُ بين فكي قلمه هي الشكاية المعروفة، المبتذلة من تأخر الشرق المتدين باستسلامه إلى القدر، و إهماله السعي و العمل، و هو يزعم أن منشأه الإيمان بالقدر المستور عنا، في ضمن الإيمان بالغيب، الذي أوله الإيمان بالله، على الرغم من كونه غير منظور، كما قال الأستاذ فرح أنطون، و ذكرناه في رقم (4).

و الإيمان بالله يقود المؤمن إلى اعتقاد أنه الحاكم المسيطر على العالم، الذي هو ملكه، لا يشاركه فيه أحد، و لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

فلا يسع عقل الكاتب القصير تأليف السعي، و العمل للإنسان، و تقدير أي قيمة لسعيه و عمله، مع اعتقاد أن العالم في قبضة الله، لا ينفذ فيه غير مشيئته، و تكون نتيجة عجزه عن هذا التأليف أنه يسعى لتحريض الشرق المؤمن بالله، و بالقدر خيره و شره من الله، على مطاردة العقلية الدينية الغيبية، و بعد تلك العقلية رأس كل خطيئة، و تعد لجنة المباراة الصحفية بمصر مقالة هذا الكاتب -و يا للأسف- جديرة بالجائزة الأولى.

فلو علم الكاتب بالاختصار قول نبيه صلى الله عليه و سلم: "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"؛ أو قرأ بالتفصيل كتابي "تحت سلطان القدر"، المنشور قبل مقالته بعامين، لما فقد عقله بين العقلية الغيبية و العلمية، و ما تعذر عليه التأليف بين سعي الإنسان، و إيمانه بالقدر.

و إني جد متعجب من كون الطاعنين في الإيمان بالقدر، و فيهم كثير من علماء هذا الزمان، يعيبون هذه العقيدة، القائلة بأن كل شيء في العالم يجري تحت مشيئة الله، و فيه أفعال الإنسان و إراداته؛ بأنها تجر معتقدها إلى الكسل، و تمنعه عن العمل؛ مع أن أصحاب<189> هذه العقيدة، الرادين كل ما يقع في العالم إلى مشيئة الله، يقولون إن الإنسان يعمل تحت مشيئة الله، و لا يقولون إنه يكسل، و يتوقف عن العمل تحت مشيئة الله.

و من أين يحكم أولئك الطاعنون أن الله تعالى يريد لعباده الكسل، و لا يريد لهم العمل؟

نعم، يتثاقل من يتثاقل عن السعي بمشيئة الله، و يسعى من يسعى أيضا بمشيئة الله؛ فلا فرق في مسألة السعي و العطالة بين العقيدتين؛ عقيدة كون الإنسان في قبضة مشيئة الله، و عقيدة كونه مستقلا في أفعاله؛ و لهذا لم يقع في السلف ترجيح أحد المذهبين المختلفين بين الأشاعرة و المعتزلة في مسألة أفعال الإنسان على الآخر، بسبب تأديته إلى العمل، و الآخر إلى الكسل؛ و إنما حدث هذا الترجيح في زماننا من بعض العلماء الغافلين، تقليداً للجريان الآتي من الغرب الرامي إلى اتهام المسلمين في عقائدهم؛ و كاتب المقالة ماش على طريقة هذا الاتهام.

و من أين له -و ستعلم مبلغ عقله و منطقه- التقدير بدقة المسألة، التي التبست على عالم كبير مثل المرحوم الشيخ بخيت، كما هو مبسوط في كتابي المار الذكر؟ فقد لا يُستكثر التباسها على كاتب المقالة من باريس.

إلا أن هناك نقطة أخرى، توجب معاتبة الكاتب، و مؤاخذته عليها؛ و هي أنه يعيب الشرق المتدين بعقيدة القدر، لكونها عقيدة الجبر بالإجمال، و هو لا يدري أن الإنسان مسير أيضاً في مذهب ملاحدة الماديين، و الطبيعيين، الذين يروج الكاتب آراءهم في غير موضع من مقالته، لكنه مسير عندهم من قِبل الطبيعة، لا من قِبل الله؛ و يسمى مذهبهم مذهب الإيجابية، و الجبر الذي في مذهبهم أشد و أقسى من جبر الله، الذي يؤلفه باختيار الإنسان، و قد حققته في "تحت سلطان القدر"، كما إني سأزيد على تحقيقه في هذا الكتاب إن شاء الله.

و هذا الذي قلنا، يشهد به أن المادي و الملحد المشهور "بوخنر" ينفي في كتابه "القوة و المادة" الإرادة و الإختيار للإنسان، لكن كاتب المقالة غير عارف حتى بمذهب الذين يقتدى بهم.

---

[89] لكاتبها عضو بعثة الجامعة المصرية بباريس، ...... و الماجستر في الآداب.

[90] يريد بها العقلية الدينية.

[91] يريد بها التعريض لمسألة المعجزة، و الطعن في المؤمنين بها أيضاً؛ فالله تعالى يمدح الإيمان بالغيب، و يجعله رأس أوصاف المهتدين بهدي القرآن؛ فيقول: {الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون}؛ و كاتب المقالة من باريس يوصي قومه بمصر أن يطاردوا العقلية الغيبية، و تراها لجنة المباراة الصحفية بها جديرة بالجائزة الأولى.

فقوله بصدد الاستهانة بالمتكلمين علماء الإسلام: [و كأني بأولئك المتكلمين، و من لف لفهم يتصورون هذا النظام -في العالم- على أنه ليس من طبيعة الأشياء نفسها<190>، و لكنه فرض فرضا عليها من خارجها يمكن تعديله أو العدول عنه]؛ من ذلك الفارض؛ صريح فيما ذهب إليه ملاحدة الماديين و الطبيعيين، مثل "بوخنر" الألماني، و غيره من أن نظام العالم الذي يجد فيه المتكلمون في الشرق و الفلاسفة الإلهيون في الغرب، أجلى دليل على وجود ناظم، حكيم، عليم، خارج عن العالم المعبر عنه بما سوى الله؛ أتاه من نفسه و طبيعته لا من خارجه.

فكاتب المقالة يزين هذا المذهب القديم الباطل في أعين القارئين، بزي حديث علمي يليق برجل القرن العشرين أن يتخذه مذهباً له، و يستغنى عما كان الناس يعتقدون في القرون الماضية، من وجود إله خالق للكائنات، و نظمها....

ذلك المذهب، الذي عنينا بإبطاله في هذا الكتاب، و لجنة المباراة الصحفية بمصر ترى المقالة مستحقة للجائزة الأولى، معلنة بذلك تحبيذ ما اقترحه الكاتب في مقالته على أهل بلاده، من نبذ العقلية الدينية، التي يسميها العقلية الغيبية، استنكاراً لها، و نبذا ما عليه المتكلمون علماء أصول الدين، من أن واضع نظام العلام هو الله الذي خلق العالم؛ و هذا كارتقاء الأستاذ فريد وجدي إلى رئاسة (مجلة نور الإسلام) الأزهرية، عقب نشر مقالاته المنكرة لمعجزات الأنبياء و النشأة الآخرة للناس بعد موتهم....

أما إيهام كاتب المقالة الباريسية، في سياق كلماته كأنه يؤمن بالله، و بقدرته السامية، فهو تكتم ظاهر، و مراعاة لصنعة الدس، الذي ذكره الأستاذ فريد وجدي، لمستبطني الإلحاد، من الكتاب، و الشعراء، النابغين في الشرق الإسلامي.

فإن لم يكن كاتب المقالة من النوابغ فهو يسعى بدس الإلحاد في مقالته ليكون منهم، حيث يتكلم عن قدرة الله تعالى اللامتناهية، التي فطر بها نظام العالم، و أبدعه، ثم يدعي أن ذلك النظام آت من طبيعة الأشياء نفسها، لم يُفرض فرضاً عليها من خارجها كما يتصوره المتكلمون؛ و يعني بهذا أن نظام العالم لم يأته من قبل الله.

و هذا تناقض واضح، ينفجر من بين عقلية الكاتب اللادينية العلمية، وب ين تظاهره بالإيمان بالله و بقدرته اللامتناهية، رئاء لا تتماسك أركانه، و قلما تكتب في الدنيا مقالة ملأى بالمناقضات، و الأغلاط العلمية كهذه المقالة.

فلو قدرت<191>، لأعطيت لجنة المباراة الصحفية المصرية، التي أنالت المقالة الجائزة الأولى، جائزة الاختيار المعكوس الأولى.

و بهذا كانت مصر أتت بشاهد جديد، لصدق ما قلت عنها سابقاً، من أن ضعف الدين يروج فيها أكثر من قوة العلم، و إني أرجح هذا الاحتمال على احتمال كون أعضاء اللجنة بعيدين إلى هذا الحد من تمييز الكاسب في المباراة عن الراسب!...

و من مناقضات كاتب المقالة لنفسه، الدالة على جهله العميق بالمباحث العلمية، التي يتكلف التكلم فيها، أنه قال بعد رمي المتكلمين بعدم الفهم لقدرة الله، أو تفهيمها للناس[92]: [إن النظام المطرد في العالم، و تسلسل العلل، و المعلولات، أدل على قدرة الله اللامتناهية من ذلك التصور الركيك، الذي يجعل من قدرته تعالى وسيلة لتغيير النظام الذي فطرته و أبدعته].

و أنا أقول: تسلسل العلل و المعلولات، ليس إلا قول المنكرين لوجود الله؛ فهم يقولون إن العالم عبارة عن مجموعة سلسلة العلل و المعلولات اللامتناهية، فكل علة في السلسلة معلولة لعلة تقدمتها، و كل معلول علةٌ لمعلول آخر يعقبه؛ فلا تنتهي سلسلة العلل المتصاعدة إلى علة تكون هي العلة الأولى، و ينقطع فيها التسلسل، لعدم وجود علة تتقدمها، كما لا تتنازل المعلولات إلى معلول أخير لا معلول بعده، فسلسلة الكائنات -و كم فيها من سلاسل؟- كالحلة المفرغة من حيث أنها لا أول لها و لا آخر؛ و إن كانت مختلفة عن الحلقة في شكل الامتداد، إذ لا تنازل في الحلقة، و لا تصاعد؛ كما كانا في سلاسل الكائنات الممتدة بين الماضي و المستقبل.

فهذا هو تسلسل العلل و المعلولات؛ و الذين يثبتون وجود الله يثبتونه بإبطال هذا التسلسل من جانب الماضي أي تسلسل العلل الذي لا ضرورة على تقدير القول<192> بعدم بطلانه للاعتراف بوجود الله، فيجعلون الله تعالى مبدأ لسلسلة الكائنات، و يقطعون به تسلسل العلل، الذي هو تسلسل في جانب الماضي.

و القائلون بهذا التسلسل يريدون أن يستغنوا به عن الاعتراف بحاجة العالم إلى وجود الله، و كاتب المقالة يقول عن هذا التسلسل الذي يتمسك به نفاة الله، للاستغناء عن القول بوجوده: [إن أدل على قدرة الله اللامتناهية]؛ فكأنه تعالى خلق آثاراً و مؤثرات تتعاقب في الوجود، و تغني من كثرتها، و عدم تناهيها عن أن يكون الله هو نفسه موجوداً، على أن يكون المؤثر الأول الذي لا مؤثر قبله؛ لأن الحاجة إلى وجود الله إنما تتصور على تقدير انقطاع سلسلة العلل المؤثرة في جانب الماضي، أما إذا لم تزل السلسلة مستمرة في الانتقال من علة سابقة، إلى أسبق، و لم تنته إلى علة ليست قبلها علة، فلا يكون الله موجوداً، و لا يأتي في السلسلة الممتدة إلى جانب الماضي، دور الحاجة إلى وجوده مهما تمادى متمادٍ في الرجوع إلى ذلك الجانب.

و كان كاتب المقالة إلى لجنة المباراة يأخذ على المكتلمين أنهم يجعلون من قدرة الله وسيلة لتغيير النظام الذي فطرته و أبدعته، و يعتبر ذلك تصوراً ركيكاً، و الحال أن الأستاذ نفسه يجعل من قدرة الله تعالى اللامتناهية وسيلة لإغناء الكائنات عن وجوده أي الله نفسه، و لا يرى ما فيه من الركاكة البالغة حد الاستحالة و هو قدرة الله على أن تجعل سلسلة الكائنات مستغنية عن الله نفسه، فتجعلها -أي الكائنات- موجودة من غير حاجة منها إلى وجود الله.

فالبنظر إلى أن هذا الجعل من الله، فالله موجود؛ و بالنظر إلى وجود الكائنات من غير حاجة إلى وجود الله، فالله غير موجود؛ فهذا تناقض ناتج من كلام الأستاذ في مقالته، منشأه تجويز تسلسل العلل، من غير انتهاء إلى العلة الأولى، الذي يتمسك به نفاة وجود الله بالمرة، و الكاتب من المعجَبين بهم، مع التظاهر بالاعتراف بوجود الله؛ و لا معنى لهذا الاعتراف غير التناقض المردود أو الدس المعهود.

و مسألة بطلان التسلسل -الذي يأتي تحقيقه إن شاء الله في المطلب الأول من الباب<193> الأول من هذا الكتاب، و في الفصل المعقود لمسألة حدوث العلام من الباب الثاني-؛ لم يفهمها الشيخ محمد عبده، بل الفيلسوف الألماني الكبير "كانت" أيضاً، لما انتقد أدلة وجود الله المعروفة، فما ظنك بالأستاذ بالكاسب للجائزة الأولى من

[92] انظر،كيف يصغر المتكلمون مدونو عقائد الإسلام، و مؤسسوها على أسس علمية، في عين طالب بالجامعة المصرية أولاً، ثم بباريس، و في عين لجنة المباراة الصحفية التي منحت هذا الطالب الجائزة الأولى.

لجنة المباراة الصحفية الغافلة، أو المغرضة، و ما ذنب علماء الأزهر المتأخرين بقليل في تجرؤ من هب و دب من الكتاب الأحداث على العلوم الدينية من غير أن يكون لديهم إلمام بها.

و هذا بعد ذنب البيئة العلمية التي نشَّأت هذا الشاب مجهزاً بخليطة من العلم بدنياه، و الجهل بدينه، مع الظن بأنه علم أيضا يقضي على علوم علماء الإسلام المتقدمين.

و المسئول الأول عن ضلاله الطريق العلمي المستقيم، بل المذنب الأول الذي شجعه على التخبط في مسائل تتعلق بالدين الإسلامي، من غير تزويده بما يجعله أهلا للتكلم فيها، هو الجامعة المصرية؛ إن كانت هي منشأه؛ و إن كان ناشئاً من جامعة غربية، فالمذنب الحقيقي سوقُ مصر الثقافية التي تقيم لأبناء البلاد المتخرجين من جامعات الغرب وزناً زائداً، و الشاب المنغمس إلى ذقنه في أخطاء علمية ليوجه حملات طائشة إلى دينه، و علماء أصول دينه المتكلمين، لا بد أنه ضحية أولئك المذنبين الأولين.

أما عد قول المتكلمين القائلين بقدرة الله على تغيير النظام الذي فطره و أبدعه في الكائنات، من التصور الركيك، ففيه نزعة إلى منكري المعجزات، مدعين أنها تغيير نظام العالم، و أنه محال.

إلا أن محالية التغيير هذا مبنية على قولهم بكون نظام العالم طبيعيا، ناشئا من العالم نفسه، لا دخل فيه لصنع الله، إذ لو كان هو صانعه و واضعه، و كان مختاراً في وضعه، لكان من الضروري أن يقدر على تغييره إذا شاء ذلك، ككل واضعي نظم و قوانين، حيث يقدرون على تغيير ما وضعوه عند اللزوم.

لكن كاتب المقالة خلط قول المنكرين لتغيير نظام العالم إنكاراً ناشئاً من إنكار وجود الله، و إنكار كونه واضع ذلك النظام، بكونه فاطره، و مبدعه، و هو تشوش و تناقض <194>.

و مع كون الكلمة التي نقلنا عن مقالة هذا الكاتب مكتظة بالأخطاء الفاحشة، الدالة على أنه يتخبط في مسائل علمية، لا علم له بها إلا سماعاً لبعض نواحيها من بعدي.....

فمع ذلك، لا مناسبة منطقية بين الجمل التي ربط بعضها ببعض، و انطوى كل منها بمفرده على غلط فكري؛ انظر قوله: [يتصل بالعقلية الغيبية، هذا الاعتقاد الشرقي، بأن العالم مسير لا قدرة لنا فيه]؛ يعني، و نحن مسيرون مع العالم لا قدرة لنا في أفعالنا، و لا اختيار.

فهو يحاول الطعن في الإيمان بالقدر، و قد قلنا إنه يريد بالعقلية الغيبية التي يراها –سامحه الله- جديراً بالمطاردة في كل مكان، العقلية الدينية.

مع أنه لا اتصال بين مسألة كون الإنسان مسيرا لا قدرة له، و لا اختيار؛ و بين العقلية الدينية اتصال تلازم؛ فقد يكون المرء من أهل الدين، و لا يكون في مذهب التسيير كالمعتزلة من المسلمين، بل الماتريدية أيضاً، و قد يكون في مذهب التسيير مع كونه غير معتقد للدين، كملاحدة المادية الإيجابية من الغربيين و مقلديهم في الشرق؛ و قد يكون الرجل الغربي أو الشرقي مسيحياًّ، أي متدينا، و يكون عنده الإيمان بالقدر كالمسلم الشرقي، فلا صلة إذن بين الأمرين اللذين ذكرهما الكاتب متصلين.

أما تدقيق مسألة التسيير الذي يتضمنه الإيمان بالقدر، للتوصل إلى كونه حقا أو باطلاً، فالكاتب بمعزل عن الدخول في ذلك البحث الذي اتخذته موضوعا لكتاب مستقل، و لم يخل عنه هذا الكتاب أيضاً.

و من أمثلة الخلط و الخبط في كلامه قوله: [فقد بحث المتكلمون في هل يستطيع الله تعالى أن يقدم الآجال أو يؤخرها عن ساعتها؟].

فيقال له: متى ساعة الأجل؟ و من ذا يعينها حتى يُبحث في هل يستطيع الله تقديم الآجال، أو تأخيرها من ساعتها؟

فإن كان الله تعالى هو معين ساعة الأجل، فالبحث في استطاعته التقديم، و التأخير، أو عدم استطاعته لتقديم الآجال، أو تأخيرها، عبث و تناقض.

و إن كانت الطبيعة تحكم في الكائنات، فلا معنى لوجود الله، و تدخله في تقديم الآجال أو تأخيرها.

و ليس في علم الكلام متكلم تكلم في استطاعة الله، أو عدم استطاعته لتقديم الآجال أو تأخيرهم<195> عن ساعتها.

و لعل هذا القول من الأستاذ كاتب المقالة تحريف مسألة كلامية، هي: "أن الميت المقتول ميت بأجله، خلافاً للمعتزلة"؛ الذاهبين إلى موته قبل أجله؛ لكن هذا التقديم عندهم من القاتل لا من الله، كما في قول كاتب المقالة.

ثم لا مناسبة أصلاً بين هذه المسألة التي لا محل لها في علم الكلام، أعني مسألة "هل يستطيع الله تعالى تقديم الآجال أو تأخيرها عن ساعتها"؛ و بين ما ذكر الكاتب بعده معتديا على المتكلمين: [و هم لعمري لم يفهموا بذلك قدرة الله تعالى، فإن النظام المطرد في العالم، و تسلسل العلل و المعلولات أدل على القدرة اللامتناهية]؛ و لا بين هذا القول الأخير و ما يعقبه من قوله: [من ذلك التصور الركيك، الذي يجعل من قدرته تعالى وسيلة لتغيير النظام، الذي فطرته و أبدعته]، كما بيناه.

و كذا، لا مناسبة بين قوله: [و كأني بأولئك المتكلمين يتصورون هذا النظام على أنه ليس من طبيعة الأشياء، بل فُرِض فرضاً عليها من خارجها....] الخ؛ و بين قوله: [لهذا –أي لكون متكلمي الإسلام قائلين بأن نظام العالم ليس من طبيعة الأشياء بل له ناظم من خارج العالم فَرض هذا النظام على كل شيء فيه، و هو الله- استسلم أهل الشرق إلى ما أسموه....]؛ يعني أن رأس الخطأ في استسلام الشرقيين إلى ما أسموه القدر اعتقادُ وجود إله واضع لنظام هذا العالم.

فكأن الرجل ينمي على الشرقيين هذا الاعتقاد، و ذاك الاستسلام، الذي يتفرع عليه، و هو كفر صريح، يستحق به الكاتب النهي على نفسه، و على مانِحيه الجائزة الأولى.

و أما تمثيله العقلية الغيبية، و العقلية العلمية، ليتبين الفرق بينهما، بمثال أجنحة الطائر، سائلا: هل هو يطير لوجود أجنحة له؟ أم أن كونه ذا أجنحة، نتيجةٌ لوظيفة الطيران المتقدمة على الأجنحة؟

و بالاختصار، هل يطير لكونه ذا أجنحة؟ أم أنه ذو أجنحة، لكونه في حاجة إلى الطيران؟

و مجيباً باختيار الشق الثاني، و اعتباره العقلية العلمية، دون الشق الأول، المبني على العقلية الغيبية؛ فمما يثير الضحك، و قد قلنا إن مراده من "العقلية الغيبية"، "العقلية الدينية".

و لم يكن من الصعب إيراد مثال، بل أمثلة لإيضاح الفرق<196> بين العقليتين، و لا لمسألة أجنحة الطائر صلة بالدين.

لكن الأستاذ كاتب المقالة، و كاسب الجائزة، وحّد بين العامي الجاهل، و المتدين المؤمن بالغيب؛ و جعل لهما عقلية واحدةً، سماها العقلية الغيبية، ثم حاول في تمثيلها بمثال أجنحة الطائر أن يفيد الناس من علومه

الحديثة، فعرض عليهم مسألة من نظريات "لامارك"، الذي كان زعيم مذهب النشوء و الارتقاء قبل "دارون"، و قد وجد هذا الأخير عيباً في آراء الأول، و انتزع الزعامة منه.

و اليوم حين انتقدوا نظرية "دارون"، و ظهرت علامة الإفلاس في إساس المذهب، يحاول الكاتب الكاسب أن يبيع نظرية "لامارك" التي أفلست قبل نظرية "داروين" بثمن غال.

و إذا رجعنا إلى بحث المثال، فـ "لامارك" هذا يرى أن العضو نتيجة الحاجة إليه، فالحيوان يحتاج مثلاً إلى الطيران للفرار من أعدائه، و يسعى إلى الجهة التي تنجيه منها، فتذهب سيالاتٌ من بدنه إلى المحل المحتاج إلى العضو، فيحصل فيه الجناح؛ و كذا الاستعمال و اعتيادهُ يقوي العضو، و يزيد في نموه.

و لا كلام لنا في صحة المسألة الثانية -أعني نمو العضو بكثرة استعماله-، فهي ثابتة بالتجارب، إلا أن "لامارك" اجتاز منها إلى المسألة الأولى، أعني كون وجود العضو نتيجة الحاجة إليه، عملاً بالقياس، لكن حصول العضو من عدم بمجرد الحاجة إليه و الاجتهاد في تحصيله لا يقاس على نمو العضو الموجود بكثرة استعماله، لكونه قياساً مع الفارق، بل لا إمكان للقياس بناءً على ما قلنا.

و كما لا صحة لهذا القياس، لا تُثبِت التجربة حُصولَ عضو من الاحتياجِ.

فلو كانت أجنحة الطيور نابتة من احتياجها في زمن من الأزمنة الماضية إلى الفرار من مهلكة، و السعي فيه لحصلت أجنحة في أفراد الجيش المنهزم الهارب، و أفراد الجيش الغالب المعقب، و لا سيما إذا تكرر الهرب من الأول و التعقيب من الثاني.

و فضلا عنه<197> لو صح ما قاله، كان الأولى بالناس في عصر الطيران هذا، أن يبذلوا جهودهم في الحصول على الأجنحة العضوية، ليطيروا بأنفسهم بدلاً من أن يبذلوا في إنشاء الطائرات، أو على الأقل في الجمع بينهما.

و قد سعى أحد الأمريكيين على ما كتبته الجرائد أن يطير بأجنحة صناعية، و قضى نحبه في سبيل الطيران بها، فليته تعلم نظرية "لامارك" من الأستاذ كاتب المقالة من باريس، إلى لجنة المباراة الصحفية بمصر، و فكر في الحصول على أجنحة عضوية إنسانية؛ و الطيران بهذه الأجنحة كان أسلم من خطر السقوط، قياساً على أجنحة الطيور.

هذا، و يمكن أن يكون مراد بطل المباراة الصحفية مما أتى به مثالاً من أجنحة الطائر للفرق بين العقلية الغيبية و العقلية العلمية، أن ملاحدة الماديين ينكرون وجود العلل الغائية في نظام العالم، إنكاراً منهم للنظام نفسه، و توسلاً به إلى إنكار وجود الله، الذي أنشأ العالم عالِماً بما يصلح له كل جزء من أجزائه من الوظائف، فيدعون أنه لا شيء في العالم يدل على القصد و الإرادة، و لا شيء من الموجودات قد وجد لأي غاية أو فائدة، فإن كانت تترتب على وجوده فائدة من الفوائد، فذاك ترتب اتفاقي غير مقصود.

فالعين تبصر، و الأذن تسمع، و المخ يفكر، و الأجنحة تطير؛ لا لأن كل ذلك وظائف عينت لها هذه الأعضاء، إذ لا منشئ، و لا وظائف، و لا تعيين؛ و إنما يحصل كل ما يحصل من الأشياء في العالم على طريق المصادفة و الاتفاق.

فالطائر يطير، لأن له جناحين، لا أن له جناحين لطير بهما؛ و معنى هذا، أنه لم يُعْطَهُما ليستعين بهما عند الطيران، و إنما وجد له جناحان مصادفةً، و حصل بهما الطيران مصادفة، من غير أن يكون معطى الجناحين، و لا قصد شيء من إعطائهما.

و سيجيء بحث هذه النظرية العجيبة، التي بنى الملاحدة عليها صرح الإلحاد، مستوفى في محلها من هذا الكتاب.

فبطل المباراة الصحفية يعتبر هذه العقلية المنكرة للعلل الغائية في العالم، و نظامه، إنكاراً ناشئاً من إنكار وجود الله.

يشهد به قوله بكون النظام ناشئاً من طبيعة<198> الأشياءِ غير مفروض عليها فرضاً من خارجها؛ عقليةً علميةً، و يعتبر العقلية المعترفة بالعلل الغائية، و النظام في العالم عقلية غيبية غير علمية.

و نحن نبطل فيما سيأتي إن شاء الله ما اعتبره البطل عقلية علمية، كما أبطلنا هنا كثيرا من اعتباراته و مزاعمه.

و توجيه قوله في تمثيل الفرق بين العقليتين بأجنحة الطائر، على هذا الوجه الثاني، أوفق للتقابل بينهما، و للتعبير عن العقلية الدينية بالعقلية الغيبية، و إن كان في تطبيق كلامه على هذا الوجه نوع من الصعوبة، و لذا أخرناه عن الوجه الأول.

7- [كتاب محمد أحمد الغمراوي "في سنن الله الكونية"]:

قد اطلع القارئ مما كتبنا في الرقم السابق على طعن و احتقار موجهين إلى المتكلمين من صاحب المقالة المرسلة من باريس إلى لجنة المباراة الصحفية بمصر، و من اللجنة نفسها، لكونها رأت تلك المقالة مستحقة للجائزة الأولى.

و قد رأيت في كتاب الأستاذ الفاضل محمد أحمد الغمراوي[93]، الذي نشره و سماه "في سنن الله الكونية" فصلاً بعنوان: "العلم و الدين"، اقتبسته "مجلة الأزهر"، تنويها بالكتاب.

قال فيه الأستاذ المؤلف: [يظن من لا خبرة له بالعلم، أو بالدين، أو بكيلهما أن هذه العلوم المسماة بالعلوم الطبيعية، و التي يصح تسميتها بعلوم الفطرة، علوم مستحدثة، و أنها غريبة عن الدين، و أن من الجائز وجود تناقض بين حقائقها و حقائقه؛ لكن ظنهم هذا باطل، لأن هذه العلوم الطبيعية هي في الواقع علوم إسلامية، لأنها في الواقع علوم قرآنية، قرآنية في موضوعها، قرآنية في طريقها، قرآنية في اسمها؛ لأن مادة "علم" بهذا المعنى الطبيعي المعروف واردة أيضاً في القرآن] <199>.

تصدير كتاب مؤلف في علم الطبيعة، بهذا الفصل الذي أثنى مؤلفه الفاضل فيه على ذلك العلم، بأنه علم قرآني بموضوعه، و طريقه، و اسمه؛ و خطّأ ظن المنافاة بين حقائقه و حقائق القرآن، إنما كان يناسب في دور من الزمان يوجد فيه أناس متجنبون دراسة هذا العلم و أشباهه بداعية من التعصب الديني في غير موضعه.

أما بعد أن أدخل تدريس هذه العلوم في مدارس الأزهر، و مضى وقت طويل لم يسمع فيه صوت اعتراض من المسلمين على دراستها؛ بل أخذت أصوات الاستغناء و الاستثقال تُسمع موجهة إلى علوم عريقة الدخول في الأزهر، عريقة المكانة في علوم الدين الرئيسية، مثل علم الكلام، الذي بلغ مركزه بين العلوم الإسلامية مبلغ أن يسمى بـ "علم أصول الدين"...

بعد أن أصبحت دنيا الإسلام مقلوبة إلى هذا الحد، فإني أرى تصدير كتاب في علم الطبيعة بهذا الفصل، غير متناسب مع حاجة الزمان، و لازمة التحوط و التحفظ من مؤلفي الإسلام لمصلحة دينهم في كل ما يكتبون...

أرى هذا التصدير غير المصادف لأوانه يزيد في تشويش العقليات، و يؤيد العقلية المنقلبة ضد كل ما ورثنا من أسلافنا بعد اتصال الشرق الإسلامي بالغرب، لا سيما و قد ضمنه المؤلف طعناً في موقف المتكلمين من تحري الحق، و تجنب التقليد الأعمى، و حطاً لمرتبة الاستدلال العقلي؛ فجاء كوخزة في محل الأمراض العصرية، التي أريد مداواتها بهذا الكتاب.

ثم إن المؤلف ذكر العلم الطبيعي عند سوق الكلام في مدائحه باسم "العلم" المطلق، كقوله عنه إنه: "قرآني بموضوعه"، و "قرآني بطريقه"، و "قرآني باسمه"؛ كأنه أي العلم الطبيعي هو العلم لا علم غيره، و هذا الاصطلاح البدعي في التسمية الذي شاع في الغرب، و قلده الشرق العصري من غير محاسبة، نرى الأستاذ المؤلف ينحاز فيه أيضاً إلى جانب المقلدين.

فإذا كان علم الكلام متهماً علماؤه، كما قال الأستاذ الغمراوي بتقليد فلاسفة اليونان<200>؛ و إذا كان ذلك العلم مستغنىً عنه في الإسلام، بل متنافياً مع طبيعته.

كما قال الأستاذ فريد وجدي بك رئيس تحرير "مجلة الأزهر"، في الجزء التاسع من المجلد الثاني عشر من المجلة المذكورة (ص 567): [فإذا كان في الأرض دين تأبى طبيعته أن ينشأ فيه علم الكلام، فهو الإسلام].

و قال (ص 569): [إن مضيّ مائة و خمسين عاماً على أمة أتمت فيها نشوءها، و تطوراتها الاجتماعية، و الأدبية، و وصلت إلى أبعد فتوحاتها، و هي طوال ذلك العهد الذهبي لا تحتاج فيه لعلم الكلام، لأدلّ دليل على أنه هذا علم دخيل لا فائدة له، لا في تقوية إيمان، و لا في تأييد عقيدة، و لا في إنارة طريق].

فإذا كان علم الكلام دخيلاً في الإسلام، و العلم الطبيعي قرآنياً بموضوعه، قرآنيا بطريقته، قرآنياً باسمه؛ فماذا يحاول الأستاذان أن يقولا؟

فهل لمصر أن تخرج "علم الكلام"، رغم كونه مسمى بـ "علم أصول الدين"، عن كلية أصول الدين الأزهرية، و تكتفي بتدريس "العلم الطبيعي" في الأزهر، مخيرا في تسمية "علم الطبيعة" بـ "علم أصول الدين"، أو تخرج كلية أصول الدين عن الأزهر بأن تلغى تلك الكلية؟

لكني أشك في أن الأستاذ الغمراوي، الذي أُعجَب بكتبه و مقالاته، و أحفظ له في قلبي مكاناً ممتازاً بين كتاب مصر، يرضى بهذه النتيجة، و إن كنت مقتنعاً بمرضاة الأستاذ فريد وجدي بك....

فإذا قيل لهذا الأستاذ الثاني: و لم يكن علم الفقه أيضاً، و لا علم أصول الفقه موجوداً في صدر الإسلام؛ فليس ببعيد أن يكون جوابه: فلنلْغهما أيضاً بإخراج دراستهما من كلية الشريعة، أو بإلغاء الكلية نفسها أيضاً[94]؛ مع أن القول باستغناء المسلمين في زماننا عن العلوم التي استغنوا عنها في صدر الإسلام، يكون كالقول باستغنائنا عن أسلحة الحرب، التي لم يستعملها مسلمو عصر الإسلام الذهبي، لا أكثر و لا أقل<201>.

و مما يجب التنبيه إليه، أني لا أغمط العلم الطبيعي حين جعله الأستاذ الغمراوي، الذي عرّض بعلم الكلام و المتكلمين، علماً قرآنياً بموضوعه، و طريقته، و اسمه؛ و أسلّم بأن القرآن دعا عباد الله إلى التفكير في آياته، التي اختزنها في الكون، و أن هذه الآيات تُعرف حق المعرفة، بما يقال عنه اليوم "العلم الطبيعي"....

و سيرى قراء كتابي كيف اعتنيت بشأن هذا العلم، في مبحث دليل نظام العالم، الذي أطلت فيه أكثر من غيره.

لكن هذا العلم، الذي أطراه الأستاذ الغمراوي، من الناحية الدينية، لا يتعلمه من يتعلمه في الشرق و الغرب، و يخوض فيه من يخوض لغرض الاطلاع على آيات الله و أسراره في الكون؛ كيف، و الملاحدة أكثرهم من الطبيعيين، فهل يقاس بهم المتكلمون؟

و أين الذين تزندقوا في زماننا من التعمق في علم الكلام على مقتضى القول المشهور: "من تكلم تزندق"؟

في حين أن زنادقة العصر يلزم أن يبحث عنهم بين الجاهلين بعلم الكلام، المعرضين عنه إعراض رجل عدو لما جهله.

و لم ينس قراء هذا الكتاب ما نقلته في أحد الأرقام السابقة من قول الأستاذ فرح أنطون منشئ "مجلة الجامعة"، و مناظر الشيخ محمد عبده، أن عدو الأديان اللدود في هذا الزمان، هو العلوم المادية، التي لا تعتد بغير المسائل الثابتة بالتجربة الحسية، كما أن الأستاذ الغمراوي، و أستاذ "مجلة الأزهر" متفقان في تفضيل الأدلة التجريبية على الأدلة العقلية.

---

[93] المدرس بكلية الطب، و المنتدب لتدريس علم سنن الكونية بكلية أصول الدين الأزهرية سابقاً.

[94] يأتي في هذا الكتاب إن شاء الله كلام بشأن علم الفقه.

أما أنا، فبصفة رجل من رجال الدين، يكون أول ما يمنعني عن مصافاة "علم الطبيعة" في بحث مقارنته بعلم الكلام، تسميته بعلم الطبيعة، فإن كان هذا العلم علمَ ما وضعتَه الطبيعة من النظم و القوانين التي يسير عليها العالم، و مرماه الذي يدُلُّ عليه اسمه دلالة صريحة، قطعَ صلة العالم بالله إنكاراً لوجوده، و ربطَه بطبيعة الأشياء...

لزم أن يكون معنى تفضيل هذا العلم على علم الكلام تفضيل علم الإلحاد على علم الإيمان بالله؛ و لهذا نرى الأستاذ الغمراوي المؤمن بالله يغير اسم الطبيعة عند تفضيل علمها على علم الكلام<202>، و يعبر عنها بـ "سنة الله الكونية".

و لكن الناس لا يستمعون إلى تغيير الأستاذ الغمراوي، مصرين على تسميته بـ "علم الطبيعة"... و بالنظر إلى هذا الإصرار يسقط الاعتراض علينا، بأنا نتمسك بالألفاظ و الأسماء معرضين عن المسميات و المقاصد[95].

على أن المقصود من "علم الطبيعة"، لا يمكنه أن يعادل المقصود من "علم الكلام" في خدمة الإسلام، بعد التنازل عن دلالة الأسماء و الألفاظ..

بل لا يعادل "علمَ الكلام" غيره من العلوم الإسلامية، فضلاً عن "علم الطبيعة"، و قد صرح العلماء المحققون، أمثال القاضي عضد الدين الإيجي، صاحب المواقف، و سعد الدين التفتازاني، و السيد الشريف الجرجاني؛ بأنه أشرف العلوم، لكونه أساس الأحكام الشرعية، و رئيس العلوم الدينية، و التكلم ضد "علم الكلام"، إن كان سلامة صدر في الماضي، أو غفلةً عن المستقبل، فهو اليوم بعد ظهور أعداء جديدة، يهاجمون الأدلة العقلية، و يسعون لهدم أسس الدين من وراء هدم علم الكلام جناية أو جهالةً.

قال العلامة الشريف الجرجاني في شرح المواقف: [إن المقصد الأعلى في علمنا هذا، إثباته تعالى، فإذا لم يثبت وجود صانع، عالم، قادر، مرسل للرسول، منزل للكتب، لم يتصور علم تفسير، و حديث، و فقه، و أصوله؛ فكلها متوقف على علم الكلام].

نعم، إن دليل نظام العالم، الذي تمسكت به في إثبات وجود الله، و عددته من خير<203> الأدلة، يستفاد من علم الطبيعة، و من هذا كان علماء هذا العلم أجدر بتصديق وجود الله، كما ذكرته عند مؤاخذة الملاحدة من أولئك العلماء...

لكني قلت مع ذلك، إن الدليل المأخوذ من العلم الطبيعي التجربي، ليس بكاف في إثبات وجود الله، ما لم ينضم إليه شيء من الدليل العقلي الكلامي[96]، و لا أن إثباته موضوع ذلك العلم، أو مقصوده، كما كان ذات الله، و صفاته، و أفعاله في الدنيا و الآخرة، موضوعَ علم الكلام، أو مقصوده الأعلى، على أن يكون موضوعه المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية، تعلقاً قريباً أو بعيداً؛ و هو التعريف المختار..

فهل يعرف الأستاذ رئيس تحرير "مجلة الأزهر" -القائل: [بأن علم الكلام لا فائدة له، لا في تقوية إيمان، و لا في تأييد عقيدة، و لا في إنارة طريق]- أن موضوع علم الكلام كل معلوم، يتعلق به إثبات العقائد الدينية، تعلقا قريباً أو بعيداً...

و لذا صرحوا بأن هذا العلم يتناول من كل علم شرعي، أو غير شرعي كل ما يتعلق بالعقائد الدينية الإسلامية... حتى إن العلم الطبيعي إذا كان فيه ما يصلح للنظر في درس عقائد الإسلام، فهو داخل في علم الكلام، و قد جعلوا موضوعه: "المعلوم"، ليشمل الموجود، و المعدوم.

قال في "المواقف": [المقصد الرابع في مرتبته -أي مرتبة علم الكلام- قد علمت أن موضوعه أعم الأمور و أعلاها، فيتناول أشرفَ المعلومات التي هي مباحث ذاته تعالى، و صفاته، و أفعاله.

و غايته التي هي الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان، و إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة، و إلزام المعاندين بإقامة الحجة، و حفظ قواعد الدين عن أن تزعزعها شبه المبطلين، و بناء العلوم الشرعية عليه، و تقوية الإخلاص في العمل بأحكام الشرع بتقوية الاعتقاد... و التي غاية كل ذلك الفوز بسعادة الدارين - أشرف الغايات و أجداها-.

و دلائله يقينية يحكم بها صريح العقل، و قد تأيدت بالنقل، و هي الغاية في الوثاقة، و هذه هي جهات<204> شرف العلوم لا يعدوها؛ فهو إذن أشرف العلوم].

قال: [و مسائله كل حكم نظري لمعلوم هو أي ذلك الحكم النظري يدخل في العقائد الدينية، أو يتوقف عليه إثبات شيء منها توقفاً قريباً أو بعيداً... و هو العلم الأعلى، الذي ينتهي إليه العلوم الشرعية كلها؛ فليست له مبادئ تُبيَّن في علم آخر، سواء كان شرعياً، أو غير شرعيٍّ].

و قال شارح المواقف، العلامة الشريف الجرجاني: [و ذلك أن علماء الإسلام دونوا لإثبات العقائد الدينية المتعلقة بالصانع تعالى، و صفاته، و أفعاله، و ما يتفرع عليها من مباحث النبوة، و المعاد؛ علماً يُتوسل به إلى إعلاء كلمة الحق فيها، و لم يرضوا أن يكونوا محتاجين فيه إلى علم آخرَ أصلاً، فأخذوا موضوعه على وجه يتناول تلك العقائد، و المباحث النظرية، التي تتوقف عليها تلك العقائد، سواء كان توقفها عليها باعتبار مواد أدلتها، أو باعتبار صورها؛ و جعلوا جميع ذلك مقاصد مطلوبة في علمهم هذا....؛ فجاء علماً مستغنياً في نفسه عما عداه، ليس له مبادئ في علم آخر].

قال في المواقف: [فمنه يستمد العلوم الشرعية، و هو لا يستمد من غيره؛ فهو رئيس العلوم الشرعية على الإطلاق، لنفاذ حكمه فيها بأسرها، و ليس ينفذ فيه حكم شيءٍ منها].

أقول: يُعلم من هذا سبب الفرق بين كلام القدماء، و كلام المتأخرين، الذي مزجوه بفلسفة اليونان، و الذي عيب عليه ذلك من بعض السلف؛ كما حكي عنهم تحريم علم المنطق.

و إني أرى هذا التعييب، و ذاك التحريم نفسهما عيباً، يجب تنزيه الإسلام -الذي يباهي بكونه دين عقل- عن مثله، كائناً من يكون العائبون[97].

---

[95] لأن هذا الإصرار العام في الغرب و الشرق من غير الأستاذ الغمراوي المؤمن بالله، ينادي بالإصرار على إسناد نظام الكون إلى طبيعة الأشياء و التمسك بفكرة الاستغناء عن الاعتراف بناظم من خارج السكون يسمونه الله، لكونه خارجاً أيضاً عن دائرة العلم الحديث، الذي لا يذعن لغير ما ثبت بالتجربة -كما تمسك بطل العقلية العلمية الأستاذ كاسب الجائزة الأولى من لجنة المباراة الصحفية، بمقالته المرسلة من باريس المذكورة في الرقم 6-؛ و هذا العلم غير المؤمن بالله يكون ممدوح الأستاذ الغمراوي المؤمن؛ حينما يكون العلم المؤمن و علماؤه مذمومين عنده!! فهل العلم الحديث الذي يحتكر له المغرمون به اسم "العلم"، و يقصرون لقب العلماء على علمائه، يراهم الأستاذ، و علمهم غير المؤمن أحق بالانطباق على "أولى العلم" في قوله تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط}، من العلم القديم المؤمن بالله، و علمائه، الذين يدخل فيهم علماء التوحيد، أي المتكلمون دخولاً أولياً؟

[96] و لهذا يكون في علماء الطبيعة الذين لا يضمون إلى علومهم الأدلة العقلية الكلامية ملاحدة.

[97] قال الإمام القشيري في رسالته المشهورة، المسماة "شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة" -على ما نقل عنها التاج السبكي في طبقاته، رداً على القائلين بأن الاشتغال بعلم الكلام بدعة، و مخالفة

فهل نجعل الإسلام كالمسيحية في<205> إبعاد العقل و المعقولات عن ساحة عقائده؟

فإذا كان في الفلسفة ما يؤيد الدين، أو المذهب الحق في الدين، فلا لوم على عالم كلامي، إذا ذكرها في علم الكلام استظهاراً به لدينه، أو مذهبه...

و إذا كان في الفلسفة ما يتنافى مع الدين، أو المذهب الحق في الدين، فلا لوم على عالم كلامي، إذا ذكرها في علم الكلام، استظهاراً به لدينه، أو مذهبه..

و إذا كان في الفلسفة ما يتنافى مع الدين، أو المذهب الحق في الدين، و ذكره العالم الكلامي للرد عليه، فلا لوم أيضاً.

و لا تنس أن فلاسفة اليونان الذين دخلت فلسفاتهم في كلام المتأخرين، مثل: أرسطو، و أفلاطون، كانوا قبل كل شيء موحدين، مثبتين الله، الواجب الوجود، و واضعين منطق الاستدلا العقلي الذي لا بد أن يستند إليه من يريد إثبات وجود الله في نفسه، و في إزاء منكريه، استناداً إجمالياً أو تفصيلياً.

و قد وقع مني في هذا الكتاب اشتغال بفلسفة الغربيين، و نقل عن حقهم و باطلهم للاستظهار<206> بالأول، و الرد على الثاني.

و لعلي ما أسأت صنعاً، و لم أشتغل بما لا يعنيني في خدمة الحق، و عقيدة الإسلام التي هي قطب دائرة الحق؛ كما لم يكن أسلافي الذين أخذوا في كتبهم ما رأوا أخذه من فلسفة اليونان، مسيئين، و لا مشتغلين بما لا يعنيهم.

و إذا كانت مباحث الطبيعيات في علم الكلام لا تسد حاجة العصر الحاضر، فلا أقل من أن تكون هذه المباحث جواباً ماثلاً أمام أعين المولِّينَ وجوههم عن علم الكلام، جاعلين من العلم الطبيعي مزاحماً له، مفضَّلاً عليه....

جواباً بأنهم لا يعرفون علم الكلام، و لا كون دائرته الواسعة، تحيط بالعلم الطبيعي.

أما أن مباحث الطبيعيات في علم الكلام المنتقل إلينا من علمائنا باسم كلام المتأخرين، لا تسد حاجة العصر الحاضر، فلا لوم على علماء الكلام من ذلك، و هم كانوا حاكمين في علوم زمانهم حتى جعلوا ما ليس بإسلامي من العلوم إسلامياً، و أدخلوه في علم الكلام، الذي عرفتَ مبلغَ سعة موضوعه؛ و حمَّلوا بتأسيس هذه السنة المباركة واجباً كبيراً على عواتق الخلف، و الخلف بعد أن مكثوا حقبةً من الدهر في عجزهم و تواليهم عن تحمل هذا الواجب، أخذوا يريدون لإنساء واجبهم إنساءَ علم الكلام نفسه.

فإذا كانت مكانت علم الكلام عند علماء الإسلام وسعة دائرته كما قدمنا، فحكم رئيس تحرير (مجلة الأزهر) ضده حكم جاهلي، ناشئ من عقلية جاهلية حديثة، ليس فيها تقدير العلوم الإسلامية، و الجهود التي بذل علماؤنا فيها، لإعلاء كلمة الحق، قدرها؛ و إنما فيها نكران ذلك التراث العظيم.

و المؤسف أن أكثر الذين يكتبون عن العلوم في الجرائد، و المجلات المصرية، يحومون حول الناحية التاريخية أي تراجم العلماء من غير ولوج في داخل العلم.

فمن نظر إلى تاريخ علم الكلام وجد فيه فتناً و إحناً، و محناً تكفي لتنفيره عنه، إن لم تكن عنده خبرة من لباب العلم نفسه، أو رغبة غريزية في استقصاء دقائق العلوم.

و إني أذكر شاهداً على صدق ما قلته، و أرجوا من الله تعالى العفو، و المغفرة، و من القراء الكرام، أن لا يحملوه مني على الإعجاب بالنفس، و هو أن مسألة وحدة<207> الوجود، من يدري كم كتب عنها أناس في الصحف، و المجلات، بل الكتب أيضاً بمصر؟

فليقارن من شاء، ما كتبوه مع ما كتبته عنها، و سيجيء إن شاء الله في الباب الثاني من هذا الكتاب.

بقي سؤال في أهمية علم الكلام، و لزوم دراسته، و هو أن كل أحد لا يتسنى له الانتفاع بهذا العلم في تثبيت، أو تصحيح عقائده، و أنه يكثر الخلاف في مسائله، و يكثر الخطأ بعدد كثرة الخلاف، بناء على أن الخلاف يكون أحد طرفيه حقاًّ، و أحد طرفيه باطلاً...

و جوابي على هذا السؤال:

أولاً: أن أكثر الاختلافات الواقعة في علم الكلام، لا يبلغ مبلغ إكفار المخالف[98]، مثل أن متكلمي المعتزلة الذين قامت أشد الحرب الكلامية بينهم و بين علماء أهل السنة، تمسكهم بالإسلام أقوى بكثير من المسلمين الحديثين، المستهينين بعلم الكلام؛ فليس منهم أحد ينكر اليوم الآخر، كالأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر.

و ثانياً: أن الذين يشكون من عدم جدوى علم الكلام، يريدون أن يجديهم ذلك العلم، من غير إتعاب الأنفس في دراسته.

و ثالثاً -و هو المهم-: أن استفادة كل أحد من أي علم، لا سيما العلوم العزيزة المنال، تكون على قدر حظه من العقل، و حظه من هداية الله و توفيقه.

لطريق السلف-: [الاسترواح إلى مثل هذا الكلام صفة الحشوية، الذين لا تحصيل لهم؛ و كيف يظن بسلف الأمة أنهم لم يسلكوا النظر، و رضوا بالتقليد؟

حاش لله أن يكون ذلك وصفهم؛ و لقد كان السلف من الصحابة رضي الله عنهم مستغنين بما عرفوا من الحق، و سمعوا من الرسول من أوصاف المعبود، و تأملوه من الأدلة المنصوبة في القرآن، و أخبار الرسل، فلماا ظهر أهل الأهواء، و البدع؛ من الخوارج، و الجهمية، و المعتزلة؛ و أوردوا الشبه، انتدب أئمة أهل السنة لمخالفتهم، و الانتصار للمسلمين بمعاينة طريقتهم، و الرد عليهم، لما أشفقوا على القلوب أن تخامرها شبههم؛ فحاموا عن دين الله بإيضاح الحجة...].

إلى أن قال: [و في الجملة لا يجحد علم الكلام إلا أحد رجلين: جاهل، ركن إلى التقليد، و شق عليه سلوك أهل التحصيل، و خلا من طريق أهل النظر، و الناس أعداء ما جهلوا، فلما انتهى عن التحقيق بهذا العلم، نهى الناس، ليضل غيره كما ضل...؛ أو رجل يعتقد مذاهب فاسدة، فينطوي على بدع خفية، يلبس على الناس عوار مذهبه، و يعمي عليهم فضائح طويته، و عقيدته، و يعلم أن ذوي التحصيل من أهل النظر هم الذين يهتكون الستر عن بدعه، و "القلاب]؛ مزيف النقود.

[لا يحب من يميز النقود، و الخلل فيما بيده من النقود الفاسدة، لا في الصراف ذي التمييز و البصيرة].

فانظر، هل الأستاذ فريد وجدي بك أحد ذينك الرجلين، أو كلاهما، حيث يتقلب دائماً في النقل عن أقوال فلاسفة الغرب، في حين أنه يطعن في علم الكلام الإسلامي، مع من يطعن لاختلاطه بالفلسفة القديمة.

و إذا كان الحق يقال، فالسبب الحقيقي للأستاذ في معاداة علم الكلام، أنه لا يستطيع التمسح بذلك العلم من قشره، إذ لا قشرَ له، كما يتمسح بفلسفة الغرب من القواميس المدونة من غير دخول في لبها؛ حسبك دليلاً على صدق قولي هذا، ما سيأتي في محله من هذا الكتاب الخاصّ بالنظر في رد الأستاذ على الملحد الجديد، إسماعيل أدهم مؤلف كتاب "لماذا أنا ملحد؟"... أن الأستاذ لا علم له بالصورة الصحيحة لفلسفة "كانت"، فيما يتعلق بإثبات وجود الله، و انتقاده لعامة الأدلة النظرية القائمة على هذا المطلب.

[98] يجدر بنا التنبيه إلى أن أكثر الخلافات في علم الكلام مع كونه لا يؤدي إلى إكفار المختلفين بعضهم عن بعض، لا تقِلُّ عن أن يكون جانب الخطإ فيه ضلالاً، و من المعروف تسمية الفرق المخطئة في هذا العلم بالفرق الضالة، و لهذا لا يمكن الجمع و التأليف بين مذاهبه التي تدور بين الإيجاب و التحريم، فمن أراد توحيد المذاهب الكلامية، و دعا الناس في دروسه و أحاديثه إلى رفع هذه الخلافات فيما بينهم، و هم على دين واحد -كما وقع من الأستاذ الأكبر المراغي؛ راجع حديث رمضان له، نشرته الأهرام قبل وفاته بقليل-؛ فمنشأه عدم الاعتقاد، و الاقتناع من نفس الداعي بأي مذهب من تلك المذاهب؛ فلهذا يكون من السهل عليه التنازل لكل أحدٍ من مذهبه الذي استقر رأيه على اختياره؛ و مما يجدر أن يذكر بهذه المناسبة أن التقليد لا يجوز في المذاهب الكلامية المتعلقة بالاعتقاد؛ بخلاف المذاهب الفقهية المتعلقة بالأعمال.

فإذا كان القرآن يضل الله به كثيرا و يهدي به كثيراً، فما ذنب<208> علم الكلام، إن لم يكن نافعاً في نظر الأستاذ فريد وجدي بك؟

و هل نفعته مئات من آيات كتاب الله، ناطقة بدلائل قدرة الله على بعث الموتى من قبورهم، بعد أن كانوا تراباً و عظاماً، لتجعله مصدقا لليوم الآخر، يوم البعث و الحشر، و مصدقاً لدلالة تلك الآيات القطعية على ذلك اليوم، حتى تنفعه دلائل علم الكلام في تأييد عقائد الإسلام؟

فرَّقنا بين الأستاذين، في الرضى بإلغاء تدريس علم الكلام؛ لعلمنا بأن الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر، لا يقنعه إثبات وجود الله، الذي كان القائم به إلى يومنا هذا علم الكلام، و أنه ينتظر فيه، و يستنظر غيره من غير القانعين، فيحيل إثباته على ما يؤمله من مستقبل البحوث النفسية الجارية في الغرب، و لا إخال الأستاذ الغمراوي رغم تكلمه ضد علم الكلام يكون مثل الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر صبوراً عن البت الحالي في إثبات وجود الله.

و من عجائب الأستاذ رئيس التحرير، أنه أورد في المقالة التي تكلم فيها ضد علم الكلام أيضا، و هي في (الجزء الثامن من المجلد الثاني عشر)، أي قبل الجزء الذي نقلنا عنه قوليه السابقين ضد علم الكلام نقلاً طويلاً عن (رسالة التوحيد) للشيخ محمد عبده، معنوناً له بـ [الإمام الحجة]، و مستشهداً بكلامه في رسالته....

فهل هو لا يعرف أن تلك الرسالة، رسالة في علم الكلام، و أن أحد أسمائه "علم الكلام": "علم التوحيد"، و من اسمائه "الفقه الأكبر"، كما أن من اسمائه "علم أصول الدين"؟

و أن الشيخ لم يكف في رسالته عن الخوض في مسألة القضاء و القدر، التي ينهى الأستاذ عن التكلم فيها، مستنداً إلى آية المحكم و المتشابه في القرآن؛ حتى إن الشيخ يختار عند المقارنة بين المذاهب المختلفة في تلك المسألة، مذهب إمام الحرمين، الذي انتقدناه نحن في (تحت سلطان القدر)؟

و الأستاذ رئيس تحرير (مجلة الأزهر)، كما أنه انتقد -بنقد علم الكلام- كتاب من اتخذه "الإمام الحجة" من حيث لا يشعر، انتقد أيضاً بنقد هذا العلم إمامَه الأكبر المراغي، المتكلم عن مسألة الجبر، و القدر، في أحد دروسه المنشورة في مجلة الأزهر.

فإن كان<209> هذا الإمام، بطعنه في مذهب الجبر، لم يشتغل في ظن الأستاذ بعلم الكلام، بل بإبطال مذهب من المذاهب الكلامية، فالسعي في إبطال مذهب من المذاهب المذكورة في علم الكلام، اشتغال بعلم الكلام أيضاً؛ بل اشتغال بإثبات مذهب كلامي، هو مذهب القدرية، أي المعتزلة بدل مذهب الجبر.

أما إن إمام الأستاذ لم ينجح في إبطال ما حاول إبطاله في الدرس المذكور، و إثبات ما حاول إثباته، فتلك مسألة أخرى، يأتي بحثها منا في محل آخر من هذا الكتاب.

<u>و من عجائب الأستاذ في (الجزء التاسع المذكور)، قوله (ص: 568): [إن آية المحكم و المتشابه في القرآن، لا تسمح بنشوء علم الكلام في الإسلام].</u>

في حين أن الإمام الرازي، الذي يسميه الأستاذ دائماً عند الاستشهاد بكلامه في تفسير آية من آيات القرآن [إمام المفسرين][99]؛ يقول في تفسير آية المحكم و المتشابه:

[إن هذه الآية تدل على علو شأن المتكلمين، الذين يبحثون عن الدلائل العقلية، و يتوسلون بها إلى معرفة ذات الله و صفاته].

فانظروا هذه الشهادة في علماء الكلام، و دلائلهم العقلية...

و آية المحكم و المتشابه في القرآن التي هي قوله تعالى: {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب و أخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله و ما يعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا و ما يذكر إلا أولو الألباب}؛ سلاحٌ عجيبٌ في يد الأستاذ فريد وجدي يستعمله في كل زمان بما يقتضي هواه.

و ربما يكون قراء مقالاته الجديدة في (مجلة الأزهر) غير عارفين، أو ناسين، كون الأستاذ قد تمسك بهذا السلاح< 210> قبيل توليه الوظيفة الأزهرية، لما جرى بينه و بيني نقاش على صفحات (جريدة الأهرام)، في مسألة معجزات الأنبياء المذكورة في القرآن؛ فأنكر تلك المعجزات، و أضاف إليه إنكار البعث بعد الموت، بحجة عدم إمكانها عقلاً، و ألغى في سبيل إنكاره جميع الآياتِ الصريحةِ الواردةِ في القرآن بشأن المعجزات و البعث؛ راداً لها إلى المتشابهات، غير الصالحة للاحتجاج.

و لم يفكر في أن آية المحكم و المتشابه، إذا كانت تنعى على مبتغي التأويل للمتشابهات ابتغاء الفتنة، فماذا يكون حال من يبتغي تأويل المحكمات، مثل آيات المعجزات، و آيات البعث، لاسيما آيات البعث، التي هي من أصرح آيات القرآن و آكدها؛ ليردها إلى المتشابهات، أي ليلغيها تحريفاً للكلم عن مواضعه؟

ثم إن آية المحكم و المتشابه تسع احتمالين رئيسيين، يُظهرهما الوقف على جملة: {و ما يعلم تأويله إلا الله}، أو عطف: {و الراسخون في العلم} على {الله}؛ و عليه؛ فإما لا يعلم تأويل المتشابه غير الله، أو غير الله و غير الراسخين في العلم.

فالآية نفسها إذن من المتشابهات، و الأستاذ فريد يتبع هذه الآية المتشابهة، فيجعل منها سنداً في غير مناسبة قريبةٍ، و لا بعيدةٍ، يستند إليه في إلغاء آيات المعجزات، و آيات البعث في القرآن، بردها إلى المتشابهات غير مفهومة المعنى، و لا مطلوبة الفهم، لكونه من الذين في قلوبهم زيغ، و هو يبتغي فتنة إزاحة المؤمنين بمعجزات الأنبياء و باليوم الآخر، عن عقائدهم.

آية المحكم و المتشابه يحتاج تفسيرها في حد ذاتها إلى كلام طويل، لا يتحمله المقام؛ لكن علاقة الآية بمقامنا مقصورة على ما إذا كان فيها تأييد لدعوتى الأستاذ فريد وجدي بك الغريبتين، اللتين غرابتهما أشد من بطلانهما، و بطلانهما أشد من غرابتهما.

أحديهما: دلالة الآية على ممنوعية الاشتغال بعلم الكلام في الإسلام؛ فكأن الآية تنهى المؤمنين عن إثبات وجود الله بعلم الكلام ضد المنكرين وجوده، أو الشاكين فيه، و تأمرهم بالانتظار إلى أن يثبته الغربيون ببحوثهم النفسية "اسبيرتيزم"؛ فيراه الناس بأعينهم، و يلمسونه بأيديهم، كما رأوا النفس، و لمسوها على ما يقولون؛ و إثبات الموجود<211> -على زعمه- لا يكون إلا هكذا.

و ثانية الدعويين: كون الآية، أعني آية المحكم و المتشابه قرينة مانعة عن دلالة آيات المعجزات، و آيات البعث في القرآن على ما تدل عليه من وقوع المعجزات في أزمنة الأنبياء السابقة، كما حكى القرآن أنباءها، و وقوع بعث الأموات من قبورهم إذا جاء وقتها، كما قال الله تعالى: {و نفخ في الصور فصعق من في السماوات و من في

---

[99] المعروف بين علماء الإسلام إطلاق لقب الإمام على الرازي في العلوم العقلية مثل الكلام و المنطق، لا في التفسير؛ و إن كان له تفسير كبير مسمى بـ "مفاتيح الغيب"؛ لكن الأستاذ الذي لا يعرف هذه العلوم من كتب لا يعرف أي علم هو الذي كان الرازي أماماً فيه؟

الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون}؛ يعني أن المعجزات لم تقع، و أن البعث بعد الموت لا يقع، و لم يكذب الله في آيات المعجزات، و البعث، و لكنه تكلم بما لا يفهم أو لم يقدر -حاشاه- على تفهيم ما هو مراده من تلك الآيات على الرغم من كمال وضوحها.

و قد دلت على هذه الحقيقة الخفية على جميع قارئي القرآن، غير الأستاذ، آية المحكم و المتشابه، التي لا تبلغ صراحتها و وضوحها معشار ما في أيات المعجزات، و آيات البعث، و لا سيما آيات البعث من الصراحة، و وضوح الدلالة.

فكل آية غيرها في القرآن -على زعم الأستاذ- يمكن التحلل من وجوب التصديق بمضمونها، لكل من شاء ذلك، و طريقة ردها إلى المتشابهات، مهما كانت صريحة المعنى، فهي لا تكون أصرح من آيات البعث، التي قد أوردنا نماذج منها في (الرقم 5).

لا، لا، يا أستاذ، لم يكن دليلك الحقيقي في عدم تصديقك بآيات المعجزات، و البعث بعد الموت، متلاعباً بها، و بعقول الناس في دلالتها، آية المحكم و المتشابه؛ فلست مصاباً في عقلك لهذا الحد، و لا الناس مصابين، ليلتبس عليهم موقف آية المحكم و المتشابه من آيات المعجزات، و آيات البعث!

و إنما دليلك الحقيقيّ ظنّك بأن العلم الطبيعي، الذي أطراه الأستاذ الغمراوي، و جعله: [قرآنياً بموضوعه، قرآنياً بطريقته، قرآنياً باسمه]؛ يمنع صدق آيات المعجزات، و آيات البعث، مع الظانين من أهل الغرب، و الشرق المقلد.

و حضرتك تؤمن بأحكام العلم، أكثر منك بآيات القرآن[100]؛ كما أشرت إليه فيما<212> كتبته، رداً عليَّ، قبل توليك الوظيفة الأزهرية، و ما استنادك إلى آية المحكم و المتشابه غير تستر و تعلل -و بتعبيرك أنت نفسك: [استبطان الإلحاد]-.

فلو ذكرت للأستاذ الغمراوي سندك هذا في إنكار معجزات الأنبياء، و البعث بعد الموت؛ لضحك منك، على الرغم من اشتراكه معك في الحط عن منزلة علم الكلام.

و لهذا كان الواجب على هذا الأستاذ، الذي لا يمكن أن يكون من الظانين بأن العلم الطبيعي يمانع صدق آيات المعجزات، و آيات البعث، كما ظننتَهُ لما جرى بيني و بينك نقاش في مسألة المعجزات، و البعث...

كان الواجب<213> عليه أن يشاركني في الرد عليك، وقت تلك المناقشة، أو يكتب شيئا من هذا القبيل، عند تأليف كتابه، و يدرجه في المقدمة، التي صدر بها الكتاب، تبرئة

---

[100] و ليس العلم الذي تؤمن به أكبر من نصوص كتاب الله جديراً بهذا الاسم، على إطلاقه محيطاً بجميع الخلائق؛ و إنما هو علم خاص بالماديات، يستند إلى التجارب الحسية، و يقصر مداه عن اليقين الضروري الأيدي، و هناك عِلمٌ أسْمى، و أقوى، يغفل عنه أستاذ مجلة الأزهر، و يستهين به عند استهانته بعلم الكلام، الذي يبني علماء الإسلام مسألة وجود الله، على الأدلة المأخوذة منه، و يتحدون به المنكرين، كما أني سأتحداهم، و أتحدى أستاذ مجلة الأزهر، لما جاء في هذا الكتاب دور الاستدلال على وجود الله بدليله العقلي الكلامي، فإن وجد فيه محلا للاعتراض، فليقل، و ليدخل البحث و النقاش من بابه؛ و إلا فلا ينفع الطعن في علم الكلام، بأنه دخيل في الإسلام لا فائدة له في تقوية إيمان، و لا في إنارة طريق، لأن هذا طعن من ضل الطريق، و نكب عن طريق علماء الإسلام غير مستمع لصوت الداعي إليها، منتظراً لأصوات الغربيين، المشتغلين بالبحوث النفسية أن يقولوا: "إنا وجدنا الله"، "لمسناه بأيدينا، و قبضنا عليه ليراه أستاذ مجلة الأزهر، و يلمسه بيديه، فيؤمن بوجوده".

و هذا الأستاذ الذي يُلْقي -من عُلا منبرِ الأزهر منذُ عهْدِ عِدَّةٍ من شُيوخهِ الأكَابِرِ- درس اليأس للمسلمين، من: "إنقاذ دينهم، و إخراجه من حفرة الأساطير، التي قذف به العلم الحديث إليها مع الأديان الأخرى"؛ و خصيصاً درس اليأس من إثبات وجود الله، الذي هو رأس الأديان، بأدلته العقلية المبسوطة في علم الكلام، ساعياً لإسقاطِ هذا العلم القديم من عيون المسلمين المعاصرين، و معلقاً اعتماده على الدليل المحسوس، الملموس، الذي لا بد أن يكتشفه الباحثون الغربيون!!

فكأن ذلك الدليل لا يكون عند الأستاذ دخيلا في الإسلام، نعم، إنه لا يكون دخيلاً عندنا أيضاً، بناءاً على أن اكتشافه من المستحيلات التي لا تقع، و قولنا عنه إنه لا يكون دخيلا في الإسلام صادقٌ لصدق القضية السالبة، مع عدم وجود موضوعها.

لكن الأستاذ لا يعرف -لعدم معرفته بعلم الكلام- أن الحصول على الدليل الملموس لإثبات وجود الله محال، كما أنه لا يعرف السبب في صدق قولنا بأن ذلك الدليل المنتظر المستحيل، لا يكون دخيلا في الإسلام لعدم معرفته بعلمي الكلام، و المنطق.

و ذنب علم الكلام، الذي لا يقتنع الأستاذ بدليله الموجود لإثبات وجود الله، فيحيله على الدليل الملموس المحال، أن أدلة علم الكلام تكون مبنية على العقل، و المنطق، اللذين لا يحبهما الأستاذ؛ و قد ساقه عدم معرفته بعلم الكلام، إلى البحث عن الله الذي فقده مع عقله و منطقه في الأثير، كما سبق منا الكلام عليه؛ و فيما يأتي من هذا الكتاب، سينجلي للقارئ كيف أخفق هذا الأستاذ في ردوده على الملحد الجديد، مؤلف (كتاب لماذا أنا ملحد؟)؛ و ذلك الإخفاق أيضاً ناشئ من عدم معرفته بعلمي الكلام و المنطق.

و آخر ذنوب علم الكلام و أدلته العقلية المنطقية على أستاذ مجلة الأزهر، أو بالأولى، أوْلى ذنوبه: أنه صعب المزاولة، يحتاج إلى العقل السليم، المجهز بالمنطق الفطري، و لهذا تراه في كتاباته يعيب تلك الأدلة بكثرة وقوع الخلاف و الأخطاء فيها، فلما لم يعول على عقله في تمييز الدليل الصحيح من الفاسد بين الأدلة العقلية، و لا على عقول المميزين من علماء الإسلام، وجد الطعن على علم الكلام أسهل من الدخول في ميدان الاستدلال على وجود الله الذي هو ميدان هذا العلم، كما أنه ميدان القرآن القائل: {أفي الله شك فاطر السماوات و الأرض}.

لكن الأستاذ لم يقتنع بأدلة علم الكلام و القرآن، و عدها دخيلة، فبقي على شك في ثبوت وجود الله، أو على الأقل بقي عاذراً للشاكين من المتعلمين العصريين، ملقياً درس اليأس عليهم إلى أن يظفر الغربيون على الدليل الملموس بإدخاله في متناول التجربة الحسية رغم تعذر دخوله فيه.

للعلم الطبيعي، الذي يُحسن الظن به، و يقرِّبه إلى القرآن، من ظن سيئي الظن.

أما دليل الأستاذ رئيس (مجلة الأزهر) من هذا العلم ضد آيات المعجزات و البعث، و ما بعده من أحوال الآخرة، فإني بعون الله تعالى و توفيقه، سأقضي عليه في الباب الثالث من هذا الكتاب.

نعود إلى الكلام على فصل العلم و الدين، الذي صدر به الأستاذ الغمراوي كتابه في علم الطبيعة.

كان الأستاذ المؤلف أثنى على العلم الطبيعي بكونه: [قرآنياً بموضوعه، و طريقته، و اسمه]؛ ثم فصَّل هذه القرابة بين ذلك العلم و القرآن الحكيم بمهارة علمية، و خبرة دينية، لا بد أن أشكره عليهما مع كل قارئ غيور على دينه و قرآنه.

إلا أن المؤلف قال في آخر الفصل: [لو بحثنا في تاريخ الفلفسة الإسلامية، و ما كان بين علماء المسلمين من خلافات كلامية، وجدنا أكثر هذه الخلافات -إن لم يكن كلها- راجعا<214> إلى قضايا فلسفية، أخذها المسلمون عن اليونان، من غير تمحيص].

و هنا اتهم الأستاذ علماء الإسلام المتكلمين بالتقليد الأعمى، الذي شدد النكير عليه فيما سبق من كلامه، باسم العلم و القرآن المتفق فيه مع العلم.

ثم قال: [كان قدماء الفلاسفة يرون العقل مصدراً للحقائق، مستغنياً بذاته عن المشاهدة، أما محدثوهم فيرونه وسيلة؛ أما الحقائق نفسها عند العلم الحديث، فهي خارج النفس و خارج العقل؛ كان القدماء لا يرون امتحان الأشياء نفسها ضرورياً لطلب الحقيقة؛ أما المحْدثون فلا يرون سبيلاً للوصول إلى الحقيقةِ إلا امتحان الأشياء تحت إشراف العقل. و العلم الحديث باكتشافاته و اختراعاته، قد وُلد حين ترك الإنسان مذهب الأقدمين في طلب العلم عن طريق التفكير البحث، و بدأ هو يطلب العلم عن طريق المشاهدة مع التفكير؛ لذلك كان الدور الأول من أدوار نشوء العلم الحديث، مشاهدة تكاد تكون بحتة، ليس للتفكير فيها إلا بقدر ما يضمن صحتها].

و قال أيضا: [إن العلم يمنع التقليد في النظر، من غير وقوف على الدليل، و الاقتناع به؛ و العلم الحديث يخالف العلم قديماً في هذا، لأن العلماء قديماً -خصوصاً في القرون الوسطى-، كانوا كثيراً ما يقنعون في الاستدلال على الصحة و البطلان بإثبات أن القضية توافق، أو تخالف رأي فلان، أو علان من المشاهير؛ فكان ما يثبت عن أرسطو مثلاً حجة قاطعة في موضوعه، من غير أن ينظر في رأي أرسطو هذا في ذاته، و من غير أن يسأل ما دليل أرسطو؟ و كان هذا منبع شر كبير، و لعله كان سبب كثير من الشُّبه الكلامية التي قامت بين علماء المسلمين، بعد أن ترجمت كتب اليونان في العصر العباسي، فيما يتعلق بالعلاقة بين الشريعة، و ما كانوا يسمونه الحكمة، يريدون بالحكمة غالباً ما أخذوه عن حكماء اليونان مثل أفلاطون، و أرسطو، حتى جاء أمثال الغزالي، فوضعوا الأمر في نصابه].

و أنا أقول عدد الأستاذ مفاخر العلم الحديث، قائلا إنه إن فعل كذا، و فعل كذا، و بقي<215> شيء فقط من مفاخره لم يقله؛ و كان الأستاذ فريد وجدي بك قاله في أثناء حدوث النقاش بيني و بينه، و هو يهددني بالعلم الحديث لأتقهقر في الدفاع عن عقائد الإسلام، المبنية على المؤيدات العقلية و النقلية، دون التجربة و المشاهدة في الحال الحاضر، كاعتقادنا بوقوع معجزات الأنبياء في الزمان الماضي، و وقوع البعث بعد الموت في المستقبل.

و ذلك الباقي من مفاخر العلم الحديث، الذي لم يذكره الأستاذ الغمراوي، و ذكره الأستاذ فريد وجدي بك، يفهم من قوله الآتي؛ و قد نقلته عنه من قبل أيضا.

[ولد العلم الحديث، و ما زال يجاهد القُوى، التي كانت تساوره، حتى تغلب عليها، و دالت الدولة إليه في الأرض، فنظر نظرة في الأديان، و سرى عليها أسلوبه فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير)، ثم أخذ يبحث في اشتقاق بعضها عن بعض، و اتصال أساطيرها بعضها ببعض، فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديساً، و لكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية، التي كان يستعبد لها الإنسان نفسه، و يقف على صيانتها جهوده غير مدخر في سبيلها روحه و ماله.

و قد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة، فأخذ يرتشف من مناهله العلمية، و يقتبس من مدنيته المادية، فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا، و وجد دينه ماثلاً فيها، فلم ينبس بكلمة، لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله، و لكنه استبطن الإلحاد، و تمسك به، متيقناً أنه مصير إخوانه كافة، متى وصلوا إلى درجته العلمية.

و قد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب، و شعراء، وقفوا على هذه البحوث العلمية، فسحرتهم، فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها، دساً في مقالاتهم، و قصائدهم، غير مصارحين بها، غير أمثالهم، تفادياً من أن يقاطعوا، أو ينفوا من الأرض.

و قد عثرنا نحن في جولاتنا العلمية، على ما عثروا عليه، فكانت صدمة، كادت تقذف بنا إلى مكانٍ سحيق، لولا أن من الله علينا بوجود المخلص منها؛ و هو قوله تعالى<216>: {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب و أخر متشابهات...}، الآية].

فانظروا، ماذا فعل العلم الحديث؛ قضى على الأديان كلها، و لم يستثن منها الإسلام، و قضى على معتقدات نوابغ الكتاب، و الشعراء الإسلامية، فجعلهم يستبطنون الإلحاد في بلاد الإسلام، و يهيئون أذهان أهلها لقبول الإلحاد من غير إشعار بهم.

هذا ما اعترف به الأستاذ فريد وجدي بك، على حساب نوابغ الكتاب، و الشعراء الموجودين في البلاد الإسلامية، المشتغلين بالدعاية المقنعة ضد الأديان.

أما الأستاذ نفسه -و هو لا يرضى، من غير شك، أن لا يكون من نوابغ الكتاب- فقد استثناه في الظاهر من استبطان الإلحاد؛ و إني قلت عن هذا الاستثناء: "استبطان الاستبطان"....

و ما ذكره من المخلص، الذي: [لولاه، لوجد نفسه من تأثير العلم الحديث في مكان سحيق عن الدين]؛ لا يغر غير السذج.

أما أولاً: فلمَ لم ينقذ هذا المخلص -و أعني به آية المحكم و المتشابه- غير الأستاذ، من نوابغ الكتاب، و الشعراء المسلمين؛ إن كان فيها ما يصلح لإنقاذ المشرف على الإلحاد، بسبب ما يراه من مخالفة عقائد الأديان لقواعد العلم الحديث؟

و أما ثانياً: فلأن خلاص الأستاذ بفضل تلك الآية عن ورطة الإلحاد، الناشئة من التخالف المذكور بين عقائد الدين و قواعد العلم، ليس معناه أن تلك الآية قضت على العلم المخالف للدين، و جعلت الدين غالباً عليه في المحاجة، أو أزالت الخلاف الواقع بينهما.

و إنما معناها أن الآيات الواردة في القرآن منبئةً بوقوع ما لا يقبله العلم الحديث، كأنباء المعجزات، و البعث، و ما بعد البعث من الحشر، و الحساب، و الجنة، و النار؛ لا

عبرة بها، و لا تعويل على دلالتها لكونها من المتشابهات؛ فـالعلم الحـديث -على قـول الأسـتاذ- قضى على تلك الآيـات، و آية المحكم و المتشـابه على قيمة دلالتهـا، تصديقاً للعلم الحديث. فلا صحة إذن لعقيـدة الإسـلام في المعجـزات، و البعث، و ما بعد المـوت؛ كما يقتضـيه العلم الحـديث، و تصـدقه آية المحكم و المتشـابه في القـرآن؛ فـالقرآن و العلم الحـديث متفقـان ضد عقيـدة الإسـلام<217>.

هذا معنى خلاص الأستاذ من مشكلة التخـالف بين العلم و الـدين، بفضل آية المحكم و المتشـابه، و فيه خلاصُـه، و تخليص قرائه من اليـوم الآخـر، و من مخافة الحسـاب، و العذاب في ذلك اليوم.

و هـذا الأسـتاذ الـذي أعلن مذهبه ضد الأديـان، عن طريق الدس، الذي ذكر هو نفسه أنه: [طريق مستبطني الإلحـاد النوابغ، ليفهمه من يفهمه، و هيأ الأذهان لقبوله].

هذا الأستاذ هو اليوم، و من سـنوات طويلة لسـان الأزهر الناطق، و معلم الأزهريين الأول، لا يعترض عليه من يريد منهم أن يقيم أودَه، و يقف في وجه دسائسه...

و من قـام بهـذا الـواجب من علمـاء الأزهر، يقـوم على تخـوف من مركز الأسـتاذ، و مكانته عند الأسـتاذ الأكـبر المراغي، فيُفسد الواجب بين إنكار القول و إكبار القائل؛ و الكثـيرون لا يتنبهـون لما يذيعه في منـبر الأزهر من الأضاليل فضلا عن الوقوف في وجهها.

أما الأستاذ الغمـراوي، فكما أني أبرئه عن شـوائب الظنة في عقائد الدين، أربأ به عن مشـابهة أسـتاذ مجلة الأزهر في رفع العلم الحـديث، و خفض العلم القـديم، من غـير تحديد لناحية الرفع و الخفض في العلمين.

و لا شك في أن العلم القـديم أدى واجبـه، في سـاحة العقليـات، و إثبـات أسـاس الـدين، في حين أن العلم الحديث -الذي لا ينكَر تقدمه في الماديـات- شـوهد ضـرره بالـدين، أكـثر من نفعه؛ و إن كـان العامل في ذلك سـوء فهم الطائشـين من علمائـه، و أذنـاب علمائه دون العلم نفسه.

و بعد أن يكون هذا البيان معلوماً للقراء الكـرام، فـأقول: إن الأستاذ الغمراوي ما أنصف علماء الإسـلام المتكلمين، في رميهم بتقليد فلاسـفة اليونـانيين، و لا هـؤلاء الفلاسـفة في رميهم بطلب العلم عن طريق التفكـير البحت، و الاستغناء به عن طريق المشاهدة؛ بل الحق أن مذهب التقليد للغرب و فلسـفته سـائد عند المسـلمين، و علمائهم اليوم أكثر مما كـان منه لقـدمائنا إزاء الفلسـفة اليونانيـة، لأن الكتب الكلامية الـتي ورثناها من أسـلافنا ملأى بنضال الفلاسفة و نقاشهم التامّ.

على أنهم رحمه الله لم<218> يهملـوا التمحيص في مسـائل العلم أصلا[101]، حسـبك مثـالاً اهتمامه العظيم بمسألة حدوث العالم، الذي له صلة قوية بكون الله تعـالى فاعلاً مختاراً بالمعنى الحقيقيّ، لا مختاراً بالمعنى الأعم، الجامع للإيجاب، الذي اخترعه أنصار الفلاسفة، و فسـروه بقولهم: [إن شاء فعل، و إن لم يشأ لم يفعل]؛ بـدلاً من قولنا: "إن شاء فعل، و إن شاء لم يفعـل"؛ و هـذا البحث يأتي إن شاء الله مفصلا في فصل خاص من هذا الكتـاب، يحسن بي أن أنقل شـيئا مما قلت فيـه؛ فلعله يطـول انتظـار القـارئ إلى أن يجيء دور ذلك الفصل في الجـزء الثالث، أو الرابع من طبع الكتاب.

و هو: [ثم إن العالمَ لِيَقُوم بواجبه -الذي هو إثبـات وجـود الله بوضوح- يلزم أن يكـون حادثـاً؛ حيث إن حاجة القـديم الـذي لا أول لـه، و لم يسـبقه العـدم، إلى الموجد غـير واضحة؛ و بهذا تزداد مسألة حدوث العالم أهمية و خطورة في علم الكلام؛ على الـرغم ممن خفي عليه خطـورة المسألة، كابن رشد، فلم ير بأساً في مـذهب الفلاسـفة، القـائلين بقـدم العـالم، و عـاب على المتكلمين تشددهم على هؤلاء.

و لما خصصـنا الفصل الأول من البـاب الثـاني، لـدرس مذهب وحدة الوجود، و منشئه -الذي هو عبارة عن تعـيين حقيقـةٍ لله تعـالى؛ على أنها الوجـود، و عن القـول بـأن الموجود في كل موجود هو الوجـود، و لا موجـود غـيره؛ و كـان مقتضى هـذا أن يكـون الله كل الموجـودات، فيتحد العـالم مع اللـه-؛ أردنا في هـذا الفصل الثـاني موقف العـالم الحقيقي من اللـه؛ و هو أنه ما سـوى الله و مخلوقُه الحـادث، أي الكـائن بعد أن لم يكن، كما<219> هو مـذهب علمـاء الإسـلام المتكلمين بـأجمعهم، بل مـذهب المليِّين مطلقا.

و المخالف في هذه المسألة أيضا الفلاسـفة، و الصـوفية الوجودية؛ و إن كان دأب العلماء المؤلفين في علم أصول الـدين أن يناقشـوا الفلاسـفة فقط عند درس مسـألة حدوث العالم، و يضربوا عن أذنـابهم صـفحاً، و أعـني بهم الصوفية، القائلين بوحدة الوجود.

مذهب فلاسفة اليونان: أن العالم قديم، إلا في رواية عن أفلاطون، يقول فيها بحدوثه، و عن جالينوس يـتردد فيها بين القـول بحدوثه و قدمه[102]؛ و أكـثر القـائلين بقـدم العـالم من أولئك الفلاسـفة، معـترفون بوجـود اللـه، و بتأثيره في وجود العالم.

و الملم بعلم الكلام يشـهد معركة عظيمة بين متكلمي الإسلام، و هؤلاء الفلاسفة في هذه المسـألة، لو تـذكرها وجدها على الأقل الأستاذ الفاضل الغمراوي، المار الـذكر في الجـزء الأول من الكتـاب، الخـاص بأسـباب تأليفـه، أو هيئت (مجلة الأزهر) -و لا أقـول لو عرفوهـا-؛ لكفت في منع الأول عن رمي المتكلمين بتقليد فلاسـفة اليونـانيين في المسـائل الكلاميـة، و في منع الآخـرين عن إشـادة كتـاب الأسـتاذ بنشر ما يتضـمن ذلك الـرمي منه في مجلتهم.

اعلم أن المتكلمين، علماء أصول الدين، قد عنـوا بمسـألة حدوث العالم، عناية عظيمـة، حـتى شـنوا على الفلاسـفة القائلين بقدمه حرباً شعواءَ، لا أغالي إذا قلت لا مثيل لها في أي مسـألة خلافية بين الفـريقين؛ و من الغفلة استكثار هذا التشدد من المتكلمين في الإنكار على مذهب القـدم، زعمـاً من المسـتكثِرِ أن المسـألة لا علاقة لها مباشرة بموضوع الإلهيات.

فكأنه يقول: "إن وجـود الله مضـمون عند الفلاسـفة، كما أنه مضـمون عند المتكلمين؛ و ليكن العـالم بعد ذلك ما كان".

و مثـال تلك الغفلـة، ما وقع للقاضي أبي الوليد بن رشد الأندلسي، من الاستخفاف بمسألة قدم العالم أو حدوثـه، من ناحية<220> الـدين، و إنحائه بـاللوائم على المتكلمين،

---

[101] و ليأخذ الأسـتاذ مثـالاً صـغيراً مـني، و أنا من أقل أعقـاب علمـاء المتكلمين القدماء، و لينظر كيف ناضلت الفلاسفة، الـذين كـان علماؤنا يناضـلونهم؛ كيف ناضـلتهم، و من انحـاز إليهم من علمائنا في مبحث وجـود اللـه، هل هو عين ذاتـه، أو زائد عليهـا، كما سـيراه القـارئ في الفصل الأول من الباب الثاني المعقود لمسألة "وحـدة الوجـود"؛ و كيف سـلكت في هـذا الكتـاب مسـلك التثبت و التمحيص، و النقـد، من غـير هـوادة، و لا تقدليد أعمى لأحد من العلمـاء و الفلاسـفة الشـرقيين و الغربيين، مهما جل مركزه.

[102] على ما حكي عنه، أنه قال في مرضه، الذي توفي فيه لبعض تلامذته: [اكتب عني: ما علمت أن العالم قديم، أو حادث]؛ قال الإمـام الـرازي: و هذا دليل على أن جالينوس كـان منصفاً، طالبـاً للحق؛ فـإن الكلام في هـذه المسـألة قد يقع من العسر و الصـعوبة إلى حيث يضـمحل أكـثر العقول فيه.

الذين اعتبرهم مبتدعي هذه البدعة باسم مسألة حدوث العالم، أو قدمه.

فأولاً: إن كون الله تعالى فاعلاً مختاراً، لا يتفق مع قدم العالم؛ و من هذا اعتُبر الخلاف في حدوث العالم و قدمه، ناشئاً من الخلاف في كونه تعالى فاعلاً بالاختيار، أو فاعلاً بالإيجاب؛ و قيل بالعكس؛ أي أن الخلاف في هذا ناشئ من الخلاف في حدوث العالم و قدمه.

و الحق: أن كلا من المسألتين له خطورته الخاصة، زيادة على ما بينهما من شدة الاتصال؛ فلو صرفنا النظر عن علاقة القول بقدم العالم، مع القول بكون الله فاعلاً غير مختار، كفانا ما نحس في القول بقدم شيء مما سوى الله، من استغنائه عن فاعليته بالمرة، لا مختاراً، و لا موجباً.

إذ لا تعقل حاجة القديم الذي لم يزل موجوداً، و لم يسبقه العدم، إلى إيجادٍ من الفاعل.

فأي شيء يوجد الفاعل من الموجود الأزلي؟

أليس إيجاد الموجود تحصيلاً للحاصل؛ أي تناقضاً؟

و إذا كان القائلون بقدم العالم، يعترفون باستناده إلى الله، استناد المعلول إلى علته، كانت حاجته إلى وجود الله لا إلى فاعليته، و حاجتُه إلى فاعليته لا تتحقق إلا بالاستناد إلى إرادته، التي هو مختار فيها؛ إذ الإرادة بالمعنى الذي ابتدعه الفلاسفة ليست من الإرادة في شيء....

على أن الله تعالى غير متصف عندهم بأي صفة زائدة على ذاته؛ فليس هناك إرادة، و لا علمٌ، و لا غيرهما؛ و إنما هناك ذاتٌ.

فإذا كان الله تعالى فاعلاً للعالم، على أن لا ينفك فعله للعالم من ذاته، و لا يتأخر عنها؛ فمعنى هذه الفاعلية لزوم وجود العالم لذات الله؛ بحيث لا يمكن وجود الله مستقلاً عن وجود العالم، كما لا يمكن وجود العالم مستقلاً عن الله؛ و فعله الغير الإرادي، يجعله أشبه شيء بالماكينة المسخرة، منه بالفاعل، بل الاشتغال غير لازم للماكينة لزوم الفعل لله عنده.

فهل يقال عن الماكينة إنها فاعلة؟

و إذا قيل؛ فهل يكون ذلك قولاً حقيقياًّ؟

و لذا اعتبر فاعل القطع بالسكين هو الإنسان، و السكين آلة القطع، لا فاعله؛ و إن صحَّ لغةً إسناد القطع إلى السكين أيضاً، بل و إن كان السكين أحقُّ بإسناد القطع إليه من الإنسان، الذي استخدمه، و أقرب<221>.

و كل هذه الفروق ناشئة من ترجيح صاحب الإرادة لأن يكون فاعلاً؛ و ليس في الله إرادة على مذهب الفلاسفة، القائلين بأن الله تعالى لا يمكنه أن لا يفعل، كالشمس، لا يمكنها أن لا تشرق؛ و غير المريد، لا يوصف بالقدرة، حتى فيما فعله، لعدم قدرته على أن لا يفعل.

أما قول صاحب (الأسفار): "المريد، هو الذي يكون عالماً بصدور الفعل الغير المنافي عنه، و غير المريد، هو الذي لا يكون عالماً بما يصدر عنه، كالقوى الطبيعية؛ و إن كان الشعور حاصلاً، لكن الفعل لم يكن ملائماً، بل منافراً، مثل المُلجَإ على الفعل، فإن الفعل لا يكون مراداً له".

ففيه: أنه ردٌّ الإرادة إلى العلم، و العلم لا يجعل صاحبه مريداً؛ كالإنسان يعلم مرضه، و ليس ذلك بقصده و إرادته؛ فإن قلنا: إنه غير ملائم، فصحته التي يعلمها، و هي ملائمة، تحصل أيضاً من غير قصد و إرادة منه.

"على أن حديث الملائم، أو غير الملائم فيمن سلبت عنه الإرادة، و ردت إلى العلم يكون حديث خرافة؛ إذ الملائم يمتاز عن غير الملائم بموافقته للإرادة؛ و لا إرادة هناك"[103] <222>.

انتهى ما أردت نقله، مما قلت في فصل "حدوث العالم"، ليكون نموذجاً لإثبات أن علم الكلام، لم يكن علم تقليد لفلاسفة اليونان.

فهل يمكن للذين لا يقدرون الأوائل حق قدرهم، أن يُزِنوا من الآثار الحديثة في الفلسفة الإسلامية ما يعدل أو يداني آثار السلف كيفاً، أو كماًّ، و يناضل فلسفة الغرب الحديثة الملحدة، كالفلسفة المادية، أو الوضعية....

إن أسلافنا لم يسكتوا إزاء ما يتنافى مع مبادئ الإسلام من الفلسفة القديمة اليونانية، و لم يتقهقروا، و لم يقل أحد منهم على رؤوس الأشهاد، ما قال مدير (مجلة الأزهر)، و رئيس تحريرها قبل تولي الوظيفتين: [ولد العلم الحديث، و ما زال يجاهد القوى التي كانت تساوره، حتى تغلب عليها، و دالت الدولة إليه في الأرض، فنظر نظرة في الأديان، و سرى عليها أسلوبه، فقذف بها جملة إلى عالم الميتولوجيا (الأساطير)، ثم أخذ يبحث في اشتقاق بعضها عن بعض، و اتصال أساطيرها بعضها ببعض؛ فجعل من ذلك مجموعة تقرأ لا لتقدس تقديساً <223&gt؛ و لكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية، التي كان يستعبد لها الإنسان نفسه، و يقف على صيانتها جهوده، غير مدخر في سبيلها روحه و ماله.

و قد اتصل الشرق الإسلامي بالغرب، منذ أكثر من مائة سنة، فأخذ يرتشف من مناهله العلمية، و يقتبس من مدنيته المادية، فوقف فيما وقف عليه، على هذه الميتولوجيا، و وجد دينه ماثلاً فيها، فلم ينبس بكلمة؛ لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله، و لكنه استبطن الإلحاد، و

---

[103] و إني أقول هنا قولاً، لعله لم يلح ببال أحد؛ و هو أن وجوب أفعاله تعالى عنه من غير اختيار منه عند الفلاسفة، و وجوب مفعولاته، المبني على وجوب أفعاله، و المستلزم لقدم العالم، و كون صدوره منه كصدور الإشراق من الشمس؛ و قد نص بعض أنصارهم، مثل صاحب (الأسفار) على هذا التشبيه، مع ادعاء الفرق بينهما، بعدم وجود الإرادة في الشمس و وجودها في الله؛ و مع كوننا لا نعترف بهذه الإرادة المردودو إلى ذات الله....

كل ذلك مما يقرب العالم من ذات الله، و يزيد في تقريبه، حتى يجعله – لا أقول كصفة من صفاته، إذ لا صفة له عندهم إلا و هي منتفية في الذات؛ بل أقول- كما قال صاحب (الأسفار): "شأناً من شؤونه، و طوراً من أطواره"؛ فيلغي كلمة ما سوى الله، و يفتح طريقاً إلى مذهب وحدة الوجود، أي مذهب اتحاد العالم مع الله.

و يؤيده ما قلت في الفصل السابق -المعقود لتحليل ذلك المذهب، و لا أزال أقول-، من أن الصوفية الوجودية بنوا آرائهم في الله على آراء الفلاسفة، و من أجل ذلك ابتعدوا عن عقائد علماء أهل السنة و الجماعة، و كانوا -أي الصوفية الوجودية- هم الحقيقين بتفنيد الأستاذ الغمراوي، و تعييبه بتقليد الفلاسفة اليونانيين، لا علماء أهل السنة المتكلمون.

و قد نرى هناك مذهباً ذا وجهين من الفلسفة و التصوف، بعكس ما فعله الصوفية الوجودية، فيبني الفلسفة على التصوف الوجودي؛ و مثال هذا ما قاله صاحب (الأسفار) عند تفضيل مذهب الفلاسفة، القائلين في علم الله، بارتسام صور الأشياء في ذاته تعالى، و حصولها فيه حصولاً ذهنياًّ، على الوجه الكلي (ص: 97): "و أما تحاشيه"، أي تحاشي شيخ الإشراقيين، "و تحاشي من تبعه، عن القول بالصور الإلهية، لظنهم أنه يلزم حلول الأشياء في ذاته، و في علمه، الذي هو عين ذاته؛ فقد علمت أن ذلك غير لازم إلا عند المحجوبين عن الحق، الزاعمين أنها -أي الأشياء- كانت غيره تعالى، و كانت أعراضاً حالة فيه؛ و أما إذا كانت عينه، من حيث الحقيقة، و الوجود، و غيره من حيث التعين، و التقيد؛ فبالحقيقة ليس هناك حال، و لا محل؛ بل شيء واحدٌ، متفاوتُ الوجود في الكمال، و النفس، و البطون، و الظهور؛ و نفس الأمر عبارة عن التحقيق عن هذا العلم الإلهي، الحاوي لصور الأشياء كليها، و جزئيها، و قديمها، و حديثها؛ فإنه يصدق عليه أنه وجود الأشياء على ما هي عليهما، فإن الأشياء موجودة بهذا الوجود الإلهي، الحاوي لكل شيء".

و أنا أقول: إذا لم تكن الأشياء غير الله، بل كان كل شيء عينه، فحدث كما شئت عن أي مسألة شئت، و لا حرج؛ إنما المخطئ و المصيب ليسا غير الله، و لو قلنا تعالى عما يقول الظالمون، لقال هذا الفيلسوف الصوفي: و لا الظالمون أيضاً!!!!

تمسك به، متيقناً أنه مصير إخوانه كافة، متى وصلوا إلى درجته العلمية].

و لم يقل أحد منهم أيضا لتحريض المسلمين على تقليد أوروبا، كما قال هذا الأستاذ نفسه: [إن اليابان لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه، إلا بعد أن خرجوا على جميع تقاليدهم القديمة، و جعلوا حكومتهم لا دينية، و انتحلوا علوم أوروبا، و ثقافتها، حتى إلحادها؛ و قلدوا الأوروبيين في مراقصهم، و ملاهيهم].

الحاصل أن ما فعله الأستاذ الغمراوي من رمي علماء الإسلام المتكلمين، بتقليد فلاسفة اليونان، ليس إلا مثالاً كبيراً لرمي الكلام على عواهنه[104]؛ و كذلك رمي فلاسفة اليونان بإهمال المشاهدة، و بناء علومهم على التفكير البحت، فقد قال سيد المحققين في (شرح المواقف)، في المرصد الرابع، من الموقف الأول، عند قول المصنف: [و إليها، أي و إلى الحسيات تنتهي علومهم].

[إن العلم الإلهي المنسوب إلى أفلاطون مبني على الاستدلال <224> بأحوال المحسوسات المعلومة، بمعاونة الحس[105]؛ و أكثر أصول العلم الطبيعي المنسوبة إلى أرسطو؛ كالعلم بالسماء، و العلم بالكون، و الفساد، و بالآثار العلوية، و بأحكام المعادن، و النبات، و الحيوان، مأخوذٌ من الحسِّ؛ و علم الأرصاد، و الهيأة، المنسوب إلى بطليموس، مبني على الإحساس، و أحكام المحسوسات؛ و علم التجارب الطبية، المنسوب إلى جالينوس مأخوذ من المحسوسات].

و قال "درابر"، في كتابه (المنازعة بين العلم و الدين): [لقد كان تفوق العرب ناشئاً من الأسلوب الذي توخوه في مباحثهم، و هو أسلوب اقتبسوه من فلاسفة اليونان؛ فإنهم تحققوا أن الأسلوب العقلي المحض لا يؤدي إلى التقدم، و أن الأمل في وجدان الحقيقة، يجب أن يكون معقوداً بمشاهداتِ الحوادثِ ذاتها؛ من هنا كان شعارهم في بحوثهم الأسلوبَ التجريبي، و الدستور العلميّ].

و فضلاً عن هذه التصريحات، فإن بداهة العقل تأبى عزو نقيصة الإهمال لطريق المشاهدة و الإحساس إلى الفلاسفة اليونانيين بجملتهم؛ و تقليد علماء الإسلام إياهم في ذلك من غير تمحيص؛ أليس لهم أجمعين المقلِّدين، و المقلَّدين أعين يبصرون بها، أو آذانٌ يسمعون بها.

نعم، يمكن أن لا يوجد عند الأوائل من آلات المشاهدة، و الامتحان ما يوجد عند الآخرين، فتفضل مشاهداتهم على مشاهداتهم؛ و مع هذا فإن فلاسفة الغرب الجدد -الذين استخف الأستاذ الغمراوي بالفلاسفة اليونانيين، عند إكبارهم- لا يرضون هذا الاستخفاف، بل يعدونهم المعلمين الأولين، و لا يستخرجون من رقيهم <225> الحاضر ما يحط من مقادير الأسلاف، لأنهم يعرفون أن العلوم تزداد بتلاحق الأفكار، و تقادم الأزمان؛ و إنما الاستخفاف بالأسلاف، و غمطهم من خصائصنا نحن المسلمين الأحداث؛ حتى إنه لا يكفينا غمط أسلافنا مباشرة، فنتوسل إليه بغمط أسلاف غيرنا.

قلنا: إن الأستاذ الغمراوي أراد من قوله -الذي نقلناه- مثالاً كبيراً لرمي الكلام على عواهنه.

و نقول أيضا: إن الأستاذ الذي عاب علماء علم الكلام، بتقليد فلاسفة اليونان من غير تمحيص، أظهر لنا من نفسه مثالاً رائعاً للمقلد؛ لأنا لا نراه في إطراء التجربة، و انتقاص العقل البحت، إلا مقلداً لما شاع في الغرب من المنهج، بعد الفيلسوف "كانت"، صاحب (انتقاد العقل المحض)...

و لكن، هل يعرف الأستاذ، أن هذا المنهج -أعني منهج إطراء المشاهدة، و التجربة، و انتقاص العقل المحض-، توسلَ به من توسل، إلى الطعن في أدلة وجود الله؛ لعدم ابتنائه على المشاهدة؛ كما أن "كانت" نفسه، انتقد بهذه العقلية جميع الأدلة النظرية، المنتصبة لإثبات وجود الله؛ ثم بنى عقيدة وجوده على دليل الأخلاق؟

و ستعرف عند الكلام عليه ضعفه، و عدم كفايته في أكبر مطلب علمي، كمسألة وجود الله...

و بهذه العقلية أيضاً، استمهل الأستاذ رئيس تحرير (مجلة الأزهر) الشبان المتعلمين، الشاكين في وجود الله، فعلق الأمل في إثبات وجوده على وجه صحيح، علميٍّ، بتقدم البحوث النفسية "اسبيرتيزم" في الغرب؛ و قد تكلمنا من قبل على هذا الاستمهال، و سنتكلم أيضا...

و قد عرفت أيضاً كيف وقع الأستاذ فرح أنطون منشئ (مجلة الجامعة)، و مناظر الشيخ محمد عبده، في خطإ مزدوج: من إنكار العقل و العلم بصحة الدين، الذي رأسه الإيمان بخالق غير منظور؛ و من التباسِ إنكار المشاهدة عليه، بإنكار العقل، حتى قال بتنافيَ العقل مع الدين، بناءً على أن العلم يجب أن يوضع في دائرة العقل، لكون قواعده مبنية على المشاهدة، و التجربة، و الامتحان، في حين أن الدين يجب <226> أن يوضع في دائرة القلب، لكون قواعده مبنية على التسليم بما ورد في الكتب المقدسة، من غير فحص في أصولها.

قال: [و لهذا، كان العقلاء من الفلاسفة، و رجال الدين من كل ملةٍ ينادون بإبعاد العقل عن الدين، أما عقلاء الفلاسفة، فلإنهم يكرهون مقاومة معتقدات الناس، و أما رجال الدين، فللفرار من برهان العقل، الذي يهدم كل شيء لا يقع تحت حسه].

فتراه -أي الأستاذ فرح أنطون- كيف تطور -في خلسة تفكير، أو غفلة- من إنكار المشاهدة و العلم الحديث المبني عليهما الدين، إلى إنكار العقل أيضاً للدين.... و هذا هو غلطه المزدوج.

و بمثل هذا الغلط المزدوج، أنكر الأستاذ فريد وجدي إمكان معجزات الأنبياء، و إمكان البعث بعد الموت عقلاً، و استند في هذا الإنكار إلى العلم الحديث، المبني على المشاهدة، أي التجربة الحسية؛ و سيجيء تفصيل كل ذلك منا، مع ردوده، بما لا مزيد عليه....

فهل الأستاذ الغمراوي، الذي أظهر افتتانه بالعم الحديث مثل الأستاذين المذكورين، يوافقهما أيضاً فيما رتبا على افتتانهما، من عدم الاعتراف بوقوع معجزات الأنبياء في الماضي، و البعث بعد الموت في المستقبل، اعترافاً علمياً، و عقلياً؟

و هل الأستاذ الغمراوي أيضاً، يؤمن بالله بقلبه، دون عقله و علمه؟

---

[104] علماء الكلام المساكين، و علمهم المغموط، يطعن فيهم ابن رشد الأندلسي، و صدر الدين الشيرازي، صاحب (الأسفار الأربعة) -بمخالفتهم الفلاسفة اليونانيين-، و الأستاذ الغمراوي -بموافقتهم-، و كذا ابن تيمية، و ابن قيم الجوزية، و من تابعهما -و في مصر كثير منهم من يعتبر علم الكلام، علم اليونان-؛ و يكرههم قومٌ، و يبدعون علمهم؛ و هم الذين يكرهون العلوم العقلية، و يترددون في القول بجواز تعلم المنطق، و تعليمه؛ و هو منتهى الجمود؛ و أصحاب هذه الفكرة، غير الذين يعرضون عن العقل و المنطق تزلفاً إلى العلم الحديث.

و يقدح في المتكلمين أيضاً أصحاب مذهب "وحدة الوجود"؛ و لكن مسلك المتكلمين، لاسيما أهل السنة و الجماعة منهم؛ كالأشاعرة و الماتريدية، أقوم من مسلك جميع الفئات المذكورة المختلفة، و أخدم للإسلام.

[105] يمكننا أن نستخرج من هذا القول جواباً على عائبي الدليل الكلامي، القائم على إثبات وجود الله، الراجع إلى إثبات وجوده بوجود العالم، موهمين أنه دليل مبني على التفكير البحث، و هم لا يدرون أن ذلك استدلالٌ مبنيٌّ على المشاهدة، و الإحساس بالعالم، لا إلى التفكير البحت.

نحن نربأ بالأستاذ الغمراوي، الذي لا نشك في صحة دينه، و سلامة عقله، و علمه، من كل ذلك؛ و الذي نريد أن نحيطه علماً، بأن المقارنة بين العلم القديم، و الحديث، و ترجيح كفة الحديث على القديم، لابتناء الأول على المشاهدة، و الثاني على العقل البحت، مما يدندن به على الأكثر ملاحدة العصر الحديث، تزييفاً للدين، المبني على الدليل العقلي فقط، دون التجربة الحسية، فلا يروقنا أن يشابه صنيع الأستاذ صنيعهم، لاسيما إذا اقترن به مذمة المتكلمين، علماء أصول الدين.

مع أن هذه المقارنة، بين العقل، و بين الحس و المشاهدة، مما ينم على السذاجة....

و من أين للحس المشترك بين الإنسان و الحيوان، أن يباري العقل، الذي فيه كل ميزة الإنسان<227> على غيره؟

فها أنا أرفض بعقلي البحت هذه المقارنة، و ذلك الترجيح من غير أن أحتاج إلى إعانة التجربة المحسوسة؛ لأن العقل هو الذي يرشد الإنسان إلى الاستعانة بالتجربة و المشاهدة فيما يحتاج إليهما؛ و هو وحده الذي يفسرهما، و يستخرج المعنى منهما، و هما ليستا بشيء؛ إزاء العقل، و بدون العقل[106]؛ حتى إنهما بدونه لا يستطيعان الخطأ في معرفة أي شيء، بله إصابة الحق؛ فالإصابة و الأخطاء، كله يصدر من العقل، فهو معدن الإدراك مطلقاً، ما يتعلق بالمحسوس، و ما يتعلق بغيره.

ثم إني لا أنكر فضل التجربة على العلوم الطبيعية، المتعلقة بالماديات، و احتياج العقل في تلك الساحة إلى مساعدة الحواس؛ حتى إن عقلي هو الذي دفعني إلى الاعتراف بهذه الحاجة....

فالعقل لا ينكر قيمة التجارب الحسية، و قيمة العلم الطبيعي، المبني عليهما؛ لكن المغرمين بالتجربة، لا يقدرون العقل حق قدره، حيث ينكرون علم ما وراء الطبيعة، لعدم ابتنائه على التجارب الحسية.

و هذا الفرق أيضاً، في التقدير، و عدم التقدير، من مميزات العقل على الحس.

و الأستاذ الغمراوي لا أحسبه ينكر علم ما وراء الطبيعة، و إنما غاب عنه أن علم الكلام -بالنظر إلى مباحثه الرئيسية- غير مترجم عن فلسفة اليونان؛ أو غاب عنه أن العلم الطبيعي، ليس كل العلوم، حتى يلزم من احتياج العقل فيه إلى التجربة<228> الحسية، احتياجه إليها في جميع العلوم.

أو بالأصح، غاب عنه ما يترتب على سلب الثقة بالاستدلال العقلي، من المفاسد العظيمة، التي منها أن يكون الشاك في وجود الله معذوراً في شكه، بل الملحد في إلحاده.

فلو قيل للأستاذ -غير الواثق العقلي، مغرماً بالدليل التجربي، مع المغرمين-: إنّ "كانت"، الذي سن سنة انتقاد جميع الأدلة العقلية النظرية، لوجود الله -التي اعتمد عليها علماؤنا المتكلمون، كما سيجيء تفصيله مع ردوده-؛ عاد فانتقد أيضاً دليل نظام العالم -الذي نعتبره في محله من الكتاب الدليلَ التجربي-، انتقده بأن نظام العالم إنما يدلّ على وجود ناظم، و لا يدل على كون الناظم هو الله، أو يدل على وجود ناظم، كامل، بقدر ما في نظام العالم من الكمال، و لا يدل على وجود ناظم أكمل، الذي هو الله، القادر على وضع نظام أبدع من نظام العالم.

فلو قيل للأستاذ هكذا؛ فكيف يدفع اعتراض "كانت"، و يُثبت كون واضع نظام العالم هو الله، من دون أن يضيف إلى الدليل التجربي المستفاد من نظام العالم، ما نضيفه من أن نظام العالم من الممكنات، لا من الواجبات الضروريات، و لا من المستحيلات؟

و لهذا يحتاج إلى ناظم، يخرجه من العدم إلى الوجود، و يعيِّن له هذا الشكل الذي اختاره على غيره من الأشكال؛ فلو كان له ناظم غير الله، كان ممكنَ الوجود، كالنظام نفسه، لا واجب الوجود؛ لأن وجوب الوجود خاص بالله تعالى.

و إذا كان ممكنَ الوجود، كان محتاجاً إلى علةٍ موجِدةٍ، فننقل الكلام إلى علته الموجِدة، الممكنة أيضاً؛ إلى أن يلزم التسلسل في العلل الممكنة، أو ينتهي إلى موجِدٍ، واجب الوجود؛ و نحن نبطل التسلسل في الفصل الأول، من الباب الأول من أبواب الكتاب الأربعة... فيتعين الشق الثاني؛ أي الانتهاء إلى موجِدٍ واجب الوجود، و هو الله.

و خلاصة هذا الكلام: أن إثبات وجود الله، عبارةٌ عن إثبات موجودٍ واجب الوجود؛ و لا يمكن إثبات هذا الموجود بالتجربة، من دون أن يضم إليها شيءٌ من الاستدلال العقلي؛ و الذي يَثبت بالتجربة و المشاهدة، وجود شيءٍ، لا وجوب وجوده<229>.

و لو قيل للأستاذ: إن أصحاب "الفلسفة الإثباتية" -أو بعبارة معروفة بين مثقفي مصر الثقافة الغربية: "أصحاب الفلسفة الوضعية"-، أتباع "أوجوست كونت"، و أكثر الماديين المنتمين كلهم إلى العلم الحديث، المبني على التجربة، ركنوا إلى الإلحاد، بحجة أن التجارب العلمية لا تُرى في العالم غيرَ القوى الميكانيكية، التي تعمل عملها من غير شعور، و لا إرادة؛ و لا تُرى التجربةُ حتى وجودَ أي ناظم، و أن ما يُرى في صورة النظام، ليس بنظامٍ صادرٍ عن قصد تنظيم و إرادته، و إنما هو مصادفة صادرةٌ بنفسها من غير فاعل.

فلو قيل للأستاذ هكذا، فكيف يجيب عنه؛ و يثبت وجود فاعل النظام، من دون مراجعة الدليل العقلي، القاضي باستحالة المصادفة، لكونها راجعة إلى الرجحان من غير مرجح؛ و كون هذا الرجحان راجعاً إلى التناقض المستحيل، كما سنوضحه في أمكنة كثيرةٍ من هذا الكتاب[107]؟

و لو قيل للأستاذ إن العلم الحديث المثبت، المبني على التجربة الحسية، لا يعترف -بالنظر إلى آخر آرائه- بوجود أي شيء في الكون غير الحركة، حتى إنه لا يعترف بوجود المادة أيضاً، لعدم وصول التجربة إليها.

<u>كما قال "كانت"، و غيره من التدريبيين: [نحن نعرف الشؤون، و لا نعرف ذا الشئون].</u>

---

[106] و قد قلت في أحد المواضع من هذا الكتاب، إن الملاحدة الماديين يسعون في توهين السند العقلي، و يعادون العقل مع الدين، المستند إليه؛ فيقولون: "لا قيمة للاستدلال العقلي المجرد من التجربة و المشاهدة"؛ و نحن ندافع في هذا الكتاب عن العقل ليتسنى لنا الدفاع عن الدين... و من حسن حظنا في موقف مناضلة الخصوم أن يكون العقل معنا، فندافع عنه، و يدافع عنا؛ فلو لم يكن لنا إلا كوننا في موقف الدفاع عن العقل، و خصومنا في موقف المخاصمة للعقل لكفانا و كفاهم.

و قلنا أيضا: إن اعتذر معتذر عن الخصوم بأنهم لا يفضلون الحس، و لا يستهينون بالعقل، و إنما يشترطون في التعويل على العقل شرط استناده إلى الحس، و تأيده بها.

فالجواب: أن هذا استهانة بالعقل المحض، يجعل الثقة دائرة مع الحس و التجربة، و ليس تفضيل الحس على العقل غير هذا.

[107] و لا يجوز أن يظن بنا أنا ندافع عن الدليل العقلي، لكوننا نحتاج إليه، و نعتمد عليه في إثبات العقائد الدينية، التي في رأسها إثبات وجود الله، لا لكون الدليل العقلي حقيقاً بالاعتماد في نفس الأمر.... لا يجوز أن يُظن بنا ذلك، بل إننا نثبت في هذا الكتاب أن الدليل العقلي المنطقي أقوى الأدلة، و أفضلها، محتفظاً بقوته، و تفوقه أبد الآبدين.

و كما قال "بول زانة"، في كتابه تاريخ الفلسفة (مطالب و مذاهب): [إن مذهب التدريب ينتهي إلى السوفسطائية الحسبانية].

الحاصل أن الذي أجمعوا على معرفته بالتجربة الحسية، هو الشؤون و الحادثات، التي يردون جميع أنواعها إلى الحركة.

ثم إن الذين لا يعترفون بوجود الله من أهل العلم المثبَت، يقولون إن العالم بجميع أجزائه عبارة عن سلاسل الحركات، على أن تكون<230> علةُ كل حركة، هي الحركة التي تقدمتها، و لما كان سلسلة من السلاسل الحركات تمتد نحو الماضي امتداداً لا نهاية له؛ فكل حركة في كل سلسلة تجد علتها المحركة في داخل السلسلة، التي لا أول لها، و تستغني عن وجود محرك من خارجها.

فلو قيل للأستاذ هكذا؛ فكيف يثبت وجود الله، المحرك لهذه الحركات، التي تتشكل منها سلاسلها، أو على الأقل كيف يثبت المحركَ الأول لهذه الحركات، الذي أثبته أرسطو، الفيلسوف الكبير اليوناني، بدليله الخاص العقلي؟

و كيف يثبته الأستاذ المستهين بالدليل العقلي، و بفلاسفة اليونان، من دون البراهين العقلية المبطلة للتسلسل؟

و لا يغرنَّ الأستاذَ ما قاله الشيخ محمد عبده في تعليقاته على (شرح الجلال الدواني للعقائد العضدية، ص: 28): [و جميع ما قالوه في إبطال التسلسل من البراهين، فإنما هو مبني على أوهام كاذبة، و إلى الآن لم يقم برهان خطابي، فضلاً عن يقيني على وجوب تناهي سلسلة اجتمعت أجزاؤها في الوجود، مع الترتيب، أو لم يكن كذلك.... و طريق إثبات الواجب متسع لنا فيه مندوحة عن ارتكاب هذه الأوهام].

لا يغرن الأستاذ قول الشيخ، الذي يتبع في آرائه الخاصة هواه في الازدراء بآراء علماء الإسلام...

و مسألة بطلان التسلسل، الذي أجمع عليه علماؤنا المتكلمون، و الذي كان عليه فلاسفة اليونان، بشرطين، فجاء علماؤنا المقلدون -كما قال الأستاذ- و ألحقوا ما لم يوجد فيه الشرطان، بما وجدوا فيه، و استقر إجماع الفريقين على بطلان التسلسل في أمور مرتبة، مجتمعة في الوجود، و في رأس هذا النوع تسلسل العلل....

ثم يجيء الشيخ محمد عبده، فيخالفهم، حتى في محل إجماع الفريقين، على بطلانه، لأنه معلولٌ بداءِ الخلاف و الشذوذ.

و لا يدري الشيخ المعجب بعقله، و لا عقلاء مصر المعجبون به أن إثبات وجود الله يتوقف على إبطال تسلسل العلل[108]، كما لا يدري هو و المعجبون به أن تسلسل العلل<231> إلى ما لا نهاية له بديهي البطلان، بالنسبة إلى العقول السليمة، و البراهين التي أقامها العلماء لإبطاله كبرهان التطبيق، و برهان التضايف، و التي اعتبرها الشيخ أوهاماً كاذبةً، مُقامَةٌ للذين لا يفهمونه من غير تفهيم و تنبيه؛ و نحن بفضل الله تعالى نزيح في الفصل الأول من الباب الول النقاب عن وجه هذا البطلان، بكل بداهة، بحيث لا يستطيع أي منكر إنكاره؛ و لو كان الشيخ محمد عبده.

فيتبين هناك أن سلسلة العلل المحتاجة إلى علة، إن لم تنته إلى علة، لا تحتاج إلى علة، لتكون مبدأ السلسلة، بل امتدت إلى غير نهاية، و هو التسلسل الذي أجازه الشيخ، و أنكر بطلانه كل الإنكار؛ فهي معدومة بجملتها، و أن وجود سلسلة كهذه مبنيٌّ على أوهام كاذبة، لا البراهين المقامة لإبطال التسلسل، كما توهم الشيخ.

و الدليل المختصر الذي ذكره لإثبات الواجب[109]، و استغنى<232> به عن إبطال التسلسل، يتوقف على إبطال التسلسل، و إن خفي هذا التوقف على الشيخ، لأن إثبات وجود الله كما قلنا من قبل أيضاً عبارة عن إثبات موجودٍ واجب الوجود.

و الذي بنى عليه الشيخ دليله، و اكتفى به، هو إبطال الرجحان من غير مرجح؛ و إبطال هذا -و إن كان ضرورياً أيضاً في إثبات وجود الله-، لكنه إنما يَثبت به وجود صانعٍ للكائنات مطلقاً، لا وجود صانع واجب الوجود، فتبقى الحاجة في دليل الشيخ إلى إثبات وجود صانع لصانع الكائنات، و هلم جراًّ... فيلزم التسلسل، و يتوقف إثبات الواجب على إبطاله، و لا يمكن إبطاله عند الشيخ، فلا يمكن إثبات الواجب -أي إثبات وجود الله- عنده؛ و إنما يقوم العالم على سلاسل العلل الممكنة الوجود، غير المتناهية، التي يغني عدم تناهيها في زعم المتمسكين بها عن وجود الله الواجب الوجود[110].

نعود إلى ما كنا فيه.

أما قول الأستاذ الغمراوي: [أما الحقائق نفسها، فهي خارج النفس، خارج العقل].

فأنا أجيب عنه مضيفاً إليه قولي: خارج الحس أيضاً.

قال "ا. رابوا"[111]: [من البديهي أن الإدراك الخارجي، أعني الإحساس لا يصل إلى ماهيات الأشياء، و لا تحدثنا التجربة ما هو العالم في حد ذاته؛ لأنه إذا عمق النظر في المسألة، فلا إدراك خارجياً أصلاً، و التي نقول عنها الأشياء "اوبروه"، ما هي إلا تكيفات نفسية، نرسمها بوهمنا في خارج شعورنا][112].

و قال أيضاً: [لا نستنبط من إحساس أكثر من إحساس، و لا يُستثنى من هذا الحكم الإحساسات اللمسية، التي يخول لها على الأكثر امتياز كونها تجعلنا في حالة التماس مع الخارج؛ فإحساس المقاومة التي يفسَّر بها اللمس داخلي محض، كإحساس اللون] <233>.

و قال "كانت"، سائلا عن معيار الحق[113]: [فهل نحن نبحث عنه في متعلق المعرفة العيني؟].

---

[108] فالذين التزموا إثبات وجود الله -الذي هو إثبات موجود واجب الوجود، بالعقل النظري؛ و عليه علماء الإسلام جميعاً، و الحكماء الإلهيون قديماً و حديثاً، عدا "كانت"-، كان حتماً عليهم إبطال تسلسل العلل، الممكنة الوجود، المحتاجة إلى علة موجدة، إلى غير نهاية، حتى ينتهي في علة واجبة الوجود... أما "كانت"، الذي لم يقتنع ببطلان التسلسل -كالشيخ محمد عبده-، فقد عدل لذلك عن إثبات وجود الله بالعقل النظري، لكونه يعرف أن إثبات وجود الله بالعقل النظري، يتوقف على إبطال التسلسل، و استدل على هذا المطلب بدليل آخر يخصه، و سننقله، ثم ننقده إن شاء الله.

لكن الشيخ محمد عبده -مع كونه شريك "كانت" في عدم التنبه للبطلان الذي في التسلسل، لاسيما تسلسل العلل، و الذي لا عذر للعقل السليم في عدم التنبه له- مفترق عن "كانت"، و مضيف إلى عدم تنبهه هذا عدم التنبه أيضاً لكون الطريق إلى إثبات وجود الله مسدوداً على العقل النظري، ما لم يبطل التسلسل، كما تنبه "كانت"، فعدل إلى دليل غير دليل العقل النظري؛ و بقي الشيخ الذي لا دليل له غير دليل العقل النظري، بلا دليل...؛ و حق لنا أن نقول: لا عجب أن شاعت عداوة علم الكلام في أوساط المتعلمين بمصر الحديثة، بعد أن كان أستاذها الإمام تخبط في أعظم مسألتين من مسائل علم الكلام، و هما: إثبات وجود الله، و إثبات وحدانيته؛ و قد مر الكلام منا على تخبطه في المسألة الثانية في (الرقم 3).

[109] (ص: 82)، من كتابه المذكور آنفاً.

[110] هذا هامش طويل، أرجأناه إلى نهاية هذا الجزء من الكتاب.

[111] في (دروس الروحيات، ص: 157)، من الترجمة التركية، للأستاذ الكبير محمد علي عيني.

[112] (المطالب و المذاهب)، لبول زانه.

[113] (ص: 81) من الكتاب المذكور آنفاً.

ثم قال: [إن الحقيقة عبارة عن مطابقة المعرفة للعين "الواقع"، فالاقتناع بحقية معرفتنا، يكون مشروطاً بمطابقتها للواقع، و الحال أن موازنة المعرفة بالواقع ليست غير موازنتها بالمعرفة، فتكون نتيجة المطالبة بمطابقة المعرفة للواقع، هي المطالبة بمطابقة المعرفة للمعرفة، لأنه لما كانت معرفتي فيّ، و الواقع خارجاً مني، فغاية ما أحكم به، موافقة معرفتي بالواقع، لمعرفتي بالواقع، أو عدم موافقتها؛ أعني موافقة المعرفة للمعرفة، لا للواقع؛ و كان الحسبانيون يعبرون عن هذا الدور "بالمصادرة"؛ فتعريف الحقيقة دور كما قالوا، و هو يشبه أن يقوم أحد في تأييد ما أخبر به، فيأتيَ بشاهد غير معروف عند الناس، مدعياً له العدالة، و الصدق، و ساعياً في إقناع الناس بشهادته، فالاعتراض على طريق معرفة الحق واردٌ جداً، و حل هذه المشكلة ممتنعٌ لجميع العالم، امتناعاً مطلقاً].

فيُرى أن فيلسوفاً كبيراً مثل "كانت"، مؤسس انتقاد العقل المحض، ذلك الفكر، الذي حاز إعجاب الأستاذ الغمراوي مع المعجبين من الغربيين و الشرقيين، يحكم بكون الطريق إلى معرفة الحقيقة مسدودةٌ، لعدم إمكان الوصول لنا إلى الواقع الخارجي، بالخروج منا... فنحن محصورون فينا، و لا يخرجنا من هذا الحصار، أي واسطة، لا عقل، و لا حس؛ كما ذكره "ا. رابو".

و لست أنا على رأي "كانت"، لأنه حسباني، كما سيأتي تحقيقه في آخر الفصل الأول، من الباب الأول؛ و لكني ذكرت قوله هنا ليعلم الأستاذ أن الحس كالعقل في عدم الوصول إلى الحقيقة عند علماء العلم الحديث، لأن المدرك في الإحساس أيضاً هو العقل.

فإذا كانت الحقائق في خارج النفس، و في خارج العقل -كما قال الأستاذ-؛ فالعقل الذي<234> لا يخرج من محله، و لا يدخل إليه شيءٌ من الخارج، لا يتصل بالحقيقة -التي في الخارج-، و لا تجعله الحواس متصلاً بها؛ فإدراك الخارج -الذي نعبر عنه بالإحساس- داخلي محض، كما أن التصور -الذي هو الإدراك، بغير واسطة الحواس- داخليٌّ محض.

أما الإشكال العظيم الذي أثاره "كانت"، و قال: لا جواب له، فيعلم جوابه مما سنذكره عند تدقيق مذهب "كانت"؛ و هو أن الإشكال الذي نصادفه في مبحث المعرفة، و الذي لا يمكن حله، راجع إلى كيفية معرفتنا لا إلى المعرفة نفسها.

و قد قلنا هناك: إن الإنسان يعرف ما يعرفه من المحسوسات و المعقولات، و لا يعرف كيف يعرفه؛ لأن الله عرَّفه ما شاء أن يعرفه، و لم يعرّف كيفية معرفتنا؛ فعندنا معلوماتٌ من المحسوسات، و المعقولات، نعرفها، و نعرف أننا نعرفها، و إنما لا نعرف كيف نعرف؛ و لا يضرّ معرفتَنا بما نعرف، كونُنا لا نعرف كيف نعرف؛ فاندفع الإشكال الذي تصوره "كانت".

و لو ورد الإشكال، لورد على المعقول و المحسوس سِيَّيْن، كما أن "كانت" نفسه لم يفرق بينهما في إيراده.

فما نعرفه بعقولنا المحضة، و ما نعرفه بواسطة الحواس سِيَّان، في أنهما لولا تعريف الله، لا نعرف بهما أي شيء؛ لا أنا نعرف بواسطة الحواس، و لا نعرف بواسطة العقول، لكون الحواس تصل بنا إلى الواقع الخارج، و لا تصل العقول...

و الدليل على عدم الفرق بينهما، في عدم الوصول بنفسهما؛ كوننا لا نعرف، عند ما نعرف بكل منهما، ما نعرفه، كيف نعرف؛ و لا يزال هذا الجهل فينا، و هو الإشكال، الذي ظن "كانت" أنه في معرفة ما نعرفه، مع أنه كان و لا يزال في كيفية معرفتنا.

و جواب آخر عن إشكال "كانت"، و إن لم يكن في درجة الجواب الأول: و هو أن المطلوب في المعرفة ليس الوصول إلى الواقع الخارج بالخروج منا و الولوج فيه، أو خروجه منه و ولوجه فينا؛ بل المطلوب معرفته اليقينية، عن معرفة دليلها العقلي و الحسي؛ فتكون معرفة الشي بدليله في مثابة معرفة الواقع، التي هي المطلوب؛ و مثال الإخبار بالشيء، ثم الإتيان بشاهد غير معروف عند الناس -الذي ذكره الفيلسوف بكل<235> حذاقة و مهارة-؛ لا يكفي في تصوير الدقة التي ينطوي عليها موقف العارف بالشيء معرفة يقينية؛ و سنوفي القول حقه في بحث المعرفة، عند الكلام على فلسفة "كانت".

و قال الفيلسوف "ليبنتز": [اليقين على ثلاث درجات؛ اليقين البديهي، و اليقين البرهاني، و اليقين الحسي؛ فنحن نعرف وجودنا بالبداهة، و وجود الله بالبرهان، و وجود الأشياء السائرة بالإحساس؛ و اليقين البرهاني يرجع إلى اليقين البديهي، الذي ينطبق على الرابطة بين القضايا المتعددة، بدلاً من انطباقه على حقيقة منفردة؛ أما اليقين الحسي، فمع أنه لا كلام في حصولنا بالإحساس على معنى شيء خارجٍ منا، فإن محل النظر هو معرفة أن يكون لنا حق التقيد به، باعتقاد فطري][114].

ففي المعرفة الحسية أيضاً يقينٌ عند "ليبنتز"، كالمعرفة البديهية، و البرهانية، إلا أنه يلزم وجود معيار للتمييز بين المعرفة الحسية، و التخيلات الواقعة في النوم و اليقظة؛ و لا تكفي شدة التمثلات في أن تكون معياراً؛ و إنما الحقيق بأن يعد معياراً حقيقياً، هو الارتباط الواقع بين الشؤونات، كتوافق التجارب من أناس مختلفين، في أزمنة مختلفة، و أمكنة مختلفة، و اتحاد نتائجها.

فارتباط الشؤونات التي توثق الحقائق الواقعة بشأن الأشياء المحسوسة في الخارج منا، يحقق بحقائق العقل.

و خلاصته: أن الحقائق الحسية تعتمد على الحقائق العقلية؛ فليُفهم من هذا مبلغ خطأ الذين يظنون أن مرتبة الأدلة العقلية دون الأدلة التجريبية.

و قد قلنا من قبل: إن العقل وحده، هو الذي يفسر التجربة و المشاهدة، و يستخرج منهما المعنى، و هما ليسا بشيءٍ بدون العقل؛ فالإحساس بدونه أعمى، و التجربة بدونه خرساء؛ فاستخراج المعنى منهما، ثم توثيق ذلك المعنى، و تحقيقه، إنما يكونان بفضل العقل.

فإذا كان الأمر كذلك، و كان العقل يخطئ و يصيب، فكلا الاحتمالين جارٍ في المعقول<236> و المحسوس؛ و الخطأ في المحسوس كثيراً ما يقع فيما إذا كان المعنى المستخرج من الإحساس مركباً؛ و من هذا لا يندر أن العلم المبني على التجربة قد ينتقض قديمه بحديثهِ.

فمدارُ الإصابة -سواءٌ كانت في المعقول أو المحسوس- على سلامة العقل، و مدار الخطإ فيهما على علامةِ سلامتهِ؛ فلن يخطئَ سليم العقلِ و المنطقِ مهما كان ناقصَ التجربة، و غيرُ سليمهما يخطئُ وسط التجارب.

و إني أذكرُ كلما اقتضت المناسبة ما وقع لأكبر أدباء تركيا في العصر الأخير "جناب شهاب الدين بك"، عند مناظرتي إياه في مسألة تعدد الزوجاتِ، من عدم اعترافه بفائدته المعروفةِ في إكثار النسل -رغم كون فائدته هذه، كالثابت بالدليل الرياضي، من حيث أن الزوجات العديدة يلدن أكثر من زوجة واحدةٍ-، مدعياً أن الإحصاءات "ستاتيستيك" تُري انتقاص عدد الأهلين في البلاد التي تبيح تعدد الزوجات بله ازديادهم؛ و مطمئناً إلى أن الإحصاءات لايكذب...

[114] المطالب و المذاهب.

فكنت قلت يومئذ ما معناه: إن الإحصاء لا عقل له و لا منطق، و من هذا لا يكذب؛ و إنما يكون تابعاً لعقل و منطق من يستنطقه، و ربما يقوِّله ما لم يقلهُ...؛ فإذا شهد الإحصاء على انتقاص الناس في أي مملكة تبيح تعدد الزوجات على مر الزمان، من غير وقوع مهاجرة منها إلى الخارج؛ فشهادته يجب أن تقصر عليه، أي الانتقاص نفسه فقط؛ و أما سبب الانتقاص فهو خارجٌ عن شهادة الإحصاء، و دلالتهِ؛ و إنماهو علاوة على مدلولةِ من عقل من يستشهد به؛ فإذا وقع الخطإ في المسألة، المخطئُ عقل صاحب العلاوة، الذي جعله يظن أنه استند في الحكم بتعيين سبب الانتقاص، و مثله الازدياد إلى الإحصاء.

و كذلك كل حكمٍ تجربي، اتفق عليه الناس حقبة من الدهر، بل اتخذوه دستوراً علمياً، ثم تبين أنه خطأ؛ فسبب الخطإ الخروج في الحكم الأول من حدود التجربة، و لا خطأ للتجربة في حدودها؛ و هذه مزلقة أقدام المجربين، الذين لا يتحوطون حق التحوطِ في تحديد ما دلت عليه تجاربهم؛ و الذنب ذنب عقولهم، التي لم تقفهم عند حدود التجربة.

و أكبر مثال في هذا الباب<237>: أن المادة، التي كان الماديون قائلين بأزليتها، و أبديتها، و لم يكن عندهم شيءٌ أحقُّ باسم الموجود منها، و أسلم من الهلاك و الفناء؛ و كانوا يقولون ما قالوا فيها، بناءً على التجاربِ المستمرةِ، منذ تاريخ العلم الطبيعي إلى هذا الزمان، المسفرة عن أنها بتغير شكلها، أو خصوصية نوعها، و لا يضيع شيء من كميتها، و ثقلتها.

و كانت النتيجة المعقولة التي يجب أن يكتفى بها في الاستنباط من تلك التجارب، أن يقال: إننا لا نقدر على محو المادة، و لا على معرفة انمحائها بنفسها بوسائطنا الحاضرة، فتبقى كمية الأجسام في تقديرنا بهذه الوسائط محفوظةً دائماً....؛ لكنهم جاوزوا حدود مدلول التجربة، و حكموا بأن المادة لا تتغير، و لا تقبل المحول، بل قالوا إنها أزلية أبدية....

فلما ظهر أخيراً أن بعض الأجسام، مثل: "أورانيوم"، و "راديوم" ينشر أشعة غير مرئية، و ينمحي بالتدريج، ثم تبين بتجارب أخرى أن هذه الحالة -أعني نشر الأشعة، و الانمحاء التدريجي- لا يختص بالجسمين المذكورين، بل يعم جميع الأجسام، إلا أنه يكون فيهما أزيد من غيرهما؛ و إن كان فناؤهما أيضاً في بطءٍ لا يعد بمئات ألف من السنين...

فلما ظهر ذلك، ثبت أن ما يعتقدونه الدائم الباقي من الأجزاء الفردة للأجسام البسيطة، يتفرق في بطءٍ متناهٍ، و ينمحي شيئاً فشيئاً، مضيعاً لصفاته التي بها تعتبر المادة مادةً...؛ و ظهر لاحق التجربة ناقضاً لسابقها في أشهر أمثلتها، و أصحها عندهم...

و ما سبب ذلك الخطأ السابق إلا المغالاتَ في قيمة التجارب، و إضافة الضرورة إلى نتائجها، حتى كانوا يحكمون باستحالة فناء المادة، مع أن الضرورة و الاستحالة خارجتان عن حدود التجربة، داخلتان في حدود ما وراء الطبيعة، الذي القول الفصل فيه قول العقل؛ فله وحده الحق في الحكم بالضرورة، التي تجعل الاحتمال المخالف مستحيلاً، و لا يكون هذا الحقُّ أبداً للتجربة، و التجربة نفسها بريئةً من ادعاء هذا الحق لها؛ و إنما الذنب لعقول المجربين، و أذنابهم في إلصقه بها، كما ذكرنا[115].

و الاختلاف بين المتمسكين بالتجربة، و المتمسكين بالدليل العقلي، لا يكون<238> خلافاً بين التجربة و العقل، بل بين عقول الطرفين، و يكون الحق دائماً في جانب الأقوى، و الأقوم منهما عقلاً..

و ليس معنى هذا إلغاء التجربة، و الاستغناء عنها بالدليل العقلي، بل العقل نفسه يقضي بلزوم التجربة في المسائل المادية، التي تحتاج إليها، و تخضع لها..؛ فمن أراد الاستغناء بالعقل في مثل تلك المسائل، لا يكون أقوم عقلاً من ملتزمي التجربة؛ فالعقل يقدر التجربة قدرها، في حين أن المولعين بالتجربة لا يقدرون العقل حق قدره؛ و هو مما يدل على فضل العقل.

على أنه لا شك في أن الدليل العقلي أسمى قيمة من الدليل التجربي، و من هذا تكون الأحكام الضرورية؛ إما بديهية، أي مستندة إلى بداهة العقل؛ أو إلى البرهان العقلي المحض، كالبراهين الرياضية، و المنطقية، لا مستندة إلى التجربة، التي لا ينقطع دابر احتمالات الشبهة فيها، فيبقى دائماً احتمال مخالف، مكنون، في أحد الأزمنة و الأمكنة؛ و قد اعترف بها كبرا علماء المذهب التجربي مثل "ستوارت ميل".

<u>قال في منطقه: [إنه و إن كان هناك بعض تجارب غير منحلة، و غير منتقضة؛ فليست أي تجربة غير ممكنة الانحلال، و الانتقاض؛ فقد كان اقتُنع بناء على تجارب متكررة في مدة طويلة أن الطائر (Le Cigne) لا يكون إلا أبيض؛ فلما اكتشفت استراليا، تبين بطلان هذا الاعتقاد].</u>

حتى إن هذا الفيلسوف ما كان مذهبه أن المبادئ الأولى للمعرفة، التي لا يشك أحد في قطعيتها<239> و يقينيتها محصول الاختبار و التجربة؛ أثار حولها شكاً.

<u>قائلاً: [لا ريب في أنها -أي المبادئ الأولى- تمثل جميع التجارب السابقة في الماضي؛ إلا أن عدد الحالات الواقعة، مهما كان عظيماً، فليس بشيءٍ، إزاء ما يحتفظ به المستقبل من العدد غير المتناهي..؛ و القول بأنه لا سبب داعياً على أن لا تكون حالات المستقبل طبق الماضي مؤيدةً للتجارب السابقة، خروجٌ عن دائرة التجربة، و إقامةُ مبدإٍ آخرَ مقامها؛ فمن الممكن أن يوجد في أنحاء العالم -الذي لا يحد له حد- محلٌّ، لا يعترف فيه بهذه المبادئ].</u>

و في قول الفيلسوف هذا -على الرغم من كونه من أكبرعلماء المذهب التجربي في الغرب- عبرة عظيمة، للذين يكبرون التجربة، و يتسخفون بالدليل العقلي، لأن المبادئ الأولى، التي هي رأس اليقينيات، و البديهيات، كمبدإ التناقض، و مبدإ العلية؛ لما كانت عند هذا الفيلسوف مستنبطة من التجربة، تنزلت قيمتها اليقينية باعترافه، حتى قال بإمكان أن لا تكون هذه المبادئ مسلمة في مكان من أمكنة العالم، الذي لا يحد لسعته حد.

إلا أن مذهبه التجربي في المبادئ الأولى، لما لم يكن مختاراً عند المحققين -كما سيأتي في الفصل الثالث،

---

[115] و إني أحس في الرأي المرتب على التجارب الأخيرة في فناء المادة أيضاً، بعض الخروج عن حدودها؛ فيقولون مثلا: "إن ما كان يظن من قبل من وجود شيئين باسم المادة، و القوة؛ تبين الآن أنهما شيءٌ واحدٌ، و هو القوةُ؛ أما المادة فلا وجود لها، و إنما هي عبارةٌ عن قواتٍ مجتمعةٍ، متكاتفة"؛ فهذا أيضاً زيادةٌ على مدلول التجربة الأخيرة، و مدلولها الصحيح كون المادة تفترق و تفنى...؛ أما عدم كونها موجودةً منذ الأول...؛ أما أنها عبارة عن قوى مجتمعةً، فالتجربة ساكتةٌ عنه، بل يأباه قديمها و جديدها، و يأباه العقل؛ إذ لا يمكن أن تجتمع قواتٌ لا ثقل لها أصلاً، فتحصل مادة ثقيلة، و لا أن تجتمع أعراضٌ لا تقوم بذاتها، فتقوم بذاتها.

و منشأ هذه الأغلاط، الزعم القديم بأن الموجود لا يقبل العدم، و العدم لا يقبل الوجود؛ و مذهبنا: أن الله تعالى أوجد الكائناتِ بعد أن لم تكن؛ و هو يعدمها متى شاء.

من الباب الأول لهذا الكتاب-؛ لم يؤثر تشكيكه في قيمتها اليقينية.

فقد عرفت أن ما يـدرك بـالحس و التجربـة، فـدور العقل فيه أكـبر منهمـا، و ما لا يـدرك بـالحس و التجربــة، فكل الدور فيه للعقل.

و الذين لا يعترفون بهـذا النـوع من المـدركات، أو يُحلونه محلا دون محل المـدركات بـالحس و التجربــة، ثم يبينونه بإحلال العقل نفسه دون محل الحس و التجربة، فدافعُهم إلى كل ذلك ضعف عقولهم بالنسبة إلى حواسهم.

نعم، إن ما يدرك بالحس و العقل، فاجتماعهما في إدراكه أصح و أقوى، أو بالأصح أظهر و أوضح من انفراد العقـل؛ و هـذا أيضـاً من أحكـام العقـل، إلا أنه يكـون من التبـاس الأمور على المرء أن يطبق قاعـدة الـترجيح هـذه، فيما لا ســـــبيل فيه للتجربة و المشـــــاهدة<240>؛ فيجعل المحسوسات فوق المعقولات في مرتبة الإدراك.

فـــالمعقولات -أعـــني ما يدركه العقـــل- مما لا يتعلق به الحس، يـــدركها العقل بقـــوة، لا تقل عن إدراك العقل و الحس معـاً للمحسوسـات، إن لم تفضل عليـه؛ و لا يضـره تمحض العقل في إدراكـــه، لأن المعقـــول محل هـــذا التمحض، بخلاف المحسـوس، الـذي يحتـاج العقل للتثبت فيه إلى مسـاعدة الحس؛ و لا يحتـاج إليها في المعقـول كمسائل ما وراء الطبيعة.

و قد علمت أن المـدرك في الكل هو العقـل، إلا أنه لعـدم المناسبة بينه و بين الماديـات مباشـرة احتـاج في إدراكها بيقين إلى توسط آلة من الحـواس؛ أما المعقـولات، فهي متجانسة مع المدرك، أي العقـل، فإدراكه إياها بنفسـه، و بمحضه يكون تاماً من غير حاجة إلى توسط آلة.

فلما كـانت مسـائل ما وراء الطبيعة -لا سـيما الإلهيـات، التي هي أهم ما كان يدرسه المتكلمون، بل كبار فلاسـفة اليونـان أيضـا-، مما يتمحض فيه العقـل، و لا تمشي فيه التجربة و المشـاهدة، فتعـييب الأسـتاذ الغمـراوي إيـاهم بـأنهم يسـتندون إلى العقل المحض -كـأن الاسـتناد إلى العقل المحض عيب-، من قلة التدبر....

ألا يـــرى أن ما وضـــعه الفيلســـوف "ديكـــارت" في رأس المدركات اليقينية، من انتقاله من شكه، الذي هو نوع من الإدراك إلى وجوده قـائلا: [أدرك، فأنا إذن موجـود]؛ ليس إلا استدلالاً عقلياًّ محضاً؟

فلو قال: "أراني، فأنا إذن موجـود"، ما كـان أبلغ و أقـوى من قوله الول.

ثم نقـول: في سر انهمـاك النـاس في هـذا الزمـان في إطـراء التجربــة، و وضــعهم إياها فــوق ما يســتحقه من المرتبة العلمية، إن التجربة يستفاد منها كثيراً في العلوم الماديـة، و الصـناعات، الـتي يـدور عليها رقي الغـرب، و تقدمـه، و غلبتـه؛ فتلك العلـوم تعطي ثمراتها في الحيـاة الـــدينا؛ أما علم ما وراء الطبيعة -لا ســـيما الإلهيـــات-، فمعظم ثمراتها يتــأخر على الحيــاة الأخــرى، و النــاس مغرمون بترجيح العاجل، و إيثاره إلى الآجل.

فماذا يستفيد رجل الدنيا و المـادة من أدلة وجـود اللـه، و التفكير فيها، مهما امتلأت بها الكائنات؟

فالطبيب الذي قال عنـه شـاعر العـرب الكبـير، المعـري<241>:

عجـبي للطـبيب، يلحد في الخا	لـــــق، من بعد درسه التشريحا

لا شك أن ما يعرفه الطـبيب من علم الطب، ليس بشـيء يحق أن يطلع عليه اسم العلم؛ لأن مســـائله كلها تكـــاد تكـــون ظنيـــة، و قـــوة الملازمة بين أدويته و بين صـــحة المريض، لا تبلغ عشر معشـار قـوة الملازمة بين المعـاني التي تواجهه عند تشريح بدن الإنسان، و بين وجود الله.

فما حضر عنده من العلم بوسائل مداواة المرضى، أضعف بكثير مما حضر عنده من دلائل وجود الله، مع كونها أيضـاً دلائل تجريبيـة، كما سـنبينه على طـول الفصل الرابع من فصـول البـاب الأول، باسم "دليل العلة الغائيـة"، و "دليل نظام العالم".

فلمـــاذا لا تكـــون للتجربة من أهميتها عند الطـــبيب في ناحيةٍ، ما يكون لها من أهميتها عنده في ناحيةٍ أخرى؟

و لماذا تهم المشرِّح ناحية الطب، في حين أنه يغمض عن الناحية التي هي أثرى و أجلى؛ يغمض عنهـا، كـأن لم يمر بها؟

و جوابه ظاهر.

و يحسن بنا في هـــذا المقـــام البـــاحث عن سر اهتمـــام الناس بالعلوم المادية، و يقظتهم بشأنها، أن ندل القارئ على حكاية الـــراهب الحكيم "غاليـــاني"، الآتي ذكرها في أوائل الفصل المشـــار إليه آنفـــاً، و لم نكتبها هنا خـــوف الإطالة.

8- [أحمد أمين و مقالاته في مجلة الثقافة]:

و ممن لم يقدر علماء الإسلام المتكلمين حق قدرهم، فغمطهم، و لكن أكثر اعتدالاً من غمط الأستاذ الغمراوي، و لا سيما من غمط الأستاذ فريد وجدي بك، الأستاذ أحمد أمين بك القائل في مقالة من مقالاته في (مجلة الثقافة، عدد 696)، عنوانها: "في الحالة الروحية"؛ و إن شئت فعد قول الأستاذ إيهام الغمط، و ليس غمطاً بمعنى الكلمة، لكن نوع العقلية المعلولة واحدٌ، و لهذا يجب التعليق عليه أيضاً.

و هذا قوله: [لقد سلك رجال الدين في تأييده، و تقويته، مسلكين: قوم جددوا عقولهم؛ و قوم <242> جددوا مشاعرهم؛ فأما الأولون، فعلماء التوحيد، أو علماء الكلام؛ و أما الآخرون، فصادقوا الصوفية -في جميع الأديان-؛ فالأولون جعلوا الدين منطقاً، و فلسفةً، و خلفوا لنا تراثاً ضخماً من المؤلفات تبرهن عقلياًّ و منطقياًّ على وجود الله و صفاته، و ما إلى ذلك].

إلى هنا كلام في غاية الصحة، و الاستقامة.

ثم قال الأستاذ: [و لكني أعتقد أنهم لم ينجحوا في ذلك نجاح العلماء في البراهين العقلية على قضايا العلم؛ إن قانون الكيمياء، أو الطبيعة، أو الرياضة؛ إذا قال به أحد العلماء، و برهن عليه آمن به كل الناس بلا فارق بين أمة و أمة، و أهل دين و أهل دين، و شرقي و غربي؛ أما علم التوحيد، أو علم الكلام، فبرهان لمن يعتقد لا لمن لا يعتقد؛ برهان لصاحب الدين لا لمخالفه؛ و لهذا لم نر في التاريخ أن علم الكلام كان سبباً في إيمان من لم يؤمن، أو إسلام من لم يسلم، إلا نادراً؛ إنما كان سبباً في إيمان الكثير، أو إسلام الجم الغفير الدعوة من طريق القلب، لا من طريق علم المنطق].

أقول: إن هذا الاستاذ اتبع -في قوله: [إنهم لم ينجحوا في نجاح العلماء في البراهين العقلية على قضايا العلم]- تيار العرف الغربي في إطلاق اسم العلم على العلوم الحديثة، خاصة المبنية على التجربة الحسية[116].

و لم يصب في اعتبار الكيمياء و الطبيعة مع الرياضة في صف واحد، و اعتبار براهينها براهين عقلية؛ كما لم يصب في تمييز الراجح من المرجوح بين طرفي النجاح.

فإذا كان علماء التوحيد المسلمون المتكلمون جعلوا الدين منطقاً، فكيف يصحُّ أن يقال إنهم لم ينجحوا في قضيتهم، نجاح علماء الطبيعة، و الكيمياء، أو المتمسكين بعواطف القلب كالمتصوفين في جميع الأديان؟

فكأن علماء<243> التوحيد نجحوا في جعل الدين منطقاً، و لم ينجحوا في إنجاح المنطق؛ و هو غير معقول جداًّ؛ بل المنطق و العقل -الذي يمشي معه-، لا بد أن يكونا ناجحين؛ و لا شيء في الدنيا أنجح منهما.

فإن لم ينجحا كان ذلك عند العامة العاجزين عن تقدير العقل و المنطق قدرهما، و مثلهم المتعلمون العصريون الذين فسدت عقولهم بتقليد الغرب المعرض عن العقل و المنطق؛ احتفاظا بدينه الذي لا يأتلف معهما، و غاية في الخسارة و الضلالة انصراف هؤلاء المقلدين عن طريقة علمائهم، المتمسكين بالعقل و المنطق، من غير حاجة منهم في دينهم إلى أن يبحثوا عن غير هذه الطريقة، و إنما تقليداً للمحتاجين.

فليعلم هؤلاء المتعلمون، و ليعلم الأستاذ أحمد أمين بك، أن أفضل طريق النجاح، و أقواها، طريقة العقل و المنطق؛ و ثانيتها، التجربة طريقة علماء الطبيعة، و الكيمياء؛ و ثالثتها التمسك بالعواطف.

و لكون الطريقة الأولى أفضل، و أقوى، لا يعدل العاقل عنها إلى إحدى اثنتين بعدها ما أمكن التمسك بها، و خصيصاً لا يعدل العاقل عن طريق العقل و المنطق، استخفافا بهما و رغبة في غير طريقهما.

أما الاستدلال في رجحان قوانين الطبيعة و الكيمياء، على أدلة علم التوحيد المنطقية بعدم الاختلاف بين الناس في الإيمان بأي واحد من تلك القوانين، إذا برهن عليه أحد العلماء، بخلاف علم التوحيد؛ فغلط ناشئ من قلة استعمال المنطق في التفكير بعد أن ضل مقوموه الطريق في العهد الأخير.

و قد وقع الأستاذ فريد وجدي بك في مثل تلك الغلطة، لما كتب مقالة في (مجلة الرسالة)، بعنوان: (الدين في معترك الشكوك) -و قد نقلناها في الكلمة المتقدمة على الكتاب- فبعد أن نص الأستاذ في مقالته على أنه لم يعد للمنطق سلطان على الإنسان، صدق بقول (الأستاذ بيرس)، مدرس علم النفس بجامعة كمبريدج: [كنت معتنقاً بالدين، لو أمكنت معرفة شيء عن العالم الروحاني، على الطريقة التي نحن مدينون لها بمعارفنا، عن العالم المحسوس؛ و هذه المباحث لا يجوز أن تبني<244> على التأكيدات، التي صدرت عن هذا الوحي، أو ذاك؛ بل يجب أن تؤسس ككل بحث علمي، بمعناه الصحيح، على تجارب يمكننا تكرارها اليوم...].

فقال الأستاذ فريد وجدي بك: [هذا شرط العلم في قبول الأصول الاعتقادية، و هو شرط لا يجوز الاستخفاف به، و لا إغفاله].

فهؤلاء الأساتذة الثلاثة -مع الأستاذ أحمد أمين بك- يحاولون في الشرط الذي وضعوه للإيمان بِأصول الدين، أن يكون الإيمان بالأديان من الأمور العادية، التي لا يختلف فيها الناس، لاستنادها إلى تجارب حسية، كمعرفة كون النار محرقة، و مماسة التيار الكهربائي قاتلة؛ فلا يكون هناك امتياز المؤمن على الكافر، فإما أن يتحقق شرطهم، فلا يبقى على الأرض كافر ينكر الدين، كما لا يوجد أحد ينكر حرارة النار؛ و إما أن لا يتحقق الشرط، فلا يبقى على الأرض من يؤمن بالدين؛ بل لا يبقى في الدنيا إخصائي في أي مسألة، يعرف ما لا يعرفه غيره، أو لا تكون معرفته، فوق جهل الجاهل في الصحة و الجدارة بالقبول.

و قد ذكرني قول الأستاذ، أحمد أمين بك: [إن علم التوحيد، أو علم الكلام، برهان لمن يعتقد، لا لمن لا يعتقد..]؛ قول صديق لي في الآستانة، من فضلاء المحامين، كتب إلي وقوعه في تفكرات عميقة، بعد أن قرأ تأليف الإمام الكبير، فضيلة صديقي، الشيخ زاهد، رداً على رسالة منشورة، لإمام الحرمين، فيها حملات شنيعة على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة، لا مبرر لها سوى التعصب لمذهب الإمام الشافعي؛ و يفهم من كتاب الرد، أن للإمام الرازي أيضاً مثل تلك الحملات المنكرة.

ثم أراد صديقي المحامي، أن يطلع على رأيي فيها، و هذا ما كتبه: [إن كان يمكن إفحام أحد بالبرهان، و المنطق، فلا يمكن طمأنة قلبه بسهولة، بل و لا بصعوبة أيضاً، فلا يستطيع أحد تحويل أحد عن مذهبه، ما لم تتدخل العواطف، التي تجعل<245> كل شيء عاليه سافله، في البين؛ فقد يلعب العشق، و الحرص، و الخوف، و الأمنية الدنيوية، دوراً كثيراً، حين لا تنفع البراهين، مهما كانت منطقية؛ حتى إن هذه البراهين لا ترى إلا كترنمات مزينة، لتلك العواطف، أو ساترة لها؛ ففي مقابل اتفاق الآراء على قبول مقررات العلوم المادية، لا ينصرف أحد

116إنا لا نقبل هذا العرف الذي يحتكر اسم العلم للعلوم الحديثة المبنية على التجربة، و سيجيء بحثه في هذا الكتاب.

في الساحة الروحية و الوجدانية عن حركته الابتدائية؛ فالذي وُلد حنفيا، مقضي عليه أن يموت حنفيا، و الذي ولد شافعيا، أن يموت شافعيا، و السلام؛ كأن العلم[117] لا يجدي أي فائدة في هذه الأودية، و كأن هذه العلوم -فيما رأيت- تبقى عبارة عن الدفاع عن مذهب أو مسلك، حتى إن الأمر يكون دفاعاً للمرء عن طريقة له، بين أصحاب المذهب الواحد بعينه؛ و لعله مع هذا لا مندوحة عنه].

فكتب جوابي إليه، و قلت تقريباً: [لا بد أن يكون الحق واحداً، في كل ساحة مادية، أو غير مادية؛ فعند وقوع الخلاف في أي مسألة، يكون أحد المتخالفين على حق، و الآخر على باطل؛ و لا يمنع من هذا الحكم القطعي، كون المجتهد المخطئ في الأحكام الشرعية، العملية، ينال نصف أجر المصيب، تفضلاً من الشارع، في مكافأة من اجتهد، و كان أهلاً له، و مخلصاً في اجتهاده، كما لا يمنع إصرار المخطئ على مخالفة المصيب قطعيةَ كون الحق في جانبه، و لا يعد هذا الإصرار فشلاً لدليل المصيب؛ لأن نجاح الدليل في إثبات الحق، يعتبر بالنسبة إلى نفس الأمر، و إلى اقتناع المتمسك به غير مقصر في عرضه على طلاب الحق، لا إلى اقتناع المخالف، المصر على خطإه].

ثم قلت: [لكم العذر فيما خضتم من التفكرات العميقة، و خصيصاً ما أصدق قولكم بأن الأدلة لا ترى إلا كترنمات مزينة، أو ساترة لما تحتها من العواطف؛ و مع كون علماء أصول الفقه صرحوا بعدم جواز الاجتهاد مع التشهي، فإني لا أظن أن الإنسان يدرك أولا أدلة الدعاوي، التي يستدل عليها، ثم ينساق إلى ما يتناسب مع تلك الأدلة من<246> الدعاوى؛ إلا أن يكون إدراك الدليل قبل الدعوى في غاية الإجمال؛ نعم، يمكن أن يستثنى من هذا الحكم، مسائل الفقه المستندة إلى النقل، أكثر من العقل، أو حالة الإنسان في أوقات كونه صادف نظره دليلاً لمسألة، ثم المسألة نفسها بينما هو خالي الذهن عن كليهما.

و مع هذا، و بعد عد الأفكار المستندة إلى عوارض؛ كالعشق، و الحرص، و الخوف، و الأمنية، أو إلى التقليد المحض خارجةً عن البحث بالمرة؛ فالذي يتقرر في ذهني أولا، أو يجذب قناعتي يكون هو الدعوى؛ فأنا أميل منها إلى ما أميل من القبول، أو الرفض؛ و هذا هو ساعة تجلي هداية الله على من يطمئن قلبه إلى شيءٍ، أو حرمانه عن هدايته؛ فإن كان الرجل مهدياً إلى الحق في دعواه، فالهداية الإلهية تجد أدلتها، و تأتي بها إلى قلبه؛ و إن كان من المحرومين، تلقن أدلتها أيضاً، أو بالأصح شبهاتها إلى المدعى.

أما كون كل الناس في موقف متفَق عليه تجاه العلوم المادية، حين ساد الخلاف في الساحة الروحية، و الوجدانية، و عدم كفاية دليل أحد في تحويل أحد عن مذهبه، و كون المولود الحنفي لهذا مكتوباً عليه أن يموت حنفيا، و الشافعي شافعيا؛ فالمفهوم منه في النظرة الأولى عدم كون الأدلة العقلية مفيدة، و مقنعة، بقدر الأدلة المادية التجريبية.

و إني أذكر بهذه المناسبة، أن في مصر فكرة، لا شبهة في مجيئها من الغرب، مستولية على حملة الأقلام العصرية، من صغارهم المتطفلين، إلى كبارهم البارزين[118]؛ مثل الأستاذ فريد وجدي بك، الذي تولى إدراة (مجلة الأزهر)، و رئاسة تحريرها منذ سنوات، و أصبح لسان أكبر محيط ديني؛ فعند معتنقي هذه الفكرة، لا يوثق بالأدلة العقلية المنطقية، حتى إنها لا تسمى أدلة علمية، بحجة أن العلم يستند إلى دليل حسي، و حتى أن الكلمة القائلة: "كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا يعتد به"، دستورهم الذي يتشدقون به<247>، فسعيت أنا في كتاب، الذي ذكرت اسمه في أخد خطاباتي إليكم -هذا الكتاب-، و أرجأت نشره، بسبب أزمة الورق، لتصحيح هذه الفكرة.

إن الفيلسوف (كانت)، منتقد جميع الأدلة العقلية، المقامة لإثبات وجود الله، الذي لا يدخل في متناول التجربة الحسية، ثم المقيم من عنده دليلاً علمياً، أو أخلاقياً، لإثبات هذا المطلب.... استفاد الملاحدة كثيراً منه، حتى اتخذ أصحاب الفلسفة الوضعية، المعتنى بها بين كبار الكتاب المصريين، مثل هيكل باشا، و محمد فريد وجدي بك، على الرغم من أنها أحدث فلسفة إلحادية، و أخبثها -و قد سبق الكلام عليها باسم الفلسفة المثبتة-؛ اتخذوا الناحية السلبية لفلسفة (كانت)، سنداً لهم في عدم الاعتراف بوجود الله؛ غير عابئين بالدليل الذي اختاره لإثباته.

و في الواقع لا يتسنى إثبات وجود الله، الذي هو إثبات موجود واجب الوجود، إن لم يبق الاعتماد على الأدلة العقلية؛ و لا محل لأن يقال: "فماذا يكون إن لم يبق؟"؛ تفسيراً لموقف أمثالنا نحن المعتمدين على تلك الأدلة؛ بموقف المنساقين إلى المحاباة العاطفية، المماثلة لتعصب إمام الحرمين، و الإمام الرازي المذهبي؛ موقف الذين يحبون أن يموتوا مؤمنين بالله، لكونهم ولدوا مؤمنين؛ لا محل لهذا التفسير، و ذاك التشبيه؛ بل الإخلاد -في زمان يركن الكثير من أبنائه إلى الإلحاد، متهمين آباءهم بالغفلة، و الجمود- إلى الصبر و الثبات، في موقف الأسير لعاطفة كسدت سوقها، و في موقف المقلد للغافلين؛ أصعبُ على ذوي النفوس العزيزة، من أن يعابوا بترك عقائد الآباء و الأمهات؛ فلو كنا مؤمنين، و معتمدين على أدلة وجود الله العقلية، بدافع المحاباة العاطفية، فعاطفة الإلحاد أقوى في زماننا، و أشهى من عاطفة الإيمان بالله.

فلذا، لم تكن مسألة الإيقان بوجود الله، أو عدم وجوده، أو الشك بين الاحتمالين، لا سيما عند الذين يرون أنفسهم فوق العامة؛ غير مسألة اختلاف العقول الفطري، فعقلي أنا يستيقن وجود الله، و لا يلبث أن يرتب الأدلة لذلك، بل يكفي الإنسان في هذا الباب، كما قال (ديكارت)، إدراك وجود نفسه؛ أما رؤية العالم بأرضه، و سمائه؛ فزيادة<248> على الكافية بكثير، و بأكثر من الكثير.

فهذه الحالة البديهية عبارة عن شدة نفوذ مسألة بطلان "الترجيح بلا مرجح"، التي هي المركز الأول، لثقلة دليل إثبات الواجب، و قوة وطأته في بعض العقول.

و لا أغالي في التعبير عنها بالحالة البديهية، لأن ما ننساق إليه من إنكار "الترجيح بلا مرجح"، هو بعينه، الاعتراف بـ "مبدإ العلية"، الذي هو أحد الأمور التي يسميها علماء الغرب "المبادئ الأولى"، و يرونها فوق كل مناقشة؛ مع أن كثيراً من العقول الجديدة لا يتحرجون من القول بأن العالم موجود من تلقاء نفسه، غير متأثرين من تلك البداهة الملتطمة بعقولنا.

و إني لا أظن حضرتكم تنحازون عند القول بأن البراهين العقلية لا تصرف أحداً عن مذهبه، إلى الأفكار الحديثة التي ذكرتها؛ لا أظنكم تنحازون إليها، حتى عندما تشتكون بدافع التأسف المحق من عجز تلك الأدلة عن تقريب علماء أجلة، كإمام الحرمين، و الفخر الرازي إلى رؤية الحق بدعوى الشافعية، و الحنفية الجاهلية...

إذ لا شك في احتفاظ الأدلة العقلية، المنطقية، المستجمعة لشرائط الصحة دائماً بقوتها، و قطعيتها،

[117] لم يرد به علم الحديث.

[118] مع أنهم الآخرون أنفسهم متطفلون على الغرب.

بدرجة تفوق قوة الأدلة المادية التجريبية، المبنية على القوانين الطبيعية، التي قال عنها الفيلسوف "ليبنتز": [إن القوانين الطبيعية ليست قوانين عندية، كما ادعى "بايل"، و لا ضرورية ضرورة هندسية]؛ لأن الأدلة العقلية تفيد الضرورة، مثل الأدلة الرياضية، و إمكان اجتماع الآراء على ما ثبت في العلوم المادية، بواسطة التجربة، و الاستقراء، بل وقوع ذلك الاجتماع دائماً، في حين أن تفريق الحق من الباطل بواسطة الأدلة و البراهين العقلية، ليس أمراً سهلاً، لا ينقص قيمة الأدلة العقلية، بل يزيد قيمة على قيمتها، كما قال شاعر فارسي:

قدر زرزر كر شنا سد،
قدر كوهر كوهرى

و معناه: لا يقدر الذهب و الماس قدرهما إلا القسطار و الجوهري؛ و لا يحط من قدرهما أن لا يستطيع كل أحد تمييز صحيحهما من زيفهما<249>].

و لا يقال أليس إمام الحرمين، أو الفخر الرازي قسطاراً جوهرياًّ؟

لأني أقول: يفهم من كتابيهما، ثم من كتاب الرد عليهما لفضيلة صديقي الشيخ زاهد، أنهما لم يكونا قسطارين، و لا جوهريين فيما أخطآ من المسائل العلمية؛ لأن القسطرة في العلوم تفوق ما عند نقاد الأحجار الثمينة من الخبرة، و تتوقف على اختصاص و امتياز أسمى، و هو الاختصاص بتوفيق الله، فلكون تأثير الأدلة العقلية في العقول منوطاً بإرادة الله، يظل تمييز صحيحها من سقيمها، تابعاً لتوفيقه و هدايته؛ و لا يدور هذا الحظ الممتاز المختلف، باختلاف المسائل حتى مع كثرة العلم، و العقل، أو زيادة السمعة -بعد أن كان كل واحدة من هذه الميزات أيضاً تابعة لتوفيق الله-؛ بل يكون التوفيق في كل مسألة بعينها حظاً ثانياً، مفترقاً عن الحظ الأول، المتعلق بكثرة العلم، أو العقل، أو زيادة السمعة؛ فالذي يكفل بسلامة العقل السليم من الخطإ هو الإرادة الإلهية؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

و بالنظر إلى أن كل شيء في العالم يجري تحت إرادة الله، فاتفاق العقول على قبول مقررات العلوم المادية، و إن لزم أن يكون مستنداً أيضاً إلى إرادة الله، إلا أن إرادة الله التي ساوت التمييز بين الناس في ساحة الماديات، ساقت الأفكار في المعقولات إلى الاختلاف، تشريفاً للذين أصابوا سواء السبيل في تلك الساحات، و إعزازاً للأدلة التي تمسك بها أولئك الأشراف، و صينوا عن خطر الإخطاء.

فوجود احتمال الخطإ في الأدلة العقلية، لا يخفض قيمة تلك الأدلة، بل يرفع درجة المستدل المصيب للحق، و يرفع قيمة دليله الذي امتاز بالصحة، و استند إليه الحق.

و ليس هذا الفضل، و الرجحان بالنسبة إلى دليل المبطل، الذي حقه أن يسمى شبهة، لا دليلاً؛ بل الفضل الذي نريد تفهيمه، فضلُ صحيح الدليل العقلي، الذي كلامنا فيه على صحيح الدليل من غير العقلي؛ و فضله من ناحيتين:

الأولى: كون تمييز الصحيح من غير الصحيح صعباً في العقلي<250>، يكسب به المصيب شرفاً، و رفعةً، و درجةً.

و الثانية: ارتقاء مدلول الصحيح من الدليل العقلي، إلى مبلغ الضرورة.

[و خلاصة الفرق بين الدليلين، العقلي، و غير العقلي، بشرط أن يكون كل منهما صحيحاً؛ أن الثاني أوضح في الدلالة، و لذا يشترك في فهمه الجميع؛ و الأول أقوى، و أفضل؛ و قد عبرت عنه في محل آخر من الكتاب، بأنه دليل الخاصة، و عن الثاني بأنه دليل العامة؛ و أنت تعلم مما ذكر آنفاً أن المراد من الخاصة هنا المختصون بتوفيق الله في الاهتداء إلى صحيح الدليل العقلي.

و مثال ما ذكرنا من فضل الدليل العقلي[119] على غيره، مع احتمال الخطإ في الدليل العقلي، أن الإنسان يعد أفضل من الملائكة، مع كون الإنسان منقسماً إلى الخيار و الشرار؛ و كون الشرار أضل من الأنعام؛ لكن وجود هذا القسم بين الناس لا يحط من مرتبة الخيار، بل يعلي قدرهم؛ لكونهم لم يقعوا في الشر الذي وقع فيه طائفة من بني نوعهم، مع احتمال وقوعهم فيه، و عدم احتمال وقوع الملائكة....؛ و هكذا الأدلة بنوعيها العقلي، و غير العقلي؛ حيث لا ينقص احتمال الخطإ في الأدلة العقلية مرتبة الصائب منها، الذي كلامنا فيه، بل يعلي قدره، فافهم هذا الموقف، فإنه دقيق.

و قولكم: "من ولد حنفيا، يموت على مذهبه، و من مات شافعيا، على مذهبه، من غير تأثير الدليل القائم على خلاف المذهب في قلب كل منهما"؛ معناه: أن الإنسان متمسك بالتقليد أكثر من غيره، أو يكون تأثير التربية فيه أكثر من غيرها.

لكن المقلد العامي، الذي يصر على ما ورث من آبائه، و لا يستمع إلى القول بخلافه -و مثله المتعلم المانعد من الخاصة-، قد تركناه خارج البحث، و كان كلامنا في تعيين<251> أفضل واسطة لهداية الإنسان إلى طريق الحق، و ليس هو المقلد، المتمسك بما وجد عليه آباءه المذموم في كتاب الله، أو المتعصب لما أخذ من الأساتذة، و لا التقليد، أو التعصب طريق من طرق الهداية و الإصلاح.

نعم، التربية طريق من طرق الإصلاح و الهداية إلى الحق، لكن يلزم أولا أن يكون الحق الذي تهدف إليه التربية، و التنشئة حقا في نفس الأمر، لا في زعم المربيين؛ لأن التربية كما تكون موجهة إلى تأييد الحق، تكون موجهة أيضاً إلى تأييد الضلال، فيجب قبل كل شيء معرفة الحق، و تمييزه من الباطل؛ و لا يكون ذلك إلا بدليل العقل.

ثم إن التربية التي ترجع إلى تنظيم العاطفة -و سيجيء بحثها، و مقارنتها بدليل العقل و المنطق- تأتلف مع العلم، و الجهل على السواء، كما تأتلف مع الهدى، و الضلال....

فإذا فرضناها تهدف إلى تأييد الدين الحق، و تثبيته في قلوب النشء، و سلم دين الأمة، بفضل سلامة دين الناشئين، و دامت سلامته أعصاراً طويلة، كما دامت للترك في عهد الدولة العثمانية و قبله... فقد يجيء رجل لا ديني مثل مصطفى كمال، و يجد أعواناً له من المتعلمين المشايعين للغرب اللاديني، فيفتح أبواب الدعاية لهم على مصراعيها، و يكم أفواه المدافعين عن الدين؛ فلما اختلت الموازنة بين الفئتين من خاصة الترك، و تغلبت الفئة الفاسدة على الفئة السليمة، كفى ذلك في القضاء على دين الأمة في أقل من ربع قرن....

و سيتجلى صدق ظننا هذا السيء بدين الأمة المسكينة، بعد انقضاء بقية الجيل القديم المسلم، التي لا تزال تملأ المساجد، و ينخدع بها الغافلون، فلو كان دين الأمة قائماً على دليل العقل و المنطق -كما يخدمه علم الكلام- بدلاً من قيامه على التربية لما تسنى للفئة الفاسدة التغلب في البلاد، بل لو كان الغرب الذي هو منبع الفساد يتفق دينه مع العقل، و ينفذ في قلوب عقلاء البلاد الذين يكون

119 و معنى احتمال الخطإ في الدليل العقلي، انقسام الناس فيه إلى من يصيب الحق في استدلاله، و من لا يصيبه؛ و ليس معناه احتمال الخطإ في دليل المصيب، كما يتوهم الشاركون في قيمة الدليل العقلي.

رجال الحكومة منهم كما ينفذ في قلوب<252> العامة، لما كان الدين هناك منحصراً في المظاهر، و لما ضربت فوضى الأخلاق و الآداب أطنابها في المجتمعات؛ و بفضل ذلك كان يبقى الشرق في مأمن من عدوى المدنية الزائفة، و العقليات الزائغة إليه.

فخير ضمان للدين، و الأخلاق المبنية عليه، في أي أمة، أن ترتكز عقيدته في قلوب المثقفين بأدلته العقلية، ثم يستند إليه أساس دين العامة، العاجزين عن الاستدلال، و الدائرين مع التقليد، و التربية...].

و إذا عدت مما كتبته إلى الصديق المحامي في الآستانة - و ربما زدت عليه هنا عند النقل، أو نقصت شيئاً عنه-، إلى قول الأستاذ أحمد أمين بك، فقد تضمن الخطاب كثيراً من الرد على ما ذكره من عدم نجاح علماء التوحيد في براهينهم العقلية المنطقية، و نجاح علماء الكيمياء، و الطبيعة في براهينهم؛ و قد عرفت أن نجاح البرهان، يقدر بإيصال من تمسك به إلى الحق في نفس الأمر، فلا ينافي نجاح برهان المحق في رأيه، و إبراهه عدمُ خضوع الطرف المخالف له، لأن هذا يكون عدم النجاح في نظر المبطل، أو نظر من لا يميز بي المحق و المبطل، فيجب أن لا يعتد به؛ و لا بد أن يكون في كل محل الخلاف من محق و مبطل في نفس الأمر.

و لا تقل من يدري من المحق و من المبطل في الاستدلال العقلي، الذي يصعب فيه التمييز بين الحق و الباطل؟ لأن الفضل، كل الفضل يكون حينئذ لمن يدريه و يميزه، و هو المطلوب.

و آخر ما أقول لأحمد أمين بك، الذي استضعف براهين علماء التوحيد، لكونها براهين عقلية منطقية، و فضل عليها براهين علماء الطبيعة، و الكيمياء، معتبرا لهما في درجة واحدة مع براهين الرياضة: إن براهين الرياضة تفيد الضرورة، لكونها براهين عقلية، و لا تعادلها في ذلك براهين الكيمياء، و الطبيعة، المبنية على التجربة، و التي تفيد الصدق فقط، و لا تفيد ضرورة الصدق؛ و إنما تعادلها في إفادة الضرورة براهين علم التوحيد العقلية المنطقية<253>.

و الدليل عليه، ما قاله الفيلسوف "كانت"، و قد نقله الأستاذ في تصنيفه، الذي اشترك فيه مع الأستاذ زكي نجيب محمود، و سمياه (قصة الفلسفة الحديثة، ص 273)، و نقلناه نحن أيضا في محل آخر من هذا الكتاب: [التجربة تدلنا على ما هو واقع، و لكنها لا تدلنا على أن هذا الواقع لا بد بالضرورة أن يكون هكذا، و لا يكون على صورة أخرى؛ و هي لذلك لا تمدنا بالحقائق العامة[120]، مع أن هذا الضرب من المعرفة، هو ما تنزع إليه عقولنا بصفة خاصة، فالتجربة توقظ العقل أكثر مما تقنعه...؛ و مادام العقل في مكنته أن يصل إلى الحقائق العامة، مع أنها ليست من التجربة، فهو إذن مصدر العلم إلى جانب التجربة.

و لعل أنصع مثال يدل على وصول العقل إلى المعرفة، من غير طريق التجربة، هو مثال الرياضة، لأنها يقينية، و يستحيل على التجربة أن تنقضها يوماً ما، فلقد يجوز لك أن تتصور الشمس]؛ على خلاف التجارب المشهودة منذ تاريخ الدنيا، [مشرقة من الغرب في الغد، و أن النار قد تتبدل عليها الظروف، فلا تعود قادرة على إحراق عصاك الخشبية، و لكن لا تستطيع بحال من الأحوال أن تتصور العالم سيحدث فيه ما يجعل اثنين في اثنين لا تساوي أربعة، فهذه الحقيقة الرياضية ثابتة إلى الأبد، و من الأزل، و لا تحتاج لكسبها إلى تجربة، لأنها حقيقة مطلقة ضرورية لازمة الحدوث، و التجربة لا تمدنا إلا بإحساسات متفرقة، و أحداث مفككة لا يطرد تتابعها، فقد تجيء في الغد على غير النظام الذي جاءت به اليوم، أو أمس].

فنعم ما قاله "كانت" في هذه الأسطر المنقولة بصدد المقارنة بين التجربة و العقل، و نبه إلى أن السبب في قوة الرياضة اليقينية الأبدية استنادها إلى العقل...

و نعم ما قاله الأستاذ العقاد في كتابه الجديد (الله، ص 49-51)، و قد نقلته هنا على طول طوله، تسجيلا لشدة إعجابي به: [و قد أحس الإنسان قبل أن يفكر، فلا جرم ينقضي عليه ردح من الدهر في بداية شأنه، و هو يفكر حسيا، أو يفكر لمسيا، فلا يعرف معنى الوجود إلا مرادفا لمعنى المحسوس، أو الملموس؛ فكل ما هو منظور أو ملموس، أو مسموع، فهو واقع لا شك فيه، و كل ما خفي على النظر، أو أدق عن السمع، و اللمس، فهو و المعدوم سواء[121].

و قد كان للحاسة الدينية فضل الإنقاذ من هذه الجهالة الحيوانية، لأنها جعلت عالم الخفاء مستقر موجود، و لم تتركه مستقر فناء في الأخلاد، و الأوهام؛ فتعلم الإنسان أن يؤمن بوجود شيء لا يراه، و لا يلمسه بيديه؛ و كان هذا "فتحا علميا"، على نحو من الإنجاد، و لم ينحصر أمره في عالم التدين و الاعتقاد، لأنه وسع آفاق الوجود، و فتح البصيرة للبحث عنه في عالم غير عالم المحسوسات، و الملموسات؛ و لو ظل الإنسان ينكر كل شيء لا يحسه لما خسر بذلك الديانات وحدها؛ بل خسر معها العلوم، و المعارف، و قيم الآداب و الأخلاق.

و يجيء الماديون في الزمن الأخير، فيحسبون أنهم جماعة تقدم و إصلاح للعقول، و تقويم لمبادئ التفكير؛ و الواقع أنهم في إنكارهم كل ما عدا المادة يرجعون القهقرى، إلى أعرق عصور في القدم، ليقولوا للناس مرة أخرى: إن الموجود هو المحسوس، و إن المعدوم في الأنظار و الأسماع معدوم، كذلك في ظاهر الوجود و خافيه؛ و كل ما بينهم و بين همج البداءة من الفرق في هذا الخطإ، أن حسهم الحديث يلبس النظارة، و يضع المسماع على أذنيه.

و يحسبون على هذا أنهم يلتزمون حدود العلم الأمين، حين يلتزمون حدود النفي<255>، و يصرون عليه في مسألة المسائل الكبرى، و هي مسألة الوجود، بل مسألة الآباد، التي لا ينقطع الكشف عن حقائقها في مئات السنين، و لا ألوف السنين، و لا ملايين السنين؛ و نحن لا نستطيع أن نقول "لا"، إلى آخر الزمان في مسألة من مسائل الحجارة، أو المعادن، أو الأعشاب، أو مسائل البيطرة، و علاج الأجسام.

و ليس النوع البشري على أبواب محكمة يخاصم فيها من يثبتون، أو ينكرون، و يتحداهم و هو جالس في مكانه أن يثبتوا له ما ينفيه، و لايهتدي إليه بالعين و المجهار.

و لكنه على الأقل أمام "معمل للتجارب"، يبدأ فيه البحث، و يعيده، ثم يبدأه، و يعيد في كل عصر على ضوء جديد، و هو أمام الكون خاصة لم يكد يبدأ البحث في مسألة الآباد إلا منذ مئات معدودة من السنين، فياله من علم بديع، هذا العلم الذي يقطع بالنفي إلى آخر الزمان..... دون أن يتردد، أو ينتظر مفاجآت الزمان.

و الواقع أن العلم كله يقوم على أساس الإيجاب، و الترقب، و لا يقوم على أساس النفي و الإصرار، و ما من حقيقة علمية إلا و هي تطوي في سجلها تاريخاً من

[120] يريد بها المبادئ الأولى، التي يجيء بحثها في هذا الكتاب، و يذكر هناك أنها فطرية في الإنسان على المذهب المختار، غير مستفادة من التجارب.

[121] زعم الإنساني البدائي هذا يشبه كل الشبه ما سبق الأستاذ فريد وجدي بك من وضعه "الغيب"، في مقابل "الواقع"، و جعله الإيمان به إيماناً بخلاف الواقع.

تـواريخ الاحتمـال، و الرجـاء، و الأمل في الثبـوت؛ و إن تكررت دواعي الشك بل دواعي القنوط.

فبحث الإنسان عن العقاقير، و بحث عن المعـادن، و بحث عن الثمـرات، و الفلات، بـروح تـرَقّب إيجابـاً و ثبوتـاً، و لا تنتقل من نفي إلى نفي، و من إصرار إلى إصرار؛ و هـذه هي روح العلم أمـام الصـغائر، و من شـؤون الـبيوت و الأسواق.

فلماذا تكون روح العلم إصـراراً محضـاً، و إنكـاراً متلاحقـاً على غـير إحسـاس، و بغـير تـرقب، أو انتظـار في كـبرى المسائل على الإطلاق؟

و أجـدر الأزمنة أن يتبـدل فيه هـذا الموقـف، هو الـزمن الـذي تكشف فيه الأجسـام عن عنصـرها الأول، فـإذا هو إشعاع، أو حركة في فضاء، فاقترب الوجود المادي نفسُه من عـالم المعقـولات، و المقـدورات؛ و تقـرر لنا أن الحواس لا تستوعب معنى الوجود في<256> الصـميم، لأن زوال العـدم هو الصـفة الوحيـدة اللازمة للوجـود، و لا يسـتلزم زوال العـدم تجسـما، و لا تجرمـا، و لا كثافة من هـذه الكثافـات، الـتي تتمثل بها الأجسـام للحـواس، بل يكفي حركة مقـــدورة، أو معـــنى؛ كأنه من طبيعة المعقولات؛ فما أضيق النطـاق الـذي بقي للحس مظـاهر من أسرار الوجود.

و ما أحرانا أن نفسح للـوعي الكـوني، و للبداهة مما لا يتسع مع الزمان، و لا نحبسه في نطاق يضيق، ثم يضـيق، حتى يسقط من الحسبان.

و الإنسـان قد رأى نـور الشـمس، و الكـواكب بعينيه منذ مئـات آلاف من السـنين، و لم يقبس نـور الكهربـاء من ينبوع الضياء الكوني إلا في هذا القرن الأخير، فتـدرج من قدح الحجـر، إلى حك الحطب، إلى فتيلة الـدهن، إلى غـاز الاستصـباح، إلى نـور الكهربـاء في هـذا الأمد الطويل من الدهور وراء الدهور.

فوعيه الباطن لم يقصر عن وعي عينيه في هـذا الشـوط البعيـد، لأنه تنقل من عبـادة الحصـى، و الحشـرات، إلى عبادة الإله الواحد في بضعة آلاف من الدورات الشمسية، و جاز لنا أن نقـول إن ضـميره كـان أسـرع من عينيه إلى اقتباس الضياء، و كان أقدر من فكره على مغالبة الظلام؛ و أي ظلام؟

إنه لم يكن إظلامـاً كظلام الليـالي، و الكهـوف، يسـلم مقـاده لكل قـادح زنـد، أو نـافخ عـود؛ و لكنه كـان ظلامـاً تجـوس فيه مـردة الجهـل، و شـياطين العـادات، و أبالسة المطامع و الشهوات.

فـإن دل ذلك على شـيء، فإنما يـدل على حاجة الضـمير إلى ذلك النور الذي اهتدى به، و اهتدى إليه].

كلمة الأسـتاذ العقـاد هـذه القيمة جـدا، لا تحتـاج إلى أي تعليقق منا سوى أن نقـول إنه حـارب فيها أصحاب العلم الحـــديث المـــادي القاصـــرين على تعـــويلهم على المحسوسات، و النافين لما وراءها النفي البـات، دون أن يترددوا، كما قال الأستاذ، أو ينتظروا مفاجـآت الزمـان، و دون أن يفسـحوا للـوعي الكـوني و البداهــة، إلا نطاقـاً يضيق ثم يضيق، حتى يسقط من الحسبان....

حاربهم فهـزمهم هزيمة منكـرة، و لكن خاصة بـالمنكرين، دون<257> الشاكين، و المشككين.

و الـدين، لاسـيما الإسـلام، كما ينـاوئ إنكـار وجـود اللـه، ينـاوئ الشك في وجـوده، و لا يكفيه الاعـتراف باحتمـال وجوده، و لا الوعي الذي ينطـوي على هـذا الاحتمـال، بل يتوقف على قناعة جازمة، تحقق التعبـير عن الله بـواجب الوجود.

فإيمـان العامة من المسـلمين يقـوم على هـذا الـوعي إجمالاً، و تفصيل هذا الإجمـال، الـذي يجعله قانونـاً علميا يفيد الوجـوب، و الضـرورة، و يفـوق بهـذا ما يسـفتاد من العلم الحديث، فمحله في علم الكلام، و صدور علمائه.

ثم إنا وجدنا الأستاذ أحمد أمين بك بسـيطاً جـداً في قوله من المقالة المذكورة، المنشـورة في (الثقافـة): [و كـان نابليون في حملته على مصر- في سفينة حوله ملحـدون، و في ليلة بديعة، لمعت النجوم في السـماء، و تلألأت في رونقها، و بهائها، و جمالها؛ فقـال نـابليون: انظـروا أيها الرفـاق ما أبـدع النجـوم، و أجملهـا! فمن أبـدعها؟ قـال ملحد: نحن لا نسأل هذا السؤال، و ما يـدور في ذهنك من هـذه الأسـئلة لا يـدور في أذهاننـا، إنما نسـأل نحن كيف تطـور هـذا العـالم، و كيف وصل إلى ما نـرى، إن برهانك أيها الأمبراطور، دليل جمليل لك].

لأن تطـور العـالم بنفسـه، و ارتقـاءه حـتى وصل إلى ما وصل إليه بنفسه من غير وجود واضع لهذا النظام، محـالفٌ مخالف لمبدإ العلّيّة على تعبير علمـاء الغـرب، و مسـتلزم للرجحان من غير مرجح على تعبير علمائنا المتكلمين، فلا يلتفت إليه، و لا يستحق الذكر مقابلاً لقول نابليون.

لكن الأسـتاذ نقله من غـير تعليق عليـه، و هو يـرمي إلى قوله السـابق في المقالة -و كأنه مؤيد لـــه-: [أما علم التوحيـد، فبرهـان لمن يعتقـد، لا لمن لا يعتقـد؛ برهـان لصحة الدين، لا لمخالفه].

و هل لا يلزم التحديد، أنه برهان في نفس الأمـر، أو غـير برهان؟

لأن اختلاف صـاحب الـدين، و غـير صـاحب الـدين في الاعتقـاد، لا ينفي نفس الأمر<258>؛ فهل علم التوحيد برهان، و غير برهان معاً؟

و لهذا أقول: أنا إن المتعلم المصري الناشئ في أحضـان هـذه المقـالات، و الكتب العصـرية، يختـار لنفسه عقيـدة الشك.

أما قول الأستاذ بعد الجملة المنقولة آنفـاً: [و لهـذا لم نر في الـتراريخ أن علم الكلام كـان سـببا في إيمـان من لم يؤمن، أو إسلام من لم يسلم إلا نادراً؛ إنما كان سـببا في إيمـان الكثـير، و إسـلام الجم الغفـير الـدعوة من طريق القلب، لا من طريق علم المنطق].

فمقارنة أخـرى من الأسـتاذ للعقل و المنطـق، يـوازن قوتهما في تأييد الإيمـــان بقـــوة القلب، بعد مقارنتهما بالتجربة، و تفضـيلها عليهمـا، فكما أنه خص بـراهين علم الطبيعـة، و الكيميـاء المبينة على التجربة بالنجـاح، دون بـــراهين علم التوحيد المبنية على العقل و المنطـــق، عد مســاعدة القلب للإيمـــان أنجح من مســاعدة العقل و المنطق.

و فيه عنـدي نظر ظـاهر؛ لأن معـنى تأييد القلب للإيمـان تأييده بعواطفه، و ليس التأييد بالعاطفة تأييـداً بالـدليل و البرهـان، الـذي كلامنا فيـه؛ و لهـذا لا يُبحث عن الحق و الباطل في التمـايلات القلبيـة، و هـذا كـاعتزاز كل قـوم بقوميته، و ترجيحها على القوميات الأخـرى، فيكـون لكل قوم الحق في ذلـك، من غـير أن تكـون قوميـات الآخـرين معرضة للبطلان، و يكـون الـترجيح بمثل هـذه العواطف القلبية عنـديا محضـاً، ليس من الرجحـان الحقيقي في شيء.

لكن المطلوب في ترجيح الإنسـان لما اختـاره دينـاً لـه، و عقيـدة يبتغي فيها مرضـاة اللـه، لـزم أن يكـون ترجيحـاً ناشئاً من كونه حقاً، و ما يخالفه باطلاً، و أن يكون له في ذلك دليل من العقل و المنطـــق، و لا يجـــوز أن يكـــون ترجيحه مبنياً على العاطفة، و المحابـاة المجـردة، المنبئة

عن عدم وجود مرجح حقيقي لما يرجحه، حتى إذا استطاع أن يذكر لعاطفته و محاباته سبباً معقولاً انقلبت العاطفة القلبية إلى الاستدلال العقلي.

الحاصل أن المقصود من العلوم، هو الوصول إلى الحقيقة، و عليه فلا شك أن العقل المحايد أحق بالثقة من العواطف المحابية، و أن في إسناد الإيمان إلى العواطف اعترافاً ضمنياًّ <259> بعدم استناده إلى سبب معقول، بل إلى اختيار صحيح أيضاً مبني على الموازنة بين المختار، و غير المختار.

و لهذا فإن صحّ هذا الإيمان، صح إيماناً تقليدياًّ، لا إيماناً استدلالياًّ، و لا يمكن أن يكون إيمان المقلد أفضل من إيمان المستدل، فإن أمكن ذلك في أي دين، فليس بممكن في الإسلام.

و ليس بصحيح ادعاء كون الإيمان في عصر النبي ﷺ على هذه الحالة؛ فإن لم يكن علم الكلام في ذلك العصر على شكله المدون، كان روحه مركوزة في عقول الصحابة، ألا يرى أن كتاب الله مشحون بأدلة الفكر و النظر، و من ذا ينكر ما في قول سيدنا إبراهيم: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ...﴾ من الاستدلال الكلامي، بحجة أنه سابق لتدوين علم الكلام بقرون كثيرة؟

فلا شك في أن ترجيح القلب لأن يكون بعواطفه سندا للإيمان، على سند علم الكلام العقلي و المنطقي، نزعة من الأستاذ إلى عقلية علماء الغرب المتدينين المحتاجين إلى الابتعاد عن ساحة العقل و المنطق، تهريبا لدينهم المسيحي من براثن انتقادهما، و متمسكين بدلاً منهما بالقلب و عواطفه، و سيجيء منا كلام عن شنهم الحرب في هذا السبيل ضد العقل، كلام ننقله عن كتاب الأستاذ نفسه، ثم نعلق عليه، و لا حاجة في الإسلام الذي هو ديننا، و دين علمائنا المتكلمين إلى تلك الحرب.

و من حاجة الغربيين في تقوية الدين إلى تأييد العاطفة القلبية، و ترجيحها على العقل، تراهم قد يدعون في إيمان العامة أمتن من إيمان الخاصة، و ترى مقلديهم في الشرق يصدقونهم في ذلك.

و لا صحة لدعواهم هذه أيضاً[122].

و كفى دليلاً على هذا، أن حالة<260> العامة تتغير بتغير الخاصة من دون عكس، و تدور قوة ارتباطهم بدينهم مع قوة المنتمين إلى ذلك الدين،و غلبتهم في وجه الأرض، فيظن الغافل ذلك قوة من الدين؛ و أصدق القول قول علمائنا المتكلمين إن إيمان المقلد عُرضة للزوال بتشكيك مشكك.

ثم إن الأستاذ القائل: [لم نر في التاريخ أن علم الكلام كان سببا لإيمان من لم يؤمن، أو إسلام من لم يسلم، إلا نادراً؛ إنما كان سبباً لإيمان الكثير، و إسلام الجم الغفير الدعوة من طريق القلب، لا من طريق علم المنطق].

لم يفكر في سبب كون المسلمين احتفظوا بدينهم، و صحة عقيدتهم في القرون الطويلة المتقدمة على اتصالهم، أو بالأصح على اتصال متعلميهم بالغرب، و تياراته في الأزمنة الأخيرة؛ و ما كان السبب في هذا الاحتفاظ إلا استناد علمائهم إلى علم الكلام، و استناد الخلق إلى أقوال هؤلاء العلماء و إرشاداتهم؛ فإذا مست الحاجة إلى المباحثة، و المجادلة في العقائد كانوا يقومون بها متكئين إلى قوة علم الكلام، و يقفون في وجه التيارات المضللة بهذا السلاح المؤيد بالعقل و المنطق.

و لم يكن ممكنا في أي وقت من الأوقات استخدام العاطفة القلبية، و لا تهذيب القلب بالتصوف، الذي هو الطريق المعروف في تربية العواطف و المشاعر، سلاحاً للمجادلة الدينية العلمية لكونه سلاحاً لا يتعدى تأثيره إلى غير حامله.

فلو كان رجال الدين في العصر الحاضر أقوياء في علم الكلام، و في الوثوق بعقولهم المؤيدة لهذا العلم، كماكان سلفهم؛ لما وجد الإلحاد و كل ما لا يتفق مع الإسلام من الأفكار الغربية، فرصة النفوذ في عقول مثقفي الشرق العصريين، و ما اجترأ الأستاذ فريد وجدي بك مدير و رئيس تحرير (مجلة الأزهر)، على يتقول بين ظهراني شيخ و أساتذة كلية أصول الدين أقاويل ضد علم الكلام، و ينتصب في رأس المجلة عدوا له عداوة المرء لما جهله، حتى كأنه يجهل أيضا كون هذا العلم اسما آخر للعلم الذي أضيفت إليه تلك الكلية الأزهرية<261>.

هاجم رئيس مجلة الأزهر علم الكلام، و كان صنيعه هذا اقتراحاً ضمنيا لإلغاء تدريس هذا العلم بالأزهر، و لكن من غير إقامة علم مقامه تستند إليه عقائد الإسلام.

بل ليس في الإسلام شيء يستحق أن يسمى علما بعد أن اشتُرط في العلم أن يكون مؤسسا على التجربة الحسية، و تُقُبِّل هذا الشرط في نظر الغرب و أذنابه الشرقيين؛ و لذا لم يذكر الأستاذ خلفاً لعلم الكلام المطلوب إلغاؤه.

بل ترك الإيمان بالله معلقاً بذمة المستقبل، لعل جهود علماء الغرب تكتشف يوما وجود الله بتجاربها الحسية، كما اكتشفت الروح، ففي ذلك اليوم السعيد فقط يثبت على زعمه وجود الله علميا!

لكن الأستاذ أحمد أمين بك، على الرغم من تسليمه برجحان براهين العلوم التجربية على براهين العلوم العقلية المنطقية، لم يقع في سذاجة الاستجارة من التجارب الحسية لاكتشاف وجود الله، و امتاز عن أستاذ (مجلة الأزهر) أيضاً، فذكر خلفاً لعلم الكلام في حفظ العقائد، و هو علم التصوف.

و إني لا أرضى أن يُختَرع من التصوف، الذي هو عمل، و إخلاص، و تربية للنفس أكثر من أنه علم، و الذي لا ينبغي أن يكون متمما لعلم الكلام، مزاحم له؛ و إن كان هذا الاختراع الممقوت قد وقع من غلاة الصوفية القدماء، قبل الأستاذ أحمد أمين بك.

و لما كان علم الكلام عندما قلت في أوائل الكتاب: "انتهت قوة السيف في الإسلام بانتهاء الدولة العثمانية، و إني هاجرت إلى مصر في هذه الفترة، فوجدت قوة الإسلام العلمية أيضا في حالة النزع"؛ في طليعة المقصود من قوة العلم الإسلامية المحتضرة؛ فقد حق لي أن لا أبرح موضوع الدفاع عن علم الكلام، و عن العقل الذي بنيت أدلته عليه، قبل أن أعطيه حقه.

فأقول: الأستاذ الذي يروقه التصوف لإثبات الدين، و لا يعول على أدلة علم الكلام العقلية و المنطقية، نسأله عن كيفية غلبة الصوفي على منكري الدين، و عن السلاح الذي يستعمله في إفحامه؟

هل يكون سلاحه إظهار خارقة من كراماته، تدهش من عاينها؟

و هل يكون للصوفي أن يتحدى بها، في حين أن الفارق بين معجزة النبي، و كرامة الولي أن يتحدى<262> النبي بمعجزته، و لا يتحدى الولي بكرامته، و في حين أن منكري الدين في زماننا، و كثيرا ممن يعد نفسه من

122 و إنما يتم هذا على ضعف الإيمان في الخاصة الغربيين، بل و في مقلديهم من الخاصة العصريين في الشرق الإسلامي أيضاً، فتقتصر مهمة هؤلاء في الغرب و الشرق على الاحتفاظ بدين العامة، من طريق العاطفة القلبية، لا من طريق العقل و المنطق، إذ لو كانت عقولهم مائلة إلى الإيمان، كانوا هم أنفسهم أقوى فيه من العامة.

المسلمين، لا يؤمنون بالمعجزات الخارقة للقوانين الطبيعية، بله الكرامات؟

فالحق أن محاولة تحويل وجهة المسلمين من علم التوحيد إلى التصوف، تأييدا لدينهم، و تثبيتاً لعقائدهم، تشبه محاولة إحداث نوع من بعثة الأنبياء بعد انقضاء عهد النبوات، يستغني به الناس عن البحث و النظر بعقولهم لتمييز الحق و الباطل من الأديان و أضداد الأديان، و عن العلوم المستندة إلى ظاهر كتاب الله و سنة رسوله، بل و عن المبالات بآيات الكتاب نفسه الآمرة بالتفكير في السماوات و الأرض، و في أنفسهم، و القائلة مثلا: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[الزمر:9]؛ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الرعد:3]؛ و﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة:164]؛ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾[طه:54]؛ و القائلة بألسنة أهل جهنم، النادمين على ما فتهم عند معاينة العذاب: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك:10].

و قد كان طروء الضعف على دين المسلمين، و استيلاء الشك على قلوب المثقفين، بل تغلب الإلحاد على الإيمان، حصل كل هذه التقلبات في الشرق الإسلامي بعد أن أخذ الغرب يغزو دين الشرق بعلمه الحديث، لِما وجد الناحية العلمية في الدين ضعيفة، و صدَّقه في زعمه هذا أعوانه المقلدون في البلاد الإسلامية[123]، و لم يكن دخول الإلحاد الغربي في الشرق ناشئاً من كون العلم الحديث، الذي هو أداة فتحه الوحيدة، وجد في الأعصر الأخيرة ضعف البلاد الإسلامية في التصوف.

فإذا كانت حرب العلم الحديث الغربي متوجهة إلى الأدلة العلمية القديمة، الذي كان الإسلام منذ قرون طويلة معتمداً عليها، لا متوجهة إلى التصوف...

و إن شئت فقل: لما كان دخول الإلحاد في كثير من أذهان العصريين بواسطة حرب العلم الحديث ضد<263> الأدلة العلمية الكلامية، وجب أن يكون الهجوم المقابل في نفس الجبهة، التي شُنت الحرب منها؛ ليكون الحرب بين العلمين، لا بين العلم و العاطفة، اللذين لا حرب بينهما في الإسلام، و إنما المثقفون العصريون من مقلدي الغرب في الشرق رأوا ملاحدة الغرب يحاربون الأديان بالعلم الحديث، الذي لا يؤمن بغير ما ثبت بالتجربة الحسية، فانحازوا إلى جانب العلم و ألحدوا، ثم رأوا أهل الدين في الغرب المسيحي يتمسكون بالعاطفة لإنقاذ دينهم من مخالب العقل و العلم، فانحازوا إلى جانب الدين، و قلدوا المسيحيين في الاستهانة بالعقل وا لعلم، و في ضمن هاذ التقليد استهانوا بعلم الكلام المبني على العقل و المنطق، و الذي هو سلاحنا في حرب الملاحدة، مع أن العاطفة ترجع قيمتها العلمية إلى قيمة التعصب، و لا تنهض حجةً ضد العقل و المنطق، و لا نحن في حاجة إلى التمسك بها، أو بالتصوف الذي يربيها... لا في إثبات الديانة ضد الإلحاد، و لا في مقارنة الإسلام بالأديان الأخرى، و إنما نحتاج إلى التصوف في داخل الإسلام لترويض النفس على العمل بأحكامه، لنكون مسلمين عمليين، بعد أن كنا مسلمين نظريين بفضل علم أصول الدين، الذي هو الكلام و فروعه، التي هي الفقه.

و أنا لا أغالي، و لا أظلم، إذا قلت إن الأستاذ الذي يفضل التصوف على علم التوحيد عند المقارنة بينهما، يفضله أيضا على المنابع الأصلية للإسلام، أعني بها ظواهر الكتاب و السنة.

و مما يؤيدني في قولي "لا أغالي، و لا أظلم"، أن الأستاذ حين مدح التصوف مقابلَ علم التوحيد، مدحه شاملا للتصوف في جميع الأديان؛ و لو كان لغير دين الإسلام علم كعلم التوحيد في الإسلام، لذكره الأستاذ مع علم التوحيد المفضول، كما ذكر التصوف في ذلك الدين مع التصوف الفاضل في الإسلام، و لهذا بقي علم التوحيد الإسلامي وحده مفضولاً في كلام الأستاذ، و مقابلاً للتصوف في جميع الأديان، فكأنه لا قيمة لهذا العلم بالنسبة إلى التصوف... حتى و لو كان تصوفاً غير إسلامي.

و فضلُ هذا التصوف عنده حتى و لو كان تصوفا غير إسلامي، ناشئٌ من عدم كونه مبنيا على العقل<264> و المنطق، كما كان علم التوحيد؟

و منشأ هذه العقلية في الأستاذ ظنه بأن الدين خير له أن لا يأخذ مسنده من العقل و المنطق، كما في المسيحية المتجافية عنهما، فيسعى الأستاذ أن يُبعد الإسلام عنهما كما بعدت.

فهو إن لم يكن مقلداً للمسيحية في نظره إلى الإسلام، فمقلد للعقلية الغربية المسيحية المعرضة عن العقل و المنطق، و بهذا التقليد أصبح علم التوحيد الذي يدور مع العقل و المنطق، منبوذا عنده، تاركاً مكانه للتصوف.

و ههنا نقطة هامة، يجب أن يلفت إليها، و هي أن وجود التصوف لا سيما وجوده معترفاً به عند الأستاذ -في المسيحية التي لا توحيد فيها، و لا علم التوحيد، و لا اتفاق مع العقل و المنطق، و لا الحاجة إلى ذاك الاتفاق- يضر عند أولي العقل و المنطق بمركز التصوف في الإسلام أيضاً، إذ يفهم من هذا كون التصوف واسع الصدر إزاء ما يوافق العقل و المنطق، و ما يخالفهما.

و لعل الأستاذ يتعجب من أني أعد مخالفة العقل عيباً، بينما هو يعيب علم التوحيد بأن علماءه جعلوه عقلا و منطقاً، كأنه يقول قول الفيلسوف المسيحي (اسبنسر): [خير للدين أن يترك هذا العقل العنيد، الذي لا يطمئن إلى غير الحجة المنطقية]؛ و قد نقله في كتابه "قصة الفلسفة الحديثة ص 478.

فليعلم الأستاذ أن التصوف في الإسلام إن خالف علم التوحيد، و خالف معه العقل و المنطق، كان باطلاً، كما بطل زعم التصوف في دعوى وحدة الوجود، و سيجيء بحثه مستوفىً في هذا الكتاب، و ليحذر قارئ الكتاب قبل أن يقرأه، التكلم ضد العقل و المنطق.

فإن كان التصوف يمتاز بالإلهام من الله، فالعقل -الذ هو قانون الله، و سفيره العام الرسمي عند الإنسان، و الذي هو المهبط الأول الطبيعي لإلهام الله، يقدم إلهامه على الإلهام الخاص، الذي يخالفه، و يكون معنى هذا أن الإلهام المخالف ليس بإلهام.

و لهذا لم يجئ فيما جاءت به الأنبياء صلوات الله و سلامه عليهم ما يحيله العقل، فإذا كان في سعة علم التوحيد -المتكلم بالعقل و المنطق- أن يضع لمقدورات الله حدوداً من الممكنات، حيث تقول متونه<265> عند ذكر صفاته تعالى الثبوتية: "قادر على جميع الممكنات"؛ فأولى أن يكون في سعة ذلك العلم تحديد التصوف دائماً.

و لينظر الذين يجعلون التصوف من أساتذة مصر مزاحما لعلم التوحيد المسمى بعلم الكلام، مفضلين الأول، و مستهينين بالثاني.... لينظروا بعين العبرة إلى ما نقلنا سابقاً من كلام الإمام القشيري[124] في إنذار من يجحد بعلم الكلام، و كلمة السيد الشريف الجرجاني، شارح المواقف، في إكبار ذلك العلم، و تقديمه على جميع العلوم الإسلامية، مع كون كلا الرجلين الجليلين ممن جمع العلمين الكلام، و التصوف في نفسه.

---

[123] و في استخفاف الأستاذ بعلم التوحيد مثال واضح لهذا التصديق.

[124] في رسالته التي يعدها الصوفية -كما قال أحد فضلاء الكتاب في مجلة (الرسالة)- ككتاب سيبويه عند النحويين، و لا ينصرف الإطلاق إلا لها.

و مما يزيد في العبرة أن ناقل الكلمة عن الصوفي العظيم الأول، أي الإمام القشيري، كان هو الصوفي العظيم الآخر، فخر الصوفية المعاصرين، فضيلة الشيخ سلامة العزامي المصري، متع الله الإسلام بطول حياته، و نحن نقلناها من كتابه (فرقان القرآن بين صفات الله و صفات الأكوان).

و قال الصوفي العظيم الإمام الرباني، مجدد الألف الثاني، أحمد بن عبد الله السرهندي في (المكتوبات) -و سننقله أيضا مع تصريحا أخرى منه في مبحث تدقيق وحدة الوجود-، المكتوب 86: [فينبغي للسالك قبل بلوغه كنه الأمر، أن يعد تقليد علماء أهل الحق لازماً لنفسه، مع مخالفة كشفه و إلهامه، و أن يعتقد العلماء محقين و نفسه مخطئاً، لأن مستند العلماء تقليد الأنبياء عليهم السلام المؤيدين بالوحي، المعصومين عن الخطإ و الغلط، و كشفه و إلهامه على تقدير مخالفته للأحكام الثابتة، خطأ و غلط؛ فتقديم الكشف على قول العلماء تقديم له في الحقيقة على الأحكام القطعية المنزلة، و هو عين الضلالة و الخسارة] <266>.

أما الإمام الغزالي، الذي تشبث الأستاذ أحمد أمين بك في مقالته الأخرى المنشورة بـ (الثقافة)، و الأستاذ عبد الحليم محمود -المدرس بالأزهر، و كاتب المقالات في (منبر الشرق)- بذيل أقواله ضد علم الكلام، فهذا الإمام الملقب بحجة الإسلام نقول -عملاً بقوله الذي نقله هو في مقالة الأستاذ أحمد أمين، عن علي كرم الله وجهه: "لا نعرف الحق بالرجال"-: إنه ليس بحجة الإسلام في تلك الأقوال التي قالها في أواخر عمره....، و له رحمه الله أخطاءً لا تغتفر، و لا تستصغر، نبهنا إلى بعضها في (القول الفصل)، و سننبه على بعض آخر منها في هذا الكتاب، غير الذي نتكلم الآن عليه.

و الأقوال الأخيرة لهذا الإمام، لا سيما ما قاله في عدم الاعتماد على المحسوسات و المعقولات التي يُستمد بها للحصول على اليقين، لا تؤثر عندنا في إكبار علمه الجديد، و إنما تحدث تأثيرا سيئا في سمعته بقديم علمه.

و هذا السيد الشريف الجرجاني، الذي يسميه من جاء بعده من فرسان الميدان في العلوم "سيد المحققين"، و الذي أكبر علم الكلام، إلى حد أنه قدمه على جميع العلوم، كما سبق بنصه في الرقم 7، ما أكبره جاهلا بالتصوف، و لا مطففا في وزنه، أو مجازفاً في وزن علم الكلام.

و ماذا يقولا لإمام الغزالي، الذي ينفي الطريق إلى اليقين غير طريق الكشف، في قول علي رضي الله عنه: [لو كشف الغطاء، ما ازددت يقينا]؟

و لقد أتى الغزالي -فيما نقله عنه الأستاذ في (الثقافة، عدد 358)- بالعجيب المعيب، حين رفع الأمان عن شهادة الحس، و العقل، و عن عالم اليقظة؛ و عنده: كما أن ما يشاهده الإنسان في حالة المنام، أي الرؤيا لا حقيقة له، مع كون الحالم يراه على أنه حقيقة، فكذلك يمكن أن يكون عالم اليقظة عبارة عن الخيال الكاذب.....؛ و عليه، فلو ضرب زيد عمرا في منامه، فاقتص منه المضروب في اليقظة، و رُفعت القضية إلى الحاكم، و قال الضاربان اليقظان إنه ضربه قصاصا، و رد عليه الحاكم بأنه لا قصاص على أضغاث الأحلام، فللمقتص أن يجيب قائلا: "من يدري أن عالم اليقظة ليس له أضغاث كأضغاث <267> الأحلام.

و الحقيقة السالمة، المسلَّمة عند الإمام، و من تصوف معه من الأساتذة العصريين، إنما هي في العالم الثالث، المتجلى لهم من دون المشتغلين بالمحسوسات و المعقولات، و لا ندري أنهم لما تكلموا هذه الكلمات الرافعة الأمان عن حالة اليقظة، كانوا في حالة اليقظة، أو في عالم غيرها.

و يرد عليهم أن المبادئ الريبية التي تمسكوا بها في هدم الاعتماد على المحسوسات و المعقولات صالحةٌ لأن تتسلط على التصوف أيضاً؛ و بالنظر إلى أن التصوف علم الوصلة إلى الله، فمن لم يقتنع بوجود الله، و لم يكفه في الجزم بوجوده أدلة علم التوحيد، لزمه أن لا يقتنع بأن الذي اتصل به بعد دخوله في العالم الثالث، الذي هو التصوف، هو الله بعينه.

و كيف يتسنى له التعرف بمن لم يسبق منه التسليم بوجوده[125]؟

و معنى هذا أن علم الكلام يتولى إثبات أن الله موجود، و واحد؛ من غير تحديد لذات ذلك الموجود الواحد، بأنه هذا أو ذاك؛ و هذا العلم يعترف بعجزه عن التحديد و التعيين، بل يمنع المسلم عن السعي من ورائه، و يقول: "العجز عن درد الإدراك إدراك، و البحث عن سر ذات الله إشراك".

و التصوف، أو بالأصح تصوف الإمام الغزالي القائل بوحدة الوجود، مع القائلين اشتغال بتعيين ذات الله، حتى إن الاتحادي المعروف الشيخ محي الدين عربي تجرأ على تجهيل من قال: "العجز عن درك الإدراك إدراك"، على الرغم من كونه منقولا عن الصديق الأكبر رضي الله عنه، كما سيجيء في بحث وحدة الوجود؛ و حتى إنه صرح بأن خطأ النصارى إنما هو في قصرهم الألوهية على المسيح بن مريم دون سائر الموجودات....

فالإمام الغزالي الذي تنكر للمحسوس و المعقول، و تنكر لعلومه من نوعهما، وقع من التصوف في هاوية وحدة الوجود؛ فإن كان من حقنا "أن نعرف الرجال بالحق<268>، و لا نعرف الحق بالرجال"؛ فنحن نعده في طوره هذا ممن قال كتاب الله عنهم: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [النحل:70].

و أنا الذي دفعني تصوف الأساتذة العصريين، دراوشة الإمام الغزالي[126] إلى التكلم بما قد يُظن منه أني من خصوم الصوفية، و ليس الأمر كذلك...

أصارحهم بأني أحبهم، و أجلهم، بشرط أن يكون واجبهم تعويد الناس العمل بعلوم علماء الدين، الذي قد يكونون -أي العلماء أنفسهم- مقصرين فيه، و بذلك يكون في إمكان الصوفية أن يتولوا إرشاد العلماء و إصلاحهم، فضلا عن العامة.

ثم لا أرضى بهم أن يجاوزوا هذا الواجب، و هو إرشاد الناس و تعويدهم العمل بعلوم العلماء، غلى أن يحاربوا علوم العماء، و يدعوا الناس إلى الاستغناء عنها بالتصوف المزيج في الغالب بالأباطيل، و الأضاليل.

و بفضل إرشاد هذه الطائفة الناس، و تمرينهم على العمل، و لا سيما الإخلاص يف العمل بعد أن كانوا قدورة للناس في العمل و الإخلاص، يمنكنه أن ينالوا من فيوضات الله ما يمتازون به على غيرهم، فيصبحوا من عباد الله المقربين، كما يشير إليه الحديث القدسي: «لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ

---

[125] و من الغريب وقوع التجلي من الله للشاكين في وجود الله، المنكرين للأدلة العقلية، التي أقامها علم التوحيد عليه؛ دون المؤمنين بوجوده اعتمادا على تلك الأدلة.

[126] دراوشته للطعن في علم التوحيد، و ما بني عليه من العقل و المنطق؛ لا للمواظبة على الأذكار، و الأوراد الصوفية، و لا للتخلي عن مناصب الدنيا، و ملاذها، كما تخلى الإمام الغزالي.

كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَ بَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِـهِ، وَ يَـدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَ رِجْلَهُ الَّتِي يَسْعَى بِهَا»[127].

و مع هذا الامتياز العظيم، فالمحجة التي لا عوج فيها و لا أَمْتَ، للحصول على العلم و المعرفة، طريـقُ العقـل، و لا يزال قـول علمـاء الكلام في أوائل كتبهم: "أسـباب العلم ثلاثة؛ الحواس السليمة، و الخبر الصادق، و العقل؛ و ليس الإلهام من أسباب المعرفة عند أهل الحق".

قانوناً معترفاً به عند ذوي العقول، قانونــاً لا ينقضه خطأ الحواس مثلا في أحوال نادرة يظهر منشأ الخطأ فيها عند التفتيش بالعقل، الذي لا تستقل عنه الحـواس أصـلاً، و لا تسـتغنى عن<269> مسـاعدته في القيـام بـدورها، كما لا تنقضه إصــابة الكشف و الإلهــام من بعض الخــواص في بعض حالاتهم، مع عدم الاطراد في حالات الإصـابة، و في تعـيين أصـحاب هـذا الكشف المصـيب، كتعـيين أشـخاص الأنبياء المؤيدين بالمعجزات و المعصومين عن الخطأ؛ فلا يوثق بإلهامهم كما يوثق بإلهام الأنبياء.

إن تيار الإلحاد الغربي وجد السبيل إلى الشرق الإسـلامي من أحد البابين:

الأول: المادية الــتي لا تعــول إلى على ما ثبت بالتجربة الحســية، و يمتــاز في زعم العصــريين باسم العلم، و قانونها الذي يردده الأستاذ فريد وجدي بك، و يتمسك بـه، و هو: [كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا يعتد به]؛ و هـذا مــذهبٌ إيقــاتيٌّ في دائرته المحــدودة، الــتي تخــرج عنه المغيبــات الداخلة في عقيــدة الإســلام، و على رأســها الإيمان بالله.

و ثـاني البـابين: السوفسـطائية الريبيـة، الـتي لا نعـترف بالحصــول على اليقين، لا في المحسوســات، و لا في المعقــولات؛ و يتفق كل من المــذهبين على عــدم الثقة بالعقل و المنطق اللذين يبني الإسلام عقائده عليهما.

فالإسلام يأبى كلا من هذين المـذهبين، كما أن المـذهبين يتنافيـان في أنفسـهما مع بعضـهما؛ فيلـزم منطقيا لمن ينتمي إلى أحد المذهبين أن يرفض المذهب الآخر، كما أن من ينتمي إلى الإسلام لزمه أن يرفضهما.

و العجب أن الأســتاذ أحمد أمين بك لم يكن ريبيا عنــدما قال: [إن علماء التوحيد، أو علمـاء الكلام لم ينجحـوا حين جعلوا الدين منطقاً و فلسفةً، نجاح العلماء في الـبراهين العقلية على قضايا العلم؛ إن قانون الكيمياء، أو الطبيعة، أو الرياضة، إذا قال به أحد العلماء، و برهن عليـه؛ آمن به كل النــاس بلا فــارق بين أمة و أمــة، و أهل دين و أهل دين، و شـرقي و غـربي؛ أما علم التوحيـد، أو علم الكلام فبرهان لمن يعتقد لا لمن لا يعتقد، برهان لصاحب الـدين لا لمخالفه]؛ وقد تكلمنا عليه.

و لم يكن مؤمنا بقضايا العلم التي قال عنها: [إنها يـؤمن بها كل النــاس]، و الــتي آمن بها مع النــاس، عند تحبيذ كلمة الإمـــام الغــــزالي القادحة في المحسوســــات و المعقولات.

فــأنكر قضـايا العلم التجــريبي، و الثقة بــالحواس إيمانـاً بمبادئ الريبية، و أنكر الريبية إيمانا<270> بقضايا العلم، و ثقة بالحواس، و آمن بهاتين اللتين أنكرهما، إنكاراً للعقل و المنطق اللذين يستند إليهما علم التوحيد...

و جـاوز عند إيمانه بالريبية ريبية الإمـام الغـزالي، القائل عن الرياضــيات كما نقل عنه الأســتاذ: [و هــذه أمــور برهانيــة، لا ســبيل إلى مجاحــدتها]؛ فعلق عليه الأسـتاذ قوله: [هذا ما كان يُعتقد في زمنـه]؛ و معنـاه أن الأسـتاذ يجاحدها أيضاً.

لأنه أخذ الريبية عن سوفســطائية الغــرب الحديثــة، قبل أخذها عن الإمام؛ و سيجيء بحثه منا في مــدخل المطلب الأول من هذا الكتاب؛ و كذا المنطق، يختلف نظر الأسـتاذ فيه عن نظر الغزالي، الذي يعترف بأنه لا يُنكـر، فالأسـتاذ ريبي تام، غير محتاج إلى أخذها عن الإمام.

أستاذ آخر من مدرسي الأزهر:

و هناك أستاذ آخر من المدرسين في الأزهر، ذكرنا اسـمه من قبــل، كتب عــدة مقــالات في (منــبر الشــرق) عن التصوف، و أخرى بعنوان (على هـامش فلسـفة الأزهـر)؛ فرأيته يدخل في مسائل مهمة مختلفة، و يخرج غير مؤت شيئا منها حقه في البحث، و هو أيضا يــرمي علم التوحيد الذي اعتنى علماؤنا بشأنه، و اعتمدوا عليه قروناً طويلـة، بعدم إزالة الشكوك، و يرى الخلاص منها في الإلتجـاء إلى التصوف، بل يعـزو مـذهب العلمـاء إلى اعتبـار الشك أول واجب على الإنسان؛ و لعله وصل إلى سمعه من بُعد قول أبي هاشم المعــتزلي في ذلــك، فظنه مــذهب علمــاء الإسلام مطلقاً.

و تــــراه لا يبت في أن الـــدين يسع حرية التفكـــير، أو يحظرها، و لا يدري أن حرية التفكير مضمونة في أســاس الـدين الإسـلام المبـني على الأدلة العقليـة، إلا أن هـذه الحرية الواسـعة لا تنـافي بعد التسـليم و التصـديق بكونه الـدين الحق القيم، أن يتقيد من اتخـذه دينـاً له بأحكامه و قوانينه، التي يكون العمدة فيها على ثبوتها عن الرسـول المبلغ عن الله، و لا يكون المنتمي إلى الإسـلام حـرا في مناقشتها.

و المناقشـات الـتي كـانت من حق المسـلم<271> العاقل قبل التثبت في عقيـدة الإسـلام و الاطمئنــان على كونه دينا إلهيا متفقا مع العقـل، لا تكـون من حقه بعد ذلـك؛ و إلا كانت هذه المناقشة مناقشة لله.

ثم إن هذا الأستاذ الذي تردد في الحكم بوجود حرية الرأي في الـــدين، و الـــذي كتب جُل ما كتبه مشــــوبا بظلام الشبهات غير مكون فيه رأيا واضحا، و اقتناعاً صريحاً.

قـال في عـدد الصـحيفة المـذكورة (361): [إلى أي مـدى يسمح الدين بحرية الفكر، فيما يتعلق بما وراء الطبيعة؟

إننا نعلم أن كل الأديـان نبـذت هـؤلاء الـذين لم يعتقـدوا بوجـود الإلـه، و استنكرت، أو اسـتغربت لهـؤلاء الـذي لا يؤمنون؛ ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾[إبـراهيم:10]؛ و لم يستنكر الأديـان هؤلاء فحسب، و إنما استنكرت، أو نبذت كل أولئك الــذين لم يسـتكملوا الإيمـان بالله و ملائكتـه، و رسـله، و اليـوم الآخـر، و ليس الأمر كـذلك فقـط؛ بل في الأديـان أيضـاً إشـارات، و إشـارات إلى أن الطريق المسـتقيم ليس هو حرية الرأي، و إنما هو اتباع الوحي: ﴿مِنْـهُ آيَـاتٌ مُّحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ...﴾، إلى قوله تعـالى: ﴿...مِّنْ عِنـدِ رَبِّنَـا﴾[آل عمران:7]؛ و جاء في الأثر: «إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا».

و موقف الــدين في تلك الناحية موقف طــبيعي، حكيم، ذلك أن تلك الناحية –ما وراء الطبيعــة- لا يمكن مطلقا أن يصل الإنســان فيها إلى رأي، إذ أن الإنســان لا يمكنه أن يكوّن رأيا إلا في المحسوس؛ أما الأشياء الغيبية فكل رأي فيها هو بلا شك ضــــرب من الأوهــــام، و لا يمكن أن يقر الـدين ذلك النـوع خصوصـا، إذا اتصـلت المسـألة بالله و ملائكتـه، و كتبـه، و رسـله، و اليـوم الآخـر، و في الواقع كيف يمكننا أن نكون رأيا في تلك الناحية، و الدين يرشدنا إلى أن "كل ما خطر ببالك فالله غير ذلك".

و هــذه الخطة -خطة الاتبــاع في تلك الناحيــة- هي خطة السـلف الصـالح، خطة الإمـام مالك و غـيره، و هي كـذلك خطة الشيخ محمد عبده في تفسير جزء عم، كلما ذكـرت<272> الجنة أو النار، و كلما ذكر شـيء من المغيبـات، حيث

---

[127] و قد توهم أصحاب المذهب الوجودي من المتصوفين أن هذا الحـديث من مؤيدات مذهبهم الباطل.

يقول: هذه أشياء أخبرنا الله بها، لا نعلم حقيقتها، و لكنا بها من المؤمنين].

فزعم هذا الأستاذ أن الدين لا يسمح بحرية الفكر في الإيمان بالله، و ملائكته، و كتبه، و رسله، و اليوم الآخر؛ فكأن الإنسان إن آمن بالله، و ملائكته، و كتبه، و رسله، و اليوم الآخر، فلا يؤمن مقتنعا بعقله، حرا في تفكيره، و إنما يؤمن اتباعاً للوحي الآمر بالإيمان، و كأن الوحي الآمر به من المتشابهات، حيث يأمر بالإيمان بما يستحيل عند العقل الحر في تفكيره، و كأن الذي يؤمنون بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر يؤمنون بها قياما للواجب بالوحي، و إن لم توافقهم عقولهم في هذه الإيمان؛ و هذه خطة الشيخ محمد عبده في تفسير جزء عم، حيث قال: [هذه أشياء أخبرنا الله بها، لا نعلم حقيقتها، و لكنا بها من المؤنين].

و أنا أقول: هذا كلام الأستاذ صاحب المقالات في (منبر الشرق)، و قد كتبها غير واعٍ لما تضمنته، كالمؤمن بالمغيبات في مذهب الشيخ، و الحق أن الإيمان بالله، و ملائكته،و كتبه، و رسله، و اليوم الآخر، لما كان المراد منهالإيمان بوجودها، فلا شك في اعتراف العقل الحر بهذا الإيمان، أما وجود الله فليس العقل يعترف به فقط، بل يوجبه أيضا بأدلته القطعية حيث لا يتصور وجود هذا العالم بغير وجوده.

و أما ما ذكر بعد الله من الملائكة، و الكتب، و الرسل، و اليوم الآخر؛ فالعقل الحر في تفكيره يعترف بها أيضا، و لكن مع الفرق بينه و بين اعترافه بوجود الله، الضروري؛ فإن معنى اعتراف العقل بهذه الأمور إنها غير مستحيلة في حد ذاتها عند العقل، ممكنة الوجود بعد وجود الله القادر على إيجادها، و حاجة العقل إلى الوحي في الإيمان بهذه الأمور إنما تعتبر لتصديق وقوعه تفصيلا، لا للاعتراف بها إجمالاً، الذي يكفي فيه إمكانها؛ كما قال خضر بك أستاذ المحقق الخيالي في منظومته النونية الكلامية:

و واقع كل ما نص الصدوق به	من ممكن؛ كصراط، أو كميزان

<273>فالأمور المذكورة بعد الله، يُثْبَت إمكانها بالعقل، و يُصَدَّق وقوعها بالوحي؛ حتى إنه لو لم يثبت إمكانها عقليا لما كفى الوحي في الإيمان بها، و كان الوحي من المتشابهات.

أما الذين يقولون باستحالتها العقلية، و يبنون الإيمان بها على مجرد الوحي، من غير أن يدعموه باعتراف من العقل الحر، فغير جادِّين في إيمانهم، إن لم يكونوا من عامة الناس، كائنين من كانوا.

و لذا أنكر الأستاذ فريد وجدي بك معجزات الأنبياء الخارقة للقوانين الطبيعية، و أنكر البعث بعد الموت، و الجنة، و النار، على أوصافها الواردة في القرآن.

و جرى نقاش بيني و بينه قبل سنوات على (صفحات الأهرام)، و كان الأستاذ يعدها من متشابهات الكتاب، التي لا تحمل على ظاهرها، و لهذا أيضا اعتاد الشيخ محمد عبده تأويل المعجزات بما يخرجها عن منافاة الطبيعة؛ و الأستاذ كاتب المقالات في (منبر الشرق) يمشي على آثارهما، كما مشى على رأي الأستاذ أحمد أمين بك في الاستهانة بعلم التوحيد، و ترجيح علم التصوف عليه في الاقتناع بأصول الدين.

أما قول الأستاذ: [إن ما وراء الطبيعة لا يمكن مطلقا أن يصل فيه الإنسان إلى رأي، إذ أن الإنسان لا يمكنه أن يكون رأيا إلا في المحسوس]؛ فاتباع منه للضلال الفكري، المستولي على المثقفين العصريين بمصر، القائل بأن العلم إنما يبنى على المجربات المحسوسة، و ما وراء ذلك لا يعتد به؛ و لذا لا يعد ما وراء الطبيعة علماً، و لا يعول على الأدلة العقلية.

و أنا -الذي كتبت هذا الكتاب للقضاء على هذه الضلالات-، أقول لهذا الأستاذ -الماشي على الضلال العصري، مدعيا لعدم إمكان الحصول للإنسان على رأي في غير المحسوسات-: كيف أمكنه أن يرتإي كون التصوف طريقاً إلى الحصول على اليقين في الدين أفضل من علم التوحيد، في حين أن التصوف بعيد عن المحسوسات<274>؟

بل أقول: أليس له رأي مكون، و مقرر في وجود الله، الذي هو في رأس مسائل ما وراء الطبيعة؟

لا أسأل عن رأيه في كيفية وجوده، أو كنه ذاته، حتى تلتبس عليه هذه المسألة بما يرشدنا إليه الدين -بل العقل أيضا قبل الدين- من أن: "كل ما خطر ببالك فالله غير ذلك"؛ و قد ذكره الأستاذ في غير موضعه- بل أسأله عن وجود الله، الذي ينازعنا فيه الملاحدة الماديون، و الطبيعيون غير المؤمنين بغير المحسوسات.

و مما التبس على الأستاذ فذكره في غير موضعه، خطة السلف الصالح، خطة الإمام مالك، و غيره، المتوقفين عن تأويل المتشابهات في كلام الله و رسوله، المستحيلة عند العقل، إذا حملت على ظواهر معناها، مثل قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:5]؛ فقد خلطها الأستاذ بخطة الشيخ محمد عبده، أو الأستاذ فريد وجدي بك في معجزات الأنبياء، و أحوال الآخرة؛ خطة عد الآيات الواردة فيها من المتشابهات، التي تستحيل معانيها الظاهرة على العقل.

و عندنا، و عند غير المختلطة عقولهم بمبادئ العاكفين على المحسوس، لا مانع عقليا عن قبول تلك الآيات على ظواهرها، لكن الأساتذة العصريين عاجزون عن التمييز بين الممكن و المستحيل، و المتشابه و غير المتشابه.

******** ****** ******

و في مختتم بحث المقارنة بين العقل و العاطفة القلبية، التي يرجع إليها المتصوف، و يراها الكتاب العصريون منا قدوة، جديرة بالاتباع، أفضل من العقل، تقليداً للعقلية الغربية، المتولدة من العقلية المسيحية، التي هي في حاجة إلى استضعاف العقل، ليخلص الدين من محاربته... في مختتم هذا البحث يحسن لي أن أنبه القارئ على أن العقل الذي يخالف المسيحية، و يحاربها، و الذي لا يمكن التغلب عليه، هو العقل السليم.

لا عقل الغرب المتجنن بالحياة الدنيا، و زيناتها، و شهواتها، فتراه يجعل الدنيا عاليها سافلها، مستأثرا بتلك الشهوات لذويه، و واضعا للقوة فوق الحق....

و قد سميت هذا العقل في أوائل الكتاب "عقلا شيطانيا"، تمرد على بارئه، و أصبح الشيطان بفضل هذا العقل من المنظرين<275> إلى يوم الوقت المعلوم.

و هكذا يكون ما يكسب الغربيون من عقولهم على أكثر تقدير، و هم لكونهم أقل عقلا من الشيطان لا يدرون ما يدريه أستاذهم من العاقبة التي تنتظره في الآخرة، و ينص عليه قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص:85]، بل ربما يكون إنظارهم أقصر من إنظار أستاذهم.

كتبت هذه الأسطر مقدمة للانتقال إلى قصة كتبها الأستاذ إبراهيم المصري في (جريدة أخبار اليوم)، بعنوان (عندما يتحير الإنسان)، يحاول بها إثبات فضل العاطفة على العقل.

و خلاصة القصة: أن رجلا ارستقراطيا أنانيا، من كبار أدباء الألمان، في القرن التاسع عشر، بلغت أنانيته و كبريائه أنه لم يعرف الحب، و لم يخفق قلبه لامرأة، و هو في الثلاثين من عمره... ثم اتفقه له أن يرى فتاة، فقيرة، يتيمة الأبوين، باهرة الجمال، اهتم بها أولا، ثم أحبها، و أحبته، خاضعة لكبريائه، و مطيعة له في كل ما يرومه، فتزوجها، و اشتد حبه بها، فكان يغار عليها غيرة عنيفة، أنانية، تجاوز حدودها المعقولة، و لا تخلو من مضايقتها، و هي تصبر على كل ذلك عن طيب نفس.. ثم ولدت غلاماً، فأحبته كما تحب زوجها، و شق على الزوج الأناني أن يرى من ولده شريكاً له في حبها، فحاول إبعاده منها، فأبت، فأصر الرجل على محاولته، و المرأة على إبائها، حتى عزمت على الهرب من بيته، في ليلة من ليالي الشتاء، حاملة ولدها، فأدركها الرجل، و أبت هي إلا أن تخرج، و لكن الرجل انقض عليها، و انتزع الطفل منها، و صفعها أمام الخادمة، فحدقت إليه تحديقاً هائلا، ثم ارتمت عليه كاللبوة المفترسة، و انتزعت منه طفلها، و انطلقت تعدو على غير هدى، حتى اندفعت من باب الحديقة إلى الشارع الكبير، و كان الظلام كثيفا، و البرد شديداً؛ و إذ ذاك، و في ومض الطرف، زادت الريح، و دوى الرعد، و أبرقت السماء، و انفجرت العاصفة، و انهمر المطر، و انصب على الأم، و طفلها كسيل من رصاص، فاضطربت، و تراجعت، و دب الذعر في قلب الرجل، فلحق بها و هو يصرخ ارجعي، رحمة بابنك.. فاضطرت إلى الرجوع، و لكن الطفل أصابته حمى من تأثير البرد، و المطر، و تجاذب المتنازعين، و لم ينفع الطب في إنقاذه حتى مات في اليوم الرابع من ليلة الحادثة.

قال كاتب القصة: [و في تلك اللحظة، فقد تحطمت جبروت الرجل، و تبددت أنانيته، و تقوضت فلسفته، فأدرك جثة ابنه العزيز الوحيد أنه لم يكن إنساناً، لأنه لم يضع القلب فوق العقل، و التواضع فوق الكبرياء، و الرحمة فوق القوة].

و أنا أقول: قد غلط الكاتب في ظنه الكبرياء، و الأنانية، و الغيرة الجنونية، التي أرادت أن تمنع الأم من حب طفلها، الذي لا حب أسمى، و أطهر، و أوفق للغريزة الإنسانية و الحيوانية منه عقلا، ثم سهل عليه تعييب رجل القصة بأنه لم يضع العاطفة فوق هذا العقل، و هو ليس بعقل.

نعم، إنه عقل الغربيين، الأنانيين، الواضعين القوة فوق الحق، و كاتب القصة كأكثر الكتاب العصريين منا، يتبع عقليات الغرب الفاسدة[128]، لينال من مركز العقل الصحيح، المحترم عند الأمة، اتباعاً لعقلية الإسلام الذي يكبر العقل، و يمشي معه جنبا لجنب... فإذا ضل عاقل إلى حد أن يستهين بالعقل، فذلك الضلال البعيد.

ثم أقول للمسلمين الغيورين على دين بلادهم: اهتموا بدين مثقفيكم إن كنتم تريدون بقاء الدين محفوظ الكرامة، و مرعي الأحكام؛ و اهتموا بكون المثقفين يعتنقون الدين بصميم عقولهم قبل أن يعتنقوه في صميم قلوبهم، فذلك أنسب بهم، و أثبت، و أسلم من طروء الزيغ عليه.

و ليس من المعقول أن يكون دين المثقفين، الذين هم عقلاء البلاد<277> مبنيا على العاطفة دون العقل، و لم يقل علماء الإسلام عبثا: "إن مدار التكليف الشرعي هو العقل..."؛ فإذا رسخ الدين في قلوب هذه الطائفة من الأمة بواسطة عقولهم كان دين العامة، و دين البلاد في مأمن من الضعف و الانحلال، و كل ما نراه في الشرق الإسلامي الحديث من ضعف الدين، و فساد الأخلاق، فمنشؤه كون الضعف متمركزا في الخاصة المثقفة.

---

[128] فيفضل طاعة القلب على طاعة العقل، كما رأى قارئ هذا الكتاب مثله في الأستاذ أحمد أمين بك، و سيراه في الأستاذ فريد وجدي بك، و رآه قبلهما –و سيراه أيضا- في الأستاذ فرح أنطون عند مناظرته الشيخ محمد عبده، و هو أقدم المدافعين عن القلب ضد العقل –فيمن أعلمهم بمصر-، و منه يعلم صدق ما فهمته من أن الشيخ لم يغلب خصمه في تلك المناظرة، فهؤلاء الأساتذة أتباع رأي فرح أنطون، لا أتباع رأي الشيخ.

9- [الدكتور السيد محمد يوسف الهندي]:

الدكتور السيد محمد يوسف الهندي، الذي كانت أعجبتني مقالته في (مجلة الرسالة)، المعنونة: (راي الأكثرية في السياسة الشرعية)...؛ هذا الدكتور كتب مقالة أخرى في (الرسالة) أيضا (عدد 772)، بعنوان: (مجلس الشورى لإبليس)، ترجمه من شعر المرحوم الدكتور إقبال، شاعر الهند المشهور، يضرب فيها الدكتور الشاعر، و الدكتور المترجم على وتر الاستهانة بعلم الكلام، و معاداته الشائعة بين المثقفين العصريين في البلاد الإسلامية؛ و هما لا يبديا استهانتهما بعلم الكلام في صدد المقارنة بينه و بين التصوف، أو بينه و بين العلم الحديث، بل إنهما يحملان على الكلام و التصوف معا، و يعتبرانهما شاغلين عن العمل الذي هو الأولى بالاشتغال في خدمة الإسلام، و إعلاء كلمته.

و أنا أقول: إن الذين أحدثوا المقارنة بين علم الكلام، المبني على العقل، و بين التصوف، المبني على العاطفة، مع تفضيل التصوف على علم الكلام، في بناء الدين عليه؛ و قد أخطأوا في كلا الأمرين، كما سبق منا إيضاحه، و إثباته...

هؤلاء المقارنون المخطئون، كانوا على الأقل معقولين في مقارنتهم، و إن كانوا مخطئين في تفضيلهم..

إما إحداث المقارنة بين العمل و مباحث الإلهيات الموجودة في علم الكلام، أو بين العمل و التصوف، ثم تفضيل الاشتغال بالعمل على الاشتغال بهما، فليس له معنى معقول أصلاً <278>.

و لنبدأ من المقارنة بين العمل و التصوف: فهي كالمقارنة بين العمل و بين العمل، و قد سبق مني أن قلت عند مناقشة أحمد أمين بك في أوائل هذا البحث إن التصوف عمل و إخلاص في العمل، و تربية النفس أكثر من أن يكون علماً...؛ فهو -أي التصوف- لا ينفك عن العمل، إلا في مذهب غلاة المتصوفين، القائلين: بأن للإنسان مرتبة عند الله من مراتب الكمال، إذا وصل إليه يسقط عنه التكاليف الشرعية؛ و هو مذهب باطل لا نعتد به.

و أما إحداث المقارنة بين العمل و بين علم الكلام، فكان هذا كالسعي لإحداث المزاحمة بين العلم و العمل، مع دعوى الاستغناء بالعمل عن العلم، في حين أنا نحن المهتمين بعلم الكلام لم نقل يوما بعدم الحاجة إلى العمل بعد تعلم علم الكلام، بل العلم أوضح طريق إلى العمل و أسلمها، و العمل بدون العلم يكون بناء على شفا جرف هار، و لا يعتد به، إن لم يكن كذلك، بل احتفظ بكيانه على خلاف القياس، و لم يزل قائما... لا يعتد به، لكونه عملا من غير عقيدة.

و ليس المقصود من علم الكلام إلا تأسيس عقيدة الدين على أساسه العلمي، و لذا كان من أسمائه علم أصول الدين، فصاحب الأعمال الدينية من غير اشتغال بهذا العلم إما أن لا يكون له عقيدة أيضا جازمة بصحة أساس الدين... فهو منافق ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾[إبراهيم:18]، و إما أن يكون له عقيدة جازمة من طريق تقليد العلماء المشتغلين، و الاعتماد على علمهم، أو تقليد المقلدين و المعتمدين...؛ فلا بد أن ينتهي القائمون بأعمال الدين إلى المشتغلين بعلم أصول الدين...

و لا نقول نحن أيضا بلزوم الاشتغال لكل أحد من المسلمين، و إنما نقول كما قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ...﴾[التوبة:122] الآية؛ فيكفيهم أن يكون لهم علماء يعتمدون على علمهم في تثبيت عقائدهم الدينية، كما يعتمد الناس في قضاء حوائجهم الدنيوية على إخصائيين في علوم أخرى<279>، مثل الأطباء و المهندسين.

و لا يكون من شأن العاقل المهتم بدنياه أن يهجم على علم الطب، أو الهندسة مدعيا لاستغناء الناس عنه... و ليس ما فعله الدكتور إقبال، و الدكتور محمد يوسف المترجم عنه إلا من قبيل هذا الهجوم، و الاستهانة غير المعقولين[129].

<u>و قد سبق أن قلت في هذا الكتاب: [المسلمون في زماننا يتلاومون فيما بينهم بالتقصير في العمل عازين إليه تأخرهم المشهود، مع أن تقصيرهم في العقيدة التي لا تقبل التقصير أصلا أشد من تقصيرهم في العمل.. حتى إن تقصيرهم فيها قد يبلغ كما ترى مبلغ مناوأتها و الاستهانة بها، و هو داؤهم الذي أصيبت بها الكثرة الساحقة من مثقفيهم، فعاقهم عن الصلاة و الصيام، و عاق حكوماتهم عن العمل بقوانين الإسلام في بلاد معدودة من البلاد الإسلامية استبدالا بها قوانين فرنسية أو غيرها، أو تعديلاً في قوانين الإسلام بتضمن الخروج عليها باسم التسهيل على الأمة، أو التوفيق بمصلحتها، حتى إن الكثيرين يعجبهم فصل الدين عن الدولة، و حتى كان الشيخ الأكبر المراغي لا يعد الفقه من الدين، و لا التغيير في أحكامه تغييرا في الدين[130]، و كان كل هذه الحالات و المحاولات يتظاهر أصحابها بالخروج على الجمود في الإسلام طلبا للسهولة، و المصلحة و التجديد في ناحية العمل، لكن الحقيقة أنهم خارجون عن الإسلام نفسه من ناحية العقيدة، أي ناحية الإيمان به، الذي هو أساس العمل بأحكامه، و لهذا سهل عليهم التغيير في أحكامه العملية، و لهذا أيضا عنيت في هذا الكتاب بالناحية الاعتقادية التي هي الناحية العلمية، و صرفت كل جهد في تثبيتها]</u> <280>.

<u>و قلت هناك أيضا: [و بعد اقتناع المسلمين بعقيدة الإسلام اقتناعا يتفق مع العقل و العلم الصحيحين يكونون مسلمين حقيقيين، و يسهل لهم الحصول على ما يحتاجون إليه من العمل بأحكام الشريعة الإسلامية، إذ العمل المعتد به ينبني -كما قلت من قبل- مباشرة، أو انتهاء على العقيدة العلمية، التي لا يتعب بها الإنسان أصلا بعد استيقانها بعقله و فهمه، بل يكون له منها قوة ينشرح بها صدره، و يستعين على القيام بالناحية العملية، التي ليست سهلة في حد ذاتها سهولة الناحية الاعتقادية، لانطوائها على تكاليف و تضحيات].</u>

نعم، إن الناحية الاعتقادية المبنية على تدقيق علم أصول الدين المسمى بعلم الكلام ليست سهلة أيضا، لا سيما على العامة، و على أكثر العقول الحديثة، التي تستصعب هذا العلم، لاستئناس أصحابه بالعلوم الحديثة المادية، فيسهل عليهم الإعراض عنه، و الكلام ضده، بدل الاشتغال به، و التعمق فيه؛ بدعوى عدم فائدته، و عدم حاجة الإسلام إليه، لكنا نقطع إن شاء الله في هذا الكتاب خصوم علم الكلام، و الذين هم خصوم العقل و المنطق

---

[129] و لا يمكن الدفاع عن الدكتور الشاعر، و الدكتور المترجم باحتمال أن يكون مرادهما من الأعمال التي يفضلان الاشتغال بها على الاشتغال بعلم أصول الدين و التصوف، الأعمال النافعة للمسلمين في دنياهم، لأنه إذا لم يكن لإحداث المقارنة بين علم أصول الدين و التصوف و بين الأعمال الدينية، معنى معقول، مع كون الطرفين من جنس واحد... فعدم المعقولية في إحداث المقارنة بين ذينك العلمين الدينيين و بين الأعمال الدنيوية أولى.

[130] لهذا البحث تفصيل و تمحيص في الباب الرابع من هذا الكتاب.

أيضاً[131] -حتى إن القارئ اطلع على الأستاذ فريد وجدي بك رئيس تحرير مجلة الأزهر، و هو يتمدح في مقالاته بأنها خالية عن الأدلة المنطقية- مع أنا كما قلنا آنفاً لا ندعو كل أحد إلى الخوض في مسائل علم الكلام كلها حتى و لا بعضها الذي خصصنا، بالتدقيق في هذا الكتاب لاشتداد الحاجة إليه في هذا العصر...

لا ندعو الناس إلى أن يكونوا علماء علم الكلام، الملقبين بالمتكلمين، و إنما ندعوهم إلى الاعتراف بحاجة الإسلام إليهم ليعتمد الناس في عقائدهم إلى علومهم، إن لم يكن لأنفسهم علم تعتمد عقائدهم عليه، كيلا يبقى اعتقاد لأحد من غير سند علمي، و لو بالواسطة أي تقليداً لعلماء السند<281>.

فإن قال قائل: إن مراد الشاعر و المترجم الدكتورين الهنديين من التكلم ضد التوغل في علم الإلهيات ما يضاهي قول الأستاذ عبد القادر المغربي في كتابه (جمال الدين الأفغاني) مترجما عن رأيه في واجب المسلمين (ص 30): [القرآن وحده سبب الهداية، و العمدة في الدعاية، أما ما تراكم عليه و تجمع حوله من آراء الرجال، و استنباطهم، و نظرياتهم، فينبغي أن لا نعول عليها كوحي؛ و إنما نستأنس بها كرأي، و لا نحملها على أكفنا مع القرآن في الدعوة إليه، و إرشاد الأمم إلى تعاليمه لصعوبة ذلك، و تعسره، و إضاعة الوقت في عرضه؛ ألسنا مكلفين بالدعوة إلى الإسلام، و حمل الأمم على قبوله؟ و هل تمكن الدعوة من دون ترجمة تعاليم الإسلام إلى لغة الأقوام التي ندعوهم؟ هل في طاقة سكان البرازيل مثلا إذا أردنا دعوتهم إلى الإسلام أن يفهموا كنه الإسلام من ترجمة علماء الإسلام و آرائهم المتشبعة في تفسير القرآن و الحديث؟ ألق نظرك على فهرست أحد الكتب الدينية الكبرى، و تأمل فيها لترى ما الذي يمكن عرضه و الدعوة إليه من أحكامه و تعاليمه، و ما لا يمكن؛ تجد أن ما لا يمكن العمل به و لا الدعوة إليه، و لا تطبيق مفاصله أصبح عبئاً يجب الاستغناء عنه بما يمكن، و الممكن هو ما في القرآن وحده].

فجوابي عليه: أن كتابي هذا، و إن كان ينطوي على كثير من الانتقادات الموجهة نحو آراء الفلاسفة الغربيين، فليس المقصود الأول من الكتاب دعوة الأمم الغربية إلى الإسلام، و لا تعليم العامة من المسلمين دقائق علم أصول الدين، و إنما المقصود دعوة الخاصة المثقفة العصريين منا المولين وجوههم قبل الغرب ليأخذوا كل ثقافتهم منه، حتى الثقافة الدينية...

المقصود دعوتهم إلى حظيرة الإسلام، و تعلم ما لم يعلموا من دقائق علومه لتصح عقيدتهم، و تأمن شر ما يدهمها من الشكوك التي يوحيها إليهم شيطان العلم الحديث المادي، و يأمن دين العامة المسلمين و طلاب العلم من الجيل الآتي شر هؤلاء المثقفين<282>.

أما قول جمال الدين الأفغاني: [إن القرآن وحده سبب الهداية من غير ما تراكم عليه، و تجمع حوله من آراء الرجال...].

فنحن نرى آراء الرجال المجددين الذين التفوا حول مدرسة هذا الزعيم الأفغاني مثل الشيخ محمد عبده و تلامذته.. نرى آراءهم التي لا تتجمع حول القرآن، و لا تصلح أن تنضم إليه بل تناقض نصوصه مثل إنكار المعجزات، و الملائكة، و الشيطان، و عدم الاعتراف بصحة قصصه كما وردت...

أليست هي أكثر مخالفة لقضية المحافظة على وحدة القرآن مما تراكم عليه و تجمع حوله من آراء العلماء المتقدمين؟

عنيت في هذا الكتاب بالناحية الاعتقادية، و صرفت كل جهدي في تثبيتها، عسى أن يكون من قوة العقيدة ذخر لآخرتي، و ليس لي شيء يذكر من الأعمال إلا تعميم هذه القوة، لينتفع بها المسلمون، الذين هم صفر الأيدي من العمل مثلي...

أما المحتاجون إلى هذه التقوية لابتلائهم بضعف العقيدة، فانتفاعهم بهذا الكتاب، إن كان فيهم استعداد لقبول الحق، يكون عظيما إن شاء الله.

و توضيح هذا المقام يحتاج إلى إطناب في القول، يتضح به أهمية العقيدة، التي ترجع إلى العلم، و تقابل العمل...

كما يتضح به ما قلنا من أن العقائد لا تكلف أصحابها بعد أن استيقنتها أنفسهم صعوبة تدوم مع دوام العقيدة؛ كما كانت الحال في الأعمال الدائمة الصعوبة مدة دوام العمل.. لا تكلفهم صعوبة، و تقيهم شروراً خطرة عند انتشار الفساد في الأعمال.

مثلاً إن وباء السفور الذي أتى الشرق الإسلام من الغرب بواسطة سماسرة مثل قاسم أمين، و جعل نساء المسلمين كاسيات عاريات كالغربيات، لا شك في أنه حرام بنص الكتاب، و السنة، و إجماع الأمة[132]، و هذه الحرمة دامت إلى هذا العصر الذي<283> هو عصر فساد الأمة، المشار إليه بالحديث النبوي: «مَنْ تَمَسَّكَ بِسُنَّتِي عِنْدَ فَسَادِ أُمَّتِي، فَلَهُ أَجْرُ مِائَةِ شَهِيدٍ»؛ و في إعظام الأجر الموعود للتمسك إلى هذا الحد عند تطبيق الحديث إلى فتنة السفور، دلالة على شهدة صعوبة هذا التمسك، بحيث يعجز رؤساء الأسَر عن وقايتها شر هذه الفتنة، كما دت هذه الصعوبة على قلة المتمسكات بالحجاب في زماننا إلى حد الندرة، و لا شك في كون التمسك بالإحتجاب أصعب من خرط القتاد في عصر انتشار السفور، و انتشار الشكاية من الحجاب، على الرغم من عدم وقوع الشكاية منه طول عصور الإسلام، عصور كرامة أحكامه...

كما لا شك في كون هذا السفور المقلد للسفور الغربي فسقاً، و كون إباحته، و استحسانه كفراً، و الحث عليه أشد الكفر، و النجاة من خطر هذه الفتنة العظيم، الذي هو الكفر المؤدي إلى عذاب الأبد في نار جهنم إنما تتاح في عصر ابتلاء المسلمات بالسفور[133]، بفضل الالتجاء إلى الاحتفاظ بصحة العقيدة، رغم فساد العمل، الذي مهما عظم خطره فهو دون خطر الكفر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[النساء:48]، و قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ

[131] و قارئ كتابي هذا سيتبين خصوم العقل و المنطق بأسمائهم و نصوصهم في أمكنة مختلفة منه.

[132] و نحن إذا التزمنا الدفاع عن علم الكلام اهتماما بعقائد الإسلام و صيانتها من اعتداء المعتدين، لا نضيق علينا موضوع الدفاع بأن نقصره على المسائل التي اعتاد المؤلفون في علم الكلام أن يشتغلوا بتدقيقها.. بل نتوسع فندخل في ساحة الاهتمام الناحية الاعتقادية الموجودة في الأعمال الدينية، التي يفضل الدكتوران الهنديان الاهتمام و الاشتغال بها على الاهتمام بعلم الكلام، و يمكننا أن نعبر عن هذه الناحية الموجودة في العمل ناحيته العلمية، و نلحقها بمسائل علم الكلام الاعتقادية، ثم نعدها أحق بالاهتمام، و أقدم من ناحية العمل على خلاف عقلية الدكتورين.

[133] و إني أجد في كثرة السافرات من نساء هذا العصر و ما يتلوه من الأعصار، ما يكفي في ملء العدد اللازم، لتغليب النساء من أهل جهنم على الرجال، حتى على فرض أن لا يكون لهن ذنوب أخرى... تلك الغلبة التي ذكرها النبي ﷺ في حديث: «اطلعت على الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، و اطلعت على النار، فرأيت أكثر أهلها النساء»؛ و نساء المسلمين السافرات، المتممات للكثرة التي رآها رسول الله ﷺ في بنات جنسهن لما اطلع على النار، إن لم يكن يلازمهن أذى قلبي ناشئ من الاعتراف بإثم السفور، فخالدات في النار؛ و إن لازمهن الأذى، فماكثات بها إلى أن يغفر.

الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ[البينة:6]<284>، فإذا سفرت السافرات من نساء المسلمين العاجزات بمقتضى ضعفهن الغريزي عن مقاومة هذه الفتنة، التي عمت عدواها، و عز دواؤها، و كن مع ذلك لا يزلن معترفات بذنبهن، الذي يقترفنه، لاعنات للزمان الذي يضطرهن إلى اقترافه -و إن لم يكن هذا الاضطرار معدوداً من الضرورات الحقيقية، التي تبيح المحظورات-، وقين أنفسهن بفضل هذا الاعتراف المنبئ عن عدم سراية الفساد إلى عقيدتهن الإسلامية، القائلة بأن السفور من عمل الشيطان، و كان خيراً لهن في الدنيا و الآخرة أن لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، و الثانية...

وقين أنفسهن شر الوقوع في الكفر بفضل هذا الاعتراف الراسخ في نفوسهن، و إن كانت هذه الوقاية المبنية على ذلك الرسوخ أيضاً في غاية الندرة، المتناسبة مع ندرة بقاء العقيدة عند شيوع الفساد في العمل، سليمة عن الفساد.

و هؤلاء النوادر العاقلة، المحتفظة على الأقل بعقيدتهن الإسلامية ضد السفور كما يقين أنفسهن من أعظم أخطاره الأخروية، يقينها في الدنيا من الإفراط و الاستهتار في تقليد الكاسيات العاريات.

و هذه الطريقة التي عرضناها على المرأة العصرية المسلمة، و أوصينا بها إليها، طريقة الاهتمام، و الاحتفاظ بالعقيدة على خلاف التقصير في العمل على وفق الحكم الشرعي.. أنفع في حق الموصى إليها، و الموصِي جميعاً، و أقوم من البحث عن طريق إباحة السفور المحرَّم في طريقة العلماء الدائرين مع الزمان.

كان في العهد القديم عند المسلمين يُخاف على علماء الدين أن لا يتفق أعمالهم مع علومهم، و لا يخطر بالبال أن لا ينطقوا بالحق، أو يلتبس عليهم الحق و الباطل، لاسيما فيما كان معدودا من الضروريَّات الدينية التي لم تكن تلتبس على المسلمين، إن التبست على العلماء من طريق فرض المحال.

و الآن أصبح الإسلام في حاجة إلى العلماء الذين يقولون الحق مهما كان فيه مصادمة<285> لأهواء الزمان...؛ يقولون الحق، و يهتدون إلى معرفته بين دعاية المضلين، كما أصبح الإسلام في حاجة إلى المسلمين، الذين لا يلتبس عليهم العالم من الجاهل، و المحق من المبطل؛ و قد ورد في الحديث النبوي الشريف: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُنَافِقٌ عَلِيمُ اللِّسَانِ».

لا نتكلم في سفور النساء بمعنى الكشف عن وجوههن، بحجة أن المرأة هي الأخرى إنسان كالرجل، يضايقها ما يضايقه من الاحتجاب و الاستتار...؛ بل بمعنى كونهن كاسيات عارياتٌ، لا يُقنعهن ما يقنع الرجال من أعضائهن المكشوفة، فيزدن بكثير على مبلغهم فيها...، و إن شئت فقل في اختصار يتفق مع تعبير القرآن: سفورهن بمعنى إبداء زينتهن لغير الأقربين من الرجال المعدودين في آية الحجاب، التي ينكر أنصار السفور وجودها في كتاب الله... إبداء زينتهن مستهترات في إبدائها الممنوع عنه في تلك الآية، يتكون و يتفنن على حسب العادات المستحدثة في الغربيات غير المسلمات[134].

هذا السفور، و هذا الإبداء للزينة الذي جعل الأندية، و المحافل، و الشوارع معارض و أسواقاً للنساء، تنادي بتنازلهن عن منصة الاستغناء، و الاحتشام إلى ميادين الابتذال، لدلالتها على احتياجهن إلى هذا التصنع و التكلف، لاستجلاب أنظار الرجال، أو لتلافي<286> ما فيهن من نقصان الجمال و الكمال.. إن لم تكن هذه الدلالة و تلك المناداة بلسان المقال، فبلسان الحال الذي هو أنطق[135].

فهؤلاء المبديات الزينة من أجسامهن، كأنهن في سباق دائم، تكسب السابقة منهن، و تخسر المسبوقة، و تكون أولى الخاسرات أزواج الرجال الذين يصطادهم السابقات ليكنَّ خليلات لهم، أو أزواجاً ثانية؛ فيعود ضرر هذا السباق السافر إلى أخوات الكاسيات من بنات جنسهن، في حين أن السفور عند الغافلين و الغافلات يُعد من منافع المرأة... يعود ضرر هذا السفور و السباق في السفور إلى أخوات السابقات من بنات جنسهن ثم تنتقم من تلك السابقات سابقات أخرى في سباق آخر جديد.

فتنة السفور هذه أدت إلى ضلالات، و اعتمدت على سخافات لم يتعمق في مثلها من الضلالات و السخافات أنصار الضلالات و السخافات الأخرى... فنرى قاسم أمين ينكر وجود احتجاب المرأة في الإسلام بالمرة، فيدعي أنه دخيل طرأ على المسلمين من مخالطة بعض الأمم، فاستحسنوه، و أخذوا به، و بالغوا فيه، و ألبسوه لباس الدين، كسائر العادات الضارة التي تمكنت في الناس باسم الدين، و الدين براء منها...

و ناقض الرجل هذا الادعاء في دعواه الأخرى الضالة أيضا، فقال: [إن الاحتجاب أمرت به أزواج النبي ، خاصة، دون نساء المسلمين]؛ فكأن هذه العادة الضارة التي هي دخيلة في الإسلام، و لا مناسبة لها بالدين، منيت بها من غير مبرر أزواج النبي، اللات هن أقرب الناس إلى الدين، و خاصةُ الإسلام و نبيِّ الإسلام<287>.

أقول: و في سورة الأحزاب -التي فيها قول الله: يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء[الأحزاب:32]، الذي تمسك به قاسم في دعواه الباطلة الثانية، متغاضيا عما يحفه من القرائن المانعة عن دعوى الاختصاص، كما فصلناه في مكان آخر من هذا الكتاب- آية أخرى، تبطل هذه الدعوى بكل صراحة؛ و هي قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ[الأحزاب:59]، فكيف ينكر الرجل من غير مخافة، و لا استحياء من الله وجود الحجاب للنساء في الإسلام، إن كان يؤمن بأن القرآن كلام الله، أو كيف يدعي اختصاصه بأزواج النبي ؟

و مثله في نبذ الخوف و الحياء المحتفلون كل عام بذكراه في مصر من مدعي الإسلام والإيمان.

و لم يكف قاسماً أن يستخف بضلال السفور و بإثمه، فجاء ولده وادعى استحقاق أبيه لأجل من سن سنة حسنة، و جرى على رأي الولد البار أصحاب الذكرى المحتفلين بقاسم في كل سنة من وفاته، بالغة اليوم الذكرى الأربعين، و هذا اعتراف منهم لاسمه بالخلود في

---

[134] و إن شئت فزد عليه كون هذه المتزينة الكاسية العارية مستعدة لتلبية من يرغب في مخاصرتها من الرجال الأكفاء، و مراقصتها بين ظهراني الناس في المجامع و المحافل؛ هذا هو المعنى المقصود من السفور الحاضر، المختلف فيه بين أنصاره المجددين، و أعدائه المحافظين؛ و لا تسمع إلى أقوال بعض المنافقين، أو الغافلين إن السفور الحاضر الخليع ليس ما كان يريده قاسم أمين داعيته الأول؛ و لو كان الأمر كما يدعون من أن قاسماً أراد شيئاً و حصل غير ما أراده لكانت ذكرياته المتكررة المظفرة في سنيها الطويلة الحاضرة، التي

يزداد فيه السفور خلاعة و استهتاراً؛ مليئة لعناً و ثبورا لا كما نراها مليئة هتافا و شكوراً.

[135] و لا يمنع أن تكون الكثرة من غريرات الفتيات و النساء خاليات القلوب عن أغراض الفساد، بأن يمشين على التقليد المحض لأترابهن العصريات... لا يمنع هذا كون ألوان الزينة التي يبدينها مريبة بالشكل و المظهر، و فيه ما لا يستهان به من الفساد... على أن سلسلة التقليد الذي تتبعه هؤلاء الغريرات لا بد أن تنتهي من مقلدة بعد مقلدة إلى أصحاب الأغراض الفاسدة من الرجال و النساء، الذين اخترعوا تلك الألوان المغرية.

الألسنة رغم كون مسماه من المستحلين ما حرمه الله، و الحاكمين بغير ما أنزله.

ثم يعود قاسم المخلد في ألسنة المحتفلين بذكراه مدعياً كلون الاحتجاب أجنبيا عن الإسلام، فيصرح بأن السفور تمسك به الغرب، و هو قدوتنا اليوم، و نِعْمَ القدوة، فأي شيء يتمسك به الغربيون الذين هم أعقل منا، و لا يكون خيرا محضاً؟

فقد تبين من هذا أن السفور الحاضر يأتينا من الغرب، و قد كان الرجل يدعي أن الاحتجاب أجنبي عن الإسلام أخذه المسلمون من مخالطة الأمم؛ فهل السفور الذي نأخذه من الغرب -باعتراف قاسم أمين- لا يكون أجنبيا عنا، في حين أن الاحتجاب الذي لا يُعرف من أي قوم أخذناه، و إنما يُعرف على الأقل أن أزواج النبي ﷺ كن مأمورات به... كان أجنبيا عنا في زعمه<288>؟

ضلالات السفور، و سخافات الدفاع عنه لم تنحصر في قاسم أمين، بل أصبحت طريقاً معبدةً، يركض فيها من حدثته نفسه الأمارة بالحياة المختلطة من أزيرة النساء المتعلمين في مدرسة المغفلين، كما سماه الأستاذ توفيق الحكيم، و اتخذه عنواناً لإحدى مقالاته في (أخبار اليوم)، و لعل الوجه لهذه التسمية عن الحياة المختلطة، و ما يسمونها الحفلات الساهرة؛ أن تلك الحياة التي كثيراً ما يخالطها القمار أيضاً مقامرة بذاتها، من غير قمار، و رأس المال الموضوع على المائدة عقيلات القاصرين، أو قريباتهم الأخرى، التي يحضرن معهم محافل الاختلاط.

و قد رأيت في (مجلة الرسالة؛ عدد 773، 774) مقالتين بتوقيع الشيخ محمد رجب البيومي، و عنوان (المرأة في شعر الرصافي)، يحكم من قرأهما بأن دين محمد ﷺ يُكْفَر به في صحف مصر و العراق جهاراً، و يغدق على الكافرين المدح و الثناء.

أما المحافظون على إيمانهم بهذا الدين، و كتابه؛ فهم منهزمون، و مقهورون، لا يقام لوجودهم وزن، و لا يصغى إلى أقوالهم بأذن؛ فكأن البلاد و لا سيما العراق، أصبح فيها المنكر معروفاً، و المعروف منكراً بين عشية الحكم العثماني و ضُحى الخروج عليه من العرب الجدد، قبل الترك الجدد...

و لولا هذا التقدم المشئوم في البلاد الإسلامية المجاورة، لما فاز إعلان الجمهورة اللادينية في تركيا الجديدة.

يقول الشيخ رجب: [حيي الله الشعر العربي، فلقد آزر النهضة الشرقية أتم مؤازرة، فأيقظ عيوناً نائمةً، و أسمع آذاناً موصدةً، و طاح بجبابرة قساةٍ، وَأَدوا الكرامة الإنسانية، و أرهقوا العزة القومية..

و لقد كان الرصافي رحمه الله في طليعة هؤلاء العباقرة المجاهدين، فقد اتخذ من يراعه القوي صارماً بتاراً، تنقل به من معركة إلى معركةٍ، فهو في ميدان السياسة يشن الغارة على السرطان الاستعماري، و يقف في وجه الطاغوت التركي.. <289>!

و سأحاول اليوم أن أكشف عن أثر الرصافي في النهضة النسوية، كما أبين شعوره نحو المرأة كإنسان ناضج!..].

ثم قال الشيخ رجب: [لم تكن حال المرأة في العراق خيرا منها في مصر، بل كان الحجاب و الجهل من لوازمه الأكيدة في كلا القطرين، فارتفعت الدعوة بتحريرها[136] في ربوع النيل، و احتدم الجدال بين الأنصار و الخصوم، فكانت معركة طاحنة، تردد صداها في ربوع العراق، فنهض الرصافي، و الزهاوي، للمطالبة بحق الفتاة، و تصديا للهجوم العنيف، بما يملكان من بيان، فكانت المقالات الضافية و القصائد الرنانة، تعبر عن آرائهما الجديدة في جرأة و عنف، و أوصل الرصافي جهوده، فتألب عليه الجمهور، و تنبه الحاكم التركي في غدوه و رواحه، و هو لا يفتأ يناضل عن حق اعتقده، و يقوض أركان عقيدة يراها غير صالحة للبقاء<290>.

كان قاسم أمين في مصر صاحب الرأي الأول في حركته التحريرية، و كان الشعراء و المثقفون يسيرون وراءه في كثير من التحفظ و الاحتياط، أما في العراق فقد كان معروف و جميل يقومان بعبء قاسم في حماسة يصل بها إلى الثورة و الاندفاع، و من هنا كانت مكانتهما الاجتماعية في بغداد أقوى من مكانة شوقي و حافظ و مطران في مصر، و الفرق بين هذين و هؤلاء ما بين الخطيب و المصفقين مع التسامح اليسير].

أقول: منشأ هذا الفرق بين من ذكرهم من شعراء مصر، و بين معروف الرصافي، و جميل الزهاوي أن الولين لم يكونا في ضعف الدين بدرجة الرصافي و الزهاوي المشتهرين بالإلحاد؛ و من سوء حظ الشيخ رجب و القضية الممقوتة، التي التزم إثباتها في مقالته، و فضل مؤيديها العراقيين على المؤيدين المصريين، كون المفضلين من الملاحدة، و الشيخ لا يكتم في مقالته الثانية كون معروف الرصافي إباحيا متحللا يبحث عن شهوات الجسد من أي طريق، و إلحاد جميل معروف أكثر من معروف، فنعم الشهود إذن شهود قضية الشيخ!

و قد قال الرصافي في إحدى قصائده التي أوردها الشيخ معجبا بها:

لم أر بين الناس ذا	أحق بالرحمة من

---

[136] أنصار السفور الضالون يعدونه حرية المرأة، مع أن الأمر بالعكس، أعني إذا سفرت المرأة تأمت، و بذلك تتضاعف غفلة قاسم أمين، و جهالته في ادعاء أن احتجاب المرأة دخيل في الإسلام من مخالطة بعض الأمم؛ انظر ما ذكره صديقي الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب في (مجلة الفتح، الغراء، عدد 862): [في لسان العرب "مادة: حرر" عند تفسيره معنى الحرة، و أنها نقيض الأمة، و أن جمع الحرة حرائر، قال: و منه حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، قال للنساء اللاتي كن يخرجن إلى المسجد: لأردكن حرائر؛ أي لأزمكن البيوت، فلا تخرجن إلى المسجد؛ لأن الحجاب إنما ضرب على الحرائر دون الإماء؛ و تعرض الإماء للناس في الأسواق معدود في أخلاق و سنة الإسلام أموة، و امتهاناً، تترفع الحرائر عن مثلها].

أقول: و لقد ذهبت حشمة المرأة، و روعة جمالها بذهاب الحجاب، و قامت مقامه الأصباغ و المعاجين الملونة الساترة لما تحتها من الحقيقة، مع فرق ما في الحجاب من إثارة حسن الظن بتلك الحقيقة المجهولة، و ما في الأستار الجديدة من إثارة سوء الظن بها، و من حماقة النسوة المصريات مسابقة حسانهن بقباحهن في الأصطباغ.

مظلمة	مسلمة
منقوصة حتى بميراثها	محجوبة حتى من المكرمة

و البيت الثاني اعتراض على الله في تقسيم الميراث بين الذكور و الإناث؛ و في البيت الأول -الذي يرى الشاعر فيه- المرأة المسلمة ذات مظلمة، و ظالمها -الذي هو الله- لم يرحمها في تقسيم الميراث، و في غيره من الأحكام الشرعية، التي تفترق فيها المرأة عن الرجل في دين الإسلام[137]؛ يريد الشاعر أن يكون للمرأة المسلمة أرحم من الله، الذي يمتدح<291> في القرآن بأنه أرحم الراحمين.

و في كل هذا يكفر الرصافي و الشيخ صاحب المقالة، بل و صاحب (الرسالة) لنشر المقالة في مجلته من غير نكير؛ و إني أرى حماقة المعترضين على أحكام الإسلام الخاصة بالمرأة، في وقوفهم مع المسلمين في صف واحد، رغم خروجهم على حكم دينهم الظالم!!

<u>أما ما سبق من قول الشيخ صاحب المقالة: [لم تكن حال المرأة في العراق خيرا منها في مصر، بل كان الحجاب و الجهل من لوازمها الأكيدة في كلا القطرين].</u>

فالجواب: أن القرون الإسلامية قبل عصور السفور الأخير، لاسيما القرون الذهبية، مضت في الحجاب، و لم يمنع الحجاب وجود المتعلمات، و مشاهير الفضليات في تلك القرون، كما لم تسمع فيها أية شكاية عن حجاب المرأة، فهل أهل تلك القرون الطويلة كانوا في غفلة عميقة عن مظلمة الحجاب، و الميراث، ظالمين و مظلومات؛ حتى جاء قاسم أمين في مصر فتنبه للعلاقة بين الحجاب و الجهل؟

و لم يبال بالعلاقة بين السفور و الفسق، مع كون علاقة الفسق أبين من علاقات الحجاب بالجهل، فأثار ثورة السفور، و اقتفى شاعران ملحدان في العراق أثر قاسم، و تبعهم الفاسقون، و الغاوون، ففازت دعواهم في عصر الفسق و الفجور، و أصبحت حال المرأة في القطرين خيرا من ماضيها على زعم الشيخ صاحب المقالة في (الرسالة).

و أما قول الرصافي:

شرف المليحة أن تكون أديبة،	و حجابها في الناس أن تتهذبا
و الوجه إن كان الحياء نقابه،	أغنى فتاة الحي أن تتنقبا

فمن قبيل التضليل و التسويل، لأن الحياء في وجه الفتاة أول ما تدعوها إلى التنقيب و التمنع لا إلى السفور و الاستغناء عن النقاب، لأن المناسبة بين الحياء و التنقب أشد من المناسبة بين الحياء و السفور، و لذا يكنى عن قليل الحياء بخليع العذار.

و بمناسبة الكلام عن الحياء أنقل هنا <u>قول الشيخ عن الرصافي، في آخر مقالته الأولى: [ثم دلف إلى آراء المحافظين، فدحضها في هدوء و بساطة، و بين موقف الشريعة الإسلامية من المرأة، و كيف أخطأ الجامدون، فنسبوا إلى الدين ما ليس منه، و استدل بعائشة أم المؤمنين، و ما كانت عليه من فصاحة و فقه].</u>

ثم أتى الشيخ بأبيات من شعر ممدوحه، بل إمامه العراقي، و فيه قوله عن المحافظين:

و قالوا شرعة الإسلام تقضى	بتفضيل الذين على اللواتي
لقد كذبوا على الإسلام كذبا	تزول الشم عنه مزلزلات

أنقل هذا عن مقالة الشيخ، ثم أتعقب قائلا: لا يكون من حق الذين ينكرون وجود موقف خاص للمرأة في الشريعة الإسلامية موافق لآراء المسلمين، بأن تكون ممنوعة من إبداء زينتها للرجال غير المحارم، الذي هو سفورها الحاضر، و أقل من سفورها الحاضر، و أن تكون مرتبتها دون مرتبة الرجل في كثير من الأحكام الشرعية، كالميراث، و الشهادة، و ولاية الطلاق...

لا يكون من حق هؤلاء المنكرين وجود موقف خاص للمرأة، مع وجود قول الله تعالى في كتابه: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ..﴾[النور: 31] الخ؛ و قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[النساء:34]، و قوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[البقرة:228]، و قوله: ﴿وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء﴾[البقرة:282]، و قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾[النساء:11]<293>.

لا يكون بعد هذه الآيات من حق هؤلاء المنكرين وجودَ موقف خاص للمرأة في الشريعة الإسلامية، الذين خلقهم الله عاري الوجوه من حلية الحياء، أن يتكلموا في الموازنة بين حياء الفتاة المحتجبة، و الفتاة الكاسية العارية.

الحاصل: أن الخصومة في مظلمة المرأة المسلمة، إن كانت هناك مظلمة، فهي تتوجه إلى دين الإسلام، ثم إلى المحافظين؛ فعلى أنصار السفور الحاضر، و أنصار مساواة المرأة مع الرجل أن يحاربوا الإسلام قبل محاربة المحافظين على قانون الإسلام؛ إلا أن يلتزم التغاضي و التعامي على طول خط المحاربة، و المناقشة على نصوص الكتاب و السنة في المرأة، أو تُقابَل تلك النصوص بوجوه مغلفة بغلف غليظة من المكابرة في فهم معانيها، كأن أصحاب هذه الوجوه يمتثلون بأمر أسلافهم القائلين: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصلت:26].

و ما دامت تلك النصوص في القرآن، فضلا عن نصوص السنة في كتب الأحاديث، فلا خلاص لحملة الأقلام المتخذين من المؤمنات الغافلات أدوات اللهو، و الخلاعة، و المجون؛ و من محاسنهن نصبا و أهدافاً لخائنة العيون... لا خلاص لهم من الإلزام... فعليهم إن أرادوا الخلاص أن يخترعوا كتاباً للإسلام يختلف عما أنزل على محمد، كما اخترع القساوسة بعد المسيح، و كما قيل لنبينا من قبل: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾[يونس:15].

و استدلال أنصار المرأة الجديدة بسيدتنا عائشة، و فصاحتها، و فقهها من فقدان الحياء أيضا، كأنهم يستدلون بفقهها على سفورها، مع أن زعيم السفوريين قاسم أمين يقصر الحجاب في شريعة الإسلام على أزواج

[137] و هو يغفل، أو يتجاهل أن صاحبات الحظ المساوي في الميراث لحظوظ الرجال من نساء الغرب الآتي، سفرت المرأة في بلاد الإسلام تقليداً لهن، يحتجن إلى بذل المال في سبيل الحصول على الأزواج تلافيا للنقصان الطارئ عليهن من ابتذال السفور، في حين أن المرأة قيمة بذاتها في الإسلام غنية عن مصاريف الحصول على الزوج بما يسمونه الدوطة، بل الرجل مكلف بالإنفاق عليها عند عقد الزواج، و بعده، إلى ما شاء الله أن يعيشا عيشة الزوجين.

النبي ﷺ؛ فهل عائشة أم المؤمنين التي إن كان الإسلام حجاب، فهي مأمورة به حتى في اعتراف أول قائم بفتنة السفور... هل سيدتنا عائشة هذه كانت في ظن الرصافي، و الشيخ محمد رجب البيومي مثالا رائعا للمرأة الجديدة، الناهضة عارية الساقين، عارية العضدين، عارية السحر و النحر<294> إلى مفترق الثديين على أن تكون الغاية داخلة في المغيا؟

و لنا كلام آخر مع قاسم أمين في غير هذا المكان من الكتاب.

***** ***** ****

نعود إلى أساس الموضوع: و لدينا مثال آخر يسفر عن أهمية العقيدة، و هو معلوم أن المثقفين العصريين مغرمون بمحاربة الحكم الشرعي، القائل بجواز تعدد الزوجات.

و أخيرا قام أحد الباشوات الكبار بسعي لاستخراج تحريمه من آية التحليل نفسها، أعني قوله تعالى في أوائل سورة النساء: ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ﴾[النساء:3]، و هو ضلال جديد، بناه على غاية من الغرابة في تفسير تلك الآية، و كان أصحاب الضلال القديم يستخرجونه من قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[النساء:129]، في مكان آخر من سورة النساء أيضاً، جمعاً بينه و بين قوله عقب القول الأول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً﴾[النساء:3]، و لم يمنع الباشا من سعيه الغريب المكابر، و لا الضالين الأولين ما جرى طول تاريخ الإسلام من العمل بتعدد الزوجات.

و ادعى الأستاذ عبد المتعال الصعيدي من علماء الأزهر في (مجلة الرسالة) أن أولى الأمر يملكون تحريم التعدد، لا من الطريق الذي سلكه الباشا، من طريق المحافظة على العدالة، و رعاية المصلحة؛ و خالفهما -أي الباشا، و الأستاذ الدكتور زكي الدين بدوي- نافيا عن أي جهة أن تملك تحريم ما أحله الله.

و أنا أقول إن ما يذكرونه من المصلحة في تحريم تعدد الزوجات أن الزوجة الأولى يشق عليها أن تشاركها في زوجها امرأة واحدة، على أنها زوجة ثانية، أكثر من مشاركة ألف امرأة على أنهن خليلات، كما سمعت هذا القول فعلا من كاتب مصري معروف، سبق أن ناقشته في الجرائد، دفاعاً عن مبدأ التعدد الإسلامي، و كتبته في (قولي عن المرأة)، و المفهوم منه أن هذا المبدأ يشق على أعدائه من كتاب المسلمين العصريين<295> قبل الزوجات الأولى، و إن السبب الحقيقي لمعاداتهم عدم اتفاق هذا المبدأ مع عقليات الغربيين، التي يهتم بها كُتابنا منذ زمان أكثر من اهتمامهم بعقليات المسلمين.

أما ظلم الرجل على زوجته الأولى بعد تزوج الثانية، فلأولي الأمر أن يمنعوه بما يملكونه من الطرق الأخرى المشروعة، لا من طريق تحريم الحلال، الذي لا يملكونه، و يعدونه مصلحة يصادمون بها النصوص، فيصدمونها... مع أن تحريم التعدد يسوق الرجال الذين لا يكتفون بالزوجة الواحدة إلى اتخاذ خليلة له بدل الزوجة الثانية، بل خليلات؛ وتساعده إباحة السفور للنساء مع تحريم التعدد على الرجال.

و لا شك في انتشار الزنا في بلاد تسفر نساؤها، و يمنع رجالها من تعدد الزوجات، فيتضمن هذا المنع مفسدة أكبر من المصلحة التي يبنونه عليها، و هي انتشار الزنا في بلاد الإسلام.

فهل يملك أولو أمرها إباحة الزنا، كما يملكون تحريم تعدد الزوجات على رأي الأستاذ عبد المتعال الصعيدي؟

و هل يقول الأستاذ كما قال الكاتب الذي ناقشته من قبل: [إن المرأة يهون عليها أن تكون لزوجها ألف خليلة، و يشق عليها أن تكون له زوجة واحدة أخرى]؟

أو هل يصدق الأستاذ وجود كرامة في مثل هذه المرأة لا يكون من حق الزوج أن يدوسها كما يدعي أعداء مبدإ التعدد، بل يكون لأولي الأمر في سبيل المحافظة على هذه الكرامة المزعومة أن يحرم حلالاً، كمبدإ التعدد، و يحلل حراماً، كانتشار الزنا في البلاد، أو على الأقل، كالتغاضي عن انتشاره؟

و الشاهد المستفاد من هذا البحث لموضوعنا -و هي أهمية العقيدة بالنسبة إلى العمل- أن تحريم الحلال كفر، كتحليل الحرام، لأنهما معارضة لقانون الإسلام، و رفض لحكم الله، و التورط في الحرام فعلا معصية دون الكفر.

فإذا استهتر أولو الأمر، فأحلوا حراماً، و حرموا حلالاً تقليداً لسنن الغرب، و قام الناس بالعمل على مقتضى التيار الجارف، كان التحليل و التحريم اللذان هما حصة أولي الأمر من هذا التحول المعارض<296> لحكم الله، كفرا؛ و العمل بموجبهما من غير اعتراف بصحتهما، و كونهما حقاً، و صواباً، و إنما استصعاباً لمخالفة الجمهور، كما ذكرناه في فتنة السفور، أو اتباعاً لشهوات النفس معصية دون الكفر، لا ييأس مرتكبها من عفو الله و مغفرته.

فنحن المهتمين بصحة العقيدة، التي يمتاز بها الإسلام على اللادينية أولا، و الأديان الضالة ثانيا، كما عُنينا في هذا الكتاب بإزالة شكوك الملاحدة في وجود الله، و شكوك أشباههم المنكرين بنبوة الأنبياء، في إنكارهم المعجزات، فأسسنا عقيدة الألوهية، و النبوة على أساس علمي، يفوق علم الملاحدة الحديث، الذي يقعون به في تلك الشكوك.

فكذلك نستخرج من الأعمال التي تقابل العلم و العقيدة، ناحية اعتقادية، فنلفت إلى الاهتمام بالمحافظة على صحة هذه الناحية، عند صحة الناحية العملية و عند فسادها، أما عند صحة العمل، فلكون صحته مبنية، و متوقفة على صحة العقيدة؛ و أما عند فساد الناحية العملية، فلأن صحة الناحية الاعتقادية تلافي إلى حد لا يستهان به ما في العمل من الفساد...

فنحن باستجلاب الاهتمام إلى صحة العقيدة حتى في العمل، نخدم طلاب الحق و الصلاح من المسلمين المبتلين في الزمان الفاسد بفساد الأعمال، و نقيهم من الهلاك التام، و لا نخدمهم بالبحث عن طريق التجويز و التصحيح لأعمالهم الفاسدة.

ثم نقول لمفضلي المصلحة على النصوص عند تعارضهما، الواجدين في تفضيلهم هذا طريقاً إلى جعل الإسلام ديناً خالداً يأتلف بكل تجديد في كل عصر...

كسعادة عبد الرحمن عزام باشا، مؤلف (كتاب: رسالة سنة الله الخالدة)، و فضيلة مفتي حضرموت، كاتب المقالين في (مجلة الرسالة) -تأييداً لسعادته فيما دار بينه و بين الأستاذ بهجت الأثري-، ثم الأستاذ عبد المتعال الصعيدي، المعطي لأولي الأمر حق تحريم ما أحل الله في تعدد الزوجات، و قبلهم الأستاذ فريد وجدي بك صاحب (كتاب: الإسلام دين عام خالد)، و القائل: [لا يوجد تجديد إلا و يسعه صدر الإسلام الرحب]؛ حتى إنه هتف<297> حكومة أنقرة الكمالية عند إعلانها قبل ربع و قرن، جمهورية لا دينية، تلغي الخلافة الإسلامية و المحاكم الشرعية، و المدارس الدينية... و عندما عادت أخيرا تتظاهر ببعض آثار الرجوع إلى الدين، و إن كان لا يؤمن لجديتها إلا الغافلون، و الأستاذ يهتف بتلك الحكومة في حالتيها أي على خروجها من الدين جملة، ثم عودها إليه

بنسبة واحد في المائة، و بعد كليهما من الإسلام... و قد سمعت أن الأزهر الجديد الذي أسسه أستاذه الأكبر المراغي اتخذ مسألة التعارض بين النص و المصلحة مادة امتحانية لطلاب تخصص القضاء في آخر هذه السنة الدراسية (1948)...!

و نحن نقول لهؤلاء العلماء العصريين: أي مصلحة يراها أيُّ فريق من أولي الأمر، و تفضلونها أنتم على النصوص؟

فهذه تركيا الجديدة قد سن أولو أمرها قانوناً يبيح زواج غير المسلمين بالمسلمات، و لهم في ذلك طبعاً ما يسمونه المصلحة.. و في مصر و غيرها من البلاد الإسلامية من لا يزالون يعدون تركيا دولة إسلامية...

ثم إن الدول الإسلامية الحاضرة غير تركيا الجديدة تتتابعها ما نابت تركيا من داء التقليد للغرب حتى قضى علي دينها، و أول دليل على هذا أن تلك الدول لم تقم بواجب النصيحة نحو تركيا، قاطعة صلتها السياسية عنها عند إعلانها عن نفسها جمهورية لا دينية.

و الدليل الثاني: أن تلك الدول أيضا قد دخلت منذ زمان في طريق فصل الدين عن السياسة، و قطعت فيها مراحل....

فلنفرض أن واحدة من تلك الدول سن أولو أمرها –لا قدر الله- ما سنت تركيا في زواج المسلمين بالمسلمات، و هم لا يعدمون مصلحة في ذلك على زعمهم، كما لا تعدم تركيا الجديدة.

فماذا يكون قول مفضلي المصلحة على النص عند تعارضهما في هذه المسألة المفروضة؟

و ماذا يكون فيها قول الأستاذ الأزهري عبد المتعال الصعيدي، المخول لأولي الأمر قلب الحرام حلالاً، و الحلال حراماً لمصلحة يتصورونها في القلب؟

و المسألة<298> جامعة لشروط الأستاذ في التخويل و التفضيل: أولو الأمر و المصلحة!

بل ماذا يكون قولهم و قوله عند ما فرضنا أن أي دولة من تلك الدول أراد أولو أمرها حذف المادة من دستورها القائلة بأن دين الدولة الإسلام، و إضافة مادة إلى قانونها المدني -بدلا من المادة المحذوفة عن الدستور- تجعل كل من بلغ سن الرشد من أفراد الأمة، حرا في اختيار أي دين شاء -كما فعلته تركيا الجديدة أيضا-؟

و لا تسل عن المصلحة في هذا الحذف و الإضافة، فكل تجديد في عصرنا يتضمن مصلحة يرغب فيها العصريون، و لو كانوا من علماء الدين، لا سيما التجديد الذي يهدف إلى تقليد القوى من الشرق الضعيف، كما سبق في مسألتي السفور و تعدد الزوجات.

فهذا ما يؤدي إليه ترجيح المصلحة على النص، فيجعل الإسلام لا مبادئ له ثابتة، بل تابعة لتصرفات الحاكمين في كل عصر... يستخدمه من شاء إلغاء أي حكم من الأحكام التي شرعها الله في الإسلام إلى أن يلغى الإسلام نفسه...

و هذه سبيلي في الفصل بين المسلمين المحافظين و المجددين الذين يرمونهم بالجمود، أناضل الرامين بطريقة عقلية تكشف عما يستره مشروعهم من مفسدة أعظم مما يظهرونه من المصلحة.

يقول الأستاذ عبد المتعال ما معناه: [قد فسد الزمان، و فسدت أخلاق الرجال، فاتخذوا ما حل لهم من الجمع بين عدة زوجات أداة لظلم الزوجات الأولى... ففي مثل هذا الزمان يكون من حق أولي الأمر أن يحرموا عليهم ذلك الحلال القديم... كما كان من حقهم في عصرنا هذا قبل سنوات، إلغاء الطلقات الثلاث بلفظ واحد و اعتبارها واحدة، بعد أن جرت الأحكام على وقوعها مجموعة منذ سيدنا عمر ، الذي كان هو الآخر قد غير الحكم الجاري في عهد النبي ، و خلافة أبي بكر ، و صدر خلافة عمر نفسه، على وقوعها واحدة... و لكن الناس خالفوا ذلك، فأوقعوها ثلاثاً، فأمضاها عمر عليهم<299> عقوبة لهم، و أخذ الأئمة الأربعة يحكم عمر ..؛ ثم أصبح حكم أولي الأمر في زماننا باعتبار الثلاث واحدة، رجوعا إلى ما كان في عهد النبي و أبي بكر ، و موافقاً لمصلحة منع الناس عن الإسراف في الطلاق...]، هكذا قال الأستاذ عبد المتعال.

و أنا أقول: يحاسب الأستاذ فساد أخلاق الرجال، بفساد الزمان، فيعتبر حكم أولي الأمر بتحريم ما كان حلا لهم من تعدد الزوجات –إذا حكموا- حقا موافقا للمصلحة، و لا يحاسب الفساد في أولي أمر الزمان الفاسد، و لا ما أصبح فيه كثير من المفاسد مصلحة...! و قد أوردنا نماذج منها.

و لا نقبل عنه ما عُزي إلى سيدنا عمر من تحريم ما حلّ، أو تحليل ما حرم في عهد النبي ، و أبي بكر ، لأن الشارع في الإسلام واحد، و هو الله، الذي لا يتصور له الخطأ فيما بلّغه بواسطة نبيه، و قد يخطئ النبي في اجتهاده، ثم لا يلبث أن يصحح خطأه من عند الله في عهده، بله أن يلبث التصحيح إلى عهد عمر ، أو يكون من عند عمر ...!

و لا نقبل ماعزي إلى عمر من إمضاء الطلقات الثلاث ثلاثاً، مخالفاً لاعتبارها في عهد النبي ، و أبي بكر واحدة؛ و نبني عدم قبولنا على أساس عقليتنا الدينية غير القابلة لكون عمر ينقض ما بناه النبي ...، لا على ترجيح ما رواه المحافظون من أن الطلقات الثلاث الواردة بلفظ واحد كانت تعتبر في عهد النبي ، و خليفته الأول أيضا ثلاثاً، كما أمضاها عمر ، و لو بنيناه على ترجيح هذه الرواية كان حقا، و لكنه لا يكفي في إسكات غير المنصفين من أنصار المصلحة إذا أصروا على ترجيح الرواية المرجوحة، و كان ما فعلتُه عبارة عن مقابلة رواية برواية أخرى، مهما كان إحدى الروايتين أقوى، و لم تكن مقابلة حاسمة.

و قد رأينا الأستاذ عبد المتعال يذكر مثالاً، و يستشهد به على ما ادعاه في قوله: [نعم، نملك تحريم تعدد الزوجات]؛ ردا على الدكتور زكي الدين المستنكر لهذه المالكية<300>، و هو أن الطلقات الثلاث بلفظ واحد قد ألغيت قبل سنين بقرار من أولي الأمر، و اعتبرت تطليقة واحدة، بعد أن اتفقت مذاهب الأئمة الأربعة في وقوعها مجموعة، و جرى العمل عليه في البلاد الإسلامية التابعة لتلك الأئمة الأربعة على طول التاريخ إلى أن جاء هذا العصر فرأى أولو الأمر إلغاء الثلاث.

فكأن الأستاذ يقول: و هكذا يفعل أولو الأمر فتلغي إباحة تعدد الزوجات كما ألغيت الطلقات الثلاث بلفظ واحد، و ينتهي الكلام في المسألتين كما سكت الدكتور زكي الدين في الشوط الأخير من النقاش.

و أنا أقول: فإن كان المحافظون لم يعترفوا بمصلحة الإلغاء في الطلقات الثلاث، كما انتقده فضيلة صديقنا الشيخ زاهد الكوثري، و قضى عليه علميا بتأليف مستقل سماه (الإشفاق على أحكام الطلاق)؛ فالأستاذ عبد المتعال يرى جانب أولي الأمر أقوى، و يعتبر كتاب فضيلة الصديق صرخة في واد، فيتجاهل عنه بالمرة؛ أما الحق فهو عند الأستاذ يدور مع المصلحة، و المصلحة في أيدي أولي الأمر يقلبونها كما يشاءون، و قد سبق منا أمثلة من تقلباتها يعتبر فيها المعتبرون.

10- [مدرس بجامعة فاروق ينتقد علماء المنطق الإسلامي]:

و لا يسعنا أن نختم الكلام في الدفاع عن العقل و علماء علم الكلام، قبل أن نضيف إليه كلمة دعتنا إليها مقالتان نشرتهما (مجلة الأزهر)، في (الجزء التاسع و العاشر من المجلد الرابع عشر)، بعنوان (نقد متعلمي الإسلام لقانون الفكر الأرسطاليين) لأحد المدرسين بجامعة فاروق ادعى كاتبهما دعوى غريبة، قائلة بأن متكلمي الإسلام انتقدوا منطق أرسطو في أعظم مبدأين من مبادئه، و هما: استحالة اجتماع النقيضين، و استحالة ارتفاعهما.

و لا أدري بالضبط أن مراد الأستاذ كاتب المقالتين الطعن على منطق أرسطو، مع الطاعنين المتكلمين في زعمه بإثبات إمكان ما ظنه أرسطو مستحيلا، أم الطعن على <301> المتكلمين في إنكارهم استحالة ما لا شك في استحالته؟

و على كلا التقديرين أراد الأستاذ ابتكار الكشف عن الخلاف بين منطق أرسطو و متكلمي الإسلام في أعظم أساسين من أسس ذلك المنطق، بل عن الخلاف بين العقل و المنطق، و على الأقل بينه و بين عقل المتكلمين.

و قد ذكر أمثلة من أقوال المتكلمين، و مذاهبهم في سعة قدرة الله، و موقف صفاته من ذاته، و اختلافهم في إثبات الحال المتوسط بين الموجود و المعدوم، و نفيه.

و أنا أقول: استخراج الطعن و الاعتراض من أقوال متكلمي الإسلام على منطق أرسطو في مبدإ استحالة التناقض جمعاً، أو رفعاً، وهمٌ لا يعادله وهمٌ واهم في الدنيا، كما أن قول كاتب المقالتين عن مذهب المتكلمين الأشاعرة: [إن سلطان قدرة الله يجمع بين الاثنين معاً الممكن و المستحيل، فللقدرة الإلهية أن تجمع بين الوجود و العدم، و تجمع بين القدرة و العجز، و تجمع بين العلم و الجهل... و بهذا ناقضت الأشاعرة على مبدإ عدم الجمع بين النقيضين قضاءً تاماً]؛ فريةٌ ما فيها مرية.

ناهيك قول المؤلفين على مذهب الأشاعرة من أصحاب المتون في بيان قدرة الله: [قادر على جميع الممكنات]، و قول الشراح: [إن الممكنات احتراز عن المستحيلات]؛ و من المسائل فيما بين علماء الكلام: "أن المستحيل لا يكون متعلقاً لقدرة الله".

إن كان الأستاذ كاتب المقالتين يرى في أي مذهب من مذاهب المتكلمين أنه يتضمن التناقض جمعاً أو رفعاً، كان واجبه إبطال ذلك المذهب، و رده على أصحابه، بدلا من تفسيره بأنه نقد منطق أرسطو، و نقضه في مبدإ التناقض، لأن هذا المبدأ أقوى و أرفع من أن يدركه النقد و النقض، كما أن متكلمي الإسلام أعقل من أن يعترضوا على منطق أرسطو، و يخالفوه في مبدإ التناقض؛ لأنه أعرف، و أشهر المبادئ الأولى، التي أجمع علماء الغرب مع علماء الشرق على كون المناقشة ضدها تعد غرابة و هذياناً.

و ليس مبدأ<302> التناقض بمبدإ أرسطو فقط، بل من مبادئ العقل البشري التي فطر الله الإنسان عليها، فمن حاول نقده فقد رجع النقد على نفسه.

و لايرد علي أن وجود الريبيين في فلسفة اليونان، و في فلسفة الغرب مع "هيوم"، و "هيجل" يجعل استحالة التناقض أمراً مختلفاً فيه متردداً بين مذهبي النفي و الإثبات، لا مذهباً عاماً بشرياً... إذ لا مذهب للشاك يثبت عليه و يقطع به.

و القطع في مذهب الشك ليس بمذهب، بل قطع بنفي المذهب؛ و لذا قال "اسبينوزا": [إن واجب الحسباني أي الريبي السكوت]، و قال "أرسطو": [إن الحسباني الذي لا يقرر على شيء، و يؤمن بما قاله، و لا يؤمن به معاً.. لا يمتاز على النبات].

و الحق إنه لا يوجد عاقل ينكر استحالة التناقض، فإن أمكن اعتراء الشبهة على هذه الاستحالة انهار علم البشر من طريق البرهنة على ثبوت أي مسألة يقينية، لأن اليقينيات الضرورية في مسائل العلوم تستند إلى كون خلافها مستلزما للتناقض... حتى إن مسألة إثبات وجود الله مبنية على أساسين: لزوم الرجحان من غير مرح في وجود العالم، ثم لزوم التسلسل على تقدير عدم وجود الله، و هما مستحيلان لانطوائهما على التناقض المستحيل، كما نبينه في محله من هذا الكتاب، فلو أمكن عدم استحالة التناقض، لما أمكن إثبات وجود الله.

و لهذا فإن توهم الأستاذ من بعض مذاهب المتكلمين أن أصحاب تلك المذاهب انتقدوا منطق أرسطو، و نقضوه في مبدإ التناقض، يكون اعتداء عليهم و على مذهبهم في صورة الاعتراض على منطق أرسطو، و هم لا يقبلون، و لا يرضون أي توجيه لمذهبهم يتضمن مثل هذا الاعتراض، و الاعتراض على المنطق إنما هو شأن أساتذة مصر العصريين، لا علماء الإسلام المتكلمين.

نعم، ربما يكون من أصحاب المذهب في العلوم أنهم عند النقاش فيما بينهم ينسبون<303> المختلفين عنهم في المذهب إلى التناقض، اتهاماً لمذهبهم بمخالفة مبدإ التناقض لا اتهاماً لمبدإ التناقض بمخالفة مذهبهم... ربما يكون ذلك، ثم يتعقبه جواب المتهم، ساعياً لتبرئة مذهبه عن مخالفة مبدإ التناقض المسلم به عند جميع العقلاء؛ و لا يخطر ببال أحد من أصحاب المذاهب المختلفة أن يشذ في مذهبه، فيخترق به مبدأ التناقض.

انظر ما قاله الفاضل الكلنبوي في تعليقاته على قول المحقق الجلال الدواني في شرح العقائد العضدية، عند قول القاضي عضد: ["متصف بجميع الصفات الكمالية": ...و لكنهم تخالفوا في كون الصفات عين ذاته، أو غير ذاته، أو لا هو، و لا غيره، فذهب المعتزلة و الفلاسفة إلى الأول، و جمهور المتكلمين إلى الثاني، و الأشعري إلى الثالث].

فقال الكلنبوي تعليقا على قول الشارح: ["أو غير ذاته": أي ما يطلق عليه في الشرع، و العرف، و اللغة أنها غير ذاته إطلاقاً حقيقياً، كما يدل عليه سياق كلامه من أن الغير لا يطلق في الشرع و العرف، و اللغة إلا على الموجود الذي من شأنه الانفكاك عند الأشعري، و على ما ليس بعين عند غيره، فلا يرد عليه أن يقال: إن أريد بالغير المعنى المصطلح، أعني جائز الانفكاك؛ فقوله: "و جمهور المتكلمين إلى الثاني" محل نظر، إذ لم يذهب أحد من المتكلمين إلى جواز انفكاك الصفات عنه تعالى، و إن أريد المعنى اللغوي أعني نقيض هو هو، فقوله: "و الأشعري إلى الثالث" محل تأمل، لا لما قيل: "فإنه ليس بمختص بمذهب الأشعري، بل مذهب جميع الأشاعرة و الماتريدية كذلك"، بل لأن مذهب الأشعري على هذا المعنى يستلزم التناقض، فكيف يكون مذهباً له و لغيره].

فإذن لا وجه يُعقل لفهم كاتب المقالتين موقف متكلمي الإسلام من منطق أرسطو على أنه موقف النقد و الاعتراض، و لا لانتشار المقالتين في (مجلة الأزهر) من غير أي تعليق عليهما من المشرفين على المجلة... لا وجه يعقل إلا أن كلهم لا يعرفون مذاهب المتكلمين المذكورة على وجه الصحة، و لا منطق أرسطو، و لا حقيقة مبدإ التناقض المستجمع<304> لشروط استحالته،

و لا درجة قيمته في العلـــــوم، و لا مركــــزه في العقل البشري غير القابل للنقد و الاعتراض، و قد هان على كل من الكـاتب و أصـحاب المجلة تصـور الخلاف بين متكلمي الإســـلام و منطق أرســـطو، بعد أن راجت الاســـتهانة بالمنطق في أوساط مصر العلمية الحديثة.

و لعل الحقيقة أن السـائد في جو هـذه البلـدة المنكـودة الحظ منذ عهد الشـيخ محمد عبـده الـذي دالت إليه دولة الزعامة العلمية بها على الـــــرغم من كونها عريقة في العلوم الإسلامية، منقولاتها، و معقولاتها، و كـون الشـيخ ريبيـاً كما ذكـره فضـيلة الشـيخ زاهد في إحـدى مقالاته المنشورة في (مجلة الإسلام) نقلا عن اللورد كرومر.

و يؤيده ما ذكرنا في هذا الكتاب من أنه كان ينكر استحالة التسلسل في شـكله المجمع على اسـتحالته، لأن إنكــار اسـتحالة التسلسل معنـاه إنكـار اسـتحالة التنـاقض، بنـاء على أن التسلسل ينطوي على التناقض...

إن السـائد في جو مصر منذ ذلك العهد عـدم الاسـتيقان بأي شيء، و الشك في كل شيء؛ ناهيك بشك محمد عبده في بطلان التسلسـل، و ناهيك بشك مـدرس في الجامعة في استحالة التنـاقض، و ناهيك في شـكه فيها بتفسـيره لمذاهب المتكلمين بنقد منطق أرسطو في مبدإ التناقض، و ناهيك دليلاً على كـــون الفســـاد مســـتولياً على الجو انتشار مقالتيه في (مجلة الأزهر).

و لا يظن كـــون الشـــيخ محمد عبـــده ريبيـــاً، و لا إنكـــاره استحالة التسلسل ابتكـارا من عنـده، فلعله رأى أن أكـبر فلاسفة الغربيين في أقرب العصور السـالفة، و أعـني به "كـــانت" ينكر اســـتحالة التسلســـل، فأنكرها[138]، و رأى الحسـبانية الـتي ظهـرت<305> في فلسـفة اليونـان، ثم قضوا عليها، ثم ظهـرت، ثم قضـوا عليهـا، ثم انتقلت إلى فلسفة الغرب، و بقيت إلى أن قضى عليها "ديكارت"، ثم ظهرت على يد "دافيد هيوم"، و لم يدخل هـذا الوبـاء في فلسفة الحسبانية...

رأى الشيخ محمد عبده هذه الحسبانية في فلسفة الغـرب ارتدت عند "كانت" الذي تولى معالجتها، ثوبا جديداً[139]، ثم ازدهرت تحت هذا الشكل في فلسفة "هيجل"، و هو الذي نفى اليقين في كل شيء حتى في اسـتحالة التنـاقض، و في كون اثـنين في اثـنين يسـاوي أربعـة، و صـدق أحـدث آراء العلم الحـديث هـذه الفلسـفة، كما يـأتي ذكـره في الكتاب، نقلاً عن (قصة الفلسفة الحديثة)، فصـارت نتيجة هذه العقليات الفلسفية في الغـرب، أن جعلت إمـامَ مصر الحديثة ريبياً.

و لا يجوز أن تعتـبر هـذه الحالة في فلسـفة الغـرب الـتي أوقعت رجلا من علمـاء المسـلمين في هـوة الحسـبانية معذرة للأستاذ كاتب المقـالتين مخففة لخطـإه الفـاحش، لأن خطـــأه الـــذي لا يغتفر هو في تـــوهم كـــون الخلاف الحـادث أخـيراً بين فلسـفة الغـرب و بين منطق أرسـطو المسـفر عن إفلاس الفلسـفة في الغـرب، قد حـدث مثله في فلسفة متكلمي الإسلام!

فلا يعنينا كـــون الفلســـفة تجننت في الغـــرب، فـــأنكرت اليقين و الضـرورة المطلقة في الـدنيا، و اكتفت بـالظن الغالب، و الاحتمال الـراجح في جميع معلومـات الإنسـان، حـتى أصـبح وجـود الله عند المؤمـنين به احتمـالاً راجحـاً بالنسبة إلى عدم وجـوده غـير بـالغ مبلغ اليقين القطعي، الذي يستحيل خلافه، لعـدم وجـود المحـال، و عـدم وجـود اليقين الضـروري المسـتند إلى مجانبة المحـال، و أصـبح لذلك كون اثنين في اثنين يسـاوي الأربعـة، أو كـون الكل أعظم من الجزء، غير مقطوع فيهما بالقطعية الضـرورية المستحيلة الخلاف...

لا يعنينا<306> كثيرا اعتناق مصر لهذا الجنون، تحت زعامة الشـــيخ محمد عبـــده، و إنما يعنينا كل العناية أن لا يتصل شيء من ذلك بفلسفة الإسلام، فلسفة علم الكلام.

أما كون الأمثلة التي ذكرها صاحب المقالتين من مـذاهب المتكلمين على أنها مخالِفة لمبدإ استحالة التناقض، غـيرَ مخالفة له مخالفة مقصـودة، فـإني في غـنىً عن إطالة الكلام في إثباته و إيضـــاحه مع كــــون الكتب الكلامية المعتـــبرة متولية لهـــذا الإثبـــات و الإيضـــاح عند تمحيص المذاهب في أمكنتها الخاصة من تلك الكتب.

و لا يعنيني في كلمتي هذه التي لفتُّ بها النظر إلى خطإ كاتب المقالتين و غفلة أصحاب مجلة الأزهر، كـون هـؤلاء المتكلمين أخطأوا أو أصـابوا، و حسـبي في إثبـات وقـوع الكـــاتب نفسه في أعظم خطإ من الشـــذوذ الفكـــري، و وقوع المشرفين على المجلة في غفلة عظيمة.

حسبي في كل ذلك أن تكون المقالتان قد سيقتا بنصـهما و عنوانهما كتفســــــير مـــــذهب المتكلمين في الأمثلة المذكورة بإحـداث مخالَفة منهم لمنطق أرسـطو، و نقـده في أعظم مبادئـه، في حين أن هـذه المخالفة لا يرضـاها أصحاب تلك المذاهب قطعاً، و في حين أن هذه المخالفة، و ذاك النقد لا يتصور صدورهما من عاقل.

---

[138] مع أن "كـــانت" لا ينكر اســـتحالة التنـــاقض، و إنما غفل عن كـــون التسلسل الذي أنكر استحالته يتضمن التناقض، و يلزم أن يكـون الشـيخ محمد عبده كذلك.

[139] يتضح ذلك في أواخر الفصل الـذي عقـدناه للنظر في الحسـبانية بين فصول الباب الأول.

11- [مقالة حول مطران إنجليزي ينكر المعجزات]:

و من راجع (العـدد 155) من (أخبـار اليـوم) رأى صـفحةً تعــرض عواصف حــول الكتب المقدســة، تحت عنـــوان: (مطـران إنجلـيزي ينكر المعجـزات)، و تعـرض طالبـاً، أو معيـداً بجامعة فــؤاد مســمى خلف الله يقــدم إلى كلية الآداب رسـالة عن الفن القصصي في القــرآن للحصـول على دكتــوراه، فيتهمه النــاس بــالكفر و الإلحــاد، و هو يلتجئ إلى الكاتب القصصي توفيق الحكيم.

و خلاصة الصــفحة أن قصة موسى في ســورة الكهف لم تعتمد على أصل من واقع الحيــاة بل ابتُــدعت على غــير أســـاس من التــاريخ، و أن ما تمسك به البـــاحثون<307> المستشــرقون ليس ســببه جهل محمد بالتــاريخ، بل قد يكون من عمل الفنان الذي لا يعنيه الواقعُ التاريخي، و لا الحـــرص على الصـــدق العقلي، و إنما ينتج عمله و يـــبرز صـــورته بما ملك من الموهبة الفنية[140]، و القــــدرة على الابتكار، و الاختراع، و التغيير، و التبديل!!!

ثم قال الكاتب: [و قد طالبه البعض بحـرق الرسـالة، على مـرأى و مشـهد من أسـاتذة و طلبة كلية الآداب، و طـالب آخـرون بفصل الأسـتاذ خلف الله.. و قد طلبت (جريـدة الإخوان المسلمين) باتخاذ إجراءات حاسـمة، و قـالت: إذا ثبت أن ما نقل عن رســالة الفن القصصي في القــرآن الكـــــريم قد ورد فيها كما نقــــل، فلا يكفي أن يحرقها مؤلفها بيديــه، أو بيــدي غــيره على مــرأى و مشــهد من الأســــــاتذة و الطلاب، بل لا بد أولا أن يعلن رجوعه إلى الإسلام، و يجدد عقد نكاحه على زوجته إن كان متزوجاً، و أن يقوم بكل ما يقوم به من ارتكب جريمة الردة عن دين الإسلام].

ثم ذكر الكـاتب ردا على هـذه الطلبـات بما يـدل على أن العـادة في مصر رجـوع المتهمين في أمثـال هـذه الحادثة عن مطالباتهم، بدلا من رجوع أصحاب الجريمة، فقال: [و ليست هـذه الحركة هي الأولى من نوعها في مصـر، فقد سـبق أن ألف الأسـتاذ علي عبد الــرزاق وزير الأوقــال الحالي كتاباً عن الإسلام، و أصـول الحكم، فقـامت قيامة الأزهر، و احتجت هيئة كبار العلمـاء و فصـلته، و اسـتقال الوزراء الأحرار الدستوريون من وزارة زير باشا، احتجاجـاً على الفصل، و أقيل وزير العـدل عن منصـبه، و كـان عبد العزيز فهمي باشا، بهذا السبب.

و حـدث مـرة أخـرى أن ألف الـدكتور طه حسـين بك كتابا عن الشعر الجاهلي<308>، شك فيه في بعض المعتقدات، فقامت قيامة البرلمان، و أراد مجلس النــواب إخراجه من منصبه، فهدد عدلي باشا رئيس مجلس الوزراء بالاستقالة حماية للبحث العلمي].

و من عجــائب المصـــادفات في هــذه الآونة الأخـــيرة أن مطرانــاً إنجليزيا قــام -قبل كــاتب الصــفحة في (أخبــار اليوم)، كأنه يؤيد المرتد المصري صاحب الرسالة المقدمة إلى كلية الآداب- يعد قصة قيــام موسى بعد قتلــه، قصة وهمية، و ينفي أن السيدة كانت عذراء.

كما أنه قــال: [إن أبحاثه أظهــرت أن كل المعجــزات هي إشـاعات عامية سـخيفة، و أن الفن القصصي يلعب دورا هاماً في صياغتها].

و قالت الصحف: عن قول كبـير الأسـاقفة ضد المطـران: هـــذا لا يصح أن يكـــون ردا على أبحاثه في كتابـــه، كما أشارت تلك الصـحف إلى أن مـؤتمر الكنيسة الـذي اجتمع عـام 1922، و اسـتمر 14 عامـا، قـرر عـدم الأخذ بحرفية الإنجيل.

أقـــول: و لم يختلف صـــوت الأزهر في حق الرســـالة المقدمة إلى كلية الآداب على ما نقله كاتب الصـفحة في أخبـار اليــوم عن فضـيلة الشـيخ شـلتوت -و المفــتي الســابق-، عن قــرار مــؤتمر الكنيســة، على عـــدم الأخذ بحرفية الإنجيل...

كما أن المطران الإنجليزي -القائل بكون: "كل المعجـزات إشـــاعات عامية ســخيفة"-، قد ســبقه فئة من كتـــاب المسلمين، و علماء الدين، الذين أنكروا المعجزات.

و زاد صوت الأزهـر، فوعد لصـاحب الرسـالة المقدمة إلى كلية الآداب، و القائلة بـأن القـرآن لا يهمه في قصصه أن تعتمد على أصل واقع من الحيـاة، و على أسـاس معـترف به من التاريخ، بعد أن كانت مبتدعة على صيغها الفنيـة، و ابتكاراتها الخيالية، طبق ما هو مهمة الرواة الفنــيين.....؛ زاد فوعد له أجرا واحداً إن أخطأ و أجرين إن أصاب، شأن المجتهدين في الإسلام.

و هـذه الفتـوى الأزهريـةُ يُتعـزى بها في أخبـار اليـوم[141]، على الـرغم<309> من أن الأسـتاذ الشـائب، أسـتاذ الآداب في الجامعة، و جماعة الإخوان المسلمين حكمـوا بارتـداد صـاحب الرسـالة عن دين الإسـلام، كما أن قـول الأسـتاذ أحمد أمين بــك، الــذي تــولى فحص الرسـالة مع الأسـتاذ الشائب، لا يقل في التشديد عليها عن قول زميله.

ثم التجأ صـاحب الرسـالة، إلى الكـاتب القصصي الأسـتاذ توفيق الحكيم، كآخر مرجع لرفع قضيته، و أكبر مفت في البلاد المصرية غـير مفتيها الأكـبر من اختصاصه النقض و الإبرام في المسائل المعضلة الدينية، فقال هذا الأستاذ -بعد أن عد اختلاف الطرفين في تفنيد صاحب الرســالة، و تاييـده، تحـررا لرجـال الأزهـر، و رجعية و تـأخرا لرجـال الجامعــة، و رأى الأمر يـدعو إلى العجب، لاسـيما بعد ضم حادثة المطران الإنجليزي المنكر لمعجـزات المسـيح عليه الســلام إلى حادثة الرســالة المقدمة إلى كلية الآداب، و رأي جامعة مصر فيهــا، لحد أنه لا يدهشه أن يســمع غــداً بقيــام أســاتذة جامعة لنــدن يفتــون بــأن ذلك المطــران يستحق أن يحرق حيا....!-.

قال: [ما الذي حدث الآن بالضبط في عقول الناس؟

رجال التعليم الـروحي -كـالمطران الإنجلـيزي، و عـالمين من كبار علماء الأزهر، يريـدون الخـروج إلى نـور المنطق العقلي، و رجـــال العلم العقلي-، كرجـــال جامعة مصر الحاضرين، القائمين ضد صاحب الرسالة؛ يريدون الـدخول إلى معبد النور الإلهي.... إنه و لا شك عصر الجشع... كل طائفة لا تقنع بما في يـــــــدها، و تنظر إلى ما في يد الآخرين؛ حتى في المسائل العقلية و الدينية].

ثم قال: [إني أفهم موقف علمـاء الإسلام] يعـني، الـذين انحـازوا إلى صـاحب الرسـالة، و لم يقولـوا ضـده؛ [فهم يفتون طبقاً لقواعد مقررة في هذه الرسالة الجامعيــة، و شاء لهم اتساع الأفق أن يضيئوا النصوص القديمة بأضواء جديـــدة... دون أن يحيــدوا عن روح الـــدين، و جـــوهر العقيدة...

و لكن الــذي لست أفهمــه، هو موقف أسـاتذة الجامعــة، الــذين<310> يحكمــون بــالكفر على طــالب جــامعي، و يطفئون بأيديهم الجامدة مشعل الحرية الفكرية، الذي هو صلب عملهم، و عمود رسـالتهم...؛ و لئن اسـتطعت أيضا أن أفهم هــؤلاء، فــإني لا أســتطيع أبــدا أن أفهم موقف

---

[140] غير خاف على القارئ اليقظ أن كاتب الصفحة أو الرسالة يدير قلمه، و بنى قوله على أن القرآن تأليف محمد ﷺ، و قد نادت بذلك تنحيته عن الجهل بالتاريخ، و تحليته بالموهبة الفنية.

[141] و قد روى في مجلة "الرسالة" نفي أحد هـذين العـالمين الأزهـريين، أو كلاهما، ما عزى إليهما من القول المساعد لصاحب الرسالة المقدمة؛ لكن نبأ النفي إن صح كـان الـواجب عنـدي نشـره من جـانب النـافين باهتمام يتناسب مع أهمية الموضوع.

المطران الإنجليزي، الذي يحلل المسيحية، كما يحلل تاجر الزيتون فن رفائيل، أو تاجر المسرحية فن شكسبير.

لماذا يهدم المطران الوقائع التاريخية في الدين؟ و هو الذي يجب أن يعلم أن الحقيقة الدينية لا يمكن أن توضع تحت مصباح الذهن البشري...].

ثم قال: [ما قيمة اكتشافات المطران بارتر بالنسبة إلى الحقيقة الدينية؟

إذا كان هذا المطران رجل دين حقا لفهم ذلك، و لكنه فيما يبدو لم يخلق للدين....، و لكن لمهمة أخرى...، و إني أرشحه لمهمة الصحافة، لأنه و لا شك قد خلق لها دون أن يشعر..].

هذا ما نقلته ملخصا من أخبار اليوم متعلقة بالرسالة المقدمة إلى كلية الآداب، و الضجة المثارة حولها...

و إني أتعجب من الأستاذ توفيق الحكيم المتعجب ممن شاء، و غير المتعجب ممن شاء، كونَه يعذر الخروج على دين الإسلام من صاحب الرسالة، و يعذر العالمين الأزهريين اللذين يجعلان من هذا الخارج على الإسلام مجتهداً يستحق أجراً واحداً على الأقل... و لا يعذر أبداً المطران الإنجليزي الخارج على الدين المسيحي!

و من عجائب الأستاذ كونه يرى أن ذلك المطران لم يخلق للدين، فيرشحه لمهمة الصحافة، كأن الصحفي يجوز له أن يقول في الدين ما لا يجوز غيره، فكأن الدين مسئول عنه رجاله فقط... و من أجل هذا يرى للأزهر موقفاً من الإسلام و للجامعة موقفاً مختلفاً عنه.

و إني لا أقول عن الأستاذ توفيق الحكيم -المتطوع للدفاع عن المسيحية حيال حملات المطران الإنجليزي عليها، و المتطوع في الوقت نفسه لمؤازرة الثائرين على كتاب الإسلام<311>...

لا أقول إنه يفضل المسيحية، و يعادي الإسلام، و إنما أقول إنه لا يعلم الإسلام علمه بالمسيحية[142]؛ و طبيعي أن يكون المرء مدافعاً عما يعلمه، و معاملاً لما لا يعلمه، و لا يميز أعداءه من أنصاره، معاملة العدو، و إذا أراد أن يدافع عن الإسلام أيضا يتكلم عنه بالقياس إلى المسيحية، التي يجعلها أسمى من المنطق، و من كل العلوم، كما جعل المسيحيون.

و هو يظن أن علماء الإسلام كرجال الكنيسة، في حاجة إلى الابتعاد عن العقل<312>، و لهذا أسست الجامعة بجانب الأزهر، للمحافظة على الحرية العقلية و المنطقية.

و لهذا أيضا كان المسموع من صوت الأزهر -المقرر إزاء صوت الجامعة المستنكر في مسألة الرسالة المقدمة إلى كليات الآداب عن الفن القصصي في القرآن- عكس المتوقع، حتى التجأ صاحب الرسالة إلى توفيق الحكيم، بمقالة عنوانها: "أتحررٌ في الأزهر، و رجعية في الجامعة؟".

لكن الرجل و ملتجأه قد وقعا في لبس، و بعد عظيمين عن الحقيقة في تحليل المسألة، و تعيين موقف الجامعة و الأزهر من الإسلام...

إذ لا يجوز أن يكون للأزهر موقف من الإسلام، و للجامعة موقف آخر منه، و لا اختلافٌ مع العقل إزاء اتفاق الجامعة معه؛ بل الأزهر في موقفه الأصلي القديم أكثر تمسكا بالعقل و المنطق إزاء استخفاف الملاحدة العصريين بأدلة علماء الإسلام العقلية و المنطقية في إثبات وجود الله، حين أصبح أولئك الملاحدة متمسكين بالشك، استناداً إلى علمهم الحديث، القائم على التجربة، و لي معارك عظيمة في هذا الكتاب لدحض حجتهم بهذا الصدد.

فإن كان الأستاذ توفيق الحكيم -المحتكَم إليه، ليقول قوله المؤيد للرسالة الخارجية على صدوقية القرآن- يرغب في قراءة كتابي اطلع على أنه ليس هناك حقيقة دينية غير مؤتلفة مع الحقائق العقلية، حتى إن النصرانية الصحيحة المنزلة على سيدنا المسيح غير مختلفة في ذلك عن الإسلام...

و اطّلع الأستاذ أيضا على أشياء أخرى، تنفعه، و تحرره من الأغلال التي يرزح تحتها؛ أفكار المعاصرين، التابعين للغرب، حتى في المعلومات الدينية، متوهمين لهم التحرر الفكري في تلك الأغلال<313>.

أما مسألة الفن القصصي في القرآن، فضلا صاحب الرسالة فيها لا يوزن بميزان الموافقة لإجماع المفسرين، أو المخالفة، و لا بميزان المجتهد المخطئ، أو المصيب المستحق للأجر على كلا التقديرين، كما وزنه فضيلة الشيخ شلتوت، و أشرك معه في الرأي فضيلة المفتي الأكبر السابق، على ما نقل عنه صاحب الرسالة المنازع فيها مبلغ القضية المحكمة بما أعجبت الأستاذ الحكيم آخرَ المفتين...

حتى قال عن أصحابها: [إن هؤلاء العلماء شاء لهم اتساع الأفق أن يضيئوا النصوص القديمة بأضواء جديدة، دون أن يحيدوا عن روح الدين، و جوهر العقيدة]؛ و إن لم يكن الأستاذ عارفاً لا بروح الدين، و لا بجوهر العقيدة، كما أشرنا إليه.

لا يوزن ضلال صاحب الرسالة بما ذُكر من الموازين، و إنما يوزن بميزان العقل، الذي يظن الأستاذ الحكيم أنه بمعزل عن الدين، أي دين كان...

---

[142] و أخيراً قرأت للأستاذ توفيق الحكيم في أخبار اليوم كلمة بعنوان "ارتفعوا بالدين"؛ قال فيها: [طبل قارئ، و زمر، و أرعد، و زمجر قلقاً على الدين، لأنه قرأ في رثاء عظيم: "أنه عاش بالروح، كما عاش المسيح، و مات مقتولا بيد عشيرته، كما قتل المسيح"].

ثم قال: [و لم يفطن ذلك القارئ إلى أن المقصود هو إستعارة صورة، لا تقرير حقيقة، فكتب يذكر بالآية الكريمة، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[النساء:157]، و هي آية في الذاكرة لا تنسى، و لكن من بسطاء القراء من يتوهم أنه وحده الذي يذكر و يعلم، حقا هذه الآية تقول ذلك... و فسر علماء الإسلامة عبارة ﴿وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، بأن الذي صلب و قتل، هو شخص آخر لا المسيح الذي رفع، و هذه الحقيقة لم يتعرض لها الكاتب -يعني نفسه- فهو أراد أن يعرض الأذاء الذي يلحق العظيم من عشيرته، و ضرب ذلك مثلا بالمسيح، الذي آذاه قومه في شخص ذلك البديل الذي شبه لهم؛ ذلك أن صورة الاعتداء و الإيذاء من العشيرة هي وحدها المقصود بالإبراز.. حتى و إن كان الإيذاء قد وقع على غير المسيح باسم المسيح.. و كان على القارئ المسلم أن يفهم من عبارة "كما قتل المسيح"، أن المسيح هنا هو البديل، الذي يتفق مع تفسير الإسلام، و للقارئ المسيحي أن يرى الوضع الذي يتفق مع تعليم الكتاب المقدس.. و الدين بعدئذ للديدان].

أقول: كان الواجب على زعم الأستاذ على القارئ المسلم أن يفهم من عبارة الأستاذ المكتوبة على أسلوب المذهب المسيحي، في موت المسيح مقتولا، المخالف لكتاب الإسلام، ما يوافق مذهبه أيضا، و أن لا يضلله ما تضمنه كلامه في تشبيه موت غاندي بموت المسيح من ترويج الرأي الذي لا يتفق مع الحقيقة، و هو موت المسيح مقتولا بيد أعدائه..

و لا ينفع الأستاذ أن هناك مقتولا أيضا، و إن كان غير المسيح، لأن المقصود بالتشبيه هو المسيح، لا من قتل بدلا منه... فالمقتول غير مشبه به، و المشبه به غير مقتول، و لا مؤذى...

فالأستاذ حاول تشبيه عاقبة غاندي بعاقبة المسيح، الذي لا يعلم عاقبته، فشبهها بعاقبة غيره من حيث لا يشعر... فكأنه وقع في مثل التباس أعداء المسيح، الذي أرادوا قتله، فأخطأوه، و قتلوا غيره...

بل الذين أرادوا قتل المسيح فأخطأوا، و قتلوا غيره، ليسوا من عشيرته المسيح، فتشبيه غاندي في مماته لا يستقيم من هذه الناحية أيضا.

و أصل الغلط الذي وقع فيه الأستاذ عدم معرفته بمذهب المسلمين في عاقبة المسيح معرفته بمذهب المسيحيين... فهو لا يعلم الحقيقة، و يقابل جميل قارئ علمها، بالنكران...

و من العجب أن الأستاذ يقول -بعد أن لطم مصحح غلطه في مسألة دينية منصوص عليها في القرآن: [و لكني مع ذلك أحب كل من يحب الدين، و أحث الناس على أن يفخروا بالدين..]؛ فهل هو يحب الدين جزافاً، و يحب كل من يحبه من غير تحقيق الحق فيه؟

فعند ذلك يتبين أنه ضلال لا يقبل التبرير، بل يقضي على مبرره، كما يقضى على الرسالة نفسها، فكونه رمياً للقرآن -الذي هو كلام الله في اعتقاد المسلمين- بأن وجود شيء فيه لا يقتضي صحته، و مطابقته للواقع؛ و هو تشكيك صريح في صدوقية الله، يحكم العقل قبل كل شيء بأنه كفر بالله، و انتقاص لمقام الألوهية؛ فإن لم يكن كفرا بالله، فهو كفر بنبوة محمد ﷺ، و تلميح إلى أن القرآن كلامه لا كلام الله.

لا يؤيد هذا الاحتمال الأخير اهتمامُ صاحب الرسالة في سعيه لترويج رأيه، بنفي الجهل عن سيدنا محمد ﷺ بالتاريخ دون نفيه عن الله.

و الأستاذ الحكيم، الذي يسعى عبثا بما يكتبه في أخبار اليوم لمناصرة صاحب الرسالة، و امتداح مساعديه بالفتوى، غيرَ عابئ بما يطوقه من اللوازم العقلية،التي ذكرناها قاضية عليه...

لا بد أن يكون شريكه في اعتناق إحدى العقيدتين، اللتين أقلهما كفر بنبوة سيدنا محمد ﷺ، و تجويز وجود الكذب في القرآن، باعتبار أنه كلامه، لا كلام الله، ثم تأويله بأنه كذب فني...؛ أو أنه كلام الدين، فلا يقاس بمقياس الحقيقة<314> التاريخية؛ لأن الحقيقة الدينية لا يمكن أن توضع تحت مصباح الذهن البشري.

و هذا الوجه الأخير، الذي هو زيادة من الأستاذ توفيق الحكيم، على تأويل صاحب الرسالة، بوضع الإسلام مع المسيحية في بوتقة ثم اعتبار مكان الحقيقة الدينية، أسمى من كل حقيقة... معناه الخفي في كلام الكتّاب العصريين قضاء على الأديان بلطف و لباقة.

و من عجائب المحاباة من الأستاذ الحكيم، أنه يحكي في (العدد 156، من أخبار اليوم) شكوى الأستاذ أحمد الشائب -أستاذ الأدب في الجامعة، و الفاحص للرسالة، ثم القائل برفضها...- من كون الجهات الرسمية منعته من الكلام...؛ يحكي شكواه، ثم يعلق عليها بما يخيل للقارئ أن الجهات الرسمية منعت الأستاذ صاحب الرسالة من الكلام، لا الأستاذ الذي فحصها و رفضها...؛ يحكي الشكوى عائباً للمنع من الكلام، و لا يساعد جانب الممنوع منه، الذي هو الأستاذ فاحص الرسالة و رافضها.

فهو أي الأستاذ توفيق الحكيم يؤيد المانعين بمناورته في صورة المهاجمة عليهم، ثم يتشدد محابيا لصاحب الرسالة، الذي يراه ماشياً في طريق الحرية الفكرية...

و هو طريق النهضة التي فاتحُها في مصر هو الأستاذ الإمام، و متقدما في مناورته ضد المتمسكين بكرامة الإسلام، و القرآن من أساتذة الجامعة، و هم قليلون، مثل فاحص الرسالة جزاه الله عني خيراً كثيراً...

يتشدد، فيدعو رئيس الحكومة -النقراشي باشا رحمه الله- إلى مشاركته في التكلم مصدقاً لما بين يديه من الرسالة الممقوتة، و يتشدد أيضا في دعوة الرئيس إلى الكلام قائلاً: [ليس هو الذي يخيف الإنجليز بصوته في مجلس الأمن، و بصمته في مجلس الوزراء... و لكن الذي يخيف الإنجليز هو هذه النهضة الفكرية، التي اعتقدوا أنها من الجامعة، و هذه النهضة الروحية اعتقدوا أنها سرت في الشرق من مصباح الأستاذ الإمام...! التقدم الفكري، و الروحي في مصر هو وحده مفتاح القضية المصرية... و إذا جلت جيوش الاحتلال عن أرضنا.. فلأنها لا تستطيع البقاء طويلاً أمام أشعة<315> عن الفكر، و العرفان تعمي أبصارها..؛ و إذا حسب المستعمرون حساب مصر، فلأنهم يخشون تلك المنارة الفكرية، و الروحية أن تلاحقهم بأشعتها في العالم العربي].

ثم انتهى تحكم الأستاذ الحكيم، و تحمسه لترويج الرسالة الجامعية الطاعنة في أمانة القرآن، و التي رفضته حتى الجامعة نفسها... إلى تهديد رئيس الوزارة المصرية، في أدق أدوار فلسطين، و أحوجها إلى استقرار جميع الوزارات في جامعة الدول العربية، المستعدة لمقاومة فكرة التقسيم الغربية الظالمة، مقاومة حربية...

انتهى تحكم الأستاذ الحكيم، و تحمسه لترويج رسالة الأستاذ خلف الله المتقدمة إلى كلية الآداب لنيل الدكتوراه.. في تهديد النقراشي باشا بقوله: [فالأمر خطير، يا رئيس الحكومة إلى حد، أطالبك بمعه بواحد من أمرين لا ثالث لهما: إما أن تدرأ في الحال الخطر المحيق بهذه المناورة الفكرية، و الروحية.. و إما أن تستقيل].

و أنا أقول: لم يقنع حرص الأستاذ توفيق الحكيم على حل مشكلة الرسالة المشئومة، المقدمة إلى كلية الآداب، و لو كان في نجاح الرسالة ضعضعة مكان كتاب الإسلام في قلب المؤمنين...

لم يقنع حرص الأستاذ على قضية صاحب الرسالة التي جعلها قضية لنفسه أيضا، بحلها على الطريقة العلمية و العقلية... بل راجع في إنجاحها الطريقة السياسية، فأراد كسب المسألة العلمية بالسياسة، أي بقوة الحكومة.. حتى بنى على كسبها، كسب قضية مصر...

و كفى هذا عيباً على الأستاذ المحابي، و اعترافاً بضعف أدلته العلمية، التي تمسك بها أولا في ترويج الرسالة.. و قد استحق تحوله هذا من الطريقة العلمية، إلى الطريقة السياسية، تعليقا طويل الذيل، ربما لا يحتمله المقام.

لكن، لا بد من أن اتبسط بعض الشيء، فأقول: إن معنى ما قاله الأستاذ في هذه الأسطر الأخيرة... معناه الخفي بالنسبة إلى بعض القراء، و الجلي بالنسبة إلى بعض آخر، أن المسلمين، و لا سيما العرب إن أرادوا، و كانوا جادين في إرادتهم أن يكسبوا<316> قضاياهم المعلقة بينهم و بين الإنجليز و غيرها من دول الاستعمار، فعليهم أن يضحوا بدينهم، و تمسكهم بقرآنهم، و عقيدتهم في قرآنهم.

و ليست هذه التضحية من قبيل مداراة الخصوم، و مصانعتهم، أو مخادعتهم، بل في ذلك هدى للعرب إلى طريق النهضة، و تحرر من الجمود، و التأخر، و إشراق لأمم الشرق بنور عرفان الغرب، الذي اكتشف مصباحه الأستاذ الإمام.... و هذا النور الذي يصل مصر بباريس، و يربط مآذن الأزهر ببرج إيفل، كما صوره الأستاذ محمد صبيح في غلاف كتابه المسمى "محمد عبده".. هو الذي يخيف الإنجليز، و سائر المستعمرين على قول الأستاذ توفيق الحكيم و يعمي أبصارهم.

و لم يفكر الأستاذ في غرابة خوف الدولة الاستعمارية من نور النهضة الفكرية، التي اقتبسته مصر الشرقية من الغرب، حتى أدى إلى جلاء جيوش الاحتلال عن أرضها.. أي غرابة.. فكانت هذه الحادثة كتحدي تلميذ مصارع لأستاذه الذي علّمه بعض حيل النجاح في المصارعة، و لم يعلّمه تمامها... أو كما ظن الغافلون أن انسحاب جيوش الإنجليز، و الفرنسيس، و الطليان، و أساطيلهم من استانبول بعد احتلالها في الحرب العظمى الأولى، قد وقع خوفا من قوة مصطفى كمال الحربية، التي هزمت اليونان و أخرجتها من أزمير، على الرغم من أنها -أي اليونان- كانت حليفة الدول المذكورة، الغالبة، ثم منتدبتها إلى أزمير.

و أصدق القول في تحليل هذا المقام أن الإنجليز و غيرهم من دول الاستعمار الكبيرة، إن انسحبوا من بلاد المسلمين، بعدما استيقنوا نهضة أهلها الفكرية، التي أخذوها من وحي المستعمرين أنفسهم، فلا يكون ذلك خوفا من بأس تلامذتهم في تلك البلاد، الذين لا شك في

أنهم لا يزالون ضعافاً بالنسبة إلى أساتذتهم، و إنما يكون حبا بأولئك للناهضين...

لكون النهضة الفكرية الموحاة إليهم -و التي وجد الأستاذ توفيق الحكيم أروع مثال لها في رسالة الأستاذ خلف الله المقدمة إلى كلية الآداب لجامعة فؤاد الأول، فروّجها، و ناضل مستنكريها في صفحات (أخبار اليوم)، بكل ما في يديه من قوة القلم<317>، رغم أن الجامعيين لم يتقبلوها بقبول حسن، فناضلهم الأستاذ أيضا- تقربهم من المستعمرين، و تحببهم إليهم، بقدر ما تبعدهم من الإسلام و القرآن الذي طعنت الرسالة المذكورة في صميمها قائلة: [إن وجود شيء فيه لا يقتضي صحته].

فالمستعمرون لا تخيفهم النهضة الفكرية المزعزِعةَ إيمان المسلمين بالقرآن، بل تحببهم إليهم، و إنما يخيفهم القرآن، كما شهد به القول المروي عن غلادستون....؛ يخيفهم بقاؤه سليماً، و مؤمناً به حرفيا عند المسلمين، ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:2]، و الذين إن يكن منهم ﴿عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ﴾، و إن يكن منهم ﴿مِّئَةٌ﴾ صابرةٌ ﴿يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[الأنفال:65]، و الذين قد سبق أن مثلهم من السلف الصالحين، نصروا الله فنصرهم، و كانت لهم الدولة، و الغلبة في الأرض.

فالمستعمرون يخيفهم القرآن، و الإيمان به حرفيا، على أنه كلام الله، الذي لا يتصور منه الكذب...، لا كلام محمد ﷺ، الذي يكفيه كذبا أن كان كلامَه فعزاه إلى الله...، يخيفهم، و يسخطهم المؤمنون به، و يسرهم دخول ثلمة في إيمان المؤمنين به، ليفتحوا به حصن الإسلام من هذه الثلمة المفتوحة، فيحبون طبعا فاتحيها بأيديهم من المسلمين الأخلاء...، حبا جما، و يتخذون منهم سماسرة للقضاء على إيمان الباقين، فيحبونهم جميعا...

و ربما ينجر هذا الانقلاب في عقيدة الإيمان بالقرآن، إلى كف أيدي الدول الكبرى الغربية عن بلاد المنقلبين عن صلابة الإسلام إلى حرية الزندقة و الإلحاد...

و هنا فقط أعترفُ للأستاذ توفيق الحكيم بإمكان الحصول للأمم الإسلامية على صداقة الدول الغربية....، فأي أمة من هذه الأمم رأت مصلحتها في اختيار هذه الطريقة لطلب صداقة الدول الغربية، و التخلص من عداوتها... فلها ما تشاء من اشتراء الدنيا بالدين، و استبدال عداوة الله بعداوة الدول أعداء الإسلام؛ و لا بارك الله في نهضة أمة مسلمة تتنازل فيها عن إيمانها بصدق القرآن لتكتسب صداقة الدول غير الإسلامية؛ كما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة:120] <318>.

فهذا مفترق الطرق في تحديد المسألة التي دخلها الأستاذ توفيق الحكيم، و أبدى كثيرا من النشاط و التعمق في بحثها...؛ و كما أن الأستاذ لم يدخر جهداً في الوصول إلى النهاية التي قصدها حتى دعا رئيس الحكومة إلى حسم المسألة، راجياً أن يفعل مثل ما فعل أسلافه في المسائل المماثلة، التي ذكرها الأستاذ في العدد السابق من (أخبار اليوم) -كنماذج الأمثال للحكومة الحاضرة-، فإني أذهب إلى أكثر و أبعد مما طلبه الأستاذ في حسم المسألة..، بأن لا يكون الحسم مجاهراً لأساس الخلاف في الأحداث التي تظهر الفينة بعد الفينة في الأوساط الفكرية، و تثير ضجة تهز كيان الدين في قلوب المسلمين... مجاهراً للأساس العامل في تلك الأحداث غير خاص بجزئيات المسائل و الوسائل...

فليقرر المسلمون فيما بينهم: هل هم باقون على الإسلام و عقيدته -التي تمسك بها آباؤهم ثلاثة عشر قرناً، أفراداً، و جماعاتٍ، أي حكومات، راضون عنها، و معتزون بها، كما رضي آباؤهم و اعتزوا؛ مؤمنون بالله، و ملائكته، و كتبه، و رسله، و سائر ما أنزل في كتابه على خاتم أنبيائه، كما آمنوا... لا مؤمنون ببعض الكتاب، و كافرون ببعض، و لا متدينون أفراداً، و لا دينيون حكومات، و مسلمون أسماء، و غير مسلمين في الأعمال و الآداب، متبعين سنن غير المسلمين شبرا بشبر، و ذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه-؟... أم أنهم غير باقين؟

يقوم الفينة بعد الفينة من سولت له نفسه بالخروج على الإسلام في ناحية من نواحيه الاعتقادية، فيثور احتجاجاً عليه فئة من الغيورين على دينهم، و يحميه منهم رجال من الوزراء، المستبطنين ما أظهره الخارج...، و إن لم يحمه حام محابٍ، عاجلاً، ففي المستقبل القريب، أو البعيد، ينال الرجل مكافأةَ خروجه بأضعاف ما كان له من المراكز و المناصب، يوم خرج و ثار عليه المستنكرون...؛ و يكون هذا المصير له غبطة لآخرين، فتتكرر المهزلة في أيام أخر على مسائل أخرى مماثلة، و تستقر بدعة استخراج فوائد عند قوم من مصائب الدين.. عادةً مستمرةً في بلاد الإسلام إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا<319>.

هذا، و لم يقف حرص الأستاذ الحكيم على تأييد الرسالة الطاعنة في أمانة القرآن، عند دعوة رئيس الحكومة إلى العمل الحاسم... بل دعا الله تعالى أيضاً إلى التدخل في الأمر، ليصدّق صاحب الرسالة في تكذيب ما جاء في القرآن.

و هذا هو معنى الجملة الدعائية، التي اختتم بها الأستاذ الحكيم قوله في العدد التالي لـ (لأخبار اليوم)، المنشور فيه مقال الأستاذ أمين الخولي، المشرف على الرسالة معنوناً: "إنها لحق... ألقوا بي في النار": [شهادة الأستاذ الخولي خطيرة، و إني أحب أن ألفت النظر إلى نقطة الخطورة فيها، تلك هي قوله: "إن الأستاذ الإمام محمد عبده انتهى إلى مثل هذه الآراء، منذ اثنين و أربعين عاماً.."؛ إذا كان هذا القول صحيحاً، كما يؤكد الأستاذ الخولي، فلنا أن نطلب تعليلاً لما صرنا إليه؛ و على المسئولين من رجال الدين أن يوضحوا الموقف لأنهم لا يرضيهم أن نرجع إليهم -في عهدهم- القهقرى، بعد نهضة إسلامية، بعثها الأستاذ الإمام، أما رجال الجامعة، فيلصق بهم زميلهم الأستاذ الخولي، في عقليتهم و خلقهم، تهمة لا يدفعها عنهم غير دليلهم...، و هي إن صحت لكانت قديرة على هدم "التعليم الجامعي" من أساسه، و اقتلاع أهدافه من جذورها... اللهم لا تخيب أملنا كله فيما حسبناه نهضتنا].

أقول إن الأستاذ توفيق الحكيم يتحكم فيعدل عن محط النزاع، الذي هو تهمة صاحب الرسالة، إلى تهمة الجامعيين، الذين اتهموه، استناداً إلى قول الأستاذ أمين الخولي، المشرف على الرسالة، و المتفق مع صاحبها في الرأي.

لكن شهادة الأستاذ الخولي لا تُسمع، و لا تنفع صاحب الرسالة المتهم -كشهادته لنفسه- و قد اتهموه مع المتهم، لكون الرسالة وضعت تحت إشرافه، فضلا عن أن للأستاذ العماري مقالة، بل مقالات في (مجلة الرسالة) عن هذا الأستاذ الخولي، و عن دروسه في الجامعة، التي هو أستاذ البلاغة فيها، منذ عشرين سنة كما يقال.. مقالات حسبها قاضية عليه، و عاراً على الجامعة[143].

[143] فالله -الذي هو أبو المسيح عند النصارى- أخو محمد، على قول الأستاذ الخولي في محاضراته، أو بمثابة الأخ يخاطبه يا أخي!! فكأن أستاذنا يقول: و هكذا يكون أستاذ البلاغة في عصر الحرية، و المساواة، و الديمقراطية، و في عصر التقريب بين الطبقات.

و إني ألفت النظر إلى أن الأستاذ الحكيم يهتم باتهام الأستاذ الخولي للجامعيين، المتهمين، و لا يهتم باتهامهم له، فماذا السبب لهذا الوضع المعكوس؟

و الجواب: أن سند المتهمين للرسالة مخالفتها لكرامة القرآن، و سند الأستاذ الخولي المتهم للمتهمين موافقة الرسالة لآراء الأستاذ الإمام...! و في هذا مفتاح هذه الفتنة، و ما سبقها من الأمثال..

فمن كان اهتمامه بكرامة الأستاذ الإمام فوق اهتمامه بكرامة القرآن لا يسمع كلام المتهِمين للرسالة، و يفتح أذنيه بين إطار من كفيه لسماع من يتهم المتهِمين.

و من أعجب العجائب أن المتهمين لصاحب الرسالة من الجامعيين، و غير الجامعيين يقطعون التهمة في الرسالة، و المشرف عليها، و لا يمدونها إلى الأستاذ الإمام، على الرغم من أن كلا من الأستاذين، الذين اتهموهما، دافع عن نفسه، بإيراد جمل من أقوال الأستاذ الإمام، تتفق مع الأقوال، التي وردت في الرسالة، و اتُّخِذت تهمة لها، و للمشرف عليها، كما يفهم أيضاً منقول الأستاذ الحكيم، الذي نقلناه آنفاً.

فتلك الأقوال إن صحت نسبتها إلى الإمام، فلا كلام عند الأستاذ الحكيم في استحقاق الأستاذين المتهَمين لكسب القضية ضد متهِميها، و في انتقال التهمة منهم إليهم...

بل و على ما يلزم عندي أيضاً، لا كلام في براءة الأستاذين عن التهمة عند متهميهم أنفسهم، إذ كانوا في اتهامهم لا يَعْدونهما إلى الأستاذ الإمام، فكيف يصح أن يكون قولٌ تهمةً، إذا قاله زيد، و لا يكون إذا قاله عمرو...؟

و قد رأينا متهمي صاحب الرسالة، و المشرف عليها، على ما فيها من أقولا قال مثلها الأستاذ الإمام قبل اثنين و أربعين عاماً...؛ رأيناهم سكتوا إذا جاء دور<321> الكلام إلى اتهام الأستاذ الإمام، و ذلك عند تمسك الأستاذين المتهَمين بأقوالهم، دفاعاً عن نفسيهما، و هم الأخرون يُتهمون بهذا السكوت، إلا الأستاذ الشائب الممنوع من الكلام.

و قد رأينا بين الساكتين إذا جاء دور الكلام على الأستاذ الإمام، الأستاذَ علي الطنطاوي، الذي من عادته أن يتظاهر متحمساً في مثل هذه الأدوار، و الذي قال عند إحدى حملاته المنشورة في (مجلة الرسالة): [لو قال ما نقلته عنها]، يعني رسالة الأستاذ خلف الله، [معتقداً به أبو بكر، و عمر، لكفر به أبو بكر و عمر، و صارا به أبا جهل، و أبا لهب].

فهل مركز الأستاذ الإمام في الإسلام، أحصن من مركز أبي بكر، و عمر؟

و مما رأينا في هذه المسألة قول عميد كلية الآداب صديقنا الدكتور عبد الوهاب عزام بك، تخفيفاً عن كاتب الرسالة: [إني فيما أعرف عنه، و كما يبدو من كتابته، شاب، مسلم، قصد أن يدفع عن القرآن بعض شبه الملاحدة، أو رجال الأديان الأخرى، فجارَ به رأيه عن القصد، و حادَ به اجتهادهُ عن سواء السبيل]. و قد كتب الأستاذ الطنطاوي ما نقلنا عنه آنفاً، معلقا على قول العميد، و مشددا...

و لعل الدكتور العميد، الذي شهد على إسلام الرجل، غاب عنه أن الاعتداد بإسلام أحد مشروط بسلامة عقيدته، و ابتعاده في عقيدته عما يناقض الإسلام، و لا يبرره، قصد الدفاع عن القرآن، بعد أن تضمن دفاعه التنازلَ باسم التأويل عن صحة القرآن في بعض ما ينطق به نصوصه، فيكون ذلك قبولا لدعوى أعداء الإسلام في القرآن، لا دفعاً لشبههم.

و أخيراً انتهى أمر صاحب الرسالة، فيما قال عنه عميد الكلية، و نقلناه قريبا، إنه شاب مسلم، لم تخرجه رسالته من الإسلام، فقد انعقدت بأمر وزارة المعارف -على ما كتبته (أخبار اليوم)، تحت عنوان: "عاصفة تهدأ"- لجنة، مؤلفة من أستاذ الشريعة<322> في كلية الحقوق، و وكيل كلية الآداب، تُحقق ما ورد في تقرير الأستاذ أحمد أمين بك، عن اتهام صاحب الرسالة.

بأنه ذهب في رسالته إلى ثلاثة أمور: أولها: أن محمداً فنان هذا القرآن، و صانعه... الخ؛ و قد سلم صاحب الرسالة بأنه لو قال شيئا من هذا كان كافراً، كما قال الأستاذ أحمد أمين بك، إنه قال هذا فعلاً...

أما اللجنة الجامعية، فقد قالت بالعكس: [... أما القول بأن محمداً فنانٌ بهذا المعنى، فإنه قد يستنتج من عبارة الرسالة، في آخر صفحة 125، و أول صفحة 126، و رأت اللجنة أن العبارة التي قد يُستند إليها في هذا ليست صريحة، و لا قطعية الدلالة على معنىً معين، و لكن توجد في صفحة 169 من الرسالة عبارة أخرى، تدل على أن الكاتب لا يعتقد أن محمداً فنان هذا القرآن، و إنما يؤمن بأن القرآن نزل من السماء على أنه معجزة العرب الكبرى، و أوحاه خالق مبدع، منزه عن كل ما يتصف به البشر].

و أنا أقول: لم أر الرسالة، كما لم يرها الكثيرون[144]، و عابهم الأستاذ قطب، بأنهم حكموا عليها من غير أن يقرأوها؛ لكني قرأت مع الناس في (مجلة الرسالة) لصاحب الرسالة، و في (أخبار اليوم) للأستاذ أمين الخولي، المشرف على الرسالة، مقالات بتوقيعهما، كافية في اتهام كل منهما، ناصَّة على أن وجود شيء في القرآن، لا يقتضي صحته.

و هما ينقلان هذا القول عن الأستاذ الإمام، و يتعزان، بل يعتزان بالإستناد إليه في قطع ألسنة المتهمين -و فيهم الأستاذ أحمد أمين بك، الذي لا يُتهم بالجمود، و ضيق الأفق في الأفكار الدينية-، حتى أن الأستاذ المشرف، قال في دفاعه عن الرسالة: [إنها لحق، ألقوا بي في النار]؛ و قد صدقه قرار اللجنة الأخيرة، المؤلفة بأمر وزارة المعارف على براءة صاحب الرسالة، لكنا نحن لا نستدل على تعيين الحق و الباطل بقول فلان، أو قرار لجان، لا سيما و أمامنا سوابق من الوزارات المصرية، حمت الخارجين على الدين.

و كان اعتماد الأستاذ الخولي<323> عليها في قوله الحماسي: [إنها لحق، ألقوا بي في النار]، لا على أنها حق يضحَّى بالنفس في سبيله، و يكون المضحون عشاق الحق المحققين، لا المنساقين وراء شهرة الأستاذ الإمام، و المقلدين لمن سمعوا من بعض أبطال علماء الغرب، أنه قال مثل ذلك القول...

و إذا لم يكن "فنان القرآن" -على فهم اللجنة الجديدة- من قول صاحب الرسالة، سيدَنا محمد ﷺ، و كان فنانه هو الله، انتقل احتمال الكذب السائغ في الفن القصصي -على مذهب الرسالة- إلى الله...

و لا ينفع صاحب الرسالة ما كتبه في (مجلة الرسالة) دفاعاً عن نفسه، أن الأساطير التي ذكرها المشركون ردا للقرآن إليها، و طعناً فيه، ليست بمعنى الأكاذيب، بل

[144] لأن أصحابها هربوها، كما يهرب الحشيش تاجروه، و لاعجب، فإن أصحاب الرسالة أيضا راءوا تجارة المناصب، و المناقب في عصر العجائب، و إنما العجب كون الحكومات بمصر لا تعاقب المهربين بل تكافئهم.

بمعنى الأقوال مطلقاً، و استدل عليه بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الفرقان:5-6]؛ حيث تهتم الآية في رد قول المشركين بكون القرآن كلام الله لا كلام الأولين.

و اللجنة المؤلفة بأمر وزارة المعارف المشتملة على عبد الوهاب خلاف بك، أستاذ الشريعة لكلية الحقوق، بجامعة فؤاد للنظر في رسالة الفن القصصي في القرآن، و المقررة على براءتها من تهمة الطعن في القرآن، إنما اهتمت بناحية براءة الرسالة من تهمة عد القرآن تأليف سيدنا محمد ﷺ، لا كلام الله[145]، و لم تهتم بما فيها من القول بأن القرآن لا يعنيه أن يكون جميع قصصه متفقة مع الحقائق و الوقائع..

فمؤلف الرسالة كالمشرف عليها، ليس إلا بطل الاعتماد على ما يعرف من مسامحة الوزارات المصرية في أمر الدين، و ضعف التمسك به في أوساط المثقفين الجدد، المعتلين بتقليد المبادئ الغربية من ناحية، و تقليد الشيخ محمد عبده من ناحية، الذي أحدث -بما أسرف من تأويلاته لنصوص القرآن- ماديةً جديدةً في الإسلام، أو باطنيةً جديدةً، متمشية مع مادية الغرب.

أما دفاعه عن الإسلام ضد أعدائه فقد تبخر بين تقهقراته<324> أمامهم...؛ و قد سبق أن ناقشَ الأستاذَ فرح أنطون صاحب (مجلة الجامعة)، مدافعاً عن الدين ضد الإلحاد، و في النتيجة ازداد مستبطنوا الإلحاد بين المثقفين بمصر -كما أشار إليهم الأستاذ فريد وجدي بك في مقالة من مقالاته، و إني أسجله عليه في هذا الكتاب عند كل مناسبة...- و معناه هنا أنه نجحت دعوى الأستاذ فرح أنطون، و لم تنجح مدافعة الأستاذ الإمام.

و ممن كتبوا في بحث رسالة الفن القصصي في القرآن الأستاذ سيد قطب، صاحب كتاب (التصور الفني في القرآن الكريم)، لكن مقالات هذا الأستاذ التي كتبها في (مجلة السوادي) تمتاز بأنها حملات على الطرفين، من صاحب الرسالة، و الأستاذ أمين الخولي، المشرف عليها، و من الحاملين عليهما، المهددين بإخراجهما من دائرة الإسلام...

و تمتاز أيضا بأنها كاشفة عن أسباب، و أغراض حمت الأولَين على إثارة الضجة على نفسيهما، و الرغبة في الفرقعة، التي تلفت النظر، و تُحدث حدثا يتلفت عليه الناس...، و الأخيرين، أو البعض منهم، و هو الأستاذ أحمد أمين بك، و الأستاذ حسن الزيات، صاحب (مجلة الرسالة) على رد جميل الأستاذ أمين الخولي.

قال: [فذكرت الوقائع، ليعلم الناس أية مهزلة تكمن وراء الموضوعات الجديدة، و كيف تُمنح أرقى الشهادات العلمية، و تمنع في جامعتنا الوليدة، و كيف يصير الكثيرون دكاترة، أو ماجستيرات، و كيف لا يصيرون...].

ثم قال: [و لكن ما شأن (مجلة الرسالة) و محررها العباس؟ و ما شأن الأستاذ توفيق الحكيم؟ و قد أرسل الأستاذ علي الطنطاوي صيحته المفرقة الطنانة، و سل سيف الإسلام على رأس الطالب الجامعي، و أستاذه؛ و بذلك وصلت المهزلة أول أهدافها].

و الأستاذ قطب -على الرغم مما ذكر في خارج الموضوع أموراً كثيرةً لا تعنيني- قد خدم الحقيقة في فتح عيون القراء، و سجل على أن الخروج على الإسلام و القرآن بمصر يذهب بالخارجين إلى ما راموه من الوظائف و المناصب.

قال: [ثم تمضي خطوة<325> إلى الأمام، فتجد رجالا من رجال الدين، و رجالا من المحترفين حماية الدين، لم يطلع أحد منهم على الرسالة، و لم يحقق قضايا و مواجبها، و لم يعلم أكثرَ من إشاعة تشيع، أو تلخيص ينشر، أو تقرير لا يكون صواباً...

ترى هؤلاء الناس، لا يحترمون أنفسهم، و لا يحترمون إسلامهم، الذي يوجب التثبت قبل الحكم، يثيرون ضجة حمقاء شعواء، يرفعونها إلى القصر، و يصرخون بها في الطرقات... و يهتفون بها في الصحف أحرقوا الرسالة، اطردوا الخولي من الجامعة، طلقوا زوج الطالب الجامعي...

مهزلة لا تقع إلا في مصر... و حماقة ليس وراءها تعقلٌ، و ضجة ينقصها الإخلاص الصحيح.

و وقف الطالب الجامعي خلف هذه المهزلة، يغذِّيها بالوقود، كلما هدأت، و الدنيا لا تكاد تسعه من الفرح، و أحسبه قد أعدَّ نفسه عميداً لكلية الآداب، ثم مستشاراً فنيا للوزارة المعارف، أو يعد نفسه لأن يكون وزيراً للأوقاف...!

ألا يعرف مثله أن الضجة التي ثارت حول كتاب (الأدب الجاهلي) للدكتور طه حسين بك هي التي جعلته عميداً لكلية الآداب، و مستشاراً فنيا بعده؟

ألا يعتقد مثله، أن الضجة التي ثارت حول كتاب (الإسلام و أصول الحكم) للأستاذ عبد الرزاق بك، هي التي جعلته كذلك وزيراً للأوقاف؟

فلماذا إذن لا يرشح نفسه لأحد هذه المناصب، و نحن في مصر؛ و الضجات الحمقاء -التي يثيرها رجال الدين، و المحترفون حماية الدين- حول هذه الموضوعات، ترفع الذكر، و تنشر الصيت، و تغير الأقدار].

أقول: فهل -على رأس الأستاذ سيد قطب- خير للذين أثاروا الضجة من رجال الدين، و المحترفين حماية الدين على الطالب الجامعي -أي صاحب (رسالة الفن القصصي في القرآن)-، و حمَّقهم الأستاذ... خير لهم أنفسهم؛ بل خير للدين نفسه أيضاً أن لا يثيروها عليه، فيخدموا من حيث لا يشعرون أغراضه المنكرة في اكتساب الشهرة، و تصيد المناصب<326> بواسطة الخروج على الإسلام و القرآن؟

فقد أصبح مبلغ الفساد بمصر في رأيه إلى الحد الذي لو قلتَ للخارج المعتدي على كرامة الإسلام، و قداسة القرآن: "أسأت"، كان تأثير قولك هذا عند الرأي العام، الحاكم في تقسيم المناصب، أو في تمييز السيء من المحسن... كأنك قلت له: "أحسنت"!!!

أم أن الأستاذ لا يرى في رسالة الطالب الجامعي، و لا في تأييد أستاذه المشرف عليها، ما يستحق الضجة، التي أثارها عليهما المثيرون؟

وإنما يرى خطأ الطالب، بل و أستاذه المشرف على رسالته أيضا -الذي يراه الأستاذ قطب في أزمة نفسية، و قد حكاها مفصلة في مقالته-، في قياس نفسهما على الدكتور طه حسين بك، و الأستاذ علي عبد الرزاق بك.

كما يفهم من قول الأستاذ، بعد أقواله المنقولة آنفاً: [و ليس صغار الطلاب مكلفين أن يدركوا أن للدكتور طه حسين بك مواهبه الذاتية، و أن للأستاذ علي عبدالرزاق بك ميزاته الشخصية، و العائلية.. فهم معذورون إذا رأوا هذا الطريق جيد التوصيل].

---

[145] مع أن في اهتمام صاحب الرسالة بنفي الجهل عن سيدنا محمد ﷺ بالتاريخ عند ما يرى قصص القرآن مخالفة للحقائق التاريخية، كما سبق نقله منا في هذا البحث عن المقالة المنشورة في (أخبار اليوم) ما يوهم بحق أن القرآن في نظر صاحب الرسالة تأليف محمد ﷺ.

أقـــول: و هل هم معـــذورون أيضـــاً، و معهم الأســـتاذ المشـرف عليهم، في التلعب بكرامة القـرآن، ابتغـاء لنيل المناصب العالية؟

و من عبد لهم طريق التوصيل هذه؟

إن كـــان الـــذين اتخـــذوهم قـــدوة لهم، نـــالوا ما نـــالوا بمواهبهم،و ميازتهم، لا بما ابتدعوا في القرآن و الإسلام ما يمس كرامتهما؟

و لمـاذا لم يحل -على الأقـل- شـذوذهم هـذا بينهم و بين المناصب المذكورة، التي نالوها في بلد إسلامي عريـق، و لو بمواهبهم، و ميزاتهم؟

و على كل حال، فلا يفهم موقف الأسـتاذ سـيد قطب من اتهام الطالب الجامعي، و أستاذه المشـرف على رسـالته، بقدر اتهـام المثـيرين عليهما الضـجة من رجـال الـدين، و من الذين سـماهم "المحـترفين حماية الـدين"، و إن كـان مــذهب الأســتاذ لا يتفق مع الأولَين في تصـور التصـوير الفني في القرآن، بمعنى أنه يـراه أعلى شـأنا من عـرض قصصه على تصديق المؤرخين، من أهل الغرب و الشـرق، ثم تأويله عند الاختلاف معهم بالمسامحة الفنية.

و مع هـذا لا يبت الأسـتاذ في فسـاد مـذهبيهما، بل و في صحة مذهبه نفسه أيضا.

حيث<327> قـــال في آخر مقالته الثالثـــة، المنشـــورة في (مجلة السـوادي)، بعد إيضـاحاته القيمـة، المسـفرة عن إعظام القـرآن: [و بعـد، فلست أنكر أن شـبهات اعترضت طريقي، و أنا أبحث موضوع القصة في القرآن، و مشاهد القيامة في القـــرآن؛ أهـــذا كله مســـوق على أنه حاصل واقع؟ أم أن بعضه مسوق على أنه صور، و أمثال؟

وقفت طويلا أمام هذه الشبهات، و لكني لم أجد بين يديَّ حقيقة من حقـائق التـاريخ، أو حقـائق التفكـير، فـأطمئن إلى يقينيتها، و قطعيتها، فأحاكم القرآن إليها، و ما كـان يجوز لدي أن أحاكم القرآن إلى ظن، أو ترجيح.

و لم أكن في هذه الوقفة رجلَ دين، تصده العقيدة البحتة عن البحث الطليق، بل كنت رجل فكـر، يحـترم فكـره عن التجديف و التلفيق.

فإذا وجد سواي الحقيقة، التي يحـاكم إليها القـرآن، فإني على استعداد أن أستمع إليه في هدوء و اطمئنان].

أقـــول: لا يحتـــاج إلى البحث و التنقيب، عن حقيقة من حقـائق التـاريخ، أو التفكـير ليحـاكِم إليها القـرآن، إلا من يخالج قلبه الشك في كونه كلام الله، الـذي لا تحـوم حوله شبهة الكذب.

و بعد استيقان أنه كلام اللـه، يكـون البحث في حاجة إلى حقيقة تاريخية، أو تفكيرية ليحاكمه إليها، تناقضـاً لا يقبه منطق الفكـر، و العقـل، قبل الحقيقة التاريخيـة، الـتي لا تعدل الحقيقة الفكرية.

و التي يقول عنها الأستاذ حسن الزيات في (مجلته، عـدد 816): [التـــاريخ مادته عمل ابن آدم، و ابن آدم حيـــوان كـذاب، لا يقـول الحق على نفسـه، و لا ينقل الصـدق عن غيره...]؛ إلى آخر ما قاله في مقالة برأسها عن منزلة ما يسمونه الحقائق التاريخيـة، بالنسـبة إلى الحـق، و أحسن كل الإحسان.

و أنا لا أقول هذا القول كرجل دين، تصده العقيـدة البحتة عن البحث الطليق<328>، بل رجل عقل و منطق، يصـدانه عن التنـــاقض المســـتحيل، و يحـــترم دينه و عقيدته في ضمن احترام العقل و المنطق.

بل هـذا الرجل أشد تمسـكا بالعقل و المنطق من غـيره، كما يتبين قارئ هذا الكتاب، حتى إني أرى الأستاذ قطب، الذي يقول في مقالته المارة الذكر: [إن الـذهن البشـري خليق بـأن يـدع للمجهـول حصـته]؛ دون رجل الـدين في تقـدير العقـل، الـذي لا يلتبس عليه المحـال بـالممكن، قيمتَه، فهو أقوم قسطاس في الفصل بينهما، و ليس له أن يدع للمجهول حصته في هذا التمييز.

و ما دام يعـرف هو -أي العقـلُ- حـدود الممكن و المحـال بمبادئه الأولى الــتي فطــره الله عليهــا، ففي إمكانه أن يدرك بسهولة ما يصلح لأن يكون متعلقاً لقـدة اللـه، و هو جميع الممكنات التي لا حد لهـا، و لا حصـر، و ما لا يصـلح لــه، و هو ينحصر في أمــورة معينــة، مســتحيلة، يعرفها العقل بالبداهة الفطريـة، كجمع النقيضـين، و رفعهمـا، و الدور، و التسلسل.

فالعقل المقيد بقوانينه الخاصة، مهما كان طليقـاً، فليس له أن يكـــون أداة شـــبهة في العقيـــدة الدينية المتعلقة بالقرآن، الذي هو كلام الله، إلا أن ينطلق خارقـاً لقوانينه نفسه.

فهو -أي العقل- الحر في دائـرة قوانينـه الخاصـة، حسـبُ المسـلم نبراسـاً في إنـارة طريقـه إلى أصـول العقائـد الدينية؛ و لذا قال خضر بك، أستاذ السلطان محمد الفـاتح العثمــاني، و أســتاذ المحقــق الخيــالي أيضــا، صــاحب التعليقات الدقيقة على شرح العلامة التفتـازاني للعقائـد النسفية، في قصيدته النونية، الكلامية:

و واقع كل ما نص الصدوق به	من ممكن، كصراط، أو كميزان

فقصص القـرآن كلهـا، و مشـاهد القيامة المـذكورة في القـرآن كلها ما دامت من الممكنـات، و ما دام الله قـادراً على جميع الممكنــات -كما هو مقــرر في علم الكلام- فلا وجه لصاحب العقـل، و صـاحب الفكر الحـر، أن يـتردد في قبول ما ورد في القرآن منهما، كما ورد...

فلو عــرف الأســتاذ قطب هــذه الحقيقة الوجــيزة، الــتي يتضمنها بيت خضر بك<329>، أو لو لم يكن الأسـتاذ أجنبيا عن العلوم الإسلامية، لحد أن لا يعـرف أن الله قـادر على جميع الممكنات، أو لو لم يكن غافلا عن عـدم جـواز وضع حد للمكنات الواسعة الحدود، إلا بالمحال... لما احتـاج إلى أن يقـــول: [و بعـــد، فلست أنكر أن شـــبهات اعترضت طريقي و أناأبحث موضوع القصة في القـرآن، و مشـاهد القيامة: أهذا كله مسوق على أنه حاصل واقع؟].

نعم، تلك الشبهات التي اعترضت طريق الأسـتاذ قطب، و الــتي اعــترض أكــثرُ منها طريــقَ غــيره، مثل الطــالب الجامعي، و أسـتاذه الخـولي، و من سـبقهما من أصـحاب الفتن بمصر...

تلك الشــبهات، اعترضت طريق كثــير من النــاس[146] بعد مقــررات وضــعها الأســتاذ الإمــام قبل أربعين ســنة، و ضعضع بها حصن القـرآن عن مركـزه الراسخ في قلـوب المؤمـــنين، فتضـــمنت تأويلاته الموجهة نحو المغيبـــات مطلقـا، أو بالنسـبة إلى أهل الأزمنة البعيـدة عن زمـان الأنبياء، مثل الملائكـة، و الشـيطان، و أحـوال القيامـة، و المعجزات، نفيَ هذه الأمور نفياً مؤولاً...!

و قد صرح بذلك الطالب الجامعي، و أستاذه في الجرائـد، و المجلات عند الدفاع عن نفسيهما، أمام الضجة المثـارة ضـدهما من رجـال الـدين، و تحـدياهم بنقل كلمة الأسـتاذ الإمـام الناصة مثلا على أن وجـود الشـيء في القـرآن لا يقتضي صحته، و وقوعه....

---

[146] و الأستاذ قطب، الذي لم يأل جهدا في الاعظام بشأن القرآن، و لم يــرض رضي الله عنه محاكمة نصوصه إلى حقيقة تاريخيــة، أو تفكريــة، فهو أقرب الضالين في تقدير القرآن، إلى الهدى؛ و إني أتمنى له تمـام الهداية، إلى أن لا يكون عنده مسألة جديرة بأن تسـمى حقيقة تاريخيـة، إذا كان كلام الله نزل على خلافها.

و قد كان وجود الشيء في القرآن حجة عند المسلمين بصحته، لا تعدلها حجة، و لا يتناولها تأويل؛ إلا إذا كان الحمل على ظاهره يستلزم محالاً عقلياً، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:5]، و ﴿وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾[الفجر:22].

فإذا لم يقتض وجودُ شيء في القرآن صحته، و وقوعه، مع كون وقوعه في متناول قدرة الله، لعدم استلزامه المحال العقلي، بمجرد استبعاد المستبعدين الذين لا يقدرون الله<330> حق قدره، ولا القرآن -الذي هو كلام الله- حق قدره، و لا سعة حدود الممكنات -التي يدخل جميعها تحت قدرة الله- حق قدرها...

فماذا يكون معنى قداسة القرآن التي يعترف بها الأستاذ قطب؟

و ما يكون الفرق بين كلام الله، و كلام البشر؟

أم القداسة المعترَف بها للقرآن لا تبلغ مبلغ أن يكون كلام الله؟

فهذه النقطة المنتهى إليها الكلام هي منبع جميع المشكلات، و الشبهات في موقف القرآن، التي تنتاب أفكار العصريين من كتاب مصر، و علمائها بعد أستاذهم، و إمامهم الشيخ محم عبده، و التي تختلف شدةً و خفةً باختلاف أشخاصهم..!

و إذا فكرت و تعمقت في التفكير، فأدنى شك في قداسة القرآن، و أقل استبعاد لصدقه في جميع ما نص عليه يتمان على أنه شكٌّ في كونه كلام الله، بدلا من كونه كلام محمد ﷺ، يم يُعدى الشك بنبوته ﷺ، بل نبوة جميع الأنبياء، فيرتكز فيها، بل يتقوى، و يتحول إلى النفي البات بإنكار المعجزات، التي هي شواهد نبوتهم.

و قد اشتهر هذا الإنكار من كتاب مصر و علمائها العصريين، حتى ظن الدكتور توفيق الطويل -مدرس الفلسفة بجامعة فاروق- أن ابن خلدون شذ، فاعترف بالمعجزات من غير تأويلها، بما يخرجها عن كونها خارقة لسنة الكون، مع أن جميع علماء الإسلام متفقون قبل ابن خلدون، و بعده في الاعتراف بها من غير تأويل...

و ليس الشذوذ في ابن خلدون المعترفِ، بل في الأستاذ الإمام المؤول، إذ التأويل كما يخرج المعجزات عن كونها خوارق، يخرجها أيضا عن كونها معجزات؛ و لا يغرنك قولهم: [إن المعجزات غير القرآن شبهة لا حجة]؛ أنهم يعترفون بمعجزة القرآن باعتباره معجزة عقلية، و إنسانية، و خارقة -و قد سبق منا شرح قولهم هذا-.

كما أن ذلك الاعتبار الخاص منهم بالقرآن تسترٌ في إنكار معجزة القرآن، و هم ملاحدة مستبطنون كما وصفهم الأستاذ فريد وجدي بك -متظاهراً باستثناء نفسه من بينهم<331>- في قوله الذي أردده كثيرا في هذا الكتاب، لا مجاهرون، و إلا فإعجاز المعجزة ليس إلا في خرقها لسنة الكون... و لا بد أن تكون معجزة القرآن كذلك.

و عند ضم إنكار المعجزات التي هي شواهد صدق الأنبياء في دعوى نبواتهم، إلى عدم تصديق القرآن في كل ما حكاه عن الأنبياء و غيرهم، كما علم القارئ من رسالة الفن القصصي في القرآن....

ثم تجريد النبي في التعريف، الذي ذكره الشيخ محمد عبده له، من خواص النبي المعروف في الإسلام -لا سيما من أخص خواصه، الذي هو الوحي، و سيأتي بحثه في هذا الكتاب-؛ ثم إنكار وجود الملائكة الذين ملك الوحي منهم، و تأويلهم بالأرواح و القوى...

ثم النظر إلى اجتماع هذه الإنكارات في الشيخ، يكون الإنسان معذوراً في سوء ظنه بدين هذا الشيخ -الذي هو أستاذ و إمام عصر الفتن الدينية بمصر-، و سند مؤلف رسالة الفن القصصي، و أستاذِه المشرف على رسالته؛ سندهما الذي أصمت اسمه ألسنة الثائرين عليهما؛ موجها ذلك الظن السيء، الذي يكاد أن يكون يقيناً، إلى إيمانه بالنبوة؛ و قد عرفت ماهية هذه الإنكارات، عدا إنكار الملائكة، و درجة منافاته لعقيدة الإسلام.

أما إنكار وجود الملائكة، و مثله إنكار وجود الشيطان، الذي لم يهمله الشيخ أيضا[147]، فإني لا أقضي العجب من جرأة الشيخ على هذا الإنكار من غير اكتراث منه بمصادمته لآيات جد كثيرة من القرآن، ناطقة بوجود طائفة من عباد الله تسمى ملائكة..

و لا يعنيني زيغ الشيخ و ضلاله في دينه، إذا اهتديت أنا و سلم المسلمو من سراية زيغه إليهم... و لكنه يعنيني كل العناية إذا رأيته يجر من ورائه الجيل الحاضر<332> من مثقفي المسلمين الذين سحرتهم شهرته في التجديد، و لم تكفل لهم ثقافتهم بالتمييز بين الحق و الباطل من الجديد...

و قد كان الإسلام القديم يسمّي الحادث بدعة، و يأخذ حِذره في انتقاء النافع منه، لا يغره كل ما هب و دب، و لا يقول لكل جديد لذة؛ قال الشاعر:

لكل جديد لذة غير أنني	وجدت جديد الموت غير لذيذ

فإن لم تُجْدِ عنايتي بوزن مبتدعات الشيخ محمد عبده في ميزان التحقيق، ماتستحقه من الاهتمام و الالتفات في الجيل الحاضر بمصر، لانفلات أزمّة عقولهم إلى تقليد الشهرة الواصلة إليهم من الغرب و الشرق... فسيهتم بها الجيل الآتي إن شاء الله، و هو شهيد على أني قد بلغت.

نصوص كتاب الله على وجود طائفة من عباده، تسمى ملائكة:

و هي جمع ملأك، على الأصل، لأن الهمزة متروكة بكثرة الاستعمال.. فلما جمعوها، ردوها، و هو مقلوب مألك من الألوكة بمعنى الرسالة... سُموا به لكون الطبقة العالية منهم رسلا بين الله و الناس؛ و قد اختلف علماء الإسلام في المفاضلة بين الملائكة و البشر، لكن الراجح تفضيل رسل البشر على رسل الملائكة، و تفضيل رسل الملائكة على عامة البشر، و تفضيل عامة البشر على عامة الملائكة، و الدليل على هذا الترتيب مذكور في الكتب الكلامية.

و على كل حال يوصفون بما يوصف به، ذوو العقول و الحياة يتلقون القول، و يقولون، و يخاطِبون كما يخاطَبون، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[التحريم:6]، و ﴿لا<333> يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾[الأنبياء:19].

و أول شاهد على ما قلنا تسميتهم بالملائكة، التي هي بمعنى الرسل، و قد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾[الحج:75]، و قد قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[فاطر:1] [148]، و المراد من السول في

---

[147] و فضيلة الشيخ شلتوت عضو هيئة كبار العلماء، و منكر وجود الشيطان غير مبتكر في هذا الضلال، بل تابع الأستاذ الإمام.

[148] كنت قرأت في (منبر الشرق) الأغر لرجل يكتب فيه الفينة بعد الفينة: [أن ما في كتب التفسير من الملائكة ذات الأجنحة، حديث إسرائيل، لا أصل له]؛ فلعل الرجل لا يقرأ كتاب الله، أو لا يعول عليه تعويله على أقوال الأستاذ الإمام.

قوله تعالى في سورة التكوير: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾[التكوير:19-23]؛ جبريل عليه السلام، و في وصفه بذي قوة مانع آخر عن تأويله بالقوة، و إلا كانت للقوة، قوة...

و مثله قوله تعالى في سورة النجم: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[النجم:5-11]؛ لأن المراد من هذا المعلم الشديد القوى أيضا جبريل...

فهل تصلح القوى التي أول بها الشيخ محمد عبده الملائكة، أن توصف بالتعليم؟

و لا ينحصر تعبير القرآن عن الملائكة بالرسل فيما ذكرنا؛ قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾[هود69-70] ؛ ﴿وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ<334> رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ...﴾[هود:77-81].

و في هذه الآيات دلالة ظاهرة على أن الملائكة مستعدون للظهور في غير صورتهم الأصلية، كما ظهر المرسلون منهم إلى قوم لوط في صورة أناس من الشبان الحسان.

فمن سولت له نفسه إنكار وجود الملائكة, و تأويلهم -من غير داع- بغير مانعرفه نحن المسلمين، و عرفنا القرآن أي القوى و الأرواح، و من غير اكتراث بما في تأويله من إلغاء جميع ما جاء به كتاب الله للملائكة من الأوصاف الكثير المختلفة، التي لا تنطبق على غير ذوي العقل و الشعور و الحياة، مثل: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[الأنبياء:26]، و ﴿الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[النساء:172]، و ﴿وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾[النساء:166]، و ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[غافر:7]، و ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النحل:32]، و ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[النحل:50]، ﴿لَايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[الأنبياء:27]، ﴿وَلَايَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:28]...، و جميع ما فيها من صيغ الجمع جمع العقلاء، و الضمائر ضمائر العقلاء؛ فهو[149] مجنون مصاب في عقله، إن لم يكن مصابا في دينه[150]<335>.

و هل لا يخاف منكر الملائكة قول القرآن: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[البقرة:177]، و قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾[البقرة:285]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾[النساء:136].

فهذه الآيات صريحة في كون الإيمان بالملائكة من أركان الإسلام، معدوداً في صف الإيمان بالله، و كتبه، و رسله، و اليوم الآخر.... و الشيخ محمد عبده، إمام، و أستاذ مصر الحديثة، ساه عن هذه الآيات المروعة أو لاهٍ.

و قد أدهشني مما كتب الطالب الجامعي المار الذكر دفاعاً عن رسالته في الفن القصصي، و أسوة بإنكار الأستاذ الإمام، كثيراً مما جاء في القرآن؛ قوله المنشور في (مجلة الرسالة، عدد 750)، عن إنكار الكاتبين لحسان الإنسان، الملازمين لجانبه الأيمن، و الكاتبين لسيئاته الملازمين لجانبه الأيسر: [هل ترى شيئاً من هؤلاء الملائكة مهما طال نظرك إلى جانبيك]، كأنه يتهكم، أو يعاند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الإنفطار:10-12]، و قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [ق: 16-18]﴾.

و الذين ينكرون وجود الملائكة بحجة أنهم لم يروا أحداً منهم إلى الآن فسيندمون: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[الفرقان:22]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[الأنعام:158]، يندمون؛ ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً * وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾[الفجر:21-22].

و أما نحن، فلا نؤول من هذه الآيات إلا مجيء الرب، لننزهه عن الأوصاف الجسمانية، كالحركة، و السكون، و نؤمن بما عداه كما ورد، من غير تأويل<336>.

آيات الملائكة في كتاب الله كثيرة جدا[151]، لا تنحصر فيما ذكرته بمناسبة الرد على أصحاب فتنة الفن القصصي في القرآن، الذين جرأهم على إيقاد نارها أقوال الشيخ عبده، قبل اثنتين و أربعين سنة في الخروج على نصوص كتاب الله، فنبذوها وراء ظهورهم، و تمسكوا بأقوال الشيخ.

و لهذا فإني بعد حدوثها، و تبين ما يعتمد عليه محدثوها، و مؤيدوها عند دفاعهم عنها، كتبت مقالة، و صوبت حملاتي فيها على الشيخ المذكور، و أرسلتها إلى (مجلة لواء الإسلام)، ثم سمعت أن صاحبها سعادة أحمد حمزة بك يأبى نشرها، قائلا: [أنا لا أنشر مقالة في مجلتي ضد الشيخ محمد عبده].

و هذا على الرغم من أني كنت تلقيت من سعادته، و هو متأهب لتأسيس مجلته، خطابا يبدي رغبته في مقالاتي، و كنت يومئذ كتبت جواباً أنصح له فيه، و أذكر نوع مجلة دينية، تحتاج إليها البلاد الإسلامية في أعصرها الأخيرة، ثم لا أدري ما بدا لي، فكففت عن إرسال هذا الجواب إليه، و اكتفيت بحفظه عندي..

إلى أن كتبت مقالتي في نقد مبادئ الشيخ محمد عبده، و أرسلتها إلى مجلة لواء الإسلام فلم تحظ بالقبول، فتبينت منه إصابتي في عدم إرسال مقالة النصح، و تبين

---

[149] جواب: "من سولت له نفسه"، في صدر الكلام.

[150] مفرطاً في احترام نصوص الله في كتابه..، و ليس بشيء ما يقوله أصحاب هذا المفرط المفترون بمقرراته مثل الطالب الجامعي، صاحب الرسالة الممقوتة، و أستاذه المشرف على رسالته: [إن إيمان المؤول يكون أقوى من إيمان المستسلم بنصوص القرآن في القصص و غيره من غير تأويل]؛ فأي الإيمانين أقوى من رجلين، يؤمن أحدهما بوجود الملائكة المذكورين في كتاب الله بأوصاف مختلفة، لا تنطبق إلا على الكائن الحي العاقل، فيؤمن بوجودهم طبق ما ورد في الكتاب من غير حاجة إلى تأويل بغيرهم عما ورد، و لا يؤمن أحدهما بوجودهم طبق ما ورد في الكتاب من غير حاجة إلى تأويل بغيرهم عما ورد، و لا يؤمن أحدهما بوجودهم إلا بتأويل بغيرهم إلى حد أنه ينفيهم، كأن قدرة الله لا تسع إيجاد المنصوص عليهم بعينه، لكون المؤول الغافل يظنه محالاً عقليا كما قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾[يونس:39].

[151] و هناك حديث مسلم، و أبي داود، و الترمذي، و النسائي: عن عمر بن الخطاب : «الإيمان أن تؤمن بالهل، و ملائكته، و كتبه، و رسله، و اليوم الآخر، و بالقدر خيره و شره».

أنه لواء الإسلام الذي يهمه الأسماء و الأهواء، أكثر من الإسلام نفسه، فقد يقوم واحد من علماء مصر يحارب العلماء، و يتجرأ على تغيير مبادئ الإسلام المعروفة عند المسلمين، و يقول: [إن وجود شيء في القرآن لا يقتضي صحته]، فيجيز له هذا اللواء ذلك، و لا يجيز أن يتجرأ أحد على المتجرئ.

و إني قد رأيت أن أنشر هنا مقالة النقد على الشيخ، و المقالة التي كتبتها جوابا لخطاب صاحب اللواء المتضمن طلب مقالات مني لنشرها في لوائه، و التي كتبتها، ثم لم أرسلها... رأيت نشر المقالتين هنا، بادئاً من ثانيتهما، ليحكم القارئ بيننا، ثم يحكم الله، و هو خير الحاكمين <337>.

المقالة التي كتبتها جواباً على خطاب سعادة الأستاذ أحمد حمزة بك:

ثم عدلت عن إرسالها إليه.

حضرة الأستاذ الكبير، صاحب مجلة لواء الإسلام الغراء، تحية و تكريما، ثم مباركة عطرة لأثركم الخطير، و سؤالا مرفوعا إلى الله تعالى أن يؤيدكم بتوفيقاته إنه سميع قريب مجيب.

و بعد؛ فإن مصر المحروسة، لم تعدم ذوي همة، من القادرين في العلم و الأدب، و المال تتابعوا بعد أن وضعت الحرب أوزارها في وضع الكتب، و إصدار الصحف و المجلات، بل سابقوا وضع الحرب أوزارها بوضعهم ذاك، كما لم ينقص هذه الموضوعات في جملتهم ما ينحو نحو الدين و يعني المسلمين.

لكن أعظم الواجب في التأليف و الإصدار، أن يسد فراغاً محسوساً، و يقضي حاجة ملحة من حاجات الزمان؛ فهل قام بهذه المهمة في ناحية الدين أحد المؤلفين، و المصدرين في هذه الأيام الأخيرة؟

و لا أعد من القيام بها ما كُتب، أو يُكتب في هذه الناحية، و يهدف إلى التزيد في المعلومات، أو الحث على الباقيات الصالحات، و الردع عن المنكرات، لأن حاجة الزمان في مسألة الدين غير هذا، و أهم من هذا.. ألا و هي مسألة الفصل في أمره، و وضعه من أساسه إلى الميزان، حتى ينجلي الحكم و الحسم في هل له أصل ثابت يقوم عليه، كما كنا نحن المسلمين نعتقده غير مدخرين في سبيل الاحتفاظ بهذه العقيدة كل نفيس و رخيص عندنا، و شاركَنا فيها الجادون من أهل الأديان الأخرى... أم إنه خرافة من الخرافات يُعد استمرار العاقل في التمسك بها غفلة، و رجعية لا تليق بعصر العلوم؟

و لا يقال لي: من أين هذا الاحتمال المظلم، المتشائم في موقف الدين، حتى يلزم أن يحتاج المؤمنون به إلى وضعه في الميزان، ليكونوا على بينة حاسمة من أمره؟

إذ مما لا شك فيه، و لا مساغ للتغاضي عنه أن دين الأجيال الأخيرة من المسلمين، بل من جميع المنتمين <338> إلى الأديان، أصابه ضعف ظاهر في نفسه، يرى آثاره أولا: في إهمال العبادات، أو الاجتراء على المحرمات، المسفِرَيْن عن التقصير، و التفريط في معاملاتهم مع الله، ثم يرى آثار ذلك الضعف في ضياع الأخلاق، التي يقول عليها نظام معاملات الناس بعضهم مع بعض.

و مما يلفت إليه أن هذا العضف في الناحيتين، إن كان يبدو الثاني منهما كثيرا بين العامة، فالأول يبدو كثيرا، و واضحا بين الخاصة، و لا سيما الخاصة المثقفة العصريين....

فلا يوجد من يصلي، و يصوم فيهم إلا نادراً، و لا يُسمع صوت الأذان في دور الوزارات، و كليات الجامعة، و سائر المدارس الحكومية، يدعو الموظفين، و المدرسين، و الطلاب رسميا إلى الصلاة بالجماعة في مساجدها التي لا بد أن تشتمل عليها تلك الدور، و المحافظون على الأخلاق من الخاصة المثقفة، إنما يحافظون -أو يتظاهرون بها- لئلا يكونوا شر مثال للعامة، الذين يحتاجون إلى كونهم محافظين أكثر منهم أنفسهم، ليستقر الأمن في المجتمع.

بل الواقع أنهم إذا اعترفوا بلزوم الدين نفسه، فإنما يعترفون بلزومه للعامة، و لا يؤمنون به لأنفسهم، و لا بلزومه للعامة إلا ليكون واسطة إلى حفظ أخلاقهم، فكأنهم أنفسهم ليسوا في حاجة إلى الدين، حتى للاحتفاظ بالأخلاق...

مع أن الأخلاق لا تستقيم بلا دين، و لا يكون الدين المقصود لغيره دينا صحيحا، و لا واسطة يوثق بها في حفظ الأخلاق، كما لا يصح الاعتماد على دين العامة و صلاحهم، من غير دين في الخاصة، و لا صلاحٍ يقوم على الدين، أو بالأصح من غير دين في الحكومة.

فعدم الدين في الخاصة المثقفين، الذين تتشكل الحكومة أيضاً منهم، منشأ كل شر و فساد في المجتمع، و الدين مع ضعف و شبهة في العقيدة مساو لعدم الدين.

و لا ينفع في معالجة هذا المرض الاجتماعي نشر المقالات الناصحة في الصحف و المجلات، إذا كان الفساد في الكتاب الناصحين... فهم يكتبون ما يكتبون، إما لينالوا فيه مكسبا، أو ليعمل به غيرهم.

و ما دامت الخاصة العصريون على شك في عقيدتهم الدينية غير مثبتين -و يكون أكثر الكتاب<339> منهم في زماننا- فلا بد أن يكونوا متخبطين فيما كتبوا، أو غير مأمونين من التخبط، فلا خير للمجتمع منهم، و من العامة، التي لا بد أن يكون لزيغ الخاصة تأثير فيهم.

فأعظم الواجب لكاتب الزمان في الدين تصحيح عقيدة الخاصة، و حاجة الأمم الإسلامية الأولية اليوم ترتكز في الاهتمام بمداواة خاصتهم قبل عامتهم...

حتى إن أخطر مرض اجتماعي في الزمن الحاضر -و هو الشيوعية و البلشفية- و إن كانتا تأخذان مادتهما و قوتهما من العامة، و يتظاهر دعاتها بادعاء أن كل الكسب فيهما للعامة، لكن الرأي و التدبير في نجاح الثورة الشيوعية و البلشفية، و تمشية نظامهما بعد النجاح يكون التعويل فيهما على عقول الخاصة الماكرين، و هما نفسهما من شباك الصيد الجديدة لهم المنصوبة للعامة و الخاصة.

و لنا أن نقول في تحليل المرض الحاضر إن الخاصة المثقفين كان يوجد فيما بينهم قِدْما مقصرون في العبادات، و المجترئون على المحرمات، و مع هذا لم يكن مستوى الدين في المجتمع نازلاً إلى هذا الحد، الذي نراه في الأجيال الأخيرة بعد أن اتصل الشرق الإسلامي بالغرب، و أتت منه إلينا مع أنواع الملاهي المتنافية مع الدين من ناحية العمل، عقليات أفسدت عقيدة الدين، و أصبح تأثير هذا الوباء الثاني ظاهراً في الخاصاة المثقفة.

فأخذ الذين كتبوا في الصحف و المجلات، ليدلوا الناس بأقلامهم على الطريقة الحديثة، التي يجدر بهم أن يسلكوها، يضلون طريق الهدى، و يحتاجون إلى من يدلهم عليها، و حق أن نقول -كما يقال: "حاميها حراميها"- هاديها معاديها.

و قد سبق قبل أكثر من بضع عشرة سنين أن كتب الأستاذ فريد وجدي بك في (الأهرام): [أن العلم الحديث،

الذي نجم في الغرب و دالت إليه الدولة في الأرض، قذف بالأديان جملة إلى عالم الميتولوجيا "الأساطير"، حتى إن الشرق الإسلامي لما اتصل بالغرب و علومه، و رأى دينه ماثلا فيها مع سائر الأديان، لم ينبس بكلمة، لأنه يرى الأمر <340> أكبر من أن يحاوله، و لكنه استبطن الإلحاد، متيقنا أنه مصير إخوانه كافة، متى وصلوا إلى درجتهم العلمية...].

كتبه حضرة الأستاذ الذي هو اليوم ترجمان لسان الأزهر، و قرأه القراء المسلمون بمصر، فلم ينبسوا هم الآخرون بكلمة إلا راقِم هذا الخطاب، فإني نبست، و ما حبست لساني، كما لم يرعني سلطان دولة العلم الحديث أن أنصب من قلمي العربي الأعجمي رقيبا عليه، يناقشه الحساب على قذفه بديني العزيز إلى عالم الأساطير...

اتخذت كلام الأستاذ هذا -الذي قاله لا حسرة على الدين، بل تلقينا لليأس على ناصريه- حجة ضده أردد ذكرها في كتبي عند كل مناسبة، و أندم الأستاذ في سره ألف مرة، على ما قاله، و إن لم تكن الندامة على فرطاته عادةً له.

قال الأستاذ حديثاً -بالنسبة إلى قوله الأول-، في مقالة نشرها في (مجلة الرسالة): [صرح علماء القرن الثامن عشر، و التاسع عشر، بأن عهد الدين قد انقضى، و أن بقاءه على الأرض مرتبطٌ ببقاء السذاجة العامية، فإذا نشر العلم رواقه على العامة، زال الدين، كما يزول كل ما ليس له أصل ثابت يقوم عليه] [152].

و لا يستطيع الأستاذ أن يعتذر عن هذين القولين، اللذين نقلناهما، بأن ذكرهما حكاية للحالة الواقعة، ثم ذيل كلا منهما بما يراه لتلافي ما فات... لأن ما ذكره في ذيلهما من هذا القبيل -و قد سبق نقله بنصه- لا يغني فتيلا عنه، و بعيد كل البعد أن لا يدركه الأستاذ، لكنه الدس، الذي لا يتركه -كما ذكره أيضا فيما ذكره مع قوله الأول-، عازيا إلى نوابغ الكتاب و الشعراء في البلاد الإسلامية، المستبطنين للإلحاد.

الحاصل: أن نوابغ الكتاب العصريين في الشرق الإسلامي -و الأستاذ منهم- إن كتبوا عن الدين، فإنما يكتبون فتاًّ في عضده، و دساًّ للشر في خيره، و لا خير للدين <341> فيهم، فهم ليسوا من أنصاره.

و إني اقتصرت في الكلام عن موقف الدين، و مركزه الحاضر في قلوبهم، على أقوال كاتب واحد، هو الأستاذ فريد وجدي بك، باعتبار أنه كاتب مجلة الأزهر، و خطيب منبره في عهد شيوخه الأربعة الأخيرين...

فإذا سمعنا انقطاع الأمل عن بقاء الدين، في غير قلوب العامة السذج الجهال، و زواله عن قلوبهم أيضا عند بسط العلم رواقه على الجميع، كما يزول كل ما ليس له أصل ثابت يقوم عليه؛ فماذا نؤمل من الخير للدين فيما نسمعه من الكاتبين الكرام بعد كلام كاتب الأزهر.

و سبب كل ذلك أن هؤلاء الكتاب يريدون أن يمشوا وراء العلم الحديث الذي أذّن مؤذن بينهم، أنه لا يعد الأديان إلا أسطورة من الأساطير، و لم ينكره الباقون عليه.

و لعل سعادتك تقول لي: ما بالك في اقتصار الكلام عن موقف الدين على ما سَمِعتَه، أو تسمعه من الكتّاب، و لو كان في طليعتهم كاتب (مجلة الأزهر)؟ و على علم هؤلاء الكتاب الحديث، الذي هو داعيهم إلى الانصراف عنه؟ أليس هناك علماء الأزهر، و علومهم المؤيدة للدين، و على رأسها علم أصول الدين المسمى بعلم الكلام؟

و جوابي عليه: ماذا تقول سعادتكم أنتم، إذا كان حضرة الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر نفسه قاضيا على هذا العلم في مجلته قائلاً: [فإذا كان في الأرض دين تأبى طبيعته أن ينشأ فيه علم الكلام، فهو الإسلام...].

ثم إن الأستاذ محمد صبيح الذي نشر في الماضي القريب كتاباً عن الشيخ محمد عبده، مسمًّى باسمه، يقول في ذلك الكتاب: [إن الشيخ لم يُبق على علماء الأزهر و علومهم، و كتبهم جميعاً، و لم يستثن منهم أحداً إلا فضحه في الامتحان العام الذي تحداهم به..]؛ و بقي هذا العار إلى يومنا هذا غير مغسول عن هؤلاء العلماء و علومهم و كتبهم، يجدد الكتاب من أمثال الأستاذ صبيح ذكراه الفينة بعد الفينة.

فيفهم من هذا أن الدين و العلم القديم الذي يقوم الدين عليه، و العلماء القدماء الذين يحرسونه، قد أبيد كلهم من زمان، بمؤامرة فتحت الحصن من داخله، باتفاق من شذ منهم <342> مع المؤامرين، ليحصل على مكانة عظيمة عندهم، يحتفظون بسمعته، و يسبحون بحمده على مر الزمان.

و قد ساعدت المؤامرة المختلطة الماسونية المعروفة بمبادئها ضد الدين، فكان لانتساب أقطاب الأزهر إليها منذ عهد محمد عبده، و جمال الدين الأفغاني، مما لم يُعهد مثله في علماء تركيا، معناه.

فمات الدين، و علمه القديم، و علماؤه القدماء، و أصبح الذين على قيد الحياة منهم، في حكم الموتى، و قام مقامهم علماء أحداث[153]، متمسكون بالعلم الحديث، الغربي، الذي لا يؤمن بغير المحسوسات، فلا يؤمن بالله، و ملائكته، و كتبه، و رسله، و اليوم الآخر؛ لكون كل منها لا يمكن إثباته في زماننا بالتجارب الحسية.

و قد نقل أستاذ (مجلة الأزهر)، في مقالته المارة الذكر هنا، و المنشورة مقالةً افتتاحية في (مجلة الرسالة)، قبل سنين؛ و كان عنوان المقالة (الدين في معترك الشكوك)، عن أستاذ علم النفس في كمبردج: [أن هذه المباحث لا يجوز أن تبنى على التأكيدات التي صدرت من هذا الوحي، أو ذاك، بل يجب أن تؤسس ككل بحث علمي بمعناه الصحيح على تجارب يمكننا تكراره اليوم، مؤملين أن نزيد عليها غداً، و يكون الدافع إليه هذه القضية: إذا كان يوجد عالم روحاني ظهر للناس، في أي عهد كان، فيجب أن يكون كذلك قابلاً للظهور في أيامنا هذه]؛ نقله الأستاذ مصدقا، و محبذاً لما يتضمنه من عدم الإيمان بعقائد الإسلام الأساسية.

و ليس الأستاذ فريد وجدي بك صاحب المقالة وحيداً في هذا التصديق و التحبيذ، بل معه كل من لا يؤمن بمعجزةٍ غير القرآن، بحجة عدم كونها في متناول التجربة الزمنية، حتى إن معه الأستاذ الأكبر المراغي، مقدم كتاب هيكل باشا (حياة محمد)، المجرد عن المعجزات، و مستبدع قول البوصيري<343>:

لم يمتحنا بما تعيى العقول به،	حرصاً علينا، فلم نرتب، و لم نهم

و معه أيضاً فضيلة الشيخ شلتوت، الذي ينكر وجود الشيطان، لعدم وجود من رآه في الزمان الحاضر.

فتبين من هذا أن الفتنة المثارة ضد الدين، الواصلة إلى حد إنكار وجود الله، لعدم كونه أيضا في متناول التجربة

[152] و حول هذين القولين اللذين نقلتهما أقوال أخرى للأستاذ نفسه، تماثلهما، كففت عن نقلها هنا، اكتفاء بأني اشتغلت بنقدها في غير الخطاب.

[153] كما قال الدكتور زكي مبارك في مقالة له منشورة في (مجلة الرسالة): [انزعنا راية الإسلام من أيدي الجهلة، و صار إلى أقلامنا المرجع في شرح أصول الدين].

الحسية، أو لكونه لا يزال محلا للشك في وجوده على الأقل، أو لعدم الاعتراف بثبوته علميا...

و إنكار معجزات الأنبياء الخارقة، المستلزم لإنكار النبوة لكونها أيضاً من الخوارق، التي لا نقدر على تجربتها في هذا الزمان -و كل هذه الإنكارات مروق من الإسلام-، طمّت، و عمّت كبارَ علماء الأزهر الجدد، و أكبرَ كبارهم بعد الكتاب المصريين، و المؤامرة المحبوكة للقضاء على الدين قد أحكمت لحمتها، و سداها، و شد أزرها بالعلم الحديث، و علماء الدين الأحداث، فتهيبها العلماء الأزهريون الباقون على عقيدة الإسلام، و سكتوا، و لم يكن سكوت البعض منهم تهيباً، بل إسرافاً في حسن الظن بالمؤامرين، و إبطاءً في فهم مراميهم، لعدم كونهم مجاهرين في محاربة الدين.

و إني أرسلت مقالة إلى (مجلة الثقافة) قبل بضع سنين، للدفاع عن معجزة رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، التي أنكرها فضيلة الشيخ شلتوت، رغم صراحة القرآن في أمره..

أنكرها اتباعاً لقواعد العلم الحديث الغربي، في عدم الاعتراف بالخوارق، و إن تعلل في إنكاره بأسبابٍ أخرى واهية، فلم تنشر مقالتي...

و أرسلت مقالة أخرى قبل سنتين إلى (مجلة الرسالة)، للرد على مقالة الأستاذ فريد وجدي بك، المنشورة فيها بعنوان: (الدين في معترك الشكوك)، كما مر ذكرها... فلم تنشر أيضاً.

و كل هذا من شواهد الاهتمام بإحكام المؤامرة من المؤتمرين... فنشرتُ (كتابي القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب، و الذين لا يؤمنون)، بدل المقالة غير المنشورة في (مجلة الثقافة)، فكان له تأثير بالغ في قلوب من قرأوه من أصحاب التمييز و الإنصاف، و تأثير من نوع آخر في قلوب محاربي الدين دفعهم إلى وضع سياج من السكوت حوله<344>، محجمين عن محاربته، أي محاربة كتابي، لئلا تتسع دائرة إطلاع الناس عليه، و إن كان الكتاب يوسعهم ضرباً موجعاً بحملاته المقابلة....

و ليس هذا الكتاب إلا جزءاً من الكتاب الكبير، المنطوي على ما يقرب من ألفي صفحة، أو يزيد عليهما، و الذي يدخل معترك الشكوك، أو بالأصح معترك التشكيك، و يكافح المشككين، و علمهم الحديث، الذي اتخذوا منه دعامة لشكوكهم، و يقف كلا من هذا العلم، و علمائه عند حدودهما... و إني أريد نشر هذا الكتاب من زمان، فلا أستطيعه بسبب غلاء الورق، و مصاريف الطبع.

و بينما أنا في هذه الحالة، جائني كتابكم الكريم، يطلب مني مقالات لمجلتكم الإسلامية الغراء، لكن مقالاتي التي تكرمتم بتقديرها، مهما اجتهد في تهذيبها الإسلامية الغراء، لكن مقالاتي التي تكرمتم بتقديرها، مهما اجتهد في تهذيبها، فذهني متعلق بالكتاب، و هو أجدى منها لحاجة الزمان، التي سعيت في هذا الخطاب لتوضيحها.

و كم يسرني نشر هذا الكتاب في مجلتكم منجما، لو كانت المجلة شهرية، ضخمة الحجم، و نشر منه في كل عدد منها ما لا يقل عن ملزمتين... و كل من المجلة و الكتاب يساعد بعضهما بعضاً، و يزيد في انتشاره بدلا من أن يضره.

و ليس معنى هذه الرغبة مني أن أحصل على طبع الكتاب في ضمن طبع المجلة، و أستغني عن طبعه مستقلا بعد انتهاء نشره بالمجلة في عدة سنين، فإذا قرأتموه مجزأً في أعداد المجلة، و أعجبتم به أنتم، و قراؤه، ففي إمكاننا نشره ثانياً على شكل كتاب مؤلف من ثلاثة، أو أربعة أجزاء، و مطبوع في مطبعة المجلة على حسابي.

و لا مؤاخذة في إطالة الكلام عن هذا الكتاب في أول تشرفي بمخاطبتكم، و إني قوي الأمل يف أن تكون خدمته للإسلام، و إعلاء كلمته علميا مضمونةً عند أولي الألباب، إن وفقني الله للاهتداء إلى طريقة معقولة في نشره بفضل تقدير من سعادتكم و اهتمام به<345>.

الأستاذ الإمام، و كتاب الله تعالى في كفتي الميزان[154]:

بمناسبة رسالة الأستاذ خلف الله، التي قدمها إلى كلية الآداب، بجامعة فؤاد الأول، فاستنكرها رجال من الجامعيين، و غيرهم لقولها بعدم لزوم الصدق، و مطابقة الواقع في قصص القرآن... و دافع عنها أستاذ البلاغة في الكلية الأستاذ أمين الخولي، و المشرف على الرسالة، استناداً على اتفاقها مع مقررات الأستاذ الإمام محمد عبده.

طلب إلي بعض أصدقائي من علماء الدين أن أدلي برأيي في الموضوع، فقلت قولي الآتي... باعتبار أن القرآن كلام الله، و كتاب المسلمين جميعاً على اختلاف أقوامهم، و أجناسهم، لا باعتبار أنه كتاب العربية الأكبر، كما سماه الأستاذ الخولي في مقالة وجهها إلى الأستاذ توفيق الحكيم، و نشرتها (أخبار اليوم).

قلت قولي الآتي، بعد أن تطور الموضوع، بإقامة الأستاذ الخولي، مؤيد الرسالة، سنداً لحسم هذا النزاع من مقررات الأستاذ الإمام... و كان حق الإنصاف يوجب عليّ أن أعترف بأن هذه المقالة قد نقلت مسؤولية الرسالة، و مسؤولية تأييدها، إلى عهدة الأستاذ الإمام، صاحب المقررات المذكورة، التي ينطبق عليها قول كل من كاتب الرسالة، و مؤيدها لاسيما مقرر الإمام القائل: [إن وجود شيء في قصص القرآن، لا يقتضي صحته]...

و الناقل يزعم أن الأستاذ الإمام، لا تصعد إليه المسؤولية، بل تتلاشى قبل أن تصل إلى مقامه البعيد...؛ يزعم هكذا، و لا يبالي أن يكون مع إمامه من الذين: ﴿إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:38]<346>.

قلت قولي هذا، و إني أرى الرسالة المستنكرة، و ما سبقها في مصر من الأحداث، و الفتن المماثلة الماسة بدين الإسلام، و عقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ محمد عبده... كلها ناشئة من الأسس، التي ابتدعها هذا الشيخ الملقب بالأستاذ الإمام... فلا مناص إذن للقضاء على تيار الفتنة من مصدرها، من أن تفصل الدعوى مع الإمام دون المؤتمِّين...

و كان هذا الواجب قد بقي منذ أمد بعيد على عاتق مصر، حملا ثقيلاً، و ديناً عظيماً، غير مقضي... و لعل هذا الوقت الذي تكافح مصر فيه داء الكوليرا، قدره الله لمعالجة هذا المرض أيضا، الذي هو وباء أفتك من وباء الكوليرا، قدره الله لمعالجة هذا المرض أيضا، الذي هو وباء أفتك من وباء الكوليرا، بحيث لو ترك على حاله لكان شر ميراث للأجيال الآتية، يظهر نكسه الفينة بعد الفينة، و يشتد بأسه عليهم، حتى يكفي لأن يأتي بنيانهم من القواعد فينهار به في نار جهنم.

[154] مقالة أرسلتها إلى (مجلة لواء الإسلام)، فلم تنشر.

كان المسلمون قبل عهد الشيخ محمد عبده على طول ثلاثمائة و ألف عام يؤمنون بالله، و ملائكته، و كتبه، و رسله، و معجزات رسله، و بكل ما ورد في نصوص كتاب الله، و سنة رسوله السليمة الإسناد، من الأوامر، و النواهي، و القصص، و أحوال الآخرة..

و كان لهذين الركنين الأساسيين لدين الإسلام مهابة عظيمة، في قلوب علماء الإسلام، ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾[الأنفال: 2]... لا يجترئ أحد منهم على تأويلهما، و العدول عن ظاهر نصوصهما، ما لم يترتب على الاحتفاظ بالظاهر محال عقلي، خارج عن متناول قدرة الله، الذي خلق بها السماوات و الأرض....

و كان مما لا يطوف ببال أحد أن ينكر وجود الملائكة، و وجود الشيطان الرجيم، الذي نعوذ بالله منه في أول كل صلاتنا، و الذي تأبى صفة الرجيم و سائر الأوصاف الحية له، المذكورة في القرآن تأويله بدواعي الشر.. مع أنه لا مانع قطعياً، و عقلياً من أن يُتصور هذا الشيطان الرجيم كائناً حيا، كما وصفه كتاب الله....

و لم يكن المسلمون في تلك الأعصار الطويلة يعتريهم أي شك في وجود الأنبياء، و تأييدهم من عند الله بالمعجزات الخارجة عن طوق البشر.... فكانوا يؤمنون من غير تردد بأن الله تعلى كلم موسى ﷺ، و منحه يداً بيضاءً، و عصاً تنقلب<347> حية إذا ألقاها، تلقف ما يأفكه سحرة فرعون... و لما ضرب بها البحر شقته إلى أفراق، كل فِرق كالطود العظيم، ففتحت له و لمن معه من بينها طريقاً في البحر يبساً، اجتازوه، و غيرق فرعون و جنوده الذين اتبعوه في البحر....

و يؤمنون بأن عيسى ﷺ ولد من غير أب، و كلم في المهد صبيا، و أبرأ الأكمه، و الأبرص، و أحيا الموتى بإذن الله، فلما أراد اليهود قتله، و صلبه، رفعه الله إليه، و سوف ينزله في آخر الزمان.

و إن إبراهيم ﷺ بنى له قومه بنياناً، و ألقوه في الجحيم فلم تحرقه النار، و أصبحت بأمر ربها برداً و سلاماً عليه....

و انشق القمر لمحمد صلوات الله و سلامه عليهم، و أصبحت بأمر ربها برداً و سلاماً عليه...، و انشق القمر لمحمد صلوات الله و سلامه عليهم، و اسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، و أمده الله في غزواته بآلاف من الملائكة مردفين، و مسومين....

حتى جاء الأستاذ الإمام، فوضع منهاجاً عجيباً، لتأويل النصوص، يمثِّل باسم النهضة الدينية الحركة القهقرية، أمام خصوم الإسلام الغربيين، المسلطين على كتابه، و يلقي الشك في قلوب المسلمين، الذين يعتقدونه كتاباً منزلا من عند الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلف... قائلاً: [إن وجود شيء في القرآن، لا يقتضي صحته].

و بهذه النهضة المعكوسة، و الحماسة الضالة المأثورة من الإمام، قال تلميذه الشيخ صاحب المنار فيما كتبه دفاعاً عن (كتاب حياة محمد)، لمعالي هيكل باشا: [إن المعجزات شبهة، لا حجة].

و بتلك الحماسة أيضا اتهم معاليه في الطبعة الثانية لكتابه، جميع ما في كتب الحديث من أقوال رسول الله ﷺ بشبهة الكذب، و كان هذا التشكيك العام منه في كتب الحديث، للتوصل إلى إسقاط أحاديث المعجزات من حيز الاعتماد و الاعتداد.

و بتلك الحماسة أيضا اتهم معاليه في الطبعة الثانية لكتابه، جميع ما في كتب الحديث من أقوال رسول الله

بشبهة الكذب، و كان هذا التشكيك العام منه في كتب الحديث، للتوصل إلى إسقاط أحاديث المعجزات من حيز الاعتماد و الاعتداد.

و قد ارتكزت فكرة إنكار معجزات الأنبياء في قلوب العلماء الأزهريين من تلامذة الإمام، و فيهم من تولى مشيخة الأزهر... حتى شجع هذا الاستخفاف الموروث بنصوص الكتاب و السنة، بعضاً منهم على إنكار رفع عيسى إلى السماء المنصوص عليه في القرآن و نزوله في آخر الزمان المذكور، في ستين حديثاً، رواها ثلاثون صحابياًّ... كما شجعته مقررات الإمام في المغيبات إلى نفي وجود الشيطان... و أصبح إنكار<348> الخوارق عادة مألوفة بمصر عند المتعلمين بعد انتشار مبادئ الإمام و اشتهاره فيما بينهم، حتى إن معجزة القرآن الخارقة لسنة الكون، و لو بالنظر إلى نزوله من عند الله بواسطة الملك، ينكرونها أيضاً، أو يلزمهم، و يفهم من أقوالهم إنكارها.

إن علماء الإسلام يؤمنون بجميع ما نص عليه القرآن من قصص الأنبياء، و معجزاتهم التي تدخل أيضا في قصصهم، و أحوال الآخرة مثلهما في إيمان العلماء بها، كما ورد في القرآن، و لا يتصورون وجود أي شيء فيه يخالف الواقع، و يحتاج إلى التأويل و التغيير، لأن هذه المذكورات إخبارات لا تحتمل حتى النسخ من عند الله، و إلا كانت كذبا، أو جهلاً يجب تنزيهه تعالى عنه..

و عقيدة المعجزات الخارقة لسنة الكون -و لا بد أن تخرقها لتكون معجزة- تنبني على ثلاثة أسس:

الأول: الاقتناع بأن الله الذي خلق المعجزة -لا النبي الذي تظهر على يديه- قادر على أن يخلقها، أعني أنها ليست مما يستحيل عقلا، حتى تكون خارجة عن متناول قدرة الله.

و الثاني: أنها -فضلا عن إمكانها في حد ذاتها-، يشهد كتاب الله الذي لا يجيز العقلُ أن يحوم حوله الكذب، بوقوعها... فيمنك أن يكذب التاريخ، أو يخطئ، و لا يمكن أن يكذب الله، أو يخطئ....

و من شك في صدق وقوع ما أخبر به الله، من غير مانع عن وقوعه يتصوره في عدم إمكانه عقلا، أو عدم كفاية قدرة الله على إيجاده، فهو كافر... و هذان الوجهان لعقيدة المعجزات يجريان في قصص القرآن غير المعجزات، و يجريان في أحوال الآخرة أيضا..

و الثالث: حاجة الأنبياء إلى المعجزات ليستندوا إليها في دعوى نبوتهم، و في دعوة الناس إلى أن يثقوا بهدايتهم..

فهذه الحالة الواقعة من وجود المقتضى و عدم المانع، توجب علينا الإيمان بما نص عليه كتاب الله من معجزات الأنبياء، و قصصهم، و أحوال الآخرة... و الذين لا يؤمنون بصدق النصوص الواردة في القرآن متعلقةً بهذه الموضوعات، كما ورد فيه... و يحتاجون إلى تأويلها، فهم لا يؤمنون لمانع<349> ناشئ من ضعف دينهم، و عقولهم، التي تعتمد على أقوال المؤرخين، و المستشرقين من أعداء الإسلام و القرآن، و لا تعتمد على نصوص كتاب الله.

فعندما قارنتَ بين كتاب الله، و ما أشار إليه الأستاذ الخولي من مقررات الإمام الموجبة للتنازل عن الآيات المتعلقة بالشيطان، و الملائكة، و المعجزات، و القصص، بواسطة التنازل عن الاعتماد و الاعتداد بنصوص تلك الآيات...

و أضفت إلى ذلك الآيات الواردة في أحوال الآخرة من البعث بعد الموت، و الحشر، و السؤال، و وزن الأعمال، و

الصراط، و نعيم الجنة، و عذاب النار، المبتدئَيْن من القبر، و سائر المغيبات، التي لا تقبلها عقول الكتاب العصريين، المقيدة بالعلوم الطبيعية، التجربية، فينكرونها...

و قد فتح الأستاذ الإمام لهم طريقاً معبدة يقتحمونها رغم خطرها، في كل أمن و حصانة، و هي طريق التأويل، و تفسير النصوص تفسيراً يؤدي إلى إلغائها...

عند هذه المقارنة، لا يبقى جل آيات القرآن، إن لم يكن كلها، مستحقا لاعتقاد صدقه، و الاعتصام بمنطوقه، و يكون الباقي بعد التنازل: آيات التوحيد، كما يكون الكثير الذاهب أدراج الرياح: آيات معجزات الأنبياء، و قصصهم، و جميع المغيبات...

مع أن تلك الآيات الباقية، أعني آيات التوحيد أيضا تنهار بضربة تشكيك أخرى من العلم الحديث، المبني على التجربة، ثم لا يبقى بعد هذا التنقيح الثاني إلا آيات الفضيلة.

فكأن الأستاذ الإمام قرر العمل بما اقترح عليه الأستاذ فرح أنطون، منشئ (مجلة الجامعة)، عندما جرت بينهما مناظرة قلمية في ست مقالات من الطرفين[155].

و هو أن يختارا بعض الآيات من الإنجيل و القرآن فيعضا عليه بالنواجذ، ثم يدعا ما بقي بعد ذلك من الكتابين، تحت ستار مقدس... فيتفقا فيما بينهما على الآيات المنتقاة من الإنجيل و القرآن، و يعتبراها الإنجيل كله، و القرآن كله، ثم يتخذا لهما من تلك الآيات<350> المختارة ديناً أبديا معقولاً، ليس فيه سيف و لا نار، بل كله إخاء عام، و محبة مطلقة لجميع بني آدم...

و إن أنكر هذا التخصيص و الاختيار المتعصبون من أهل الكتابين.. فالدين الأبدي المعقول لا يوجد على رأي الأستاذ المقترح إلا عند القائلين بهذا التخصيص، و هم أنصار الفضيلة المفضلون على أنصار الديانات!!

و الآن، و بعد أن بلغ السيل الزبى، بحادثة الرسالة الممقوتة، المقدمة إلى كلية الآداب، بجامعة فؤاد، و التي بُني أساسها على فكرة احتمال الكذب، و الاختلاق، و الابتعاد عن الحقائق التاريخية في قصص القرآن، تمشيا في تلك الفكرة، مع أقوال المستشرقين، و المؤرخين...

بعد هذا، و بعد إعلان الأستاذ المشرف على الرسالة تضامنه مع صاحب الرسالة، في جميع ما تضمنته... إلى أن يقول: [إنها حق... ألقوا بي في النار]، ثم استقابل لائِميه من المسلمين الغيورين على دينهم، بنقل بعض كلمة من مقررات الإمام، يضم تضامنه إلى تضامنه، و يكون آخر كلام يقطع جميع ألسنة الملام.

بعد كل هذا، و إني يدعوني واجب النصيحة لله و لرسوله، و للمسلمين إلى أن أقول وقفاً لمكبري الأستاذ الإمام في هذه البلاد، عند حدودهم: إن المسلمين المصريين مضطرون إلى البت في أمرهم، باختيار أحد الدينين؛ فينتمون إليه، و يُدعَون به يوم يدعى كل أناس بإمامهم في الدنيا، دينٍ للمسلمين القدماء، يعتمد على نصوص الكتاب و السنة؛ و دين للأستاذ الإمام و المؤمنين به لا يعتمد عليها، فيلغي كثيراً منها، و يتصور الكذب، و الاختلاق في قصص القرآن.

و هم يعتمدون في ذلك على أقوال المستشرقين و المؤرخين من أهل الغرب، التي لا تتفق مع تلك النصوص، فتلجئ أصحاب الدين الجديد إلى الانصراف عما نطق القرآن بشأنها، و البحث عن طريق التأويل المتمشى مع أقوال الغربيين، مع الاهتمام بنفي الجهل عن سيدنا محمد بالتاريخ.

و هم ينسون كون القرآن كلام الله قبل أن يكون كلام محمد ﷺ...، و لو أن هؤلاء الغافلين اعتمدوا على أنه كلام<351> الله، كان تصور الحاجة إلى الإنصراف عن نصوصه، إعتناء بأقوال المستشرقين، و المؤرخين، الذين لا يمكن أن يكون لهم علم بالحقائق التاريخية، لاسيما ما يتعلق منها بالقرون الخالية، أصدق و أوسع من علم الله، تصورا في غاية الجراءة، و الضلالة.

على أن أنصار الدين الجديد لا يكفيهم التنصل من قصص القرآن للحصول على مرضاة المستشرقين، و المؤرخين من أهل الغرب، لأنهم لا يعترفون بنبوة سيدنا محمد ﷺ، و لا يمنحون القرآن رتبة كلام الله، مهما ضحّى ضعاف العقل، و الدين منا بنصوص القرآن في قصص الأنبياء، توفيقاً لآرائهم... كما قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة:120]، و قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[آل عمران:100]....

فيلزم الذين يرون لهم ضرورة تطبيق قصص القرآن و غيرها على آرائهم... أن ينكروا نبوة سيدنا محمد إرضاء لخاطرهم... و قد يجدون في ذلك أيضا سنداً لهم من قول الأستاذ الإمام الصالح لنفي النبوة عن جميع الأنبياء، يتم على ذلك تعريف النبي، الذي أتى به الإمام في تعليقاته على شرح الجلال الدواني للعقائد العضدية.. و كما يفهم هذا النفي من إنكار معجزات الأنبياء التي هي علامة النبوة، و حجة إثباتها.

فإذا انهدمت النبوة، بانهدام المعجزات، و تعريف النبي بما لا ينطبق على النبي المعروف في الإسلام، و لم يكن القرآن كلام الله، و لا كلام محمد النبي ﷺ، احتمل بالضرورة أن ينطق عندئذ محمد ﷺ مؤلف القرآن الذي هو بالنسبة إليه كواحد من المؤلفين، عن الهوى، رغم قوله فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾[النجم:3]، و إن كان الهوى الذي يحتمل أن ينطقه هوى فنان كبير عربي، و كان له أن يزين كلامه حول القصص عن الأولين، بطلاء من الأكاذيب... و إن كانت أكاذيب فنية -كما ادعاه صاحب الرسالة، و المشرف عليها- من صنع الشعراء الخياليين، الذين قال عنهم شاعر تركي<352>:

سرمايهٔ شاعران توكنمز	دنيا توكنير، يالان توكنمز[156]

و الذين لا يقام -إلا من طريق عد مؤلف القرآن منهم- وزن لاكتشاف صاحب الرسالة، و المشرف عليها، و مُلهمها في تبرير الكذب، و مخالفة الواقع، التي تصورها لآيات القصص...

و كل هذا على الرغم من أن القرآن يقول عن نفسه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[الحاقة:41]... إلا أن يقال عنه، و عن قوله المار الذكر قريباً: إنهما -و العياذ بالله- كذب في كذب!!!

فإذا كان القرآن كتاب فنان، لا يتقيد في كثير من آياته بالتزام الصدق، و مطابقة الواقع بل يسوقها كما يقضيه هوى الفن، الذي يكون مطمع النظر فيه جذب القلوب و الأسماع... فماذا هو المانع إذن من أن يأتي بمصر زمانه، يقرأ فيه القرآن بين عزف العود، و الدف، و الكمان؛ كما يقرأ اليوم بين عزفها قصائد في مدح النبي ﷺ.

مصطفى صبري

---

[155] و المقالات جمعها الأستاذ فرح، و أوردها في باب الردود من كتابه (فلسفة ابن رشد).

[156] معناه: لا ينفد، و لا ينتهي رأس مال الشعراء، لأنه تنتهي الدنيا، و لا ينتهي الكذب.

12- [شعر محمد إحسان المحامي]:

و إليك نموذج آخر من أشباه ما ذكرته في رقم (6)، يدل على رواج الفكرة اللادينية، و الابتكارات الدائرة حولها بمصر، و يؤيد طغيان العلم الحديث الغربي، أو بالأصح طغيان المفتونين به في الشرق الإسلامي على الدين بعدما حكاه الأستاذ فريد وجدي بك، من أن الدولة في الأرض دالت إليه...

و هو أن الشاعر محمد إحسان المحامي، نشر شعراً في (جريدة الإهرام) قبل سنوات، و لم ينكر عليه أحد من المسلمين، و لا من المسيحيين، و لا من اليهود، إما استئناساً بأمثاله في الجرائد، و المجلات العصرية، أو تهيبا لغلبة أصحاب الفكرة اللادينية، و أنصارها؛ مع أن الشعر كله كفر بالأديان، و استهانة بأنبياء<353> الله، و معجزاتهم تبجحاً من الشاعر بعلم الغربيين، و مكتشافتهم، التي لهم فضل اكتشافها، و للشاعر و أمثاله الشرقيين أن يطيشوا بمفاخر غيرهم، فيرموا دين آبائهم و أجدادهم في الأرض، كما ترى الأواني الزجاجية، و يعلن بكسرها السرور و المرح في مجالس السكارى السفهاء؛ و هذا هو الشعر المنشور في (الأهرام)، لناظمه محمد إحسان المحامي.

النبي الجديد، "أو نبوءة عن المستقبل":

قام في الناس نبي إنما	شأنه ليس كشأن المرسلين
وحّد الناس، و قد فرقهم	كافة الرسل على مر السنين
جاءهم من غير إنجيل، و لم	يأتهم بالوحي جبريل الأمين
لم يروا معْه عصا موسى، التي	تلقف الإفك، و سحر الساحرين
معجزات العلم، قد أوفت على	معجزات الدين في ماضي القرون
إذ أراهم كيف يُحيي علمه	ميتا، لولاه وارته المنون
خاطبوا المريخ، حتى إنهم	سمعوا المريخ في صوت مبين
و رأوا منه الذي أدهشم،	قدرة العلم على جنس الجنين
آمنوا بالعلم ديناً، و هدى،	ليس بعد العلم للأفهام دين

أراد بالنبي الذي فضله على الأنبياء صلوات الله و سلامه عليهم، العلم الحديث.

و نحن نرد عليه هفواته في أبياته، على ترتيب الأرقام:

(1) كذب الشاعر، والشعراء يكذبون و يتبعهم الغاوون، لم يفرِّق الناسَ رسلُ الله، و الأديانُ التي جاءوا بها من الله، و إنما فرقتهم فكرة القومية الجاهليةُ القديمة، و التي راجت عصبيتها في الأعصر الأخيرة أيضاً، حتى إن الأمم يقتتلون على المبادئ القومية، لا الدينية، و يساعد اقتتالَهم العلمُ الحديث بأسلحته الجهنمية، في حين أن الدين يعيب -و معه العقل- هذه العصبيات القومية، و الانقسامات الدولية، و يحرم عليهم التجارب و التقاتل في سبيلها.

أما تفريق الأديان بين معتنقيها، فهو لم ينشأ من طبيعة الأديان نفسها، و إنما الناس ابتدعوا هذا التفريق فيما بينهم، فيجب أن تكون تبعته عليهم، لا على الأديان، إذ لا تزاحم بين أديان الله في أي زمان من الأزمنة.

و توضيحه: أن الله تعالى منزل الأديان السماوية، لم يأمر اليهود و النصارى و المسلمين أن يكون كل طائفة منهم على دين ينتمون إليه، حتى يصح أن تعد الأديان مفرقةً بين الناس، و دافِعَتَهم إلى الخلاف بعضهم مع بعض، و إنما أمر الله أن يكون الناس في عهد كل رسول تابعين لشريعة ذلك الرسول، مجمعين عليها، و لم يكلفهم في زمان واحد بشرعين مختلفين، حتى يكون اختلاف الأديان سبباً لافتراق الناس، و انقسامهم على أنفسهم.

فلو كانوا امتثلوا أمر ربهم لأصبحوا في كل زمان على دين واحد، لكنهم لم يتفقوا في مراعاة واجب العهد الحاضر، فكان منهم من أصر في عهد عيسى على دين موسى الماضي، و لم يعترف برسالة عيسى، فحصل الخلاف بين اليهود و النصارى؛ و كان منهم من أصر في عهد محمد على دين موسى، و عيسى الماضيين، غير معترف بالإسلام، فحصل الخلاف بين اليهود و النصارى و المسلمين، و لا ذنب للأديان في هذا الخلاف، و لا للرسل صلوات الله و سلامه عليهم، و الدليل على هذا أن الرسل لا يختلفون فيما بينهم، و لا يكذب بعضهم بعضا.

فتبين أن دين الله واحد، في استطاعة كل إنسان أن يجتمع فيه مع جميع أبناء نوعه في كل زمان و مكان، بخلاف المبدأ القومي، المفرِّق الحقيقي بين البشر، فلا يمكن أن يكون العربي تركيا بكلمة واحدة، و لا الهندي ألبانياً، و لا الفرنسي ألمانيا، حتى و لو أرادوا أن يكونوا؛ و هذا على الرغم من كون كلهم، من نسل أب واحد، و أم واحدة<355>.

و كتاب الإسلام ينص على وحدة دين الله، و عدم التفريق بين رسل الله، و مبادئهم؛ فيقول: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[البقرة : 285]، و يقول: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى:13]، و التفرق في الدين سببه التفريق بين الرسل، و عدم الإيمان بجميعهم.

(2) فيه تعريض لسيدنا عيسى، و محمد عليهما الصلاة و السلام، و كتابيهما الإنجيل و القرآن، و لم يجترئ الشاعر على ما ذكر اسم الأخير في معرض الاستهانة، بصراحة.

(3) ماذا يريد أن يقول الشاعر؟

نعم، لم ير الناس بعد سيدنا موسى عصا تنقلب ثعباناً، و تلقف ما يأفكون.

(4) هذه الدعوى إنما تروج عند الجاهلين، بالفرق الأساسي، بين المعجزة و الصناعة، لأن الصناعة مبناها على العلم التجربي، مهما عظم أثرها، فهي تابعة للسنة التي اختارها الله في خلق الأشياء، و التي سماها الغرب اللاديني قوانين طبيعية، لا تتخطى إلى ما ورائها.

فأصحاب المكتشفات العلمية الراقية، لم يأتوا بالخوارق، و إن نعتت مكتشفاتهم بها مبالغة، لأنهم يحتاجون فيما يخترعون إلى التوسل بالأسباب الفطرية المواتية، و لا يزال هذا الاحتياج يبقى مهما ارتقى العلم.

و لا كذلك المعجزات، التي تخرج على تلك القوانين و تخرقها، فلا تحتاج إلى توسط الأسباب، فهي من صنع الله مباشرة، و لهذا يفوق أصغرها أعظم المخترعات العلمية، و يمتاز عليه بدلالته على أن من ظهر هذا على يده، فله صلة خاصة بالله، و رسالة منه إلى عباده.

و لقد أحسن المغفور له الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا، حيث قال في مقالته المنشورة في الجزء التاسع من المجلد السابع، من (مجلة الأزهر): [إرادة الخالق جل و علا ليست مقيدة بسنة أبدا، و لا نعلم من طريق إنجازها إلا<356> "كن فيكون"، و هذا هو الفرق الأساسي بين المعجزة، التي هي من صنع الله مباشرة، و بين أفعالنا المقيدة بالسنة الإلهية].

و لا يعرف الشاعر الجاهل، الذي استصغر معجزات رسل الله إكباراً للعلم، و مكتشافته، أن المعجزة شيء عظيم إلى حد أن علم الملاحدة يراها مستحيلة الوقوع، و من استصغرها تعظيما للعلم، فقد استصغر العلم الذي يستعظمها و ينكرها لاستعظامها.

فانظر ما قال هذا الغافل، و ما قال عبد العزيز إسماعيل باشا، تغمده الله برحمته... فقد أثلج صدري كلامه، و فهمه لحقيقة المعجزة، بين الكثرة الذين حُرموا هداية الفهم.

و لا أدري ماذا قال الأستاذ مدير المجلة، و رئيس تحريرها، لما قرأ مقالة الباشا؟

و الأستاذ من منكري المعجزات، كما عرفت مما سبق؛ و لقد أحسن الباشا المغفور له أيضا في التعبير بالسنة الإلهية، عما يتداول في ألسنة الكتاب المعاصرين بلفظ "الأسباب الطبيعية"، و هو التعبير الصحيح، و إن كنا قد نجاري الألسنة العصرية في هذا الكتاب، لكوننا في موقف التفاهم معهم على موضوعه.

(5) الضمائر غير ضمير "وارته" راجعة إلى النبي الجديد، القائم في الناس، و المفهوم أنه الغرب، و لو قلنا إنه العلم الحديث، و الضمائر راجعة إليه، كان للعلم علم.

و الشاعر كذب مرة ثانية في هذا البيت، لأن علم الغرب لم يُحي بعدُ ميتا كما أحياه المسيح عليه السلام، و لا يزال الطب يتضور عجزاً عن مداواة كثير من الأمراض بله أن يحيي الميت.

(6) الجنين ما استتر عن العيون، و كأنه أراد به الميكروبات التي لا ترى إلا بواسطة الآلات المكبرة.

و العلم، و إن كان استطاع رؤية بعض أنواعها، و الوقاية من بعض مضارها، فكم هناك منها ما لم يره، أو لم يتغلب عليه بعد رؤيته، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[المدّثر:31]<357>.

و يحتمل احتمالا بعيداً، أن يكون مراده من الجنين معناه المعروف، مما في بطون الأمهات، فيشير الشاعر إلى إمكان معاينته بواسطة ما اكتشف العلم، و ما يكتشف من الأشعة، و تعيين جنسه ذكراً أو أنثى.

ثم يحتمل احتمالاً أبعد، أن يحاول بهذا البيت معارضة كتاب الله، القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[لقمان:34]...

لكن الآية نزلت على سؤال بعض الناس الرسول عليه الصلاة و السلام، هل يعلم الأمور الخمسة المذكورة؟ فجاء الجواب بالنفي، يعني أن الله يعلمها، و لا يعلمها الرسول.

و فضلا عن هذا، فإن جواب القرآن أتى عن ثاني الأمور الخمسة، و ثالثها في أسلوب يختلف عن أسلوب الثلاثة الأخرى، و إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون.

فالشاعر أتى في شعره بما أتى من الفرطات، ثم نفى في آخره الأديان غير دين العلم، و صرح بأنه -أي العلم وحده- جدير أن يكون دين العقول و ذويها، يعني أن العلم يكفيهم و يغني عن الدين.

لكن العاقل يعرف أن قول الشاعر هذا ليس بقول ذي عقل، و فهم؛ و لنا عودة إلى التكلم على هذا الشعر إن شاء الله.

غير أني أقول هنا عن هذا الشعر المستهين بدين الله و أنبيائه، و معجزاتهم، إن صاحبه نشر أخيرا في جريدة الأهرام أيضا قصيدة بعنوان (فرنسا)، يبكي فيها على فرنسا، التي انهارت في أوائل الحرب الأخيرة، أما جيش الألمان، فقال في القصيدة، مخاطباً لفرنسا، و معظما لشأنها:

لولاكِ ما عرف الإنسان قيمته	لولاك ما أصبح الإنسان إنسانا

و كتب في هامش هذا البيت، أنه يشير إلى ما سبق للفرنسيين في ثورتهم المشهورة، من أنهم كانوا أعلنوا بياناً عن حقوق الإنسان.

و أنا لا أذكر ما تضمنته تلك الثورة من الأخطاء الفاحشة، و المظالم الطائشة، و ما<358> أعقبها، من انهيار المبادئ الدينية، و الأخلاقية، الذي لا بد أن يكون له تأثير في انهدام فرنسا في الحرب، كما لا يصعب فهم ذلك من تصريحات رجالها، الآخذين بزمام الحكم على أثر الانهدام، و الانهيار، و على رأسهم "المارشال بيتان"، و لا أذكر أيضا ما للفرنسيين أنفسهم بعد نشر ذلك البيان عن حقوق الإنسان، من استعمار البلاد، الذي لا معنى له، إلا استرقاق أهلها.

أما الذي أذكره، فهو أن الشاعر نفسه ما عرف قيمة إنسانيته، و إنسانية إخوانه، حتى بعد أن عرفت فرنسا قيمة الإنسان، حيث لم يتذكر حين تعبد لفرنسا بقصيدته أن معبودته استعبدت المغاربة، و من قبلُ السوريين، و هم إخوانه العرب.

فهل هم عرفوا قيمة إنسانيته بفضل سادتهم الفرنسيين، أم إنهم ليسوا معدودين من أفراد الإنسان عن الشاعر؟

و ليعرف هو، إن كان لا يعرف، أن قيمة الإنسان معروفة منذ نص كتاب الإسلام على قوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾[البقرة:30]، معروفة منذ قال لهم ذلك، و منذ أمرهم أن يسجدوا لآدم فسجدوا.

******* ***** ****** *****

فقد استبان القارئ مما قدمنا من الأمثلة الهامة، لاسيما البعض منها، الحائز لقوة أمثلة كثيرة، أن الرأي العام العلمي السائد في مصر مسموم، و هو يظل ينتحر بهذا السم[157]، منذ نشوب النقاش بين الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، و بين الأستاذ فرح أنطون، منشئ (مجلة الجامعة)، كما حكينا في (الرقم 3)، و عدم توافق الشيخ المفتي للتغلب على الأستاذ المنشئ.

فلو كان الشيخ صرع خصمه، الذي استمد في حملاته على مصارعه من دعوى أن العقل و العلم ينكران كل ما لم يثبت وجوده بالتجربة الحسية<359>، لما كان الأستاذ فريد وجدي بك يجترئ بعد أن شهدت مصر ذلك الصراع، و الصرع، و لم تنسهما، على أن يقول عند مناقشته إياي المنشورة قبل سنوات، على صفحات (جريدة الأهرام): [إن العلم الحديث الغربي، قذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير، و إن الشرق الإسلامي اطلع على هذا القذف، بعد اتصاله بالغرب، و علومه، و رأى دينه ماثلا بين الأديان المقذوفة بها، فأحجم عن مكافحة القاذف، و لم ينبس

---

[157] و إن كان تأثير السم في البعض النادر من المصابين المذكورين بأسمائهم، خفيفا يرجى له العصمة من الهلاك، بفضل إيمانه القوي، و لا يصعب على القارئ النبيه تعيين ذلك البعض.

بكلمة لأنه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله، و لكنه استبطن الإلحاد، و تمسك به، متيقناً أنه مصير إخوانه كافة، متى وصلوا إلى درجته العلمية!!!].

فدل هذا القول من الأستاذ على كثير من المعاني الخطرة، المتعلقة بحياة مصر الدينية.

و دل أيضا على أن الأستاذ فريد لا يعتد بما سبق للشيخ محمد عبده، المسمى الأستاذ الإمام من الدفاع عن الإسلام عند مناقشته الأستاذ فرح أنطون، بل لا يعده كلمة منبوسة.

و دل كون الأستاذ فريد -الذي جيء به عقب هذه الإفشاءات إلى رأس مجلة الأزهر- ترجمانا عن الشرق الإسلامي في استبطان الإلحاد، على أن اليأس عن الدفاع المستولي على الأستاذ، حتى بعد شهوة الدفاع الواقع من الشيخ محمد عبده، مستولٍ عنده على الشرق الإسلامي مطلقاً، حيث استبطن الإلحاد، و اختاره، بدلا من مكافحة العلم المسلط على دينه.

و هذا السقوط الديني للشرق الإسلامي، أفظع عندي، و أعظم خطراً، و أكثر مساساً بكرامته، من سقوطه السياسي، الذي جعل له في الدنيا موقف الذل، و التطفل على دول الغرب، فقد يكون له الحصول على ما يستحقه من المكان في الأرض بعد ذاك السقوط بوساطة السؤال الملحف، أمام تلك الدول و التفنن في الإلحاف، و ليس له بعد السقوط الثاني الديني إلا الحصول على مكان في جهنم، يتلو أمكنة تلك الدول؛ ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[سبأ:31]<360>.

فكأن الرأي العام، الذي كان يراقب النقاش الجاري بين الشيخ و بين الأستاذ فرح أنطون في حينها، و فيما بعد ذلك الحين، اطمأن إلى جانب الأستاذ فأخرج الدين من دائرة العقل و العلم، و بقي من بقي بعد هذا من المسلمين على دينه -إن لم يكن من العامة السذج- في عقيدة يساورها الشك في صحتها، و لا سيما في موافقتها العقلَ و العلم، أو يخالطها الحذر من وضعها موضع البحث و النظر، فلا ينبس بكلمة في هذا الصدد، كما قال الأستاذ فريد وجدي بك، و يخلي الجو للذين يتكلمون و يدسون في كلامهم ما يهيء الأذهان لقبول ما يستبطنونه، و يتمسكون به من الإلحاد، من غير مبالاة، و لا وجل من مغبة ما يدسون تيقناً منهم بأن مصير إخوانهم القارئين مصيرُهم متى وصلوا إلى درجتهم العلمية.

و أنت ترى منذ عهد الشيخ محمد عبده، الذي ناقشه، و غلبه في نقاشه -أو عده الرأي العام كذلك- الأستاذ منشئُ (مجلة الجامعة)، و مؤسس عقلية الإنكار في مصر، لما لا يشهد به الحس و التجربة، و مقدمها للناس على أنها شعار العلم و العلماء...

ترى أن هذه العقلية ارتكزت في نفوس المتعلمين، لحد أنه لم يبق شيء مما أنكره ملاحدة الغرب الماديون، إلا و أنكره هواة العلم الحديث بمصر، و لو كانوا من علماء الدين.

حتى إن فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت، عضو جماعة كبار العلماء، و وكيل كلية الشريعة أنكر وجود الشيطان، و ادعى كون المراد من الشيطان الوارد ذكره في القرآن نزعات الشر، المنبثة في العالم؛ ثم أيد إنكاره لما اعتُرِض عليه، بقول من الإمام الغزالي، يوهم عدم وجوده.

و الشيخ يعلم أن الكتاب و السنة لا يُنسَخان بقول الغزالي، فلهذا لا نشتغل بنقل قول الغزالي، و لا ببيان الفرق بين قوله تعالى، و قول الشيخ شلتوت، و إنما نقف على نص الأستاذ القائل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً﴾[النساء:117]: [معنى الشيطان: نزعات الشر المنبثة في العالم، على مقتضى سنة الله، من الابتلاء بعوامل الخير و الشر، فهم بذلك يتبعون قوة خفية، أطلق عليها كلمة "الشيطان"، جرياً على عادة<361> العرب المألوفة، أن كانوا يتصورون قوة شر شياطين تتحدث، و تناجي، و تغري، و تدفع إلى ما تريد].

و عندي أن السند الحقيقي، الذي لم يصرح به الشيخ العصري، قولُ العلم الحديث الغربي، غير المعترف بوجود أي شيء لم تشهد به التجربة الحسية، لا قول الغزالي، إذ لا داعي لتأويل ما يتصوره القرآن كشخص يؤمر بالسجود لآدم فيأبى، و يجاد الله لتبرير إبائه، بأنه خير منه، لكونه مخلوقاً من نارٍ، و أدم مخلوقاً من طين...، لا داعي لتأويل هذا الشخص بنزعات الشر، غير كون العلم الحديث التجريبي لا يؤمن بوجود شيطان غير مشهود.

و لا يلتفت إلى ما اعتذر به الشيخ بعد ذلك من أن القرآن ما عرَّفَنا بكنه الشيطان، كأن القول بوجوده يستلزم العلم بكنهه، فقد كفانا أن القرآن ذكر عنه أوصافاً و حالاتٍ لا تتفق مع تفسيره بما فسر به الشيخ، كقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي﴾[الكهف:50]، و قوله: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾[الأعراف:27]، و قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[ص:85]، و قوله: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[الحجر:34، ص:77]، و قوله: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[الأعراف:21]، و قوله: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[الأعراف:13]، و قوله بعد الآية التي فسر فيها الشيخ "الشيطان": ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً * لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً * ...﴾، ﴿....وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [النساء:117-120].

فهذه الآيات صريحة في أن الشيطان كائن حي، يتكلم، و يرى، و يتكبر، و يجادل، و يقسم، و ينسل، و يُطرد، و يُرجم، و يُعذب في جهنم مع الذين أغواهم؛ و رجم الشيطان من مناسك الحج في الإسلام.

و لوجود هذه التصريحات و أمثالها في القرآن بكثرةٍ، تجعل الشيخ<362> المنكر لوجود الشيطان مضطرا إلى الاعتراف بأن بيانات القرآن لا تتحمل ذلك التفسير المبتدَع.

نرى الشيخ يقول مناقضاً لادعائه بأن القرآن ما عرفنا بكنه الشيطان: [إن القرآن جارَى اعتقاد العرب في تصويره، كشخص يتحدث، و يناجي، و يُغري، و يدفع إلى ما يريد].

وهو جرأة شنيعة على القرآن الذي جاء للقضاء، على عقائد العرب الباطلة، جرأة تقلبه فتجعله ماشياً على عقائدهم، مؤيداً لها.

لم كل هذه التخبطات، التي لا يقوم صاحبها منها إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس؟

أليس دافع الشيخ الأزهري إليها، كونه اتخذ العلم الطبيعي الحديث، الذي لا يعترف بوجود ما لم يثبت وجوده بالتجربة الحسية، أساساً، و جعل كل شيء -حتى كتاب الله- تابعاً له؟

كما صرح به شيخ أزهري آخر، مدرس في كلية الشريعة، بصدد الدفاع عن الشيخ الأول، و كما هو أساس الداء العصري، الذي نضعه في هذا الكتاب تحت مشرح الدرس.

كان علماء الإسلام قبل حدوث العقليات العصرية يقبلون كل ما ورد في نصوص الكتاب، و السنة على ظراهرها، إلا ما تعارض منها مع العقل المحض، لا العقل التابع للحس؛ فعند ذلك يؤولون النصوص.

لكن علماء آخر الزمان يعاملون المانع الطبيعي معاملة المانع العقلي، و هم مخطئون في عدم التمييز بين العقل الذي يكون حكمه قطعيا، مستنداً إلى أحد المبادئ الأولى، و يكون ما ينفيه مستحيل الوجود، كشريك الباري، و ما لا ينفيه ممكن الوجود، و بين الطبيعة، و علمها الذي لا يكون ما اعترف به واجبا ضرورياً، و ما لم يعترف به مستحيلا، كما يأتي تفصيل كل ذلك في محله من هذا الكتاب.

و لا شك أن نظر العلماء المتقدمين المحققين، أدق من نظر المتأخرين المقلدين، أدعياء العلم الحديث الغربي التجربي، و العلم لا يجدي شيئاً بدون العقل السليم، فهل العلم المذكور اطلع بتجاربه على كل موجود، حتى يكون ما لم يطلع على وجوده كالشيطان، غير<363> موجود؟

فإذن يلزم أن لا يصح للعلم اكتشافات جديدة عن وجود أشياء لم تكن معلومة له من قبل فيقفَ العلم في الحد، الذي وصل إليه، و يسدَّ على وجهه أبواب الرقي، و الاتساع الجديدين.

و آخر ما أقوله هنا: إذا بنى أمر الإنكار و الإقرار على شهادة التجربة الحسية، كما هو شرط العلم الحديث في زعم الغافلين عن حدوده، فلا مانع من أن يكون منكر الشيطان، و مؤوله، بنزعات الشر منكرا للرحمن أيضاً، و مؤوله بنزعات الخير!!

بقي أن فضيلة الشيخ شلتوت، قال لي -عند اجتماع لجنة النهوض بالمساجد في بيتي بمصر الجديدة، و كنا عضوين في تلك اللجنة-: [أنا لا أنكر وجود الشيطان، و كيف أنكر وجود إبليس؟].

و كأنه يقول: إن الشيطان الذي أنكره غير الشيطان المعروف، المسمى "إبليس"؛ و هو يريد بهذا القول القصير تهيئة خط الرجعة لإنكاره بتأويل قوله الأولى، بصدد الإنكار.

و كان لفظ "الشيطان" في الحقيقة لأن يكون له معنى مجازي غير معناه المعروف، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾[الأنعام:112]، لكن أقوال الشيخ التي تقوّلها من قبل تأييداً لقوله المنكر، كادعاء أن القرآن لم يعين كنه الشيطان، و إنه جارى عقائد العرب، ينافي قوله الأخير الشفهي في تأويل الشيطان الذي أنكره أولا، و قد صدر هذا الإنكار منه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً﴾[النساء:117]، مع أن تمام هذه الآية نفسها، و هو: ﴿لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً﴾[النساء:118]، يتعين في إبليس، و يأبى تراجُعَ الشيخ تحت ستار التأويل.

******** ****** ****** *****

عود على بدء: كنت قلت: كأن الرأي العام العلمي، الذي راقب المناقشة الصحفية الجارية بين الشيخ محمد عبده، و بين الأستاذ فرح أنطون في حينها، و فيما بعد ذلك الحين، اطمأن إلى جانب الأستاذ فرح، فأخرج الدين من دائرة العقل و العلم، و بقي من بقي بعد هذا من المسلمين على دينه -إن لم يكن من العامة السذج- في عقيدة يساورها الشك، في صحتها، أو يخالطها الحذر من وضعها موضع البحث و النظر، فلا ينبس بكلمة في هذا الصدد، كما قال الأستاذ فريد، و يخلي الجو للذين يتكلمون، و يدسون في كلامهم ما يهيء الأذهان لقبول ما يستبطنونه، و يتمسكون به من الإلحاد، من غير مبالاة و لا وجل من مغبة ما يدسون، تيقناً منهم، بأن مصير إخوانهم القارئين مصيرهم متى وصلوا إلى درجتهم العلمية.

ففكرت مليا، و ملِئِيَ الأسى و الأسف، ثم رأيت من الواجب بل من أوجب الواجبات أن أدعو هذا الرأي العام العلمي المعاصر إلى الإفاقة عن غيه، و أريَه الغبن الفاحش في اشترائه الضلالة بالهدى، لا من ناحية الدين فقط، بل من الناحية العلمية أيضاً؛ و إن كان الذين طبع الله على قلوبهم لا يفقهون العلم من الجهل، و لا ينفعهم التعليم و التنبيه، إذ لا شيء من ذلك يُسقط مني واجب التفهيم، و لا من القارئ واجب الإصغاء و الاهتمام؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال:42].

و بعبارة أخرى، لما لم تنتج المناقشة الجارية بين الشيخ محمد عبده، و بين الأستاذ فرح أنطون غلبةَ الحق على الباطل، بل أدت إلى زعزعة مكان الحق في قلوب كثير من المؤمنين بدلا من ترصينه، وجب استئناف تلك المناظرة على أتباع الأستاذ فرح، القائلين بمثل ما قاله، و إثبات أن الدعاوى التي ادعاها في مناقضة العقل و العلم للدين، افتئاتٌ على العقل و العلم القديم و الحديث.

اللهم إلا إذا كان العلم في الشرق و الغرب منحصراً في علم الملاحدة، مثل (بوخنر)، و أضرابه، و أذنابه، و العقل في عقولهم السخيفة، و ليس الأمر كذلك<365> لأن في الغرب مسالك فلسفية، و رجالاً آخرين كثيرين انتقدوا مذهب المادية الإلحادية، و الإثباتية الوضعية انتقاداً شديداً، و لم يوافقوهم على القول بمنافاة العقل و العلم للدين.

و إني أردت أن أكون القائمَ بهذا الواجب الكبير[158]، مع عجزي، و غربتي بمصر، و باللغة العربية؛ لأني بحمد الله غير غريب عن الإسلام، و عن العقل الذي يحفه من كل جانب، و لأن الإسلام أيضا أصبح غريباً في هذا الزمان، فلا غرو إذا كان الغريب للغريب نسيبا و ظهيراً.

ثم إني مؤمل أن يكون قد حصل بعض الألفة في هذه البلاد بكتابتي العربية الأعجمية، فإن وفقني الله عز و جل لإعادة أحد من القراء إلى رشده، بإزالة الشبه التي ألقاها في قلبه دعاة الإلحاد، و مستبطنوه الدساسون -الذين ذكرهم الأستاذ فريد وجدي بك تبجحاً بهم، و إنذاراً لي بنبوغهم- فهو غنيمتي من هجرتي إلى مصر، غنيمتي الباردةُ التي لا تنغص بهجتها شمسُ مصر في الصيف، و لا خيال ظلال بوسفور، و هو خدمتي و شكري لمصر التي آوتني و أسرتي[159]، و التي كانت لها سمعة قديمة في الإسلام، منذ فتحها عمرو بن العاص، في عهد عمر بن

[158] خلاصة المقصود من هذا الكتاب، إحياء علوم أصول الدين، الذي نعاه الناعون في مصر باسم علم الكلام، إحياؤه بتدريس من لم يدرسه، أو تفهيم من لم يفهمه من الدارسين منحصرا في مسائل منه، تشتد الحاجة في هذا العصر إليها، و إلى تفهيم من لم يفهمها، بأسلوب مزيج من الفلسفة القديمة، و الحديثة، و طريقة تخضع لها العقليات المستعارة من الغرب، مع بعض من غير مسائل علم الكلام شديد الحاجة إليه أيضا، بل شديد الاتصال أيضاً بذلك العلم.

و ليس المقصود استعراض علم أصول الدين بجميع مباحثه في هذا الكتاب، و لا أن يكسب به القارئ النجاح في الامتحانات المدرسية، التي يحصل الفائز فيها على الشهادات، بل ليكون ناجحا في الامتحان الأكبر، الذي ينتظره في الآخرة، و يعيش في الدنيا مؤمنا حقيقيا.

[159] و لا تقل: كيف تقضي لمصر حق الشكر بهذا الكتاب، مع ما فيه من النقد المر لكثير من كبار كتابها، و علمائها الحاضرين، و الغابرين؟

لا تقل هكذا، لأن الشكر النافع للمشكور، لاسيما من مثلي يكون كذلك؛ أما شكر المدح و الثناء فمصر متخمة منه بأحيائها و أمواتها، على أني -كما يرى القارئ- لا أضن بهذا النوع من الشكر أيضاً، عندما وجدت أهلا له في غضون مباحث الكتاب، و أدعوا الله سبحانه أن يكثر من أمثالهم.

الخطــاب رضي الله عنهمـــا، و مكانة معروفة في العلم، منذ توطنهـــا، و قضى نحبهم فيها أئمة الـــدين العظـــام: الشافعي، و الليث، و المزني، و الطحاوي، و الجصـاص، و ابن الحاجب، و ابن الهمام، و أكمل الـدين، و الأتقـاني، و عز الـــدين بن عبد الســـلام، و ابن دقيق العيـــد، و ابن خلـــدون، و البـــدر العيـــني، و ابن حجر العســـقلاني، و الســبكي، و الجلال الســيوطي، و غــيرهم ممن لا يحصى عــددهم، و دامت ســيادة الإســلام و العلم فيهــا، إلى أن خلف من بعــدهم خلف ســودوا العقلية الإلحاديــة، الــتي يتصل حبلها بالجاهلية القديمة الفرعونية، و ضيعوا سيادة الإسلام بين الجاهليتين الحديثة و القديمة.

ثم إن مسـألة وحـدة الوجـود، الـتي تـرجح إلى فكـرة جد غريبة في موقف العـــالَم من اللـــه، كما أشـــرت إليه في اسم الكتـــــــاب، رأيتها عقلية شـــــــائعة بين طائفة من المتصوفين يرأسهم الشيخ محيي الدين بن عــربي، و بين مكبريه من المســلمين، الــذين لا يقـدرون قـدر خطر تلك العقلية على العقيدة الإلهية الصحيحة، بـالرغم من وجـود كثير من العلماء الأعلام بين أولئك المكبرين.

و رأيت بعد تفكير مليٍّ أن هـذه النظرية العظيمة الخطـر، و الضرر، مشتقة من القول بأن وجود الله عين ذاتــه، كما ذهب إليه الفلاســـــــــــــفة، و تبعهم جمع من محققي المتكلمين، و متــأخريهم، و فضـلوه على مـذهب جمهـور المتكلمين، القائلين بأن وجود الله غير ذاته، أي غير متحد معها في التصــور، و الخلاف بين الفــريقين في مســألة كون وجـود الله عين ذاتـه، أو غـير ذاته بحث معـروف في علم أصول الدين.

فــأردت درس المســألتين أيضا في هــذا الكتــاب، أعــني مسألة وحدة الوجود، و مسألة كـون وجـود الله عين ذاتـه، درســاً ذاتيــاً، يستكشف جــذور ما فيهما من الأخطـــاء و الأضاليل، ثم يستأصلها و إياهما.

فهذه أربع مسائل يتكون منها موضوع الكتاب، جعلت لكل واحدة منها باباً:

- **مسألة: إثبات وجود الله إثباتاً علمياً، لا يقل قيمــةً و قوّةً عن مسائل العلوم المثبتة، بل يفوقها.**
- **و مسألة: وحدة الوجود، و ما اشتقت هي منه.**
- **و مســألة: إثبـات إمكـان المعجـزة، و معها إثبـات <367> النبـوة، و إثبـات النشـأة الأخـرى، مع ما فيها من بعث، و حشر، و نعيم، و عذاب.**
- **و مســألة: فصل الـدين عن الدولــة، هل يســوغه الـــدين الإســـلامي، و تتطلبه مصـــلحة الأمـــة، أم تمانعانه؟**

و مسألة وحدة الوجود -التي هي الثانية من هذه المسائل الأربع- المتكون منها الكتاب، و الـتي شـغلت أذهـان كثـير من مفكري الإسلام، و استعصت على الفحول من العلماء الأعلام- جاءت في كتابي وحيدة في بابها من حيث تحـرى الدافع إلى نظرية غريبة كهذه لا ينســاق إليها العقــل، إذا خلي و طبعــــه، و من حيث التعمق في المقارنة بين أدلة الإثبات و الإبطال.

و الكــاتبون عن هــذه المســألة في الأزمنة القريبــة، إنما حاموا حول اكتناهها من بُعدٍ، و لم يــدقوا البـاب فضلا عن دخولهم الدار.

و من نكد الأيــــام، و طغيــــان الجهل أن يكتب عن هــــذه المســـألة العوصـــاء، شـــاعر عـــراقي، أو نـــاثر مصـــري، معروفان، لو فرض، فرض المحـال، فاتحـدت الموجـودات على مقتضى وحـدة الوجـود، و أصـبحت موجـوداً واحـداً ينطوي على وجودهما أيضاً؛ لأفسـدا تلك الوحـدة، بشـذوذ عقلهما عن عقول الآخرين.

فأمامنا أربع مســائل، لا تقل أخراها خطــراً في الــدين و المجتمع عن أولاها، مع كون هذه الأخـرى أحـوج الكل في زماننا إلى الـدرس، و التمحيص، لكـون انخـداع النـاس بها أكـثر و ظنهم أنها منشأ رقي الأمم الأوروبيـة، و أن تـرك العمل بها منشأ، تأخر المسلمين[160]، كما أشـار إليه مؤلف (حياة محمد)، و كما ادعاه الأستاذ فرح أنطـون، منـاقش <368> الشيخ محمد عبده، و لم يرد عليه الشيخ رداًّ حاسـماً، و إنما أجاب بما يشبه التقهقر، أمام خصمه، أكثر من الرد عليه، فحمل تأخر المسلمين على جمود علماء الدين.

و جاء هذا الجواب ضغثاً على إبالة، فصدق الناس ما ادعاه مناقش الشيخ في المسـائل، الـتي كـانت مواضع الخلاف بينه و بين الشيخ، و صدقوا الشـيخ في هجومه فقط على جمـود العلمـاء، فأصـبح مصـيبة رابعة في الإسـلام، زيـادة على المصائب التي أتت من قبل خصمه.

و شاهدي على صدق قولي هذا أيضا ما كتبه الأستاذ فريد وجـــدي بمناســـبة ما حـــدث في تركيا من فتنة ترجمة القرآن، و إقامة الترجمة التركية مقام الأصل العربي في الصـلاة و غيرها[161]، و لم يقتصر الأسـتاذ على تحبيذ حادثة الترجمة فقط، بل حبذ جميع ما فعلته حكومة أنقرة، و إن كان جل ما كتبه بهـذا الصـدد قبل أن عين مـديراً و رئيس تحرير لــ (مجلة الأزهـر)؛ و قد ذكـرت ذلـك، و رددت عليه في كتابي (مسألة ترجمة القرآن).

و لا بد من نقل بعض كلمــات الأســتاذ المــذكورة هنــاك، ليُعلم مبلغ خــروج النــاس على الجمـود، بعد أن شـجعهم الشيخ محمد عبده عليه.

كقوله: [إن الشعب التركي، الـذي أشـبه الشـعوب الحيـة، في دخوله أدوار الانقلابـات الاجتماعيــة، ليسـتحق منا كل الإعجــاب، و كل التشـجيع، إن لم يكن باعتبـار أنه أقـرب الأقربين إلينا، فباعتبار أنه دفع شبه القائلين، بأن العـالم الإسلامي متحجر لا يصلح أن يجاري سواء في حلبة الحياة الاجتماعية].

و قوله: [فنحن الذين شـهدنا هـذه الآيـة]، يعـني الانقلاب التركي الكمالي، [يحرم علينا أن نصـغر من شـأنها، أو أن نمر بها غير مكترثين، فإننا سنمر في كل الأدوار التي مر بها الـترك، مـتى جـاء دورنا في نهـوض حقيقي، صـحيح، فإن لم نتعلم مما دخل فيه الأتراك درساً، فلا أقل من أن نعجب به مع المعجبين] <369>.

يعني المعجبين الغربيين، الأجانب عن الإسلام، و أكـثرهم إعجابـــاً به أعـــداهم للإســـلام و الـــترك، لأن خلاصة ذلك الانقلاب: قطع صلة الترك بالإسلام، و بتاريخ الترك، الذي مضى في المجاهدة في سبيل الإسـلام، و إعلاء كلمتـه، و الذي لم يجئ في ماضي الترك أشرف من ذلك التـاريخ، و لن يجيء في المســتقبل، لا جــاءهم الله بــه، ما دامــوا منحرفين عن الإسلام.

ثم إن الخلاصة الثانية لتلك الانقلابـات القضـاء على جميع مقومات الـترك من الـدين، و الـزي، و الحـروف، و اللغـة،

---

[160] كما أن الإيمان بالقدر، الذي يؤول إلى عقيـدة الجـبر، و الـذي يلام به الإســلام، و ينسب تــأخر المســلمين إليه في زعم الــزاعمين من أهل الغـرب، و مقلـديهم في الشـرق، عـنيت بتحقيقه مـرة ثانية في هـذا الكتـاب، بعد أن درسـته مسـتقلا في كتـابي (تحت سـلطان القـدر)، و تعمقت في دراسته، لكونه من أعوص مسائل الدنيا الدينية، و العلمية... حـتى إن أحسن حل له في الاعـتراف بامتناعه عن الحـل؛ فهو يجـاري مسألة "وحدة الوجود"، في الإعضـال، و إن كـان خطر الخطإ فيه لا يبلغ مبلغ خطر الخطإ فيها...، و للعقل السليم أن يتخلص من إعضالها باليت في إبطالها، من دون أن يكون له التخلص من إعضاله.

[161] و مما يلفت النظر أن هـذه الفتنة على الـرغم مما وجـدت مظـاهرين في مصر، مثل الأستاذ فريد وجـدي بـك، و الأسـتاذ الأكـبر المـراغي، لم تنجح في تركيا، التي هي محل حدوثها.

حتى الموسيقى، و حتى النكاح، و الغيرة على النساء، و لا يتمنى مثلَه لقوم إلا عدو ذلك القوم.

فالأستاذ فريد وجدي، الذي يتمنى لمصر أن تمر بكل الأدوار، التي مر بها الترك الكماليون، متى جاء في نهوض حقيقي صحيح، معناه أنه يتمنى أن تكون لمصر حكومة لا دينية، و حروف لاتينية، و لغة عربية، أو عربية عامية، و نكاح غير شرعي، و قانون يبيح زواج المسلمات بغير المسلمين، و يبيح الارتداد عن الدين، و يساوي في الميراث بين الذكر و الأنثى، و يأمر بلبس القبعة، و خلع الطربوش، و العمامة، و يقاتل من أراد لبسهما، و يسد المحاكم الشرعية، و المعاهد الدينية، و يمنع منح جواز السفر إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج، و يحل الجمعيات الدينية، مثل جمعية تحفيظ القرآن و الهداية الإسلامية، و الشبان المسلمين، و شباب محمد؛ و هكذا يكون لمصر النهوض الحقيقي الصحيح، كما كان لتركيا الجديدة.

و هذا الأستاذ مدير (مجلة الأزهر) اليوم، و رئيس تحريرها -الذي ما كنت أحب إطالة الكلام عنه، و عن مذهبه في الإسلام، و القرآن، و النبوة، و المعجزة، لكنه يتمثل شخصه، و مركزه في منبر الأزهر، دليلاً ناطقاً بحال مصر، و موقفها من الإسلام-؛ هذا الأستاذ كتب مرة: "أن الأمم الإسلامية لفي حاجة إلى تقليد الغربيين في كل شيء حتى ملاهيهم، و مراقصهم، و إلحادهم، إن أرادت أن تبلغ شأوهم في حلبة الحياة[162] <370>، و أن اليابان لم يصلوا إلى ما وصلوا إلا بعد تقليدهم في جميع هذه الأمور".

و ادعى في و ادعى في كتابه (الإسلام دين عام خالد): "أن علماء الغرب مستغنون عن الاهتداء بهدي الشرائع المنزلة، لأنهم أنفسه وُضَّاع الشرائع، و المذاهب".

و هذا القول من الأستاذ الذي لا يؤمن بمعجزات الأنبياء، يدل دلالة واضحة على أن منشأ عدم هذا الإيمان عدم إيمانه بنبوات الأنبياء، بمعناها المعروف عند أهل الأديان، و هو كونهم مبعوثين من عند الله إلى الناس، إذ لو كانوا كذلك؛ لكان الناس عامتهم و خاصتهم سواءً في وجوب طاعتهم، و العمل بشرائعهم، التي أتوا بها من الله، كما يكون عامل الملك، و قانون حكومته مطاعَين للجميع، من غير فرق بين الخاصة و العامة فيه؛ و لكان ما قاله الأستاذ من استغناء العلماء، و الحكماء الغربيين عن طاعة الأنبياء، بمثابة استغنائهم عن طاعة الله.

و معنى كون الإسلام ديناً عاماً خالداً، في نظر الأستاذ، أن هذا الدين مستعد لكل تجديد، و كل تعديل، و تغيير، حتى قال الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب، صاحب (مجلة الفتح)، عن الأستاذ فريد وجدي، بمناسبة مقالة له نشرت في (الفتح)، رداً على مقالة الكاتب الكبير المرحوم الأمير شكيب أرسلان، و ما أحسن قوله: [الأستاذ لا يزال مصراً على أننا نحن المسلمين في أنحاء المعمورة، مجبولون على الجمود، و أن هذا الجمود لا يمكن علاجه إلا بنسف الإسلام، و أنه بعد انقضاء الأمد الطويل على الثورة، التي يُنسف بها الإسلام، سيرجع الثائرون على الإسلام، إلى الإسلام، فيكونون أحسن منا نحن الجامدين].

و أنا أقول: ليسْمع مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده في قبره أقوال رئيس تحرير مجلة الأزهر الناسفة للإسلام في معالجة جموده، و هو الذي طالما كان يشكو في حياته من جمود الأزهر، فليسمعها، و ليبتهج من كثرة ما أثمرته "شجرة الخروج على الجمود"؛ و بقية الكلام في الجمود و الخروج على الجمود، تأتي إن شاء الله في الباب الرابع، المعقود لمسألة فصل الدين عن الدولة <371>.

سؤالٌ مفروضٌ، أُورده عليّ، ثم أجيب عنه:

فإن قيل: إن ثورة الأستاذ فريد وجدي على الدين دفاعاً عن ثورة الأتراك الكماليين، و قوله الشاذ في آيات المعجزات، و البعث بعد الموت الواردة في القرآن، و التي وجدها الأستاذ لا تأتلف مع العقل و العلم، و قوله في حاجة الأمم الإسلامية إلى تقليد الغربيين في كل شيء حتى ملاهيهم، و مراقصهم، و إلحادهم؛ و قوله باستغناء علماء الغرب عن الاهتداء بهدى الشرائع الإلهية، المنزلة على الأنبياء...

كل ذلك من الأمور الماضية، التي لا ينبغي أن نذكرها مهما كانت قريبة العهد، لم ينسها قراؤها، لكن الأستاذ يحامي اليوم من علا منبر الأزهر عن الإسلام، كأحد علمائه الغيورين على دينهم، و كمحاماته التي اشتهر بها في ماضيه البعيد.

و ما فرط منه بين ذلك الماضي، و الحال، يكون عفواً، كشر مضمحلٍّ بين خيرين؛ فالأستاذ ليس من الذين آمنوا، ثم كفروا، ثم آمنوا، ثم كفروا -المذمومين في كتاب الله-؛ بل من الذين آمنوا، ثم ثاروا على الدين، ثم سكنت ثورتهم، و آمنوا من جديد.

فهل من الحق و العدل هذه المؤاخذات المصوبة نحوه، و إدخال شخصه في مقدمة هذا الكتاب، المؤلف ضد الملاحدة، كعنصر هام من أسباب تأليفه؟

قلت: على فرض توجيه هذا السؤال إليّ، فإني أسأل القائل، السائل: هل الأستاذ رجع في دوره الثالث عن أقواله في دوره الثاني الثائر، و صرح بكونه مخطئاً في تلك الأقوال؟

و لا سيما في قوله بـ: "أن آيات المعجزات، و آيات البعث بعد الموت من متشابهات القرآن، غير المفهومة، أو غير ممكنة القبول عند العقل على ظواهرها"؛ استبعاداً منه لوقوع تلك المعجزات في زمان الأنبياء، و وقوع البعث بعد الموت للإنسان، إذا جاء وقته المقدر بمشيئة الله[163].

---

[162] ما أشبه هذا القول بقول "آغا أوغلي أحمد"، من كتاب أنقرة: [إنا عزمنا أن نأخذ كل ما عند الغربيين، حتى الالتهابات التي في رئيهم، و النجاسات التي في أمعائهم].

[163] و جواب هذا الاستفهام أن الأستاذ لا يسعه مركزه في عالم التحرير، أن يرجع عن أخطائه مهما عظمت، فهو لا يعتبرها أعظم من مركزه، و لو وسعه مركزه لا يسعه فهمه أن يقدر عظمة تلك الأخطاء، فلا تنازل أبدا عن ضلاله القديم في جوهره، لاسيما إذا سبق أن ناقشه أحد على ذلك الضلال، و إنما يسعى ليسيغه في أسلوب يظن الغافل أنه يقوم بواجبه في رئاسة تحرير (مجلة الأزهر)، و ربما يتجلد فيصرح بأنه ثابت في رأيه، أو بالأولى يصرح بما يفهم منه -من يفهم- أنه ثابت في رأيه، الذي يبعد عن وظيفته في الأزهر بعد المشرقين، و هو لا يتزحزح عنه قيد شعرة.

ألا يرى أن الأستاذ بعد أن مضت عليه في دوره الثالث سنوات طويلة، و أوشك أن تكون أقواله في دوره الثاني المادحة للإلحاد النافية للمعجزات نسيا منسيا، يقول في الجزء السابع من المجلد الحادي عشر (لمجلة الأزهر)، من مقالة له عنوانها: "السيرة المحمدية تحت ضوء العلم و الفلسفة": [الأمور الخارقة للنواميس في وقعة بدر].

انظر إلى هذا الكلام، كيف يتراجع فيه الأستاذ بين إنكار المعجزات، و الاعتراف بها؟

فأولا: يدعى أنه يكتب السيرة المحمدية تحت ضوء العلم، أي يكتبها على الأسلوب العلمي خالية عن الخوارق، التي هي المعجزات الكونية، و متفقة مع النواميس الطبيعية، بناء على أن العلم و النواميس الطبيعية لا يقبلان الخوارق، و لهذا أخلى الدكتور هيكل باشا كتابه (حياة محمد)، من المعجزات الكونية، و اعتذر عما فعله بأن العلم لا يقبلها.

و هكذا يريد الأستاذ فريد وجدي أيضا أن يكتب في (مجلة الأزهر) السيرة المحمدية، لا كما كتبها كاتبو السيرة القدماء المضيفون إلى حياته □ خوارق.

و لذا قال الأستاذ، بعد عنوان مقاله المنقول آنفا: [تمتاز العصور النبوية]، يعني عصور الأنبياء، [بالخوارق للنواميس الطبيعية، فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل، كان لها أقوى تأثير في حمل

و قوله بـ: "لزوم تقليد الشرق الغرب في كل شيء، حتى في إلحاده<372>، و ملاهيه، و مراقصه، إن أراد أن يـرقى رقيه".

و قوله بـ: "استغناء العلماء الغربـيين، عن اتبـاع الشـرائع المنزلة".

و قوله في مقالة عنوانها "سطوة الإلحـاد على الأديـان"، و لا أدري أين نشر الأسـتاذ هـذه المقالـة، و إنما رأيت نقولاً عنها في (مجلة الهداية الإسلامية)، بعـددها الصـادر في صـفر سـنة 1351، قـال: [تقـدم الزمـان، و أفلتت الحكومات من سلطان رجال الدين، فاقتصر سـلاح الـدين على ما كان لديه من قوة الإقناع، و في هذه الأثنـاء كـان العلم يـؤتى ثمراته من استكشـاف المجهـولات، و تخفيف الويلات، و ترقية الصناعات، و ابتكـار الأدوات، و الآلات، و يعمل على<373> تجديد الحياة البشـرية،تجديـداً رفعها عن المستوى، فشعر الناس بفارق جسيم، بين ما انتهـوا إليه في عهد الحياة الحرة، و تحت سـلطان العلـوم الماديـة، و بين ما كانوا عليه أيام خضوعهم لحفظة العقائـد؛ فـانتهز الإلحـاد فرصة هـذا الشـعور الجديـد، و ازداد كلبـاً على مهاجمة الدين، و استهتر في مطامعه فرمى إلى القضـاء عليه القضاء الأخير]<374>.

و قوله أيضا في تلك المقالة: [و هم] يعـني رجـال الـدين الذين قد يتسـتر فيعـبر عنهم بحفظة العقائـد؛ [يـرون أن العلم و الفلسـفة ينقصـان من أطـرافهم كل يـوم، و أن الناس يتسللون عنهم زرافـات، حـتى لم يبق سـواهم في المجـال، الـذي هم فيـه؛ فـابتنى على ذلك أن الفلسـفة

الشـعوب، الـتي شـهدتها على الإذعـان للمرسـلين، الـذين حـدثت على أيديهم.

و قد حدثت أمور من هـذا القبيل في العصر المحمـدي صـاحبت الـدعوى في جميع أدوارها، و كانت أعظم شأنا، و أجل أثـراً من كل ما سـبق من نوعها.

و لست أقصد بها ما تناقله النـاس من شق الصـدر، و تظليل الغمامـة، و انشـقاق القمـر، و ما إليهـا، مما لا يمكن إثباته بـدليل محسـوس، و مما يتأتى توجيهه إلى غير ما فهم منه؛ و لكن أقصد تلك الإنقلابات الأدبية و الاجتماعيـــة، الـــتي تمت على يد محمد ﷺ، في أقل من ربع قـــرن؛ و قد أعوز أمثالها في الأمم القرون العديدة، و الآماد الطويلة.

و قد لاحظ قراؤنا أننا نحـــرس فيما نكتبه في هـــذه الســـيرة على أن لانسـرف في صـرف كل ناحية إلى ناحية الإعجـاز، ما دام يمكن تعليلها بالأسباب العادية، حتى و لو بشيء من التكلف.

مســـايرة لمـــذهب المبـــالغين، في التثبت، و المحـــافظين على إقامة الدسـتور العلمي، ثقة بـأن بحثا لا تحترمه النخبة المثقفـة، و لا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى في عرض المسـائل و تحليلهـا، لا يمكن أن يؤدي إلى ما قصد منه من الخدمة العامة].

و معـنى هـذا القـول أنه يحـرص فيما يكتبه على إخـراج الحادثـات الـتي اعتبرت معجزات عند قـدماء المسـلمين، من أن تكـون معجـزات، و ردها إلى الأمور العادية، حتى و لو بشيء من التكلف، و ليس الدافع إلى هـذا إلا كون العلم، لا يقبل المعجزات، و أن النخبة المثقفـة، ثقافة عصـرية، تؤمن بالعلم، و لا تقبل المعجزات، التي لا يقبلها العلم.

فظهر أن الأستاذ بعد أن تـولى الوظيفة الأزهريـة، كالأسـتاذ قبله في عقليته المناوئة للمعجـزات، و مذهبه مـذهب المحـافظين على إقامة الدسـتور العلمي، الـذي لا يقبل ما لا يمكن إثباته بـدليل محسـوس، كالأمور الغيبية، التي تـؤمن بها الأديـان، و ليس هـذا إلا مـذهب ملاحـدة الماديين، و الإثباتيين، أو الوضعيين.

و مراده من النخبة المثقفة، التي لا يحترم عنده ما لا تحترمه هي، الفئة التي عبر عنه حين كان حـرا من وظيفته الأزهرية بالمشـرق الإسـلامي، المستبطن للإلحاد.

فالأسـتاذ لم يغـير شـيئا من مبادئه الضـالة؛ فهو عند القيـام بواجبه في رأس (مجلة الأزهر) يستطيع أن يحـول وجهه إلى فئتـه، و نخبة قارئيـه، فيصـارحهم في مناجـاتهم، و لا يكتم ثقته بغفلة القـراء، المؤمـنين من ناحيـة، و بضـعف مركـزهم في البلاد من ناحيـة، رغم تسـميتها بـالبلاد الإسلامية.

فـأين لجنة الفتـوى الأزهريـة، و رئيسـها الـذي أرسل كتابـاً إلى وزارة الشـؤون الاجتماعيـة، يعاتبها على ما نشـرته مجلة الـوزارة، و اسـتفتى المسلمون اللجنة بشأنه من أن سيدنا موسى لقيط، و سيدنا عيسى في حكم اللقيط، ينسب إلى نجار؟

أين لجنة الفتوى؟

و لما لا ترى (مجلة الأزهر)، و ما يكتب فيها رئيس تحريرها؟

و لعل محرر (مجلة الشؤون الاجتماعية)، لا يملك حذافة كافية في صنعة الدس، فلا يستطيع القيام بخدمة المبادئ العلمانية اللادينية، من غير أن تثير ضجة المسلمين من أصحاب الأفكار القديمة.

أما محـرر (مجلة الأزهـر) فقد رأيت كيف يكلم النسا في مقالة واحـدة بلسانين، و يتناجى مع فريق من مخاطبيه في غفلة فريق.

فهو في الخطـوة الأولى من كتابة (السـيرة المحمديـة) يسـجل على مذهبه، و مذهب نخبته في المعجزات، ثم لا ينسى أن يـولي وجهه الآخر نحو منصبه في رئاسة (مجلة الأزهر)، و قرائه من غير نخبته، فيفكر في أن النبي لا بد أن تكـون له معجـزة، فـالواجب في حيـاة نبينا ﷺ الممتـازة على حياة أسلافه الكرام، أن تشتمل على معجـزات، ليست بمعجـزات، و الأستاذ لا يعجز عن الجمع بين هذين النقيضين.

حيث قـال أولا -عن عصـور الأنبيـاء-: "إنها عصـور الأسـاطير، من حيث اشـتمالها على الخـوارق للنـواميس الطبيعيـة، و إن واضـعي تلك الأساطير، وضعوها لأن لها أقوى تأثير في حمل الشـعوب على الإذعـان للمرسلين".

فهذا إعلان من رئيس تحرير (مجلة الأزهـر) بإنكـار المعجـزات جميعـاً، لا إنكار واحدة منها، مثل تولد سـيدنا عيسى من غـير أب، كما فعلته (مجلة الشؤون الاجتماعية).

ثم يقـول: [و قد حـدثت أمـور من هـذا القبيل في العصر المحمـدي]؛ فتظنه يعترف للعصر المحمدي بما أنكره لعصور الأنبيـاء من المعجـزات، و حملها على الأساطير.

ثم يضيف إليه قوله: [و كـانت أعظم شـأنا، و أجل أثـراً من كل ما سـبق من نوعهـا]؛ و هو مقدمة للرجـوع من الإقـرار إلى الإنكـار، يعـني أن معجـزات العصر المحمـدي ليست كمعجـزات العصـور الأولى من قبيل الأسـاطير، ثم يزيد في إيضـاح مـراده ممـااعترف للعصر المحمـدي، بما أنكره للعصور الأولى من الخوارق.

فيقـول: [و لست أقصد بها ما تناقله النـاس من شق الصـدر، و تظليل الغمامـة، و انشـقاق القمـر، و ما إليهـا، مما لا يمكن إثباته بـدليل محسوس]، راجعاً إلى مذهبه الأصلي، الذي هو إنكار المعجـزات مطلقـاً، سواءٌ كـان للعصر المحمـدي، أو لغـيره من العصـور المتقدمـة، لأن هـذه الأمور الثلاثة، التي ذكرها أمثلة لما لم يقصده من المعجزات المحمديـة، التي اعترف بها، أمثلة الخوارق الحقيقية للنواميس الطبيعية.

و هو -أي الأستاذ- لا ينأى بجانبه عنها لشبهة في صحة رواية بعضها، بل لكـون كل منها مما لا يمكن إثباته بـدليل محسـوس؛ فمذهبه مـذهب المـاديين غـير المؤمـنين بغـير المحسـوس، مع أن الأمثلة المـذكورة من الأمور المحسوسة في حينها.

فـإذن يلـزم من نفاها أن ينفي كل ما مضى في التـاريخ، و ينفي حـتى وقعة بـدر، لعـدم إثباتها اليـوم بـدليل محسـوس؛ لكن مـراد الأسـتاذ من إمكان إثبات الشيء بدليل محسوس إمكان الإثبات بمثـال محسـوس من جنسه في العصر الـراهن، و ذلك بـأن لا يكـون من الخـوارق للنـواميس الطبيعيـة؛ و إعراضه عن الأمثلة الثلاثة المـذكورة الـتي تناقلها النـاس، ليس لكونه يـدعي أنها لم تقع في حينهـا، بل لكونه يـدعي عـدم إمكـان ذلك لمخالفتها النـواميس، و هـذا هو الـداء العيـاء للشـرق الإسـلامي العصري، المثقف بالثقافة المادية، و الذي لم يتخلص منه الأسـتاذ، رغم توليه الوظيفة الأزهرية منذ سنوات طويلة، و رغم نقاشه في خلال هذه الوظيفة الأستاذ نصـيف المنقبـادي، المحـامي المـادي، و سـنتكلم على ذلك النقاش أيضا.

فمحصل مـذهب الأسـتاذ فريد وجـدي بك في المعجـزات أن ما سـبق الإسلام منها في عصور الأنبيـاء، كلها أسـاطير، و ما ينسـبه النـاس إلى العصر المحمدي من الخـوارق للنـواميس الطبيعية نهى أيضا أسـاطير لا أصل لها.

ثم إن الأستاذ الذي لعب دوراً، و لفتنا إليه من اللف و الدوران، المنتهي في إنكار المعجزات المحمدية أيضا، يعود فيحاول أن يستخرج من الأمور الواقعة في بدر غير الخارقة للنواميس الطبيعية، خوارق لتلك النواميس مثل غلبة العدد القليل من المؤمنين على العدد الكثير من المشركين.

و لينظر القـراء من غـير النخبة المثقفة إن لم تنظر هي: كيف يكـون الأستاذ المنكر للمعجزات الخارقة للنواميس مضطرا إلى إيجاد معجـزات خارقة للنواميس من الأمور غير الخارقة؟

فهذا الاضطرار منه حسـبه منبها -لو كـان ينفعه التنبية من غـيره، و من نفسـه- على خطـإه الفـاحش، في إنكـار معجـزات الأنبيـاء الخارقة للنواميس، و على أن المعجـزات يلزمها أن تخـرق النـواميس الطبيعيـة، لتكون معجزات، و إلا فلماذا يسعى الأستاذ أن يقلب الأمـور الواقعة في بدر، مما لا يخرق النواميس الطبيعية، فيجعلها خارقة لهـا، كغلبة القليل على الكثير؟

و هي رغم ادعاء الأستاذ أشبه بـالأمور العادية منها بـالمعجزوات لوقـوع مثلها في جيش من لا يـدعي النبـوة؛ و ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَـةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ﴾[البقرة:249]؛ و إن كـان ذلك لاسـيما مثل غلبة بـدر في غاية النـدور، لكن المعجـزة لا تطلق على النـوادر، و إنما تطلق على الخوارق.

و مثل ما وقع في بـدر من غلبة القلة على أضـعافها من الكـثرة، و لم يصح مع ذلك عـدة معجـزة لنبينا محمد ﷺ، تلك الإنقلابـات الأدبيـة، و

المادية، التهمت الطبقات المتعلمة، و أصبحت عنصرا من عناصر روح العصر تـــنزل منها العـــادات، و الآداب، و الأخلاق، بل و الأنظمة، و القوانين، و المثل العليا].

فعلى ما ادعاه الأستاذ الشامت بالدين، و حَفَظة عقائـده، أن العلم قد قضى عليهم كلهم القضاء الأخير.

و كان الأستاذ يوم كتب هذه الأقوال لا يدري أنه سـيتولى الوظيفة الأزهريـة، و يـدخل في عـداد حفظة العقائـد، المقضي عليها، و عليهم.

فهل حدَّث قارئيه عن الطلسم، الذي أحيا به الموتى؟

و لم يكن الأسـتاذ يـؤمن بـالمعجزات، و لا بـالبعث بعد الموت<376>...

فهل الطلسم بين فكي قلمه، إن شاء يوما قضى به على الدين، و إن شـاء يومـاً قضى على العلم -و سـيجيء ذلك منه-، و أحيا المقضي عليهم الأولين، فينضم إليهم؟

أم الأستاذ كما قال الشاعر:

يوما يمان، إذا لاقيت ذا يمن	و إن لقيت معديا، فعدنان

و هل صـرح الأسـتاذ أيضا بعد تـولي الوظيفة الأزهريـة، برجوعه عن تحبيذ الانقلاب الـتركي اللاديـني، و تشـجيعه، قائلا: [إننا سنمر بكل الأدوار، الـتي مر بها الأتـراك، مـتى جاء دورنا في نهـوض حقيقي، صـحيح، فـإن لم نتعلم مما دخل فيه الأتراك، فلا أقل مع أن نعجب به مع المعجبين].

ثم هل نوابغ الكتـاب، و الشـعراء في البلاد الإسـلامية، الـذين ذكر الأستاذ اسـتبطانهم الإلحـاد رجعـوا بعد تـولي الأسـتاذ رئاسة (نـور الإسـلام)، و (مجلة الأزهـر)، عما يستبطنونه، و أصبحوا من أنصار الإسلام؟

و كـان في الإمكـان أن يجـاب عن هـذا السـؤال الأخـير، بالإثبات، لو وُجدت رئاسـات مثل رئاسة (مجلة الأزهـر)، و وُلّي كـلّ واحـدة منها واحد من أولئك المسـتبطنين، أو كانت لآية المحكمات و المتشابهات، التي وجـدها الأسـتاذ في القـرآن<378>، و أعلنها في (الأهـرام) وقت حـدوث النقـاش بيـني و بينـه، مانعـةَ الصـواعق، قيمـةٌ إقناعية حقيقية للوقاية من صاعقة الإلحاد.

و هل يُعقل أن رجلا كالأسـتاذ هـدم الأديـان -و لو في زعمه- بمعول العلم الحديث، الـذي اعـترف له بالدولة في الأرض، و قـذف بما هدمه إلى عـالم الأسـاطير، قاطعـاً صلته بعالم الحقائق...

هل يعقل أنه يسـتطيع أن يبـني ما هدمه في مـرأى، و مسـمع المشـاهدين لحادثة الهـدم، أو بالأصح لحادثة مساعي الهدم... هل يسـتطيع أن يبـني بـأقوالٍ تتنـاقض أقوالَه الأولى الهادمةَ لا مؤلفا بين أقوال الـدورتين دورة الهدم، و دورة البناء، و لا معترفاً في دورة البناء بأخطائه في عملية الهـدم السـابقة؛ أفلا يقـول النـاس عن أقواله في دورته البنائية، أنه يتكلم بـدافع الوظيفة الرسـمية، لا عن عقيـدة صـميمية، و لا يعدونه في تلك الأقـوال: [غـير مصـارح بالحقيقة غـير أمثالـه]؛ كما ذكـره هو نفسه عن نوابغ الكتاب، و الشعراء في البلاد الإسلامية المستبطنين للإلحاد؟

فهل الأستاذ حين قـال في دورته الهادمـة، و تشـدّق في القـول: [في تلك الأثنـاء وُلد العلم الحـديث، و ما زال يجاهد القـوى الـتي تسـاوره، حـتى تغلب عليهـا، و دالت الدولة إليه في الأرض، فنظر نظرة في الأديـان، و سـرى عليها أسـلوبه فقـذف بها جملة إلى عـالم الميتولوجيا -الأساطير-، ثم أخذ يبحث في اشتقاق بعضـها عن بعض، و اتصـال أسـاطيرها بعضـها ببعض، فجعل من ذلك مجموعة تقـرأ لا لتقـدس تقديسـاً، و لكن ليعـرف البـاحثون منها الصور الذهنية، التي يسـتعبد لها الإنسـان نفسـه، و يقف على صيانتها جهوده، غير مدخر في سبيلها روحه و ماله.

و قد اتصل الشـرق الإسـلامي بـالغرب منذ أكـثر من مائة سنة فأخذ يرتشف<379> من مناهله العلميـة، ويقتبس من مدنيته الماديـــة، فوقف فيما وقف عليه على هـــذه الميتولوجيا، و وجد دينه ماثلا فيهـا، فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله، و لكنه اسـتبطن الإلحـاد، و تمسك به متيقناً أنه مصـير إخوانه كافة مـتى وصـلوا إلى درجته العلمية.

و قد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب، و شعراء وقفـوا على هذه البحوث العلمية، فسحرتهم فأخـذوا يهـيئون الأذهـان لقبولها، دسا في مقالاتهم، و قصـائدهم، غـير مصـارحين بها غـير أمثـالهم تفاديا من أن يقـاطعوا أو يُنفـوا من الأرض]؛ إلى آخر مقالته المنشورة في (الأهرام)، و الـتي لا تكفي لغسـلها أنهر مقالاته اللاحقة المكتوبة في (نـور الإسلام)، أو (مجلة الأزهر)، و لا أبحرها.

فهل هو حين صـال صـولته، و قـال قولته الخارجة على الأديـان الجارحة في مَقاتلهـا، لا يفكر فيما سـيقوله يوما في (ص: 489)، من الجـزء السـابع من المجلد الخـامس، من (مجلة نـور الإسـلام)، الأزهريـة: [اسـتمر النـاس محتفظين بعقائـدهم، حـتى وُلـدت الفلسـفة المادية في القـرن السـادس عشـر، فاتخـذت مظهـراً خطـيراً من الاعتقـاد بـالعلم الطـبيعي، فـافتتن بها قصـار النظـر]، كنوابغ كتاب البلاد الإسلامية، و شعرائها.

الاجتماعية، التي تمت على يـده في أقل من ربع قـرن، و الـتي اعتبرها الأستاذ معجزة أعظم شأنا، و أجل أثرا من المعجزات كما نقلنا من قبل، و هي ليست بمعجـزة حقيقيـة، لعـدم كونها خارقة للنـواميس، فهي معجزة، لعدم كونها خارقة للنـواميس، و لكونها ممكنة الحصـول على يد غير النـبي عند الأسـتاذ نفسـه؛ حـتى لو لم تكن كـذلك، و كـان حصـولها على يد غير النبي مستحيلا، كانت خارقة للنواميس، و كان حصولها على يد النبي أيضا مستحيلاً، عند الأستاذ.

فإذن لا يصح ذكر هذه الانقلابات من الأسـتاذ على أنها معجـزة دالة على نبوته ﷺ.

و دليل آخر على أن الانقلابـات الأدبية و الاجتماعيـة، الـتي تمت على يد نبينا ممكنة الحصـول عند الأسـتاذ على يد غـير النـبي، أن الإنقلاب التركي، الذي تم على يد مصـطفى كمـال في أقل من ربع قـرن، جـدير أيضا عند الأستاذ أن يعد معجزة، و هو ينعت صاحب هـذه المعجـزة بأنـه: [عبقري، أنقذ أمة الترك من مخالب الدول العظيمـة، الغالبة في الحـرب العالمية الأولى]؛ فجعلها كأنها غالبة على الغـالبين، و أرى العـالم أكـبر مثـال لغلبة القليل على الكثـير، و زاد على ذلـك: [أن دفع أمة الـترك للتقدم بخطوات لم يعهد لها مثيل، و لا في تقدم الأمة اليابانية].

فهذه غلبة ذلك العبقري، و هـذا انقلابه اللـذان تما على يـده، و الغـريب أن الانقلاب الاجتمـاعي، الـذي تم على يد مصـطفى كمـال تجلى بهـدم الانقلاب الاجتماعي الـذي تم على يد نبينا و سـيدنا محمد ﷺ، و كـان نعت الأستاذ لمصـطفى كمـال خاليـاً فقط عن وصـفه بصـفة "النبـوة"، على الرغم من كونه صاحب معجزة أعظم شـأناً، و أجل أثـراً عند الأسـتاذ من المعجزات.

الحاصل أن الأسـتاذ يصر على إهمـال المعجـزات الحقيقيـة، و عـدم الاعتداد بها إلا من الأساطير، مسـتنداً في إصـراره إلى دعـوى التماشي مع العلم، ثم يسـعى في اعتبـار الحادثـات الـتي لا يصح عـدها من المعجزوات، معجزات!

حـتى إنه يغمض عينيه عن ألف من الملائكة مـردفين؛ أمد الله بهم المؤمـنين في وقعة بـدر، كما قـال الله تعـالى: ﴿إِذْ تَسْـتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال:9]؛ يغمض عينيه عنهم، مع كـونهم منصوصا عليهم في كتـاب اللـه، و مع كـون نص الكتاب هـذا مـذكوراً في مقالة الأسـتاذ عن السـيرة النبويـة، و مع كـون الإمداد بالملائكة معجزة حقيقية، غير قابلة للتأويل بالأسـباب العاديـة، و أصل العلة الـتي مفكـرة الأسـتاذ معتلة بها مع مفكـرة نخبته المثقفة المصرية، كونه لا يؤمن بالمعجزات، فلهذا تراه يتلاعب بها نفيا و إثباتاً.

و غير خـافٍ على الفطن أن في اعتبـار ما ليس بمعجـزة معجـزة، علاوة على إلغاء المعجزات التي تكون خارقات للعادات، و النواميس الطبيعية، و التي هي المعجزوات الحقيقية، استهانة مضاعفة بالمعجزات، و إنكاراً لها مضاعفاً.

[و ما زالت تــؤثر في أمثــالهم في القــرنين التــاليين، و صارت فيهما له دولة]، يسكت الأستاذ في هذه المرة عما لدولتها من المستعمرات في الشرق الإسلامي.

[فتدارك الله الناس بما وجه عقولهم إليه من مكتشفات علميـــة، في المبـــاحث النفســـية، أثبت لهم من طريق الأسلوب العلمي أن هؤلاء الماديين على ضلال مبين].

فهل هـــذه المكتشـــفات العلمية ضد الفلســـفة المادية الإلحادية، و تدارُك الله الناس بها، كل ذلك حصل مع تولي الأستاذ رئاسة تحرير (مجلة نور الإسلام)؟

أم أنه كان حاصلاً قبله، فكتمه حين كتبه في (الأهـرام)، كلماته الـــتي تحـــدى فيها الأديـــان بلســـان العلم <380> الحـــديث، و أعلن عجز الشـــرق الإســـلامي عن أن ينبس بكلمة أمـــام هـــذا التحـــدي، و "اضـــطرارَه إلى اســـتيطان الإلحاد، و تمسكه به، متيقنا أنه مصير إخوانه كافـة، مـتى وصـــلوا إلى درجته العلميـــة"، و أعلن اضـــطرار الأســـتاذ نفسه بسبب هذه الكارثة إلى إلغـاء ربع القــرآن، و إخلائه عن المعنى المفهوم؟

فمن أين للأســتاذ هـذه القـوة السـحرية، الـتي بُعثت بها الأديان من قبورهـا، بعد أن كـانت مقـذوفاً بها إلى عـالم الأساطير؟

فهو جعل الأديـان أولاً: أماتها العلم الطـبيعي، ثم يجعلها يحييها علم النفس؛ مع أن كلاًّ من الإماتـــة، و الإحيـــاء، لا أصل له إلا في مخيلة الأستاذ، وستعرف ذلك.

و كان الأســتاذ حين كـان مع العلم الطـبيعي، و الفلسـفة المادية، اللــتين أذعن لــدولتهما في الأرض، يستشــعر من تشـــابه الأديـــان الســـماوية، بعضـــها مع بعض، أنها من موضوعات البشر، مشتقة الأصول بعضــها من بعض، و أن إسنادها إلى الله كذب و دجل؛ كـان في ذلك الحين يسـلم للعلم الطبيعي، و الفلسـفة الماديـة، بهـذا الظن السـيء نحو الأديان، و لم ينبس بكلمة في الرد عليه مع أن تشابه الأديـــان الســـماوية الحق بعضـــها مع بعض في الأصـــول ضروري، لكون واضـعها جميعها هو اللـه، الـذي لا ينـاقض نفسه في أديانـــه، الـــتي دعا إليها عبـــاده في أزمنة مختلفة[164]؛ كما نـاقض الأسـتاذ نفسـه، حين اعتـبر تشـابه الأديـــان مع بعضـــها أولا من عيوبهـــا، و هو يومئذ متكلم بلسان العلم، لا يسمع لكلامٍ غير كلامه.

ثم اعتبر هذا التشابه بعد أن عين لرئاسة مجلـتي الأزهـر، و تولى الدفاع عن الدين، كمحام يدافع عن قضية موكله – من فضـائلها مناقضـةً خالصة من غـير أن يرجع عن قوله في مقالته، التي ناقشتُه عليهـا، و الـتي نقلت منها آنفـاً ما يلفت إليه.

فانظر ماذا يقول في الجزء السابع من المجلد السابع من (مجلة الأزهر)، من مقالة رئيسـية، و هو يمتـدح الإسـلام <381>: [و من الوسائل التي تذرع بها الإسلام للتقريب بين الأمم المختلفـــة، ما نص عليه كتابه في مســـألة الإيمـــان برسـالة محمد خاصـة، و رسـالاتِ المرسـلين عامـة؛ فقد صـرح سـبحانه و تعـالى أنه لم يرسل خـاتم رسـله بـدين جديـــد، و لكنه أرسل بالـــدين الـــذي أنـــزل على جميع من تقدمه من المرسلين؛ فقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الـدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْـرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُـوا الـدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُـوا فِيـهِ كَبُـرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَـاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُـوا إِلَّا مِن بَعْـدِ مَا جَـاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيـاً بَيْنَهُمْ وَلَـوْلَا كَلِمَـةٌ سَـبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَـلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْـدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِـرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنـزَلَ اللَّهُ مِن كِتَـابٍ وَأُمِـرْتُ لِأَعْـدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِـيرُ﴾[الشـورى:13-15].

نصت هذه الآية على أن وظيفة النبي ﷺ إعـادة ما سـبق به الوحي على ألسنة جميع المرسلين من الدين، و الصــراط السوي، فحرفه أتباعهم، و خرجوا به عن حقائقه].

و هل الأســـتاذ عند إيمانه بـــالعلم وجـــده -أعـــني العلم المـــادي- لا يعـــرف ما ســـيقوله أيضـــاً في (ص 39)، من المجلد السادس من (مجلة نور الإسلام): [كتبنا مراراً في ســـقوط المـــذهب المـــادي، و تـــدهوره إلى الحضـــيض، و صورنا بعض المعارك التي حـدثت بينه و بين أركـان العلم في العالم الغربي، و نـرى أن الـواجب]، واجب الوظيفـة، [يدعونا إلى متابعة الكشف و الإيضاح عن هـؤلاء المعـارك الفلسفية، فإن الدين في العصر الحاضر لا يُخـدَم بأحسن من دحض هـذا المـذهب، الـذي كـان له رواج لـدى بعض العقـــول، فتخيلـــوه من العلم، و ما هو منه في كثـــير و لا قليل] <382>.

و ما سيقوله في مقالة ينشرها في (جريدة الأهرام، عـدد 1983) عند مناظرته الأستاذ نصيف المنقبادي، المحـامي، الـذي أنكر حادثـات تحضـير الأرواح، و ردها إلى الـدجل، و النصب، مسـتنداً إلى عـدم قبـول العلم أي العلم الحـديث المادي، أمثال تلك الحادثـات؛ فقـال الأسـتاذ فريد وجـدي مجيبا عليـه: [يقـول حضـرته] يعـني الأسـتاذ المنقبـادي، [العلم يـبرأ من هـذه الخرافـة، فـأي علم يريـد، و العلم نفسه يعلن أنه لم يجـاوز قشر الأشـياء، و لم يعد يعـرف بعض العلاقـات بينهمـا، و أعلن حيرته في كنه المـادة، و حقيقة الإدراك، و ما لا يحصى من دساتير فيزيولوجيـة، و بيولوجيـة، و غيرها مما لا يحصى كـثرةً، و قد صـرح أكـبر أقطابه، أنه لا يزال في المهد.

فأي علم هـذا الـذي ينطق بلسـانه الأسـتاذ المنقبـادي، و يجعله يقول هذا ممكن، و هذا مستحيل؟].

و أنا أقول: لو كنت مكان الأسـتاذ المنقبـادي –و لا أود أن أكـون- لقلت –جوابـاً على سـؤال: [أي علم هـذا...؟]-: هو العلم، الـذي قـال الأسـتاذ السـائل نفسه عنه في مقالته المنشـــورة على (الأهـــرام)، قبل أن عين مـــديراً و رئيس تحرير (لمجلة الإسـلام) الأزهريـة، تأييـداً لإنكـار معجـزات الأنبياء: [... في تلك الأثنـاء، ولد العلم الحـديث، و ما زال يجاهد القـوى الـتي كـانت تسـاوره، حـتى تغلب عليهـا، و دالت عليهـــا، و دالت الدولة إليه في الأرض، فنظر نظـــرة في الأديان، و سرى عليها أسلوبه، فقـذف بها جملة إلى عـالم الميتولوجيا -الأسـاطير- ثم أخذ يبحث في اشـتقاق بعضها عن بعض، و اتصال أساطيرها بعضها ببعض، فجعل من ذلك مجموعة تقرأ، لا لتقدس تقديسـاً، و لكن ليعـرف البـاحثون منها الصـور الذهنيـة، الـتي كـان يسـتبعد لها الإنسان نفسه، و يقف على صيانتها جهـوده، غـير مـدخل في سبيلها روحه و ماله.

و قد اتصل الشـرق الإسـلامي بـالغرب منذ أكـثر من مائة ســـنة، فأخذ يرتشف من مناهله العلميـــة، و يقتبس<383> من مدينته الماديـــة، و وقف فيما وقف عليه على هـــذه الميتولوجيا -الأساطير- و وجد دينه ماثلا فيهـا، فلم ينبس بكلمة لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله، و لكنه اسـتيطن الإلحـاد، و تمسك به متيقنا أنه مصـير إخوانه كافـة، مـتى وصلوا إلى درجته العلمية.

و قد نبغ في البلاد الإسلامية كتاب و شعراء، وقفـوا على هذه المباحث العلمية، فسحرتهم، فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها، دسا في مقـالاتهم و قصـائدهم، غـير مصـارحين

---

[164] و كتاب الإسلام لا يخفى هذا التشابه بل يجهر بقوله في خطاب خاتم الرسل: "نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه".

بها غير أمثالهم، تفاديا أن يقاطعوا، أو ينفوا من الأرض[165].

و لو كنت مكان الأستاذ المنقبادي، لقلت أيضا: هو العلم الذي قال الأستاذ السائل نفسه عنه في مقالة أخرى سابقة: [إن العلم و الفلسفة ينقصان كل يوم من أطراف رجال الدين، و إن الناس يتسللون عنهم زرافات، حتى لم يبق سواهم في المجال، الذي هم فيه، فابتنى على ذلك أن الفلسفة التهمت الطبقات المتعلمة، و أصبحت عنصرا من عناصر روح العصر، تتنزل منها العادات، و الآداب، و الأخلاق، بل و الأنظمة، و القوانين، و المثل العليا].

يكاد لا يوجد في الدنيا مثال لمناقضة الإنسان نفسه أبلغ، و أظهر مما ناقض الأستاذ فريد وجدي بك، بعد توليه الوظيفة الأزهرية نفسه قبل توليها؛ فهو يخول للعلم الحديث المادي أولا حق الحكم و السلطان في الأرض، ثم حق القذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير، و لتعليمه حق استنباط الإلحاد؛ و يجعله يحكم باستحالة ما نطقت به كتب الأديان السماوية من معجزات الأنبياء، و أنباء البعث بعد الموت.

و هو القائل ثانيا<384>: [أي علم هذا، الذي يحكم بأن هذا ممكن، و هذا مستحيل؟ و العلم لم يجاوز قشر الأشياء، و هو بعد في المهد].

و يكاد لا يوجد في الدنيا بلد: "كل شيء فيه ينسى بعد حين"، مثل مصر، كما قال أمير شعرائها؛ و لا في مصر مثل الأستاذ فريد وجدي بك، حيث يجترئ على أن يدعي نقيض ما ادعاه من قبل على صفحات الصحف اعتماداً على غفلة القراء، و اعتبارهم أقل من أن يسجلوا ما كتبه عليه، لا رجوعاً عن دعواه الأولى، و اعترافاً بخطئه فيها، و لو فعل ذلك كان فضيلة لنفسه...

بل لا يكاد يوجد مثل مشيخة الأزهر، رأت في الصحف، و المجلات مقالات ثار كاتبها على الأديان، جملة، و حمل عليها حملات باسم العلم ساعيا لهدمها، و رأت أنه ينكر معجزات الأنبياء و الدار الآخرة، و يلغى في سبيل إنكارهما ربع القرآن تقريباً.

رأت كل هذا، فانتدبت ذلك الساعي في هدم الأديان، و إقامة الإلحاد مقامها، باستبطانه أولا، ثم الجهر به لما جاء أوانه، للدفاع عن الإسلام، انتدبته للدفاع عنه، على الرغم من أنه ادعى عند ثورته على الأديان أن الإسلام كغيره في عدم إمكان الدفاع عنه، و أن إنقاذه، و إخراجه عن حفرة الأساطير التي قذف به إليها مع سائر الأديان أكبر من أن يحاوله محاول، لكون القاذف هو العلم الحديث، الذي دالت الدولة إليه في الأرض.

و أنا لا أدري أي الموقفين أعجب، و أمس بكرامة الواقف؟

أموقف الأزهر الذي احتاج إلى شخص الهادم لأمر البناء؟ أم موقف الهادم المتولي بناء ما هدم بيده؟

و أطرفُ ما في الأمر أن الرجل لا يستطيع البناء، كما أنه لم يستطع الهدم، و إنما هو هادم نفسه في حالتيه، و على هذا فقد يمكن الاعتذار عن فعل الأزهر، الذي انتدب الهادم للبناء، بأنه استدرجه ليهدم نفسه!!

أقول هذا، غير حاسد للأستاذ في مركزه بالأزهر، و (مجلة الأزهر)، و ليس في الإمكان<385> أن أحتل محله في رئاسة تحريرها، و لكنه إن لم يوجد في الأزهر، و لا في مصر للدفاع عن الإسلام غير من سعى بالأمس، ليهدم الأديان كلها، و لم يكن هذا التحول لشعور منه، أو اعتراف بأنه مخطئٌ في أقواله السابقة، الهدامة، فيرجع عنها كما يرجع التائب عن ذنبه، بل لأجله وظيفة في مقابل أجرة، لا بأس بها، حتى إنه إن أقيل عن وظيفته، خيف من معاودته إلى تعديه على الأديان، و لا تكون تلك المعاودة أول تحوله ضد الأديان.

فما هو إلا كالسجين يؤمن شره مادام في السجن، و سجن هذ السجين وظيفته الأزهرية، و لعل موقفه الخاص بين الموظفين، يكفل له بدوام الوظيفية.

لكنه إن لم يوجد في الأزهر، و لا في مصر من يدافع عن الدين غير هذا الذي يدور مع الزمان، و ينقلب مع انقلابه، فعلى الأزهر، و على مصر العفاء.

و جِدّ عجيب من الأستاذ تحوله ضد الفلسفة المادية، لا من قبيل تصحيح الخطأ، و لا من حيث لا يشعر بالتحول، بل من حيث لا يُشعِر به.

انظر كيف نزل العلم الحديث المادي، الذي ما زال يجاهد القوى، التي كانت تساوره حتى تغلب عليها و دالت عليها، و دالت الدولة إليه في الأرض، فقضى بسلطانه المسلم به على الأديان كلها، و لم يستطع الشرق الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، مع جميع كتابه و شعرائه النوابغ -و أين علماؤه؟- أن يدافع عن دينه أمام القاضي عليه، فلم ينبس بكلمة، لأنه يرى الأمر أكبر من أن يحاوله بل اضطر إلى اعتناق الإلحاد، دينا سريا له...

كل هذا مأخوذ من كلام الأستاذ في إكبار ذلك العلم، و تأثيره في الشرق الإسلامي ضد الدين... انظر كيف نزل هذا العلم، بين عشية توليه الوظيفة الأزهرية، و ضحاه إلى حد أنه: "كان يوما له رواج عند بعض العقول، أو بالأصح عند بعض قصار النظر، فتخيلوه من العلم، و ما هو منه في كثير، و لا قليل!".

و كيف حق له هذا الاستصغار بعد ذلك الإكبار؟

فماذا كان إذن معنى كون الشرق الإسلامي<386> يرمي الأمر، أي أمر الدفاع عن دينه أكبر من أن يحاوله؟

و إذا لم يكن ما تخيلوه من العلم في كثير و لا قليل منه، فلماذا كان الأستاذ قبل توليه الوظيفة الأزهري، يحاول هدم الأديان به، و يُوليه اسم العلم بملء شدقيه، و يراه صاحب الدولة في الأرض؟

أفكل هذا الذي يسلبه الجدارة باسم العلم تعلّمه الأستاذ في هذا العهد الأخير؟

و هل الأستاذ أيام إيمانه بالعلم وحده، كان لا يعرف أيضا ما سيقوله في (ص: 695) من الجزء العاشر، من المجلد السادس من (مجلة الأزهر): [مضى الزمان، الذي كان يُعتبر الدين سخرة، أو تقييداً للحرية الصحيحة، أو حرماناً للنفس من مشتهياتها في الحدود العلمية] قل: أو شيئاً يقذف به إلى حضيض الميتولوجيا؛ [و هذا زمان] لما جلا عيني الأستاذ بكحل الوظيفة[166]، [تجلى فيه بالدليل القاطع: أن الدين حاجة أولية للروح، لا معدى لها عنه[167]، و إذا قلنا الدليل القاطع قصدنا به الدليل العلمي، المؤسس على علم النفس.

و لا يتسع المجال الآن لبيان ذلك على وجه يوفي بالحاجة العقلية، من كل نواحي هذا الأمر الجلل، و لكني أستطيع أن أقول على عجل: إن الفلسفة المادية التي حاولت في قرون ثلاثة أن تقطع كل صلة بين الإنسان، و ما فوق المادة، قد منيت بفشل حاسم، لا قيام له من طريق

---

[165] نقلت كلام الأستاذ هذا من قبل أكثر من مرة، أو مرتين، أو مرات، و بودي أن أكرره كلما دعت إليه مناسبة التحكك في هذا الكتاب بأقوال الأستاذ لأنه -و لم يحرك ساكنا غيري عند نصره على صفحات (الأهرام)- حسبه معرفا بموقف مصر من العناية بالدين، و السهر على حياته، و صيانته من مكايد المعتدين.

[166] "الكحل": معروف، و بمعنى المال الكثير.

[167] الإيمان بالدين لكونه حاجة أولية للروح، ليس بطريق متين في إثبات الدين، بل الواجب أن يؤمن به، لكونه حقا.

العلم الطبيعي نفسه، لا من طريق القولم الدينية، فقد توصل العلم إلى إحالة المادة إلى قوة، أي إلى إثبات أن لا وجود لها، و أنها عرض من أعراض القوة، و بزوال هذه العقبة الكأداء من طريق العقل الإنساني، انفتحت أمامه باحة لا حد لها إلى عالم القُوى، التي هي مصدر كل موجود في عالم الشهادة]<387>.

على أن انقلاب الأستاذ لحساب الدين ضد الفلسفة المادية، بهذه الطريقة مما لا حاجة إليه للدين لأن صلة عقل الإنسان بما فوق المادة، كانت موجودة قبل ما ذكره الأستاذ من وصول العلم إلى عدم وجود المادة... و أن ما ذكره في هذا الصدد، لا يثبت عدم وجودها، و لا كونها عرضا من أعراض القوة، و إنما يثبت كونها قابلة للفناء، الذي كان معلوما لأهل العلم الحقيقي، لأن كل شيء غير الله تعالى قابل للفناء عندهم.

فمن مسائل المتون الكلامية المؤلفة في الإسلام قدماً: "أن العالم حادث، و أنه قابل للفناء، لأن ما لم يثبت قدمه، لا يمتنع عدمه".

و أن المادة لم يثبت قدمها عند علماء الإسلام، فلهذا لم يمتنع فناؤها؛ ثم إن المادة -لو فرض أنها قديمة، و أنها لا تنعدم-، بناء على أن ما ثبت قدمه، امتنع عدمه، فلا يمنع ذلك صلة عقل الإنسان بما فوق المادة.

ألا يرى أن الفلاسفة الإلهيين، أعني المعترفين بوجود الله مثل أرسطو، قائلون بقدم المادة مع القول بوجود الله، فليس ما اعتبره الأستاذ عَقَبة كَأْدَاء، بعَقَبة، و لا ما ذكره في زوالها، بمُزِيل؛ لكن الأستاذ عند التكلم عن الفلسفة، و علوم الغرب، و مكتشفاته لا يتكلم بميزان يميز النافع للدين من غير النافع، بل و لا الحق من الباطل.

و مثال ذلك: ما كتبه في مقالة بعنوان: "إلى الذين لا يؤمنون بالغيب"، (ص 750)، من الجزء العاشر من المجلد الرابع، من (مجلة نور الإسلام)، "عن أمور لم تدركها الحواس في حالتها الطبيعية، مثل المكروبات، و غيرها، مما لا يحس وجوده إلا بآلات دقيقة راقية".

و يحاول الأستاذ بتعدادها الاعتراض على الذين لا يؤمنون بالغيب، لكنه ينسى -أو يتناسى- كونه نفسه هو الذي علم الناس، و لا يزال يعلمهم عدم الإيمان بالغيب في تمسكه دائماً بقاعدة الفلسفة المادية القائلة: "بأن كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا يعتد به".

و على هذا فالذين لا يؤمنون بالغيب الملومون في مقالة الأستاذ لهم أن يقولوا جوابا على تلك الأمور، التي عددها الأستاذ: إنها اليوم ليست بغائبة عن حواسنا، و لو بواسطة الآلات، و نحن لا نؤمن بالغيب ما دام غيباص، و ماذا فائدة ذكر الأمور التي كانت غيبا<388>، ثم أصبحت شهادة، بصدد الاعتراض علينا؟

فإن كانت فائدته أن يستدل بها على إمكان وجود غيب آخل لم يصر بعدُ شهادة، فلا يتعين أن يكون ذلك الغيب ما يعتقده المؤمنون بالدين مثل وجود الله، مع أن الاعتراف بإمكان وجود الله مثلا، لا يكفي في الدين، بل يجب القطع بوجوده؛ فليس لنا بالنظر إلى أسلوب الأستاذ في الدفاع عن وجود الغيب إلا أن نقول للذين لا يؤمنون بالغيب: انتظروا، و أنتم معذورون في الانتظار، حتى تكتشف في الغرب آلة تعرض الله على الحواس!!!!

و من قبيل ما كتبه الأستاذ في هذه المقالة ما كتبه في مقالة أخرى عنوانها: "لماذا يصادف أكثر الشاكين في المتعلمين؟"، (ص 382)، الجزء الخامس، من المجلد السابع من (مجلة الأزهر)، و قد قال في صدر المقالة: [من الشبهات التي تُكدّر على بعض أذكياء العام صفاءهم الاعتقادي، أنهم يصادفون كثيرا من المتعلمين شاكين مستهينين بالدين، و بعضهم مجاهرين بالزندقة، زارين بالاعتقاديين، و قد كثر أمثال هؤلاء في طلبة المدارس، و بخاصة مجاهرين بالزندقة، زارين بالاعتقاديين، و قد كثر أمثال هؤلاء في طلبة المدارس، و بخاصة الذين يتلقون العلم منهم في أوروبا[168]، حتى لا يخجل الواحد منهم أن يهاجم معتقدات أبويه، مثيرا عليهما من الشبهات ما لم يصلا إليه، فتسرب إلى عقول العامة أن العلم يفسد العقائد، و يغري بالزندقة، و يُعد القلوب للإلحاد].

سبحان الله، ما تسرب إلى عقول العامة من مضادة العلم للدين، كان الأستاذ جهر به على صفحات (الأهرام)، قبل الحصول على الوظيفة الأزهرية بأسبوع، فهل كان هو يومئذ من العامة يجري على قلمه ما تسرب إلى عقولهم؟

إلا أن يلاحظ الفرق بينه و بينهم بأن العامة لكونهم لم يصلوا إلى درجة الأستاذ العلمية، لا يميلون إلى جانب العلم<389>، خاذلين الدين في الحرب القائمة بينهما، و لا يقاس عليهم الأستاذ طبعاً، لاسيما بعد أن قال ما معناه: [إن العلم قذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير، و انتهى الأمر، و لم يبق للناس إما أن يكونوا متدينين من غير علم، أو يكون علماء بلا دين، فلهذا اختار الشرق الإسلامي، و على الأخص نوابغه من الكتاب، و الشعراء أن يستبطنوا الإلحاد، على أن يظلوا جهالاً، فمن تردد في اعتناق الإلحاد، فمنشأه نقصان العلم، و لا بد أن يكون مصيره مصيرَ النوابغ في قبول الإلحاد سرا، أو جهراً، متى وصل إلى درجتهم العلمية].

هذا كله مأخوذ من نص كلام الأستاذ من غير أدنى مبالغة زدناها عليه، فهكذا قال من قبل، و رسخ قوله في قلوب المعترفين له بالنبوغ، ثم أعدى الضلال منهم إلى غيرهم.

فلا محل للتعجب إذا كان أكثر المتعلمين بمصر و غيرها من البلاد الإسلامية، و بخاصة الذين تلقوا العلم منهم في أوروبا مُلْهمَة أقوال الأستاذ المضلة، شاكين مستهينين بالدين؛ ألا يحبون أن يكونوا نوابغ بلادهم، المعتاد أن يكونوا ملاحدة، و المنتظر من كل من هو في سبيل التعلم أن يكون مصيره مصيرَهم من الإلحاد، متى وصل إلى درجتهم العلمية؟

و كل كلام للأستاذ اليوم، مخالفٍ لما قاله أولا، فليس ببعيد أن يقول عنه الناس -و لا سيما المتعملون تلامذة الأستاذ الأولون-: "إنه محمول على مسلك الاستبطان"، الذي هو ملاذ النوابغ عند الحاجة؛ كما نبه عليه الأستاذ نفسه من قبل، و أطلعهم على هذه المهمة أيضاً.

و إلا فكيف أمكنه اليوم أن ينبس بكلمة في الدفاع عن الدين، على حين أن الشرق الإسلامي يرمي الأمر -على قوله- أكبر من أن يحاوله؟

و قال في آخر المقالة: [أكثر المتخرجين في العلوم يتوهمون أن ما حصلوه هو نهاية ما يبلغه الإنسان من العلم، و أن الموازين، و المقاييس، التي تحت أيديهم تكفي لأن يدركوا بواسطتها ما هو موجود، و ما ليس بموجود، و ما هو ممكن، و ما هو محال.

---

[168]كان الأستاذ من قبل يجد طبيعيا التهام الفلسفة المادية، للطبقات المتعلمة، حتى إنه كان يشمت برجال الدين على انفضاض الناس من حولهم، و عدم بقاء غيرهم في المجال الذي هم فيه، كما سبق نقله عن لفظه.

فمتى دُعوا لينظروا في أمر من الأمور العلوية، وزنوه بتلك الموازين فإن لم يتأثر به حكموا بعدم وجوده<390>.

هنا لعل قائلاً يقول: هذه موازيننا، فإن كان لديكم غيرها، فأتوا بها، فإن لفتمونا إلى الموازين العقلية و الذوقية، فلا يخفى عليكم ما مُنيت به من النقد في العصور المتأخرة، و هي و إن كانت قد أقنعت أهل القرون الخالية فإنها اليوم لا تقنع أمثالنا، ممن أدركوا الفرق بينها و بين الدستور العلمي].

و نحن نقول: إن المنهج الذي انتهجه الأستاذ في إثبات الدين بقسر الوظيفة الأزهرية الطارئة غير مضمون النجاح، لا أقول إنه غير صميمي في الدفاع عن الدين صميميته في حملته عليه حين كان حرا من الوظيفة.

لكني أقول إنه لا يعرف طريق الدفاع النجاح، كما أنه كان و لا يزال غير عارف بسخافة موقفه لما ضرب الدين بمدفع العلم، فلو كان ذا بصيرة في موقف الهجوم، لما اجترأ عليه، و لو استبصر في موقف الدفاع، و أدرك خطأه السابق، لما سلك في الدفاع طريقا وعراً.

فهو في حالتيه لا يفارق الضلال الفكري، فهو فيما نقلنا عنه آنفاً من السؤال المقدر، الذي أورده على نفسه من جانب المتعلمين الشاكين، نص على خطإه الذي كان دافِعَه في حالته الأولى إلى مهاجمة الدين، و هو فيما سننقل عنه من جوابه على سؤاله ينص على محل خطإه في حالته الثانية.

فهذا السؤال و الجواب يلخصان ضلال الأستاذ القديم و الحديث، و يلخصان أيضا أعماله، و مساعيه، و خدماته القلمية الموجهة نحو إرشاد الناس في دورتيه المختلفتين.

فليس للأستاذ قناعة اعتقادية متقررة في مسائل الدين، فهو يسعى لإقناع نفسه فيما كتبه لإقناع قارئيه على طول السنوات، و هو في طليعة الشاكين عند ما يلومهم و يعمل على إزالة الشك من أذهانهم، و هو زيادة على ما عليه الشاكون من أكبر المشككين.

و قد قرأتم سؤاله، فاقرأوا جوابه عليه: [فنحن نجيبه: بأن الحق سبحانه و تعالى قد أتى هذه النزعة العلمية، بما يوفي بحاجتها؛ فقد فتح على أقطاب العلم تحت إشراف البحوث النفسية أبواباً من المشاهدات المحسوسة، خرت لها أعناقهم خاضعين، و لكنهم لا يعيرون هذه البحوث التفاتا، فإن ذكروا<391> بها قالوا: إنها أوهام قوم مخدوعين، و هي في الواقع تجارب و مشاهدات قام بها أقطاب العلم المقدمين من أعضاء الأكاديميات، و عمداء الجامعات، فإن كان خصومنا يصرون بعد هذا على موقفهم فالتبعة عليهم لا على نقص الموازين.

و هذا هو السبب الرئيسي، فيما يصادفه الرائي من مظاهر بعض المتعلمين بعدم الأبْه، بغير المسائل المادية، و قد بينت أنهم في هذا الشذوذ هم المقصرون، و أن الحق جل شأنه آتى العقول في كل زمان بما أحست بالحاجة إليه، من وسائل البحث، و التمحيص، و السمو إلى اقصى مراتب العلم بعالمي الشهادة و الغيب].

فالأستاذ بعد أن قال في مقالته السابقة، التي نقلنا عنها بعض الجمل: [و هذا زمان تجلى فيه بالدليل القاطع على أن الدين حاجة أولية للروح]؛ فكأن هذه الحاجة إلى الدين ثبتت اليوم، و لم تكن من قبل حاجةٌ إليه، و كأنه إذا ثبتت الحاجة إلى الدين، ثبتت اليوم، و لم تكن من قبل حاجةٌ إليه، و كأنه إذا ثبتت الحاجة إلى الدين، يثبت الدين من نفسه!!!

قال: [و نعني بالدليل القاطع الدليل العلمي، المؤسس على علم النفس]؛ فسجل على أن أدلة الدين، لم تكن قبل هذا الزمان قاطعة، و لا علمية.

و بعد أن أورد في المقالة الأخير اعتراضه على معتقدات الدين بألسنة الملاحدة العصريين، و سجل مرة ثانية على أن الموازين العقلية المثبتة غير خاف على العصريين أنها ممنوَّة بالنقد، و أنها إن أقنعت أهل القرون الخالية، فاليوم لا تقنع المتعلمين المدركين الفرق بينهما و بين الدستور العلمي.

كما سجل عليه مرة ثالثة بقوله في مقالة أفردها لنقد آراء الفيلسوف -على تعبيره- الزهاوي العراقي، و نشرها في الجزء الخامس من المجلد الثامن، من (مجلة الأزهر): [أسلوب الفلاسفة الأولين الاعتداد بالمسلمات العقلية، و القضايا المنطقية، و التدرج منها إلى إدراك العلل الأولية]، يعني إدراك وجود الله، [و هو أسلوب أصبح لا يقنع أكثر المتعلمين على الطريقة الحديثة]<392>.

و قال في نفس المقالة عن الفيلسوف الذي ينتقد آراءه: [افتتن بمقررات العلم الطبيعي، و شُغف حبا بالفلسفة المادية، فخلصته عن العقائد الدينية، و لم يستطع أن يتغلب على عقائده الوراثية فيعلنَ أنه أصبح ماديا[169]، فوقف حائراً لا يدري بأي فريق يلتحق؟ أبفريق الذين يؤمنون بالغيب؟ أم بفريق الذين يؤمنون بالواقع؟].

فوضع الإيمان بالغيب في مقابل الإيمان بالواقع، و هو أقبح تسجيلات الأستاذ على نفسه، كأن الإيمان بالغيب إيمان بغير الواقع[170]، فزعزع بهذين القولين الأخيرين، و اللذين قالهما قبلهما، مكانَ الثقة بالدليل العقلي المنطقي، القائم على أساس الدين، أعني وجود الله، و خلّى الزعزعة تفعل فعلها في القلوب، بل أيدها، و أيد اعتراض خصوم الدين بقوله في مقالة أخرى، بصدد مدح العرب في خدمة العلوم (ص 283)، الجزء الرابع، من المجلد الخامس من (مجلة نور الإسلام): [و مما حير أنهم اتبعوا في بحوثهم العلمية الأسلوب العلمي الذي يؤدي إلى نتائج صحيحة لا الأسلوب العقلي الذي يكثر فيه الخطأ].

بعد كل هذا الذي يقضي في زعم الأستاذ على الدليل العقلي، بالرغم من أنه كان مدار إثبات وجود الله عند علماء الإسلام، على هذا الدليل، منذ تأسيس فلسفة الإسلام، بتدوين علم الكلام، الذي هو علم أصول الدين الوحيد في الإسلام...[171]

بعد كل هذا علق الأستاذ<393> أمل تأسيس العقيدة الدينية على أساس متين علمي، بما اكتشفه أقطاب العلم في الغرب، و ما سيكتشفونه تحت اسم البحوث النفسية، و بالخلاصة علق إثبات وجود الله باكتشافات

---

[169] و قال في نفس المقالة أيضا: [إن الزهاوي كان يكتب شيئا ثم ينقضه بقول آخر، و هو أسلوب في الكتابة، كل ما يمكن أن يعتذر عنه، أنه يلجأ إليه هربا من تبعة ما قرره من الآراء الإلحادية، في نظر الرأي العام والحكومة، و لكنه اعتذار غير وجيه، و كان الأولى أن يتحمل تبعة ما يقول كما فعل جميع الذين تقدموه من ضحايا آرائهم أو أن يسكت]؛ أقول: أو أن يفعل كما فعل الأستاذ فريد نفسه، فتأمل.

[170] فلماذا إذن كان الأستاذ في مقالته المذكورة من قبل يلوم الذين لا يؤمنون بالغيب، مادام الإيمان بالغيب إيماناً بخلاف الواقع.

[171] مر على الإسلام زمان كان المترددون في أمر الدين لا يقنعهم الدليل النقلي، كالآيات، و الأحاديث، فيطالبون العلماء بدليل عقلي، و كان بعض معاني تلك المطالبة أنه لا يقتصر حل المسألة على ما بين المسلمين؛ لكن الأستاذ فريد وجدي بك تقدم شأواً آخر، فقضى بآية المحكمات و المتشابهات على الدليل النقلي فيما بين المسلمين أيضا، ثم دار الزمان، و مل الإنسان عقله، فأصبح الآن لا يقنع الشاكين دليل يقنع العقل، فيطالبوننا بدليل يقنع البصر... و يخشى من حلول زمان لا يروج فيه غير دليل يشبع البطن!!!! و قد لا نغالي إن قلنا بأن ذاك الزمان حل فعلا.

"الاسبيرتيزم"، و اعترف في ضمن هذا التعليق بأنه لم يثبت بعدُ في صورة قطعية علمية، لأن ما اكتشف منها أيضا، لم يقنع أكثر المتعلمين العصريين الشاكين، كما لم يقنعهم الدليل القديم العقلي المنطقي.

أما كونه يحملهم تبعة عدم الاقتناع بالدليل الجديد العلمي، المكتشف، فليس له الحق في ذلك، لأن الأستاذ نفسه أيضا كان قبل تولي الوظيفة الأزهرية، لا يقتنع بثبوت عقيدة الديانة بتلك البحوث النفسية، و لم تكن تلك البحوث يوم أعلن الأستاذ عجز الشرق الإسلامي عن إنقاذ دينه المدفون مع سائر الأديان في مقبرة الأساطير، مجهولةً للذين لهم اتصال بالغرب و اكتشافاته مثل الأستاذ، و قد قرأت أنا كثيرا من تلك البحوث في كتاب ألفه كاتب تركي، و نشره في سنة 1982، و هذا التاريخ يتقدم بسنوات على مقالة الأستاذ، التي صوب فيها حملته العنيفة على الأديان، مستنداً إلى العلم الحديث المادي، و التي نشرها في (الأهرام)، أثناء المناظرة الجارية بيني و بينه، و تولى رئاسة (المجلة الأزهرية) بعد أسبوع، أو أسبوعين، و قد نقلنا عنها فيما سبق فقرات، و سننقل تمامها في نهاية هذا الكتاب إن شاء الله.

الحاصل: أن الناظر المدقق يرى الأستاذ في دورة دفاعه عن الدين، أي في دروة البناء أيضاً لا يُقلع، و لا يتخلى عن الهدم، كما أن دورته المتقدمة المتحاملة على الدين كلها هدم.

و أصل الداء الذي ساق هؤلاء المتعلمين إلى الشك المنتهي في الإلحاد -و في قلب الأستاذ أيضاً على الرغم من تعييبهم به أثر عميق منه، ينكس الفنية بعد الفينة- اعتقاد<394> أن الله تعالى لا يثبت وجوده ثبوتا علميا ما لم تشهد به التجارب الحسية، كما شهدت بسائر المسائل الثابتة في نظر العلم الحديث، و أن ثبوته بالدليل العقلي المنطقي لا يكفي، لعدم الوثوق بسلامته عن الخطأ.

و لهذا لا ترى الأستاذ أبداً يجابه اعتراضه الحاكي عن أفكار الذين لا يقيمون لغير ما تشهد به التجربة الحسية وزناً، بأن الدليل المنطقي المبني على العقل يغني كل الغنى عن غيره، و أنه دليل من الطراز الأول، و كتابنا يُعنى على طوله بإزالة الخطأ الفاحش القائل بـ: [أن الحس، و التجربة طريق الوصول الوحيدة إلى الحقيقة دون العقل]، إذ لا يمكن تثبيت عقيدة الدين إلا بإزالة هذا الخطإ، الذي صعب الأمر على المتولين الدفاع عن الدين، فتركوا الطريق العظيم المستقيم، و سلكوا الترهات الصحاصح.

و الأستاذ في دورة مؤازرته الدين، يستمد دائماً من اكتشافات الغرب التجريبية، كما أنه في دورة كتاباته ضد الدين، كان أيضا يقلد الغرب، و لا يُرويه الدليل العقلي في دورتيه، حتى دليل العلة الغائية، الآتي في محله من الكتاب، على الرغم من كونه مزيجاً بالتجربة، لعدم محوضته فيها.

و آخر آمال الأستاذ معلق بتكمل التجارب الحسية، بواسطة ترقي البحوث النفسية في الغرب، إلى حد أنها تُقنع المتعلمين العصريين الشاكين في حقية الدين، و لا تبقى مجالاً للشك في قلوبهم.

و محور تمحيص البحث الذي تدور حوله أفكار الأستاذ، و أقواله أن الدليل العقلي النطقي الذي أقنع العقلاء و العلماء بوجود الله في القرون الماضية، لا تقنع المتعلمين العصريين.

و لكن المهم أن نعرف هل عدم اقتناعهم اليوم به، ناشئ من عيب في الدليل العقلي نفسه ظهر للعصريين، بعد أن كان خافياً على الأوائل، أم العيب و التقصير في العصريين، الذين لا يقتنعون به؟

فقبل إعمال الفكر في الأمر يظهر لصاحب العقل ظهوراً بديهيا، أن القول يكون الدليل العقلي المنطقي غير مقنع ليس بقول ذي عقل<395>.

فلماذا لا يقابل الأستاذ المتعلمين العصريين غير المقتنعين بالدليل العقلي المنطقي، بهذا الاستنكار ليصدهم عن غيهم، و يوقظهم من غفلتهم؟

أكان ذلك لعدم اعتماد الأستاذ نفسه على عقله، و منطقه، و قوة إيمانه بوجود الله، الذي يقوده عقله، و منطقه إلى هذا الإيمان؟

فماذا هو إذن واجبه في رأس (مجلة الأزهر)؟

فهل واجبه أن يقول للناس: انتظروا نتيجة تقدم البحوث النفسية في الغرب، لتقتنعوا بوجود الله اقتناعاً علميا؟

و الأستاذ، و إن تراءى في مسألة عدم الاقتناع بالدليل العقلي المنطقي، كالمحايد الحاكي لرأي المتعلمين العصريين، لكن ميله إلى رأي أولئك المتعلمين ظاهر من أنه لا يعاتبهم على عدم اقتناعهم بهذا الدليل، و إنما يعاتبهم على عدم اقتناعهم بالدليل الجديد العلمي.

فيفهم أن الأستاذ نفسه في طليعة غير المقتنعين بالدليل القديم العقلي، و إن لم يصرح بذلك تمام التصريح تخوفاً، و جبناً ناشئَين من عدم كونه على بينة من حقيقة هذه المسائل رغم وقوفه موقف المعلم الأول إزاء المتعلمين العصريين و غيرهم؛ و الأستاذ من دأبه أن يقول غيره ما لا يجترئ أن يقوله.

و مع هذا فنحن قانعون بأن الأستاذ نفسه لا يعول على الدليل القديم العقلي لما ذكرنا الآن، و لقوله الذي نقلناه أولا من مقالة له يصرح بأن الأسلوب العقلي يكثر فيه الخطأ.

لكن الخطأ في الأستاذي الذي يعيب الدليل العقلي بهذا القول، و هذا القول أيضا لا يصدر من صاحب العقل السليم، لأن النزاع يلزم أن يكون في قيمة الدليل العقلي المنطقي الصحيح، المستجمع لشرائط الصحة، لا في قيمة الدليل العقلي، الذي وقع الخطأ في ناحية من نواحيه، و مثله لا يعد دليلاً على يعاب به الدليل العقلي المنطقي؛ فهل لنا إذا وقع الخطأ في بعض التجارب، أن نعيب على التجربة مطلقاً، و نحكم بعدم التعويل عليها أبداً؟

و ليعلم الأستاذ أن الدليل العقلي الصحيح، الذي يعبر عنه بالدليل المنطقي، كنايةً عن صحته، يحتفظ بقيمته أبد الآبدين[172]، و لا يفوقه<396>، بل لا يعدله أي دليل.

---

[172] و إني أذكر مثالا للدليل العقلي المنطقي، داخلا في موضوع هذا الكتاب، و مذكورا في محله منه، و هو دليل وحدانية الله تعالى، المعروف في علم أصول الدين ببرهان التمانع المستنبط من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[الأنبياء:22]، فإن كان في استطاعة الأستاذ فريد، و جميع خصوم الدليل العقلي المنطقي في الشرق و الغرب نقضه، فلينقضوه، فإني أتحداهم به.

و قد سبق منا في (رقم 3) مثلا عن كتاب الأستاذ محمد صبيح (محمد عبده)، أنه وضع مسألة الوحدانية موضع امتحان عام لعلماء الأزهر، مع مائة جنيه جعلها مكافأة للعالم الناجح في الامتحان فعجز جميع العلماء، عن دخول هذا الميدان ثم قرر الشيخ نفسه الدليل الذي طالبهم به؛ هكذا حكى الأستاذ المؤلف حادثة الامتحان العام، و لم يدع شيئا من تفصيل ما وقع في الحادثة الهامة، المذكورة من غلبة الشيخ محمد عبده، و هزيمة من عداه من الشيوخ، غير مذكور إلا الدليل الذي أقامه الشيخ، و عجز عنه الباقون، فلم يطلعنا عليه الأستاذ.

ثم إني راجعت (رسالة التوحيد) تأليف الشيخ محمد عبده لاطلع على دليله الذي أطراه الأستاذ محمد صبيح، من غير ذكر الدليل نفسه، فوجدته لا يكفي و لا يستقيم لإثبات المطلوب.

أما ذكر الصورة الصحيحة للدليل الذي أراد الشيخ أن يأتي به -و الذي يسمى برهان التمانع- فلم ينجح... فقد أرجأته إلى ملحه من هذا

و لعل الأستاذ، و أمثاله ممن يستخفون بالأدلة العقلية المنطقية إزاء الأدلة التجريبية، لا يعرفون أن المنطق لا تقبل قوانينه الانتقاض كالقوانين الرياضية، ففي الإمكان أن تنحل القضايا التجريبية المتقررة في يوم من الأيام، بتجارب أخرى جديدة، و ليس في الإمكان أن ينحل دليل عقلي منطقي.

نعم، يمكن أن يقال لا يقدر كل أحد على تمييز صحيح الدليل العقلي من سقيمه؛ و على ذلك فالدليل التجريبي -الذي يسميه العصريون، و فيهم الأستاذ الدليل العلمي- يكون بعد تقرر صحة التجربة و عرضها على غير المجربين الأولين دليل العامة، و الدليلُ العقلي المنطقي دليل الخاصة، و المعولون عليه كالإخصائيين المميزين للأحجار الكريمة الثمينة من زيفها، و رخيصها[173].

ثم أقول للأستاذ: إذا لم تبن مسألة وجود الله على الدليل العقلي المنطقي، فعلى أي دليل تبنيه؟

و سيكون جوابه حتما: أبنيه على الدليل العصري، أي الدليل العلمي الطبيعي التجريبي!

و عند ذلك -أقول و لا تمنعني عن القول حكاية البحوث النفسية الجارية في الغرب-، أقول -من غير انتظار لنتيجة تلك البحوث-: إن العلم الطبيعي، و لا أي علم تجربي لا يعطينا بوسائله التجريبية دليلا على وجود الله، و أعني بذلك أنه لا يستطيع أن يعطيناه، و هو أقل من أن يعطيه، و لا يكفينا ما يعطيه، و لا يقنعنا نحن أصحاب العقل، و المنطق، كما لا يقنعكم أنتم أعداء العقل و المنطق، الدليل العقلي المنطقي.

نعم، إن دليل العلم التجربي لا يكفي إزاء عظمة المسألة، لأن أخص صفات الله و مميزاته وجوب وجوده، و غير الدليل العقلي المنطقي قاصر عن إعطاء هذا الوصف أعني وجوب الوجود لأي شيء أثبت وجودَه إلى الآن، أو سيثبته من بعد.

لكن أستاذ (مجلة الأزهر)، لعدم معرفته بعلم الكلام، و عداوته لذلك العلم عداوة المرء لما لا يعرفه، لا يعرف عجزه الأبدي عن إثبات وجود الله، الذي هو إثبات وجود موجود واجب الوجود، لما يُثبت وجودَه <398>، لعدم كون الوجوب في متناول التجربة، كما كان الوجود في متناوله، و إنما يستطيع إثبات ذلك الوصف المضاعف العلمُ القديم المبني على الأدلة العقلية، لا سيما الدليل العقلي، القائم على إبطال تسلسل العلل، الذي خفي بطلانه على الشيخ محمد عبده، فورط نفسه في القول بأن كل ما قيل، أو يقال في إبطاله فمن قبيل الأوهام و الخيالات الكاذبة.

لكن القارئ سينجلي عليه في هذا الكتاب، بطلان ذلك رغم مساعي الشيخ لسد الباب على الإبطال، و تعليق قفل كبير عليه.

و معنى قولي هذا سيفهمه القارئ حق الفهم عند تغلغله في أبحاث هذا الكتاب، و أنا لا أذكر في مقدمته كل ما فيه...

و الآن أقول شيئاً غير هذا فيحسم المسألة المنازع فيها بيني و بين الأستاذ، و متعلميه العصريين؛ فمن شاء من هواة الدليل التجربي الذين يقيمون له أكثر مما يستحقه من الوزن، فلا يقتنع من الآن بكون التجربة قاصرة عن إعطاء الدليل على وجود الله!!

و الذي أقوله الآن هنا[174]: إن المؤمنين بالله، الماضين إيماناً بالغيب، أي من غير مشاهدته بإحدى الحواس الظاهرة، و لكن مستيقنين بوجوده، كأنهم شاهدوه، لاسيما علماء هؤلاء المؤمنين، أسندوا إيمانهم على قول الأستاذ رئيس (مجلة الأزهر)، و غيره من المثقفين العصريين، إلى غير مسند، و هو الدليل العقلي المنطقي، إلا أنهم كانوا يزعمونه دليلاً يقتنع به، فاقتنعوا، و آمنوا...

و لنقل، و قد تحقق بذلك ما ذكره الأستاذ في مقالته، التي نقلنا منها بعض الجمل، من أن الله يأتي العقلو في كل زمان بما أحست الحاجة إليه من وسائل البحث.

و بانقلاب الزمان، تبين للأستاذ و زملائه المتصلين بالعلم الحديث الغربي، أن دليل الأولين ليس بدليل علمي جدير بالاعتبار و الاقتناع -كما نص عليه أيضا في مقالته المنتشرة أخيرا في (مجلة الرسالة)، بعنوان "الدين في معترك الشكوك"-.

لكن الأستاذ نراه بعد برهة من الزمان، و جد ما يعوضه عما فات: و هو ما اكتشفه بعض العلماء الغربيين<399> في بحوثهم النفسية، فاقتنع به، و اعتبره دليلاً قاطعا علميا؛ و إن لم يوافقه على ذلك كثير من العلماء الآخرين، و قالوا إنها أوهام قوم مخدوعين.

و على فرض كونه دليلاً قاطعاً، يلزم التنبيه إلى أن ما وجده الباحثون الغربيون، و اكتشفوه بالطريقة العلمية التجريبية ليس ذات الله، أو وجوده بل وجود الروح، إلا أن هذا الاكتشاف قد أطمع الأستاذ في أنهم يجدون الله أيضاً في الزمن القريب، أو البعيد، سواء تحقق في المستقبل ما كان يطمع فيه، أو لم يتحقق، و صار طمعا مقضيا عليه بالخيبة.

و على كلا التقديرين، فليس لدينا اليوم -استغفر الله- لا، لا، بل ليس لدى الأستاذ و أمثاله العصريين غير المقتنعين بغير الأدلة التجريبية، ليس لديهم فيما بين الزمان الماضي، الذي كان يُعتمد فيه على الدليل العقلي المنطقي، و بين الزمان الآتي الذي يجد الباحثون الغربيون فيه ذات الله بالطريقة العلمية التجربية -إن وجدوها- كما وجدوا الروح.

ففيما بين هذين الزمانين من المدة -مدة انتظار نتيجة البحوث النفسية- التي يمكن أن تطول أعصارا، و فيها زماننا الحاضر الذي وُجد فيه الأستاذ على رأس (مجلة الأزهر)، و هو يدافع عن الدين -لا دليل على وجود الله-.

و لا يجري بالنسبة إلى هذا الزمان المتوسط <u>ما قاله الأستاذ: "من أن الله يأتي العقول في كل زمان بما أحست الحاجة إليه من وسائل البحث"</u>؛ لأنه لم يأت العقول الحاضرة -و فيها عقل الأستاذ- بما أحست الحاجة إليه من الدليل على وجود الله؛ و إنما أتاها بأن الدليل القديم العقلي لا يكفي لإثباته علميا، و لا أحست الحاجة تلك العقول بالحاجة إلى دليل جديد يكفيه، إذ لو أحست

الكتاب، و كلا الدليلين الذين أوردت أحدهما في (الرقم 3)، بدلا من دليل الشيخ، و أرجأت الآخر محالاً إلى محله الخاص بإثبات الوحدانية... أتحدى أعداء الدليل العقلي المنطقي ليجدوا عيبا في أي واحد منهما يردونه بسببه على.

[173] كان يقول الأستاذ فيما نقلنا عنه قريباً، مستخفا بالدليل العقلي المنطقي: "أسلوب الفلاسفة الأولين الاعتداد بالمسلمات العقلية، و القضايا المنطقية، و التدرج منها إلى إدراك العلل الأولية، و هو أسلوب أصبح لا يقنع أكثر المتعلمين على الطريقة الحديثة؛ و يقول الفيلسوف "كارو" من كبار أعضاء الأكاديمية الفرنسية في كتابه (مذهب الماديين و العلم): "مسائل المنشأ، و العلل الأولى، سواء كان المطلوب إثباتها، أو نفيها، فهي حائزة لصفة فوق التجربة، لا يقدر على نزع هذه الصفة منها أدق مهارات علم الجدل، و لا أرقى رقيات العلم؛ فإذا حصل الوصول إلى أعلى حد لمعرفة البشر، فعند ذلك تعجز الحواس، و هذا المحل الذي تتوقف فيه الحواس، مهما ساعدناها بآلاتنا الدقيقة الراقية، هو دائرة الفكر و النظر].

[174] نقلت الصفحتين الآتيتين فيما كتبته قبل الشروع في الكتاب بعنوان (التعريف بمنهج الكتاب) لمناسبة دعت إليه.

لأتى بـــه، و إنما أحست بالانتظــــار إلى أن يكتشـــفه الباحثون.

فليس لــدى الأســتاذ و أمثاله المنتظــرين دليل في هــذا العصر على وجود اللـه، و لا حاجـةٌ إليه محسوسـة، و ما لا دليل على وجــوده فلا مـــانع من أن يقــال عنه إنه غـــير موجود عندهم في العصر الحاضر.

بل أقـــول إن الله تعـــالى لم يكن عنـــدهم موجـــوداً في الأزمنة الماضية أيضا، التي كان<400> النـاس فيها يظنونه موجوداً، لعـدم كـون دليلهم على وجـوده دليلاً علميا يصح الاعتماد عليه...

بل أقول: لا دليل عندهم أيضا على أن الله تعالى سـيكون موجـوداً، بـأن يكتشـفوا وجـوده في المسـتقبل بالـدليل العلمي؛ إذ لا معـنى لانتظـار الاكتشـاف عن وجـود ما لم يوجد إلى الآن، و لم يقم على وجـــود دليل يعتمد عليه[175]، فالله تعـــالى على رأي الأســـتاذ المنجلي من أقواله -و يا للأسف انجلاء منطقيـا-، ليس بموجـود في أي زمـان من أنواع الأزمنة الثلاثة.

نعم، كان الله تعالى موجودا عند أصحاب السـذاجة العامية و الذين يلتحقون بهم من العلماء المعتمـدين على الـدليل العقلي، غـــير أن العلم الحـــديث قضى على علم هـــؤلاء العلماء، و دليلهم المبني على الدليل العقلي و المنطق و الأستاذ فريد وجدي بلغنا هذا القضـاء من علا منـبر الأزهر الحديث.

فهذه خلاصة أعمال الأستاذ في رئاسة (مجلة الأزهر) منذ أكـثر من عشر سـنين، أعـني إعـدام الله الموجـــود عند الناس، في الماضي، و تعليق الحكم بوجوده من جديد إلى أجل غير مسمى، بل غير مرجو الحلول.

هــذه خلاصة أعمـــال الأســـتاذ، و خدمته للأزهر خاصـــة، و الإســـلام عامـــة، فليقـــدر أجرها في الـــدنيا و الآخـــرة القادرون.

وهذه الكلمة مني نموذج من الدليل العقلي المنطقي في الرد على مقالات الأستاذ ضد هـذا النـوع من الأدلـة؛ فـإن لم يكفه مفحما و مفهما لخطئه الفاحش في تقدير قيمة الــدليل العقلي المنطقي قــدرها، <u>فســيقول جوابا علي: هـــــذا كلام معقـــــول منطقي، و لكن، "لم يعد للمنطق سلطان على الإنسان"</u>[176]<401>.

****

****

---

[175] فلو كان وجود الله معلوما بالدليل، و كان المنتظر هو اكتشاف ذاته و حقيقته، و كنا سلمنا بإمكان هذا الاكتشاف كان للإنتظار وجه معقول.

[176] هذه الجملة الموضـوعة بين القوسـين نص عليها الأسـتاذ في مقالته المنشورة في (الرسالة).

بمناسبة النقاش بين أستاذين:

و قد وقع بعد سنتين من كتابة الأستاذ فريد وجدي هذه المقالات التي نقلتُ منها كلمات، و علقتُ عليها كلمات، أن جرى نقاش بينه و بين الأستاذ نصيف المنقبادي المحامي، دام على صفحات (جريدة الأهرام) أكثر من أسبوعين، و أردت أنا أن أنشر رأيي بصدد هذه المسألة المختلف فيها بين الأستاذين، في مقالة طويلة و كتبتها فعلا؛ و بينما أنا منتظر لانتهاء القول منهما في مقالاتهما المتقابلة، لأرسل مقالتي، إذا أعلنت (الأهرام) إقفال باب المناقشة، و كففت أنا عن طلب فتحه لنشر مقالتي.

و الآن أريد أن أدرج تلك المقالة هنا، و إن ازدادت بها مقدمة كتابي طولا على طولها، لأني لا أكون خرجت بهذه الإطالة عن موضوع الكتاب، غاية الأمر أن القارئ يصير عارفا في مقدمة الكتاب، ببعض ما سيعرفه بعدها، لمناسبة دعت إليه؛ و هذه هي المقالة.

رأيي في علاقة الدين بالبحوث النفسية:

1- [النقاش بين فريد وجدي بك، و نصيف المنقبادي المحامي]:

عقليتان أراهما سائدتين اليوم في الشرق الإسلامي بين الأوساط المتعلمة:

أولاهما: أن التعلم و التثقف للشرقي أن يُثبت ما ثبت في الغرب، و ينفي ما نُفي فيه؛ فإذا اختلف كاتبان هنا في مسألة، و جرى بينهما النقاش على الصحف، فالمنازعة و المناقشة إنما تكون في: من منهما أصاب الرأي السائد هناك؟ أو بالأصح أصاب الرأي الأخير هناك؟

و المستحق لأن يُعترف له بالنجاح و الغلبة يُعتبر هو الذي جعل رأيه و عقله وفقاً لرأي الغرب و عقله، فكأنه ظل الغرب الممدود إلى الشرق لا عقل له يفكر بنفسه<402>، أو تكون له حصة من التفكير.

و هذا التفاني في الغرب بمصر بين الكتاب العصريين يسود في حين أن الأزهر يحاول أن ينفلت من التقيد بأقوال أئمة المذاهب الأربعة في العمل، و أقوال المتكلمين أهل السنة في العقيدة.

و ثانيتهما -و يمكن عدها فرع الأولى-: أن حصول العلم اليقيني في الإنسان بوجود أي شيء، يتوقف على رؤيته بالبصر، أو لمسه باليد، أو بالأعم على استناده إلى التجربة الحسية، و لا يكفي فيه الاستدلال العقلي، فإن حصل به اليقين في أناس، كان من حق آخرين أن يشكوا فيه، و أن لا يعدوه عليهم حجة مفحمة.

و هذا يؤدي إلى نفي الأديان المستندة إلى عقيدة وجود الله، لعدم كون الله مرئيا، أو ملموسا؛ فإن اعتقده المؤمنون موجودا فهذا منهم يكون اعتقاداً لا يعترف به العلم.

نعم، إن العلم قد يعترف بوجود بعض ما لم تصل إليه التجارب الحسية إليه الآن، لكنه يعترف في دائرة الإمكان بناء على احتمال وصوله إليه بالتجارب الحسية إلى الآن.

أما الجزم بوجوده قبل الوصول إليه بهذه الواسطة الوحيدة، أعني التجربة الحسية، فهو الذي ينافي العلم؛ و قد يغالي هواة العلم التجربي فينكرون ما لم تصل إليه التجربة بتاتاً؛ و الفريق الأول الذين يرون في العلم سعة القول بإمكان وجود الله، هم اللادينيون المعتدلون، و الفريق الثاني المتطرفون.

و إنما سمينا أصحاب الإعتدال من هواة العلم أيضا باللادينيين، لأن الدين ينبني على عقيدة الجزم بوجود الله، لا عقيدة تجويز وجوده الذي يرجع إلى الشك فيه، كما لا ينبني على إنكاره البات.

فهذه العقليات اللادينية بكلتا درجتيه موجودة في مصر، بين الأوساط المتعلمة، يكون الإنسان على تقدير صحتها واقعا بين شرين عظيمين، فإما علم بلا دين، و إما دين بلا علم؛ و من المؤلم المؤسف أن الدين لا يمانع العلم في حين أن العلم يمانع الدين بشرطه فيما يعترف بوجوده.

فلا بد من إبطال هذا الشرط، و تخليص العلم من ذلك الجهل الدخيل، ففيه أعظم خدمة للدين، و العلم معا، أو إثبات أن دائرة العلم أوسع مما يزعمون، و يحتكرون <403> اسمه، أي اسم العلم له.

و في الحقيقة أن الذي يسمونه "العلم"، و يشترطون بناءه على التجربة الحسية، ما هو إلا فرع محدود من فروع العلم؛ و هناك علم يجهلونه، أحق باسم العلم مما يعلمون، لا يخضع معلوم هذا العلم للتجربة الحسية، و إنما يخضع للعقل و المنطق.

ففي إثبات هذا النوع من العلم وضعه في نصابه الحقيقي، أما الذين وضعوا العلم في دائرة ضيقة مادية، و اشترطوا له التجربة الحسية، ثم اضطروا إلى تطبيق هذا الشرط على غير محله، ليجعلوا الدين المبني على الغيب شهادة، فقد حمّلوا الدين ما لا يحتمله، و ألقوا أنفسهم في مأزق العقلية اللادينية.

ثم إنا نرى المعتدلين من أصحاب هذه العقلية، و هم الذين يميلون منهم إلى الديانة، و يودون أن يكون الله موجودا، وجدوا في شخص الأستاذ فريد وجدي وكيلا لهم فضوليا، يعللهم الفينة بعد الفينة بالنتيجة المنتظرة للبحوث النفسية الجارية بين بعض البيئات العلمية في الغرب.

و قد حدث نقاش على صفحات (الأهرام)، منذ أكثر من أسبوعين، بين الأستاذين محمد فريد وجدي بك، رئيس تحرير (مجلة الأزهر)، و نصيف المنقبادي المحامي في هذه المسألة، أعني مسألة البحوث النفسية مع مسائل أخرى، مثل كون منشأ الشيخوخة في الإنسان المنتهية إلى الموت للكويرات البيضاء، الموجودة في الدم، أو عدم كون الأمر كذلك، و مسألة غريزة الخير، كيف نشأت في الإنسان؟

فطعن الأستاذ المنقبادي في مسألة تحضير الأرواح، و ردها إلى الدجل و النصب...، و تحامل عليه الأستاذ فريد وجدي، و وثق المسألة بوثائق من شهادات علماء الغرب، مؤملا منها كل خير للدين و عقائده، حيال إنكسار المنكرين الذين كانت لهم و لعلمهم المادي دولة، و غلبة على الأرض في العصرين الأخيرين، إلى أن نجم العلماء الروحيون، و تألق نجمهم بحادثات تحضير الأرواح؛ ثم انضم الأستاذ أحمد أبو الخير بمقالته المعنونة "عالم الأرواح"، إلى جانب الأستاذ فريد وجدي بك.

و إني أريد أن أبين رأيي في هذه المسألة؛ أما المسائل الثلاث الأخرى، فاثنتان منها<404> لا شك في خطأ الأستاذ المنقبادي فيهما، و هما طمع الحياة الأبدية للإنسان في هذه النشأة الأولى، و تعيين منشأ الأخلاق في الفرد، و المجتمع، و بناؤها على أساس المنافع المتقابلة.

يريد الأستاذ المنقبادي أن يقول إن غريزة الخير في الإنسان و الحيوان، لا يعطيهما الله، و إنما تحصل و تترقى بمرور الزمان، فمرور الزمان المعبر عنه بقانون التطور، أوالنشوء، و الارتقاء منشأ كل كمال في العالم، حتى إن الأستاذ على ما كتب في مقالته ينتظر من

مســـــتقبل البشر أن يكتشف لكل داء دواء، و يتغلب على المـوت، و تـرتقيَ أخلاقـه، فيلغى الحـروب و المظـالم، و ينال الجنة و الحيـاة الأبدية في الـدنيا، و لا حاجة بعد ذلك إلى جنة الآخرة؛ فطوبي للآتين و تعسا للماضين.

و نحن نـرى الأسـتاذ يـرى المسـتقبل البعيـد، و يغفل عن حال العـالم الحاضـرة، و مواقف الـدول الراقية الظالمـة؛ على الـــرغم من أنه يفضل التجربة على كل دليـــل، و لا يعتد بغيرها؛ فكأنه جـرب المسـتقبل، و لم يجـرب الحـال؛ على أن كون مبدأ المنافع المتقابلة يعين الظـالم القـوي على المظلوم الضعيف، معلـوم للعقل من غـير حاجة إلى التجربة.

و ما ذكـره من تـأخر الإنسـان في الأخلاق، و تقـدم النمل فيهـــا، لكونها أقـــدم من الإنســـان بملايين من الســـنين، فجرى عليها من التطور ما لم يجر على الإنسـان، فمبـني على فروض خارجة من حدود التجربـة، و إن كـان أسـاتذة الأسـتاذ في الغـرب، الـذين تكلمـوا في هـذه المسـائل، استناداً إلى تلك الفـروض، و الأسـتاذ نفسـه، الـذي تكلم فيهـــا، اســـتناداً إلى أقـــوال أســـاتذته، يظنونها أحكامـــاً قطعيةً، مؤيدة بالتجربة.

فـإذا كـان مقتضى قـانون التطـور، التقـدم، على حسب القدم، فلماذا تتقدم النمل القديمة على الإنسان الحـديث في الأخلاق فقط، و لا تتفوق في مزايا الإنسان البارزة؟

و على فرض التقدم العظيم، الذي ينتظره في المستقبل للإنســـان، إلى حد الحيـــاة الأبديـــة؛ كيف تســـتوعب كرتنا الأجيـــال الآتية المتراكمة من البشـــر، الـــتي تنســـل، و لا تمرض، و لا تموت؟

فعندئـــذ يشـــتد الجـــدال، بـــل الانتقـــال بين الأفـــراد، و الجماعـات، و الـدول، و تتضـاعف الشـرور المتغلبـة على غريـزة الخـير في الإنسـان؛ و مـا أصـدق قـول المتنـبي <405>:

سبقنا إلى الدنيا، فلو عاش أهلها	منعنا بها من جيئة، و ذهوب
تملَّكها الآتي تملُّك سالب،	و فارقها الماضي فراق سليب

لست أريد أن أكتب في هـــــذه المقالة عن مثل هـــــذه المواضيع، فقد وفَّيت الرد على مـدعيات العلم، و التجربة المغـــالى بهـــا، و أفضت في تحليل العقليـــات العليلـــة، الناشئة في الشرق الحـديث من تعظيم الغـرب، و اتخـاذه القدوة في حقه و باطله؛ في كتـابي الـذي عُـنيتُ بتأليفه منذ سنين (هـذا الكتـاب)، و سـعيت فيه أن أحـدث انقلابـاً في العقليـات الـتي أشـرت إليها في هـذه المقالـة، و سأنشره إن شاء الله.

و لا يعنيـــني مهما كـان سـبب الشـيخوخة، و هو إحـدى النـواحي الثلاثة الـتي اختلف فيها الأسـتاذان، و الـتي لم أكتب مقالتي هذه لبحثها، و إن كنت لا أجتاز قول الأستاذ المنقبـادي، في غضـون كلماتـه: [أجـدادنا من الحيوانـات القديمة]، من غـير تنبيه إلى أن أكـثر النـاس -و أنا منهم- لا يقبلون الدخول في ضمير الجمع المتكلم، الـذي أضـاف إليه الأستاذ أجداده.

فبقيت مســألة تحضــير الأرواح لتكــون موضع الكلام في مقالتي، لكن لا على أنها خرافة من الخرافات، كما ادعـاه الأســتاذ المنقبــادي، و لا على أنها حقيقة من الحقــائق المكتشفة الحديثة، كما ذهب إليه الأستاذ فريد وجدي بك، و الأستاذ أحمد فهمي، فلا يعنيني أحد الطرفين في هـذه المسألة أيضاً؛ و إنما دافعي إلى التكلم في هـذا البحث ما يوهمه أقوال الأسـتاذين الأخـيرين، المتفقين من كونهما ينتظران من نتيجة البحوث النفسـية المجـراة في الغـرب تأثيراً هاماً، لمصلحة الدين باستئصال جذور الشبهة، الـتي لا زالت تحوم حول عقائـده، بنـاء على ظن أن أدلة الـدين التي كـان الـدين قبل تلك البحـوث مبنيا عليها عقليةٌ، أو نقليـةً، لا تُقنع أبنـاء الأعصر الأخـيرة لعـدم اسـتنادها إلى التجربة الحسية، التي هي طريق الإثبات العلمي الوحيدة.

لكن تلك البحوث يكسب بها الدين دليلاً جديداً، قائمـاً على شرط العلم الحديث، كما قال الأستاذ فريد وجدي بك في مقالته المنشـورة في (الأهـرام، عـدد 1936)، و هي من جملة المقـالات المكتوبة ردا على الأسـتاذ المنقبـادي: [و مَن أحـوَجُ من أصـحاب الأديـان إلى هـذا الـدليل في عصر تُقرر الفلسـفة الوضـعية فيه[177]: أن كل معقـول لا يؤيـده محسوس لا يجوز الاعتداد به؟].

و قال أيضاً: [يجب أن يكون الإنسان من أهل القرن الذي يعيش فيه].

فهذا ما أوهمه، بل نص عليه كلام الأستاذين فريد وجـدي، و أحمد فهمي، لا سيما كلام الأستاذ الأول، و هو الموافق لمسلكه الـذي يمشي عليه في (مجلة الأزهـر)، منذ تـولى رئاسة تحريرهـــا، معللا قـــراءه الغيـــورين على دينهم، و المشفقين عليه من اعتراضات المنكرين و المشـككين، و ممنّيا إياهم بتلك البحوث النفسية، التي أجريت، و لا تزال في الغرب.

لكني لا أوافق على إسناد الدين إلى هـذا الـدليل الجديـد، المنتظر أن يطلع البـاحثون عليـه، لا أوافق على إسـناد الـدين إليـه، ترجيحا له على أدلته القديمـة، و أرى ضـرره أكبر من نفسه.

فأولا: لا أرضى أن يكون حتى ديننا مترجما من الغرب، مع كل شيء مـترجم عنه بمصـر، لا أرضى أن نكـون مؤمـنين بالدين إذا آمن الغرب، و كافرين به إذا كفر؛ و إني أخـاف أن يكـون قـول الأسـتاذ فريد وجـدي: [يجب أن يكـون الإنسان من أهل القرن الذي يعيش فيه]؛ مؤديا إلى هذا.

و ثانيـــا: أن انتظـــار ثبـــوت الـــدين ثبوتا علميا من نتيجة البحوث النفسية الجديدة، يتضـمن الاعـتراف بأنه لم يثبت قبلها ثبوتاً علميا، يضطر العقول السـليمة، إن لم يضـطر المتعلمين العصـريين، إلى اعتقـاد صـحته؛ و هـذا ما لا أرضاه و لا أقبله.

و كيف أرضى أن يكـون الـدين من عهد الأنبيـاء عليهم الصلاة و السلام إلى زماننا، مع من مضـوا فيما بين<407> الزمـانين من أئمة الـدين و علمائه الراسـخين، لم يثبت على أساس متين يؤيده العلم... حتى جاء العلماء، أصحاب البحوث النفسية في الغرب، فأثبتوه، أو سيثبتونه.

فكأن سلفنا الصالحين رضوان الله عليهم، إن كانوا آمنـوا بالله، فإنما آمنوا به عن عاطفة قلبية، أو متابعة وراثية... و ليس فيهم، و لا في علمائهم أصحاب التأليفـات الذائعة الصـيت في العلـوم أحد كـان على بينة من أمر دينه و عقيدته فيه، فإن كان قد ظن أن دينه و إيمانه بالله مبني على دليل يفيد اليقين، فليس الأمر في الحقيقة و في نظر العلم المثبت كذلك.

أنا لا أرضى هذه العقلية الخاطئة، التي هي التسليم بعدم ثبوت وجود الله ثبوتا قطعيا علميا، قبل البحوث النفسـية الـتي يقـوم بها الغربيـون منذ آونـة، و أكافحها بكل ما أوتيت من قـوة العقـل، و عـزة النفس الدينيـة، و تكـون

---

[177] انظر درجة أهمية الفلسـفة الوضـعية عند أسـتاذ مجلة الأزهر على الرغم من أنها فلسفة "أوجوست كونت" الإلحادية التي سـبق منا الكلام عنها.

مكافحتها عندي دَينا -بفتح الدال- على كل عزيز النفس من أصحاب الديانة، الذين اتخذوا ما اتخذوه لهم من الدين، عن علم و بينة....

فقد كان وجود الله ثابتا ثبوتاً قطعيا علميا قبل البحوث النفسية، و من اعتقد خلاف هذا، فهو لا يدري بعقل نفسه، كيف يكون الثبوت العلمي، و إنما يترجم عن رأي و عقل غيره.

ثم إني لا أقبل خصيصا قول الأستاذ فريد وجدي بك، اتباعا لما قررته الفلسفة الوضعية الإلحادية، فلسفة الإثباتيين، أصحاب "أوجوست كونت"، من أن: "كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا اعتداد به".

بل أعده أكبر خطأ، إن جاز صدوره من قلم أي أحد، فلا يجوز من قلم رئيس تحرير (مجلة الأزهر)، و إن جاز صدروه من قلمه، فلا يجوز وقت ظهوره في مظهر الباني للدين الذي قد هدمه قبل تولي هذه الوظيفة، لأن فيه تصديق ملاحدة الماديين في أكبر دعواهم التي ينفون وجود الله، أو على الأقل ثبوت وجود الله استناداً إليها.

و من العجب أن الأستاذ رئيس التحرير، يتمسك بهذا القول في صدد الرد على مناظره، الذي يمشي في مناظرته على أسس الماديين، أعني الأستاذ نصيف المنقبادي، و لهذا كان الأستاذ فرح أنطون منشئ (مجلة الجامعة)، يقول -حين ناقش الشيخ محمد عبده قبل أكثر من ثلث قرن كما سبق ذكره، مدعيا عدم ائتلاف الدين، أي دين كان مع العلم-: [إن الدين هو الإيمان بخالق غير منظور، و وحي، و نبوة، و معجزة...] الخ.

[و كلها غير محسوسة، و لا معقولة] أي غير معقولة، لكونها غير محسوسة، [و لهذا كان العقلاء من الفلاسفة، و رجال الدين في كل ملة ينادون بإبعاد العقل عن الدين؛ بل إن الأديان تخالف أيضا العلم الذي يجب أن يوضع في دائرة العقل، لكون قواعده مبنية على المشاهدة، و التجربة].

يعني: أن وجود الله لا يعتمد على دليل محسوس، فلا يقبله العلم؛ و هو عين ما قاله الأستاذ فريد وجدي في الرد على الأستاذ المنقبادي، كأن هذا الأستاذ هو الشيخ محمد عبده، و الأستاذ فريد فرح أنطون! أعني أن في قول الأستاذ غرابة إلى هذا الحد.

الحاصل: أن القول بعدم الاعتداد بأي معقول لا يؤيده محسوس، على الرغم من تمسك الأستاذ مدير (مجلة الأزهر)، و رئيس تحريرها، به لمصلحة الدين، مضر بموقفه إلى حد أن إثبات وجود الله الذي هو رأس الدين لا يتسنى إلا بعد إبطال هذا القول...

حتى إن شكوك المتعلمين العصريين، الذين يشكو منهم الأستاذ في مقالته السابقة الذكر، ترتكز على هذا القول، و بإبطاله تتبدد تلك الشكوك، لا بتحضير الأرواح، و لا بغيره، و لهذا كان أهم ما عُنيت به في كتابي الذي أشرت إليه (هذا الكتاب)، هو هذه النقطة.

وثالثاً: ماذا يتصور أن تكون نتيجة البحوث النفسية؟

فلنفرض أن الباحثين تمكنوا من تحضير الأرواح، و ضبط صورها الطوغرافية، و وزنها، و جس نبضها، و تسجيل أصواتها؛ كما ادّعي، أو بالأصح كما حكي.

و عند ذلك، يكون وجود الروح قد أُثبت بالتجربة الحسية، لكن أساس الدين يقوم على وجود الله، لا على وجود الروح؛ و لا يلزم من وجود الروح وجود الله، إلا بقدر ما يلزم من وجود أي موجود ممكن<409> وجودُ موجودٍ واجب.

و معناه: الرجوع في إثبات وجود الله إلى الدليل العقلي المنطقي؛ فلا فرق بين الروح و غيرها من الموجودات في الدلالة على وجود الله.

و إنما مناسبة مسألة وجود الروح بالدين أن ملاحدة الماديين، إذا أنكروا وجود الله لعدم وجود من رآه، و إن شئت فقل لكونه معقولا لا يؤيده محسوس؛ كان قال لهم: و لم يوجد من رأى الروح أيضاً، مع أنه لا قِبل لأحد بإنكار وجودها.

فكانوا يُضطرون في جوابهم إلى أن يقولوا: "نحن ننكر وجود الروح أيضا"، و كان أنكارهم هذا الاضطراريّ يجلب عليهم الهزء و السخرية، و يدل على تناهيهم في العناد و التمرد، فكانت استفادة الذين من إنكارهم الروح مضطرين إلى إنكارها، أكثر من استفادته في اعترافهم بها، مضطرين إليه بالبحوث النفسية، التي قام بها و لا يزال بعض علماء الغرب.

فإذا لم يبق لهم مجال في إنكار وجود الروح بعد تلك البحوث النفسية، يُفتح لهم باب لإنكار وجود الله؛ فهل يمكن تحضير الله لإفحامهم كما أمكن تحضير الأرواح؟

و هل يتصور أن تبلغ البحوث النفسية في الغرب يوما من الأيام مبلغ أن تجعل الله تعالى يُرى بالعيون، أو يُلمس بالأيدي، أو توزن ثقلته، أو تمثل صورته بواسطة أدق، و أرقى آلة من آلات الرؤية، و اللمس، و الوزن، و التصوير الحاضرة؟

و لا أظن أولئك الباحثين يخطر ببالهم أن يبحثوا عن ذات الله من طريق المعاينة، و التجربة الحسية؛ و إذا خطر ببال أحد كان ذلك رجوعاً باسم الرقي العلمي إلى عقليات الجاهلية الأولى، و تمثيلا لعهد فرعون القائل< 410>: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾[غافر:36-37]، أو عهد بني إسرائيل القائلين: ﴿يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة:55].

و القول الفصل هنا -الذي أتحدى به أدعياء العلم الحديث في الشرق المعولين كل التعويل على التجربة الحسية، و المزدرين للأدلة العقلية المنطقية، لقلة نصيبهم من العقل و المنطق غير الباتين لهذا السبب في الاعتراف بوجود الله اعترافاً علمياًّ، معلقين آمالهم في الحصول على اليقين بهذا الصدد على التجارب الروحية الجارية في الغرب المترقية يوماً عن يوم-: أن معنى هذه الفكرة ليس إلا الغفلة عن أن وجود الله لن يكون موضوع التجربة؛ فإذا أمكن إثبات وجود كل شيء بالتجربة، فلا يمكن إثبات وجود الله بها، لأنها إنما تدل على أن هذا الشيء موجود فقط، و لا تدل على أن هذا الموجود واجب الوجود الذي هو الله، و الذي لا يشاركه أي موجود في وجوب وجوده...

فهو أي وجوب الوجود، العلامة الوحيدة في كون ماوجده الواجد المجرب هو الله؛ لكن وجود الشي إن عرف بالتجربة الحسية، فلا يعرف بها وجوب وجوده، الذي هو استحالة عدمه، و الذي ربما يعبر عنه بالوجود بوصف مضاعف، لكونه أمرا لا تتعلق به الحواس...

و من يضمن للمجربين أن ذلك الذي وجدوه، و زعموا أنه الله، يكون موجوداً إلى الأبد، و لا ينعدم في يوم قريب، أو بعيد من أيام المستقبل الذي لا تدركه تجربتهم؟

و من يضمن لهم أيضا أنه موجود من الأزل، الذي لا تصل تجربتهم إليه أيضا؟

مع أنه حتى الوجود أزلا و أبداً، لا يستلزم وجوب الوجود الذي هو المطلوب، و الذي هو فوق الوجود الأزلي، و الأبدي.

فلو فرضنا أن الباحثين اكتشفوا بتجاربهم الحسية موجوداً فرأوه بأعينهم، أو لمسوه بأيديهم، و ادعوا أن هذا الموجود هو الله المنشود؛ يقال: من أين علمتم أنه الله؟

فلعله ملك من ملائكته، أو شيطان، أو مخلوق آخر له، غركم ما أحسستم به فيه من القوة، أو العظمة، التي لا يوجد مثلها فيما عرفتموه إلى الآن من الموجودات، و هذا لا يكفي في الدلالة على أنه الله، ما لم يثبت كونه واجب الوجود.

و إنكم لن تجدوا هذه الميزة<411> لأي شيء مما وجدتموه، أو ستجدونه، أو سوف تجدونه بالدليل الحسي، و إنما تعرفون بالدليل العقلي المنطقي أن هذا الكون المركب من الممكنات، غير واجبات الوجود، لا بد أن يستند إلى موجود واجب الوجود، و هو الله.

فتحكمون بوجوده المفهوم من وجود الموجودات المحسوسة، من غير حاجة منكم إلى مشاهدته بإحدى الحواس، و يكون وجود هذا الموجود، الذي عرفتموه بالدليل العقلي، و لم تشاهدوه، أقوى من وجود الموجودات التي تشاهدونها، لكون وجوده واجبا ضروريا، و وجودها غير ضروري.

و قولي هذا أيضا الذي أتحدى به أدعياء العلم الحديث في الشرق و الغرب، و الذي لا يستطيعونه نقضه: دليل عقلي.

فهل عرفتم الآن الفرق بين الدليل العقلي المنطقي، و بين الدليل التجريبي الحسي، بما ينجلي به عكس ما تزعمون في مفاضلة أحدهما على الآخر.

ثم إنه كما لا تُثبت البحوث النفسية وجودَ الله، لعدم كونه روحا -و إن قال من جهال أولئك الباحثين: إن الله هو الروح الأعظم، و قلده الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير-؛ لأن الله لا تعرف حقيقته، و إنما يعرف وجوده...

لا تثبت تلك البحوث حتى وجود الروح، لثبوت وجودها أيضا قبل وجود الباحثين النفسيين، و بحوثهم، و الثابت لا يحتاج إلى إثبات، بل يستحيل إثبات الثابت كتحصيل الحاصل..

فقد كان وجود الروح معلوما لذوي العقول من الناس منذ خلقهم الله و خلق الموت و الحياة، و لم يكن إنكار الماديين الروح لعدم كونها محسوسة، غير مكابرة منهم، مضحكة، قصدوا بها المحافظة على قاعدتهم النافية لوجود كل ما لا يكون محسوساً، و التي في معناها قول الأستاذ فريد وجدي: [كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا يعتد به].

و مع ذلك فقد كانوا متعسفين في نفي وجود الروح للمحافظة على تلك القاعدة... متعسفين لحد أن وجود الروح كان يدل على بطلان قاعدتهم أكثر من دلالة تلك القاعدة على عدم وجود الروح، أعني أن وجود الروح كان واضحاً إلى هذه الدرجة.

و قد حق للشاعر<412> الفرنسي المشهور "هوجو"، تعريضه الظريف لمنكري وجود الروح، قبل ظهور البحوث النفسية، قائلا في مبتدأ ما كتبه عن الروح: [أنا أعرف كون باريس اليوم ماديين إثباتيين]، أو بعبارة أخرى "وضعيين"، [لحد أنهم لا يؤمنون إلا بسراويلات الراقصات الضيقة، و محفظات الصرافين].

كما نقله الكاتب التركي إسماعيل فني بك، في (كتابه: اضمحلال مذهب الماديين)؛ و قد نص الفيلسوفان الكبيران "ديكارت"، و "ليبنتز" على أن وجود الروح قطعي أكثر من وجود الأجسام، حتى إن "ديكارت" أثبت وجود نفسه أي روحه قبل إثبات وجود العالم، و وجودِ الله، و قال إنها الحقيقة الأولى الثابتة، و سيجيء بحثه في الباب الأول من كتاب، الذي أشرت إليه (هذا الكتاب).

أنا لا أغمط الباحثين الغربيين في النفس، و غيرها، و إنما أقول: لا تُثبت بحوثهم النفسية وجود ما لم يكن وجوده ثابتا قبلها عند ذوي الألباب.

و لو قلنا مع القائلين: إن وجود الروح يثبت أول مرة بهذه البحوث، أو لم يكن ثبوته قبلها ثبوتاً علميا معتدا به، لكنا سلمنا بدعوى الملاحدة الإثباتيين "أو الوضعيين"، و الماديين القائلة: [كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يعتد به].

تلك الدعوى التي نحن المتدينين في حاجة إلى إبطالها، قبل كل شيء، و في التسليم بها ظفر الماديين، حتى إن في إثبات الروحيين وجود الروح بطريق التجربة الحسية ظفرا لهم أيضاً، أي الماديين على حساب أصحاب الدين، لتنازل الروحيين على شرطهم في الإثبات.

فالماديون الذين يأمل ذوو العقليات الضعيفة من المتدينين أن يتغلبوا عليهم بفضل الأبحاث النفسية، لهم أن يقولوا -بعد ثبوت وجود الروح من طريق التجربة الحسية-: ثبت الآن وجود الروح، و ليس ثبوته هكذا ظفر الروحيين، بل ظفر طريقة التجربة الحسية، التي هي طريقتنا نحن الماديين.

و في إمكاننا بعد هذا أن نلحق الروح بالماديات، كما قال الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير: [إن السير وليم كروكس، و هو ذلك العالم الذي تُدرس<413> في مدارسنا تجاربه في الإشعاع، قد تمكن من تجسيد روح فتاته "كاتي كنج"، ثم من جس نبضها، و خبر رئتها].

و قال الأستاذ فريد وجدي بك: [إن ذلك العلامة الكيميائي يعمل تجارب خاصة في معمله، توصَّل بها إلى رؤية أمور كثيرة خارقة للعادة[178]، حتى أمكن أن تتجسد روح من تلك الكائنات ففحص أعضاءها، و وزنها، و خاطبها].

و قال أيضا: [قد ثبت أن للأرواح جثمانا أثيرياً، لا يعتريه الانحلال، كالأثير نفسه، و أنها إذا أرادت الظهور استعارت من الكون أو من المجربين بعض المواد لتظهر في أعينهم].

و ليست العمدة في اختلاف الماديين مع غيرهم -لا سيما المتدينين-: وجود الروح، و عدم وجودها؛ ففي إمكان الماديين أن يقولوا عن الروح -بعد ثبوت وجودها على طريقتهم-، ما قلنا آنفا حكاية عنهم؛ فهل في إمكان غيرهم أن يثبتوا وجود الله بمثل التجربة الحسية الامتحانية التي أثبتوا بها وجود الروح؟

فهل الله جثمان أثيري كما كان للأرواح؟

و هل هو إذا أرد الظهور للمجربين يستعير بعض المواد، فيحل بها ليظهر في أعينهم مثل ما استعارت الروح و ظهرت؟

ذلك مما لا نعتقده، و لا إمكانه[179]، فعندئذ يكون كسب المتدينين المعتقدين وجود الله من البحوث النفسية المثبتة للروح بالتجربة الحسية، منحصرا في كونهم قد فقدوا مثالاً لِما يوجد، و لا يُرى.

و عند ذلك يكون للماديين الحق في إنكار وجود الله، لكونه معقولاً لا يؤيده محسوس حسب الشرط الذي تواضعوا<414> عليه مع الروحيين، و المتدينين، الذين

---

[178] انظر كيف يعترف الأستاذ بالخوارق لعلماء الغرب، و هو لا يعترف بها للأنبياء في مذهبه المنكر لمعجزاتهم.

[179] فإن قيل: كيف ننفي إمكان رؤية الله مع كونها واقعة لأهل الجنة في الجنة، كما هو مذهب أهل السنة؟ أقول رؤية الله تعالى في الجنة، تقع بإراة من الله مبنية على وعده بها، و رؤية الله التي ننفيها و إمكانها ما يقع بإرادة المجربين الغربيين من غير إرادة من الله.

علقـوا أمـانيهم الدينية على البحـوث النفسـية... و ليس عنـــدنا إلا تعـــريض الـــدين للخطر المحـــدق، و الفشل المتحقق.

و مهما يكن مبلغ اكتشاف الغـرب في الأبحـاث النفسـية، فالــدين مبــني على الغيب، و ســوف يكــون مع ســطوع برهانه في كل زمان محتفظا بمبناه هـذا، و لا ينتقل إلى متنــاول الحــواس، و به يــدوم امتيــاز المؤمــنين على الكافرين، و المهتدين على الضالين[180]، أما الذين يعلقـون مسألة كون الناس على بينة من أمر دينهم بالحصول على الأدلة الحسـية، فمقضـيٌّ عليهم بخيبة الآمـال؛ ﴿هَـلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَـأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَـعُ نَفْسـاً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْـلُ أَوْ كَسَـبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْـراً قُـلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[الأنعام:158].

2- [محمد فريد وجدي يعترف بأساس المذهب المادي، و لا يعترف بالمذهب نفسه]:

الخلاف الواقع بين الأسـتاذ نصـيف المنقبـادي المحـامي المـادي، و الأستاذ فريد وجـدي غـير المـادي، غـريب من ناحية أن الأستاذ الأخير يعترف بأساس المذهب المادي، و لا يعترف بالمذهب نفسه، و الأساس الذي يعترف هو بـه: [كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا اعتداد بـه]؛ كما سـبق منا نقلـه، عن نص الأستاذ في إحـدى مقالاته الـتي كتبها ردا على الأستاذ نصـيف، بل قلما تخلو مقالاته في (مجلة الأزهر) من هذا النص.

فالأســتاذ فريد إذن مــادي من حيث لا يشـعر[181]، و يلـزم على هذا أن يكون بينه و بين الأستاذ<415> نصيف المــادي خلاف و نزاع.

أما الخلاف بينهما من حيث أن أحدهما يسلم بوجود الروح بعد ثبوته بالأبحـــاث النفســـية الحديثة المطابقة لطريقة الإثبات المادية، و الآخر لا يسـلم بـه، فراجـعٌ إلى الخلاف في صحة تلك الأبحاث و عدم صـحتها لا إلى الاختلاف في المذهب المادي المبني على الأساس المذكور.

و يلـــزم على هـــذا أيضا أن يكـــون الحق فيما اختلفا مع الأسـتاذ نصـيف إلى أن يريه الأسـتاذ فريد وجـدي الـروح، كما رأى الباحثون في القرب، و أروها منكريها.

أما نقله لشهادات الباحثين هنالـك، فمجـرد دليل نقلي، لا يكفي في تبكيت خصمه على قاعدة الإثبات المادية، الـتي اتفق عليها الأســـتاذان المختلفـــان، و الـــتي هي رأس الخطـاء عنـدي، لعـدم تأيد ما نقله الأسـتاذ فريد وجـدي بتجربة من الأستاذ المنقبادي، بل و لا بتجربة من الأسـتاذ فريد نفســه، لأن رواية أقــوال المجــربين، ليست بتجربة للراوي بله المروي إليه.

و من العجب أن الأســـــتاذ فريد يوجه بعض حملاته في المقـالات الــتي كتبها ردا على الأسـتاذ المنقبـادي، إلى العقلية العلمية، و يدعوها إلى الإفاقة من غرورها.

فإن كان الأستاذ نفسه أفـاق قبل إفاقة العقلية العلميـة، فماذا حاجته إلى إثبات وجوده بالطريقة العلمية الحسية؟

أو إن كان في عهـده الأخـير لا يعجبه المـذهب المـادي، و عقليته العلمية حقيقة، و يرى حتما أن تفيق من غرورها، فليرفض قبل كل شـيء تلك القاعـدة، القائلـة: [بـأن كل معقـول لا يؤيـده محسـوس، فلا اعتـداد بـه]؛ و لـيرفض انحصـار طريق الإثبـات العلمي في التجربة و المشـاهدة، بل ليرفض الإمتياز باسم العلم، لما يثبت بالتجربة الحسية دون ما ثبت بالدليل العقلي...

بل لِيَرْضْ نفسه لقبـول كـون الثـاني أحق باسم العلم من الأول، و لا يهبْ اشـتهارَ عكسه عند الغربـيين، و لا يغرنه انتقـــاد العقل المحض للفيلســـوف "كـــانت"، فلا ينبغي للمتكلم من علا منـــبر الأزهر أن يكـــون عقله في أسر العقلية الغربيـــــة، و لا أن يقيد نفسه -بينما دعا العقلية العلمية إلى الإفاقة من غرورها- بأقصى قيد مادي، فقد<416> لا يُسـتبعد من الغـرب المسـيحي، أن ينـاوئ العقـل، فيحطَّ من كرامته مـرة ثانيـة، بعد أن أعـاد له الفيلسـوف "ديكارت" حقوقه المهضومة طوال القرون الوسطى.

و مع عدم كون المذهب المادي مـذهب التـدريب الخـالص، لأن العلم حتى بوجود المـادة، لم يكن مؤيـدا بالتجربـة، إذ المـادة لا تـرى، و لا تلمس؛ فعـدم الاعتـداد، بغـير التجربة في اسـتيقان وجـود أي شـيء، يـدفع الإنسـان إلى إنكـار البـديهيات، بل إلى الشك في وجـود نفسـه، و قد أنكـروا وجودهم أنفسهم فعلا بإنكارهم الـروح، فإنكـارهم الـروح الـتي اجمعت مدرسة "ديكـارت" على أن وجودهـا، قطعي أكثر من قطعية وجود الأجسام[182]، معنـاه إنكـارهم بوجـود أنفسهم لا أكثر، و لا أقل.

و لذا كان موقف الماديين المنكرين للروح -سواء أنكروها قبل الأبحـاث النفسـية المجـراة في الغـرب، أو بعـدها-؛ موقف من لا تجـــــوز مخـــــاطبتهم، و لا يعبأ بنفيهم، و إثباتهم، و هل يعبأ بأقوال الغافلين عن وجود أنفسه؟

و كـون إنكـار وجـود الـروح، كإنكـار المنكـرين لوجـودهم بأنفسهم، يظهر عند تفكـير الإنسـان في شـخص ما يعـبر عنه بقوله "أنا"...؛ فإن كان هـذا الشـخص بعينه موجـوداً، مستمر الوجود طـول حيـاة القائـل، يلـزم أن لا يكـون هو جسمه الذي يزول بالتدريج، و يحل محله غيره، حتى إنه لا يبقى فيه شيء مما كان موجوداً قبل سـنين، فيكـون في شبابه غير الذي كان في طفولته، و في شـيبه غـير الـذي في كهولته؛ لا من حيث المنظر فقط، أو القوة و الضعف فقط، بل في شخص الممثل له.

فكيف يعد نفسه في أدواره المختلفة شخصا واحـــــداً، و يقول عنه "أنا"؟

و كيف يُســـأل في الأربعين من عمـــره عن أفعاله في الثلاثين مثلا؟

بل، و كيف يتـذكر في الخمسـين ما فعله في الثلاثين، أو العشرين، و هما شخصان متغايران بالكلية<417>؟

فإن لم يكن وراء هذا الجسم المتغـير شـيء يسـتمر، و لا يتغير طـول عمـره يعـبر عنه بـالروح، أو النفس، لم يوجد هنـاك ما يصح أن يقـال عنه "أنـا" ضـميرا للمتكلم وحـده؛ فهي وحدها مرجع هـذا الضـمير، فهي تقـول عن نفسـها "أنا"، و هي صاحبة هذا البـدن، و أعضـاؤه من مفرقة إلى أخمصه آلاتهـا، الـتي تسـتخدمها حسـبما تريد[183]، و هـذا الدليل على وجود الروح الدلالة العامة لجميع الأزمنة، مما قبل جريان البحوث النفسية الحديثة، و ما بعـده، و لجميع

---

[180] قال الشاعر، و هو من قدماء الترك المسلمين:

غيبه إيمان كثير أي ملحد غافل، كه سكا * آخر تدن خط تعليق إيله حجت كلمز

و معناه: آمن بالغيب أيها الملحد، الغافل، إن كنت تـؤمن، فلا يأتيك حجة من الـدار الآخـرة مكتوبة بالخط الفارسـي؛ و تخصيصه بالخط الفارسي مبــني على كــون الحجج و المناشــير مكتوبة في المعتــاد بهــذا الخط الجميل.

[181] و قد كان قبل توليه الوظيفة الأزهرية ماديا من حيث يشعر.

[182] (المطالب و المذاهب) لبول زانه.

[183] نعم، قــال "ا. رابــو"، في (دروس الروحيــات): [ليس "أنــا" بجــوهر روحاني فقط، و إنما هو كل طبيعي روحاني و جسـماني؛ فالبـدن محل تطبيق نشـاطنا و بواسـطته يمكن تعـديل الأشـياء و تغييرهـا؛ فهو لهـذا السبب جزء حقيقي من ذواتنا و اللسان العادي يشهد به لأنا نقول نأكل أو ننمو كما نقول نفكر و نريـد]؛ لكن الحق أن البـدن ليس بجـزء أصـلي منا، لتجدده، و عدم احتفاظه بوحدته العينية.

أفراد الإنسان من الذين أجريت عليهم التجارب النفسية، أمام أعينهم، و من غيرهم في البلاد الدانية و القاصية...

هذا الدليل العام لفي غنى عن الدليل الجديد الحسي الخاص زمانه و مكانه و أشخاصه؛ و في قوة أكثر من قوة ذلك الدليل الجديد.

أما الذين يدعون -من الماديين و الإثباتيين "الوضعيين؛ على تعبير المصريين"؛ و من يلتحق بهم من حيث يشعرون و لا يشعرون-: [أن الدليل العقلي العام لا يعتد به ما لم يؤيده دليل محسوس]، فهم أنفسهم لا يُعتد بهم لعدم وجودهم على موجب ادعائهم هذا كما بينا.

و أما ما قد يقال في الاعتذار عن الذين يهتمون بالدليل الجديد أكثر من الدليل العقلي القديم، من أن في إثبات وجود الروح، بالدليل الجديد الحسي تاييدا لثبوتها قديما بالدليل العقلي، لو لم يكن فيه إلا افحام الماديين لكفى في أن يكون باعثاً على استبشار المتدينين بالبحوث النفسية، و اعتبارها ظفراً على خصومهم الملاحدة -ففيه أن مآل الاعتذار عن المتبشرين بالاكتشاف الجديد من أهل الدين يستند إلى أن في هذا الاكتشاف إثبات<418> الروح بالدليل الحسي، علاوة على إثباتها من قبل بالدليل العقلي؛ و هو لا يمنع كون وجود الروح ثابتا قبل هذا.

و لكن تحرير مراد المستبشرين بهذا الشكل من الاعتذار لا يجتمع أبدا مع التسليم، و التنويه بالقاعدة المادية القائلة بـ: [أن كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا اعتداد به]، كما فعل الأستاذ فريد وجدي؛ لأنها تجعل ثبوتها بالدليل العقلي القديم، غير معتد به، كما لو لم يكن هناك أي دليل، و أي إثبات؛ لا أنها تعده إثباتا، و تعد الإثبات بالدليل الجدي الحسي، زيادة عليه مفحمة للمنكرين المعاندين، فعندئذ يكون تعليل المتدينين، و تبشيرهم بالاكتشاف الجديد، و بناء القصور، و العلالي عليه ضرره أكبر من نفعه.

فمن مضاره أنه يجعل ثبوت الروح إلى هذا الزمان بدليله العقلي، كعدم الثبوت، و مثلها: "كل ما لم يؤيد وجوده إلى الآن بمحسوس"، كوجود الله تعالى.

و منها: أن وجود الروح، و إن كان يثبت الآن، و بعد الآن بدليله الجديد الحسي، فلا يثبت وجوده تعالى -الذي هو العمدة في إنكار المنكرين، و إقرار المؤمنين، و في استبشارهم بالبحوث النفسية- بالبحث الحسي، و لا يتحقق الأمل في أن يظفر الباحثون لذات الله كما ذكرنا، فيبقى وجوده المعلق بالوصول إلى ذاته مجهولا كذاته و هلك المسوفون.

و منها أن الاقتناع بوجود الروح من طريق التجربة الحسية، يقتصر على المجربين، و لا تكون التجربة الحسية دليلا تجريبيا، لغيرهم، بل يبقى دليلاً سمعيا يحتمل الصدق، و الكذب، و لو بلغ المجربون حد التواتر، لأن غواة التجربة الحسية القاصرين لأسباب العلم على الإحساس بإحدى الحواس، يلزمهم أن لا يعتدوا بالخبر المتواتر أيضاً.

فلا يقتنع عندهم بوجود مدينة "باريس" مثلا من لم يذهب إليها و يرها بعينيه، "فهو معقول لم يؤيده محسوس"؛ لعدم تجربة وجودها من جانبه؛ و لذا لم يصدق الأستاذ المنقبادي إخبارات الأستاذ فريد وجدي عن حوادث تحضير الأرواح، و هكذا يكون نطاق الدليل التجريبي ضيقاً جدا.

أما المقتنعون بوجود باريس، بناء على تواتر الأخبار بوجودها<419> من المسافرين إليها، المعاينين، بحيث لا يجيز العقل تواطأهم على الكذب، فدليلهم خليط من التجربة، و الاستدلال العقلي؛ على أن يكون الفضل في الاقتناع و الاستيقان للاستدلال دون التجربة.

لا يقال إن التجربة الحسية لا تنحصر في الرؤية و المشاهدة، فسماع الأخبار أيضا تجربةحسية بإحدى الحواس الخمس، فلا وجه لبناء الاقتناع بوجود باريس ممن لم يسافر إليها على الاستدلال العقلي.

لأني أقول: متعلَّقُ التجربة في هذا المثال، المحسوسُ بحاسة السمع، أقوال المخبرين عن باريس، لا باريس نفسها، و هي نفسها من المبصرات لا من المسموعات؛ كما أن سماع الأستاذ المنقبادي من الأساتذة فريد وجدي في مسألة تحضير الأرواح لا يعد تجربة لحادثة التحضير، بل تجربة لكون الأستاذ فريد قال أقوالاً عن تلك الحادثة.

قلنا -فيما سبق- إن الانهماك في التجربة الحسية، و عدم الاعتداد بغيرها، يؤدي إلى إنكار البديهيات، و إلى إنكار المجرب، حتى وجود نفسه، و أوضحنا كون إنكار الروح قدماً، مساوياً لإنكار المنكر وجود نفسه؛ بأن نفسه ليس عبارة عن بدنه، الذي يتغير و يتجدد بالتدريج، حتى لا يبقى فيه شيء مما كان موجوداً قبل سنين.

فماذا هو الشيء الباقي مع الإنسان طول عمره، محتفظا بعينيَّته، لو لم نقل بوجود الروح؟

و هذا دليل على وجود الروح، التي إن لم نعلم حقيقتها، نعلم وجودها بهذا الدليل العقلي القطعي.

و ليس لمنكري الروح ما يقولون جواباً عن غير ما ادعاه الفيلسوف الحسباني "داويد هيوم": [كل إنسان يتوهم له نفسا بسيطة، متحدة في ذاتها، يعبر عنها بقوله: "أنا"، مع أن شهودات الانسان متمايزة، قابلة للتفريق، فكيف يرتبط بعضها مع بعض، و يحصل منها "أنا" المتحد؟

و توضيحه: أن الذاكرة تعيد لنا دائماً خيالات إحساساتنا الماضية، فتتشكل منها سلسلة، و تدور الذاكرة بسرعة على حلقات هذه السلسلة بفضل العتياد، و ينجر الأمر إلى أن يُرى لنا تتابع المتمايزة، كأنها ملتحمة الأطراف بعضها<420> مع بعض، بمنظر المتصل، و تمتد السلسلة المركبة من الأجزاء الماضية، و الحالية إلى جانب المستقبل أيضا قبل وقوعه.

فاللذة و الألم كما يرجعاننا إلى أمثالها السابقة، يُريانِنا أيضا ما سيقع منهما بعد الآن؛ فمع كون الروح مجموعة شؤونات باطنية، تُرى بتأثير قوانين المخيلة، كأنها جوهر بسيط، و يرجع اعتقاد أن روحي موجودة أيضاً، في حين أنها لم تحس، و لم تدرك، و لم تشعر بنفسها، إلى اعتقاد دوام هذه الحالات].

أقول: فكأن "هيوم" اعتبر "أنا" كالحركة، بمعنى القطع المعروفة في كتب المتكلمين، و التي لا وجود لها في الخارج، فإن الحركة كيفية، بها يكون الجسم في حيز، بعد أن كان في حيز آخر؛ و تسمى الحركة بمعنى التوسط، و حقيقته أمر واحد متصل في نفسه، منقسم بحسب الفرض بين المسافة و الزمان.

و قد تطلق الحركة: على ما يتوهم من الكل المتصل الممتد بين المبدأ و المنتهى؛ و هي الحركة بمعنى القطع، و لا وجود لها في الخارج، لأن للمتحرك نسبة إلى المكان الذي تركه، و إلى المكان الذي أدركه، فإذا ارتسمت في الخيال صورة، كونه في المكان الأول، ثم ارتسمت قبل زوالها من الخيال صورة كونه في المكان الثاني، فقد اجتمعت الصورتان في الخيال، و حينئذ يشعر الذهن بالصورتين معا، على أنهما شيء واحد.

و لكن يرد على "هيوم"، الذي قلنا إن قوله عن الروح يشبهها بالحركة بمعنى القطع، فيجعلها أمراً مخيلاً، لا وجود له في الخارج مثل هذه الحركة...

يرد على "هيوم" -مع ما أورده عليه- "استوارت ميل"، و قد ذكرته في كتابي المار الذكر -هذا الكتاب، و سيجيء

ما أورده في محلـه- أن فيه اعترافـاص بوجـود الـذاكرة، الـتي تنسج من الشـهودات سلسـلةً ملتحمـةَ الأطـراف، و الـتي تبقى محتفظة بعينيَّتها طـول امتـداد السلسـلة إلى آخر الحياة، فتكون الذاكرة هي المعبر عنها بـ "أنا"، إن لم يكن هو الروح؛ و يكون نزاعهُ لمثبـتي<421> الـروح، نزاعـاً لفظياً؛ و هو خلاف المفروض على مذهب "هيـوم"، الـذي لا يعــترف بوجــود أي شـــيء، لكونه حســـبانيا، مؤسس الحسبانية الأخيرة.

و هـذا كما يــرد على "كـانت"، الـذي لا يعـترف هو الآخر بوجــود "أنـا"، لا لكونه ماديـا، و لا لكونه حسـبانيا، و إنما لكونه من التصوريين، الذين لا يعـترفون بوجـود أي شـيء في غير الأذهان، فـيرد عليه أنه ملـزم بـالاعتراف بوجـود الــذهن، و لا يقـــال إن الـــذهن لا يوجد إلا في الـــذهن، لاستلزامه التسلسل الباطل.

و ليس للفيلسـوف "هيـوم"، الـذي لم يكن ماديا معارضا للروحـيين، دافع إلى إنكـار وجـود الـروح المعـبر عنها بــ "أنـا"، بل و لا لإنكـاره المـادة أيضـا، و إحيائه لمـذهب الحسـبانية، الـذي كـان "ديكـارت" قضى عليـه، إلا كونه تدريبيا، تام التمسك بمذهب التدريب، لا ناقصَه كالماديين، الـذين اعـترفوا بالمـادة، و لم يعـترفوا بـالروح في حين أنهم لم يروهما كليهما، و لم يجربوا وجودهما حسيا.

و في هذا القدر من الكلام في مبلغ كون المذهب المادي مـــذهباً تـــدريبيا، و فيما ينجر إليه المـــذهب التجـــريبي الحقيقي، كفاية للقارئ اليقظ.

و زيـادة على كل هـذا، فـإني أرى من الـواجب التصـريح بكـوني متعجبا من تخصـيص الغربـيين اسم "العلم" في الأعصر الأخـيرة بما ثبت بالـدليل التجـربي، دون ما ثبت بالدليل العقلي، و تقليد الشرقيين الجـدد إيـاهم من غـير تـدقيق، كما هو دأبهم[184]، حـتى ملأ العصـريون كتبهم و مقـالاتهم بحـديث الطريقة العلميـة، و الأسـلوب العلمي إلى حد ممل.

و قد عرف قـراء (مجلة الأزهـر) كيف تمـدَّح الأسـتاذ فريد وجـدي بأنه يكتب السـيرة المحمديـة، مسـتنداً إلى الأدلة العلمية التجريبـة، لا إلى الأدلة العقلية المنطقيـة، تمـدَّح بإبعاد العقل<422> و المنطق عما كتبه من غير أبْه لعقـول القراء.

و هو لا يدري أن الثابت بالدليل التجـربي، لا يكـون أقـوى مما ثبت بالـــدليل العقلي، بل الثـــابت بالـــدليل العقلي أقـــوى، كما لا يخفى على من طـــالع مبحث المعرفة من مباحث الفلسفة بدقة.

و حسبك أن الثابت بالدليل العقلي، يكون خلافه مستحيلا؛ و لا يستحيل خلاف الثابت بالدليل التجربي، كما يشـهد به علماء المذهب التدريبي أنفسهم.

و من هـــذا تـــرى المســـائل العلمية التجريبية قد ينتقض قديمها بحديثها، و لا ترى شيئاً من القوانين الهندسـية، و المنطقية، المستندة إلى العقل، تتبدل أبد الآبدين.

أفليست الهندســـة، و المنطق علمـــا؛ في حين أن العلم الطبيعي علم[185]؟

و صاحب العقل السليم -الذي يثق ببصيرته، ثقته ببصـره، و لا يرضى أن يكون عقله، الذي يمتـاز به على البهـائم لا بحواســه؛ أدنى من حواســه-، يـــدرك أن مناســـبة العلم بالعقل أقوى، و أشد من مناسبته بـالحواس، لأن العقل و العلم كلاهما من جنس واحد غير محسوس.

قال الفيلسوف "كوزين": [إن العلم إلهي بالطبع].

فكيف يكـــون إذن هـــذا العلم مهنة ملاحـــدة المـــاديين، و الإثباتيين، أو الوضعيين دون الحكما الإلهيين[186]؟

و قد كـان الأجـدر بالأسـتاذ فريد وجـدي بك مـدير (مجلة الأزهـر)، و رئيس تحريرهـا، أن ينتقد تخصـيص اسم العلم بالعلم المادي، بدلا من شـماتته بـذلك العلم، و دعوته إلى الإفاقة من غـــروره، تقليـــداً للشـــامتين الغربـــيين، و الشامتون أنفسهم كانوا خولوا العلم المادي هذا الغـرور، أو بالأصح كانوا هم المغرورين، و كان الأسـتاذ في طليعة المقلـــدين للمغـــرورين، و اليـــوم هم المفيقـــون بعض الإفاقة، و هم الشامتون.

******** ******* ******

انتهت المقالة الـــتي كنت كتبتها من قبل على أن تنشر في الصـحف، ثم انصـرفت عن نشـرها فيهـا، رائيا أن أدرجها في هذا الكتاب، الذي اشرت إليه في المقالة غـير مرة<423>.

هذا، و بعد مُضيٍّ ما يقرب من عامين على جريان النقاش بين الأسـتاذين، نشر الأسـتاذ فريد وجـدي بك مقالة في (الأهـرام)، عنوانهـا: "اعـتراف العلم بـالظواهر النفسـية، نشـــوء عهد جديد للعاطفة الدينيـــة"؛ ذكر فيها نقلا عن "سن داي تيمس"، و غيرها خبر إنشاء فرع خاص بتـدريس المباحث النفسية، و حاول بنشر مقالته التعريض للنقاش السـابق بينه و بين الأسـتاذ نصـيف المنقبـادي، مسـتغلا للخبر المذكور في الشماتة بخصمه في غير مصارحة.

و ذكر في صـدر مقالته ما لا يـزال محتفظا به في أدواره المختلفـة، المتحولـة، و لا أزال أنا أنكـره عليه من عقليته الخاطئة في تقدير الحقائق العالية الفلسفية، فقال: [لما بدأت حيـاتي التأمليـة، و كـانت مبكـرة، و عرضـتُ العقائد الأولية على عقلي، شعرتُ بالحاجة إلى إقامتها على أدلة محسوسـة، كما هو شـرط الفلسـفة الوضـعية السـائدة اليوم، و إلا هان أمرها، و ضعف تأثيرها عند الـذين نهلـوا من حياض العلوم الغربية].

فكـأن الأسـتاذ عند ما عـرض العقائد الأولية على عقله غلط، فعرضها على حواسه، ورثها من آبائـه، و هو معـنى وصفها بالأولية.

و هـذه الفقـرة من كلام الأسـتاذ كالصـريح في أنه غـير معتقد للدين، منذ ابتدأت حياته التأملية، و لم ينس التمدح بأنها كانت مبكرة.

و الفلسـفة الوضـعية، الـتي اعـترف بسـيادتها اليـوم، و اعتمد على شـــرطها، هي فلســـفة "أوجوست كـــونت" الإلحادية، المسامة تـارة بــ "الفلسـفة الإثباتيـة"، و تـارة أخـرى بــ "الفلسـفة الوضـعية"، "بوزيتـويزم"، و شـرطها المـذكور، وَضَـعه أصـحاب هـذه الفلسـفة، لئلا يعـترفوا بأساس الأديـان المبنية على الإيمـان بـالغيب، أي الغـائب عن الحواس[187].

أما قوله بعد هـذه التمهيـدات<424>: [و إلا هـان أمرهـا، و ضعف تأثيرها عند الذين نهلوا من حياض العلوم الغربيـة]؛ فرجـوع إلى مسـلك الـدس، و الاسـتبطان، ليظن من ظن من القراء أن الأستاذ يسعى لإزالة الشكوك، التي تسـاور عقائد المتعلمين العصريين الدينية، لا عقائده نفسه!!

---

[184] و لذا أي لكون العلم عند الفئـتين المقلـدة، و المقلـدة منحصـرا فيما يثبت بالتجارب الحسية، شاع فيما بينهما أن العلم لا يعترف بوجود اللـه، لتعذر بناء القول بوجوده على التجربة.

[185] و نحن ندرس في هذا الكتاب هذه المسائل أكثر من هذا.

[186] كما أن الأنسب بـالروح غـير المادية أن يكـون الـدليل على وجودها عقليا غير مادي.

[187] و صـاحب المعـالي مؤلف كتـاب (حيـاة محمـد) لا يقل إيمانه بهـذه الفلسفة عن إيمان أسـتاذ (مجلة الأزهـر)، راجع ما كتبنـاه تحت (الـرقم 5).

فهل هو لما بدأت حياته التأملية -و كانت مبكرة-، و أحست بالحاجة إلى إقامة عقائد الدين على الأدلة المحسوسة، كانت تلك الحاجة التي أحس بها، حاجة غيره من الناس قبل حاجة نفسه؟

و على كل حال، فعقل الأستاذ الذي عرض عليه العقائد الأولية فضلا عن كونه محدوداً بنطاق الحس، فإنه محروم أيضا عن استقلال الفكر تحت تهيب الذين نهلوا من حياض العلوم الغربية، و التقيد بمماشاتهم.

و إني أهنئ الأزهر في عهد فضيلة الأساتذة الأكابر: المراغي، و الظواهري قبله، و مصطفى عبد الرازق، و مأمون الشناوي بعده، بلسان انتدبوه للأزهر، ينطق في دفاعه عن الإسلام بعقل يأخذ الوحي من فلسفة "أوجوست كونت" الإثباتية، و الوضعية الإلحادية.

و قد سبق منا الكلام (ص 148)، عن مبادئها المعروفة بـ "قانون الحالات الثلاث".

ثم قال الأستاذ: [فدأبت أبحث عن هذه الأدلة في الثقافة العربية، فأعوزتني، فلجأت إلى الثقافة الغربية، فاهتديت على أوسع و أوفى ما كنت أتمنى في التجارب، التي كانت تتولاها من علماء كل أمة متمدنة طائفة من أقطابهم في الناحية النفسية، عقب حوادث خوارق للعادة، ظهرت في الولايات المتحدة سنة 1847، و ثبتت صحتها بالدلائل المحسوسة...].

و كان عجيبا من الأستاذ الذي لا يعترف بحوادث خارقة للعادة ظهرت على أيدي أنبياء الله في عهودهم المختلفة، اعترافُه بحوادث خارقة، ظهرت في الولايات المتحدة، رغم كون الخوارق الظاهرة على أيدي الأنبياء أيضا من المحسوسات، فلعل ما ظهر منها على أيديهم لم تثبت صحته عنده، و لم تكفه شهادة القرآن بوقوعه، كما كفت شهادة مخبري الغرب بوقوع خوارق سنة 1847 <425.

و بعد أن أشاد الأستاذ في المقالة بفضل ثمرات تلك التجارب النفسية من حلول معاضل، اعترف العلم المادي بعجزه عن حلها، ختم مقالته بقوله: [فحيا الله العلم، و أيد دولته، و قوى شوكته، حتى يعم نوره الخافقين].

ففي المقالة الواحدة مدح الأستاذ العلم، و أذعن لدولته، و شوكته، و رماه بالعجز، و العلم الذي أطراه، و الذي ازدراه كلاهما العلم المادي، المستند إلى الأدلة المحسوسة.

و حسبك في مدح العلم و ذمه معا، عنوان المقالة القائل: "اعتراف العلم بالظواهر النفسية"؛ الدال على أن المنكر أولا، و المعترف بما أنكر، هو العلم نفسه؛ فهو -أي العلم- في التحول من رأي إلى رأي، كالأستاذ صاحب المقالة، الذي قال قبل بضع عشرة سنة في مناقشته إياي على صفحات (جريدة الأهرام): [... في تلك الأثناء، وُلد العلم الحديث، و ما زال يجاهد القوى، التي كانت تساوره، حتى تغلب عليها، و دالت الدولة إليه في الأرض، فنظر نظرة في الأديان، و سرى عليها أسلوبه، فقذف بها جملة إلى عالم الأساطير].

و قد قال قبله بسنة أو سنتين في مقالة أخرى: [إن العلم و الفلسفة ينقصان كل يوم من أطراف رجال الدين، و أن الناس يتسللون منهم زرافات، حتى لم يبق سواهم في المجال، الذي هم فيه، فابتنى على ذلك أن الفلسفة المادية، التهمت الطبقات المتعلمة، و أصبحت عنصرا من عناصر الروح الحاضر].

ثم قال بعد سنوات، عند مناقشته الأستاذ المنقبادي: [أي علم هذا الذي ينطق بلسان الأستاذ المنقبادي، و يجعله يقول هذا ممكن، و هذا مستحيل؛ أي علم يريد؟ و العلم نفسه، يعلن أنه لم يجاوز قشر الأشياء].

و هذا على الرغم من أن الأستاذ المزري بالعلم في هذه المناقشة، كان في حين مناقشته إياي، قد جعل للعلم دولة في الأرض، تخوله حق الحكم باستحالة ما نطقت به كتب الأديان من معجزات الأنبياء، و أنباء البعث بعد الموت؛ حق القذف بالأديان جملة إلى عالم الأساطير <426.

و أخيرا يقول في العلم المنكر للحقيقة، و المعترف بعجزه، و بما أنكره: [حيا الله العلم، و أيد دولته، و قوى شوكته، حتى يعم نوره الخافقين].

قلنا: كأن العلم في التحول من عقلية إلى عقلية كالأستاذ نفسه في أدواره؛ نعم، إن العلم ينصف، فقد يعترف بما كان ينكره، لكن الأستاذ لا يعترف في تحولاته بما كان ينكره، بل يتحول كأنه رجل آخر، و خصيصاً لا يعترف بعجزه أبداً.

و قال الأستاذ -بعد كل تلك المقالات التي نقلنا إلى الآن شواهد منها- قوله الأحدث في الجزء الثامن، من المجلد الحادي عشر، من (مجلة الأزهر)، تعليقا على ما نقله من (كتاب فلسفة الدين)، للفيلسوف "سباتييه"، أستاذ الفلسفة بجامعة باريس.

و هو، أي الأستاذ فريد وجدي لا يزال يضرب على الوتر القديم، الذي لا يتركه مهما تحول من مظهر إلى مظهر، منذ تولى الوظيفة الأزهرية، و هو داؤه، الذي لا يقبل المداواة:

[و لا أخفي على القراء أني مهما أظهرت أعجابي بالتحليل النفسي، الذي قام به الأستاذ "أوجوست سباتييه"، و أثبت به أن التدين هو معنى الإنسانية، و لا إنسانية بدونه، فإني لا أزال أرى أن قضية الدين تحتاج لشاهد من العلم نفسه، يأتي النفوس من ناحية الدستور الذي سنه، و أصبح العمل به ضربة لازب على العقول.

ذلك أن العلم قد غرس في النفسية البشرية في العهد الحديث، أن كل معقول لا يؤيده دليل محسوس، لا يمكن أن يؤدي إلى اليقين، الذي تثلج عليه الصدور، و تطمئن إليه القلوب، فمهما تأتي الإنسان بواسطة التحليلات الموفقة إلى نتائج، فإنها لا تخرج عن كونها من المعقولات، التي يعوزها الدليل المحسوس؛ و لا يخفى أن العقيدة لا تبلغ درجة التأثير العملي، إلا إذا وصلت إلى درجة اليقين.

و أين هي في هذه الحالة النفسية للمعاصرين، الذين يتطلبون الدليل المحسوس، و لا شيء غير الدليل المحسوس؟

فالتدين في هذا العهد يحتاج إلى الدليل المحسوس <427].

و أنا أقول أستاذ (مجلة الأزهر)، و المدافع عن الدين على رأس هذه المجلة، منذ سنين طويلة يلح في عدم إدراك ما يحتاج إليه التدين بالضبط الصحيح في هذا العصر، فيزعم أنه محتاج إلى الدليل المحسوس؛ و صوابه أنه محتاج إلى إبطال حاجته إلى الدليل المحسوس، التي هي دعوى الملاحدة.

لكن الأستاذ الذي يقوم في رأس (مجلة الأزهر) بتمثيل دور القضاء على دعاوي الملاحدة، و الذي يعجز عن إبطال دعواهم، التي هي المبنى الحقيقي للإلحاد العصري، يردد في مقالاته التسليم بتلك الدعوى، ثم ينحو نحو إبطال ما لا ينفعه إبطاله، و إثباته ما لا يستطيع إثباته، فيقع أولا في هاوية دعواهم، ثم يجتهد عبثاً لكسب القضية مغمورا قائلا: [ليس الحصول على الدليل

<u>المحسوس في الشؤون الاعتقادية في هذا العصر من الصعوبة في الدرجة، التي يتوهمها الأكثرون، فيكفي فيها هدم عقيدة سلبية أقامتها الفلسفة المادية من طريق الآراء العلمية، لا من طريق الأدلة الحسية، و اكتسبت بالجري عليها حكمَ المقررات اليقينية، و ما هي منها في شيء]</u>.

أقول -و لا أُحصي أخطاء الأستاذ-: إن التدين لا يحتاج إلى الدليل المحسوس، و هو ما عنينا بإثباته في هذا الكتاب؛ و أن الحصول على هذا الدليل المحسوس بالمعنى، الذي يُقنع المطالبين به، ليس بسهل كما زعمه، بل ليس بممكن، لعدم إمكان إثبات وجود الله، الذي هو أساس الدين، بالدليل المحسوس، إذ الدليل المذكور قاصر عن إثبات الوجود الواجب، الذي هو وجود الله كما سبق منا التنبيه عليه، و كما يأتي تفصيله.

و من أخطاء الأستاذ أنه يزعم عدم حصول اليقين إلا بالدليل المحسوس، مع أن اليقين يحصل بالدليل العقلي أيضا، و يكون اليقين الحاصل به فوق اليقين الحاصل بالدليل المحسوس، كما سيطلع عليه القارئ، إن لم يطلع إلى الآن.

<u>أما قوله: [و أين هي]</u>، يعني العقيدة الواصلة إلى درجة اليقين، <u>[في هذه الحالة</u><428><u> النفسية للمعاصرين، يتطلبون الدليل المحسوس، و لا شيء غير الدليل المحسوس؟</u>

<u>فالتدين في هذا العصر يحتاج إلى هذا الدليل المحسوس]</u>.

ففيه إبهام، لا يُعرف تماما أن الأستاذ -في تطلب الدليل المحسوس-: يترجم عن المعاصرين؟ أو يترجم عن نفسه؟

<u>فإن كان الأول</u>، كان واجب الأستاذ، الممثل للسان الأزهر في رأس مجلته أن يتشجع فيصدهم عن ضلالهم، و يعلمهم الحقيقة، التي هي عكس ما ادعاه الأستاذ من جانبهم، أو من تلقاء نفسه، <u>أنه: [لا شيء غير الدليل المحسوس]</u>.

ففضلاً عن أن يكون الدليل المحسوس، هو كل شيء، و لا شيء غيره -أي هو كل الدليل، و لا دليل غيره-[188].

فالعقيدة الواصلة إلى درجة اليقين بشأن وجود الله، الواجب الوجود، تتطلب الدليل العقلي، و لا ينفع فيها الدليل المحسوس، اللهم إلا إذا كان المراد من الدليل المحسوس، دليل نظام العالم الذي يأتي تفصيله في هذا الكتاب إن شاء الله، تحت عنوان "دليل العلة الغائية"؛ لكن هذا ليس ما أراده الأستاذ من الدليل المحسوس... كان واجب لسان الأزهر أن يتشجع، فيجاهر المعاصرين بالحقيقة، لا أن يماشيهم في الضلال البعيد عن الحقيقة.

<u>و إن كان الثاني</u>، و لم يكن هذا ضلالهم، بل ضلال الأستاذ نفسه، كان الواجب أن يبدأ بتصحيح الخطأ من نفسه، و يتعلم الحقيقة قبل تعليم غيره.

و لا يزال الأستاذ في قوله: [ليس الحصول على الدليل المحسوس في الشؤون الاعتقادية في هذا العصر من الصعوبة في الدرجة التي يتوهمها الأكثرون، فيكفي فيها هدم عقيدة سلبية أقامتها الفلسفة المادية، من طريق الآراء العلمية، لا من طريق الأدلة الحسية، و اكتسبت بالجري عليها صفة المقررات اليقينية، و ما هي منها في شيء]، متمسكا بالدليل المحسوس.

حتى إنه يعيب على أصحاب الفلسفة المادية المتمسكين بالأدلة المحسوسة، كونَهم لم يتمسكوا في عقيدتهم السلبية، التي ذكرها بالدليل المحسوس، و ينزعُ عنهم بهذا السبب حق إجراء صفة المقررات اليقينية على تلك العقيدة.

و لا يدري الأستاذ أن السلب لا يقوم عليه دليل محسوس، كما لا يقوم على الوجود بوصف مضاعف، أعني الوجود الواجب؛ و إنما يقوم على الوجود العادي.

و لا يدري أيضا أن خطأ أصحاب الفلسفة المادية في عقيدتهم السلبية لم ينشأ من عدم كون تلك العقيدة مبنية على الدليل المحسوس، بل نشأ من أنهما كهم في المادة، و الأدلة الحسية، فإذا لم يجدوا دليلا حسيا على وجود أي شيء، حكموا<430> بسلب وجوده.

و ليس حكمهم هذا من طريق الآراء العلمية، كما توهم الأستاذ، لأن الرأي العلمي لا يسلب الوجود عما لم يقم على وجوده دليل حسي، و إنما يسلب العلم بوجوده من طريق الأدلة الحسية، و لا يلزم من عدم العلم بوجوده من ذلك الطريق، بل من أي طريق عدمُ وجوده في نفس الأمر.

فمنشأ خطأهم الانحصار، و الانحباس في الأدلة الحسية، الذي يباريهم فيه الأستاذ، و يجاوزهم، فيطالبهم بالدليل المحسوس للسلب.

ثم يقول الأستاذ: [هذه العقيدة السلبية، هي أن الوجود ينحصر فيما تدركه الحواس الإنسانية، و لا شيء فوقه، أو وراءه، يدبر، و يتحكم فيه، فهو قديم بمادته، و قواه، و قائم بنفسه، لا يحتاج لسواه، و أن كل ما يقال عن خضوعه لقوى أرفع منه، و عن تخلف نواميسه بعوامل غير طبيعية، فهراء، لا يجوز الالتفات إليه.

[يتنزل من هذه العقلية أصول تناسبها، و هي أنه: لا روح مستقلة للإنسان، و لا بقاء لها بعد هذه الحياة في عالم أرفع من هذا العالم...

فهذه العقلية السلبية، التي أقامت صرحها الفلسفة المادية، و أحكمت بناءها في مدى الثلاثة القرون

---

[188] و يحتمل أن يكون معنى قوله: [و لا شيء غير الدليل المحسوس]؛ و لا شيء يتطلبه المعاصرون غير الدليل المحسوس؛ و على هذا التقدير، يكون الأستاذ معترفا بعجزه التام عن إرشاد المعاصرين الضالين إلى الحق، فيتبعهم هو من رأس (مجلة الأزهر) بدلا من أن يجعلهم يتبعونه.

و يؤيده ما سبق من قول الأستاذ في مقالة عنوانها "السيرة المحمدية تحت ضوء العلم و الفلسفة"، و هو من أحدث أقواله، و قد نقلناه من قبل في (ص: 373)، عن الجزء السابع، من المجلد الحادي عشر، من (مجلة الأزهر)، استشهاداً على أن الأستاذ بعد تولي الوظيفة الأزهرية، كالأستاذ قبله في الخضوع لسلطان العلم الحديث، المانع عن الإيمان بالغيب: [و قد لاحظ قراؤنا أننا نحرص فيما نكتبه في هذه السيرة على أن لا نسرف في صرف كل ناحية إلى ناحية الإعجاز، مادام يمكن تعليلها، بالأسباب العادية، حتى و لو بشيء من التكلف، مسايرة لمذهب المبالغين في التثبت، و المحافظة على الدستور العلمي، ثقة منا بأن بحثاً لا تحترمه النخبة المثقفة، و لا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى، في عرض المسائل، و تحليلها لا يمكن أن يؤدى إلى ما قصد منه من الخدمة العامة].

و أنا أقول: عار كبير على الأزهر أن يقول رئيس تحرير مجلته هذا القول مصارحاً قرّاءه، بأن المنهج الذي انتهجه، و دأب عليه في القيام بوظيفته في رأس المجلة: أن يماشي أهواء العصريين، الذين لا يؤمنون بالغيب، و يتابعهم في عقلياتهم، و قد أكبرهم بتسميتهم النخبة المثقفة، و مدح مذهبهم، بأنه مذهب المتثبتين، و المحافظين على الدستور العلمي، و مدح نفسه بالحرص فيما يكتبه على هذه المماشاة، و المتابعة، كأن واجبه في رأس المجلة الأزهرية، أن يتفق مع ملاحدة العصر في عدم الإيمان بالغيب، المتواري عن الحواس، بدلا من أن يجاهدهم، و ينبه القراء على ضلالهم عن الحق الأحق بالاتباع؛ بل ينير للضالين طرائق العودة إلى حظيرة الإيمان.

فإن كان هذا الأستاذ، رئيس تحرير مجلة الأزهر، الذي يعلن هكذا عن برنامجه في القيام بوظيفته، متفقا في العقيدة مع من يسايرهم من المنكرين، فهو كمحام عن التدين، متفق مع أعدائه، و باع قضيّته منهم، بمرأى و مسمع من مؤكله الذي اختاره للمحاماة، و هو يأخذ ثمن المبيع منه، لا من الأعداء المشترين قضية الدين.

و إن كان يماشيهم بعجزه عن مقاومتهم، لا لبيع قضيته منهم... فيا خسارة الدين، و الأزهر، من هذا المحامي، العاجز، الظاهر بمظهر أكبر بطل في الدفاع عن الإسلام خاصة، و الديانة عامة، لم يوجد مثله في الأزهر، فانتدبوه من خارج الأزهر!!

الماضية، قد صادفت في العهد الأخير من الاكتشافات العلمية ما هدمها من أعمق قواعدها، بل ما نسفها نسفاً، و ذراها في الهواء، و نصب مكانها علم التعاليم الروحية، مؤيداً بأقوى الأدلة الحسية].

و أنا أقول: من العجب أن يُكشف وجود الروح، و يُثبت بأدلة حسية، أي أن تُدرَك الروح بالحواس، فيزعمَ الأستاذ كون هذا الكشف هادماً لعقيدة الفلسفة المادية، القائلة: "بأن الوجود ينحصر فيما تدركه الحواس الإنسانية".

و كيف يخفى على الأستاذ أن الماديين المنكرين وجود الروح لعدم إدراكها بالحواس، لا يصعب عليهم الاعتراف بوجودها، بعد إدراكها بالحواس، بفض الكشف الجديد، و تسلم لهم عقيدتهم السلبية، و لا تنهدم، بل تتأيد، كما ذكرنا قريبا في المقالة التي لم ننشرها في حينها، و أرجأنا نشرها إلى نشر هذا الكتاب.

فإذا قيل لهم: لماذا كنتم تنكرون وجود الروح؟

قالوا: لأنها لم <431> تكن مدركة بالحواس.

و إذا قيل: لماذا تعترفون اليوم بوجودها؟

قالوا: لأنها أدركت بالحواس، فتحقق شرطنا في الاعتراف بوجود أي شيء، و كان المرعي من قبل و من بعد هو شرطنا.

و أصل السبب في عدم ظهور النتيجة كما يرومها الأستاذ، و هو هدم عقيدة الماديين السلبية بالكشف الجديد، و إفحام الماديين، أن الأستاذ نفسه مربوط بالعقيدة المادية السلبية، التي يريد هدمها، و لذلك فهو يريد هدمها، و لا يستطيعه.

و كيف يستطيع الإنسان هدم عقيدة، هو نفسه مرتبط بها؟

أليس الأستاذ مقتنعا، و مصدقا للعقيدة القائلة بـ "أن كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا يعتد به"؟

و ما الفرق بين هذه العقيدة السلبية، و بين العقيدة السلبية، التي نسبها إلى الماديين، القائلة بـ "أن الوجود ينحصر فيما يدركه الحواس"؟

ما الفرق بين العقيدتين؟ و كلاهما لا يعتد بغير المحسوس.

فلعل الأستاذ أخذ العقيدة السلبية -التي يعتنقها، و يرتبط بها- من ملاحدة الفلسفة الوضعية "بوزيتويزم"، فظن أنها غير العقيدة السلبية التي يعتقدها ملاحدة الماديين، مع أن أصحاب الفلسفة الوضعية أخذوا تلك العقيدة عن الماديين، و كلاهما واحد في المعنى.

فلو هدم الكشف الجديد العقيدة السلبية المادية، هدم العقيدة الوضعية معها؛ و إذا لم يهدم العقيدة الثانية، التي هي عقيدة الأستاذ أيضا، لم يهدم العقيدة الأولى المادية أيضا، المطلوبَ هدمها عند الأستاذ.

و لو أدرك الأستاذ عدم وجود الفرق بين العقيدتين اللتين احتفظ بإحداهما، و أراد هدم الأخرى، لما أخطأ في وضع عقيدة الماديين السلبية، و لما أصابه الفشل في هدمها.

و الوضع الصحيح لتلك العقيدة المطلوب هدمها أن توضع بحيث إذا انهدمت، انهدمت معها العقيدة التي لا يزال الأستاذ محتفظا بها انهداماً واضحاً، يفهمه الأستاذ أيضاً.

فيقال إنهم قد حصروا طريق الاستيقان بوجود الشيء في قيام الدليل الحسي على وجوده، و أنكروا وجود ما لم تدركه الحواس إلى الآن مثل الروح، على الرغم من وجود الدليل العقلي على وجودها منذ كانت الروح، و كان العقل... فكذبتهم الكشفيات الأخيرة الروحية، و أثبتت <432> صدق العقل، و يقظته أكثر من الحواس، لكونه تقدمها في إدراك بعض الموجودات إدراكاً جازماً.

<u>و لا يكون للماديين -إذا صورت عقيدتهم المطلوب عدمها كما صورنا-، أن يقولوا: "لا فائدة في هذا الاكتشاف الجديد عن الروح لأهل الدين، و لا مضرة بنا، فنحن ماشون على شرطنا في الاعتراف بوجود الشيء عند قيام الدليل الحسي عليه، و ثابتون في عدم الاعتراف بوجود الله، حتى بعد ثبوت وجود الروح بالدليل الحسي، فليؤجل أهل الدين حكمهم القطعي بوجود الله، إلى أن يروه بأعينهم كما رأوا الروح...".</u>

ليس لهم أن يقولوا هكذا، لأن إثبات وجود الروح بالدليل الحسي إن لم يأت بفائدة جديدة لأهل الدين في إثبات وجود الله، بناء على أن إثباتها بالدليل الحسي ليس إثباته بالدليل الحسي، إلا أن لهم في هذا الإثبات فائدة انهدام العقيدة السلبية المادية.

و من كل هذا يتبين خطأ الأستاذ، في إيهام القول عن موقف أهل الدين، و موقف الماديين بعد الاكتشافات الأخيرة الروحية على تقدير صحتها، حتى كأن حصل بها كل شيء يصدق الأولين في قضيتهم، و لم يبق للأخيرين ما يقولون دفاعاً عن فلسفتهم.

نعم، ثبوت بقاء الروح بعد انفصالها عن البدن، ينفع بعض النفع في تنبيه الأستاذ على خطإه الذي كان مصرا عليه لما ادعى استحالة معجزات الأنبياء، و جرى عليه النقاش بيني و بينه قبل سنوات على صفحات (الأهرام)؛ و في أثناء جريانه، أضاف إلى عواه في استحالة المعجزات دعوى استحالة البعث بعد الموت أيضا.

و هذا الخطأ الفاحش، و إصرار الأستاذ عليه مسجل في مقالاته، التي سأثبتها بحروفها في ذيل هذا الكتاب، و لم يسبق من الأستاذ حتى الآن اعتراف صريح بخطإه في ذاك الصدد، أو شبه صريح، كما هو دأبه في أخطائه.

ثم ماذا قد تكون استفادة أهل الدين من اضطرار الماديين بعد الاكتشافات الروحية إلى التسليم بوجود الروح، و بقائها بعد هذه الحياة في عالم أرفع من هذا العالم<433>؟

فأين الركن الأول للدين، و هو الإيمان بوجود الله؟

و ليس وجود الله وجودَ الروح، و لا وجودَ عالم أرفع من هذا العالم، و إنما هو وجود موجود واجب الوجود.

و ثبوت هذا الوصف المضاعف لأي موجود، أعني وجوب الوجود الذي لا يكون الموجود إلها إلا به، يتطلب دليلا عقليا منطقيا، و لا ينفع فيه أي اكتشاف نفسي يكسب دليلاً حسيا لوجود الروح، أو لوجود عالم أرفع من عالمنا، لينتقل به الذهن إلى احتمال وجود الله في ضمن ذلك العالم، و ماذا هو الفائدة في حصول هذا الاحتمال؟

فأين احتمال وجود الله من الله، الذي يجب وجوده، و يقصر عن مداه الوجود المتحقق، فضلاً عن الوجود المحتمل؟

و قد عرفت أن مرتبة الألوهية هي وجوب الوجود، فكل موجود يكون وجوده دون هذه الدرجة، فهو غير الله.

و الذين لم يستيقنوا الله بما له من ضرورة الوجود، التي يتماز بها عن كل موجود سواه منذ استيقنوا أنفسَهم، يبحثون عن الله في الاحتمالات المنتظرة من الكشوف الجديدة الغربية، و لا يبحثون إلا عبثا؛ فقد سبق الشرق الغربيين بحكمائه اليونانيين و علمائه الإسلاميين في اكتشاف وجود الله بالدليل العقلي المنطقي، الذي لا يحتاج إلى دليل غيره.

و الذي يبقى فضل هذا السبق إلى الأبد للشرق على الغرب، إن تأخر عنه في اكتشافات كثيرة أخرى لا يقاس في الأهمية و الخطورة بهذا الاكتشاف الأعظم.

و لا إخال أنا كون أساتذة الغرب الباحثين عن الروح بالتجارب الحسية، يستخدمون هذه التجارب في البحث عن الله؛ أما أساتذة (مجلة الأزهر) فما أجدره بأن يتمثل بقول الشاعر:

قالت -و قد فتشت عنها كل من	لاقته من حاضر، أو باد-
أنا في فؤادك، فارم طرفك نحوه	تَرَني، فقلت لها: و أين فؤادي؟

فالله تعالى على رأي هذا الأستاذ الذي يستمد في ثبوت وجوده بالاستكشافات النفسية<434> المستقبلة، سيثبت وجود في الغرب، ثم يثبت في الشرق بفضل الغربيين، و لم يثبت بعدُ لا في الشرق و لا في الغرب، و لم يتحقق الركن الأول للدين من تلك الكشوف الحاصلة، و إنما تحقق وجود الروح و بقاؤها بعد هذه الحياة، حتى إنه لا يلزم من تحقق بقائها تحقق خلودها.

و أين بعد هذا مسألة النبوة التي لا تتم أركان الدين إلا بها[189]، و التي لا يعترف بها الأستاذ كما يعترف أهل الدين فيجتهد في تنزيلها منزلة العبقرية؟

و لنختم الكلام هنا بتكرار لفت النظر إلى نقطة، و هي أن العقيدة السلبية المادية لا تنهدم إلا مع العقيدة الفلسفية الوضعية السلبية، القائلة بـ "أن كل معقول لا يؤيده محسوس، فلا يعتد به"، كما أشرنا إليه من قبل، مع التنبيه إلى أنها عقيدة الأستاذ أيضا، التي لا يزال محتفظا بها، و معناها أن غير الدليل المحسوس لا يفيد القطع و اليقين.

و من الغريب أن الأستاذ الذي يريد في طوره الثالث هدم عقيدة الماديين السلبية، لا يألو جهداً في الاحتفاظ بعقيدته السلبية الوضعية، و لا يدري أنها متلازمة مع العقيدة التي نسبها إلى الماديين، و أراد هدمها.

فإن لزم هدي إحدى هاتين العقيدتين، لزم هدي الأخرى أيضا؛ و إن لزم الاحتفاظ بإحداهما، لزم الاحتفاظ بالأخرى؛ و ألا يلزم أن يكون الأستاذ متمسكا بالمادية، و مكافحاً لها في وقت واحد.

****** ******** *****

نعود إلى مواصلة ما كنا فيه من النظر في مقالات الأستاذ فريد وجدي بك في (نور الإسلام)، و (مجلة الأزهر)؛ و إني أستسمح القراء أن لا يعاتبوني على إطالة هذا البحث، و الإكثار من تعقب قول الأستاذ رئيس تحرير المجلتين الأزهريتين في مقدمة هذا الكتاب؛ لأن الأزمة الاعتقادية المخيِّمة على العقليات الحديثة، و التي أردنا القيام<435> بالسعي في سبيل انفراجها، يتوقف حل عُقَدِها على مثل هذه التعقبات، فضلا عن أن لها صلة قوية بموضوع الكتاب.

فمما يجب أن نلفت إليه القراء أن الذين يهتمون بالحواس في إثبات وجود الموجود، ويحطون من قيمة العقل، و مكانته في إدراك الحقائق، و يفرِّعون عليه الحط من قيمة إثبات أساس الدين، الذي هو وجود الله بالدليل العقلي، و على رأسهم الأستاذ فريد وجدي، الذي سجلنا عليه ذلك بتصريحات مقالاته في مختلف أدواره.

فبينما أنت تراهم قادحين في العقل و الدين باعتبار أنهما حليفان، إذا هم يُبعدون الدين عن العقل، و يُنزلونه في ساحة القلب، و يقولون في تارتهم هذه: لو كان للدين سند من العقل، اعتبرناه من الحقائق الثابتة، و لكنه يستند للعقل، و اعتراف بقوته مع توهين مركز الدين.

و أنت تجد هذا التفريق و التبعيد بينهما في كلام الأستاذ فرح أنطون، مناقش الشيخ محمد عبده -و قد نقلنا كلامه فيما سبق-، بل و في كلام الأستاذ فريد وجدي أيضا، و إن كان بين كلاميهما فرق في درجة الصراحة، حتى إن الأستاذين بعد اعترافهما بافتراق العقل من الدين، و بطروء الوهن على مركز الدين من هذه الحيثية، تراهما في حالة التظاهر بمؤازرة الدين؛ يؤيدان القلب ضد العقل.

فهذه ثلاث نظريات للأستاذين، و اضرابهما من مقلدي الغرب المادي تدل على ما هم فيه من عقيدة مضطربة كل الاضطراب في موقف العقل و الدين بعضها من بعض، و في موقف العقل من الحقيقة:

النظرية الأولى: أن الدين يستند إلى الدليل العقلي، و هو سند ضعيف غير مقنع.

و الثانية: أن الدين يستند إلى القلب لا إلى العقل، و لو استند إليه كانت حجته قوية.

و الثالثة: أن الدين يستند إلى القلب، و هو أفضل من العقل الذي قد يطغى، فيجر صاحبه إلى الشر.

و في النظرية الثالثة تقليد للغرب المسيحي، كما أن في النظريتين الأوليين تقليد للغرب المادي مع شيء في ثانيتهما من تقليد الغرب المسيحي أيضاً<436>.

فالنظرية الأولى: تنبئ عن وهن مركزي العقل و الدين باعتبار أن الدين يستند إلى الدليل العقلي، و يعوزه الدليل العلمي المحسوس.

و النظرية الثانية: تنبئ عن قوة مركز العقل، و هن مركز الدين، باعتبار أنه يستند إلى القلب، لا إلى العقل.

و النظرية الثالثة: تنبئ عن قوة مركز الدين المستند إلى القلب، و وهن مركز العقل المفترق عن القلب.

و الأستاذان لا يدريان بالضبط أن الدين يتفق مع العقل، و يستند إليه، أو لا يستند؛ و أن العقل سند قوي، أو ضعيف؟

ففي النظرية الثانية -القائلة بافتراق الدين مع العقل مع قوة العقل، و ضعف الدين- تناقضٌ، و تصادم بالنظرية الأولى -القائلة باتفاقهما، و ضعفهما معا-.

و في النظرية الثالثة تناقضٌ في تناقض، لأن مرمى النظرية الثانية، المفرقة بين العقل و الدين توهين أساس الدين، بإبعاد العقل، و تأييده عنه؛ فترجيح مسند الدين أعني القلب، و تأييده ضد العقل في النظرية الثالثة، يكون تراجعا، و تغافلاً عن النظرية الأولى.

فالأستاذان يتناقضان مع أنفسهما بين عقليات ثلاث، في حين أن المعروف في التناقض، أن يكون بين أمرين اثنين.

---

[189] و لهذا لم يعد الفيلسوف "سباتييه" مذهب "الراسيوناليزم"، القائل بوجود الله، و خلود الروح، و أداء الواجب، مذهبا دينيا، لعدم وجود الاعتراف بالوحي في هذا المذهب؛ و سيجيء ذكره منا؛ و الشاهد هنا أن الكشوف الروحية لا تتضمن إثبات الدين، و لا تكفل به.

و إثبات ما قلنا من أن الأستاذين يعتنقان فكرة إبعاد العقل من الدين، الذي يستند إلى القلب مع تأييد القلب ضد العقل[190]، تلك الفكرة المادية و المسيحية معا[191].

فالدليل عليه من كلام الأستاذ أنطون سيجيء بعد الفراغ من مقدمة الكتاب، المستوعبة للجزء الأول منه، و معنى هذا أن الفراغ من المقدمة يتأخر إلى الجزء الثاني من الكتاب....

أما الدليل عليه من كلام الأستاذ فريد وجدي، فما كتبه في الجزء الرابع من المجلد الخامس، من (مجلة نور الإسلام)، (ص: 215) <437>: [للإنسان عقل و قلب، و هما و إن كان مظهرين لروحه المدبرة، فإنهما لاختلاف اختصاصهما في حياته الأدبية، قد يُعتبران مستقلين، لكل منهما مقومات خاصة، و سلطان خاص، فمقومات العقل: العلوم؛ و مهمته: النظر و التمحيص لإدراك الواقع[192]؛ و مقومات القلب: الشعور الفياض، و العواطف الكريمة.. و لا نقوم على جادة الحياة الصحيحة، إلا إذا تعادل فيها هذان المظهران الروحيان، فإن طغى أحدهما على الآخر، اضطربت أحوالها على نسبة ذلك الطغيان.

هنالك يتساءل سائل، فيقول: إذا تغذى العقل بلباب العلوم، فأصبح قويم النظر في الأمور، مدركا للواقع على ما هو عليه، ألا يكفي ذلك في إقامته على صراط الحق المستقيم....؟

نقول: لا، و هذه بعينها شبهة الذين وقفوا التربية على العقل وحده من أصحاب المذهب الحديث في التعليم، فقصروا التدريس على العلوم، و ما إليها، و أهملوا تربية القلب جانبا، فكان أثر ذلك أن بطل التعادل بين العقل و القلب؛ فإن كان شيء يبطل هذا المذهب، فهو ما نشاهده من حال الجيل الذي نُشِّئَ هذه التنشئة، إذ قل اعتداده بالآداب النفسية، بل منهم من اتخذ الإباحية البهيمية مذهبا، و أخذ يدعو إليها في عبارات تحتمل وجهين، و هي ترمي بجملتها و تفصيلها إلى إحلال الملاذّ البدنيةَ المكانة العليا من النفوس.

فكل ما يصدر من ثمرات العقول اليوم، و يباع من مطبوعات الملايين لا يرمي إلا إلى تقديس الأهواء النفسانية، و الجري وراء الميول البدنية... حتى أصبح الناس لا يتنفسون الأهواء مشحونا بالملهيات، و المثيرات للشهوات، و نرى في الأمم المتمدنة التي أهملت تربية القلب، الشاهدَ العدل على ما قلنا.

فهي اليوم ترزح تحت كلاكل الإباحة، التي ضربت <438> بجرانها فيهم على عظم ما يبذلونه من الجهود الجبارة في تربية العقول؛ و لسنا نرى دليلا أقوى و أوضح من هذا الدليل المحسوس على أن سلطان العقل وحده لا يكفي في تقويم الشخصية الإنسانية، و أن لا محيد لها عن سلطان القلب لإبلاغ هذه الشخصية إلى كمالها المنشود.

فالإسلام الذي أنزل رحمة للعالمين قد عني بتربية القلب عنايته بتربية العقل، فكما منح العقل سلطانه في التمييز بين الحق و الباطل أعطى القلب سلطانه ليقود الإنسانية إلى العواطف النبيلة، و ليفتح له كوة إلى عالم الأرواح، كي يستمد من نفحاتها ما يقْوَى به على الدواعي البدنية الثائرة عليه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[ق: 37]، و لم يقل لمن كان له عقل، إيذاناً لسلطان القلب في الردع، و عدم كفاية العقل وحده في ذلك...

فقد يعقل الإنسان ما تجرُّ عليه المنكرات، فلا يقوى وحده على الإقلاع عنها، إلا إذا أيده قلبه، و لولا ذلك ما وُجد على سطح الأرض من يجري وراء منكر قط، فإن أقل الناس يدرك سوء المنقلب مما يجترحه من السيئات، و لكن لحرمانه من عزيمة القلب لا يصادف وازعاً يزعه عن الغي، فيتمادى فيه.

و قد زاد الله في التنويه بسلطان القلب، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[الأعراف:179]، و قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج:46]، فصغَّر عاهات الجوارح في جانب عاهات القلب].

و أنا أقول: ما أعظم خطأ الأستاذ الذي حمل سقوط الجيل الحديث من الأمم المتمدنة في الأخلاق و الآداب إلى دركة الإباحة البهيمية، على طغيان العقل بما بذلت الجهود الجبارة في تربيته، و تنميته، و أهمل الاهتمام بالقلب!!!

فهذا السقوط إلى دركة الإباحة منشأه عندنا انتشار الإلحاد في الجيل الحديث المتمدن، و اعتقاد أنه <439> لا حياة بعد هذه الحياة الدنيا، لأن فساد العمل إلى هذا الحد، لا بد أن يكون متولدا من فساد العقيدة التي تتكون تحت حكم العقل الفاسد، فلو أنهم اهتموا بتربية عقولهم، و تنميتها لهدمتهم إلى طريق الدين المستقيم، الذي كان يكفيهم على الأقل وازعاً من الإباحة البهيمية.

فإما أن لا يكون لهم عقول تدلهم على الاقتناع بالدين، و مالك يوم الدين، و إما أنهم لا يقتنعون بالعقل مهما دلهم على الدين، قدر الدليل العقلي، و منتظرين الدليل المحسوس، و إما أن دينهم لا يتفق مع العقل، فلا يطمئن إليه عقلاؤهم، و يروجون الإباحة...

و على كل حال، فالخوض في إرضاء الشهوات من الجيل الحديث المتمدن، و السعي من وراء اللذات البدنية، و اتخاذها المثل الأعلى في الحياة ما نشأ من زيادةٍ، أو رجحان في العقول، كما زعم الأستاذ بل من نقصان فيها، و أي نقصان!!!

و يمكننا أن نقول في توضيح ما في هذه المقالة التي نقلنا عنها جملا طويلة، من خطأ العقلية: إن الأستاذ يبني ما ضمَّن مقالته من المواعظ الحسنة على تفريق العقل من القلب، و هو أسلوب الدين المسيحي، الذي لا يجد له مسنداً و متكأ من العقل فيستند إلى القلب و عواطفه....

و الأستاذ رئيس تحرير (مجلة نور الإسلام) الأزهرية، ينتهج هذا المنهج، لا لأنه يستحسن المذهب المسيحي، بل لأنه المنهج الغربي الذي لا يعرف الأستاذ غيره.....

و هذا الأسلوب المفرق بين العقل و القلب، ينتهي إلى القول بأن الإنسان يؤمن بالعقائد الدينية بقلبه، و لا يؤمن بعقله؛ و هذا القول كما ينطبق على الدين المسيحي ينطبق على الإسلام أيضاً في نظر الذين يرون

---

[190] و هو ما ذكرنا في النظرية الثالثة؛ أما الفكرتان المذكورتان في النظريتين الأوليين، فلا حاجة هنا إلى الاستشهاد لهما من كلمات الأستاذين، لكونهما معلومتين للقارئ مما سبق، و سيزداد علما بعد التوغل في الكتاب.

[191] و بهذا الاشتراك في العقلية بين الأستاذين، اللذين كان أولهما -أعني الأستاذ فرح أنطون- أول دافع إلى تأليف هذا الكتاب، يتبين عذري أيضا في إطالة النقد و التعقيب في الكتاب على أقوال الثاني، أعني الأستاذ فريد وجدي.

[192] هذا هو النظرية الثانية من النظريات الثلاث المارة الذكر، و فيها ينسى الأستاذ مؤدي النظرية الأولى، التي التزمها في كثير من مقالاته -و قد سبق قريبا ذكر نماذج منها- من أن الدليل العقلي لا يوثق به، و يكثر فيه الخطأ، و في نظر العقل و تمحيصه لإدراك الحقائق، و من هذا لا يقتنع المتعلمون العصريون، بالعقائد الدينية المبنية على الأدلة العقلية المنطقية.

كثيرا من عقائده أيضا من المستحيلات العقلية، كالأستاذ رئيس التحرير.

لكن الإسلام لا يفرق بين العقل و القلب، و لا يوجد في عقائده ما لا يقبله العقل، و هو يعتبر صلاح القلب صلاح العقل، و فساده فسادَه؛ و الآيات القرآنية التي أوردها الأستاذ شواهدَ لسلطان القلب المستقل من سلطان العقل شواهدُ نقضٍ لدعواه.

ألا يرى أنها تنسب الفقه إلى القلب نفياً و إثباتاً، فتقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[الأعراف:179]، <440> و تقول: ﴿فتكون لهم قلوب يفقهون بها﴾، و ليس الفقه و الفهم إلا فعل العقل، و المفسرون فسروا القلب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[ق:37]، بالعقل، على الرغم من قول الأستاذ: [و لم يقل لمن كان له عقل]، و من جراء ما ذكرنا أتخذت هذه الآيات بعينها في (المواقف)، و (شرحه) -اللذين اطلع القارئ فيما سبق منا على أنهما كتابان جليلان في علم الكلام-، شـواهد على أن محل العقل هو القلب، و هو مذهب أرسطو.

و في (مختار الصحاح): [القلب: الفؤاد، و قد يعبر به عن العقل].

قال الفراء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[ق:37]، [أي عقل].

<u>أما قول الأستاذ: [فقد يعقل الإنسان ما تجره عليه المنكرات، فلا يَقوى وحده على الإقلاع عنه، إلا إذا أيده قلبه]</u>؛ فهو مسألة العلم و العمل، و عدمُ استلزام الأول للثاني، لكن العقل التام القوَّام، يكفل ناحية العملة أيضا؛ و لهذا ما سمى العقل عقلا، إلا لكونه عقالا عما لا ينبغي اقترافه.

و الأستاذ التبس عليه العقل بالعلم،الذي قد يفترق عن العمل، فلا يتدخل فيه، و إن أعدَّ صاحبَه له، أما العقل فيتدخل فيه، و يصلحه، لأنه يعلم أيضا، وجوب العمل بمقتضى العلم؛ و من هذا يصح أن يوصَم العالمُ غيرُ العامل بعلمه، بنقصان العقل، و إن لم يوصم بنقصان العلم؛ و من هذا أيضا يصح أن يقسم العقل إلى عقل نظري، و إلى عقل عملي، في حين أن العلم لا يقبل القسمة إلى علم عملي.

و العقل الذي هو أشرف مواهب الإنسان لا تكون الزيادة فيه إلا زيادة في الخير، و لا يعبر عنها بالطغيان، كما عزا الأستاذ مدنية الجيل الحديث من الأمم المتمدنة، المنهمك في الملهيات، و الساعي من وراء الشهوات، و المتمذهب بمذهب الإباحية البهيمية، إلى طغيان العقل و الاهتمام بتربيته.

فهل الأستاذ يعترف لأهل الأهواء، و أنصار الإباحة البهيمية، بعقول زادئة مرباة، فيحمل جريهم المعيب من وراء الشهوات على زيادة عقولهم؟

و من العجيب المضحك أنه يخص العقل بوظيفة التمييز بين الحق و الباطل، ثم يعزو<441> مذهب الإباحة البهيمية إلى طغيان العقل و تغلبه، فهل ذلك المذهب حق في نظر العقل، أو في نظر عقل الأستاذ؟

و منشأ الغلط أن الأستاذ، كما التبس عليه الأمر، فظن العلم عقلا، فهو ظن طغيان الهوى، طغيان العقل؛ ثم إن الأستاذ يتصور الطغيان و الغواية في العقل، و لا يتصورهما في القلب، أتراه لم يسمع قول القائل:

قلبي إلى ما ضرني داع	يكثر آلامي، و أوجاعي
كيف احتراسي	كان عدوي بين
من عدوى، إذا	أضلاعي

و قال البحتري:

و لست أعجب من عصيان قلبك لي	عمداً، إذا كان قلبي فيك يعصيني

و الآن ننتهي من الكلام في مقدمة الكتاب، على تخبطات الأستاذ فريد وجدي بك في مقالاته للتدليل على أن الأستاذ بعد توليه الوظيفة الأزهرية كالأستاذ قبله.

******** ******* *****

ثم إن الشيخ محمد عبده، الذي حكينا في (الرقم 3) المناقشة الجارية بينه و بين منشئ (مجلة الجامعة)، الأستاذ فرح أنطون، كان قد حمل في أثناء المناقشة على النصرانية، فاستوجب ذلك من الأستاذ مقابلة الحملة بالحملة، و لما لم يجد ثلمة في الإسلام يدخل منها في النيل منه، صوب حملاته نحو جميع الأديان، و أنكر ائتلافها مع العقل و العلم الحديث المبني على التجربة الحسية.

و هناك لم يوف الشيخ حق القيام بما حمل عاتقه موقفُ الدفاع عن الدين لا سيما الإسلام الذي لا تعارض في أصول عقائده مع العقل، و لم يوفق لحراسة عقول الخاصة بمصر، الغافلين عن حقائق الدين و دقائق الفلسفة، من أن يفتتنوا بدعاية خصمه ضد الأديان، حتى كانت نتيجة ذلك النقاش أن استولت فكرة الإلحاد على سرائر أكثر المثقفين، فأصبح الدين في نظرهم تراثا مزعجاً، لا يُرغب فيه، و لا يُجهر بالتخلي عنه، فإن قالوا بحسب اقتضاء الحال إنهم مؤمنون، فلا يجاوز إيمانهم حناجرهم<442>.

و خلاصة الموقف أن إخواننا المصريين، لم يكفهم وقوع بلادهم تحت استعمار الغرب، حتى تملك الاستعمار قلوبهم، و كان المعافون منه العامة خاصة، و القليلَ من الخاصة غيرَ مسموع الكلم، لاتهامه بالجمود و الرجعية، و أمسى خلاص البلاد من الاستعمار الثاين أصعب من خلاصها من الاستعمار الأول؛ و قد تمت صفقة ذاك التملك بثمن بخس من نشرات "داروين" في بلاد العرب.

قالوا: إن هذا العلم ينفي كل ما لا يثبت وجوده عن طريق المشاهدة و التجربة، ففضل متعلمو مصر العصريون الإيمان بالعلم كما قال الشاعر محمد إحسان المحامي:

آمنوا بالعلم دينا و هدى	ليس بعد العلم للأفهام دين

على الإيمان بالغيب، و لم يرضوا أن يعودوا جهالا.

و ما نفعهم تحفظ الأستاذ فرح لحساب الدين بتخصيص القلب محلا للإيمان به من غير استئذان العقل و العلم، اللذين لا يعترفان بالدين، لأن عقلية المسلمين لا تأتلف بهذا التناقض، الذي تعودت العقلية المسيحية قبوله بدون تمحيص.

فتبين عندهم أي المسلمين العصريين بطلان ما ادعاه رجال دينهم، و في مقدمتهم الشيخ محمد عبده من استناد الإسلام إلى العقل و العلم، و لم يبق في مصر من انتسب إلى العقل، و العلم من المسلمين غير الجامدين، أو بالأحرى ممن كانوا من المسلمين، إلا و استبطن الإلحاد -كما قال الأستاذ فريد وجدي، في مقالته التي سبق منا الكلام عليها-، و تمذهب بمذهب الإثباتيين، الذين نوه بهم معالي هيكل باشا، و الأستاذ فريد وجدي بك في كلماتهما المنقولة سابقا باسم

أصحاب الفلسفة الوضعية، و جاء قاسم أمين فأعلن شعار المذهب، و هو عبادة المرأة[193]؛ فياله من انقلاب بلغ بالاستعمار ما لم يبلغه الإيمان، فأسر القلوب، و حل رباط الإسلام، و حرر المرأة،و أسامها في الأسواق، و قدمها على الرجل...

فالعربي الجاهلي القديم، كان إذا بُشر بالأنثى<443> ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾[النحل:59].

و العربي الحديث العلماني يبدأ خطبته بقوله: سيداتي، سادتي[194]، و لا يتوارى من القوم عندما خاصرته قرينته رجل غيره، و راقصها بين ظهرانيهم، لعلمه بأن له عوضا في أن يخاصر هو الآخر قرينة ذلك الرجل أو قريبته، و في الحقيقة أن هذا العربي أيضا جاهلي، و لكن من طراز آخر.

و لست بكاشف عن عيوب مصر، أو الشرق الإسلامي الحديث، و إنما بنيت قولي في استبطان الإلحاد من عقلاء البلاد على كشف الأستاذ فريد وجدي عنهم، و نشره على صفحات (الأهرام)، قبيل توليه رئاسة تحرير (مجلة نور الإسلام) الأزهرية بأسبوع، أو أسبوعين، و لم يَلْق كشفه، و نشره كلمةَ إنكار من الجمهور، فصار كالمؤيد بالإجماع السكوتي...

و قد أدخل الأستاذ نفسه في عقلاء البلاد، الذين ذكرهم، و استبطانهم الإلحاد، ثم لم يأت في إخراجه من بينهم بمقنع، على أن الإلحاد رغم استبطانه لا يعد عيبا في هذا الزمان بل ثقافة و علمانية، و كانت هذه العقلية هي التي قولته تلك الأقوال قبل توليه<444> الوظيفة الأزهرية؛ فإن كان المصابون غير مرتاحين له، فليس كتمان الداء أولى من مكاشفته، و أقرب إلى مداواته.

و أما مسألة المرأة، فظاهرة، و غنية عن الكشف؛ و حسبك فيها الحفلات الساهرة، التي تشترك فيها الأسر الإسلامية، و نشرات الجرائد و المجلات عن صور العقيلات، و الفتيات الكاسيات، العاريات.

و قد قال لي أحد رجال مصر، الواقفين على دخائلها -المرحوم أبو بكر يحيى باشا- إن الأحداث التي تحدث في تركيا الحديثة تحت إكراه حكومتها، تحصل بمصر في هدوء و طواعية[195].

و مما يجدر بالذكر، أن سجلت (جريدة الأهرام) في عددها الصادر (23 إبريل، سنة 1338) الذكرى الثلاثين، لقاسم أمين، مؤلف كتاب في (تحرير المرأة)، مع صورته الفطوغرافية، و كلمة لابنه قاسم قاسم أمين، عن هذه الذكرى، استهلها بالحديث الشريف: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

ثم قال: [أما الصدقة الجارية، فقد مات قاسم عن غير تركة؛ و أما الولد الصالح الذي يدعو له بخير، فإني لا أستطيع أن أدعي لنفسي ذلك الصلاح، لا عن تواضع، بل عن تقصير؛ ثم أستميح سادتي العلماء، العفو في أن أذهب إلى أبعد من ذلك أيضا، فأقول إني أرجو لقاسم عند الله أجرا عظيماً، بقدر خدمته للإسلام و المسلمين، فقد جاء في الحديث: «من سن سنة حسنة، فله ثوابها، و ثواب من عمل بها إلى يوم القيامة»<445>.

و أي خدمة أجل من هذه الخدمة، التي كان يراها أبناء جيل نقمة، لما كان عالقا بالأذهان إذ ذاك، من أن الدين يفرض الحجاب، و يحتمه، و يمقت السفور، و يحرمه، فما زال يقرع الحجة بالحجة، و الدليل بالدليل، ما بين معقول و منقول، حتى هدى الله قومه سواء السبيل، و بدد الظلمات المخيمة على العقول].

أقول[196]: فكأن حجج قاسم القارعة نسخت نصوص الحجاب الواردة في كتاب الله، و سنة رسوله، و برعتها، و أبطلت عمل المسلمين إلى عهد قاسم، و أقنعت مصر بذلك...

و لم يتأخر ولده عن أبيه في الإتيان بالعجب العجاب حيث استخرج من ذنب أبيه عملا له ثوابه، و ثواب من عمل به إلى يوم القيامة.

فهو بعد أن تواضع، فنفى عن نفسه الصلاح و التواضعَ في نفيه، و نفى بهذا كله انطباقَ الحديث النبوي، الناطق بانقطاع عمل ابن آدم بعد موته إلا من ثلاث، على قاسم في ثالثة الثلاث؛ أثبت انطباق الحديث عليه في ثانيتها، و هي علم ينتفع به.

فهذا الولد ذهب -كما قال هو نفسه- إلى أبعد من موقف الولد، الداعي لأبيه، و اختار لنفسه موقف المحامي عنه، و لعله عندما اعتبر إباحة السفور علما ينتفع به، نظر إلى أنها -و قد كان مسلمو مصر يجهلونها، إلى أن جاء أبوه، فعلمهم، و أماط أحوط حاجز بين الجنسين- كما انتفع بها زيرة النساء من الرجال، في قضاء مآربهم منهن، و زيرة الرجال من النساء في قضاء مآربهن منهم.

و حديث تأميل الثواب من الله لقاسم أمين من سفور النساء المسلمات بمصر، لكونه رائد نهضتها نحوَه، كُرر في قصيدة الأستاذ علي الجارم بك بالراديو من محطة الحكومة ليلة الاحتفال بذكرى قاسم و المنشورة في (الأهرام) في اليوم الثاني من نشر كلمة ابنه.

فقد كان هذا الشاعر الكبير يقول في مختتم قصيدته:

---

[193] تقدم منا إيضاح هذا المذهب الفلسفي، و دينه الصناعي السخيف، الذي يستعبد للمرأة.

[194] و قد بلغني أن حفلة من الحفلات، التي تكثر إقامتها في مصر، وقد تجمع بين الجنسين، ألقيت فيها خطب، و كان ملقوها يبدأونها بالقول المتعارف العصري: سيداتي سادتي، فلما جاء دور أستاذ أزهري، قام و استهل خطبته كاستهلال الذين تقدموه من الخطاباء، ثم قال ما معناه: "أنه لم يجر في خطابه على ترتيب الآداب العصرية في المحافل الجامعة للجنسين، و إنما اتبع ترتيب القرآن الحكيم في ذكر الإناث قبل الذكور، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى:49]".

و أنا أقول: بل اتبع الأستاذ العادة المحدثة، و زاد فأفتى بحسنها، و مطابقتها لأسلوب كتاب الله، و لكون الأستاذ معجبا بها لفتته آية الشورى، التي قرأها، و لم يقرأ ما بعدها، و هو: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾[الشورى:50]؛ و لم تلفته آية الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب:35]؛ و خصيصاً لم يلتفت إدماجهن في ضمير الجمع المذكر المذكور في آخر الآية؛ و لا أذكر قوله تعالى: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[التوبة : 71]، و ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾[التوبة:67].

[195] على أن مسألة المرأة كتبت عنها مرات في اللغتين التركية و العربية، و أن ناحية الحق و الصواب فيها جلية، لا تخفى على أحد، و إنما يضل من يضل فيها عن الصراط السوي بدافع من شهوءات نفسه يقضيها -قليلاً أو كثيرا- من نساء الناس في إباحة اختلاط الجنسين، بعد ما أمكنه التغاضي عما يجر عليه هذا الكسب، على حساب الناس من تعويضهم بنسائه...

فهذه المسألة فيها خسارة، و فيها منفعة لمن لا يخشى العار؛ أما الإلحاد، فليس له ما يعوضه غير نار جهنم، و ليس له دافع من النفس غير الحمق، و اشتراه أعظم جهل باسم العلم.

[196] و إني كتبت ما كتبته هنا عن قاسم أمين، قبل مطالعة كتابه، و أما ما كتبته بعدها فيجده القارئ في نهاية الجزء الأول من هذا الكتاب.

كنت في الحق للإمام نصيرا	و الوفي الصفي من أصحابه[197]
نم هنيئا، فمصر نالت ذرى المجد	و فازت بمحصنه و لبابه
منك عزم الداعي، و فضل المجلي	و من الله ما ترى من ثوابه

و بهـذا يتأيد أن مهزلة رجـاء الثـواب من معصـية السـفور لمروجيها، شوّطت في مصر أشـواطاً بعيـدة كـادت تكـون جـدا...، و بهـذا يسـتحق تبرجها أن يفـوق تـبرج الجاهلية الأولى، حيث لم يكن عـــرب الجاهلية القديمة جاهلة لحد أن تؤمِّل على تبرج نسائها ثواباً من الله.

[مقال مجلة المصور: الاحتفال برأس السنة الهجرية]:

و قد كانت (مجلة المصور، عدد 700) نشرت قبل أيام من الاحتفـــال بـــذكرى قاسم أمين الثلاثين هـــذه، صـــورة فطوغرافية لحفلة ســـاهرة، كل رجل بها خاصر امـــرأة نصف عارية؛ وتقول المجلة ما نصه:

"الاحتفال برأس السنة الهجرية"

تمثل هذه الصورة لفيفـاً من المـدعوين و المـدعوات في حفلة جمعية إحيـاء الأعيـاد العربية الـتي أقيمت ليلة رأس السـنة الهجريـة، و هـذه أول مـرة تحتفل بها على هـذه الصورة بالعام الهجري؛ و كـانت حفلة بـاهرة، خصوصـاً، و قد خلت من الشراب، احتراماً للمناسبة الهجرية].

و أنا أقول: خلت من الشراب المحرم، و مـاخلت طبعا من مخاصــرة المــدعوين للمــدعوات<447>، كما يشــاهَد في الصورة، و هي من لواز السفور العصري[198]، المثــاب عليه بفتــوى قاسم أمين، و الــذي لقاسم أمين، بل و للإمــام قسط جزيل من ثواب العاملين و العاملات به، و منه ثواب لوازمه إلى يوم القيامة.

ومن العجــائب الســارة من ناحيــة، و المحزنة من ناحية أخرى، أن الشـبان و الشـابات، الطـالبين و الطالبـات في المـدارس العاليـة، لا يـروقهم الاسـتهتار الاجتمـاعي ضد آداب الإسلام و قوانينه، و ما نسـينا مراجعه فئة من طلبة الجامعة، و من مختلف كلياتها رئاسة الجامعة بكل حرارة، و حماسة شـريفة، لتغيـير أصـول التـدريس المختلط من الجنسين، ثم ما نسينا أيضا عدم إصغاء أوليـاء الأمـور إلى تلك الطلبات، التي كـان الأحـرى أن تنبعث من جـانبهم، و هم شيوخ أو كهول.

لكن أملي عظيم في إسـلام الشـبان، و الشـابات، الـذين ابتعد عهـــدهم عن المناقشة الجارية بين الشـــيخ محمد عبده، و الأسـتاذ فـرح أنطـون، منشئ (مجلة الجامعـة)، و كانت كلمـات الأخـير أثـرت في نفـوس الجيل الـذي أدرك زمن المناقشة، أو وعيه[199]، و أملي عظيم أيضا في تــأثير كتابي هذا في عقول أولئك الشباب، الطرية، غير الجامدة على الضلال الحديث[200]<448>.

و هنـاك ناحية أخـرى بمكـان من الأهميـة، و هي أن مصر تحـول نفسـها بعد زوال تركيا الإسـلامية، و انقلابها إلى تركيا العلمانية "لابيك" زعامةَ الإسلام...

فمن حق كل أحد إذن من المسـلمين، و لو كـان من غـير المصريين أن ينتقد ما فيها من الأحوال المتنافية مع هذه الزعامـــة، بل من واجبه أن ينبه المصـــريين إخوانه في الدين، ليتداركوها بالإصلاح، فتسلم لهم زعامتهم الدينيـة، أو ينبه المسلمين الأباعد، ليكونوا على بينة من موقف ما يتصورونه للزعامة.

و قد وقع قبل بضع ســـنين أيضا أن قـــررت الجامعة المصرية أن تكون شـارات حراسـها رمـوزاً من صـور آلهة المصريين القدماء، فتكون شارة كلية الزراعة، صـورة إله الزراعـة، و شـارة كلية الطب صـورة إله الحكمـة، و هلم جرا.

فكتب صديقي المغفور له، الشيخ عبد المجيد اللبان، شيخ كلية أصول الدين، مقالة في الجرائد، يستنكر هذا القرار، و يلفت نظر الجماعـة، و الـوزارة إلى واجبهمـا، نحو دين الدولة هو الإسـلام البعيد كل البعد عن الوثنية و رموزهـا، فلم تسـمعا لـه، و سـكتت مشـخية الأزهر عن تأييد شـيخ الكلية، فاستقرت شارات الآلهة و شـكر الله وحـده سـعي الشيخ اللبان.

و كتب بعض المتهوسين رداً على الشـيخ، بـ "أن متخـذي تلك الشارات لا يقصدون عبادتها".

و الجواب عليه: فماذا يقصدون من اتخاذها؟

و أي علاقة يتصـورون بين تلك الآلهـة، و بين الزراعـة، و الطب، و غيرهما؟

فإن كـانت آلهة باطلـة، لـزم أن تكـون الصـلة بينها و بين الأمــور المنسـوبة إليها باطلة أيضـا، و تـذكيرها تـذكيراً للباطل؛ و فضلا عن أن يكون هـذا الاتخـاذ غـير خليق بـأن يتصـدى له عاقـل، فـإن الإسـلام غيـور، لا يسـوغ التشـبه بالمشركين<449>.

و كـــان وزير المعـــارف، الـــذي اتخـــذت الجامعة شـــارات حراسها من صـور الآلهة في عهد وزارتـه، قد أفضى قبل توليه الوزارة بقليل إلى محرر جريـدة تنشر في القـاهرة على اللغة الفرنسية، ببيان يعرب عن رأيه في الجامعة، و لم تتناوله الجرائد العربية، و هو أن تكون لادينية "لاييك"، و ينحصر التعليم الديني في الأزهر.

فحـديث اختيــار الشــارات في مجلس الجامعة من صــور الآلهـة، كـان يلائم ذلك البيـان السـابق، كما يلائمه حـديث

---

[197] مراد الشاعر من الإمام الشيخ محمد عبده؛ فيفهم منه، و مما كتبته السيدة هدى شعراوي رئيسة الاتحـاد النسـائي في (الأهـرام)، بمناسـبة ذكـرى قاسم أمين هـذه، أعـني الثلاثين، أن للشـيخ أيضا إصـبعاً في اليد البيضاء العاملة على نهضة مصر السافرة بل المفهـوم أن اليد للإمـام و الإصبع لقاسم.

[198] السفور اليوم ليس على معناه في أصل اللغة، و هو كشف الوجه، بل معناه تقليد المرأة الغربية في سفورها، الذي قد يجعلها أكـثر من نصف عارية.

[199] و ذلك الـزمن يتفق مع العهد المشـئوم، الـذي كـانت وطـأة النفـوذ الإنجليزي فيهعلى وزارة المعارف بمصر على أشدها، و لا خـير للإسـلام في رجال البلاد، الناشئين في ذلك العهد، إلا من ندر منهم، و ظلـوا في عصمة الله.

[200] لا سيما "شباب محمد"، جماعة المجاهـدين، المجـاهرين لصـوت الحق إلى الآذان المضـــيعة، وعيها بين تلاطم أصـــوات المســـتهترين و المتسكعين في سـبل الضـلال و الانحلال، تقليـداً لمدنية الغـرب الزائفة في هــذه البلاد المسـكينة العريقة في الإسـلام العـامرة بعلومـه، و المتأدبين بآدابه.

و إني كما أدعو لجماعة هؤلاء الفتيـان بتأييد من عند اللـه، و تسـديد لما يسـلكونه في خدمة الإسـلام، و تقويته من السـبل... لا أكتم إعجـابي، و تعجـبي من أنه كيف نجم هـذه الصـفوة المباركة بعد شـيوع الفسـاد و الابتعاد عن الدين، و الأخلاق في أوسـاط الناشـئين و المتعلمين بمصـر، حتى اعتبر التحرر من قيود الدين، و الأخلاق شعار الشباب و النهوض.

ثم أقول: ليس ببعيد عن قدرة الله، و سنته بمصر أن تنشئ فيها جماعة من شـباب سـيدنا محمد ، و ينصـرهم على الكـثرة الزائفـة، عن طريقة محمد ، كما نشـأت سـيدنا موسى في أحضـان فرعـون الطاغيـة، و جنـوده، و غلبه عليـه، و عليهم، من غـير حـرب، و تصـادم بين الغـالب و المغلوب، و من غير جند للغالب سوى المعجزة.

و إني أتمـنى أن تكـون غلبة الإيمـان بمصر على الإلحـاد و الصـلاح على فسـاد الأخلاق، في هـدوء المعجـزة و سـكونها؛ و الله على كل شـيء قدير.

الأستاذ فريد وجدي السابق الذكر عن عقليات نوابغ الشرق الإسلامي المستبطني الإلحاد الذين لا يعزب كثيرا عنهم أعضاء مجلس الجامعة المصرية.

و مما يجدر بالذكر هنا، أنه كتب صديقي الدكتور طه حسين بك مقالة في (الأهرام)، بعنوان "تقاليد"، تدل على أن وزارة المعارف بمصر إن صادفت وزيراً يحترم شعائر الإسلام، و آدابه، استهدف حملات ساعيةً لأن تجعله غريبا كالإسلام نفسه....

فقد سخر الكاتب في مقالته هذه من وزير المعارف، معالي مرسي بدر بك، لإلغائه الرقص التوقيعي في مدارس البنات، و البعثات، منهن إلى مدارس البلاد الغربية، مع استثناء لندن، التي توجد فيها دار خاصة لهن، بنتها الحكومة المصرية، أو تملكتها، و توجد في تلك الدار سيدة مصرية تشرف عليهن....

سخر من قرار الوزير هذا، قائلا -ما معناه-: [إذا لزمت المحافظة على التقاليد، فالمعقول تأسيس وزارة باسم وزارة التقاليد، و تخيير معاليه بين الانتقال إليها، أو البقاء في وزارة المعارف، التي هي وزارة التعليم، غير مشتغل بما هو أجنبي عنه].

و قد ذكر الكاتب في مقالته من وزراء المعارف من يتهكم عليه، و يستحق في زعمه لقب وزير التقاليد، غير مرسي بدر بك، و هو معالي محمد حلمي عيسى باشا، الذي تولى وزارة المعارف، قبل سبعة عشر عاما، و فعل مثل ما فعله الوزيرا الحالي، جزاهما الله عنيخيرا.

و أنا أقول: إن "التقاليد" يستعمله الكاتب في المعنى الآداب، و العادات الدينية، التي ورثها الناس من آبائهم، و أجدادهم، و اهتموا بها تقليدا لهم، أي بمجرد أنها تراث الآباء و الجداد، لا لأنها جديرة بالاحتفاظ و الاهتمام؛ و تكون خلاصة ما قصده من وزارة التقاليد وزارة الدين، التي تسهر على شعائره، و تظل قوة الظهر للمحافظين....

لكني أنا لا أرضى التقاليد، التي هي جمع تقليد، اسما لوزارة الدين، كما لا أقبل ما يدل عليه كلام الكاتب من عدم وجود تلك الوزارة بمصر في الحالة الحاضرة....

فأولا: لأن وزارة الدين، الذي هو حقيقة من الحقائق العالية، لا تكون وزارةَ التقليد، بل وزارة التحقيق، و إنما الوزارات غيرها، التي تتخذ الغرب لها قدوة، و تحاول أن تأخذ من هذا الاتخاذ قوة، أحق باسم "وزارات التقليد"، من وزارة الدين، التي يسخر منها صديقي الكاتب بهذه التسمية على تقدير تأسيسها.

و ثانيا: لأن هذه الوزارة -أي وزارة الدين- موجودة في مصر، لا حاجة لها إلى تأسيس جديد، و هي مشيخة الأزهر؛ و الذي جعل صديقي غافلاً عن وجودها كونُها مجردة عن سلطتها اللائقة بها -بفضل مساعي أناس قائمين بأعمال وكلاء الغرب اللاديني، أو الطابور الخامس له في الشرق الإسلامي[201]- و متروكة في خارج الوزارة الحاكمة، اسماً بلا معنى، و لا وزنٍ، غير وزن مرتبها المقدر بالقناطير المقنطرة.

كأن هذا الوزن الثقيل المالي لهذه الوزارة غير المتناسب مع الواجب المهزول المحمول على عاتقنا، ثمن التنازل عن التدخل و المساهمة في وزارة الحكم، و التخلي من

[201] فإن لم يكن كاتب المقالة الساخر بتسمية وزارة الدين، وزارة التقاليد، منهم فإني أعده مقلد الغرب، بل مقلد مقلدته في الشرق الأوسط، الذين كانت لهم مصلحة التمتع من سفور النساء، و من التفنن في أوضاع سفورهن المستهترة، في حين أنه لا يتصور مثل هذا التمتع لكاتبنا شخصيا، و إنما هو يقلد المتمتعين.

الإشراف على رؤساء المحاكم الشرعية، و فيهم رئيس المحكمة العليا، و كذا مفتي الديار المصرية الأكبر، و كلهم اليوم أتباع وزير العدل، مقطوعي الصلة بمشيخة الأزهر.

مع أن المحاكم الشرعية<451>، و الإفتاء الديني، لو خليا و طبعهما، كانتا تحت إشراف وزارة الدين، التي لا ممثل لها في مصر سوى مشيخة الأزهر....

لكن هذا المقام، الذي يُعتبر صاحبه في المظاهر و المراسم فوق الوزير، لا محل لها من الإعراب على تعبير علماء النحو العربي[202]، و كأنه وزير بلا وزارة يشرف عليها، مع وجود أمور و مصالح في الحكومة ذكرتُها قطعت صلتها به، و جعلت تحت إشراف غيره، أو كأنه ليس وزيراً بالمرة، لعدم وجود كرسي له في مجلس الوزراء....

و السبب المختفي تحت هذا التفرق الشبيه بحال المتفرقين أيدي سبا، الداخل بين شيخ الأزهر، و بين ما كان يلزم أن يكون تحت إشرافه من المصالح، و المناصب الكبيرة الدينية -هو الحد من نفوذ الدين، و مركزه في المشرِف و المشرَف عليه، بتجريد الأول من العمل، و ربط الثاني بمقام غير مقامه... و الذي يشق على المسلم كون هذه المؤامرة ضد عزة الإسلام، و كرامته، حيكت في أول وضعها بأيدي طائفة معدودة من المسلمين كما تؤيد و تستزاد اليوم بأيدي طائفة من الناسجين على منوال الواضعين.

و كلتا الطائفتين من أعوان الاستعمار الغربي، الذين احتل الاستعمار قلوبهم، و عقولهم زيادة على احتلال بلادهم؛ فهم يعيشون بأجسامهم في أوطانهم، و يعشون بقلوبهم و عقولهم في بلاد المسعتمرين، و ربما يعيشون فيها بأبدانهم أيضا، إذا ساعدهم الحال، فيكون ذلك الزمان المساعد أسعد أوقات حياتهم، و المرء في الدنيا و الآخرة مع من أحب.

و كاتبنا لم يكتف في تأنيب وزير المعارف بمقالة واحدة بل عززها بثانية، و ثالثة... و كتب في إحدى المقالات نذيرا موجها إلى سمعة مصر عند دول الغرب خلاصته أن انحرافها، عن الأوضاع، التي اكتسبت بها هذه السمعة تجعلها لقمة سائغة لتلك الدول.

و أنا أقول: فإذا كانت سمعة مصر في نظر الدول غير الإسلامية مرجعها إلى الحصول على مرضاتهم، بالابتعاد عن الإسلام، و التقرب إليهم شبرا بشبر، و ذراعاً بذراع، فإن الآية التي يعرفها الكاتب، و هي قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[البقرة: 120] -و قد ذكرتها في هذا الكتاب، عند التعقيب على أقوال الأستاذ توفيق الحكيم في مسألة الفن القصصي في القرآن- تعود عند كاتبنا، كأنها مؤيدة لإنذاره و حاثة لمسلمي هذا الزمان على اتباع ملة الدول الغالبة!!!

و لله في خلقه شئون، و الحديث ذو شجون و أشجان.

هذا، و كتب الأستاذ كاتب (نحو النور) في الأهرام بعد زهاء شهرين من مقالات الدكتور طه حسين بك في الموضوع نفسه، منتقدا لوزير المعارف معالي مرسي بدر بك كما انتقد الدكتور، إلا أن انتقاده صادف زمن استقالة الوزارة التي تحتوي معاليه؛ فقال: [حقا، ما أشد حيرة المدرسات، و الطالبات في وزارة المعارف! إلى ما قبل أربعة أيام، كانت الأوامر أن يرتدين ملابس فضفاضة، و أن لا يبدين زينتهن، و أن تُوقف البعثات إلى الخارج، و يُمنع الرقص التوقيعي!

[202] و لهذا انتهى أمرها إلى أن أصبح موشكاً لتذكير قول الشاعر:
لقد هزلت حتى بدا من هزالها * كلاها، و حتى سامها كل مفلس

أما اليوم، فقد أضحت هذه الأوامر بغير سند تعتمد عليه، فإن الوزير الذي أصدرها متحمسا لها قد استقال، و حل محله وزير آخر له رأي آخر! فلا بد أن الأمور في هذه المسائل ستعود إلى سابق عهدها.

و لكن يبقى بعد ذلك وضع حد لمثل هذه القرارات، و الأوامر العاجلة، فإنها إذا كانت تُقبل فيما يملك الإنسان التصرف فيه، و فيما لا يمس سياسة قديمة، استقر العمل بها، فإنها أخطر ما تكون إذا تناولت نظاماً قائماً، و مست ما لا سبيل إلى التصرف فيه إلا بعد دارسة و تقرير و بحث.

إن حدود عمل الوزير ينبغي أن تكون واضحة، و استقرار الأنظمة الحكومية<453>، ينبغي أن يكون له احترامه، و إلا إذا خضعت المصالح و الوزارات إلى الأفكار الشخصية للوزراء، فكيف يكون الحال؟

ليكن لكل وزير ما يشاء من الآراء، و لينفذها في النطاق الشخصي الذي هو وحده صاحب الشأن فيه كبيته، أو عائلته؛ أما إذا تعلق الأمر بسياسة أمة، و سياسة جيل، فليس معنى كونه وزيرا أن يستقل بالفصل فيه، و إلا انقطع الاستمرار، و خضعت التوجيهات العامة للآداب الشخصية.

إن هناك مسائل، لا بد أن تكون حرما لا يستباح بسهولة، و في أولها التعليم، و ما يجري مجراه من نظم تعد عمادا و كيانا؛ و لسنا نعني بذلك أن يُحرَّم تعديل هذه النظم، كلا.....

فإن الكثير منها لا يتفق مع رأينا، و لعلنا نوافق مرسى بدر بك في بعض ما ذهب إليه، و لكن تعديل النظم لا يجوز أن يتم بمثل هذه السهولة، و بجرة قلم... لأنها نظم و تقاليد، استقرت خلال أجيال طويلة، فإذا أريد تعديلها، فلا بد أن يكون بإقرار عام، و بعد دراسة طويلة...] الخ.

و قال في آخر مقالته: [و لعل الدرس الذي وعيناه من قرارات وزير المعارف السابق و المصير الذي آلت إليه، يفتح أعين المشتغلين بالمسائل العامة، ممن تؤول إليه سلطة التنفيذ، فلا يتعجلون المسائل، و لا يجعلون بالهم إلى هدم القديم، بينما لدينا المجال الواسع للبناء و التجديد؛ و قيمة الوزير لا تجيء من أن يهدم، و لكنها تجيء من أن يبني].

و أنا أقول: انتقاد هذا الكاتب يختلف عما كتبه الناقد الأول، حيث عدا هذا قرار وزير المعارف بإلغاء الرقص التوقيعي للطالبات، و حظر ابتعادهن، و ابتعاد مدرساتهن عن ملابس الحشمة و أزيائها، هدماً للقديم، و خروجاً على التقاليد... في حين أن الدكتور طه حسين بك، كان يعد ما فعله الوزير رجوعاً إلى التقاليد القديمة، المنسوخة، و إحيائها.

و لهذا ذهب إلى لزوم تأسيس وزارة التقاليد، لينتقل إليها هذا الوزير، الذي يسخر منه<454> في انتقاداته..

و مع ذلك، فإن أسلوب الكاتب الثاني الخالي عن التهكم أغرب من أسلوب الدكتور طه، و أبعد عن الحق؛ فإنه يجعل الرقص و البعد عن الاحتشام في ملابس الطالبات و مدرستها، أساساً و ما فرض عليهن الوزير خروجاً على الأصل المتبع...

يدل عليه قوله عن هذه الأمور التي ألغاها الوزير: [إنها نظم، و تقاليد استقرت خلال أجيال طويلة].

و قوله في فقرته الأخيرة: [فلا يتعجلون المسائل، و لا يجعلون بالهم إلى هدم القديم].

مع أن تلك الأمور التي ألغاها الوزير، لا يعرفها الإسلام، إلا من البدع المنكرة، و لا يعترف لها بالقدم وا لاستقرار، اللهم إلا ما كان لها من النظام و الاستقرار في الجاهلية الأولى، المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾[الأحزاب:33].

أما قول الناقد في صدر مقالته: [حقا ما أشد حيرة المدرسات، و الطالبات في وزارة المعارف!

إلى ما قبل أربعة أيام، كانت الأوامر أن يرتدين ملابس فضفاضة، و ألا يبدين زينتهن، و أن توقف البعثات إلى الخارج، و يمنع الرقص التوقيعي].

فهو كالصريح في أن ما نهى الوزير عنه يتفق تماما مع نهي الإسلام القائل في كتابه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ...﴾، ﴿...وَلَايَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ..﴾[النور:31]، كما أن قول الكاتب المنقول يكون بمثابة المعارضة لنهي الإسلام في معناه و لفظه.

و جد فظيع و بشيع في بلدة إسلامية كمصر أن يكون ما أنكره الإسلام، و نهى عنه في كتابه، يكاناً لها، و نظاماً مستقرا، و حرما لا يستباح بسهولة... بعد أن لم يكن ما عرفه الإسلام، و اعترف به، و جرى العمل عليه بين جميع المسلمين مدة ألف سنة و ثلثمائة، نظاما مستقرا، و حرما لا يستباح بسهولة.

و لو سألنا الكاتب عن مقصوده بما اشترط لإعادة نظام الإسلام في مصر من<455> الإقرار العام، بعد أمر الحكومة بلسان وزير المعارف، و عدم احتمال مصادمة هذا النظام بآراء عامة المسلمين فيها؛ فماذا يكون جوابه؟

و لعل نصاب الإقرار العام عند إقرار نفر من الكاتبين الكرام في الصحف، أمثال الدكتور طه حسين بك، و كاتب "نحو النور" في (الأهرام).

و معنى حصول الإقرار العام بإقرارهم، على الرغم من كونهم قلة ضئيلة، و لا كواحد في مائة، كونهم يجرون من ورائهم آراء الغربيين غير المسلمين.

و لا يمكن اجتياز هذا البحث من دون تعرض لمسألة خطيرة الشأن، تدل على أن حكومة مصر لا يهمها أن ينشأ أولاد المسلمين نشأة إسلامية، لأن مدارس مصر الرسمية، لا يدرس فيها الدين بتاتاً عدا المدارس الابتدائية، و فيها لا يعتبر درس الدين من المواد الأصلية المؤثرة في نجاح الطالب في الامتحانات أو رسوبه فيها.

و هذه المسألة الغريبة المبكية لأصدقاء مصر ليس المسئول عنها عند الله الحكومة فحسب، بل الأمة أيضا، الباعثة نوابها إلى البرلمان.

فممثلوا مصر التي تباهي بزعامة الإسلام، يكونون أدنى مرتبة، و أقل حيازة لحقوقهم الدينية قبل الحرب العالمية الأخيرة، من مسلمي بلاد البلقان، التي كانت تحكم فيها حكومات غير إسلامية؛ مثل يوفسلافيا، و بلغاريا، و رومانيا، و اليونان؛ لأن جميع المدارس التي كانت تتولى أمورها الجماعات الإسلامية في تلك البلاد، لا سيما بوسنة و هرسك، التي لم تستطع تركيا الجديدة اللادينية أن تفسدها بفضل ثبات أهلها المسلمين في التمسك بدينهم إفسادها لمسلمي اليونان، و رومانيا، و بلغاريا؛ هذه المدارس الإسلامية في تلك البلاد كانت تعتبر دروس الدين من أهم موادها الأصلية.

لا يقال جوابا على انتقادي هذا لموقف المسلمين بمصر أن للمسلمين في بلاد البلقان موقفا خاصا يقفونه إزاء كون حكوماتهم أجنبية عن الإسلام، و كون مدارسها لا يدرس فيها دين المسلمين، فلا يقاس عليهم مسلمو مصر.

و مع هذا فلهم أن يؤسسوا مدارس كمدارس المسلمين في البلقان، يدرس فيها ما شاءوا من علوم الإسلام، معدودة من المواد<456> الأصلية.

كما أن هذا الحق بأيدي المدارس الحرة الموجودة بمصر و ما سيوجد منها... لأني أقول ماذا يريد أن يقول هذا المجيب على نقدي لمدارس مصر الحكومية؟

فهل مسلموا مصر في حاجة إلى تشكيل جماعة إسلامية فيما بينهم تشرف على حاجات المسلمين الدينية، و تعتبرهم في مصر كأنهم يحكم في بلادهم الأجانب عن الإسلام، فتؤسس لهم مدارس تهتم بالدين، و تعد دروسه من المواد الأصلية، كما كانت تفعل الجماعات الإسلامية في بلاد البلقان غير المسلمة.

و قد سمعت أن عذر الحكومة المصرية في إغفال دراسة الدين في مدارسها الرسمية، عدم اختصاص تلك المدارس بأبناء المسلمين؛ فلو علمتهم دينهم، و أهمل دين طلابها من غير المسلمين مع كونهم أيضا من أبناء مصر كالطلاب المسلمين، لِيمَتْ بعدم مراعاة المساواة إزاء أهل بلادها.

و الجواب عليه أن مثل هذه الملاحظة واردة على تصريح الدستور المصري بأن دين الدولة الرسمي الإسلام، فالذي يوجب ترجيح الإسلام في دين الدولة يكفي مرجحا لتدريس هذا الدين في مدارسها الرسمية، و إلا كان امتياز الإسلام في هذه البلاد بأن يكون هو دينَ الدولة، لفظا، من غير معنى.

هذه الحالة المدارس المصرية التي تديرها، أو تشرف عليها وزارة المعارف، أما الأزهر فالباحث الحازم يتردد كثيرا في القول بأنه أحسن حالاً...

و لو عرف العالم الإسلامي، أو بالأولى لو عرف علماء الإسلام في أقطار العالم أن الأزهر الجديد في حيرة عن أمره في الاحتفاظ بما ورثه من قديمه من العلوم و العقائد، حتى التي كان يعتقدها من الضروريات، لقضوا عجبا منه.

حسبك شاهداً على هذا، أن هيأة كبار العلماء الأزهريين، بعد أن دعيت قبل بضع سنين هي، أو لجنة منتخبة منها، إلى إبداء رأيها في الغلام أحمد القادياني الهندي، حدث خلاف بين أعضائها، أو على الأقل شك، يخالج بعضهم في خروج من لم يعترف يكون محمد<457> ﷺ آخر الأنبياء عليهم السلام، عن الإسلام[203]، و الذين اقتنعوا به من أولئك الأعضاء، لم يجدوا نصا قاطعا بهذا الصدد، يكفي في إفحام من شك من زملائهم، و تمسك بوجود احتمال في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[الأحزاب:40]، يفتح الطريق إلى الشك، و يمتع الحكم بكفر صاحبه، مهما كان احتمالا ضعيفا، و هو احتمال أن يكون المراد من الخاتم الزينة، لا الخاتمة.

و أنا أقول، و قد سألني أحد أقطاب الأزهر، أعني صديقي المغفور له، الشيخ عبد المجيد اللبان، أن أجد

[203] أنا لا أقول بوجود عضو في هيئة كبار العلماء، يشك في أن محمدا ﷺ آخر الأنبياء، و لكن هل لا يكون التردد في الإفتاء بكفر من قال بخلافه فأجاز أن يبعث الله نبيا بعده، شكا في كفر القائل، و الشك فيه شكا في كونه آخر الأنبياء؟ فإن كان المفتي المتردد لا يفهم الملازمة بين هذه الأمور، فسلام على العلم و العلماء، و عضوية كبار العلماء.

نصا في إكفار من قال بإمكان بعث نبي بعد نبينا، أصرح من الآية الناصة على أنه خاتم النبيين... سألني ذلك، كيلا يبقى للشاك في هذه المسألة -و هو غير الشيخ المغفور له طبعا- مجال الجدال، و إن كان هذا السؤال بعد وجود الآية المذكورة تكليفاً بما لا يطاق، و دافعُه إليه من شك في البديهيات.. و كم كان وجبي في هذا العصر إزالة الشبهة في البديهي...!

أقول: طلب الدليل بعد هذه الآية في القطع بأنه ﷺ آخر الأنبياء، كطلب الدليل على النهار بعد طلوع الشمس، و قد انعقد الإجماع على كفر من ادعى النبوة بعده، كما صرح به المولى على القاري، في شرحه على (الفقه الأكبر)[204].

و أيضاً، لو لم تكن دعوى النبوة بعد نبينا كفرا، لما قاتل سيدنا أبو بكر المتنبئين، و أتباعهم<458>.

أما احتمال التأويل في لفظ "الخاتم" بالزينة، فبعيد جدا، بحيث لا يعقل، و لا يجوز أن يعتد احتمالا.

أما أولا: فلعدم التئامه بما قبله، و هو نفي كونه ﷺ أبا أحد من الرجال، إذ لا مانع في كونه زين الأنبياء من كونه أبا أحد من الرجال؛ و إنما المانع منه كونه آخر الأنبياء، لئلا يكون ابنه نبيا بعده، كما هو المعتاد في أبناء الأنبياء.

و أما ثانيا: و هو المهم، و إن لم يتصد لذكره أحد من المفسرين، لأن الشبهة التي خالجت عقول بعض الأعضاء[205].

من هيأة كبار العلماء الأزهرية، لم تكن تخالج عقولهم؛ فلأن الختم بمعنى الإنهاء أو الطبع، و الخاتم ما يختم به أي ما يجعل في النهاية أو ما يطبع به، و هو بالمعنى الأول نص في الخاتمة، و بالمعنى الثاني يكون كناية عن الخاتمة تشبيها لطبع الشيء بالخاتم، بإنهائه لأن طبع الشيء بالخاتم يُنهى الأمر، و يسد الباب على التصرف فيه.

فإن كان الخاتم في "خاتم النبيين" بمعنى النهاية، فالأمر ظاهر، و خاتم النبيين آخرهم.

و إن كان الخاتم بمعنى ما يطبع به، فالمراد منه أيضا أنه آخرهم تشبيها للختم، بمعنى الطبع بالختم بمعنى الإنهاء؛ كأنه ﷺ الخاتم المضروب على قائمة الأنبياء صلوات الله و سلامه عليهم، فلا يكتب فيها بعده اسم نبي لكونها مختومة.

أما أن يكون المراد من الخاتم ما يُلبس في الأصابع و يتزين به، و يكون معنى خاتم النبيين زين الأنبياء، فلا وجه له لا من طريق اللغة، و لا من طريق البلاغة؛ لأن الحلقة الملبوسة للزينة، و إن كانت من جملة ما يطلق عليه الخاتم في اللغة، إلا أن ذلك إطلاق مجازي مبني على أنهم كانوا يكتبون أسماءهم على تلك الحلق الملبوسة، و يستعملونها في الطبع و التوقيع<459>.

و قد صرح الزمخشري في (أساس البلاغة) بكون هذا الإطلاق مجازا مبنيا على هذه المناسبة، فسبب إطلاق الخاتم على الحلقة الملبوسة، كونها أداة الختم بمعنى الطبع، لا كونها أداة الزينة.

فلا يصح استعمال لفظ الخاتم الذي معناه المدلول عليه بصيغته، هو أداة الطبع، كمجرد واسطة للانتقال منه إلى

[204] و هناك إجماع غير هذا يستلزمه، و يغني عنه، و هو أن المسلمين جميعا يعتقدون كون نبينا آخر الأنبياء، و هو إجماع عام، يعرفه الخاصة، و العامة، و لا يشك في كفر من أنكره كالإجماع على عدد ركعات الصلوات الخمس.

[205] بين و بين فضيلة الشيخ شلتوت عضو كبار العلماء أخذ و رد في كون هذه الشبهات أثيرت في الهيأة عند درس مسألة الطالبين الألبانيين، القاديانيين، يأتي تحقيقها بمكان آخر من هذا الكتاب إن شاء الله.

معنى الزينة، فلا يجوز أن يقال عنه ﷺ "خاتم النبيين"، و يراد به أنه زينتهم المجردة، عما يدل عليه لفظ الخاتم من الختم بأحد معنييه؛ أي الإنهاء، و الطبع.

لأن الخاتم، هو ما يختم به بأحد المعنيين المذكورين، لا ما يتزين به، و إن وجد عرضا في بعض ما يطلق عليه الخاتم أنه يستعمل أيضا للزينة؛ و وزان الخاتم في هذا الشأن مثلا، وزان ساعة اليد التي يتسورها بعض الناس في الأزمنة الأخيرة لمعرفة أوقاتهم بسهولة، و دون غفلة.

بل ساعة الجيب أيضا، و ربما يتزين بهذه أو بتلك من يتزين و يتأنق في التزين، فيغالي في اختيارها ما شاء... لكن المقصود الأصلي منهما معرفة الوقت، كما أنه المفهوم من لفظهما، و إن حصل بهما التزين أيضا لمن يتخذ منها وسيلة إليه.

فكل منهما بالنظر إلى لفظها أداة معرفة الوقت قبل أن تكون، و أكثر من أن تكون أداة الزينة، مع أن إمكان أن يكون كل منهما مستعملة أيضا للتزين، و هما من ناحية القابلية للاستعمالين، كلفظ الخاتم؛ فهل يطلق على نبينا ﷺ أنه ساعة اليد، أو ساعة الجيب للأنبياء؟

و هل يكون لهذا الإطلاق مساغ في الكلام الفصيح؟

مع أنه ﷺ زين الأنبياء، و أن كلا من الساعتين قد يُتزين بهما.

و السبب في عدم جواز هذا الاطلاق، مع جواز إطلاق "خاتم الأنبياء"، و وروده في الفصيح المعجز، أن المعنى الذي يجب أن يراد من "ساعة اليد"، أو "ساعة الجيب" للأنبياء، أو "خاتم الأنبياء"؛ هو المعنى الذي يدل عليه اللفظ مباشرة، و هو ما يعرفون به أوقاتهم في الأولين، و "خاتمهم" بمعنى خاتمتهم، أو طابع الختم لهم في الأخير، أو لازم هذه المعاني المباشرة؛ و أن هذا المعنى المباشر، أو لازمَه الذي لا يفارقه صادق و واقع في الخاتم دون الساعتين.

أعني أنه <460> ﷺ خاتمة الأنبياء، أو طابع الختام لهم، و ليس ﷺ ساعة لهم يعرفون به أوقاتهم، و لا أن الزينة التي قد توجد في بعض ساعات اليد، أو الجيب مطردةٌ في كل منهما، يصح انتقال الذهن منه إليها، انتقالَه من الملزوم إلى اللازم، و لا أن هذه الزينة محترمة جديرة بأن يوصف بها أشرف المرسلين....

و يماثل الساعتين الخاتمُ في عدم كون الزينة لازماً له، مطردا، و لا زينة محترمة تمام الاحترام، و لهذين المانعين لا يقال عن نبينا أنه خاتم الأنبياء مراداً به زينهم، كما لا يقال عنه أنه "ساعة اليد" لهم، أو "ساعة الجيب" للمانعين المذكورين؛ و كذا لا يقال إنه "قرط الأنبياء"، و لا "خلخالهم"، و إن كان قصد الزينة مطردا فيهما، فيصح الانتقال منهما إلى معنى الزينة، لكون الأول زينة خاصة بالنساء، و كون الثاني مع هذا الاختصاص زينة غير محترمة؛ و ليس في "تاج الأنبياء" شيء من الموانع.

هكذا ينبغي أن تميز زينةٌ عن زينة، و يوقى لتحقيق المسألة حقه، و يراعى مقامه ﷺ في الوصف، و مقام القرآن في الإعجاز، و منه يفهم حق الفهم مبلغ قوة السند الذي يستند إليه إجماع المسلمين على أنه ﷺ خاتمة الأنبياء، لا نبي بعده.

<u>و أما ثالثاً</u>: و في تلخيص القول، فلأن الخاتم معناه الحقيقي ما يختم به من الختم، بمعنى الإنهاء، أو بمعنى الطبع؛ و ليس معناه ما يتزين به، لأن الختم لا يجيء بمعنى التزين قطعا...

إلا أن بعض ما يختم به من الختم، بمعنى الطبع يُتزين به أيضا كما في الحلقة الذهبية، أو الفضة، التي يحك عليها، أو على فصها اسم الثمين اسم الرجل، و يتخذ منها أداة الختم، و التوقيع، فيجتمع فيها معنى الطبع، و معنى الزينة...

و قد تكون أداة الطبع مما لا يلائم أن يتخذ زينة سواء، كانت على غير شكل الحلقة الملبوسة، أو كانت على شكلها من المعدن الرخيص؛ فيتحقق فيها الخاتم أعني ما يختم به من الختم، بمعنى الطبع، و لا يتحقق فيها الزينة.

و هناك أدوات الزينة، لا يختم بها، و لا يوقع؛ فالزينة لا تلازم الخاتم، و إنما توجد في بعض ما يطلق عليه الخاتم، بل في بعض ذلك البعض، كما عرفت.

فبين ما يختم به، و ما يتزين به عموم من وجه؛ فقد يجتمعان في مادة، و يفترق كل منهما عن الآخر في مواد، كما بينا؛ فبينهما مغايرة، و بينهما مناسبة؛ و مع هذا لا تبلغ هذه المناسبة مبلغ أن يصح ذكر أحدهما مراداً به الآخر، فلا يصح أن يقال "خاتم النبيين"، و يراد به زينهم، إذ لو صح ذلك، لصح أيضا أن يعكس، فيقال "زين الأنبياء"، مرادا به طابعهم.

و ليت شعري أن من لا يرى القطع في دلالة "خاتم النبيين" على كونه ﷺ آخر الأنبياء، مستندا إلى احتمال تأويل الخاتم بالزينة، لا لكونها مدلول اللفظ، و لا لازم مدلوله، و إنما لاستعمال بعض الناس بعض مسمى هذا اللفظ لمجرد الزينة إخراجاً له من وضع الأصلي...

ليت شعري، كيف يَقطع بدلالة "خاتم النبيين" على نبوته ﷺ، قبل دلالته على أنه خاتمتهم؟

و كذا دلالة قوله تعالى: ﴿وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾[الأحزاب:40]، على رسالته بالمعنى المعروف، مع أن للنبي معنى غير معناه المعروف في اصطلاح الشرع، و كذا الرسول، لاسيما و أن الكتاب العصريين ابتدعوا للرسالة معنى عاما، اختلسوه من معناه الخاص، بعدد ممتاز من البشر، فجعلوا لكل فرد، أو جنس منهم رسالة من الله، بمعنى أنه خُلق لأدائها.

فلماذا لا يفكر ذلك العضو من جماعة كبار العلماء -الذي تعلق ذهنه باحتمال معنى الزينة في الخاتم، و لو احتمالا ضعيفا- في احتمال أن يكون رسالة الرسل المذكورين في كتاب الله من هذا القبيل، فيشك في كفر من ينكر رسالته بذلك المعنى، كما شك في كفر من ينكر كونه خاتمة الرسل؟

هذا، و مع القيام بواجب الذود عن "خاتم النبيين" انتهيت من الكلام في موقف مصر من الإسلام، و انتهت عند ذلك مقدمة الكتاب، التي شرحت فيها أسباب تأليفه؛ و التي انتهى معها الجزء الأول من الكتاب.

و كان الذي دفعني إلى هذا الشرح الطويل عن موقف مصر بيان تأكد الحاجة إلى تثبيت عقيدة الدين بها، الذي خدمه هذا الكتاب إن شاء الله؛ و ليس المقصود تعيير شخص، و لا تشهير أمة[206]: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود:88]<463>.

---

[206] و كيف يكون لي تعيير مصر باعتبار أني أجنبي عنها، مع أن بلادي اليوم أشد استحقاقا للتعيير من أي بلد إسلامي؟

[الهوامش المأخرة]:

الهوامش، أو بقاياها، التي لم تنشر في محالها من صفحات هذا الجزء من الكتاب، لطولها، فننشرها في ذيله، مرتبة، و مقيدة بأرقام تلك الصفحات<464>.

بقية الهامش من الصفحة (154):

فهذا أمير الشعراء شوقي بك، الذي أنفق عمرا في مدح السلطان عبد الحميد، و آل عثمان، تراه يمدح مصطفى كمال، و لا يعرفه، و يذم السلطان وحيد الدين، بل يشتمه، و لا يعرفه؛ فيقول: [ولي الطواغيت، يدعى بأمير المؤنين].

حتى قلت له -في خطاب مفتوح-: إني أعرف الشعراء على ما وصفهم الله في كتابه الكريم، بأنهم يقولون ما لا يفعلون، لكني وجدتك -و الحق يقال-، من الذين يقولون ما لا يعلمون.

ثم إنه على الرغم مما وجهت إليه من التنبيه و التحذير، يقول -و بئسما يقول- في قصيدة هنأ بها الجمهورية التركية اللادينية عند إعلانها، و إلغاء الدولة العثمانية الإسلامية به؛ و الخطاب لأنقرة عاصمة تلك الجمهورية اللادينية:

إن الذين بنوكِ أشبه نية	بشباب خيبر، أو شباب تبوك

و يقول في القصيدة تعريضا بي، و بقولي المذكور عن الشاعر:

قد ظنني اللاحي نطقت عن الهوى	و ركبت متن الجهل، إذ أطريك

زاعماً أن تلك الجمهورية، التي لا يعرف أنها جمهورية لا دينية، و لا يعرف أنه لا يعرف تؤيد الخلافة.

و بعد بضعة أشهر يلغي مصطفى كمال الخلافة، و ينفي عبد المجيد، الذي ولاه الخلافة قبل سنة و نصف سنة من تركيا تصديقا لي، و تكذيبا بمُداحه في عالم الإسلام، الذين لا يعرفون حقائق الأحوال، و لا يريدون أن يتعلموها من العارفين، فيقول الشاعر في قصيدة جديدة:

الهند والهة، و مصر حزينة،	تبكي عليك بمدمع سحاح
و الشام تسأل، و العراق، و فارس:	أمحا من الأرض الخلافة ماح؟

و جواب هذا السؤال من الشاعر: نعم، محا، و أنف الغافلين غير سامعي التنبيه في أوانه راغم!

فكأن الشاعر يستدرك ما فاته في هذه القصيدة التي عنونها "خلافة الإسلام"، و بكى فيها على الخلافة الملغاة، و يرجع عما فرط منه أولا في مدائح الملغِي<465>.

و هل نفع استدراكه هذا الخلافةَ المهدومة، كما نفعت مدائح المادحين الهادمَ، و شجته على الهدم؟

بل هل نفعها، و هي مهدومةٌ قوله في ذم الهادم بعد خراب البصرة:

بكت الصلاة، و تلك فتنة عابث	بالشرع عربيد القضاء وقاح
أفتى خزعبلة، و قال ضلالة،	و أتى بكفر في البلاد براح

ثم رجع الشاعر عن رجوعه قائلا:

أستغفر الأخلاق لست بجاحد	من كنت أدفع دونه، و ألاحي
مالي أطوِّقه الملام، و طالما	قلدته المأثور من أمداحي
هو ركن مملكة، و حائط دولة	و قرين شهباء، و كبش نطاح
أأقول من أحيا الجماعة ملحد	و أقول من راعى الحقوق إباحي

و أنا أقول: سواء قال، أو لم يقل، فهو كذلك، و سواء قوله هذا، و عدمه؛ فخلافة الإسلام، و الإسلام مقضي عليهما في تركيا بيد ممدوحه، بإصرار، و مذمومه بتردد، و لات حين ينفع الذم و الندم؛ و إثم القضاء يشاركه فيه الخائضون في مدحه من غير إصغاء إلى نصح ناصح.

و كان واجب الهاتفين له المستمرين في نصره بالفعل، و القول، إلى أن يقضي على الخلافة و الإسلام؛ أن يستمروا في الهجوم عليه بعد تبين أمره، إلى أن يقضوا عليه، و تعود الخلافة و الإسلام إلى تركيا، أو الإسلام فقط على الأقل.

فهكذا كانوا يقومون بواجب تصحيح أخطائهم حق التصحيح، لكن الشاعر بقول بدلا من هذا:

أدوا إلى الغازي النصيحة ينتصح	إن الجواد يثوب بعد جماح

و قصيدة "البكاء على الخلافة" مصدرة في (الشوقيات) بكلمة منثورة، يقال فيها: [ما كاد العالم الإسلامي يفرح بانتصار الأتراك على أعدائهم في ميدان الحرب والسياسة<466>، ذلك النصر الحاسم، الذي كان حيث الدنيا، و الذي تم على يد مصطفى كمال في سنة 1923، حتى أعلن هذا إلغاء الخلافة، و نَفَى الخليفة من بلاد الترك...].

أقول: قاتل الله الجهل، الذي أشرت إليه في قولي المنقول آنفا: [إن الله تعالى قد وصف الشعراء بأنهم يقولون ما لا يفعلون و لكني وجدت هذا الشاعر من الذين يقولون ما لا يعلمون].

حتى إن هذه الكلمة التي صُدرت بها قصيدة قصيدة التندم، تستشف ظلمات من الجهل بعضها فوق بعض، فلم تكن الخلافة التي ألغيت ليلة نفي الأمير عبد المجيد من بلاد الترك، بخلافة ولاء الأمير المرحوم بخليفة، و إنما كان موظفا من غير وظيفة، عينته حكومة الجمهورية اللادينية القائمة بأنقرة ليقيم في قصر من قصور السلاطين بالآستانة مدة سنة و نصف سنة، و يأخذ مرتبا ثم يخرج من البلاد في منتصف ليلة من الليالي على أثر أمر أتى من مدير البوليس بأنقرة إلى مدير البوليس بالآستانة.

و أقول أيضا: إن أساس جهل الجاهلين عدم تفكيرهم في:

- ٥ كيف يتم ذلك النصر الحاسم على يد مصطفى كمال؟

o فهل هو غلب باسترداد أزمير من يد اليونان على الإنجليز، و الفرنسيس، و الطليان، و الأمريكان جميعاً الذين كانوا حلفاء اليونان في الحرب الكبرى الأولى؟

و انتهت الحرب بغلبتهم على الترك، و البلغار، و النمسا، و الألمان، و كان احتلال أزمير من جيش اليونان بقرار من حلفائها الغالبين بلغوه الترك.

o فهل هزم الرجل أعني مصطفى كمال بمفرده جيوش هؤلاء الغالبين، و أساطيلهم المحتلة للآستانة، فأكرههم على الانسحاب منها، مع التنازل عن الامتيازات القديمة؟

o بل كيف استرد أزمير من اليونان، و لم يحرك هذا الاسترداد ساكناً من حلفائها الغالبين الآمريها باحتلال أزمير؟

بل اعتُبرت غلبة الترك على اليونان غلبة في ميدان الحرب والسياسة على الجميع.

o و كيف قامت الترك في غد الحرب بهذا الانتصار العظيم، و قد عمل الألمان حليفة الترك في الحرب الأولى، بمثل قيام الترك، بعد إحدى و عشرين سنة تحت قيادة هتلر، و أقامت القيامة على الدنيا، فلم تنجح في عملها؟

o فهل كانت الترك تحت قيادة مصطفى كمال أقوى من الألمان تحت قيادة هتلر<467>؟

فهذه أسئلة لا يمكن الجواب عليها، و كل من عنده قليل من المنطق يوردها على نفسه قبل أن يعتبر مصطفى كمال، بطل نصر الترك الحاسم، في ميدان الحرب و السياسة.

و الحقيقة، أن الشاعر لم يكن عارفاً بأن أكبر الدول الغالبة، و أمكرها، كانت تعمل من وراء الستار مع مصطفى كمال، لينتصر على المنتصرين، ثم يقضى بفضل هذا النصر المبين السحري على دولة الخلافة، و نمرة الترك الإسلامية، اللتين كانتا منذ قرون طويلة قذى في عين الدولة المختفية وراء مصطفى كمال، و شوكة في جنبها.

فكيف يقبل الرجل إذن النصيحة، ضد القضاء عليهما، و هو الثمن الموعود لانتصاره السحري في الميدانين...؟

ذلك الثمن الذي لا تقدر له تلك الدولة، مثل قيمته الغالية من أي دولة إسلامية غير دولة تركيا، و أمة إسلامية غير أمة الترك، اللتين قامتا بأكبر جهاد، و أطوله في سبيل الإسلام، لا يزال يطن صداه في آذان تاريخ العالم، رغم أنف الأستاذ محمد عبد الله عنان.

******** ****** ****** *****

و لا بد قبل انتهاء هذا البحث أن أسجل أسفي على بساطة في النظر، و شطط في التقدير، لسعادة حافظ رمضان باشا، أطلعت عليهما من مقالة الأستاذ يوسف كمال حتاتة، سكرتير جماعة الأنصار، المنشورة في (منبر الشرق)، الأغر، عدد 424، بعنوان الخليفة الشهيد وحيد الدين، و قد كتبها الأستاذ جزاه الله عن الحقيقة خيرا، لتبرئة الخليفة المغفور له، مما رمي بها رئيس حزب مصر الوطني، في مقال له في (مجلة آخر ساعة)، و نصه: [ما قولك في مصطفى كمال، الذي كان فاراً في الأناضول؟ ألم ينشئ جيشه تحت سيل من قنابل الأعداء؟ في وقت كان خليفة المسلمين يطالب فيه برأسه لقاء جنيهات معدودات].

أقول: ليعلم سعادة حافظ رمضان باشا، و غيره من المجازفين، و ليتقوا الله في القول<468> عن موقف وحيد الدين، من مصطفى كمال في نشأته شخصية بارزةً، رفعته إلى رئاسة دولة تركيا، و جعلته يظنه الرأي العام العالمي -الذي هو أشبه شيء في نفسه بالرأي العامي، مهما وُجد كثيرون من خاصة الرجال، أمثال رمضان باشا بين أصحاب ذلك الرأي العاليم العامي- بطلا من أبطال الدنيا، بل و ربما بطلا من أبطال الإسلام، و قلما يوجد أحد في الدنيا ائتمن أحداً، و أولاه ثقته، كما ائتمن وحيد الدين مصطفى كمال، و لا أحد خان أحداً، و غدره، كما خان مصطفى كمال وحيد الدين.

يقول رمضان باشا: [إن مصطفى كمال، الذي كان فاراًّ في الأناضول، أنشأ جيشاً تحت سيل من قنابل الأعداء في وقت كان خليفة المسلمين يطالب برأسه لقاء جنيهات معدودات].

و فيما قاله تغيير فاحش للواقع، لأن مصطفى كمال لم يكن فارا في الأناضول، بل مرسَلا إليها من حكومة الخليفة، التي كنت أنا عضوا من أعضاء وزارتها، مرسلا بصفة رسمية مهمة، أعني مفتش الجيش العام، الذي يندرج تحت أمره جيوش، كما نص عليه مصطفى كمال نفسه في الخطبة التي ألقاها بعد أن تولى رئاسة الجمهورية، و ألغى الخلافة، و التي استغرق إلقاؤها شهوراً، و كون طبعها مجلداً ضخماً[207].

و كان بعثه إلى الأناضول بهذه الصفة الممتازة الرسمية، و السلطة الواسعة، بإيعاز من الخليفة وحيد الدين إلى الوزارة، يصادف عقب انتهاء الحرب العامة الأولى بمغلوبية تركيا مع ألمانيا، و اضطرارها إلى فتح الدردنيل، لأساطيل الحلفاء، و استسلام عاصمة الخلافة لهم....

تلك الحرب التي<469> دخلتها تركيا، متورطة في دخولها، قبل عهد وحيد الدين في زمن السلطان محمد رشاد، و وزارة الأمير المصري المرحوم ممد سعيد حليم باشا.

فلما توفي السلطان رشاد في أواخر الحرب، و جاء وحيد الدين وارثاً لشؤم عواقبها، تذكر مصطفى كمال، الذي وُجد في معيته أثناء سفره بصفة ولي العهد، المرسل إلى ألمانيا من جانب السلطان، لإهداء السيف إلى الأمبراطور ويلهلم.

و كان مصطفى كمال قد كسب تقدير وحيد الدين في ذلك التعارف، و حبب نفسه إليه، فاتخذه لما تولى العرش "ياوراً" خاصا له، ثم بعث إلى الأناضول بعد انتهاء الحرب، و سقوط العاصمة إلى أيدي الخلفاء، مزودا بصفة رسمية كبيرة، كما ذكرنا، و بامتيازات أخرى من المساعدات المالية، و المنشورات السرية....

بعثه، ليجمع قوة من فلول الجيش المغلوب، و يستخدمها فيما تعجز عنه حكومة الخليفة، المكتوفة تحت احتلال

[207] أما قوله في تلك الخطبة، عن بعثه إلى الأناضول، بهذه الوظيفة الكبرى، ذات السلطة الواسعة: [إنه كان المقصود منه إبعاده عن العاصمة]؛ فادعاء مضحك، ينقض نفسه بنفسه، فكأن الخليفة، و وزارته خافوا الرجل مجردا عن القوة، و هو في قبضة أيديهم، فأجلوه إلى الأناضول، و خولوا له قيادة الجيش العامة، ليجعلوه جديراً بأن يخافوه!

و كنت هذه المهزلة مسقطة لخطبته، التي تؤلف من طولها كتابا ضخما، عن حيز الاعتداد عند أولي الأبصار، و التي كتبها لتبرير حركاته ضد ولي نعمته؛ و ذكره فيها بأخس الألقاب البذيئة.

الأعـداء، و حجـرِ أحكـام الهدنـة، الموقع عليها في عهد الـوزارة المتقدمة على الـوزارة، الـتي بعثت مصـطفى كمـال إلى الأناضـول، و الـتي كنت أنا عضـوا فيها بصـفة شيخ الإسلام.

دخل مصطفى كمال الأناضول من طريق البحر الأسود، و نـزل إلى صمسـون، في 19 مـايو، مع حواشـيه، الـذين اختـارهم من الرجـال العسـكريين، و الإداريين، كما نص عليه في خطبتـه، و جمع ما جمع من عناصر المقاومـة، و ليس في أثناء هذا الجمع شـيء مما ذكـره رمضـان باشـا، من سيل القنابل، الملقى عليه.

يقـول مصـطفى كمـال إنه دخل مدينة صمسـون، في 19 مايو 1919، فيلزم من هذا أنه خرج من عاصمة الخلافـة، قبل ذلك التـأريخ بيـومين، أعـني 17 مـايو، و هو يصـادف احتلال جيش اليونان، بميناء أزمير، قبل يومين، أي مـايو، بقـرار من لجنة الحلفـاء العليـا، المقيمة في بـاريس المؤلفة من رؤوس وزرائها...

و قد بلغونا هـذا القـرا مسـاء 14 مـايو، و حـذرونا من مقـاموة اليونـان، أي تحـذير معتـبرين ذلك مقاومة جميع الحلفاء، أي نقض الهدنة<470>.

و في مصـادفة احتلال أزمـير لما قبل سـفر مصـطفى كمال إلى الأناضول بيومين، عبرة عظيمة لأولي الأبصـار، الذين يعرفون أن إحداث مسألة أزمير من الحلفـاء بنزعها من حكومة الخليفـة، و منحصـها لليونـان، ثم نزعها من اليونـان و إعطائها لمصـطفى كمـال، ما هو إلا بداية مؤامرة الإنجليز على الخلافة، و بداية مـؤامرة تهـدف إلى خروج تركيا من الجامعة الإسلامية....

أما حرب مصطفى كمـال لاسـترداد أزمـير من اليونـان، و نجاحه فيها، بعد أكـثر من ثلاث سـنين، و بعد توسع دائـرة الاسـتيلاء من اليونـان في هـذه المـدة، حـتى اسـتغرقت نصف بلاد الأناضول، و وصلت إلى أبواب أنقرة[208].

فكل ذلك وسائل، و منـاورات من الإنجلـيز، لتهيئة أذهـان العـالم، و فيها أذهـان الحلفـاء غـير الإنجلـيز، إلى خـذلان الطـرفين المتنـازعين من الخليفـة، الـذي بعث مصـطفى كمال لتأسيس قوة تقـاوم الأحـداث المحتملـة، و اليونـان المأذونة لاحتلال أزمير، بل المأمورة به...

و النتيجة المقصـودة من المنـاورة، خسـران الخليفـة، و خسران اليونان، رغم كونها من أعضـاء الحلفـاء الغـالبين في الحـرب، الـتي لم تجف دمـاؤهم فيها ممزوجة بـدماء اليونان.

و هذا الخسران الأخير الخـاص باليونـان، من بين الحلفـاء تضـحيةٌ منهم، أو بالأصح تضـحية من الإنجلـيز بإحـدى حلفائها -و هي التي لا تصـادق، و لا تحـالف غـير نفسـها- في سبيل خذلان الخليفة بأي ثمن.

فـالمطلوب: خسـران الخليفـة، و خسـران اليونـان؛ في سبيل خسرانه، و كسب مصطفى كمال لحساب نفسـه، و بقطع النظر عن كونه منـدوب الخليفـة، و مبعوثه إلى الأناضول...؛ كسْبه قـوة، و سـمعة، بها يقتـدر على إلغـاء الخلافة، و خيانة شخص الخليفة.

و لا يدرى<471> سـعادة رمضـان باشـا، مسـاعي الإنجلـيز، المـدبرة لإفسـاد ما بين الخليفـة، و مصـطفى كمـال، بتضييق حكومة الخليفة، و اضطرارها إلى استعادة الرجل من الأناضـول؛ حـتى إنهم كـانوا يشـددون التضـييق على وزارة، و يخففونه على وزارات حسب اختلاف الـوزارات في الانحياز إلى الخليفـة، أو إلى مصـطفى كمـال، الـذي كان من رجال حزب الاتحاد و الترقي، و كـان هـذا الحـزب قد قسم الـترك إلى قسـمين متعـاديين، كأنهما أمتـان مختلفتان.

و لا يصـعب بعد كل ما ذكرنا آنفـاً، و تلخيصـاً من وقـائع الماضي القريب، لا سـيما مصـادفة بعث مصـطفى كمـال إلى الأناضـول، لقـرار احتلال اليونـان من الحلفـاء، و مقاربة زمـان الأمـرين بعضـهما من بعض، إلى حد أن أحدهما كان مدبراً من جـانب الخليفـة، و الآخر مـدبرا من جانب الحلفاء، متقابلين و متعاقبين بعضهما إثر بعض.

فـإن سـبق قـرار الحلفـاء على احتلال اليونـان، خـروج مصطفى كمال من الآستانة بيـومين، فقد سـبق قـرارهم قرار حكومة الخليفة على تعيينه مفتشا عاما للجيش....

لا يصـعب بعد هـذا، و بعد إجالة النظر الـدقيق إلى ما اشـتملت عليه أقـوال مصـطفى كمـال في خطبته المطبوعة من التهـويش، و المجازفة الـتي تنم على استيفائه من أول الأمر بالفوز و النجاح في مشروعه.

فقد كان الرجل -على تصـريحه في (ص 10)، من خطبته المدونـة- يسـخر من أعوانـه، و مستشـاريه، الـذين يخـالج أذهانهم كيف تكون تركيا المغلوبة في الحـرب حين كـانت معها زميلاتها الألمـان، و النمسـا، و البلغـار، غالبـةً على الغالبين بمفردها...

و انظر إلى قوله (ص 10)ــــ -و قوله هـــذا قبل إلغائه الخلافة ببضع سنين، و قبل اكتساب الشـهرة، و السـمعة، فضلا عن السـلطة الـتي جرأته على الإلغـاء... أيـام كـان منـدوب الخليفـة-: [أما الخلافـة، فلم تعد مسـألة ذات موضوع، عند عالم المدنية، بعد أن جعل العلم ذلك العالم، غريقا في نوره، إلا موضوع الضحك].

لا يصـعب بعد هـذا و ذاك لمن عنـده الفهم، أن يفهم أن الرجل كان لما كان في الآستانة يفاوض الخليفة في بعثه إلى الأناضول، للقيام بوظيفة هامة جـدا<472>، مسـتحقة لتقدير الخيلفة و الوطن؛ كـان يفـاوض الإنجلـيز أيضا في الوقت نفسـه، لمهمة أخـرى، تهم الإنجلـيز، و تهم الرجل خاصـة؛ على حين غفلة من الخليفـة، و الـوطن، أعـني به وطن الإسلام في تركيا.... الله يرحمه.

و مما يـدل على ما ذكرنا قـول مصـطفى كمـال، الـذي نقلنـاه في الهـامش المتقـدم، أنه يفسر بعثه إلى الأناضول من طرف الخليفة و حكومته، بخوفهم منه....

و قد أبطلنا هذا التفسير، الذي إن كان له معنى معقـول، فإنما هو كـون الرجل عند ما اتخـذه الخليفة بطانة لـه، فعزم على بعثه إلى بلاده، الـتي لا تمتد يـده إليـه، بسـبب وقوعه مع عاصـمة ملكـه، تحت اسـتيلاء الأعـداء... عنـدما اتخذه بطانة له، معتمداً على ذمته، و أمانته، و متوقعا منه خيرا، و حماسة في الخير.

يسـيء هو الآخر ظنا بالخليفـة، و حكومة الخليفـة، و يكن نحـوهم في قلبه شـرا، و عـداوة، فهم يأتمنونـه، و هو لا يأمنهم، فهم يتصورونه لأكـبر وظيفـة، و هو يتـوجس منه خيفة... فإذا ساء فعل المرء، ساءت ظنونه من غير سبب سوى ما في قلبه من السوء... و ذلك قبل اللتيـا، و الـتي حدثت فيما بينه و بين الخليفـة، من المباعـدة و المنـاوأة، بكثير.

عود على بدء...

اطلع الحلفاء المحتلون على ما يهدف إليه بعث مصـطفى كمـال إلى الأناضـول، فـاحتجوا على الـوزارة القائمة في استانبول المحتلة، مستندين إلى أحكـام الهدنة المعقـودة في عهد الوزارة السابقة، و طالبوها باستعادة الرجل.

[208] و لو شاء الإنجليز ما استطاع مصطفى كمال أن يغلب جيش اليونـان، و يسترد أزمـير، و كـانت هـذه المشـيئة واجب محالفة اليونـان، و واجب القرار الصادر من الحلفـاء على إنـزال جيش لليونـان إلى أزمـير... و لم يكن مصطفى كمال الغالب على اليونان غير مصـطفى كمـال المغلـوب بالأمس في جبهة غزة، و المنظـور حـديثا من صـحف تركيا في كونه هو بطل موقعة أناقارطة بالدردنيل.

و فضلا عن هــذا، فقد حــدث اختلافــات و ارتباكــات بين الــولاة في الأناضـول، و بين قــواد مصـطفى كمــال -كما توقعه توفيق بك وزير المالية في الـــوزارة، الـــتي أولته وظيفة التفتيش العام، و اعترض على سعة سلطته قــائلا إنه يتحكم بها على الولاة-؛ فدعوناه إلى استانبول بلسان وزير الحربية، فلم يجب الدعوة...

ثم تكـرر الاحتجـاج من قيـادة الاحتلال، و تمـادت أصـوات الشــكاية من الــولاة إلى وزارة الداخليــة، حــتى أعــدى الخلاف، الــذي قــام بينهم و بين قــواد<473> مصــطفى كمــال، ما بين وزير الداخلية الشــهيد علي كمــال بــك، و وزير الحربية شوكت طورغـود باشـا، و تكـررت منا دعـوة مصــطفى كمــال إلى العاصــمة، و اســتمر هو في عــدم الإجابة.. إلى ان اضطرت الوزارة على إقالته من منصــبه، و هي مؤلفة يومئذ من أكـثر من عشـرين وزيـراً، بزيــادة وزراء بلا وزارة من الأحـــزاب و المســـتقلين، بينهم من تولوا الصدارة العظمى سـابقاً، و أنا يومئذ بصـفتي شيخ الإســـلام، الـــذي يتعين للنيابة عن الصـــدر الأعظم عند غيبوبته، رئيس مجلس الوزراء، بالنيابة عن الصدر الأعظم فريد باشا المسافر إلى أوروبا لحضور مؤتمر الصلح.

قررت الوزارة إقالة مصطفى كمال من منصبه، و عرضتُ القــرار على الســلطان وحيد الــدين، لكنه لم يوافق عليه موصـياً الاكتفـاء بدعوته إلى العاصـمة، و الاسـتمرار في الــدعوة ففعلنــا، و تمــادى التعلــل، و المِطــال منه في الإجابــة، و من الســـلطان في التوقيع على قــرار إقالة المدعو غير المجيب، و تمـادى الاحتجـاج على الـوزارة من الحلفاء لعدم البت في أمر مصطفى كمال...

حتى قررت الوزارة قرارها الأخـير يـوم 8 يوليـة: فـذهبت إلى القصـر، و قـابلت السـلطان، و مكثت عنـده من أول المســاء إلى الســاعة الواحــدة، بعد منتصف الليــل، و هو يماطلني، منتظرا لإجابة الرجل، إلى دعوة رئيس الديوان، الــذي يتكلم معه تلغرافيــاً باسم الســلطان، في الغرفة المتصلقة بمجلسنا، حتى انقطع الأمل من إجابته.

و اضطر السلطان إلى قبـول قـرار الـوزارة على إقالتـه، فكــــان جوابه على بلاغ الإقالة اســــتقالتَه عن الســــلك العسكري بالمرة، في عبارة تنم على التمـرد و العصـيان؛ و تاريخ الإقالة هكذا مسجل عليه في خطبة مصطفى كما مع الفرق في بعض ساعات من الليل.

فظهر من هــذا أن وحيد الــدين وافق بكثــير من الكراهة على إقالة مصطفى كمـال بعد شـهرين، و عـدة أيـام من نصبه؛ و مع هـذا لم يُصـدر ضـده أي أمـر، بعد الإقالـة، بل غيّر الــوزارة في 2 أكتــوبر، الــتي طلبت من الســـلطان إقالتـــه، و أنا معهم، و في رئاســـتهم حين الطلب، و أتى بــوزارتين ملائمــتين<474> لحركـات مصـطفى كمـال في الأناضـول، أكسـبتاه بعد ما يقـرب من ثلاثة أشـهر مضت في رمضـان وزارتنـا، مـدة قضـاها في التمـرد تقـرب من سنة.

و لم يحصل من مهاجماته على اليونـــــان، غــــير توسع اليونـان في الاسـتيلاء على الأناضـول، كما ذكرنا من قبل حـــتى تـــولت وزارة فريد باشـــا، الـــتي بعثت الرجل إلى الأناضول، الحكم مرة ثانية، فأصدرت هذه الـوزارة، أمرها ضد مصـطفى كمـال مع الفتـوى القائلة ببغيـه، و خروجه على السلطان.

و كان شيخ الإسلام صاحب الفتوى في هـذه الـوزارة عبد الله بك دري زاده، الذي توفي في مكة المكرمة.

ثم ما لبث وحيد الــدين كثــيرا حــتى اســتبدل بها وزارة توفيق باشــا، و أبقاها في الحكم سـنتين، خـدمت فيهما هذه الوزارة آمال مصطفى كمال، و مساعيه المـدبرة ضد الســلطنة[209] و الخلافـة، إلى أن عـاين وحيد الـدين الخطر على حياته من جانب مصطفى كمال، ففر من مقر عرشه بعد أن دام على ثقتــه، و حسن ظنه بــه، غــير مصغ إلى كلمة قيلت عن مكره، و سوء نيته نحوه، و لا مُصـدر أمـراً ضده إلا كارهاً، و مستعداً كل الاستعداد للعدول عنه.

تشـهد به الـوزارات الـتي أقامها السـلطان غـير وزارتي دماد فريد باشان تُفضِّل ترك الحبل على غارب الرجل، بل تؤيده سرا و جهراً تحت سمع السلطان و بصره.

فهذا السلطان الذي فقد عرشه، و مات غريبا و فقيرا[210]، و الذي طـالت ضـده ألسـنة الـدعاة، المفـترين من أنصـار الجمهورية اللادينية في الشـــــرق، و أعـــــداء الخلافة الإسـلامية في الغـرب، قد غلبه مصـطفى كمـال مسـتغلا لوطنيته البالغة في التحمس مبلغا لم يُبق لنفسه شـــيئا من التحوط، و التردد، في الثقة بذمة الرجل و أمانته.

حتى قال له بعض رجال الترك القـدماء -بعد أن قابل بلاغ السلطان في إقالته بكلمات، تنم على التمرد، في ضمن<475> اسـتقالته عن السـلك العسـكري بـالمرة، ثم اسـتمر فيه و توسع-: [هذا الرجل لا يُستبعد أن يغتصب عرشــك]؛ فكان جواب السلطان ملحا على ثقته به: [ليخدم الـوطن، و ليغتصب عرشي].

و شــاعت كلمة في الأوســاط السياســية، ســمعتها -لما كنت، في بلادي منســوبة إلى أحد الإنجلـــيز-، مؤداها أن السلطان وحيد الدين حـاول أن يكيد الإنجلـيز، بمصـطفى كمـال، فكـاد الإنجلـيز مؤداها أن السـلطان وحيد الـدين، حاول أن يكيد الإنجليز بمصطفى كمال، فكـاد الإنجلـيز به السلطان نفسه.

فالحاصل: أن غلبة مصطفى كمال للسلطان، حصـلت من غير مغالبته من السلطان، و كان سلاحه في الغلبة وطنيةَ السـلطان، و كيـدَ الإنجلـيز، الـذين وجـدوا في شـخص مصطفى كمال استعداداً لخيانة من ائتمنه، و عززه بــأكبر منصب، و أنواع أسلحة كما سبق ذكره...

و اسـتعداداً للمسـاومة على خلافة الإسـلام، و مقومـات تركيا الروحية من الدين، و الأخلاق، و الآداب؛ بثمن بخس، هو احتفاظ الدولة باسـتقلالها، بعد تجريـدها عن مزاياهـا، بأن تتنازل عن الخلافـة، و عن البلاد، الـتي تـولت الخلافة لما تولتهــا، و تتجــرد الأمة من هويتها الممتــازة بين أمم المسلمين، و دولتهم بنعرتها الدينيـة، الـتي عـانت الـدول المسيحية منها ما عانت....

حتى تصبح الترك غير الـترك، الـتي تعـتز بـدينها المختلف عن دين تلك الـــدول، و قوانينها الشـــرعية الســـماوية، المختلفة عن قوانينها الوضـــــعية، و زي رجالها عن زي رجالها تحت القبعـات، و البرانيـط، و تسـتر نسـائها عن تعري نسائها و منازلها المنقسمة إلى الحرم، و السلاملق عن منازلها المختلطة، و حروفها المكتوبة من اليمين إلى اليسار عن حروفها المنعكسة...

---

[209] و في تلك الأثناء اقترح مصطفى كمـال على السـلطان وحيد الـدين، أن يتنـازل عن الحكم، و يكتفي بالخلافة المجـردة عن السـلطة، لينتقل الحكم و السـلطة إلى أنقـرة، و يقيم الخليفة في الاسـتانبول متقاضـيا مرتبه... فلم يبق وحيد الدين هذا الاقتراح الذي قبله عبد المجيد بعده.

[210] أما طلبه برأس مصطفى كمـال لقـاء جنيهـات معـدودات، و هو يجمع جيشه تحت سيل من قنابل الأعداء فمن أفـرى الفريـة، و الحق منه في بعد الثريا من الثرى.

و بالاختصار حتى تصبح الترك غير الترك، المعتزة بنفسها، و عقيدتها الإسلامية على مصداق قوله تعالى، الصادق، المنطبق على كل زمان: ﴿وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون:8]، المختلفة عن أمم الدول المسيحية مهما كانت راقية، فلا تعدها أكفاء لأمتها، و لهذا كانت لا تبيح زواج نسائها برجال تلك الأمم، حتى أباحه مصطفى كمال.

غير مصطفى كمال هذه الترك القديمة المعتزة بنفسها، و عقيدتها الإسلامية، و جعلها داعية الأفرنج، و أذنابهم في الشرق[211]، و في مقابل ذلك أعفاءها الحلفاء الغالبون في الحرب، التي <476> دخلتها ضدهم، ثم انهزمت مع زميلاتها الألمان، و النمسا، و البلغار...

أعفوها، و عاملوها بين المغلوبين معاملة الغالب، فكأن مسئولية الحرب المترتبة على الترك المحاربة، ثم المغلوبة، زالت تركيا مع زوال تركيا الكبيرة المسلمة، و استحالتِها إلى تركيا الصغيرة اللادينية، المقطوعة الصلة بولاياتها العربية، مثل الحجاز، و اليمن، و العراق، و سوريا، و المقطوعة الصلة بماضيها المجيد المجاهد في سبيل الإسلام، و إعلاء كلمة الله، حتى إنها لا تعرف اليوم ذلك الماضي بسبب استبدال الحروف اللاتينية بحروفها العربية، و المقطوعة الطريق إلى حج بيت الله الحرام.

و الآن تسعى حكومة تركيا الوارثة للمبادئ المستبدلة بالترك غير الترك، إلى القضاء على لغتها بإخلائها عن الألفاظ العربية، و الفارسية، لا سيما العربية المستولية عليها ممتزجة بلحمها، و دمها منذ أعصار بعيدة تمتد إلى بداية إسلام الترك.... تسعى إليه فلا تستطيعه، و ليس ببعيد أن ينتهي الأمر إلى اختيار لغة من لغات الغرب، فيختصروا الطريق إلى<477> التخلص، و الابتعاد من التركي القديم المسلم، الذي بلغ اتصاله بالإسلام إلى حد أنه قد ظل لفظ الترك يستعمل أجيالا طويلة على لسان الغربيين، كمرادف المسلمين، كما صرح به المرحوم الدكتور علي زيني عميد كلية التجارة بجامعة فؤاد في كتابه (أصول القانون التجاري).

انتهت حالة تركيا، بسبب هذه التقلبات القاضية على كيانها الإسلامي، إلى أن أصبحت أندلسا ثانية.. و زادت على أولاها بأن القضاء عليها أتاها من نفسها بأيدي أعداء الإسلام من أبناء أهلها، بل أعداء الترك أيضا، المتتلمذين على الغرب، الآخذين منه عداوة الإسلام، و عداوة الترك القدماء، المجاهدين في سبيل الإسلام، في حين أن القضاء على الأندلس الأولى أتاها بأيدي الأجانب عن الإسلام[212]<478>.

أنا الذي ينشرح صدري بسماع كلام الله تعالى كل صباح من راديو قبل مغادرة سريري، و أشكر مصر من أجل ذلك... أسأل سعادة رمضان باشا المصر على اتهام وحيد الدين، و إكبار مصطفى كمال بوصفه منقذ تركيا، و بانيها من جديد...

هل يسمع صوت القرآن من راديو تركيا الجديدة، مع وجود آلاف من حملة القرآن بين بقية المسلمين من أهلها المشرفين على الانقراض؟

و ما المانع من انتشار هذا الصوت في عهد المنقذ و خليفته؟

و مما زادت به الأندلس الثانية، أعني تركيا المسلمة على أولاها في فظاعة المصيبة، أنها ذهبت في خذلان تام، و حرمان حتى من الباكين عليها المأمول و جودهم بين المسلمين الأباعد، لكونهم زاعمين، و لا يزالون خروجها على تقاليد الدينية و القومية، تقدما و رقيا... في حين أن الأندلس الأولى، لم تعدم ما استحقته من بكاء المسلمين عليها، و قد قال شاعرهم:

حتى المحاريب تبكي، و هي جامدة	حتى المنابر ترثي، و هي عيدان
لمثل هذا يذوب	إن كان في القلب

[211] و إني متعجب من إخواني المصريين، الذين عانوا، و عاينوا من مكر الإنجليز منذ عهد طال، و كفى المعمرين المتذكرين منهم أن يتذاكروا، و جاءهم النذير... كيف يخفى عليهم كر الإنجليز بتركيا في نهاية الحرب العظمى الأولى، حيث استخرجوا بواسطة مصطفى كمال من الدولة المغلوبة مع زملائها في الحرب، دولة جديدة غالبة، و من الدولة الملكية، دولة جمهورية لا دينية.

فمصطفى كمال الغازي هذا، الذي سماه المسلمون الغافلون في فترة من الزمان "بطل الإسلام"، ثم لا يزال يعتقد كثير منهم منقذ تركيا... رجل لعب دوراً في خدمة الإنجليز، و إهانة وطنه، ثم مات حتف أنفه، و أوصى بأن لا يصلى على جثمانه -ثم صُلي برجاء من أخته- و جعل دين تركيا، و عرضها، و كرامتها، و جميع تقاليدها ملعبة لهواه، كان يدوسها، و يرقص عليها، مع من يشاء من بناتها و نسائها.

فخلق من قوم شم الأنوف بدينهم، و بتاريخ مجدهم، و بمجاهدتهم في سبيل الإسلام أذنا بالإنجليز، و قد دعيت تركيا الجمهورية إلى مؤتمر الإسلام، الذي عقد قبل أعوام في القدس -و مصطفى كمال يومئذ حي-، فلم تجب، لأنها لا تعد نفسها دولة إسلامية، حتى إنها أمرت القنصيلة التركية في القدس بإنزال لوائها المرفوع فوق بناء المؤتمر، على ظن أنها من الدول الإسلامية؛ و دعيت تركيا هذه أخيرا إلى مؤتمر آسيا المعقود في دلهي الجديدة، عاصمة حكومة الهند، فلم تجب أيضا، لأن تركيا، التي أنشأها مصطفى كمال بطل الإسلام عند المسلمين الغافلين، و جعلها دعية من أدعياء الدول الغربية، لا تقبل أن تبقى دولة إسلامية، و لا آسيوية.

[212] و لقد شق علي أن أرى سعادة رمضان باشا خليفة المغفور لهما مصطفى كمال باشا، و محمد فريد بك، العارفين قدر الدولة العثمانية، و الخلافة الإسلامية...، أن أرى سعادته يكبر عدو الإسلام، و الخلافة، و العرب جهراً، و عدو الترك السري المنتدب من الدولة الغربية العريقة في عداوة الإسلام، لهدم تركيا المسلمة، المجاهدة في سبيل الإسلام، و بناء تركيا الجديدة اللادينية، و يذكر الخليفة المظلوم وحيد الدين بسوء.

و قد يعترض علي بأن سعادة رمضان باشا ليس من طراز أسلافه في زعامة الحزب الوطني، بل من رجال الوطنية المجددين، فلا يهمه دين تركيا عند ما يتمنى لها الخير، لكون الصلة بينها و بين مصر، و لو فيما سبق، تجعلها شقيقتين... لا يهمه دين تركيا عند ما يتمنى لها الخير لكون الصلة بينها و بين مصر، و لو فيما سبق، تجعلها شقيقتين.... لا يهمه دين تركيا بقدر ما يهمه مركزها الدولي المستقل، لعدم كونه مشايعاً للمذهب القديم، الذي يبني الدولة على أساس الدين و العنصرية... و لهذا قرأنا عن سعادته في الأهرام، بتاريخ 5 يوليو، سنة 1948، أنه يعيب الدول المعترفة بدولة إسرائيل، المزعومة على أساس الدين اليهودي.

و نحن في جوابنا عن هذا الاعتراض، ننعى على سعادته انخداعه برجوع الدول غير الإسلامية من بناء الدولة على أساس الدين، في حين أن ذلك تظاهر من تلك الدول، حثا للدول الإسلامية على الابتعاد عن هذا الأساس...؛ و الدليل عليه احتفاظ تلك الدول بمناوأة الدول الإسلامية، و أممها البارز مثالها في ميولهم إلى الإجحاف بحقوق العرب في مسألة فلسطين، سعياً لإضعافهم في مقاومة اليهود، المعتدين على بلادهم، لأن الدول الكبيرة الحاضرة صاحبات النفوذ في الأرض يرين في قوة الإسلام بنفسه مع كثرة عدد المنتمين إليه، مزاحمة لقوتهن، فيضغطن على المسلمين في كل فرصة، و يسعين ضدهم.... أما اليهود، فلا يخفن من قوة دينهم، و لا من كثرة نفوسهم، و ثروتهم التي يستعملنها عند الحاجة في أغراضهن الخاصة.

ثم أقول: و على كل حال، فليس الحزب الوطني المصري اليوم على متانة رأيه، و بعد نظره في عهد مصطفى كامل، و محمد فريد؛ و قد رأيت مقالة في الأهرام، عدد 22874، بعنوان "بين بطلين"، للأستاذ الوطني فتحي رضوان المحامي، بمناسبة ذكرى من ذكريات قاسم أمين، الذي لا تنسيه عند مكبريه عشرات السنين الماضية على موته، و قد جمع الأستاذ كاتب المقالة مع المرحوم مصطفى كامل باشا، تحت كلمة "بطلين"، و جعله ثاني اثنين، ثم ذكر معتذراً عن جانب البطل الأول، ما معناه: "أنه شغلته الناحية السياسية لخدمة الوطن عن السعي لتحرير النساء المسلمات مع قاسم أمين، الذي هو البطل الثاني، و لكنه كان قلبه معه".

و أنا أقول: لم أر مثل الأستاذ الكاتب فضوليا جمع بين البطل و الباطل، و لم يخلط النابل بالحابل، بل خلطه بالخابل، و جعل لمصطفى كامل بعد موته نصيبا من إثم رجل لم يشاركه في حياته.

القلب من كمد،	إسلام و إيمان

أما الأندلس الثانية، فقد مات شاعرنا الأعظم عاكف بك -مع كونه حاملا للقب شاعر الإسلام-، و لم يهرق قطرة دمع على تركيا الخارجة من الجامعة الإسلامية<479>، و لم ينبس بكلمة لوم على مخرجها كمال آتاتورك، لِما أعوزته الشجاعة المدنية...

و محاريب المساجد هناك، و منابرها يشغلها عن البكاء المصلون الترك،من الجيل القديم، المسلم الذي لا يمر وقت طويل عليهم إلا و هم ينقَضون و يدرجون.

و كان تغيير الحروف العربية وحده -الذي قطع صلة الترك بماضيها في الإسلام، إلى حد أنه لا تعرف عنه شيئا، و لا تقرأ كتابا ألف فيه، كما قطع صلتها الثقافية بالأمم الكاتبة بالحروف العربية-، كافيا في تنبيه الغافلين من الترك و العرب عما كان مصطفى كمال يهدف إليه في ذلك التغيير... فلم يكف....

فأين رجل من الترك كاتب في الصحف، أو نائب في البرلمان، و لو من البرلمان يصيح قائلا: إلى متى تعيش مهزلة "كوننا نحن الترك ممنوعين من أن نكتب بالحروف التي كتب بها آباؤنا منذ ألف سنة"؟

أليس للترك تاريخ و لثقافتها نسب، و إنما هي لقيطة مصطفى كمال، و تاريخها يبتدئ من ظهوره في تركيا؟؟

ثم أين رجل من العرب يعز عليه كون الإسلام و اللغة العربية، و الحروف العربية منبوذة نبذا رسميا من تركيا، التي أنشأها مصطفى كمال.... يعز عليه ذلك، فيكف من إكبار الرجل مع المكبرين من أعداء الإسلام؟

لكن الملاحدة الذين لا تعدمهم العرب أيضا، يقومون بواجب الاتصال بينها و بين تركيا الجديدة، اللادينية، و لا ينسون فضل زعيمها العظيم على ملاحدة كل من الأمتين...

ألا يرى إلى قول الأستاذ فريد وجدي بك عن الانقلاب التركي، و قد نقلناه في كتابنا (مسألة ترجمة القرآن، في ص 102): [فنحن الذين شهدنا هذه الآية الاجتماعية يحرم علينا أن نصغر من شأنها، و أن نمر بها غير مكترثين، فإننا سنمر في كل الأدوار، التي مر بها الاتراك متى جاء دورنا في نهوض حقيقي صحيح؛ فإن لم نتعلم مما دخل فيه الأتراك درسا، فلا أقل من أن نُعجَب به مع المعجبين].

و التحول العظيم في نفسية الترك، الذي ذكرنا هنا شيئا كثيرا منها، قد وقع تحقيقاً لما وعد به مصطفى كمال سريا على لسان مندوبه في مؤتمر لوزان، و خليفته اليوم في رئاسة<480> الجمهورية الأنقروية...، و تفسيراً لانسحاب الإنجليز الاختياري مع زملائهم من الاستانبول التي احتلوها، و أحاطوا بأساطيلهم، تبعا لانسحاب زميلهم الصغير، أي اليونان من الأزمير، مضطرين إليه أمام الترك الأناضوليين، الذين أثارهم مصطفى كمال مقنَّعا بقناع الحماسة الإسلامية، و إن كان هو نفسه الذي دعاهم إلى نبذ الإسلام بعد أن قضى حاجته منهم.

و لم يشق على الإنجليز الذين نراهم في نهاية الحرب العالمية الثانية، كيف يحمون اليونان، و يساعدونها حتى ضد حليفتهم الروس... لم يشق على الإنجليز أن يخذلوا اليونان في حرب أزمير، على الرغم من أنها حليفتهم، و من أن احتلالها من اليونان قد كان واقعا بقرار بلغوه لنا من باريس باسم اللجنة العالية المؤلفة من رؤساء الحكومات الإنجليزية، و الفرنسية، و الطليانية، و اليونانية... بلغوه، و حذروا من مخالفته بإلغاء الهدنة...

لم يشق على الإنجليز خذلان حليفتها اليونان، و مساعدة عدوتها الترك في سبيل المنافع، التي اكتسبتها في تلك المناورة السياسية؛ و من يومها دخلت تركيا المغيرة نفسها تحت محالفة الإنجليز، و في حمايتها الخفية، و ليست هذه المحالفة أو الحماية، التي تريد مصر التخلي عنها، و تدخل فيها الترك الجدد، وليدة الحرب العالمية الثانية.

فهل أتى على الذين أطروا تركيا الجديدة، التي خلقها مصطفى كمال آتاتورك قبل مضي وقت طويل على خروجها من الحرب العالمية الأولى، التي انهزمت فيها مع زميلاتها الألمان، و غيرها، و انكسرت أمام الحلفاء شر انهزام و انكسار...

خلقها، و نفخ فيها حياة جديدة، و قوة قادرة على تحدي الغالبين، و طردهم مع أساطيلهم المحشودة أمام الاستانبول، من بلاد الترك؟

فهل أتى على الذين أطاروا تركيا الجديدة هذه في سماء النهضة، و العظمة، بأجنحة خلقها لها مصطفى كمال مع خلقتها الجديدة؟

هل أتى عليهم زمان ينتبهون من نومهم، فيرون تركيا الجديدة مخلوقة مصطفى كمال -على الرغم من أنها ما دخلت الحرب العالمية الثانية، غير أنها استعدت للدخول، و استراحت طول امتداد<481> الحرب-؛ كيف ترتعش أمام خطر الروس؟

و كيف تؤمل النجدة، و المعونة إزاء هذا الخطر المحدق بها، من الإنجليز؟

مع أن كلا من الدولتين اللتين ترتعد تركيا الكمالية، و تأرق الليالي قلِقةً أما إحداهما و تعتمد على الأخرى، فقد أنهكتها الحرب الأخيرة، و استنفدت قواها.

و ربما يوجد الآن من المسلمين السذج الموجودين في خارج تركيا، من يدفعه إيمانه القوي ببطولة كمال أتاتورك إلى القول بأنه لو كان حيا لما خشي الترك بأس الروس، و كيف تخشاه و هي التي اضطرت تحت قيادة البطل الراحل حلفاء الحرب العالمية الأولى، المتغلبين على الألمان في الأولى و الثانية، إلى الانسحاب بجيوشهم و أساطيلهم عن عاصمة تركيا، التي هي الاستانبول، لا انسحاب اليونان من الأزمير فقط، و الفرنسيس من كليكيا... و الجنون فنون، و لله في خلقه شئون.

إن تركيا العثمانية، التي كان الغربيون من أعداء الإسلام أسموها الرجل المريض، كانت في الواقع تمثل الحق المريض، بعد أن مثلت الحق القوي قرونا، ثم أجهز عليها مندوب هؤلاء الأعداء، الذي اختاروه من داخل تركيا أعني مصطفى كمال، و خلق هذا المندوب باطلا مريضا مكان الحق المريض.

و ليسأل إخواني العرب قدر ذلك الرجل المريض، المكنى به عن تركيا القديمة -إن لم يعرفوه إلى الآن- عن إخوانهم الفلسطينيين.

الهامش (1)، من الصفحة (232):

و من عجائب النكران للجميل ما يروى من علماء مصر، المتتلمذين على الشيخ محمد عبده، مثل الطنطاوي الجوهري، و الأستاذ الأكبر المراغي، أنهم كانوا يشكون علمي الكلام و الفقه، لحيلولتهما بين المسلمين و صلتهم بالكتاب، و السنة، حيث يأخذون دينهم بأصوله، و فروعه منهما؛ فهم اليوم يراجعون علم الكلام، فيما يعتقدون و الفقه فيما يعملون، و يهجرون الكتاب و السنة.

و الجواب: أن السلف من علماء الإسلام، الذين دونوا الفقه، و الكلام، لم يرفعوا الكتاب و السنة، من متناول المسلمين المحاولين أن يستنبطوا أصول دينهم و فروعه منهما إن استطاعوا الاستنباط، و استجمعوا ما يجعلهم أهلا له.

فإن كانوا يراجعون الفقه و الكلام، دون الكتاب و السنة، يراجعونهما لسهولة الأخذ عليهم منهما، و عدم سهولة الأخذ من الكتاب و السنة، الذي هو شأن العلماء الراسخين.

و ماذا كان يعمل هؤلاء الذين لا يسهل عليهم الأخذ و الاستنباط من الكتاب و السنة، لو لم يجدوا الفقه و الكلام في متناولهم؟

لا جرم أنهم كانوا يحاولون الأخذ من الكتاب و السنة، غير مستأهلين لذلك، فيضلون و يضلون.

ثم إن أصول الدين معظم ما تستند إليه الأدلة العقلية، التي تكون حجة على المعترفين بالأديان و الملاحدة المنكرين جميعاً، و التي يحتويها علم الكلام أكثر من الكتاب و السنة، حتى أن كون الكتاب و السنة نفسهما حجة يصح الاستناد إليها، و تصلح لاستنباط الأحكام عنها؛ يتوقف على تلك الأدلة العقلية؛ و من هذا تقل حاجة علماء الكلام إلى إيراد أدلة من الكتاب و السنة، و يجدر علم أصول الدين أن يعد من العلوم العقلية.

أما الفقهاء، فرؤوسهم مربوطة بالكتاب و السنة، و كل مسألة استنبطوها، فلها مستند من أحد هذين الأساسين؛ و هم رضي الله عنهم لم يألوا جهدا في إيراد تلك المستندات<483> في أمهات كتبهم، انظر مثلا إلى مسبوط الإمام السرخسي، في الفقه الحنفي، المكون من ثلاثين مجلدا، تجد كل مسألة ذكرها قائمة على دليلها من الكتاب، أو السنة.

و قد عددت أنا في الباب الثالث من هذا الكتاب علم الفقه الإسلامي، من معجزات هذا الدين الباقية، كما يأتي إيضاحه، و فضَّلت هذه المعجزة على ما يدور في ألسنة الكتاب العصريين من معجزة الانقلابات الأدبية، و الاجتماعية التي تمت على يد محمد ﷺ في أقل من ربع قرن، و معجزةِ "غلبة القلة على الكثرة".

فإن كان من الفقهاء المتأخرين من ألَّفوا كتبا، و قصروها على ذكر الأحكام الشرعية، مجردة عن أدلتها من الكتاب و السنة، فقد وقع ذلك منهم تسهيلاً للأخذ بأحكام الشرع الإسلامي على العاملين بها، المنتمين إلى أحد المذاهب الفقهية المعتبرة، و اعماداً على وجود الدلة في مطولات كتب المذهب، لا قطعاً لصلة المسلمين بالكتاب و السنة، و تعليما لهم بأحكام دينهم، مستغنين عن ربطها بهما.

و كيف يُظن بالفقهاء، أئمة الدين، أن يكونوا عاملين في تدوين علمهم على قطع صلة المسلمين بالكتاب و السنة، ليتعلموا دينهم من كتبهم، و يهجروا كتاب الله و سنة رسوله....

كيف يُظن بهم ذلك، و هم دونوا بعد الفقه علما ثانيا، من أدق العلوم، باسم "أصول الفقه"، و وضعوا فيها قوانين استنباط الأحكام، المسماة بالفقه من أدلتها المنصوص عليها في الكتاب و السنة، حتى إن صاووا باشا الرومي من علماء الحقوق، و من رجال الدولة العثمانية، في زمن السلطان عبد الحميد الثاني، ألف كتابا باللغة الفرنسية، فند فيه الزعم الذي يلوكه بعض الأفواه العصرية، من أن قسم المعاملات من الفقه الإسلامي مأخوذ من قانون الرومان.

و قال: [إنه كان هو أيضا يعتقد هذا الاعتقاد نظير غيره]، بناء على ما ذكره، و نقلناه نحن بنصه الطويل عن ترجمة الأمير شكيب أرسلان في الباب الرابع من هذا الكتاب؛ [ثم أخذ يدرس هذا الموضوع درسا دقيقاً، و يتعرف كيفية نشوء التشريع في الإسلام، فاستنجد بعضَ علماء أصول الفقه من الأتراك، و قرأ الفقه الحنفي جيدا، و ذكر الكتب التي طالعها، أو راجعها<484>، و تجرد لمعرفة هذا الأمر مدة طويلة، فوجد هذا الرأي الذي معناه أن التشريع الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني، رايا ضعيفا أشبه بأن يكون خيالا من أن يكون حقيقة].

و قال أيضا: [لا شك أن لكل تشريع منبعا مختلفاً عن الآخر؛ ففقه زوستنيانوس الامبراطور، الذي أسس مدرسة في بيروت، لتدريس الحقوق الرومانية، عمل مبنى على العقل السليم، البشر، و قد اصطبغ بالصبغة المسيحية؛ أما فقه الإمام الأعظم، فهو مبني على كتاب الله "القرآن"، و "سنة الرسول ﷺ"؛ و لن ترى في الفقه الإسلامي حكما واحدا غير مدعم على هذا، أو هذه؛ فاختلاف المتبعين لا ريب فيه يظهر لكل من درس فقه زوستنيانوس، و فقه أبي حنيفة].

هذه قيمة علم الفقه الإسلامي بشهادة شاهد من غير أهله "فضلا عن أهله"، الذي قال في آخر كلامه: [أنا مسيحي، معتقد بديني، و لكن المسيحي الحقيقي، هو الذي يعامل جميع الناس بالحق، و لهذا أنا أفحص الشريعة الإسلامية، و أقدر قدرها، بدون ضلع، و لا ميل، فأجدها لذلك جديرة بأعظم الاحترام].

لكن العصريين من أشباه العلماء رأوا كتب الفقه الخاصة بتدوين المسائل، و قصرت أنظارهم عن أمهات الكتب المشحونة بأدلة تلك المسائل من الكتاب و السنة، فلم يتتبعوا آثار السلف الصالحين، و لو بقدر ذلك الباشا المسيحي، و غفلوا بالمرة من علم أصول الفقه، و موضوعه في حين أن هذا الباشا المسيحي لفت إليه الأنظار، فكأنه لفت أشباه العلماء المصريين الغامطين لعلم الفقه، و خدمة الفقهاء للشريعة الإسلامية مع الغامطين الأجانب عن الإسلام، فمن كانوا يدونون علم الفقه، و يستنبطون من الكتاب و السنة، لو لم يكن الفقهاء تغمدهم الله برحمته، و أسبغ عليهم رضوانه، قاموا بتدوين علم الفقه، و استنبطوا من الكتاب و السنة؟

أهؤلاء الذين يغفلون عن المدون، و ارتباطه بالكتاب و السنة<485>؟

تتمة الهامش من (ص 445):

قرأت كتاب قاسم أمين (تحرير المرأة)، فرأيته يشن الحرب على حجاب المرأة المسلمة، و ابتعادها من الرجال، مع الاجتهاد الماكر في توفيق هذه الحرب بقواعد الشرع الشريف.

فهو يظهر في مظهر المُدافع عن السفور بمعنى كشف الوجه، و نبذ النقاب، الذي لم يوجبه فقهاؤنا إلا لخوف الفتنة، و هذا مع علمه بأن السفور في عرف عصرنا، خلاصته، أو نتيجته التزيي بزي الغربيات، إلى أن تصبح نساؤنا مثلهن كاسيات عاريات، كما أصبحن كذلك في الحالة الحاضرة، التي تسع حتى مخاصرة الرجال النساء في الحفلات الساهرة.

و قد يُسمع من بعض الأفواه أن قاسماً لم يرد هذه الحالة؛ و هي أفواه الغافلين عن أن دعوى السفور حدثت فينا مترجمة عن اقتراح جديد، يدار تحت خطة منتظمة، وضعها طائفة من الرجال، تقليدا للغرب، و هم كانوا على معرفة تامة بمقدمات الاقتراح، و ما تصل إليه تلك

المقدمات من النتائج...؛ و كان قاسم و مكبروه من هؤلاء العارفين لا الغافلين، ألا يرى أن الذين احتفلوا بذكراه الثلاثين لا يرون أي خلاف بين ما سعى له الرجل، و بين حالة نسائنا الحاضرة، حتى إن ابن المحتفَل بذكراه، يطلب ثوابا من الله لأبيه على سَنه هذه السنة الحسنة، و ثواباً جارياً لا انقطاع له مشتقا من ثواب من الله لأبيه على سضنة هذه السنة الحسنة، و ثواباً جارياً لا انقطاع له مشتقا من ثواب العاملين و العاملات بها إلى يوم القيامة!

ثم لا يخلو الكتاب نفسه من تعمد القضاء على الخواص المميزة للمرأة المسلمة، و إفساد حالتها تحت ستار السعي لمصلحتها في حدود الشرع الإسلامي، فيروج لها المعاشرة المختلطة بالرجال له... و ربما يعد اختلاط الفتيات بالفتيان لزاماً، ليحصل التعارف بين الفريقين، فلا يكون الزواج مجازفة عمياء، و لا مبنية على معرفة الوسطاء الأجانب، و إن كان هؤلاء الأجانب من آباء الطرفين أو أمهاتهما.

أما الحجاب المعروف في الإسلام، فيراه قاسم مختصا بنساء النبي ﷺ، و يستدل على هذا الاختصاص بقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء﴾[الأحزاب:32]، و قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ﴾[الأحزاب:53]، بناء على أن ضمير الجمع المؤنث، راجع إلى أزواج النبي ﷺ، فتكون الأوامر و النواهي المذكورة الواردة بشأن أزواجه ﷺ، لا تجاوز بطبيعة الحال غيرهن.

هذا ما يحاول أن يقوله مؤلف (تحرير المرأة).

و نحن نقول: إن المراد من قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء﴾، امتيازهن المذكور قبله، في قوله: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[الأحزاب:30]، و قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾[الأحزاب:31]؛ و إلا فليس المراد من الأوامر و النواهي المذكورة بعد قوله: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء﴾؛ و هي: ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[الأحزاب:32-33]، أنها خاصة بأزواج النبي ﷺ، لا تجاوز غيرهن من النساء المسلمات؛ فيباح للغير أن يخضعن بالقول، ليطمع الذي في قلبه مرض، و أن لا يقلن قولا معروفا، و أن لا يقرن في بيوتهن، و يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، و لا يقمن الصلاة، و لا يؤتين الزكاة، و لا يطعن الله و رسوله.

و قياسا على هذا، ليس المراد من قوله تعالى في آية أخرى، من آيات سورة الأحزاب، خطابا للمؤمنين في معاملة أزواج النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[الأحزاب:53]، أن السؤال من وراء حجاب، خاص لأصحاب النبي ﷺ، مع أزوجه، و أن المحافظة على طهارة القلوب ليست ضرورية لعامة المسلمين و المسلمات.

فظهر من هذا البيان، أن الأحكام المذكورة في سورة الأحزاب المتعلقة بحجاب أزواج النبي ﷺ، لم تكن خاصة بهن، بناء على أن علل الأحكام المذكورة في تلك الآيات كلها تجري في غيرهن أيضا.

لكن صاحب (تحرير المرأة) يغالط الأفهام، و العقول <487> لترويج هواه، و يحرف الكلم عن مواضعه في تفسير آيات الله.

و هناك آية أخرى في سورة الأحزاب أيضا، تنقض ما ادعاه قاسم أمين من اختصاص نساء النبي بواجب الاحتجاب، و تنص على أن هذا الواجب عام لجميع نساء المؤمنين، لا فرق بين نسائه و نسائهم في ذلك؛ و هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[الأحزاب:59]، و الجملة الأخيرة من الآية المبينة لفائدة الحجاب، تبين أيضا عدم الفرق المذكور، و هي أن يعرف كونهن عفيفات، غير مائلات، و غير مميلات، فيسلمن عن مراودة الفساق، و يكون احتجابهن علامة لعدم رغبتهن في تلك المراودة، التي يعبر عنها القرآن بالأذى، و التي تكون أذى في حق نساء و بنات المؤمنين، كما كانت أذى في حق نساء النبي و بناته.

و في نصب حجاب المرأة في هذه الآية -علامةً لعدم رغبتها في مراودة الفساق من الرجال، إشارةٌ بالغة على رغم قاسم أمين- إلى شدة لزوم هذه العلامة للمحصنات من النساء.

و في كتاب قاسم أمين كثير من الكلمات الحقة، التي أريد بها الباطل، انظر قوله (ص 56): [لو أن في الشريعة الإسلامية نصوصاص تقضي بالحجاب على ما هو معروف الآن عند بعض المسلمين، لوجب علي اجتناب البحث، و لما كتبت حرفاً يخالف تلك النصوص، مهما كانت مصغرة في ظاهر الأمر] ! [لأن الأوامر الإلهية، يجب الإذعان لها، بدون بحث، و لا مناقشة، لكنا لا نجد نصا في الشريعة يوجب الحجاب على هذه الطريقة المعهودة، و إنما هي عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم] ! [فاستحسنوها، و أخذوا بها، و بالغوا فيها، و ألبسوها الدين كسائر العادات الضارة، التي تمكنت في الناس باسم الدين و الدين براء منها؛ و لذلك لا نرى مانعاً من البحث فيها، بل نرى من الواجب أن نلم بها، و نبين حكم الشريعة في شأنها، و حاجة الناس إلى تغييرها].

أقول: كل باحثٍ حادثٍ في الإسلام يعرف أن فيه حجاباً للمرأة يحبذه من يحبذه من المحافظين على تقاليد دينه، و يكرهه من يكرهه من هواة الغرب السافر، أعني أن< 488> المعروف كون السفور حدثاً حدث في بعض المسلمين تقليداً للأجانب عنهم، ثم أخذ ينتشر انتشاراً يعلم الله منتهى مداه.

و لم يقل أحد قبل قاسم: "إن الحجاب حادث في المسلمين، على أي شكل من أشكاله، أخذوه من عادات أمم أخرى، و تعودوه، و بالغوا فيه، ثم نسبوه إلى دينهم، و الإسلام براء عن الحجاب"!

فهذا قلب للأمر، و مضادة للواقع؛ و كان له على الأقل من منطق الإنصاف، أن يقول: أخذوه من نساء نبيهم، اللاتي اعترف فيما سبق بوجوده فيهن، و وجوبه عليهن نصا في القرآن -و لو مع دعوى اختصاصهن به-، ثم تعودوه، و بالغوا فيه، و نسبوه إلى الدين.

فهل كتاب الإسلام أخذه، و لو لنساء النبي من الأجانب، و الإسلام براء من الحجاب؟

ثم قال قاسم أمين: [جاء في الكتاب العزيز: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[النور:30-31]؛ أباحت الشريعة في هذه

<u>الآية أن يظهر بعض أعضاء المرأة من جسمها أمام الأجنبي عنها غير أنها لم تسم تلك المواضع].</u>

أقول: هذه آية الحجاب للنساء، الذي يسعى مؤلف (تحرير المرأة) أن ينكر وجوده في الإسلام، مهما كانت الآية مجملة في تعيين محل الكشف، المستثنى من الاحتجاب؛ فالقرآن صريح في فرض الحجاب على النساء عامة، و التفريق بين الجنسين في اللّبس، على أن تكون أعضاء المرأة أكثر تسترا أمام الأجنبي عنها من أعضاء الرجل<489>، لا أكثر انكشافاً منها، كما هو الواقع الآن في الأمة الإسلامية، و خاصة في مصر، بعد النهضة التي أدى إليها تحرير المرأة ملهماً من كتاب قاسم أمين، المسمى باسمه نفسه.

و في الآية كلمة هي قوله تعالى: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾، الدال على مبلغ لزوم الحجاب للمسلمات، إلى حد كونهن ممنوعات من إبداء زينتهن لنساء الأجانب عن الإسلام....، كلمة لو كان قاسم أمين أصغى إليها، لوجد فيها عظة بالغة، تُعارض كلمته، و تناهض نهضته؛ كلمة تكفي في إثبات أن كتابه، و ما يرمي إليه في واد، و مرمى كتاب الله في واد بعيد عنه كل البعد.

و هو أي قاسم نفسه يثبت في كتابه هذه الكلمة من كتاب الله، التي تكفي وحدها للقضاء على كتابه.

و لم يَفُت مؤلفَ (تحرير المرأة) ما يقع فيه كثير من الكتاب العصريين، و لا يسلَم منه علماؤهم أيضا، من غلط الفهم، لمعنى القرآن الكريم في مسألة تعدد الزوجات؛ حيث يرتبون قياساً منطقياً، مؤلفاً من مقدمتين كلتاهما مأخوذة من كتاب الله أعني قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً﴾[النساء:3]، و قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[النساء:129]، و كلا القولين في سورة النساء؛ فيُلغون بهذا القياس الجواز الشرعي، المعروف في تلك المسألة، المأخوذَ هو الآخر أيضا من كتاب الله، متصلا بالقول الأول مما قبله، أعني قوله تعالى: ﴿فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً﴾[النساء:3]، و معمولا به من صدر الإسلام الأول، إلى يومنا هذا.

و نحن نحاشي السابقين من المسلمين أن يغفلوا عما تنبه له كتاب هذا الزمان، من معنى كتاب الله المؤدى إلى الهدم بعد البناء من حيث لا يشعر؛ فليبحث هؤلاء الكتاب عن عدم الشعور في أنفسهم و ليقرأوا ما بعد الآية الثانية الهادمة، أو بالأصح التي يزعمونها الهادمة، و هو: ﴿فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾[النساء:129].

أما المحاذير الاجتماعية، التي قلما يخلو عنها تعدد الزوجات، و التي أحصاها قاسم<490> في كتابه، فنحن نعرفها أيضا، و نعرف مع هذا انتشار الزنا في البلاد المُعرضة عن هذا المبدأ الإسلامي، تفاديا من تلك المحاذير.

فمبدأ تعدد الزوجات، الذي أباحه الإسلام، لا بد أن يسد فراغَه الزنا، لأن من يرى نفسه من الرجال في حاجة إلى امرأة ثانية، فهو يحصل عليها خليلة، إن لم يحصل عليها حليلة.

و من درس مسألة تعدد الزوجات، لينتهي إلى منعه، فليدرسها في المقارنة بين النكاح و السفاح، ثم ليختر أهون الشرين.

هذا كلام وجيز قاس، و لكنه كلام صادق، و لي كلام هنا غير هذا الكلام القاسي، و هو أن حقيقة المسألة، أعني مسألة تعدد الزوجات، تقسيم النساء، اللاتي فضَلن من ذوات الأزواج، إما لكثرة المرأة بالنسبة إلى الرجل، أو لعدم رغبة طائفة من الرجال في الزواج.... فضَلن، و احتجن إلى الاتصال بالرجال، بدافع الغريزة الجنسية، أو لكسب النفقة.

فحقيقة المسألة تقسيم هؤلاء النساء بين الرجال المتزوجين أزواجاً ثانية، للمحافظة على عفتهن، و عفة الراغبين فيهن، بغير واسطة الزواج.

فبالنظر إلى هذه الحقيقة، يعود مبدأ تعدد الزوجات إلى مصلحة المرأة، و يخدم المحافظة على كرامة الجنس، و الذين يعتبرون تعدد الزوجات ضربة قاسية على شعور المرأة، و كرامتها، يقصدون بالمرأة الزوجة الأولى، التي هي بعض النساء، فيحتكرون كل المحافظة على الشعور، و الكرامة لهذه البعض، على حساب البعض الأخرى، التي هي عرضة لضياع عفتها قبل المحافظة على شعورها، و كرامتها...

بل إن اجتماع الرجل بالمرأة الثانية من طريق الاستنكاح، أدنى إلى الاحتفاظ بكرامة الزوجة الأولى أيضا من اجتماعه بالمرأة الثانية، من غير ذلك الطريق؛ و قد كنت أنا عبّرت في شعر نظمته في قديم الزمان باللغة التركية في موضوع تعدد الزوجات عن المرأة التي تحتمل أن تشاركها في زوجها خليلةٌ، و لا تحتمل أن تشاركها فيه زوجته الثانية... عبرت عن هذه المرأة بامرأة ذات قرنين.

أما القول بالتسوية بين الرجل و المرأة في اختصاص كل منهما بالآخر، بعد أن كانا<491> زوجاً و زوجةً، و الاعتراض على مبدأ تعدد الزوجات بلزوم أن يكون من حق المرأة أن تجمع بين زوجين، إذا كان من حق الرجل أن يجمع بين الزوجتين، كما أشار إليه مؤلف (تحرير المرأة) فمنشأه عدم إدراك الفروق الكبيرة بين فطرة الرجل و فطرة المرأة، و قد بينت تلك الفروق في (قولي في المرأة)، المنشور قبل سنين.

و لو لم يكن فرقاً ما بين الجنسين إلا أن الإلقاح -الذي هو أهم مقاصد الزواج- يقيّد الزوجة على طول مدة الحمل، و الوضع، و الإرضاع، و لا يقيد الزوج أصلا، و إن شئت فقل إن الرجل الواحد يستطيع أن ينتج من الأولاد ما لا تستطيعه مائة امرأة، فهو يعادل في القيام بوظيفة الإنتاج أكثر من مائة امرأة...؛ لو لم يكن غير هذا، لكفى فارقا بين الجنسين.

فإن كانت كثرة التناسل مما يُرغب فيه لتقوية أمة بإكثار أفرادها من أبناء الحلال -و لا بد أن تكون- فلا طريق لها سوى تعدد الزوجات[213]<493>.

[213] أما ما قرأته في مقالة نشرته (مجلة الإثنين، عدد 544)، بعنوان "السيدات أولا"، للأستاذ الكبير محمد فريد بك أبو حديد، الذي أقرأ مقالاته في المجلات بلذة، و هو قوله: [و مهما يكن من الأمر، فإني أطلب التفكير في المرأة، و جعلت أتأمل مكانها من الإنسانية، فتبين لي في وضوح لا غموض فيه، أن المرأة هي لب الحياة، و هي نواة الإنسانية، و سرها.

فلو هلك نصف الرجال في هذا العالم -كما يحدث في الحروب الطاحنة، التي يعرض الرجال عليها منذ القدم-، لو هلك هؤلاء، لأمكن التعويض عنهم بعد قليل، و لكن لو هلك نصف النساء -لا قدرة الله-، لما أمكن هذا العالم أن يعوض صفوف الإنسانية، إلا بعد حقب و أجيال].

فلا يكفي في إثبات ما يتضمنه عنوان المقالة، و لا يدل على نقصان أهمية الرجل بالنسبة إلى المرأة، و إنما يدل على تقابل عدد قليل من الرجال بالكثير من النساء، و التعويض الذي ذكره في صفوف الإنسانية عند هلاك نصف الرجال، يكون طريقه بتفريق عدة من النساء سهماً لكل واحد من الرجال، أي بإحياء المبدأ الإسلامي، الذي هو تعدد الزوجات.

و يدل قوله في عدم إمكان التعويض عن النساء إذا هلك نصفهن، إلا بعد حقب و أجيال، على حكمة من حكم كون الرجال مكلفين بالحروب دون النساء، و مثلها الأعمال الشاقة، التي تضني مزاولها، و تفنى، و تكون على الأكثر في خارج البيوت، و قد خصتها التقاليد الإسلامية بالرجال مثل الحروب، خلافاً للعصريين، الذين يدعون كون المرأة صالحة لكل ما يصلح له الرجل من الأعمال، و الوظائف.

كتاب قاسم أمين يحتاج إلى تأليف مستقل للرد على سخافاته، و إن كان (قولي في المرأة) -الذي ما كنت مطلعاً عند تحريره على (تحرير) قاسم- يسد كثيراً من الحاجة، و إنما أشرت هنا إلى مواضع خروجه على الأحكام المنصوص عليها في القرآن، رداً لدعوى مسايرته في كتابه مع كتاب الله.

و كم فيه مع الخروج الصريح على الأحكام الشرعية من خروج على بدائه العقول السليمة في سبيل استفزاز السذج؛ انظر ما ادعاه من أن المرأة ليست بأولى من الرجل، بتغطية وجهه.

ثم قال: [عجباً لِمَ لم تؤمر الرجال بالتبرقع، و ستر وجوههم عن النساء، إذا خافوا الفتنة عليهن؟

هل اعتُبرت عزيمة الرجل أضعف من عزيمة المرأة، و اعتبر الرجل أعجز من المرأة عن ضبط نفسه، و اعتبرت المرأة أقوى منه في كل ذلك، حتى أبيح للرجال أن يشكفوا وجوههم لأعين النساء، مهما كان لهم من الحسن و الجمال، و مُنع النساء من كشف وجوههن لأعين الرجال منعاً مطلقاً، خوف أن ينفلت زمام هوى النفس من سلطة عقل الرجل، فيسقط في الفتنة بأية امرأة تعرضت له، مهما بلغت من قبح الصورة، و بشاعة الخَلق؟

إن زعم زاعم صحة هذا الاعتبار رأينا هذا اعترافاً منه بأن المرأة أكمل استعداداً من الرجل؛ فلِمَ توضع حينئذ تحت رقّه في كل حال؟

فإن لم يكن هذا الاعتبار صحيحاً؛ فلم هذا التحكم المعروف؟].

يفهم من هذه الأقوال، أن مؤلف (تحرير المرأة) غافل، أو متغافل، حتى عن أبسط ما بين الرجال و النساء، من فروق الفطرة؛ فهو بنى على كتابه على أساس المساواة بين الجنسين.

فعلى رأيه يلزم أن يُخاف على الرجال أيضاً من اعتداء النساء على عفتهم، إن صح الخوف على النساء من اعتداء الرجال على عفتهن، و هذه المساواة تقتضي كونه منكِرا، حتى لصحة ما هو المعروف من اعتبار الرجل فاعلاً، و المرأة قابلة في الفعل الجنسي الحاصل باشتراكهما.

فعند وقوع الشكوى من أي رجل بأنه اعتدى على <493> امرأة، يكون من حق ذلك الرجل على رأي قاسم أمين أن يدعى كون الاعتداء عليه من جانب المرأة، و يصح شك القاضي في تعيين المكْره و المكْرَه منهما، بناء على أنه كما يُخاف الفتنة على النساء من الرجال تخاف عليهم منهن، فلماذا تحذر المرأة الرجل، و تستخفي منه، و لا يحذر الرجل المرأة، و يستخفي منها؟

فالمؤلف، لم يلتفت في تمشية مغالطاته في الجمل المذكورة آنفا إلى موقف الذكر و الأنثى في أي نوع من الحيوان، و تضمن اعتراضه على تخصيص الحجاب بالمرأة دون الرجل من غير تفريق بين حسانها و قباحها، اعتراضا على القرآن في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ.....﴾ [النور:31] الآية التي أوردها المؤلف أيضا، و سعى في إلغاء أحكامها...

و لا أدري، لماذا لم يعترض على اختصاص المرأة بالزينة، الذي يخل بالمساواة، المدعاة، و الذي لم تنج منه أوربا المواصلة إلى شوط يحبذه المؤلف في التسوية بين الرجال و النساء، و الذي كان ينبغي أن يوقظه من غفلته في دعوى المساواة بين الرجل و المرأة، إن لم يوقظه ما هو الواقع من تحكم الرجال على النساء بحق، أو بغير حق؟

بل حسبُ انهماك المرأة في الزينة، و اختصاصِها به في الشرق و الغرب، من غير فرق بين حسانها و قباحها، مبطلا لما احتشده قاسم أمين في كتابه من المغالطات لإبطال حجاب المرأة المسلمة.

فمعنى تزين النساء، و تبرجها، في مرأى الرجال، سواء كانوا بعولتهن أو غيرهم، أن فيهن الميلَ الطبيعي إلى استمالة قلوب الرجال و أنظارهم، و هذا الميل إلى الاستمالة، هو جُل ما عندهن من السعي إلى الفتنة المتوقعة الحصول بين الجنسين؛ أما الحركة الفعلية لحصولها، فإنما يقوم بها الرجال.

فلهذا وضعت الشريعة الإسلامية الحجاب، حاجزاً دون استمالة المرأة، التي يقع منها التحريك، ثم تقع الحركة من الرجل، و كان منع الفتنة في أولي المراحل المؤدية إليها أسلمَ، و أسهل من منعها في المرحلة الثانية.

و انظر قوله (ص: 89-90): [لعل يظن المصريون أن رجال أوربا -مع أنهم بلغوا<494> من كمال العقل، و الشعور مبلغاً مكّنهم من اكتشاف قوة البخار، و الكهرباء، و استخدامها على ما نشاهده بأعيننا، و أن تلك النفوس تخاطر كل يوم بحياتها في طلب العلم و المعالي، و تفضل الشرف على هذه الحياة.

هل يظنون أن تلك العقول، و تلك النفوس التي تُعجَب بآثارها، يمكن أن يغيب عنها معرفة الوسائل لصيانة و حفظ عفتها؟

هل يظنون أن أولئك القوم يتركون الحجاب بعد تمكنه عندهم، لو رأوا خيرا فيه؟

كلا؛ و إنما الإفراط في الحجاب من الوسائل التي تبادر عقولُ السذج، و تركن إليها نفوسُهم، و لكنها يمجها كل عقل مهذب، و كل شعور رقيق].

و قوله (ص: 91): [و قبل أن أختم الكلام في هذا الباب، أرى من الواجب علي أن أنبه القارئ إلى أني لا أقصد رفع الحجاب الآن دفعة، و النساء على ما هن عليه اليوم؛ فإن هذا الانقلاب ربما ينشأ عنه مفاسد جمة، لا يتأتى معها الوصول إلى الغرض المطلوب، كما هو الشأن في كل انقلاب فجائي.

و إنما الذي أميل إليه هو إعداد البنات في زمن الصبا إلى هذا التغيير؛ فيعوّدن بالتدريج على الاستقلال، و يودع فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة في النفس، لا ثوب يختفي دونه الجسم].

و أنا أقول: إن المؤلف؛ و إن كان يتظاهر في كلامه بالنظر إلى بعض القيود الاحترازية، التي اكتمن وراءها، أنه يشكو من الإفراط في الحجاب، لا من الحجاب مطلقاً...

و لكن المفهوم واضحا من مدح الأوربيين الذين تركوا الحجاب، بكمال العقل، و التهالك في اقتناص الشرف، أن مقصوده رفع الحجاب بالمرة، كما رفعه الأوربيون، و بلغوا منه مبلغ الإفراط في الكشف بدلا من الإفراط في الحجاب، و إن كان يريد الوصول إلى مبلغهم بالتدريج و التبكير في اختلاط الجنسين، الذي هو من جملة ما عُني به، و حث عليه في كتابه.

فهذه الأسطر المنقولة من كلامه تهدم كل ما في كتابه من تظاهر الاحتياط في رفع الحجاب، و الارتباط بنصوص الشرع الإسلامي في تقديره؛ فهو يبتغي اتخاذ الأوربيين <495> فيما اختاروا لنسائهم قدوة للمسلمين.

و إذا كان القارئ يقتدي بمؤلف (تحرير المرأة)، المقتدِي بالأوروبين، و يصدق رأيه في هذه المقدمات، التمهيدية،

فلا بد أن يقول تعقيبا لقوله: [هل يظن المصريون أن الأوربيين يتركون الحجاب، لو رأوا خيرا فيه؟

و هل يكشفون أظهر نسائهم إلى أردافهن، علاوة على مناكبهن، و نحورهن، و سحورهن، و سيقانهن، إلى أفخاذهن، ثم يخاصرونهن، و يراقصوهن أزواجاً أزواجاً في الحفلات الساهرة، لو لم يروا خيراً في تلك الكشوف، و المخاصرة، و المراقصة...؟

بل يقول: لو كان في الإسلام خير، لرآه الأوربيون الممتازون علينا بكمال العقل، و اكتشاف الحقائق، و اختاروه ديناً لهم.

و هذا دين قاسم أمين، الذي ادعى التمسك به، و التمشي معه في تحرير المرأة؛ و ما أغلظَ غشاوةَ الغفلة في أعين الذين قالوا تعنيفاً لما وصلت إليه حالة نسائنا الحاضرة، من الاستهتار، و خلع العذار مع الإزار: "لم يكن هذا ما قصد إليه قاسم أمين"؛ إن لم يتكذبوا في قولهم هذا.

أما ما أوصى به الرجل من التدريج في رفع الحجاب، و تعويد المرأة السفور بإعداد البنات في زمن الصبا إلى هذا التغير، و تعويدهن على الاستقلال، حتى يتأسس فيهن الاعتقاد بأن العفة ملكة في النفس، لا ثوب يختفي دونه الجسم....

فهذه الوصايا الواقية، إذا جُمعت مع اتخاذ الأوربيين، الذين اعترف لهم بأنهم أعقل منا و أرشد، قدوتنا، و أساتذتنا في معاشرة الرجال و النساء، و مجالستهما، ثم نُظر إلى احتواء مجالس المعاشرة الأوربية، التي تكون في النتيجة نماذج امتثال لنا بلا مراء، و لا جدال، مخاصرة النساء الأجانب، و مراقصتهن نصف عاريات، أو أكثر من النصف....

كما بدرت بوادرها اليوم، فدعوى العفة، و النزاهة في هذه المعاشرة تذوب و تتبخر مع ماء الحياء في وجوه الأزواج الراقصة، و وجوه الحضار المشاهدين، الذين لا ينقصهم بعولة تلك النساء، أو أقاربهن.

فتلك المجالس، و المحافل وضعتها أوربا المدنية الفاجرة، على أن تكون محافل تمهيد<496>، و تعويد للإباحة الغريزية البشرية، التي بمُزيِّناتِها، و مُغرياتها، و طريقها المعبدة الشيطانية، تتقدم الإباحة البهيمية، و تجعل ما يتظاهر به المتظاهرون من أحاديث المحافظة على العفة، و طهارة الأخلاق في طيات تلك المحافل، أكذب من حديث خرافة.

و قد انجلى من هذا البيان، المستند إلى تصريحات قاسم أمين؛ أمور:

<u>الأول:</u> أنا مقلدو أوروبا في السفور، و ما كنا مقلدي أمة في الحجاب، كما ادعى قاسم.

<u>و الثاني:</u> أن ما يظنه الغافلون، من أن قاسماً لم يرد هذا السفور الخليع، لا أساس له من الصحة.

<u>و الثالث:</u> أن قاسماً، و الأوربيين، الذين قدمهم لنا قدوةً، ليسوا بغافلين عن أن السفور، و ما يلابسه من الملامسات بين الجنسين، لا مناص من تطوره، و تأديه إلى هدم صرح العفة، و النزاهة...

بل إنهم يهدفون بتأسيس هذه الحياة المختلطة إلى التخلص من تلك المبادئ القديمة، التي باعدت بين الجنسين، و حالت دون استفادة كل منهما بالآخر، باسم الديانة، و الدين براء من هذه الحيلولة، كما نص قاسم فيما سبق على كون الدين براء من وضع الحجاب، و رفض السفور، و قد حكيناه فيما سبق...

و كان معنى كون الدين براء من وضع الحاجز بين الجنسين، أنه براء من التزام العفة، و النزاهة، لما عرفتم من وضوح الطريق بين السفور الخليع، و الحياة المختلطة، و بين انهيار صرح العفة و النزاهة.

و معنى المعاني، التي يعنيها أعداء الحجاب و العفة، و النزاهة من براءة الدين، لا يقام له،و لعقائده القديمة وزن عند أصحاب العقول الجديدة؛ فلهذا يراني القارئ على طول هذا الكتاب، الذي انتهيت هنا من أول أجزائه، بعون الله، و توفيقه؛ أبذل كل جهد في تثبيت عقائد الإسلام، و أعدَّه أهم أسس الإصلاح، و أقدمها، و لله الأمر و الحمد من قبل و من بعد.

******* آخر الجزء الأول *******

فهرس:

الإشارة إلى بعض المباحث المهمة التي ينطوي عليها هذا الجزء من الكتاب (الجزء الأول):

علي الزيني بك، عميد كلية التجارة بجامعة مصر في كتابه أصول القانون التجاري...	
و انظر قول الأستاذ عنان أيضاً: إن مصر الإسلامية لم تعرف رغم ما توالى عليها في عصور الاضطراب و الفتنة من الخطوب و المحن نكبة أعظم من الفتح العثماني، و لم تعرف حكماً أقسى، و أمر من حكم الدولة العثمانية الذاهبة...	83
ثم اقرأ قول عبد الرحمن عزام باشا، أمين الجامعة العربية: [لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا، و كلها سجون أبدية، يتوالد فيها الفلاحون للعبودية، فكسروا أغلال السجون، و أقاموا مقامها صرح الحرية الفردية، و تعلمت أوروبا الشرقية على يد محرريها سيادة القانون على الأحساب، و الأنساب، و لم يكن فوز آل عثمان مستمدة من سيف و شجاعة، بل ما هو أعظم منهما: احترام الحق، و الخضوع لسلطان القانون، و الشرع]....	86
و قول صديقي المرحوم شكيب أرسلان في (حاضر العالم الإسلامي): [احترام المعاهدات، و العمل بموجب الكلمة المعطاة، الذي يدور تاريخ العثمانيين كله عليه، ناشئ من كونهم مسلمين حقيقيين]....	88
و قوله في ديوانه، يخاطب الأتراك العثمانيين: أحبكم حب من يدري مواقفكم * في خدمة الدين و الإسلام من حقب و كل غر يماري في فضائلكم * لا يعرف الحشف البالي من الرطب مجدي بعثمان حامي ملتي، و أنا * لم أنس قحطان أصلي في الورى، و أبي	
و آخر رد على الأستاذ عنان، تولاه كتاب (تاريخ أوروبا الحديثة)، تأليف رتشاردلوج، و تعريب محمد عبد الله عنان، حيث قال: [و سر نجاح الترك ترجع إلى استبسالهم في تضحية نفوسهم، و هي عاطفة الجهاد، التي غرسها الإسلام في قلوبهم، و كذا يرجع بالأخص إلى حسن إدارتهم الدينية، و الحربية]....	90
دامت عزة الإسلام إلى أن أخذ يطرأ الضعف على صميم الدولة العثمانية، فعند ذلك بدأ الإسلام يضعف يوماً بعد يوم، و يسير جنباً لجنب مع ضعف شوكتها...	90
تجريد الإسلام من قوة السيف، كما يسعى إليه كثير من حملة العلم، و القلم بمصر، يصير كتجريد الإسلام من غزوة بدر الكبرى...	90
و من غريب المصادفات الهامة، أن اكتشاف الآلات الجديدة الحربية، الذي كان مبدأ قوة الدول الغربية، و ضعف دولة الإسلام المجاهدة في سبيله؛ لا يختلف زمانهما عن زمان رواج العلم الحديث في الغرب، ذلك العلم الذي يدور مع الحس و التجربة، و لا يعتد بحجة العقل، على الرغم من أنها كانت مستند أساس الدين، طيلة قرون الإسلام، التي راج علم الكلام فيها، و احتفظ برواجه مدة احتفاظ الأمم الإسلامية برواج الدين فيما بينهم....	90-91
و زادت في إضعاف المسلمين، و إضعاف الرابطة الدينية فيما بينهم، بل و في ضعف الإسلام في قلوبهم، بقدر ما أضعف السلاح الحديث، و العلم الحديث، من كل ذلك، فتنةُ النزعات القومية الداخلة فيما بين الأمم الإسلامية تقليداً منهم لأمم الغرب و إغراء من تلك الأمم بينهم بواسطة تلك النزعات... فقد قرأت كتاب (حاضر العالم الإسلامي)، من ترجمته العربية، فأحسست منه أن مؤلفه الأمريكي كتبه لتنفير المسلمين العرب من المسلمين الترك؛ و قد أدخل الإنجليز في برامج المدارس المصرية،	91

الدعاية ضد عهد الدولة العثمانية بمصر...	
المسلمون اليوم أقوام مختلفة، أكثر من أنهم مسلمون؛ فلا يمنع إسلام قوم أن يناوئهم، و يتجرأ عليهم مسلمون من قوم آخر... فهذا محمد عبد الله عنان العربي، الذي ينكر إفادة الإسلام من تركيا يوم كانت دولة شامخة، و يرميها بأشد أنواع الهمجية، و التخريب...	91
و يقوم شيخ عربي نجدي قصيمي، فينكر إفادة الدنيا من المسلمين أجمعين في جميع القرون، و يرميهم بما رمى الأستاذ عنان به الترك، حتى قال الأستاذ سيد قطب: [و ليس المسلمون هم الأتراك، فأجد عذراً، و لكنهم أصحاب محمد بن عبد الله، و عمر بن الخطاب، بل القرآن الذي أباح التخريب، و التمثيل]....	91
و يقوم شاعر عربي فيقول: أليس قريشكم قتلت حسينا * و قام على خلافتكم يزيد	91
أصبحت لغة العرب بفضل القرآن، و اعتناء علماء الإسلام بشأنها من كل أمة، بذلك الفضل، و قد وضعوا علم النحو الذي لا مثيل له في أي لغة الدنيا، أفصح جميع اللغات، و أفضلها....	92
و في الأيام الأخيرة أخذت نغمة جنونية تسمع في مصر من الكتاب المستصعبين لعلم النحو العربي، داعية إلى إلغاء هذا العلم، أو تعديله، على وفق أهواء الجاهلين بالنحو....	92
و من عجائب مصر، المضحكات، المبكيات، أن واحداً من أكابر أعضاء المجمع اللغوي، اقترح استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية، و حاول سد الفراغ الحاصل من وجود حروف في لغة العرب لا مقابل لها في الحروف اللاتينية، بوضع حروف جديدة، تُضحك الثكلى، نصفها لاتيني، و نصفها عربي، فأفسد الحروب العربية و اللاتينية معا...	93
قتلة سيدنا حسين من المسلمين العرب، و فيهم عمرو بن سعد بن أبي وقاص، من العشرة المبشرين بالجنة... رضي قتله، و وضع جسده من البطن و الظهر تحت أقدام الخيل، في مساومة بينه و بين عبيد الله بن زياد، ابن أبيه، والي الكوفة يوليه قيادة جيش القتلة، و بعده أمارة رقة فيقبله الرجل لا بُغضاً لحسين، و لكن حبا بالمنصب...	93
و الجواب على الشيخ القصيمي الطاعن في المسلمين، و كتابهم، أن الآية نزلت في رهط من اليهود نقضوا العهد، و كان رسول الله صالحهم على أن لا يكونوا له، و لا عليه...؛ و قد سبق في تركيا، و أنا لم أغادر البلاد، أن كتب الدكتور عبد الله جودت، صاحب (جريدة الاجتهاد)، المعروف بنزعته اللادينية، مقالة عاب فيها على النبي ﷺ ما فعله بيهود بني قريظة.. و كتبت أنا في مقالة الرد عليه أنهم نقضوا العهد، في أحرج وقت على المسلمين و انضموا إلى أعضائهم...، و نالت مقالتي شكراً من السلطان المغفور له، وحيد الدين...	95-97
ما وقع فيه معالي مؤلف (حياة محمد)، من خطأ التوجيه لانتهاء حرب الأحزاب بسلام على المسلمين....	96-97
استمر تقهقر الدولة التي تولت الجهاد في سبيل الإسلام، من استمرار تألب أعدائه عليها، و استمر معه تقهقر مكان العلم القديم، الذي تولى قرونا طويلة المحاجة لانتصار عقائد الإسلام، أمام العلم الحديث، المبني على الحس و التجربة.. استمر تقهقر المسلمين من الناحيتين، حتى إنه لما ختمت الدولة العثمانية أنفاسها، و انسلخت الدولة المحتلة	97-98